

نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام

الجزء الثاني
نشأة الشيعة وتطوره

تأليف
دكتور علي ساجي النشار

الطبعة الثامنة



دار المعارف

الإهداء

إلى علامة العراق الشاب
الذي أشرق في سماء العالم العربي : بعلمه وخلقه
إلى الأستاذ الدكتور كامل مصطفى الشبيبي
أهدى كتابي هذا

دكتور على سامي النشار

٢٨ شعبان ١٣٨٨ .

١٩ نوفمبر ١٩٦٨ .

فهرس الموضوعات

صفحة	
٣	الإهداء.
١١	مقدمة الطبعة السابعة.
١٣	مقدمة الطبعة الرابعة.
١٥	مقدمة الطبعة الثالثة.
١٧	مقدمة الطبعة الثانية.

الباب الأول

٢١	مقدمات التشيع
٢٣	الفصل الأول : النص الإلهي والإمام.
٣٠	الفصل الثاني : نشأة الشيعة.
٣٦	الفصل الثالث : قداسة علي عند الشيعة الأوائل - السبئية.
٤٢	الفصل الرابع : صورة علي عند أهل السنة والجماعة والشيعة المعتدلة.
٤٦	الفصل الخامس : المختارية والكيسانية - مقدمات الشيعة الحنفية.
٥٤	الفصل السادس : الشيعة الحنفية - الإمام محمد بن الحنفية.
٦٠	الفصل السابع : الشيعة الأبو هاشمية - الإمام أبو هاشم بن محمد بن الحنفية.

الباب الثاني

٦٥	الغلاة الأولون
٦٩	الفصل الأول : غلاة الكيسانية الأبي هاشمية.
٨٢	الفصل الثاني : غلاة الإماميين.
٩٤	الفصل الثالث : غلاة الجعفرين.

صفحة

الباب الثالث

١٠١	الإمامة الروحية
١٠٣	الفصل الأول : علي زين العابدين
١١٣	الفصل الثاني : الإمام محمد الباقر
١٢١	الفصل الثالث : الزيدية - زين بن علي
١٣٨	الفصل الرابع : حركات الزيدية السياسية
١٤٧	الفصل الخامس : تطور العقائد الزيدية الكلامية

الباب الرابع

١٥٩	الشيعية الإمامية
١٦١	الفصل الأول : الإمام جعفر الصادق
١٦٨	الفصل الثاني : مجسمة الشيعة الإمامية
١٧٣	فلسفة هشام بن الحكم
١٧٣	١ - مشكلة الألوهية
١٧٣	(أ) مشكلة الذات الله جسم
١٧٩	(ب) صفات الله
١٨٥	٢ - الوجود الطبيعي
١٩٢	٣ - العالم الإنساني
١٩٢	(أ) الإنسان
١٩٣	(ب) الجبرية والحرية
١٩٤	(ج) عصمة الأنبياء والأئمة
١٩٨	الفصل الثالث : مدرسة هشام بن الحكم

الباب الخامس

٢٠٩	الشيعة الاثنا عشرية
٢١١	الفصل الأول : الأئمة الستة
٢١٨	الفصل الثاني : عقائد الشيعة الاثني عشرية

الباب السادس

تطور الغلو

٢٢٩	الفصل الأول :	غلاة الجعفرية الخطائية
٢٣١	الفصل الثاني :	ظهور الفرق الميمية والعينية والسينية .
٢٤٦	الفصل الثالث :	الغلو العباسي .
٢٥٥		

الباب السابع

الإسماعيلية

٢٧١	الفصل الأول :	الإسماعيلية الأولى
٢٧٣	الفصل الثاني :	الإسماعيلية الباطنية
٢٨٤	الفصل الثالث :	الإسماعيلية في اليمن .
٣٠٨	الفصل الرابع :	القرامطة أو تطور الكيسانية .
٣١٧	الفصل الخامس :	أحمد الكيال . فيلسوف الإسماعيلية الكبير
٣٤٨	الفصل السادس :	النظريات الإسماعيلية في الإمامة
٣٥٦	الفصل السابع :	دور الظهور .
٣٦٧	الفصل الثامن :	الفلسفة الإسماعيلية في فارس
٣٧٧	تعليقات نقدية على مصادر الكتاب .	
٣٨٨	فهرست الأعلام	
٣٩٧		

قائمة الأئمة الإسماعيلية

- ١ - علي بن أبي طالب
- ٢ - الحسن
- ٣ - الحسين
- ٤ - علي زين العابدين
- ٥ - محمد الباقر
- ٦ - جعفر الصادق
- ٧ - إسماعيل بن جعفر (المتوفى عام ١٤٥ هـ)
أو محمد بن إسماعيل (المتوفى عام ١٨٣ هـ)

الأئمة المستورون

- ١ - محمد بن إسماعيل بن جعفر
- ٢ - عبد الله الرضى بن محمد بن إسماعيل
- ٣ - أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل
- ٤ - الحسين بن أحمد بن عبد الله بن إسماعيل
- ٥ - علي بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن إسماعيل
- ٦ - سعيد الخير (عبيد الله المهدي القداحي)

قائمة الأئمة الاثنى عشرية

- ١ - علي بن أبي طالب (المتوفى عام ٤٠ هـ)
- ٢ - الحسن (المتوفى عام ٥٠ هـ)
- ٣ - الحسين (المتوفى عام ٦١ هـ)
- ٤ - علي زين العابدين (المتوفى عام ٩٤ أو ٩٥ هـ)
- ٥ - محمد الباقر (المتوفى عام ١١٣ هـ)
- ٦ - جعفر الصادق (المتوفى عام ١٤٨ هـ)
- ٧ - موسى الكاظم (المتوفى عام ١٨٣ هـ)
- ٨ - علي الرضا (المتوفى عام ٢٠٣ هـ)
- ٩ - محمد الجواد (المتوفى عام ٢١٩ هـ)
- ١٠ - علي الهادي (المتوفى عام ٢٥٤ هـ)
- ١١ - الحسن العسكري (المتوفى عام ٢٦٠ هـ)
- ١٢ - الإمام محمد - الإمام المنتظر (المولود عام ٢٥٥ أو ٢٥٦ هـ) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة السابعة

أقدم للقارئ الطبعة السابعة من الجزء الثاني من كتابي نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام - نشأة التشيع وتطوره - ولقد كان عملي في هذه الطبعة من أدق الأعمال .
لقد رأيت أن أقف موقف الناقد من منهج البحث في الكتاب أولاً . ثم من مادته .
أما عن المنهج ، فإننا جميعاً - الباحثون في تاريخ الفلسفة - إنما نستخدم المناهج التجريبية - مطبقة في نطاق العلوم الإنسانية . وهو ما يسمى في علم المناهج - بالمنهج الاستردادي . نقوم بعملية التحليل والتركيب - ننظر في الوثائق ، ونطبق عليها طرق التحقيق ، من نقد خارجي ونقد داخلي ، ثم نقوم بتحليلها ، وبعد ذلك - نضعها في نسق مذهبي تركيبي . لا أشك أن هذا منهج معظم مؤرخي الفلسفة . ولكن يأتي الاختلاف بيننا في التفسير والرؤى . وقد ظهرت رؤى جديدة وتفسيرات متعددة للفلسفة عامة وللفلسفة الإسلامية خاصة . ومن العجيب أن هذه التفسيرات سميت لدى بعض الكتاب بمنهج ، بينما هي مجرد رؤية أو تفسير كما قلت وأهم هذه التفسيرات الحديثة هي التفسير المادى التاريخي - والتفسير البنيوي والتفسير الفيلولوجي والتفسير الظواهري . علاوة على ما كان من قبل - من تفسيرات - التفسير الغيبي واللاهوتي ، والتفسير التاريخي البحث . . . إلخ من تفسيرات قديمة . وقد كنا نعانى نحن من قبل تفسيرات المستشرقين للفلسفة الإسلامية ، وكانت في معظمها تفسيرات ورؤى ذاتية ، ليس فيها على الإطلاق ، ما نسميه بالحياة العلمية . أو بمعنى أدق بالموضوعية .
ولقد حاولت - فيما كتبت - عن الفلسفة الإسلامية - أن أكتب التاريخ التزيه ، أن أحقق إلى أكبر حد - الموضوعية العلمية ، أنا أعلم تماماً أن الموضوعية المطلقة عسيرة التحقيق . ولكني جهدت جهداً كبيراً أن أقرب خطوات منها ويتبين - واضحاً - من خلال هذا الجزء من سلسلة نشأة الفكر - إلى أي حد خلصت الشيعة من إزامات خصومهم ، لكي يتبين لنا وجه المذهب الشيعي خالصاً .
ويتبين لي - أنه كان هناك دائماً شيعة مقتصدة ، وشيعة غالية ، ثم انتهت إلى مذهب متوسط ، مقتصد في مجموعه ، ولكن تعلق به شوائب من الغلو . ولكن ليس هذا ما أريد الخوض فيه في هذه المقدمة ، ما أريد توضيحه هو أن لا نقتصر في بحثنا لنشأة الفكر الفلسفي في الإسلام وتطوره على تفسير واحد .

فلم ينشأ الفكر الفلسفي في الإسلام عن صراع طبقات فقط ، كما لم تكن هناك عوامل بنيوية داخلية وخارجية فحسب ، ولا نستطيع أن نقول إن تفسيراً فيلولوجياً وحده يوضح لنا حقيقة التشيع مثلاً - ولا يمكننا أن ندعى أن العامل السياسي كان وحده الدافع إلى قيام الشيعة أو المعتزلة . أو أن نظرة ظواهرية نستطيع الإحاطة الشاملة بنشأة الشيعة وتطورها .

إن النتيجة الحاسمة التي أريد أن أصل إليها : أن لكل مذهب فلسفي ، جوانبه المتعددة . وأساليبه الخاصة والعامة . إن المذهب الفلسفي قد يظهر ذاتياً ، وقد ينبثق من باطن الجماعة ، ويعبر عنها . ويمكن تفسير جوانبه أيضاً تفسيراً دينياً أو سياسياً . وقد يأتي من بنية المجتمع ، داخلية أو خارجية . وقد يأتي من تفسير فيلولوجي . قد يكون نتيجة لكل هذه العلل مجتمعة . ولكن من الخطأ الكبير كما قلت أن نقصر التفسير على جانب واحد . ونسجن أنفسنا في رؤية واحدة .

كل هذا جعلني أتحقق عن يقين : أن النظرة الموضوعية هي الطريق الوحيد لمعرفة تاريخ الفلسفة معرفة واضحة .

هذا عن المنهج ، أما عن مادة الكتاب ، فقد راجعت الفصول المختلفة للكتاب . وغيّرت كثيراً من الألفاظ والعبارات .

وأرجو من الله التوفيق .

دكتور : علي سامي النشار

الرباط في : ٥ شعبان عام ١٣٩٧ .
الموافق : ٢٣ يولية عام ١٩٧٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الرابعة

رأيت أن أقدم في هذه الطبعة الرابعة بعض الزيادات والإضافات التي توصلت إليها عن التاريخ الباطني للشيعة الغلاة . وقد رأيت أن للقبالا اليهودية التأثير الكبير في عقائد الشيعة الباطنية الغالية ، وفي الحق إنه من الواجب على الباحثين أن يتجهوا نحو هذه الناحية الخطيرة من تاريخ الفكر الإسلامي لكي يكتشفوا خفاياها .

إن الأفكار الفلسفية للشيعة الاثني عشرية هي في مجموعها إسلامية بحتة ، ولكننا إذا تجاوزنا هذه الطائفة من الطوائف الشيعية ، لوجدنا مسالك متعددة للعناصر الأجنبية الدخيلة على الفكر الإسلامي . وكان من أخطر هذه العناصر على الفكر الشيعي بل على الفكر الإسلامي عامة هي القبالة اليهودية .

ولا شك أن القبالة اليهودية قد عاشت في الشام ، كما عاشت فيما بين النهرين . ولكن كان لها موطن خفي في اليمن . وفي اليمن ... كانت اليهودية مترسخة .. ومن اليمن جاءت عناصر غريبة كثيرة . جاء الغلو الشيعي من اليمن متغلفاً بعناصر يهودية قبالية ، ومن اليمن أيضاً جاءت علوم الصنعة والنجوم . ومن اليمن جاءت أسطورة عبد الله بن سبأ . وفي الشام وفي المعسكر المضاد عاش كعب الأحبار . ينبغي أن نتوقف كثيراً ... وقفات متعددة ، وأن نلجأ إلى النقد الباطني للنصوص كي نرسم الصورة الكاملة للعناصر الأجنبية الوافدة ، والتي وجدت لها مرعى خصيباً في أفكار الغلاة .

ولست أدعى أنني قت بهذا في هذه الطبعة الجديدة . ولكنني وجهت الأبصار إليها ، وسأحاول إن شاء الله استكشافها في أبحاث أخرى .

كما أنه لا بد لنا أيضاً أن نستكشف العلوم السرية من ناحية العلوم الطبيعية والكيميائية والفلكية من ناحية أخرى ، وصلة هذه العلوم بالمذهب الشيعي . ولقد تهاقت أسطورة تلمذة جابر بن حيان الكيميائي الشيعي على إمام الشيعة جعفر الصادق . ولكن إذا تفحصنا النصوص لوجدنا أن أباه حيان البطار كان شيعياً ولكن من شيعة مخالفة وهي الشيعة العباسية .

كما ينبغي أن نستكشف أيضاً ، صلة التصوف بالتشيع . وكان للعلامة العراقي الممتاز الدكتور كامل مصطفى الشبي بأبحاثه الرائعة ، فضل توضيح هذه الصلات ، غير أنه لا بد أن يسير الباحثون في أثره

وهديه في هذا الطريق حتى نوضح الصورة جلية من جميع نواحيها وبدون إغراق وبدون غلو .
ثم أخيراً - ينبغي أن نبحت الآثار الاجتماعية والفولكلور الذي تركه التشيع في أعماق الحياة
الإسلامية - سنية كانت أو شيعية - وما زالت هذه الآثار حية حتى الآن في حياتنا المعاصرة .
والله ولي التوفيق .

دكتور على سامي النشار

أستاذ كرسى الفلسفة الإسلامية

كلية الآداب بجامعة الإسكندرية

٢٨ شعبان ١٣٨٨ .

١٩ نوفمبر ١٩٦٨ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثالثة

كان نفاذ الطبعة الثانية من هذا الكتاب في مدة وجيزة دليلاً على تلهف القارئ على تفهم نشأة فلسفة التشيع وتطور هذه الفلسفة خلال العصور المتعاقبة وكانت محاولتي - فيما أعلم - الأولى من نوعها ، فقد عني الباحثون من قبل بتاريخ الشيعة السياسي ، كما كتبت أبحاث متعددة عن موضوعات متناثرة من فلسفة الشيعة . أما أنا فقد حاولت أن أضبع عقائد الشيعة ونظرياتهم المتعددة في نسق فلسفي متكامل . وأن أبين في كل فصل من فصول الكتاب نشأة النظرية . ثم تكاملها في إطارها الفلسفي ، ثم تطورها .

وعدت إلى الكتاب توطئة لطبعته الثالثة هذه . وقد وضحت لي المشكلات الشيعية الفلسفية وضوحاً تاماً . وأمدتني وثائق - لم تكن قد وصلت إلى يدي وأنا أكتب الكتاب في صورته السابقة - بمعلومات أكثر وثوقاً ودقة فكتبت الكتاب في صورة جديدة ، وإن اتفقت الطبعتان في بعض المسائل . وقد تبينت لي ظاهرة لا تخلف فيها كل عصور التشيع وهي ظهور نظرية معتدلة مقتصدة ، ونظرية غالية مسرفة ، ثم يعقب كلا من هذه وتلك نظرية تأخذ عناصر من هذه وعناصر من تلك . ولكل نظرية أتباعها ورجالها . وإن كان الإطار العام للتشيع واحداً ، إلا أن التشيع يختلف ، وتباين فرقه أكبر تباين ، وقد وضحت توضيحاً موضوعياً الاختلاف التام بين عقائد الإمامية وهي : الفرقة التي أنشأها جعفر الصادق وتلامذته ، وعقائد الاثنى عشرية وهي : الفرقة التي أنشأها المجتهدون من علماء الشيعة بعد غيبة الإمام الثاني عشر . فلكل فرقة من هاتين الفرقتين فلسفتها الخاصة بها التي تميزها تمييزاً كاملاً عن فلسفة الأخرى . كما أن ثمة خلافاً صارخاً بين فلسفة الإسماعيلية الأولى الساذجة وبين فلسفة الغلاة من الخطائية ، تجتمع الفلسفتان في فلسفة واحدة في دور الستر . وتظهر الإسماعيلية مقتصدة في دور الظهور ، ولكن تبقى النظرية الغالية في الخفاء ، ثم تعلن نفسها في عهد الحاكم ، وينسق فيلسوف الإسماعيلية المتأخر حميد الكرماني النظريتين معاً ، الغالية والمقتصدة .

وقد لاحظت في عجب تجاور الغنوص والاعتزال العقلي في المذهب الشيعي عامة ، على ما بين الاثنين من خلاف عميق . أثر الاعتزال في الأبي هاشمية - الكيسانية ، كما أثر في الزيدية . وحارب الإمام جعفر الصادق وتلامذته الكبار من أمثال هشام بن الحكم وهشام بن سالم ومؤمن الطاق

وغيرهم ، الاعتزال أكبر محاربة ، ولكن ما لبث الاثنا عشرية أن احتضنت جوهر المذهب المعتزلى كاملا ، وسيطر الاعتزال على عقائد الإسماعيلية - غلاة ومعتدلين .
 إننى حاولت - كما قلت - أن أضع النظرية العامة الفلسفية للشيعة ، وأن أتنبعها حيثما كانت .
 ولعلى أكون قد وفقت فى وضعها فى النسق الفلسفى ، وأن يكون كتابى هذا حافزاً للعلماء الشبان بالجامعات العربية على القيام بدراسات أوسع لفلسفة الشيعة من حيث هى فلسفة .
 وأسأل الله التوفيق فى ظواهر أعمالنا وبواطنها .

دكتور على سامى النشار

أستاذ كرسى الفلسفة الإسلامية
 بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الرابع عشر من جمادى الأولى عام ١٣٨٥ هـ .
 العاشر من سبتمبر عام ١٩٦٥ م .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

هأنذا أقدم للباحثين في الفلسفة الإسلامية الجزء الثاني من كتابي نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام . وقد حاولت في الجزء الأول منه أن أعرض لنشأة الفلسفة الإسلامية المعبرة عن روح إسلامي خالص لدى دوائر أهل السنة والجماعة والمعتزلة ، وفي هذا الجزء الثاني محاولة لتفسير هذه النشأة لدى الشيعة . ولقد صدر أهل السنة والجماعة والمعتزلة عن الإسلام أو تكلموا باسمه . وكذلك فعل الشيعة المعتدلون . غير أن الموقف الفكري يختلف هنا وهناك . ولقد شغل أهل السنة والجماعة من ناحية معتزلة من ناحية أخرى بالموضوعات العليا للفكر الإنساني ، شغلوا بالموضوع ، من حيث هو موضوع ، بينما شغل الشيعة « بالذات » و « بالشخص » فركز الدائرة لديهم « شخص أعلى » أضاف إليه الشيعة إن حقا وإن باطلا ، كل علم ، وقدحوا فيه كل حقيقة . وبينما أدرك المعتدلون منهم حقيقة ، وصوروه في غالب الأمر كما صورته مجموعة أهل السنة - أي الخلف - في صورته الحقيقية ، أضنى عليه الآخرون - أي الغلاة منهم ، كما أضفوا على أولاده من بعده كل ملامح الغنوص ، وصبغوه كما صبغوا أولاده المتتابعين بكل العناصر الفلسفية القديمة . واعتبروه وأولاده عناصر كونية - كوزمولوجية - وعناصر معرفة - إبستمولوجية - وأثر هذا الغلو حتى في المعتدلين ، ودخل في أعماق المذهب الاثني عشري ، كما فاض بقوة في دوائر الإسماعيلية .

ولقد حاول أهل السنة والجماعة الأوائل ، أن يستندوا على النقل والعقل في فكرهم الفلسفي ، وحاول أهل الاعتزال أن يقيموا فلسفتهم على العقل والنقل .

أما الشيعة فقد عرفوا فقط في نشأتهم الأولى - النقل فقط ، والنقل بطريق خاص ، وعن مجموعة خاصة من أئمة أهل البيت وبعض حواريني محمد ﷺ وأتباع ابن عمه علي بن أبي طالب . ولذلك تميز فكر الأولين - أهل سنة ومعتزلة - بمسحة عقلية ظاهرة بينما تميز فكر الآخرين - أهل التشيع الأول ، بعاطفة تنجس نحو القلب وتحرك آفاقاً شفافاً في النفس الإنسانية .

وتميز المذهب الشيعي بأنه أثار الحب والكراهة ، وأعلن التولي والبراءة . أما أهل السنة والجماعة فقد أعلنوا الحب ، وتولوا الجميع . وتفرق أهل الاعتزال مذبذبين بين أولئك وهؤلاء .

وكانت الفكرة السائدة أن أهل السنة والمعتزلة وحدهم قاموا بالدفاع عن فلسفة الإسلام المعبرة عن

أصالته تجاه أهل الفلسفات الأخرى من مسيحيين ويهود وثنية وفلاسفة ، بينما كان عمل الشيعة أن تهاجم فقط المجموعة الإسلامية ، وأن تناقض آرائها . وهذا خطأ كبير . كان علماء الشيعة المعتدلة في عصرهم الأول ، كما كانوا في عصرهم الأخير- مشاعل مفسرة لروح الإسلام تجاه أعدائه ، فوقفوا بالمصداق للثبوت والمسيحية واليهودية والفلاسفة وغلاة الشيعة أنفسهم وشاركوا علماء أهل السنة والمعتزلة في إقامة البناء العقائدي الإسلامي متكاملًا متناسقًا . ومن الثابت تاريخيًا أن مدرسة جعفر الصادق - وعالمها الكبير هشام بن الحكم - قد قامت بالدور الأكبر في هذا السبيل .

ولكن كان خطأ الشيعة الأكبر أنها تعلقت «بالذات» و«بذات واحدة» ، وكان لهذه «الذات الواحدة» عند مخالفيهم أهل السنة قداسة كبرى ، ولكن أهل السنة رأوا أن ثمة قداسة أكبر من قداسة هذا الإنسان الواحد ، وهي الجماعة ، الجماعة لا تجتمع على ضلالة ، بينما أعلن أهل الشيعة أن الجماعة قد تخطئ وقد تصيب .

وأن الرأي قد يخطئ وقد يصيب ، ولكن «الإنسان» و«الفرد» ذا السلطة لن يخطئ أبدًا ، فأضافوا لهذا الإنسان الفرد العصمة اللامتناهية .

وهنا دخلت الأسطورة ، والأسطورة تتبع «الفرد» دائمًا ، إنها تتبع صاحب المذهب - كما هو معلوم ، ولا تتبع المذهب أول الأمر ، ثم تصبح بعد جزءًا من المذهب . وهذا ما حدث في أغلب فرق الشيعة ، أن حاكت الأسطورة - والأسطورة تتنوع - شباكها حول ابن عم الرسول .

وقد كان علي بن أبي طالب خليقًا بكل محبة وإجلال وبكل صورة للهيام والعشق في قلوب المسلمين ، وقد كان علي بن أبي طالب أنشودة الإسلام الكبرى - منذ مطلع الإسلام - في جبال فاران ، حتى مصرعه العنيف في الكوفة في عام نحس أغبر ، في عام ظلام حالك مد لهم ، كتب السواد والفرقة على المسلمين لأحقاب طوال تعاقبت بعده .

كان الفتي الصغير أول أصحاب الرسول الأعظم ، وأول حواريه ، لقد مد يده الصغيرة الجميلة في موالاة حرة أبيه ، معاهدًا محمد بن عبد الله على تفديته بالنفس ، وبيعته بالموت ، ومشيخة بني هاشم ، والشيخ الكبير أبو طالب بينهم ، ينظرون .

وتتابعت الأحداث في مكة ، والحواري الصغير يخطو للشباب ، وحين هاجر الرسول وصاحبه العظيم أبو بكر الصديق ، كان الحواري الصغير - صامتًا - في فراش الرسول ، وهو يعلم أن سيوف شياطين قریش ستنوشه بعد قليل ، ولكنه لم يكن يأبه ولم يكن يرتاع ، بل كانت روحه في مسرى الرسول الأكبر وصاحبه ، وبعد أيام قلائل يستعد الفتي الصغير لهجرته إلى الله ورسوله - غير هياج قریشاً ولا أعداء الرسول في الطريق الشاق إلى يثرب الطيبة . ويحمل معه وديعة الرسول الكبرى في

مكة-فاطمة الزهراء ، زهرة الدنيا البانعة ، وروح الحياة المتفتحة ، والتي انبثقت منها دوحة محمد الوارفة . كانت هي وعلى يسريان في صحراء العرب الكبرى ، يَخْتَرِقَانِ الوهاد والنجاد والسهول ، والرسول الأعظم وأصحابه في المدينة في صلاة ابتهاجية أن يبعث الله عليهما سكينته وسلامه . وهاهما على وفاطمة في المدينة ، في مهجر النبوة آخر الأمر ، ويرد على ودیعة الرسول ، ثم تكون له

بعد . ويعيش على في رحاب النبوة . . . وأخيراً يموت صريعاً على يد خارجي .

تلك حقيقة على ، آمن بها أهل السنة ، كما آمن بها الشيعة ، ولكن الشيعة - كما قلت - آمنت به وحده ، وآمن به أهل السنة . كما آمنوا بالصالحين القديمين الشيخين أبي بكر وعمر وتولوها ؛ ولكي تكبر الصورة ، أبدعت الأسطورة . ولو عاد الأمر - بعد على إلى المسلمين الخالص . لكي يحكموا المسلمين ، وحرم منه ابنا فاطمة الزهراء ، لما تضخمتم المسائل . وكبر الحب وعظم ، وكبرت السخيمة وعظمت .

ولكن الأمر عاد إلى معاوية بن أبي سفيان . ولم يكن المسلمون بعد قد تناسوا أباه هذا الغنوصي القائم ، هذا الثنوي المجوسي الذي لم يؤمن أبداً . وسرعان ما أطلقوا على معاوية الطليق ابن الطليق ، والثني ابن الثني . ومهما قيل في معاوية ومهما حاول علماء المذهب السلفي المتأخر . وبعض أهل السنة . من وضعه في نسق صحابة رسول الله . فإن الرجل لم يؤمن أبداً بالإسلام ، ولقد كان يطلق نفثاته على الإسلام كثيراً ، ولكنه لم يكن ليستطيع أكثر من هذا . وبدأ أبناء فاطمة يكتبون بدماهم أكبر الملاحم .

ومات الحسن مسموماً ، ثم معاوية وقتل يزيد الحسين بن علي بن فاطمة مقتلة لم يعرف الزمان لها مثيلاً ، وتولى آل مروان أعناق المسلمين بالسيف ، وهم فرع آخر من أمية ، أكثر ضراوة وأشد قساة . وقتل زيد بن علي في ملحمة أخرى قاسية وعنيفة ، وتتابعت الملاحم الواحدة بعد الأخرى . والمذهب الشيعي يتشعب ويتكثر ويتضخم . ويتولى العباسيون الحكم ، ويذيقون أبناء فاطمة أشد مما أذاقه إياهم الأمويون . ويجرعونهم كأس الدل والموت أكثر مما جرعهم الآخرون .

والجامع الشيعية تقاوم وتقاوم وتنتشر وتنتشر ، آخذة صوراً متعددة ، فأحياناً هي شيعة مقتصدة معتدلة ، وأحياناً هي مذهب كلامي بحث . وأحياناً أخرى هي مذهب غنوصي فلسفي ؛ وأحياناً رابعة هي تصوف وزهد . وأحياناً خامسة هي مذهب باطني مترندق ، وأحياناً سادسة ، هي مذهب باطني وظاهري .

ولقد عاشت الشيعة حتى الآن في التاريخ ، ومازال في العالم الإسلامي الملايين من الشيعة . اثني عشرية وإسماعيلية وزيدية ثم فرق الغلاة المنتشرة في شمال العراق وسوريا ولبنان وبعض أطراف الجزيرة العربية ثم الهند وباكستان . وأكبر فرقها المعاصرة الاثني عشرية ، وهي فرقة إسلامية بحتة ، وهي لا تمثل

أبداً المجتمع المغلق الذى تمثله فرق الشيعة الأخرى المعاصرة كالإسماعيلية أو العلوية أو الدرود أو النصيرية . وإن كانت تحيا فى قلق وتردد ، ويتشرب فى أوساطها أساطير وفولكلور ينأى بها أحياناً عن السير متعاونة مع الخلف - جمهور المسلمين الكبير - فى الموكب الإسلامى العظيم .

وأحب أن أقول إنه لا تكاد تختلف الاثنى عشرية المعاصرة فى عقائدها عن عقائد الخلف من أهل السنة ، ومذهب الخلف هو عقيدة الملايين من جمهور أهل السنة ، وأتمنى ألا تشغل « المشكلة التاريخية » مشكلة موالاة الإمام والبراءة من أعدائه عقول مجتهدى ومفكرى الاثنى عشرية ، وأن يعمل هؤلاء المجتهدون والمفكرون من الشيعة على تعميق النظرية الروحية الشيعية - محبة آل البيت وعتره الرسول التى تنبثق فى أحماق هذا المذهب وتصبغه بصبغتها .

وهذا الكتاب - محاولة لتأريخ ظهور العقائد الشيعية ، مبيناً ما فيها من فلسفة وكلام ، واضعاً كل عقيدة فى إطارها ، مظهراً أصالته أو مصدره الإسلامى أو غير الإسلامى .

ولقد ناقشت كثيراً من موضوعات هذا الكتاب مع صديقى الأستاذ الدكتور محمود قاسم عميد كلية دار العلوم وأستاذ الفلسفة الإسلامية بها . وقد كان له فضل توجيه نظرى إلى الغنوصيات الأوائل فى الجزيرة العربية ، ولقد تبنى لى غنوصية مسيلمة المنتهى الكذاب ؛ كما ثبت لى غنوصية أبى سفيان . كما أنه وجه نظرى أيضاً إلى فكرة « تبادل الأسلحة » وهى فكرة صائبة إلى حد كبير - فيما يخص مفكرى الشيعة المعتدلين من أمثال هشام بن الحكم ، فلم يكن الرجل معتزلياً ولكنه استخدم أحياناً بعض أسلحتهم ؛ وعلقت بمذهبه ، كما علق بمذهبه أيضاً كثير من عناصر رواقية أخذها خلال مناقشته مع الغنوصية الديصانة . كما أن الإسماعيلية المعتدلة لم تكن أبداً غنوصية خالصة ، بل هى مذهب كلامى علق به بعض الغنوصيات . أما غلاة الشيعة فكانوا بلا شك غنوصيين ، على أشد صور الغنوصية .

وأسأل الله التوفيق .

دكتور على سامى النشار

أستاذ الفلسفة الإسلامية

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

٢١ ربيع الأول ١٣٨٤ هـ

٢٩ يولية ١٩٦٤ م

الباب الأول

مقدمات التشيع

لن نحاول هنا - ونحن نبحث في نشأة التشيع في الإسلام ، أن نخوض خوضاً كاملاً في تاريخ الشيعة السياسي ، وإن كانت السياسة ، أو الإمامة ، إذا تكلمنا بلغة فقه الشيعة . هي الحجر الأساسي في نشأة الشيعة وظهورها في الإسلام . ومن العجب أن يبدأ التشيع بعقيدة مؤداها : أن علي بن أبي طالب هو الإمام بعد رسول الله ﷺ بالنص الجلي أو الخفي ، وأن الإمامة لا تخرج عنه وعن أولاده - وإن خرجت فبظلم أو تقية منه ومن أولاده - عجباً أن تبدأ هكذا ، ثم تنتهي إلى مذاهب فلسفية وسياسية معقدة تمام التعقيد ، مركبة من مختلف المذاهب . أو بمعنى آخر : إن عقيدة في حب آل البيت - تتطور خلال التاريخ وتبعاً لحوادث السياسة إلى مذهب فلسفي يبطن الاعتزال أحياناً ، والغنوص أحياناً . ويتستر خلفها مجموعات من أشد أعداء محمد ﷺ ضراوة . ويحاولون بكل الوسائل القضاء على رسالته ، وعلى العقيدة التي حارب ابن عمه على لأجلها بكل قواه .

ومن الخطأ الكبير القول : إن هناك تشيعاً واحداً خلال التاريخ ، كان لكل عصر نوع من التشيع : ولكل طائفة شيعية نوع من التشيع . وما أشد الخلاف بين حب مجموعة من الصحابة لعلي في عهد الرسول وفي عهد الشيخين وبين حب أنصار على الملتفين حوله في طرقات الكوفة والبصرة ، وما أشد الخلاف بين هذا الحب وبين جرأة الترابيين من أصحاب حجر بن عدى وفداء التوأمين من أصحاب سليمان بن صرد . ويعظم الخلاف بين عاطفة كل من سبق وبين الشيعة الحقيقية في عهد جعفر الصادق ، حين نشأ المذهب الكلامي للشيعة ، وفق المتكلمون من تلامذة جعفر بن محمد الكلام في الإمامة وخاضوا الفلسفة في جميع نواحيها . وما أشد الخلاف ثلاثة بين كل هذا وبين عقيدة الاثني عشرية ، بعد وفاة الإمام الثاني عشر : وليست هذه هي كل صور الشيعة بل هناك الزيدية ، يقتربون من أهل السنة ، وهم بعد شيعة . وإسماعيلية يبتعدون عن أهل السنة وعن الاثني عشرية ، وهم بعد شيعة . والكيسانية - وهم أتباع محمد بن الحنفية أو شيعته . والغلاة من قرامطة وعلياوية وبيانية وخطابية ودروز ، إلخ ، وهم كلهم شيعة والتشيع الأول كان مجسماً والتشيع الأخير كان معترلياً ، وهم جميعاً شيعة .

فالتشيع إذن ظاهرة مركبة معقدة ، وبين طوائف الشيعة قديماً وحديثاً من الاختلاف ما لا نجده بين طوائف أهل السنة قديماً وحديثاً ، وليس بين الخلف والسلف ، وهما فريقا أهل السنة الكباران الآن ، ما بين الإسماعيلية والاثني عشرية - وهما فريقا الشيعة الكباران الآن - من خلاف كبير وتنافر شديد .

ويلاحظ جولد تسيهر أن الخطأ الكبير أن نطلق لفظ الفرق على طوائف أهل السنة من مرجئة وكلامية وأشعرية وما تريدية ومشبهة أو أن نطلق لفظ الفرق على المعتزلة ، ويحاول أن يفرد هذا الاسم « فرقة أو فرقاً » على الطوائف التي اختلفت مع جمهرة المسلمين في مسألة الإجماع^(١) ، فالخوارج مثلاً فرقة لأنها لم تتفق مع المسلمين في إجماعهم على خليفة من الخلفاء ، وكذلك الشيعة ، وهي الطائفة التي نشيت على خاصة ، وأفردت الإمامة والخلافة له ولمن بعده من بنيه فخرجت عن إجماع المسلمين فالتقابل الكبير الحاسم بين طوائف المسلمين إنما كان بين الشيعة وأهل السنة والجماعة^(٢) . فقد تولى الأولون الخلفاء الثلاثة بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، أما الآخرون فقد اعتبروهم غاصبين أخذوا الخلافة قسراً وخداعاً من الإمام الوصي الذي عينه النص الإلهي في مواضع متعددة . الشيعة إذن هي الطائفة التي تقابل بالتضاد أهل السنة والجماعة ، واختلفت معهم في إجماعهم اختلافًا يائناً . ولكن كيف حدث هذا الاختلاف وانتهى إلى قتال مرير وأحقاد وسخائم وانتهى إلى تفرق كلمة المسلمين حتى عصورنا الحديثة .

(١) جولد تسيهر: العقيدة والشرعة في الإسلام (ترجمة الدكتور محمد موسى وزميلي) ص ١٦٨ .

(٢) نفس المصدر: ص ١٧٤ .

الفصل الأول

النص الإلهي والإمام

نشأ محمد ﷺ في بطن من بطون قريش ، بنى المطلب من بنى هاشم بن عبد مناف . وكان محمد ﷺ في الصدارة العظمى نسباً في هذه القبيلة العربية العجيبة الشأن . وكانت هذه القبيلة تنتسب إلى إبراهيم الرسول ، بل كان يطلق على سيد قريش ، وجد الرسول ﷺ « إبراهيم الثاني » (١) وجاءت الرسالة الإلهية محمداً ﷺ في فترة كف فيها الوحي الإلهي بعد أن أشرف في المرة الأخيرة على المسيح عيسى بن مريم ، وأعلن الوحي الإلهي إعلاناً لا يحصى عنه ، أن محمداً ﷺ خاتم النبيين « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » سورة ٢٣ آية ٤٠ - ويعتقد المسلمون أن الدورة الكبرى ، دورة الأنبياء قد انتهت بمحمد رسول الله انتهاءً أبدياً . ولكن اختلفوا في أمر الدين والدنيا . أما في أمر الدين ، فقد رأى جمهرة المسلمين أنه إذا كان ثمة حاجة لهداة يتابعون الرسالة ويعملونها للناس ، فإن هؤلاء الهداة إنما ينبعثون ويظهرون في صورة أولياء أو أئمة مصداقاً للحديث « إن الله يبعث على رأس كل مائة عام من يجدد شباب دينه » وحاول أهل السنة والجماعة فيما بعد ، أن يحددوا أسماء هؤلاء الأئمة الذين ظهروا في رأس كل مائة عام ، فقاموا بالجهاد إما فكرياً وإما بالقتال والجهاد . أما في الدنيا ، فقد رأى الجمهور من المسلمين أن عليهم أن يبايعوا خليفة يخلف الرسول في القيام بأمر دنياهم ، وحددوا شروط هذا الخليفة ، واتفقوا على أن الرسول لم ينص على واحد بعينه نصاً صريحاً وإنما اجتهدوا في الأمر بعقولهم .

أما الطائفة الأخرى التي تقابل بالتضاد جمهور المسلمين ، أو بمعنى أدق أهل السنة والجماعة ، فهي طائفة الشيعة ، التي اعتقدت اعتقاداً جازماً حاسماً أن الإمام أو الخليفة ، إنما يعينه النص ، ثم يستتبع تعيين النص له أن يكون معصوماً ، وتستدعي العصمة منه ، أن ينص على من يخلفه من الأئمة ، إذ لا بد للأرض من قائم يدعو إلى الحق ويدافع عنه .

وقد انتقل النبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، وتولى الخلافة بعده صاحب الأول وهو أبو بكر بن قحافة المشهور بأبي بكر الصديق ، ثم تلاه عمر بن الخطاب ، ثم عثمان بن عفان ثم

(١) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي (طبعة النجف ١٩٥٨) ج ٢ ص ٧ .

على بن أبى طالب . وبينما يذهب أهل السنة إلى أن علياً قد قبل الخلائف الثلاث وأطاع الخلفاء الثلاثة وأحسن لهم المشورة ، يذهب الشيعة إلى أن علي بن أبى طالب إنما كان مكرهاً وحين تولى آخر الأمر ، لم يبق في خلافته إلا زمناً يسيراً ثم قتل غيلة ، ثم قتل ابنه الحسن مسموماً وقتل أبو عبد الله الحسين ابنه الآخر في سهل كربلاء ، وقتل أولاده معه ، ولم يبق إلا ولدان تناسلت منهما الأسرة العلوية ، وتتابع القتل على أغلب رجالها ، بحيث يعتبر تاريخ تلك الأسرة حقاً مأساة من أكبر المآسي في تاريخ الإنسانية ، ولقد صور الشيعة تلك المآسي تصويراً أخذاً ، وبكى شعراء الشيعة أهل البيت وعترته بكاء مريراً ، ورأوا فيهم صورة الإنسانية الحزينة . وبقى البكاء سمة الشيعة حتى قيل « أرق من دمعة شيعية » ورأى أئمة أهل البيت أنفسهم ، أن « المحن والعذاب » كأس كتب عليهم تناوله ، ونرى فاطمياً منهم فيما بعد ، وهو العزيز بالله (المتوفى عام ٢٨٦) يبكي في يوم عيد توفى فيه ابنه فيقول :

نحن بنو المصطفى ذوو محن يجرعها في الحياة كاظمنا
عجبية في الأيام محتتنا أولنا مبتل وآخرنا
يفرح هذا الورى بعيدهم جميعاً وأعيادنا مآتمنا^(١)

إن المسلمين أجمعين - اللهم إلا السلف - من الخطابلة المتأخرين رأوا في أهل البيت جميعاً ملاذاً لهم في أدعياتهم وتوسلاتهم وقد أمروا في صلواتهم بالدعاء لهم ، والصلاة عليهم . ومجد المسلمون جميعاً سنة وشيعة فاطمة الزهراء واعتبروها سيدة نساء العالمين ، ومنها بقى الدم النبوى في آفاق الأرض . وفاطمة الزهراء العقب الوحيد الباقي لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقد عاشت في أحضان الرسول ، وذات مرارة اليتيم - بعد وفاة أمها ، وتحملت مع أبيها - وهى طفلة غضة - عذاب قرش والقرشين واضطهادهم ، وكانت مثلاً من أمثلة الفداء ، ولم تن على الإطلاق . وقد هاجرت مع ابن عمها على بن أبى طالب فارس الإسلام من مكة إلى المدينة ، يسيران ليلاً ويخطفان نهاراً ، ولما نضر عودها زفت إلى ابن عمها ، وحوارى أبيها ، ثم حملت حفيداً محمد صلى الله عليه وسلم ، الحسن والحسين ، زهرتا بنى هاشم ، وسيدا شباب أهل الجنة ، كتب عليهما الموت شهادة في الميلاد . وحين أتى وفد نجران إلى الرسول وسأله عن حقيقة المسيح ، نزل القرآن « إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبنى إسرائيل . إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب » ثم دعا إلى المباهلة « فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم ، فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » ورضى الوفد بالمباهلة - فأتى الرسول صلى الله عليه وسلم آخذاً بيد الحسن والحسين تتبعه فاطمة وعلى بين يديه وألقى عليهم الرسول صلى الله عليه

(١) . الثعالبي : يتيمة الدرر ج ١ ص ٢٥٤ .

وسلم بكسائه ، وقد عرفت هذه الحادثة بحادثة الكساء وعرف الحديث الواحد فيها بحديث الكساء ثم جثا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتيه وركع ، فانسحب الوفد النجراني - هارباً ورفض المباهلة . وسرى بعد ذلك كيف ألهمت فكرة المباهلة القرآنية حماس المباهلة عند فرق الغنوصية الشيعية الخمسة .

وحين مرض الرسول صلى الله عليه وسلم - وذهبت فاطمة لتعوده ملتاعة خرجت ضاحكة لتعلن أن الرسول صلى الله عليه وسلم بشرها بأنها ستلحقه في رياض الله قريباً . حين تولى أبو بكر خلافة المسلمين ، غضبت فاطمة وقد رأت أن لعل الحق الأكبر في الخلافة ، واجتمع جماعة من المهاجرين والأنصار مع علي بن أبي طالب في منزل فاطمة - وعلم أبو بكر وعمر بالأمر فذهبا مع جماعة من المهاجرين ، وهجموا على الدار فخرجت فاطمة فقالت « والله لتخرجن أو لأكشفن شعري ولأعجن إلى الله » وخشى الصحابة دعوتها فخرجوا .

وبعد سبعين ليلة من وفاة الرسول أحست فاطمة بالموت . فقالت لصديقتها أسماء بنت عميس : ألا ترين إلى ما بلغت ، أفأحمل على سرير ظاهرا . لقد خشيت فاطمة الزهراء بنت محمد رسول الله أن تحمل على سرير يظهر جسدها المسجى للناس فقالت لها أسماء : لعمري يا بنت رسول الله ، ولكني أصنع لك شيئاً فقالت فاطمة : فأرينيه فأرسلت إلى جريد رطب فقطعته ، ثم جعلتها على السرير نعشاً . وهو أول ما كانت النعوش . وتبسمت الزهراء الظاهرة وما رؤيت مبتسمة إلا يومئذ . وحضرت نساء من قريش في مرضها وقلن لها : كيف أنت يا ابنة رسول الله - قالت : أجدني كارهة لديانكن مسرورة لفراقكن ، فما حفظ لي الحق ، ولا رعت مني الذمة ، ولا قبلت الوصية ولا عرفت الحرمة ، وبعد سبعين يوماً من وفاة الرسول ﷺ - كما قلت - أسلمت الروح وبن يديها طفلها الصغيّران الحسن والحسين ، وكان سنّها ثلاثاً وعشرين سنة .

كانت حياة فاطمة الزهراء القصيرة عظة كبرى للمسلمين جميعاً ، المهاجرة الصغيرة في ظلام الليل الدامس ، مع ابن عمها الفتى ، تسير في دروب جبال مكة متخفية ، ثم تخترق الصحراء الكبيرة في طريقها إلى يثرب ، وأعداء أبيها اللدد في إثرها وإثر ابن عمها ، ثم هجرتها الأخيرة في رحلة الموت إلى الله ورسوله - أفعم كل هذا المسلمين جميعاً بالأسى ، وقد كان أبو بكر يتذكر فاطمة ويبكى ، بل أعلن حين موته ندمه أن اقتحم منزلها بالرجال . وكانت فاطمة الزهراء تؤمن بلا شك بحق علي في الخلافة ، ولم يكن هذا منبثقاً عن أمل في مشاركة ابن عمها حكم المسلمين ، لقد كانت تعلم عن يقين أنها تاركة الدنيا سراعاً ، ولكن عن إيمانها بأحقيته وأهليته للمهمة الكبرى التي تركها الرسول صلى الله عليه وسلم . وإذا كان المسلمون أجمعين اعتبروها « زهرة الوجود » و « عطر الحياة » و « الأنثى الخالدة »

فإن الشيعة من بين المسلمين ، قد اعتبروها البرهان الأكيد على عقيدتهم في الحق الإلهي لعل ، بن يؤمنون بأنها الشهادة الكبرى من رسول الله على أحقية على بن أبي طالب في خلافة الرسول ديناً ودنيا ، ولقد تحرزوا عن دعوتها بالأنوثة ، ودعوها « بفاطم » وشغلت أم الإمامين والأئمة جميعاً في أفكار الشيعة وفي عقائدهم مكاناً قدسياً وحرماً طاهراً .

ولئن احتلت فاطمة من ناحية ، وعلى من ناحية أخرى المكان الكبير عند أهل السنة والجماعة ، إلا أنهم قرروا قراراً حاسماً أن النبي صلوات الله عليه لم ينص على ولاية على أى نص ، وأما عن ولاية أبي بكر - فقد اختلف أهل السنة والجماعة هل هي بالنص الحقى أو بالنص الظاهر ، أو أنه ترك الأمر لاجتهاد المسلمين .

أما من يرون أن ولاية أبي بكر بالنص الحقى - فيذكرون الواقعة المشهورة : أن الرسول - في أثناء مرضه - أمر أن يؤم أبو بكر المسلمين في الصلاة - والصلاة هي الإمامة الصغرى . فأولى به أن يكون هو صاحب الإمامة الكبرى ، إمامة المسلمين دنياً ودينياً . أما من يرون أن الرسول صلوات الله عليه نص على أبي بكر وقطع البيان على عينه حتماً ، الحديث المشهور أن امرأة أتت إلى النبي صلى الله عليه وسلم لتسأله أمراً من الأمور . فأجابها وطلب منها أن ترجع إليه متى أرادت ، فقالت : « أرايت إن جئت فلم أجده » كأنها تريد الموت . قال : « إن لم تجدني فأني أبا بكر » والحديث الآخر : « اقتدوا بالذين من بعدى أبي بكر وعمر » . وأسند البخارى عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : بينا أنا نائم رأيتني على قليب عليها دلو فترعت منها ما شاء الله ، ثم أخذها ابن أبي قحافة فترع منها ذنوباً أو ذنوبين وفي نزعها ضعف ، والله يغفر له ضعفه ، ثم استحالت غرباً فأخذها عمر بن الخطاب ، فلم أر عبقرياً من الناس ينزع نزع عمر ، حتى ضرب الناس بعطن » وذلك نص في الإمامة عند أهل السنة والجماعة ، والفئة الثالثة - وهي ترى أن رسول الله ﷺ ترك الأمر لاجتهاد المسلمين ، ورأى المسلمون أن أبا بكر هو ثاني اثنين إذ هما في الغار ، وأول من آمن من الرجال ، ثم رجل الصحبة الطويلة . وأخيراً - عهد إليه الرسول بالصلاة - الإمامة الصغرى ، ففاسوا الأمر ، بأن تكون له الإمامة الكبرى - أى الخلافة .

أما الشيعة فترى أن النبي صلى الله عليه وسلم قد نص على إمامة على للمسلمين من بعده في مكة منذ بدء الإسلام ، فعين نزل الوحي عليه « وأنذر عشيرتلك الأقرين » جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بني عبد المطلب في دار أبي طالب - وهم أربعون رجلاً ، وبلغهم رسالته - ثم سأهم : « من الذى يبايعنى على ماله » فبايعته جماعة من المسلمين ، وسخر منه من لم يؤمنوا به ، ثم سأهم « من الذى يبايعنى على روحه وهو معينى وولى هذا الأمر من بعدى . فلم يبايعه أحد . وقام على ومد يده إليه فبايعه

على ماله وروحه - وصاحت قريش معيرة أبا طالب « إنه أمر عليك ابنك » .
 أما العلامة الحلبي صاحب منهاج الكرامة وعلم الشيعة الكبير، فقد أورد لها على الشكل الآتي : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا بني عبد المطلب في منزل عمه أبي طالب وقال لهم : « يا بني عب المطلب إن الله بعثنى إلى الخلق كافة وبعثنى إليكم خاصة فقال : « وأنذر عشيرتك الأقرين » وأنا أدعوكم إلى كلمتين خفيفتين على اللسان ، ثقيلتين في الميزان تملكون بهما العرب والعجم ، وتنقاد لكم بهما الأمم ، وتدخلون بهما الجنة وتنجون من النار شهادة أن لا إله إلا الله وأننى رسول الله ، فمن يمينى إلى هذا الأمر ويؤازرنى على القيام به يكن أخى ووزيرى ووصى ووارثى وخليفتى من بعدى ، فلم يجبه أحد منهم . فقال أمير المؤمنين (أى على) أنا يا رسول الله أؤازرك على هذا الأمر فقال : اجلس ، ثم أعاد القول على القوم ثانياً فصمتوا فقال على : فقم فقلت مثل مقالتي الأولى فقال : اجلس . ثم أعاد القول ثالثة ، فلم ينطق أحد منهم بحرف . فقم فقلت : أنا أؤازرك على هذا الأمر . فقال : اجلس فأنت أخى ووزيرى ووصى ووارثى وخليفتى من بعدى . فنهض القوم وهم يقولون لأبى طالب : لينك اليوم أن دخلت في دين أخيك فقد جعل ابنك وزيراً عليك (١) .

رأى الشيعة في هذا الحديث الذى ورد بصيغ مختلفة سنداً كبيراً لفكرتهم في النص الجلى على إمامة على بن أبى طالب وخلافته بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد اختلف أهل السنة والجماعة في صحة هذا الحديث ، فبينما ذهب إلى صحته البعض جرحه البعض الآخر ، ولكن أهل السنة والجماعة ، لم يروا فيه على الإطلاق مساساً بخلافة أبى بكر .

ثم هناك الحديث الهام حديث الغدير والذى اتخذته الشيعة سنداً لأحقية على الكاملة في خلافة المسلمين بعد رسول الله . فقد خرج النبى صلوات الله وسلامه عليه من مكة بعد حجة الوداع ، وفي الطريق نزل عليه الوحي « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل ، فما بلغت رسالته » . آية ٦٧ سورة ه ، وكان النبى عند غدير خم ، فأمر بالدرجات وجمع الناس في يوم قاتظ شديد القبط ودعا علياً إلى يمينه وخطب فقال « لقد دعيت إلى ربى وإنى مغادركم من هذه الدنيا وإنى تارك فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتى أهل بيتى ، ثم أخذ بيد على ورفعها وقال « يا أيها الناس أأست أولى منكم بأنفسكم . قالوا : بلى ! قال : من كنت مولاه فعلى مولاه . اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من اخذله وأدر الحق معه حيثما دار . فقال عمر بن الخطاب : أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة . ثم عاد الرسول إلى خيمته ونصب لعل أخرى بجانبها ، وأمر المسلمين

أن يبايعوه بالإمامة ويسلموا له بإمرة المؤمنين جميعاً رجالاً ونساء^(١).
 هذا هو حديث غدیر خم الذي اعتقده الشيعة سنداً صريحاً لهم في القول بإمامة علي وقد اعترف
 أهل السنة جزئياً بصحة هذا الحديث . وأولوه بأن المقصود من الولاية هنا الولاية الروحية . بل إننا نرى
 الحسن البصري - إمام التابعين يعلن أن علياً رباني هذه الأمة ، أما السلف من الخنابلة المتقدمين فقد
 أولوا الموالاتة بعدم الكراهية ، وأنكر السلف المتأخرون الحديث إنكاراً تاماً . ومن العجب أن السلف
 الذين يكرهون التأويل وينكرونه ، يؤولون هنا .
 ثم أورد الشيعة أحاديث أخرى مثل « أنت مني بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لاني
 بعدي . . . الخ » .

وذكروا نصوصاً أخرى من القرآن ، وفسروها تفسيراً مجازياً إلى حد كبير ، وكلها تنصب على النص
 على إمامة علي بن أبي طالب . وأوردوا أيضاً جملة من حوادثه تثبت إمارته ، ومنها أن النبي صلى الله عليه
 وسلم لم يؤمر عليه في الغزوات أميراً ، ومنها أنه تركه في كثير من المواضع أميراً ، وطلب من المسلمين
 دعوته بإمامة المؤمنين ، ومنها أيضاً أنه بعثه إلى مكة ليقرا سورة براءة بدلا من أبي بكر .
 وفي إنجاز آمن الشيعة إيماناً عميقاً بإمامة علي ، ولعنوا من على منابرهم إلى يومنا هذا الغاصبين
 الثلاثة . وهنا نقطة البدء في مذاهبهم - فلسفية كانت أو غير فلسفية ، والتي عرفت في العالم الإسلامي
 باسم الشيعة وما اتصل بها من مذاهب . وتشمل الشيعة في عصورنا الحاضرة فرقا ثلاثة هي : الاثني
 عشرية . والإسماعيلية ، والزيدية .

أما الاثني عشرية أو الجعفرية نسبة إلى الإمام جعفر الصادق فهي التي تقول - كما سترى بعد -
 بإمامة علي ثم الحسن ثم الحسين ثم علي بن الحسين (زين العابدين ثم محمد بن علي بن الحسين) محمد
 الباقر ثم جعفر بن محمد الصادق ثم موسى بن جعفر ثم علي الرضا ثم محمد بن علي الجواد ثم علي
 الهادي ثم الحسن العسكري ثم الإمام محمد المنتظر . ويعيش الشيعة الاثني عشرية الآن في العراق ،
 ويتشرون حول المشاهد الشيعة المقدسة في بغداد والنجف وكربلاء ، ثم في إيران ثم منهم جاليات كبيرة
 العدد في القوقاز ، ثم العاملون في جبل بنى عامل في لبنان وفي سوريا أيضاً عدد قليل من الشيعة الاثني
 عشرية ، وبعض سكان الكويت والأحساء والبحرين ، ثم عدد كبير في الهند وباكستان ، وليس في
 مصر ولا شمال أفريقيا شيعة على الإطلاق . وعدد الشيعة الاثني عشرية في العالم الآن ثمانون مليوناً .
 أما الإسماعيلية ، وهم الذين قالوا بإمامة سبعة من الأئمة . والإمام السابع عندهم هو إسماعيل بن
 جعفر . وينقسمون الآن قسمين - طائفة الإسماعيلية يتزعمها سلطان بوهر ، ويتشرون في الهند وفي

(١) نفس المصدر السابق ج ٤ ص ٨١ والمجلسي : حياة القلوب ص ٣٣٩ .

اليمن . وطائفة الإسماعيلية النزارية وبتزعمها كريم خان وهى منتشرة فى الهند وباكستان وشرق أفريقيا وجالية قليلة العدد فى سوريا وتمتاز تلك الطائفة عن الطائفة الأولى بأنها أكثر فلسفة وعمقاً فى البحث النظرى . وكان دعائها يدرسون الكتب الفلسفية دراسة وافية وبخاصة الفلسفة اليونانية ثم الفلسفة الغنوصية . ويقال إن ابن سينا نشأ إسماعيلياً ، وإخوان الصفا إسماعيليون ، ويقدر عدد الشيعة الإسماعيلية من الفريقين - بسبعة عشر مليوناً . أما الزيدية - وهم أقرب فرق الشيعة إلى أهل السنة والجماعة ، وهم الذين تابعوا زيد بن على ، حين رفض التبرأ من الشيخين . . . فينتشرون فى اليمن . وأغلب القبائل اليمنية الجبلية زيدية . ومن الصعوبة بمكان تحديد عددهم .

أما الغلاة : فمنهم الدروز فى لبنان وسوريا وشمال فلسطين ، ومنهم العلوية والشبك والصارولية وطوائف أخرى صغيرة - عربية وكردية ، فى شمال العراق وإيرانية فى الشمال الغربى لإيران . فما زال للشيعة إذن كيانهم العددي وقوتهم المادية والمعنوية . فكيف نشأ المذهب إذن ، هذا ماسنحاول أن نلقى عليه الضوء فى الفصل المقبل .

الفصل الثاني

نشأة الشيعة

متى نشأت الشيعة وظهرت في التاريخ ، ومتى ظهر مصطلح « الشيعة » أو التشيع كمصطلح يدل على الاعتقاد المطلق الكامل بأن علياً هو صاحب الحق الأول في الخلافة ، وأن الخلفاء الثلاثة الذين جاءوا قبله غاصبون لإمامته الروحية وخلافته منذ اليوم الأول الذي مات فيه النبي بغض النظر عن كونه تولى الخلافة فعلاً أو لم يتولها ، وجعل الإيمان بالإمام أبو الوصي جزءاً من الإيمان الديني ومتمماً للشهادتين ، ثم الاعتقاد المطلق بأن علياً هو مستودع العلم اللدني وإليه تعود الأسرار الإلهية الكاملة وأنه خاتم الأوصياء جميعاً .

يحاول بعض علماء الشيعة - ما وسعهم المحاولة بل الحيلة أحياناً - أن يثبتوا أن الشيعة تكونت مع مطلع الرسالة وترعرعت في أحضانها ، ونودي بها منذ نادى الرسول بكلمة التوحيد وحين صاح الوحي في الرسول « وأنذر عشيرتك الأقرين » وأنذرهم ، فما استجاب له في قوة وفداء سوى علي أولاً ، والعترة الطيبة المؤمنة من آلّه ، ومجموعة من رجال قريش ثانياً ، والتف حول عليّ منهم « شيعة علي الحكماء العلماء الذليل الشفاه الأخيار الذين يعرفون بالرهابة من أثر العبادة » هؤلاء هم عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان وأبوذر الغفاري والمقداد بن الأسود وسلمان في المدينة فيما بعد . ويحاول علماء الشيعة أن يثبتوا أن لكل من هؤلاء الصحابة وجهة تمثل ناحية من النواحي الروحية في الإسلام .

والخطأ الأكبر في هذه المحاولة أنه لم يكن بين يدي الرسول شيعة وسنة وقد أعلن القرآن « أن الدين عند الله الإسلام » لا التشيع ولا التسنن ، وأتى الإسلام لكي يرفع الحجز بين الناس ، فلا هاشمي ولا قرشي ولا تيمي ولا غيره ، ولا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى ومن الصحابة الأوائل بعد علي وأبي بكر وعثمان بن عفان من بنى عبد شمس ، فهل كان عثمان يكره علياً أو هل كان أبو ذر وعمارين ياسر يكرهان عثمان . ونحن لا ننسى أبداً أن أبا بكر هو الذي عتق عمار بن ياسر وأنه استخدمه بعد ذلك أميراً . لم يكن هناك شيعة لا روحية ولا سياسة بين يدي النبوة ، ولم تظهر كلمة الشيعة كمصطلح على الإطلاق إبان ذلك الوقت .

وإذا انتقلنا إلى ولاية أبي بكر ، فلا نرى على الإطلاق الشيعة تلتف حول علي بالمعنى المفهوم الآن

فرصة نادرة للإلقاء بدور الفتنة بين المسلمين . ومن المرجح أيضاً أنه غضب لعشيرته القديمة - بنى عبد مناف ، وأن يسلب الحق منها . ولكن علياً كان أحكم من أن يدع يد أبى سفيان تتلاعب بصالح الإسلام .

ويقول اليعقوبى « واجتمع جماعة إلى على بن أبى طالب عليه السلام يدعونه إلى البيعة له ، فقال لهم : اغدوا على غدا محلقين الرؤوس ، فلم يغد عليه إلا ثلاثة نفر » (١) ونحن نعلم أن اليعقوبى وهو من أقدم مؤرخى الشيعة (توفى سنة ٢٨٢ هـ = ٨٩٥ م) ، لم يذكر كلمة الشيعة على الإطلاق حتى هذه المرحلة من تاريخ الإسلام . وكذلك فعل المسعودى وهو مؤرخ شيعى قديم .

غضب لعل - كما رأينا - بنو هاشم ، وبنو أمية ، غضبوا أن تولاهما رجل من تيم ، كما غضب قلة من الناس أحبوا علياً ، ثم ما لبث الجميع أن ساروا فى ركاب الخليفة ، فعملوا له فى كل نواحي الحياة ، وذلك حين سار الخليفة على هدى رسول الله وسنته ، وحينما تولى الخلافة الصباح الثانى عمر ابن الخطاب ، رجل من عدى بن كعب ، لانسمع همساً ولا علناً . ولم تكن هناك شيعة أو تشيع ، وعمل الجميع لعمر وكان على بن أبى طالب نفسه وزيره وقاضيه ولم نر أيضاً لكلمة الشيعة كمصطلح ذكراً .

وللمرة الثالثة بايع المسلمون عثمان بن عفان المشهور بذى النورين ومن بنى عبد شمس . ورضى عنه المسلمون جميعاً ، وكان رجلاً حياً خجولاً ، عاش فى نعمة سابعة قبل النبوة ، ثم آمن برسول الله فى مكة ، وعادى أهل بيته جميعاً من بنى أمية ، ثم هاجر فيمن هاجر ، ولم يكن يرقى مقام أبى بكر أو عمر فى حسن السياسة وحزم الأمور ، ولم يكن يرقى مقام على بن أبى طالب فى علمه أو شجاعته ، ولكن المسلمون أجمعوا عليه وبايع على أيضاً عثمان ولكن عثمان ضعف أمام أهله ، واجتهد ، وأصاب فى كثير وأخطأ فى كثير .

ولقد أغضب عثمان كبار الصحابة - كحذيفة بن اليمان وعبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر . ولكن خلافه الأكبر مع أبى ذر الغفارى . وقد بايع أبو ذر عثمان أول الأمر ، ولكن حين كره من عثمان بعض أفعاله ، أخذ أبو ذر يقعد فى مجلس النبى صلى الله عليه وسلم ويجتمع إليه الناس ، ويهاجم عثمان . ونقل إلينا اليعقوبى بعض أقواله التى كان يرددتها على باب مسجد الرسول « أيها الناس من عرفنى ، فقد عرفنى ، ومن لم يعرفنى ، فأنا أبو ذر الغفارى » إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين . ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم » محمد الصفوة من نوح ، فالأول من إبراهيم ، والسلالة من إسماعيل والعرة الهاذية من محمد أنه شرف شريفهم ، واستحقوا الفضل فى قوم هم فينا

كالسمااء المرفوعة ، وكالكعبة المستورة أو كالكعبة المنصوبة أو كالشمس الضاحية أو كالقمر الساري أو كالنجوم الهادية أو كالشجرة الزيتونية أضواء زيتها وبورك زبدها ، ومحمد وارث علم آدم وما فضلت به النبيون ، وعلى بن أبي طالب وصي محمد ووارث علمه : أيتها الأمة المتحيرة بعد نبيها أما لوقدمتم من قدم الله ، وأخرتم من أخر الله ، وأقرتم الولاية والوراثة في أهل بيت نبيكم لأكلتم من فوق رؤوسكم ومن تحت أقدامكم ، ولما عال ولي الله ولا طاش سهم من فرائض الله ، ولا اختلف اثنان في حكم الله ، إلا وجدتم علم ذلك عندكم من كتاب الله وسنة نبيه ، فأما إذا فعلتم ما فعلتم ، فذوقوا وبال أمركم وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .

وإذا كان هذا النص منسوباً حقاً إلى أبي ذر الغفاري- وإن كنت أشك في هذا- فهو أول نص صريح يذكره صحابي في حق علي المطلق في الخلافة . ولكن من العجب أن يعقوبي نفسه يذكر « وبلغ عثمان أن أبا ذر يقع فيه ويذكر ما غير وبدل من سنن رسول الله ﷺ وسنن أبي بكر وعمر ، فسيره إلى الشام إلى معاوية (١) » وهذا أيضاً نص واضح يثبت أن أبا ذر كان يتولى الشيوخين أبا بكر وعمر . وأنه كان يأخذ بسننها ، ويعيب على عثمان أنه غير وبدل فيها .

وقتل عثمان ولم يقتله أنصار علي ، بل إن يعقوبي يذكر « وكان أكثر من يؤلب عليه طلحة والزبير وعائشة » ويجمع أيضاً أهل السنة والجماعة ، أن علياً حاول أيضاً الدفاع عن عثمان ، وأرسل الحسن والحسين ليدودا عنه بأنفسهما .

وتولى علي بن أبي طالب الخلافة ، وبايعه أقوام وتخلف عنه أقوام ، ووقف مالك الأشرقيقول « أيها الناس هذا وصي الأوصياء ووارث علم الأنبياء » (٢) ويذهب ابن النديم (المتوفى عام ٣٨٣ هـ = ٩٩٣ م) إلى أنه لما خالف طلحة والزبير علياً وأبياً إلا الطلب بدم عثمان ، وقصدهما على عليه السلام تسمى أتباعه حينئذ بالشيعية ، وكان هو يقول شيعي . وأنه ساهم أيضاً بالأصفياء والأولياء ، وشرطه الخميس ، والأصحاب . ولكنني أرى في كلام ابن النديم وهو شيعي بعض الغلو (٣) . . . إنه حين اختلف معاوية مع علي وأبي المبيعة . وقامت الحرب ، لم يظهر مصطلح الشيعة حتى ذلك الوقت دلالة على اتباع علي بالذات ، ذلك أن معاوية يستخدم أيضاً في هذا الوقت كلمة شيعة منسوبة إليه ، فيقول لبسر بن أبي أرطاة حين وجهه إلى اليمن « أمعن حتى تأتي صنعاء فإن لنا بها شيعة » (٤) ويذكر المسعودي (المتوفى سنة ٣٤٦ هـ = ٩٥٧) أيضاً « سفيان بن عوف » وكان من شيعة معاوية (٥) وحين

(١) يعقوبي : تاريخ ... ج ٤ ص ١٤٧-١٤٨ . (٤) المصدر السابق ج ٤ ص ١٧٣ .

(٢) يعقوبي : تاريخ ج ٤ ص ١٥٥ . (٥) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ١٩ .

(٣) ابن النديم : الفهرست : ص ٢٦٣ .

مات على وتولى معاوية ، نرى كلمة الشيعة تظهر ، وذلك حين توفي الحسن ، وبلغ الشيعة ذلك واجتمعوا في دار سليمان بن صرد وكتبوا إلى الحسين بن علي يعزونه على مصابه بالحسن ، ولكن الخطاب نفسه يذكر شيعته وشيعة أبيه ، ولا يذكر الشيعة . وحين قتل معاوية حاجر بن عدي وأصحابه قال ساخرًا للحسين بن علي : « يا أبا عبد الله - علمت أنا قتلنا شيعة أبيك فحنطناهم وكفناهم وصلينا عليهم ودفناهم » فقال الحسين : حججتك ورب الكعبة لكننا والله إن قتلنا شيعتك ، ماكفناهم (١) ولا حنطناهم ، ولا وصلينا عليهم ولا دفناهم (٢) » ونستخلص من هذا أنه حتى هذا الوقت لم تظهر كلمة الشيعة كمصطلح عرفناه ، فيما بعد ، يسم فرقة معينة بنظام معين .

كان المسلمون في ذلك الوقت مسلمين فقط ، لاسنة ولا شيعة ، وكان الاختلاف بينهم حول أحقية الأشخاص . فلم تظهر فكرة « الوصاية والإمامة » فكرياً أو أساسياً فلم تتكون النظريات السياسية اللهم إلا في فرقة الخوارج - وهي الفرقة الوحيدة التي خالفت إجماع المسلمين في فكرتهم عن الخلافة . وحين مات معاوية وأراد الحسين بن علي الخروج إلى الكوفة ، لم يستخدم كلمة الشيعة ولا نرى ابن عباس يستخدم كلمة الشيعة أيضاً . إن ابن عباس - حين ينهى الحسين عن الخروج إلى الكوفة يقول له « اشخص إلى اليمن ، فإنها في عزلة ولك فيها أنصار وإخوان ، فأقم بها واث دعائك » . (٣) وذهب الحسين إلى الكوفة ، وقتله أهل الكوفة أنفسهم . ومن المهم أن نلاحظ أيضاً أن فكرة الإمامة أو الوصاية نفسها لم تظهر عنواناً على طائفة معينة في هذا العصر أيضاً . ولقد بكى المسلمون جميعاً الحسين بن فاطمة وابن علي ، بكاه المسلمون إبان ذلك الوقت اللهم إلا أهل الشام ، وبيكاه المسلمون سنيهم وشيعتهم حتى الآن ، ويلمعون قاتله ، ويرون في موته صفحة الشهادة العظمى .

وتكونت الشيعة حقاً بعد مقتل الحسين عليه السلام ، فرقة دينية تتدبر الأمر ، يقول المسعودي « وفي سنة خمس وستين تحركت الشيعة بالكوفة وتلاقوا بالتلاوم والتنادم حين قتل الحسن فلم يغثوه ، ورأوا أنهم قد أخطأوا كثيراً بدعاء الحسين إياهم ولم يجيبوه ، ولقتله إلى جانبهم فلم ينصروه ؛ ورأوا أنهم لا يغسل عنهم ذلك الجرم إلا قتل من قتله أو القتل فيه ، ففزعوا إلى خمسة نفر منهم سليمان بن صرد الخزاعي . . . إلخ (٤) . ووصلوا إلى موضع بالعراق يقال له عين الورد ، يطالبون بدم الحسين بن علي ، ويعملون بما أمر الله به « فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم . فتاب

(١) العفوي : تاريخ ج ٤ ص ٢٠٦ .

(٢) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٨٦ .

(٣) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ١١٠ .

عليكم ، إنه هو التواب الرحيم » وقتلوا جميعاً فيما تجمع المصادر ، غير أن الكلمة التي غلبت عليهم هي « التوابون » .

وظهرت كلمة الشيعة الحسينية على يد المختار بن أبي عبيد الثقفي ، وهي الشيعة التي تنتسب إلى محمد بن علي بن أبي طالب المشهور بابن الحنفية . وقد اجتمعت عليه الشيعة في الكوفة ، وقتل قتلة الحسين جميعاً حتى قتل .

وفي الكوفة بعد مقتل المختار بن أبي عبيد: أخذت الشيعة تتكون كفرقة دينية كلامية ، تضع أصول التشيع ، ولكن لم تصل الشيعة إلى وضع مذهبها النهائي إلا في عهد إمامة جعفر الصادق . من هذا يتضح لنا أن اسم الشيعة كمصطلح ظهر بعد استشهاد الحسين ، وأن الكلمة كانت تطلق في أول الأمر على أية مجموعة تلتف حول صحابي من الصحابة ، وأبو خلف القمي يذكر أن أول الفرق الشيعية المسمون شيعة على في زمان النبي صلى الله عليه وسلم وبعده ، المعروفون بانقطاعهم إليه والقول بإمامته ، المقداد وسلمان وأبوذر وعمار ، « وهم أول من سمو باسم التشيع من هذه الأمة » ولكنه يتناسى أن معاوية - عدو على - أطلق أيضاً على أنصاره كلمة الشيعة . وقد أرادت الشيعة أن تمجد اسمها ، وذهبوا إلى أنه قديم ، ذكره القرآن ، شيعة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى والأنبياء (١) . وهذا تمجيد للفظ فقط ، وهيام فيه . وستفعل الإسماعيلية هذا أيضاً ، حين تحاول أن تثبت أن مصطلح الإسماعيلية قديم أيضاً ، أقدم من الإسلام بكثير .

(١) أبو خلف القمي : الفرق . ص ١٥ .

الفصل الثالث

قداسة علي عند الشيعة الأوائل

السبئية

أضنى الشيعة جميعاً على علي بن أبي طالب قداسة خاصة تأرجحت بين كونه وصياً وولياً وإماماً ومهدياً ونبيّاً وإلهاً . وسنحاول أن نعرض في هذا الفصل متبعين المنهج التاريخي ، لظهور العقائد المختلفة الشيعية في علي بن أبي طالب . ولعل من المهم أن نشير هنا إلى الحديث النبوي الذي يقول فيه الرسول صلى الله عليه وسلم لعل « يهلك فيك اثنان يحب غال ومبغض قال » :

وأول صورة نجدها للغلو في علي هي صورة السبئية . ونحن نهمل تماماً تلك الآثار الكثيرة التي وضعها الشيعة - معتدلة وغلاة - على لسان الصحابة من أنصار علي والتي تعلو به إلى مراتب القداسة العظمى ، والتأليه . ومن المؤكد أن تلك الآثار موضوعة ، وهي تساوى تماماً في تفاهتها الروايات المختلفة عن قداسة معاوية نفسه أو حتى إخلاصه للإسلام كدين ، فقد دعا النواصب معاوية « خال المؤمنين » وذلك لأن أخته أم حبيبة بنت أبي سفيان كانت زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم . ونحن نضرب صفحاً عن تلك الموضوعات كلها : لتفحص السبئية ونعرض لآرائها .

نسبت السبئية إلى عبد الله بن سبأ . وتجمع المصادر السنية والشيعة أن عبد الله بن سبأ كان يهودياً يمينياً فأظهر الإسلام ، ويرى الطبري (المتوفى سنة ٣١٠ هـ = ٩٢٢ م .) أنه أسلم في السنة السابعة من خلافة عثمان بن عفان (١) . وأخذ ينتقل بين الأمصار - من صنعاء إلى الحجاز ثم البصرة ثم الكوفة ، ثم استقر في مصر . ويقول ابن كثير « إن سبب تألب الأحزاب على عثمان أن رجلاً يقال له نجدة بن سبأ كان يهودياً فأظهر الإسلام وصار إلى مصر فأوحى إلى طائفة من الناس كلاماً اخترعه من عند نفسه ، مضمونه أنه يقول للرجل أليس قد ثبت أن عيسى بن مريم سيعود إلى هذه الدنيا ؟ فيقول الرجل : بلى ! فيقول له : فرسول الله ﷺ أفضل منه ، فما تنكر أن يعود إلى هذه الدنيا وهو أشرف من عيسى بن مريم عليه السلام . ثم يقول : وقد كان أوصى إلى علي بن أبي طالب . فحمد خاتم

(١) الطبري : تاريخ ... ج ١ ص ٢٨٥٩ .

الأنبياء وعلى خاتم الأوصياء . ثم يقول : فهو الأحق بالإمرة من عثمان ، وعثمان معتد في ولايته ما ليس له ، فأنكروا عليه وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر « فهنا يظهر عبد الله بن سبأ في مصر ينادى بمهدية محمد ﷺ وبالوصاية (وصاية الرسول ﷺ لعل) وينادى بعزل عثمان لأنه إمام ظالم ، أى ينادى بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أى أنه ينادى بمبدأين يهوديين وبقاعدة إسلامية .

وعبد الله بن سبأ يدعى أيضاً بابن السوداء وهنا يظهر ابن السوداء روميا . فيقول ابن كثير « خرج أهل مصر على عثمان في أربع وفاق على أربعة أمراء . . . ومعهم ابن السوداء وكان أصله روميا ، فأظهر الإسلام^(١) » ويرى البغدادي (المتوفى سنة ٤٢٩ هـ = ١٠٣٧ م) أن ابن السوداء كان روميا من أهل البصرة وكان يعين السبائية على قولها (٢) ، ثم يذكر أنه أظهر الإسلام « وأراد أن يكون له في الكوفة سوق ورياسة ، فذكر لهم أنه وجد في التوراة أن لكل نبي وصيا وأن علياً رضي الله عنه وصى محمد ﷺ وأنه خير الأوصياء ، كما أن محمداً خير الأنبياء . فلما سمع ذلك منه شيعة على قالوا لعل ؛ إنه من محبيك فرفع على قدره وأجلسه تحت منبره^(٣) » . ونرى هنا صورة شخصية أخرى كوفية أو بصرية ، بينما من الثابت أن عبد الله بن السوداء وعبد الله بن سبأ هما شخصية واحدة . ويحاول الطبري أن يجعل من عبد الله بن سبأ حقيقة تاريخية ، وأنه هو الذي أثر في أبي ذر ، وأنه قابله في الشام وقال له « يا أبا ذر - ألا تعجب إلى معاوية يقول - المال مال الله ، ألا إن كل شيء لله ، كأنه يريد أن يحتجته دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين^(٤) » وهنا تصوير لابن سبأ بأنه هو الذي ألهم فكرة « الكنوز » لأبي ذر . ثم يذكر الطبري أن ابن سبأ استطاع أن يؤثر في محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة ، كما أن عمار بن - باسرق قد وقع أيضا في حباله وأثار الجميع على عثمان ، ويحاول البغدادي أيضا أن يضع عبد الله بن سبأ في إطار تاريخي محدد فيقول : « وقد روى عن عامر بن شراحيل الشعبي أن ابن سبأ قيل له إن علياً قد قتل . فقال : « إن جثمتونا بدماعه في صرة لم نصدق بموته ولا يموت حتى يتزل من السماء ويملك الأرض بمخافتها » وهذه الطائفة تزعم أن المهدي المنتظر إنما هو على دون غيره^(٥) » وهنا محاولة لربطه برواية عن أحد كبار التابعين . ويذكر أيضا إمام المذهب الأشعري ومؤرخ العقائد الإسلامية السبائية أصحاب عبد الله بن سبأ ، « وأنهم يزعمون أن علياً لم يموت ، وأنه يرجع إلى الدنيا قبل يوم القيامة فيملأ الأرض عدلا ، كما ملئت جورا ، بل إن السبائية تقول إنه قال لعل عليه السلام . أنت أنت ، وأن السبائية تقول بالرجعة وأن الأموات يرجعون إلى الدنيا^(٦) » .

(١) آئين كثير : البداية والنهاية ج ٧ ص ١٦٨ .

(٢) نفس المصدر السابق ج ص ١٦٣ .

(٣) البغدادي : الفرق بين الفرق ص ١٤٤ .

(٤) الأشعري : مقالات الإسلاميين ج ١ ص ١٥ .

(٥) البغدادي : الفرق بين الفرق ص ١٤٤ .

(٦) الأشعري : مقالات الإسلاميين ج ١ ص ١٥ .

وسرى فيما بعد أن نداء « أنت أنت » يتقلب نداء غنوصيا ، ويعتبر نداء تلبية ، حين يرى الغنوصيون من الشيعة صورة على في مظاهر كونية يتجلى لهم فيها وتتوالى ظهوراته ، في مظاهر كونية كالقمر ، المرجون القديم ، حين ظهوره للخلائق .

ويظهر اسم عبد الله بن سبأ مرة ثانية في مشارف الكوفة مع قتلة عثمان . ثم يذكر البغدادى أنه حين بلغ على غلو ابن سبأ أو ابن السوداء هم بقتله ، ولكن ابن عباس نهاه عن ذلك خوفاً من أن يقال إن علياً يقتل أتباعه وخوفاً من الفتنة ، فنفاه على إلى المدائن^(١) وإننا لنعلم فعلاً أن المدائن كانت فيما بعد من مراكز الشيعة الغالية .

أما مؤرخو الشيعة الأقدمين ، فقد اعتبروا عبد الله بن سبأ حقيقة تاريخية لاشك فيها . ويذهب سعد بن عبد الله أبو خلف الأشعري القمي (المتوفى سنة ٣٠١ هـ) إلى أن أول من قال بالغلو في علي هو « عبد الله بن سبأ » ويذكر أن اسمه عبد الله بن وهب الراسبي الهمداني ، وأن ما ساعده على نشر آرائه عبد الله بن حرس وابن أسود ، وأن هذين الأخيرين كانا من جلة أصحابه . ويذكر أبو خلف أن ابن سبأ كان أول من أظهر الطعن على أبي بكر وعمر وعثمان والصحابه ، وأعلن التبرأ منهم ، وأن الإمام علياً نفسه أمره بهذا . وأن التقية لا تجوز ولا تحل ثم أظهر الغلو بعد ذلك في علي ولما بلغ الأمر علياً ، استدعى ابن سبأ وسأله فأقر ، فأمر على بقتله ، فاجتمع الناس من كل ناحية وصاحوا : يا أمير المؤمنين أقتل رجلاً يدعو إلى حكيكم أهل البيت ، وإلى ولايتك والبراءة من أعدائك فسيره على إلى المدائن . ويذكر أبو خلف القمي نصاً آخر أن عبد الله بن سبأ كان يهودياً فأسلم ووالى علياً . وأنه كان يقول في يهوديته أن يوشع بن نون وصى موسى ، فقال في إسلامه بعد وفاة الرسول في علي بمثل هذه المقالة . وهو أول من شهد بالقول بفرض إمامة علي وأظهر البراءة من أعدائه ، وكاشف مخالفه وكفرهم . ويرى ابن خلف أن من خالف الشيعة استنتجوا من هذا أنه الرفض – ويبدو أن الرفض هنا بمعنى رفض الشيخين – مأخوذ من اليهودية^(٢) . ويذهب معاصره النوبختي^(٣) (المتوفى بين عام ٣٠٠ و ٣١٠) إلى نفس الرأي . ويكاد ينقل نفس الصوص ، وهي كلها ، تؤيد تبوت شخصية عبد الله بن سبأ كشخصية تاريخية واضحة .

أود أن أنتهى من كل هذا ، وقبل أن نحدد تحديداً منهجياً آراء ابن سبأ أن ابن سبأ يظهر في كتب أهل السنة والجماعة كما يظهر أيضاً في كتب الشيعة كشخصية تاريخية حقيقية ، ولكن كاتب الشيعة

(١) البغدادى : الفرق ص ١٤٤ .

(٢) سعد بن عبد الله أبي خلف الأشعري . كتاب المقالات والفرق (نشرة الدكتور محمد جواد مشكور ١٩٦٣) ص ٢٠ .

(٣) النوبختي : فرق الشيعة . ص ٢٢ ، ٢٣ .

الكبير المعاصر الأستاذ الدكتور على الوردى يقدم لنا فى براعة نادرة تحليلاً بارعاً لقصة عبد الله بن سبأ وينتهى إلى إنكار وجود هذه الشخصية إطلاقاً ويحاول أن يثبت أن ابن سبأ ، هو هومار بن ياسر ، ثم حمل التواصب من أعداء البيت العلوى ابن سبأ تلك الشخصية الوهمية - تلك العقائد الناشئة المنتشرة فى كتب العقائد والتي لعنوا أهل السنة والجماعة جميعاً ، كما لعنوا الشيعة الإمامية أيضاً^(١) وكذلك فعل الدكتور كامل مصطفى الشيبى فى بحثه الرائع « الصلة بين التصوف والتشيع » . وقد أبرز وثائق جديدة تبين التطابق التام بين شخصيتى عبد الله بن سبأ وهومار بن ياسر^(٢) . ثم إن نسب أعداء الشيعة - من الأمويين إلى شخصية ابن سبأ أو بمعنى أدق شخصية ابن ياسر تلك الآراء الغالية ، التى لم ينطق بها أبداً .

ومن المحتمل أن تكون شخصية عبد الله بن سبأ شخصية موضوعة ، أو أنها رمزت إلى شخصية ابن ياسر ، كما فعل الأمويون بكلمة أبى تراب والترايين ، وقد كان كنية أبى تراب إحدى كنى على ، وخدع معاوية الطليق والأمويون معه أهل الشام بدعواهم أنهم يحاربون أبى تراب والترايين . ومن المحتمل أن يكون عبد الله بن سبأ هو مجرد تغليف لاسم هومار بن ياسر وبخاصة أننا نرى زياد بن أبيه يصم حجر بن عدى وأصحابه بالسبائين فى رسالته إلى معاوية . وليس من المعقول قطعاً ، أن يكون حجر بن عدى الصحابى الكبير من أتباع يهودى يفسد على المسلمين دينهم . أرى أن كل هذا محتمل ، وأن الأمويين أخفوا اسم هومار بن ياسر الصحابى الكبير تحت اسم ابن سبأ حتى لا تثار ثائرة أهل الشام ، حين يعلمون أن ابن ياسر والملتفين حوله هم أتباع على ولكن لاشك أن آراء السبائية المتغالية وجدت ووجدت صدى لدى الطائفة التالية لها فى الغلو وهى الكيسانية . ولا يمكن أن تظهر الآراء فجأة فى مجتمع من المجتمعات ، بل لابد لها من أرض تنمو فيها ، وتزدهر ، وتورق . وهذا ما حدث تماماً فى الآراء السبائية . أو بمعنى أدق إني أقول - إنه من المرجح أن يكون عبد الله بن سبأ هو هومار بن ياسر ، ومن المرجح أن النواصب حملوا كذباً هومار بن ياسر كل تلك الآراء التى لم يعرفها قط ولم يقل بها قطعاً . ولكن من المؤكد أن كثيراً من آراء السبائية قد ظهر إبان ذلك الوقت ووجدت بيئة صالحة للنمو . ولا يعنينا أبداً إذا كانت هذه الشخصية قد ظهرت أم لم تظهر . وإنما ما يهمنا أن نقرره أن المجامع اليهودية من ناحية والغنوصية من ناحية أخرى وجدت فى انقسام المسلمين إبان ذلك الوقت فرصة لا تعوض للإلقاء بذور الفتنة بينهم ، فألقت فى مجتمع الكوفة والمدائن بآراء ، يمكننا أن نطلق عليها الآراء السبائية ، سواء أكان صاحب الاسم حقيقة أم أكذوبة .

(١) الدكتور على الوردى : وعاظ السلاطين ص ٢٧٤-٢٧٨ .

(٢) الدكتور كامل مصطفى الشيبى : الصلة بين التصوف والتشيع ، الجزء الأول ص ٢٦-٣٩ .

أما الآراء السبائية فهي أولاً : الوصية ، أى أن علياً وصي للرسول^١ ، فالإمامة له نصاً « وكان في اليهودية يقول في يوشع بن نون وصي موسى »^(١) ثم أعلن ألوهية « علي » وذهب أتباعه إلى علي في الكوفة وقالوا له « أنت أنت » « فلما سألمهم جليلة الأمر ، قالوا له أنت الله ، فأوقد على ناراً لهم ودعا مولاه قنبراً واستتابهم ، فلم يتوبوا ، فأمره بإلقائهم في النار . وكانوا يصيحون : أنت الإله حقاً . فإنه لا يعذب بالنار إلا الله . وكان علي يردد .

ولما رأيت الأمر أمراً منكراً أنجبت ناراً ودعوت قنبراً^(٢)

ثانياً : معراج علي الروحي - أى الصعود إلى السماء يقول البغدادي « لما قتل علي ، زعم ابن سبأ أن المقتول لم يكن علياً ، وإنما كان شيطانياً تصور للناس في صورة علي وأن علياً صعد إلى السماء كما صعد عيسى بن مريم عليه السلام ، وكما كذبت اليهود والنصارى في دعواها قتل عيسى ، كذلك كذبت النواصب والخوارج في دعواها قتل علي ، وإنما رأت اليهود والنصارى شخصاً مصلوباً شبهه بعيسى . كذلك القائلون بقتل علي رأوا قتيلاً يشبه علياً . فظنوا أنه علي ، وعلى قد صعد في السماء وأنه سينزل إلى الدنيا ويتقمم من أعدائه^(٣) » . ويذكر أبو خلف القمي أنه حين اتصل خبر موت علي بعبد الله ابن سبأ وجاعته في المدائن ، قالوا لمن أخبرهم بوفاته : كذبت يا عدو الله لوجئتنا بدماعه في سبعين صرة فأقت على قتله سبعين عدلاً ما صدقناك : ولعلمنا أنه لم يمت ولم يقتل ، وأنه لا يموت حتى يسوق العرب بعصاه ، ويملك الأرض ، ثم ذهبوا إلى الكوفة واستأذنوا في الدخول عليه ، فأخبرهم من حضر من أولاده وأهله « سبحان الله ما علمتم أن أمير المؤمنين قد استشهد » قالوا : « إنا لنعلم أنه لم يقتل ولا يموت ، حتى يسوق العرب بسيفه وسوطه ، كما قادهم بحجته وبرهانه ، وأنه ليسمع النجوى ويعرف ما تحت الديار العتلى ! ويلمع في الظلام ، كما يلمع السيف الصقيل الحسام » ويعلق القمي^(٤) بأن هذا مذهب السبائية ومذهب الحزبية أصحاب عبد الله بن عمر بن حرب الكندي في علي .

ثالثاً : ومن آراء السبئية أن علياً إله العالمين ، وأنه توارى عن خلقه سخطاً منه عليهم وسيظهر . ويرى البعض منهم أن علياً في السحاب ، وأن الرعد صوته ، والبرق سوطه ، وإذا سمعوا صوت الرعد أوراوا السحاب يقولون : السلام عليك يا أمير المؤمنين . بل ويضعون على لسان إسحاق بن سويد العدوي أنه قال :

(١) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٩٠ .

(٢) الملطى التنبيه ص ٢٥ .

(٣) البغدادي : الفرق بين الفرق ص ١٤٣ .

(٤) ابن خلف القمي : كتاب المقالات ص ٢٠ ، ٢١ والنوحي : فرق ص ٢٣ .

برئت من الخوارج لست منهم من الغزال منهم وابن باب
ومن قوم إذا ذكروا عليا يردون السلام على السحاب
ولكني أحب بكل قلبي وأعلم أن ذاك من الصواب
رسول الله والصديق حبا به أرجو غداً حسن الثواب (١)

ويبدو أن هنا أيضاً أول بذور لأفكار التوقف والمهدية والغيبة والرجعة ، والقول بتناسخ الجزء الآلهي
في الأئمة بعد علي . ومن المحتمل أن تكون هذه الآراء متأخرة ، وأنها ظهرت من الحرية كما سنرى
بعد .

ويذهب الإسفراييني أخيراً إلى أنه بعد قتل علي قام عبد الله بن سبأ يقول لأهل الكوفة « والله
لينبطن لعل في مسجد الكوفة عينان ، تفيض إحداهما عسلا والأخرى سمنا ، | ويغتوف منها
شيعته (٢) ».

هذا مجمل لآراء السبائية . فإما هو الحكم الصحيح على تلك الآراء . إنها لا تمثل في أول الأمر
فرقة ، ولكن هي الآراء الفولكلورية محملة بالخشو اليهودي والغنوصي والتي تنتشر ممجدة الأبطال
الكبار ، حين يموتون ، ويشعر أتباعهم بالحسرة ، وقد كاد الصاحب الثاني عمر بن الخطاب أن يقع في
نفس الأمر حين علم بانتقال النبي صلوات الله عليه إلى الرفيق الأعلى : فأعلن أن محمداً لم يموت ، وأنه
إنما رفع إلى السماء ، وأنه سيعود ثانية . قائل : والله ما مات رسول الله ولا يموت ، وإنما تغيب كما
غاب موسى بن عمران عليه السلام أربعين ليلة ثم يعود ، والله ليقطعن أيدي قوم وأرجلهم ، ولكن
أبا بكر أسكنه وقال « من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله ، فإن الله حي
لا يموت ثم قرأ « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم »
فرجع الناس إلى قول أبي بكر : وقال عمر : والله لكأنني ما قرأتها قط . ثم قال . لعمرى لقد أيقنت
أنك ميت ولكما أبدى الذي قلته الجزع (٣) ».

لا جرم أن يظهر بعد ذلك وقد اختلط العرب بعلوج الفرس حيثئذ وبيعض أخبار اليهود وعدد من
اليهود المستسلمة وفي أوساط الكوفة تلك الآراء السبائية أو بعض منها ، ثم أضافت النواصب ، الكثير ،
منسوبة إلى عبد الله بن سبأ أو عمار بن ياسر .

(١) الشهرستاني (المتوفى سنة ٥٤٨-١١٥٣م) الملل والنحل ج ١ ص ٢٩١-٢٩٣ .

(٢) الإسفراييني ، التبصير في الدين ص ٨٥ .

(٣) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ١٥ ؛ واليعقوبي تاريخ - ج ٢ ص ٦٥ .

الفصل الرابع

صورة على

عند أهل السنة والجماعة والشيعة المعتدلة

لم يتنازع أبا بكر وعمرًا طائفتا المسلمين الكبيرتان ، فيما تولى أهل السنة والجماعة الشيخين ، أنكرهما الشيعة إنكاراً كاملاً ولعنوا من على منابرهم الغاصبين علماً إمامته ، حتى يومنا هذا . أما على بن أبي طالب ، فقد تنازعه أهل السنة والجماعة كما تنازعه الشيعة ، تدعيه أهل السنة لهم ويدعيه الشيعة لهم . وأورد هؤلاء على لسانه - إن حقاً وإن باطلاً - أحاديث تؤيد سنيته ، بينما حمله هؤلاء الشيعة ما يطبق ومالا يطبق من أحاديث وآثار وآراء تؤيد وجهة نظرهم ، وتثبت ما ارتأوه هم فيه . وسنعرض بإيجاز لرأى كل منهم فيه .

أما أهل السنة فيعلنون أن أسلافهم الأول قد رأوا في على بن أبي طالب أول غلام آمن ، وقد عاش في حجر النبوة ورعاه الرسول قبل بعثته ، كما رعته أم المؤمنين الأولى - خديجة - برعايتها وحبا وحديها ، ووقف الطفل المكي - منذ اللحظة الأولى للنبوة - بجانب صاحبها في الكبير وفي الصغير . ولا يقل إعجاب أهل السنة عن إعجاب الشيعة به حين تركه الرسول في فراشه ليلة الهجرة تحرسه الملائكة ، وهو يواجه قريشا العاتية . ثم هاجر إلى المدينة مع فاطمة الزهراء . وبدأت الحروب ، وفقى بنى هاشم يحمل بسيفه المنايا ، يحطم بها عتاولة القرشيين ، ويكلم كل بيت من بيوتهم . وكم فدى الرسول بنفسه في معظم مواقع القتال . وهو إذن تلميذ محمد صلى الله عليه وسلم الأول .

ويعلن أهل السنة أيضاً أن علماً عالم المسلمين وفقههم ، مصداقاً للحديث « أنا مدينة العلم وعلى بابها » فقه القرآن كما فقه السنة ، وغاص في أعماق كل منها وكان فقيه أبي بكر - فيما بعد - كما كان فقيه عمر : ويذهب أهل السنة بلاشك إلى أنه أفقه من الصاحبين ، بل من الصحابة جميعاً وقد عاش عند أهل السنة والجماعة عيشة إيثار وإنكار لذاته في حياة كل من الشيخين .

ويرى أهل السنة والجماعة أنه رابع الخلفاء الراشدين . وأن الخلفاء الثلاثة قد سبقوه بفضل إمارة المؤمنين بعد الرسول ﷺ . ويعلن أهل السنة أيضاً أنه كان على حق في قتاله أصحاب الجمل ومعاوية

وأخيراً - إنه الوحيد من بين الصحابة الذى احتفظ بكلمة الإمام فى كتب أهل السنة ، ودعاه الحسن البصرى « ربانى هذه الأمة » ويرغم كل ما قام به الأمويون من دعاية ، وما أعلنه النواصب من عداوة لعلى ، فقد احتل ابن عم الرسول وصهره عند أهل السنة والجماعة المكان الأول فى الحياة الروحية للمسلمين . رفعه أهل السنة والجماعة - على جميع الصحابة بلا استثناء - روحياً على مقام كل من أبى بكر وعمر ، ولكن سياسياً وضع فى النسق رابع خلفاء محمد ﷺ .

أما الصوفية ، وهم فى مجموعهم أهل سنة وجماعة ، فكان الإمام على رأس سندهم وقمة سلسلتهم ، وإليه نهاية الطريق . ووضعوا على لسانه آثراً وسناً كثيرة ، ونسبوا إليه أسرار العلم الباطن ، وإليه يتشوف الصوفى السنى .

إن ما نستخلص من هذا أن أهل السنة والجماعة - اللهم إلا السلف المتأخرون ، رأوا فى أبى بكر الصاحب الأول - وصاحب الصلاة على الخصوص ، وفى عمر مؤسس الدولة الإسلامية وواضع الأسس الحقيقية لها ومنشؤها ، وفى على صاحب الروح .

أما الشيعة - فقد أطلقوا أيضاً على لسان بعض أسلافهم - من كبار الصحابة الأحاديث النبوية التى تثبت إمامته بعد الرسول ﷺ وبعض تأولات الشيعة صحيحة وبعضها غير صحيح ، كما فسروا أيضاً كما قلت من قبل بعض الآيات القرآنية تفسيراً خاصاً يؤدى إلى القول بإمامة على وخلافته منذ اليوم الأول . ثم أثبتوا له الوصاية ، « أنت منى بمرتلة هارون من موسى إلا أنه لانبى بعدى » والحديث الآخر « السابق إلى موسى يوشع بن نون والسابق إلى عيسى صاحب ياسين حبيب النجار ، والسابق إلى محمد على بن أبى طالب وهو أفضلهم » أى أفضل أوصياء الأنبياء جميعاً .

وذهب الشيعة الأوائل إلى ولاية على وعصمته وأنه وارث العلم النبوى الخاص الذى لم يطلع عليه النبى غيره حين أدركته منيته . وفى الكوفة أيضاً آمن الشيعة أن الرسول ﷺ ترك لعلى كتباً خاصة ، ثم حددت الشيعة المتأخرة هذه الكتب بالكتب الآتية : مصحف فاطمة ، وعلى هامشه علم ما كان وما يكون وما هو كائن . وقد أملاه النبى على وصية صاحب الأمر بعده ، وكتاب الجفر الجامع أو الجامعة وفى هذه الجامعة صحف الأنبياء ففيه صحيفة آدم أورثها لابنه شيث ، فأضاف إليها ، ثم إدريس ، ثم صحف إبراهيم وموسى وعيسى ثم خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم وصحفه ، وقد أورث محمد ﷺ هذا إلى على خاتم الأوصياء ، ثم كتابان آخران هما - الجفر الأبيض والجفر الأحمر ، أما الجفر الأحمر فهو خاص بالقائم ، كيف يقضى بالسيف على أعدائه ، أما الأبيض ، ففيه جزءان - كتب الأنبياء وصحفهم ، ثم الحلال والحرام ، ثم تفسير الاسم الأعظم وأسراره والصحيفة .

وصور الشيعة علياً ويده كرامات لا تقل عن المعجزات ، وعددوا هذه الكرامات ، بل تكلموا

عن بدء وجوده « كنت أنا وعلى بن أبي طالب قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف عام فقط ، فلما خلق الله آدم ، انتقل النور في الأصلاب لطاهرة والأرحام الزكية حتى صار في عبد المطلب ، فانقسم النور قسمين : قسم في عبد الله وقسم في أبي طالب ، فكان لى النبوة ولعلى الوصية » .

وعين الشيعة موضع على في تلك الحادثة الممتازة ، حادثة المعراج . فقد سأل محمد ﷺ - بأمر ربه - النبيين عن سبب رفعهم إلى هذه الدرجة ، فشهدوا جميعاً « بأننا رفعنا بفضل نبوتك وإمامة على بن أبي طالب والأئمة من صلبك » فجاء النداء أن انظر إلى يمين العرش - فنظرت فإذا بأشباح على وبنيه وحفدته وهم يصلون في بحر من النور فقال الله تعالى « هؤلاء حججى وأوصيائى وأوليائى ، ويتنقم آخرهم من أعدائى » ، وفى السماء الرابعة رأيت ملك الموت ، فأخبرنى أنه مأمور بقبض أرواح الكائنات إلا روحى وروح على ، فإن روحكما سيقبضهما الله بنفسه بيد القدرة « ورأيت ليلة المعراج أنه قد كتب على كل حجاب من النور وكل قائمة من العرش - أن لا إله إلا الله - محمد رسول الله ، على ابن أبي طالب أمير المؤمنين ، وقد أعطى الله آدم خمسة عشر حرفاً من حروف الاسم الأعظم ، ونوحاً ثمانية ، وإبراهيم حرفاً ، وموسى أربعة ، وعيسى اثنين ، وأعطى محمداً اثنين وسبعين فسلمها علياً . هذه نظرية الشيعة المعتدلة ، في أوساط الكوفة ، والمدائن ، وفي العراقيين على العموم .

وبات على ليلة اغتياله ، وهو يعلم تماماً أنه مغادر الدنيا ، ولم يزل يمشى بين الباب والحجرة ، وهو يقول « والله ما كذبت ولا كذبت وأنها الليلة التى وعدت (١) » . وكان يردد « ما يبس أشقاسها ، فو الذى نفسى بيده لتخضن هذه من هذه » ، « وخرج على فى الغلس للصلاة - فتبعه أوز - كن فى الدار فتعلقن بثوبه فحاول بعض أهله منعهن . فقال ويحك - دعهن - فإنهن نوائح » وهجم عليه عبد الرحمن بن ملجم وقتله (٢) ، ولما مات قام الحسن عليه السلام خطيباً ثم قال « ألا إنه قد مضى فى هذه الليلة رجل لم يدركه الأولون ولن يرى مثله الآخرون » من كان يقاتل وجبريل عن يمينه ، وميكائيل عن شماله - والله لقد توفى فى الليلة التى قبض فيها موسى بن عمران ورفع فيها عيسى بن مريم « وأنزل القرآن » ألا وإنه ما خلف صفراء ولا بيضاء . ثم قام القعقاع بن زرارة على قبره وقال « رضوان الله عليك يا أمير المؤمنين ، فوالله لقد كانت حياتك مفتاح خير ، ولو أن الناس قبلوك لأكلوا من فوقهم ولكنهم غمطوا النعمة وآثروا الدنيا على الآخرة (٣) » ودفن على فى النجف قريباً من الكوفة . وأعلن الشيعة الإمامية المعتدلة أن النبی إبراهيم ذكر « أنه سيكون فى هذا المكان قبر عليه مشهد عظيم يفوز به سيعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ويشفعون لغيرهم . وهذا المكان هو وادى السلام وهو

(١) اليعقوبى : تاريخ .. ج ٥ ص ٢٦٧ / ٥٣٨ .

(٢) اليعقوبى : تاريخ ج ٢ ص ١٩ .

(٣) اليعقوبى : تاريخ ج ٥ ص ١٥٥ .

جزء من جنة الله الباقية ، وإليه تحشر أرواح الشيعة ، وكأني بهم قعود يتحدثون » .
 وإلى هذا القبر يجمع الشيعة الإمامية من كل فج ، ويقفون أمامه باكين الإمام المعصوم ، أول الأئمة الصابر على الغصب ، المقتول ظلماً وعدواناً ويلتمسون منه الشفاعة في اليوم الآخر ، ومن قبره الشفاء في هذه الحياة الدنيا ، وينادون صاحب العصا والميسم ، وقسيم الجنة والنار ، ووارث النبين ويهتف الشيعة منهم « أشهد أنك كلمة التقى والأصل الثابت » .
 ومن العجب ، أن هؤلاء الشيعة ، قبل أن يخطوا باب المشهد يتجهون نحو يثرب مدينة الرسول محمد ﷺ ويصيحون « أتأذن يا رسول الله أن أدخل على عليّ ابن عمك وزوج ابنتك » ولكن حين يتخطون الباب الخارجى ويقفون أمام جدث الإمام يرددون « السلام على ذات الله العليا ، السلام على ذات الله القائمة بالسنن ، السلام على المن والسلوى » ،

الفصل الخامس

المختارية والكيسانية

مقدمات الشيعة الحنفية

تولى « معاوية الطليق » وابن « آكلة الأكباد » - كما دعاه على وشيعته من بعده - الخلافة بعد مقتل على بن أبي طالب ، وتنازل الحسن بن على له عن الخلافة مصداقاً لحديث رسول الله ﷺ « إن ابني هذا سيد ولعل الله يصلح به فتيين كبيرتين من المسلمين » وصالح معاوية الحسن على أن يكون الأمر له من بعده . ولكن معاوية لم يكن يهدأ له بال وحسن حى ، ويبيعه له قائمة بعده ، ولذلك قرر قتله وتخلص منه بالسهم (عام ٤٦ هـ) - فيما يقول الشيعة - ولست أبرأ معاوية . فلم يكن الرجل أبدا مسلماً تام الإسلام كان جاهلياً بمعنى الكلمة وكان على استعداد لارتكاب كل موبقة فى سبيل ولده يزيد ، غير أن أقدم مصدر شيعى بين أيدينا يقرر أن الحسن مات من جراحته التى أصيب منها فى مظلم ساباط بعد عودته من محاربة معاوية ولم يذكر أبداً قصة سمه (١) . وبكت الشيعة فى الكوفة إمامها الثانى ، سيد شباب أهل الجنة وإحدى ريحانتي رسول الله وابن فاطمة الزهراء . ومات الطليق آخر الأمر بعد أن قتل جماعة من كبار الصحابة صبرا - كحجر بن عدى وأصحابه . مات بعد أن بايع الناس بالخلافة لابنه يزيد ، وانتهى الأمر إلى ملك غاشم جاهلى يتوارثه الأمويون واحداً بعد واحد . ولم يقبل الحسين بن على بيعة يزيد وخرج إلى الكوفة ، إلى أنصاره وأنصار أبيه من قبل . ولكن مالبت القوم أن خدعوه وتخلوا عنه ، بل إن عبيد الله بن زياد أمير يزيد على الكوفة أرسل من أهل الكوفة أنفسهم من قام بقتله وقتل أولاده وأغلب الهاشميين معه . وكانت مذبحة (عام ٦١ هـ) لم ير المسلمون لها مثلاً ، وقد لعن المسلمون جميعاً يزيد . وخرجت نساء بنى هاشم حواسر يبكين الحسين .

ماذا تقولون إن قال النبی لكم	ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم
بعترق وبأهلى بعد مفتقدى	نصف أسارى ونصف ضرجوا بدم
ما كان هذا جزأى إذ نصحت لكم	أن تخلفوني بشر فى ذوى رحى (٢)

(١) أبو خلف القمى : كتاب المقالات ص ٢٣-٢٤ . (٢) السعوى : مروج ج ٢ ص ٩٥ .

وقد بكى المسلمون الحسين بن علي حتى يومنا هذا ، واعتبروه سيد الشهداء جميعاً .
 أما الشيعة المعتدلة ، فقد ذكروا أن الرسول ﷺ أخبر بمصرعه ، وأن الملائكة جاءت بتراب بيت المقدس إلى كربلاء ليدفن فيه الحسين ، وأنهم هبوا قبره قبل استشهاده بألف سنة ، وذكر الإمام الأول على حين مرّ بكربلاء « أن مائة نبي ومائة وصي ومائة من أبناء الأنبياء يشناقون لأن يدفنوا هنا » .
 ولقد كان مقتل الحسين أكبر حادث في تاريخ الإسلام السياسي والروحي . ولقد أصاب خلص المسلمين ذلة رانت عليهم أمداً طويلاً ، وأطلقت الأشعار في هذا فيقول سليمان بن قبة :

فإن قتيل الطف من آل هاشم أذل رقاب المسلمين فذل

ولكن ما لبث الشعور العام أن انطلق في الكوفة حين قام التوابون بحركتهم الفدائية الكبرى وهم يقولون « أفلنا ربنا تفريطنا فقد تبنا » . وقد قتل التوابون - كما قلنا من قبل - في عين الورد ، وتركوا للمسلمين حتى الآن أعظم المثل في الدفاع عن العقيدة والفناء فيها .

وفي ذلك الوقت ظهر المختار بن أبي عبيد (المتوفى سنة ٦٧ هـ) وكون الشيعة الحسينية . كان يزيد قد مات ، وابن الزبير على مكة يتحكم أيضاً في أعناق المسلمين ويلحد في آيات الله في البيت الحرام ، ولا يصلي على الرسول نكايه في آل بيت رسول الله . وكان الإمام الرابع على زين العابدين بن الحسين قد اعتزل الناس وكذلك فعل محمد بن الحنفية الابن الثالث لعلي بن أبي طالب من غير فاطمة الزهراء . وكان محمد بن الحنفية صاحب راية على يوم صفين ، وعلى جانب كبير من العلم والدين . ظهر المختار بن أبي عبيد إبان هذه الحوادث كلها . وقد جاول الزبيرية والأمية أن يشوهوا حركة المختار بن أبي عبيد تشويهاً دينياً ، وأن يتبعوا أخبار الرجل بكل نقيضة ، وأن يصبغوا عليها صبغة سبائية بل أشد ونسبوه أو خلطوا بينه عن سوء قصد وبين الكيسانية ، كما خلطوا من قبل بين أنصار على المخلصين وبين السبائية .

أما عن نسبه فهو ابن أبي عبيد الثقفي ، وكان أبو عبيد من كبار الصحابة ، وكان يسكن الطائف ، ثم انتقل إلى المدينة في زمن عمر بن الخطاب ، وكان أبو عبيد من محبي علي ، وقد ذهب بابنه إليه ووضع يده فمسح على رأسه وقال « كيس ، كيس » فلزمه هذا الاسم (١) . ثم استشهد أبو عبيد وكان قائد المسلمين في واقعة الجسر . أما عن المختار فقد بقي في المدينة منقطعاً إلى بني هاشم . ثم انتقل إلى البصرة . وقد ذكر ابن كثير عنه أنه كان خارجياً ثم زبيرياً ، ثم شيعياً من أنصار علي زين العابدين ، ثم تركه إلى محمد بن الحنفية ونادى بإمامته وكل هذا خطأ تاريخي . فالرجل كان من محبي البيت العلوي - كما رأينا - خرج على رأس جماعة من السلاح في البصرة يريد نصر الحسين بن علي عليه

(١) المجلس : بحار الأنوار ج ٩ ص ١٧١-١٧٧ .

السلام فأخذه عبيد الله بن زياد وضربه بالقضيب على عينه فشرها ثم سجنه وكان يقول في سجنه . « حتى إذا أفت عمود الدين وشفيت صدر المؤمنين ، وأدركت ثأر النبيين ، لم يكبر على زوال الدنيا ، ولم أحفل بالموت إذا أتى (١) . وتدخل عبد الله بن عمر بن الخطاب زوج أخت المختار في أمره وأرسل إلى يزيد بن معاوية فيه ، فأمر يزيد عبيد الله بإطلاق سراحه وإخراجه من البصرة . وعاش المختار في الطائف . فلما وجد الأمر قد آل إلى عبد الله بن الزبير في أرجاء الحجاز ، شخص إلى الكوفة فوصل إليها وقد خرج سليمان بن صرد يطلب بدم الحسين عليه السلام واجتمعت إليه الشيعة في الكوفة ، ولم تكن لتجتمع عليه لو لم تعلم أنه من أكبر المخلصين لآل البيت فقال لهم : إن محمد بن علي ابن أبي طالب بعثني إليكم أميراً وأمرني بقتال المخلين ، والطلب بدماء أهل البيت المظلومين - وإني والله قاتل ابن مرجانة والمتقم لآل رسول الله ﷺ ممن ظلمهم (٢) .

ويذهب اليقوي - وهو أقدم مصدر تاريخي بين أئدينا إلى أن طائفة من الشيعة صدقته ، ولم تصدقه طائفة وإنما خرجوا إلى محمد بن الحنفية ليسألوه عن حقيقة الرجل . فقال لهم « ما أحب إلينا ممن طلب بثأرنا وأخذلنا بحقنا وقتل عدونا » فانصرفوا إلى المختار وبايعوه (٣) . وهذه دلالة على أن المختار بن أبي عبيد كان رجل محمد بن الحنفية ويقول ابن طباطبا « كان المختار رجلاً شريفاً في نفسه جالئ الهمة . كريماً » (٤) واستولى المختار على الكوفة ، وأخرج عامل عبد الله بن الزبير عنها سنة ٦٦ . ونادى قائده المشهور إبراهيم بن مالك الحارث بن الأشتر « يا ثأرات الحسين » وتوجه بأمر المختار إلى الموصل لاتخاذها من جيش عبد الملك بن مروان وكان يقود جيش هذا الأخير « عبيد الله بن زياد قاتل الحسين » ومعه من عاونوه في قتل الإمام الشهيد . وانتهت الموقعة بانتصار جيش المختار وقتل قتلة الحسين جميعاً . وأرسلت رؤوسهم إلى محمد بن الحنفية وتتبع المختار بن أبي عبيد كل من شارك في قتل الحسين وقتله .

وكان الذئب الغادر عبد الله بن الزبير يحكم مكة في ذلك الوقت . وقد تحامل على آل الرسول ، وأظهر لهم العداوة والبغضاء - بل إنه - في قلب البيت الحرام ترك الصلاة على رسول الله ﷺ في خطبته . فقيل له : لم تركت الصلاة على النبي ؟ فقال : إن له أهل سوء يشربون للذكرة ، ويرفعون رؤوسهم إذا سمعوا به .

ويذكر اليقوي أن عبد الله بن الزبير أخذ محمد بن الحنفية وعبد الله بن عباس وأربعة وعشرين رجلاً من بني هاشم وحبسهم في حجرة زمزم . وأقسم لبياعن أولي حرقهم بالنار . وكتب

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٨٣ ، ١٠٨ . (٢) اليقوي : تاريخ ج ٢ ص ٧ .

(٣) اليقوي : تاريخ ج ٢ ص ٥ . (٤) ابن طباطبا : الفخرى في الآداب السلطانية ص ١٠٩ .

لمحمد بن الحنفية إلى المختار بن عبيد من سجنه « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن علي ومن قبله من آل رسول الله إلى المختار بن أبي عبيد ومن قبله من المسلمين . أما بعد : فإن ابن الزبير أخذنا فحبسنا في حجرة زمزم وحلف بالله الذي لا إله إلا هو لنبايعنه أو ليضرمنا علينا بالنار فيا غوثاه » فأرسل المختار بن أبي عبيد جيشاً بقيادة أبي عبد الله الجدل - في أربعة آلاف راكب ، فقدم مكة ، فكسر الحجرة ، وأنقل آل بيت رسول الله . وقال لمحمد بن علي : دعني وابن الزبير . أي أنه أراد قتل ابن الزبير ، ولكن محمد بن الحنفية أبي أن يدع أبا عبد الله الجدل يقتل ابن الزبير وقال : لا أستحل من قطع رحمه ما استحل مني (١) . وأورد المسعودي نفس الواقعة (٢) . وخرج محمد بن الحنفية إلى رضوى وأقام بها . بل إنه في موسم الحج ، وقف محمد بن الحنفية في عرفات وقفة أمير المؤمنين . وتم الأمر لابن الزبير في الحجاز وأرسل أخاه مصعب بن الزبير لقتال المختار بن أبي عبيد - ودافع المختار عن الكوفة دفاع الأبطال حتى قتل شهيداً في محبة آل البيت العلوي عام (٦٧هـ - ٦٨٦م) . وقتل مصعب بن الزبير سبعة آلاف من أتباعه من الشيعة الحسينية (٣) غدرًا بالسيف وكانت إحدى الغدرات الكبرى في تاريخ الإسلام ، بل قتل أيضاً زوجة المختار أسماء بنت النعمان بن بشير الصحابي حين رفضت أن تتبرأ من زوجها بعد موته وتلعنه : وقالت : إنه كان تقياً نقياً صواماً ، كيف أتبرأ من رجل يقول ربي الله ، كان صائماً نهاره ، قائم ليله قد بذل دمه لله ورسوله في طلب قتلة ابن بنت رسول الله ﷺ وأهله وشيعته فأمكنه الله منهم حتى شنى النفوس » وحين قدمت للقتل ، قالت : شهادة أرزقها فأتركها كلا إنها موتة ، ثم الجنة ، والقُدوم على الرسول وأهل بيته ، والله لا يكون آت مع ابن هند فأتبعه ، وأترك ابن أبي طالب ، اللهم اشهد أني متبعة لنبيك وابن بنته ، وأهل بيته وشيعته » وقدمت للموت فقابلته بشجاعة نادرة .

كل هذه دلائل واضحة على أن المختار بن أبي عبيد كان رجلاً تقياً ممتازاً في دينه . مقاتلاً في سبيل أهل البيت . بل إن المختار يعلن في آخر مواقفه بعد أن قتل محمد بن الأشعث الكندي - وكان أيضاً من قتلة الحسين « طابت نفسي بقتله ، إن لم يكن قد بقي من قتلة الحسين غيره ، ولا أبالي بالموت بعد هذا (٤) .

وقد مدح أهل البيت جميعاً المختار بن أبي عبيد . مدحه شيخ بني هاشم عبد الله بن عباس فيما يروي ابن الأثير (٥) بل تجمع المصادر السنية أنه كان يرسل المال من خراج العراقيين إلى

(١) البغوي : تاريخ ج ٢ ص ٧ .

(٢) المسعودي : مروج ج ٢ ص ١٠١-١٠٠ .

(٣) نفس المصدر : مروج ج ١ ص ٣٥ .

(٤) البغدادي : الفرق بين الفرق ص ٣٢ .

(٥) ابن الأثير : تاريخ ج ٤ ص ٨٣-٨٤ .

عبد الله بن عمرو بن عباس وابن الحنفية وغيرهم فيقبلونه منه . وكان الإمام على زين العابدين يقبل هداياه ومنها أم ولد ولدت له الإمام زيد بن علي (١) ، وقد دعا له الإمام زيد . كما شكره الإمام محمد الباقر على أخذه بثأر الحسين وترحم عليه هو والإمام جعفر الصادق . وليس من المعقول قط أن يتسبب إلى محمد بن الحنفية وفي الآن عينه يضع نفسه في مرتبة أعظم من مرتبة الإمام . إن الشهرستاني نفسه يذكر أنه انتظم له ما انتظم بأمرين : أحدهما انتسابه إلى محمد بن الحنفية علماً ودعوة والثاني قيامه بثأر الحسين عليه السلام واشتغاله ليلاً ونهاراً بقتال الظلمة الذين اجتمعوا على قتل الحسين (٢) .

هذه حقيقة المختار بن أبي عبيد وقد تنكب الحقيقة الكثيرون من الباحثين ، لقد ملأت الزبيرية أولاد الزبير بن العوام الدنيا بالدعوى الكاذبة حول المختار . وقد كانوا طلاب دنيا أكثر من الأمويين ، بل من الثابت أنهم أفسدوا أباهم ودعوه إلى حرب اقتتل فيها المسلمون قتالاً عنيفاً ، وذكر على بن أبي طالب نفسه أن الزبير بن العوام كان على الحق حتى غيره أبنائه ، كذلك قامت الأموية بما كان لها من قوة الحكم والسلطان والمال بيث الدعوة ضد المختار بن أبي عبيد فقد حارب الرجل الاثنى حرباً عنيفة وقتلها في سبيل حب آل البيت أشد قتال . وتابعه عطاء الكوفة من أمثال عبد الله الحر وإبراهيم بن مالك الأشتر . وهما من عيون رجال الكوفة ، ويقول صاحب الفرق بين الفرق « ودخل في بيعته عبد الله بن الحر الذي لم يكن في زمانه أشجع منه وإبراهيم بن مالك الأشتر ، ولم يكن في شيعة الكوفة أجمل منه ولا أكثر منه تبعاً » (٣) .

إن الخطأ الذي وقع فيه بعض مؤرخي العقائد من الشيعة وأهل السنة أنهم خلطوا بين المختار بن أبي عبيد وبين شخصية أخرى معاصرة له - وهي شخصية كيسان . فيذهب مؤرخ شيعي قديم كأبي خلف القمي ويتابعه التوحيدي إلى أن الكيسانية إنما سموا بذلك لأن رئيسهم الذي دعاهم إلى ذلك المختار بن أبي عبيد الثقفي وكان لقبه كيسان . ثم يذكر أيضاً في فقرة أخرى أنه لقب بكيسان وهو لقب صاحب شرطته (٤) ومرة ثالثة أن محمد بن الحنفية « استعمل المختار بن أبي عبيد الثقفي على العراقيين بعد قتل الحسين ، وأمره بالطلب بدم الحسين وثأره ، وقتل قتله ، وطلبهم حيث كانوا ، وسماه كيسان لكيسه ، وما عرف من قيامه » (٥) وذهب مؤرخو السنة جميعاً إلى نفس الرأي ، وإن كان البغدادي قد

(١) أبو الفرج الأصبهاني : مقاتل الطالبيين ص ٩٢ .

(٢) الشهرستاني : الملل ج ١ ص ٢٢٢ .

(٣) البغدادي : الفرق ص ١ .

(٤) أبو خلف القمي : كتاب المقالات والفرق ص ٢١ والتوحيدي : فرق الشيعة ص ٢٣ .

(٥) أبو خلف القمي : كتاب المقالات ص ٢٦ والتوحيدي : فرق الشيعة ص ٢٧ .

تنبه إلى حد ما إلى حقيقة الأمر فقال « وكان المختار يقال له كيسان وقيل إنه أخذ مقالته عن مولى لعلى رضى الله عنه كان اسمه كيسان (١) » .

ومن هذا نرى أننا أمام شخصيتين مختلفتين ، المختار وكيسان ، ومن الواضح أن البغدادى يحاول أن ينسبه في النص السالف لكيسان مولى على ، وهذا خطأ فإن كيسان مولى على كان قد مات قبل حركة المختار ، فنحن إذن أمام كيسان آخر متأخر عن عصر الإمام على أو بمعنى أدق أمام شخصية تسمت باسم كيسان مولى على بن أبى طالب .

وقد كشف لنا ظهور كتاب المقالات والفرق لأبى خلف القمى عن حقيقة كيسان هذا . فهو أبو عمرة السائب بن مالك الأسعدى المثنوى سنة ٦٧ هـ وكان يجاور المختار بن أبى عبيد في سكنه وكان صاحب سره ومؤامراته فلما قام المختار بن أبى عبيد بحركته ، جعله صاحب شرطته (٢) ويذهب الطبرى إلى أنه كان مولى غزينة أو مولى بجيلة (٣) . وهو أعجمى فيما يقول الشعبي (٤) . وجاور المختار بن أبى عبيد ، وأنه كان يزكى الشيعة ويهاجم عثمان وضرب لذلك بالسياط (٥) ، ويبدو أنه هو الذى عاون المختار على الطلب بثار الحسين وقتل أعدائه ، وأنه دله على قتلته ، وتبعهم بنفسه واحداً فواحداً ويقول الدينورى « إن المختار ولى الشرطة كيسان أبا عمرة ، وأمره أن يجمع ألف رجل من الفعلة بالمعاول ، ويتبع دور من خرج إلى قتال الحسين بن على فيهدمها ، وكان أبو عمرة بذلك عارفاً ، فجعل يدور بالكوفة على دورهم فيهدم الدار في لحظة . فن خرج إليه منهم قتله ، حتى هدم دوراً كثيرة . وقتل أناساً كثيرين ، وجعل يطلب ويستقصى ، فن ظفر به قتله ، وجعل ماله وعطاءه لرجل من أبناء العجم الذين كانوا معه (٦) ويرى المؤرخون أنه تجاوز المختار في القول والفعل والقتل ، أى أنه غلا في عقيدته أكثر من المختار ، كما أنه أيضاً غلا في قتل أعداء الحسين بن على وقاتليه . وكان يقول إن المختار وصى محمد بن الحنفية وعامله ، وكان يكفر من تقدم علياً ، ويكفر أهل صفين وأهل الجمل . بينما كان المختار لا يكفر من تقدم عليه ولكنه كان يكفر أهل صفين وأهل الجمل (٧) وهذه المقارنة بين الاثنين تستدعى النظر ، كان المختار ابناً لصحابي كبير ، نشأ في رحابه ، ورأى كيف استشهد أبوه في عهد الشيخين فتولاهما ، ولكنه أحب علياً ، فكفر كل من حاربه منذ ولايته الفعلية ، بينما أحب أبو عمرة علياً حبا ملك عليه كل نفسه ، وجعله ينكر إمامية الشيخين وعثمان من قبل . وأخيراً يذكر

(١) البغدادى : الفرق ص ٣١ .

(٢) أبو خلف القمى : كتاب المقالات والفرق ص ٢٢ ، ٢٣ . (٦) الدينورى : الأخبار . ص م ٢٩٣ .

(٣) الطبرى : ج ٣ ص ٦٣٤ .

(٤) (٧) أبو خلف القمى : كتاب المقالات ص ٢٢ .

(٤) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

أبو خلف والنوحي أن أبا عمرة كان يزعم أن جبريل يأتي المختار بالوحي من عند الله . فيخبره بذلك ولا يراه . وأن جبرائيل وميكائيل يتزلان عليه بالوحي (١) فكان كيسان إذن هو الذي صور المختار بهذه الصورة ، إن صحت هذه النصوص التي أوردتها مؤرخو الفرق . ولكننا نرى البغدادي يذكر بأن المختار - بعد أن تمت له ولاية الكوفة والجزيرة والعراقيين إلى حدود أرمينية تكهن وسجع كأسجاع الكهنة وادعى نزول الوحي إليه (٢) ولكنه ما يلبث أن يقول بأن السبابة هي التي خدعت المختار ، وأنهم قالوا له : أنت حجة هذا الزمان ، ثم حملوه على دعوى النبوة فادعاهما عند خواصه ، وزعم أن الوحي يتزل عليه ، وسجل بعد ذلك (٣) . ولم يذكر البغدادي هنا الكيسانية ، بل ذكر السبابة الغلاة من الروافض . والرافضة لم تظهر في أيام المختار ، والشهرستاني - لا يذكر أبداً أن المختار قد أعلن نبوته ونزول الوحي إليه ، بل ذكر أنه كان يدعو إلى محمد بن الحنفية ، ويظهر أنه من رجاله ودعائه . ويذكر علوماً مزخرفة ينوطها به (٤) ، أي أنه غلا إلى حد ما في حب محمد بن الحنفية ، وأن محمد بن الحنفية لما وقف على هذا تبرأ منه ، وتفسير هذا أنه نسب إلى محمد بن الحنفية علوماً كثيرة سرية ، وأن محمد بن الحنفية أنكر هذا . وهذا خطأ ، فلم يكن المختارين أبي عبيد من رجال السحر والنيروجات ، ولم يكن غنوصياً ، إنما كان رجلاً مقاتلاً لسنّاً فصيحاً ، تولى الشيخين أبا بكر وعمر ، ولكنه أحب أهل البيت وآمن بأحقية علي بن أبي طالب وابنه الحسين ، فقاتل قتالاً عنيفاً في هذا السبيل ، ونراه يقتل زوج أخته عمر بن سعد وابن أخته جعفر بن عمر ، ولا يأبه بقرابتهما له . ثم نراه بعد ، يؤمن بمحمد بن الحنفية ، ويدعو له .

أما إذا كان هناك غلو في عهد ولاية المختار للكوفة ، فقد قام به كيسان أو أبو عمرة ، وإن كان هناك شك أيضاً في أن الآراء الغالية قد ظهرت منه . كان أبو عمرة من محبي أهل البيت ، فلما واثته فرصة الانتقام من أعدائه ، انتهزها بكل قواه ، فكان يقاتل ويقتل كل من شارك في قتل الحسن ، ويهدم داره ، ويقتل كل ما فيه من ذى روح . وقد خرب دوراً كثيرة ، وقتل الكثيرين من أعداء الحسين ، وقيت ذكراه في الكوفة أمداً طويلاً بحيث كان أهلها يضربون به المثل ، فإذا أصاب الفقر إنساناً قالوا دخل أبو عمرة بيته ، وخلد الشاعر ذكرى أبي عمرة فيقول :

إبليس بما فيه خير من أبي عمرة يغويك ويطفيك ولا يعطيك كسره

(١) نفس المصدر السابق والنوحي : فرق : ص ٣٣ .

(٢) البغدادي : الفرق . ص ٣٩ .

(٣) البغدادي : الفرق ص ٣١ .

(٤) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٣٧ .

عاون أبو عمرة المختار بن أبي عبيد ، في الكوفة ، ويبدو أنه كان أعجمياً ، ولذلك نراه يجمع العجم الحمراء ، وأرسلهم مع إبراهيم بن الأشتر حيث قتلوا قتلة الحسين (١) وقد قتل أبو عمرة في واقعة المذار عام ٦٧ للهجرة (٢).

وهنا نتساءل : هل كان أبو عمرة حقاً غنوصياً ، وهل كان على صلة بمجموعات ثنوية ومسيحية ويهودية ، نفثت سمومها فيه ، ثم حملها هو وأتباعه إلى شيعة الكوفة . ومن ثم نسبت للمختار . ليس لدينا نصوص قاطعة تثبت هذا ، إن كل ما لدينا من وثائق تثبت أنه كان مولى لقبيلة بجيلة ، وأنه عاش في هذا الوسط القاتم من الأحرار على على وبنه ، وقد تبنت هذه القبيلة الغلو فيما بعد ، ولكن هل كان أبو عمرة منشئه ، وزارعه ، إنني أستبعد هذا . وأرى أنه كان أيضاً رجلاً من محبي أهل البيت ، ولو عرف المختار زيغته ، لما ولاه شرطته . وعرض حركته لدعايات الأمويين والزييريين ، وإن كان لم يسلم منها في نهاية الأمر .

ولكن إذا لم يكن المختار بن أبي عبيد ولا صاحب شرطته أبو عمرة هما مؤسسي هذه العقائد الغالية في بيت رسول الله بعد السبئية ، فمن الثابت ، أن هذه الآراء قد وجدت في الكوفة ، ووسمت باسم المختارية أحياناً والكيسانية أحياناً أخرى . وكانت الكيسانية هي المستولة الأولى عنها . إن في مجامع الكيسانية وبعد وفاة المختار وأنى عمرة . ورجوع الكيسانيين إلى دورهم ، بدأ الغنوص العنيف يلتف حول عتق الشيعة في الكوفة يعتصرها اعتصاراً ، وينشب مخالبه فيها بحيث لم تخلص الشيعة - في أقسامها المختلفة غلاة وعباسية واثني عشرية وإسماعيلية وقرامطة - من الآراء الكيسانية . ومن العجب أن هذه العقائد لم تتركز في أول الأمر حول إمام فاطمي ، بل تركزت في محمد بن الحنفية وهو إمام علوى ، ولكنه ليس من نسل فاطمة . ولعلنا من هنا نستطيع أن نصور منحى كل من المختارية والكيسانية ، كانت المختارية ، شيعة حسينية عربية في مجموع آرائها ، أعلنت انتباهها بمحمد بن الحنفية . للانتقام للحسين بن علي ، وأدت مهمتها على أحسن وجه ، وكتبت ملهمتها رائعة ناضرة ، بينما نرى الكيسانية - وهي فارسية هي في عقائدها حنفية تنادي بإمامة محمد بن الحنفية المطلقة ، ثم بإمامة ابنه أبي هاشم ، وأخلافهما من بعدهما ، أونادت بمهدية محمد بن الحنفية فقط .

ولقد كان لمحمد بن الحنفية وابنه أبي هاشم أكبر الأثر في تكوين العقائد الشيعية الحقيقية . حقاً لقد انقسمت الشيعة سواء أرادوا أم لم يردوا إلى فاطمية وحنفية . ولكن شيعة محمد بن الحنفية وشيعة ابنه أثرتا أكبر الأثر في كل فرق الشيعة بعدهما ، وهذا ما يجعلنا نفردهما فصلاً خاصاً .

(١) الدينوري : الأخبار الطوال ص ٢٩٣ .

(٢) أبو خلف القمي : كتاب المقالات والفرق ص ١٦٦ تعليقات الدكتور مشكور .

الفصل السادس

الشيعة الحنفية

الإمام محمد بن الحنفية

تذكر الشيعة الحنفية أن النبي ﷺ قد بشر بميلاد محمد بن الحنفية، فقد أخبر علياً أنه «سيولد لك من بعدى غلام وقد نخلته اسمي وكنيتي ولا تحل لأحد من أمتي بعده» وماتت فاطمة الزهراء وتزوج على عليه السلام الحنفية «خولة بنت جعفر من بني حنيفة»، وولد له محمد، وقد أجمع كتاب أهل السنة أن محمد بن الحنفية كان واسع العلم شديد الورع شديد القوة. وكان محمد بن الحنفية يقول «الحسن والحسين أفضل مني وأنا أعلم منهما» وقد خرج محمد مع أبيه في حربه يوم الجمل ودفع أبوه إليه رايته وقال له :

أطعنهم طعن أبيك محمد لاخير في حرب إذا لم توفد

بالمشرقي والقنا المشردي^(١)

ومع أنه قد تردد في حمل هذه الراية، فقد عرف باسم «صاحب راية أبيه» وكان هذا سنداً فيما بعد - للكيسانية من أتباعه في القول بإمامته. وقد تردد في حمل هذه الراية، لأنه رأى أنه قتال المسلمين. وكان يردد «هذه والله الفتنة المظلمة العمياء». وهنا يرد عليه أبوه قائلاً «هل عندك في جيش مقدمه أبوك شيء؟»^(٢) وفي رواية أخرى «أتكون فتنة أبوك قائدها» وحمل ابن الحنفية الراية. وخاض الحرب - فيما يبدو - كارها. وحين انتهت الحرب وقتل الإمام على عاش مع أخيه الحسن حتى مات، ثم استقر في المدينة وعاش فيها متنقلاً بينها وبين مكة، وبائع يزيد لولاية العهد في حياة معاوية. وزاره في دمشق بعد توليه الخلافة، وقبل هداياه.

وفي المدينة بالذات أنشأ مكتباً للتعليم، وقد كان هذا المكتب إحدى الحلقات الكبرى العلمية في تاريخ الإسلام. ولم يتنبه الباحثون إلى أهميته من قبل، من هذا المكتب خرجت كل الآراء المتعارضة في الإسلام فالإرجاء ينسب إلى ابنه الحسن والاعتزال إلى ابنه أبي هاشم وحول شخصية

(١) الإسفرايبي: التبصير في الدين ص ١٨.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٢٠.

محمد بن الحنفية وفي هذا المكتب أيضاً ظهرت فيما أعتقد الآراء الكيسانية ومن تلامذة هذا المكتب أيضاً المختار بن أبي عبيد ، كما أن من تلامذته واصل بن عطاء شيخ المعتزلة . إنها مدرسة تشبه مدرسة الحسن البصري بل أعظم منها بكثير ، منها ظهرت الفرق المتعارضة والآراء المتناقضة والأفكار الغريبة . أما عن محمد بن الحنفية نفسه ، فقد خاض مع أبيه - كما قلنا من قبل - غمار الحرب ، وكان لها كارهاً . وذلك أنها فرق بين المسلمين ، ثم نراه - فيما بعد يعلن فكرته في هذا « لو اجتمع الناس على كلهم إلا إنساناً واحداً لما قاتلته » وأعتقد أنه كان من المؤيدين للحسن في تنازله عن الخلافة لمعاوية . لقد رأى أن لأهل البيت مهمة أسمى ، وهي نشر العقيدة والمساهمة في تدعيمها ، وترك أمر المسلمين لمن أراد ، طالما لم يجتمع المسلمون على واحد من أهل البيت . بل رأى المسألة كلها مسألة عصبية وقوة ومنعة ، وليست أمراً من أمور الله . فقال « أهل بيتين من العرب يتخذهما الناس أنداداً من دون الله نحن وبنو عمناء هؤلاء . يعني بنى أمية » ومرة أخرى يقول « نحن أهل بيتين من قريش نتخذ من دون الله أنداداً - نحن وبنو أمية (١) » فلم يكره محمد بن الحنفية الغلو فقط ، في بنى هاشم وبنى أمية ، بل إنه عبر بقوله هذا أو بقوليه هذين أن الأمر أمر عصبية ، يأخذها من غلب .

ومات معاوية وولى الأمر يزيد ، وقتل الحسين ، وبكاه محمد بن الحنفية أشد بكاء . ولكنه بايع يزيد بن معاوية ، ورفض تماماً أن يخلع بيعته . وحصر عبد الله بن الزبير بنى هاشم في شعاب مكة ، كما فعل من قبل مشركو قريش مع الرسول وبنى هاشم . وأعلن ابن الحنفية « لو أن أبى على أدرك هذا الأمر لكان هذا موضع رحله ، فهو إذن يتبع سنة أبيه أو السنة التي أرادها لأبيه . ولكنه يضيق بهؤلاء العرب الذين سلبوه الحق هو وآل بيته » أما أن لكم أن تعرفوا كيف نحن ، مثلنا في هذه الأمة مثل بنى إسرائيل في آل فرعون « كان يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم » وإن هؤلاء يذبحون أنساءنا وينكحون نساءنا بغير أمرنا ، فزعمت العرب أن لهم فضلاً عن العجم (٢) . . . وتتضح روح الإيثار عنده وحده على شيعة أهل البيت حين يقول « وددت لو فديت شيعتنا هؤلاء ولو ببعض دمي (٣) » . وهو يريد لهم الأمن والسلام فيقول لأحد أتباعه « الزم هذا المكان . وكن حامية من حجمات الحرم . . حتى يأتى أمرنا . فإن أمرنا إذا جاء فليس به خفاء . كما ليس بالشمس إذا طلعت خفاء » ويزعجه حوادث ابن الزبير وطمعه فيقول « إن هذه لصاعقة لا يقوم لها شيء » .

ويأتيه أحد أتباعه من خراسان ، وطلب منه أن يكلمه سراً وقال له . . « فما زال الشين في حبكم

(١) ابن سعد : طبقات ج ٥ ص ٦٨ .

(٢) نفس المصدر السابق ج ٥ ص ٦٩ .

(٣) ابن سعد : طبقات ج ٥ ص ٧١ .

حتى ضربت علينا الأعناق وأبطلت الشهادات ، وشردنا في البلاد وأوذينا حتى لقد هممت أن أذهب في الأرض قفراً ، فأعبد الله حتى ألقاه . لولا أن يخفى على أمر آل محمد » ثم يسأله هل يقاتل مع الخوارج أمراء بني أمية . وأجاب محمد بن الحنفية : أما قولك : لقد هممت أن أذهب في الأرض قفراً ، فأعبد الله حتى ألقاه وأجتنب أمور الناس فإن تلك البدعة الرهبانية . ولعمري لأمر آل محمد لأين من طلوع هذه الشمس » ثم ينهيه عن القتال مع الخوارج ، ويطلب منه التقية « اتق هؤلاء القوم بتقيتهم » فبدأ التقية بقرار هنا كمبدأ شيعي على يد محمد بن الحنفية . ثم يعلن مبدأ الولاء لآل محمد فيقول « من أحبنا ، نفعه الله ، وإن كان في الدبلم (١) » .

ولقد حظى محمد بن الحنفية في كتابات أهل السنة والجماعة بالمكانة السامية ، فقد أثر اعتزال كل الفتن ، وبإيع الخلفاء الغاصيين من بني أمية حقناً للدماء وحفظاً للمسلمين ، وعاش في فتنه الزبير ، وحاول تجنبها وتبرأ في رأى أهل السنة والجماعة أيضاً من الآراء الغالية التي نادى بها الكيسانية . ومن الثابت أن محمد بن الحنفية لم يكن على الإطلاق رجلاً قتل وقلاقل ، ولكنه لم ينس واجبه ، وحق آل البيت ، ومن الواضح أيضاً أنه هو الذي استعمل المختار بن أبي عبيد على العراقيين بعد قتل الحسين ، وأمره بالطلب بدمه والثأر له وقتل قاتليه وطلبهم حيث كانوا (٢) . وقد فعل المختار هذا .

أما الآراء الشيعية التي ظهرت في عصر محمد بن الحنفية ، وبعد شهادة الحسين فهي :
(١) المهدي : وهنا نجد أول ظهور حقيقي لفكرة المهدي . واعتبر محمد بن الحنفية أول مهدي في الإسلام . وكان أتباع محمد بن الحنفية يسلمون عليه «سلام عليك يا مهدي» ويورد ابن سعد في طبقاته أنه رد عليهم بقوله «أنجل : أنا مهدي أهدى إلى الرشيد والخير ، واسمى اسم نبي الله ، وكنتي كنية نبي الله ، فإذا سلم أحدكم فليقل سلام عليك يا محمد ، السلام عليك يا أبا القاسم (٣) » .
وبذكر البغدادي أن عامر بن واثلة الكنانى صاحب محمد بن الحنفية - كان يسير في مقدمته وهو في طريقه إلى عبد الملك بن مروان يقول لأتباعه :

يا إخواني : يا شيعتي لا تبعوا وآزروا المهدي كما تهتدوا
محمد الخيرات يا محمد أنت الإمام الطاهر المسدد
لا ابن الزبير السامري الملحد ولا الذي نحن إليه نقصد (٤)

وسواء أكانت هذه تقية من محمد بن الحنفية - أى سيره إلى عبد الملك بن مروان أو غير تقية - فإنه اعتبر أول مهدي في الإسلام ، وكان له ملامح المهدي تماماً ، ونحن نعلم أنه وقف على عرفات في

(١) نفس المصدر السابق ج ٥ ص ٧٠ .

(٣) ابن سعد : طبقات ج ٥ ص ٦٨-٦٩ .

(٢) النوبختي : فرق الشيعة ص ٢٧ .

(٤) البغدادي : الفرق ص ٤ .

لواء بدعونه بأمر المؤمنين . بل إن فرقة من الفرق اعتبرته الإمام المهدي الوحيد . وأنه هو وصي علي بن أبي طالب الوحيد أيضاً « وليس لأحد من أهل بيته أن يخالفه ولا أن يشهر سيفه إلا بإذنه ، وإنما خرج الحسن بن علي إلى معاوية محارباً له بإذن محمد ووادعه وصالحه بإذنه وأن الحسين خرج لقتال يزيد بإذنه ولو خرجا بغير إذنه هلكا وضلّا وأن من خالف محمد بن الحنفية كافر مشرك (١) فهو إذن الإمام الحقيقي ، وصاحب الحق بعد الإمام علي في الخلافة عند طائفة من الكيسانية .

(ب) البداء : والبداء له معان فيقول الشهرستاني : البداء في العلم وهو أن يظهر الله صواب علي خلاف ما أراد وحكم ، والبداء في الأمر وهو أن يأمر بشيء ثم يأمر بعده بخلاف ذلك ، ومن لم يجوز النسخ ظن أن الأوامر المختلفة في الأوقات المختلفة متناسخة . وقد جوزت الشيعة في عهد محمد بن الحنفية البداء على الله ، ونسبتها كتب أهل السنة للمختار بن أبي عبيد . ويرى الشهرستاني أن المختار لجأ إلى القول بالبداء ، لأنه كان يدعي علم الحوادث المستقبلية ، إما بوحى يوحى إليه ، وإما برسالة من قبل الإمام ، يخبره فيها بما سيحدث . فكان إذا وعد أصحابه بكون شيء وحدثت حادثة ، فإن حدثت الحادثة كما ذكر قوله ، جعله دليلاً على صدق دعواه ، وإن لم تحدث قال : قد بدا لربكم . وكان لا يفرق بين النسخ والبداء . فقال إذا جاز النسخ في الكلام جاز البداء في الأخبار (٢) . ويبدو أن القول بالبداء يستند عند الشيعة على قوله تعالى : « يحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » . والبداء ظهور الرأى بعد أن لم يكن ، والبدائية : هم الذين جوزوا البداء على الله عز وجل بأن يعتقد شيئاً ، ثم يظهر له أن الأمر بخلاف ما اعتقد ، غير أنه من الواضح أن المختار لم يلجأ إلى هذه الحيل ، وإن كانت فكرة البداء قد ظهرت فعلاً في مجتمع الكوفة في عهده ، وعلى يد أتباعه .

والمطلبي لا ينسب البداء إلى المختارية أو الكيسانية بل إلى السبائية ، ويقرر أنهم يقولون . إن الله تبدو له البدوات (٣) أما مؤرخ العقائد وشيخ السنة أبو الحسن الأشعري ، فإنه ينسب فكرة البداء إلى الرافضة ، وهو لفظ أطلق على الشيعة فيما بعد ويرى الأشعري أنها افترقت في جواز البداء على الله ، هل يجوز أن يبدو له إذا أراد شيئاً أم لا ، إلى ثلاث فرق :

الفرقة الأولى : ترى أن الله تبدو له البدوات ، وأنه يريد أن يفعل الشيء في وقت من الأوقات ، ثم لا يحدث لما يحدث له من البداء ، وأنه إذا أمر بشريعة ثم نسخها ، فإنما ذلك لأنه بدا له فيها ، وأن ما علم أنه يكون ولم يطلع عليه أحداً من خلقه فجاءت عليه البداء فيه . وما اطلع عليه عباده فلا يجوز عليه البداء فيه (٤) . من هذا النص نرى أن للبداء معنى آخر يتصل بقدرة الله وبعلمه ، فما يقدر

(١) التوحيدي : فرق الشيعة ص ٦ ، ٢ . (٢) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٣٧ - ٢٣٨ . (٣) المطلبي : التنبيه .. ص ٢٦ .

(٤) الأشعري : مقالات الإسلاميين ج ١ ص ٣٩ .

عليه الله ولم يطلع أحداً عليه ، فله أن يفعله أولاً بفعله ، وأما ما علم الناس أنه كائن ، فلا بداء فيه .
والفرقة الثانية : وهي تقرر البداء لله إطلاقاً ، فهو جائز على الله فيما علم أنه يكون حتى لا يكون ،
وجوزت ذلك فيما أطلع عليه عباده وأنه لا يكون كما جوزوه فيما لم يطلع عليه عباده .

والفرقة الثالثة : وهي تقرر أنه لا يجوز على الله البداء (١) . فالبداء إذن فكرة نشأت ساذجة في
عهد المختار ، وفي أوساط الغلاة ، ثم انقلبت إلى فكرة من « جليل الكلام » فيما يرى الأشعري .
(ج) العلم السري : وبدأت في عهد محمد بن الحنفية فكرة العلم السري منسوبة إلى الأئمة . وقد
ذكر الشهرستاني : « والسيد كان كثير العلم غزير المعرفة وقاد الفكر ، مصيب الخاطر في العواقب ، قد
أخبره أمير المؤمنين عن أخبار الملاحم ، وأطلعته على مدارج المعالم . وهذا ما يؤمن به أهل السنة
ولكن الشيعة في عصره أضافوا . « أنه كان مستودعاً علم الإمامة حتى سلم الأمانة إلى أهلها ، وما فارق
الدنيا حتى أقرها في مستقرها ، فإنه يعرف الأسرار يحملها من علم التأويل والباطن وعلم الآفاق
والأنفس (٢) . وهذا تصوير متأخر . ظهر من الإمامية حين بدأت نظريات الإمام المستقر
والمستودع ، وتظهر في محيط الشيعة الغلاة المتأخرين ثم الإسماعيلية فيميزون بين إمام مستقر وإمام
مستودع . فالإمام المستودع من تنتقل إليه الإمامة - ودبغة لكي ينقلها إلى إمام مستقر أو تكون الإمامة
في عقب المستقر ، ولا تكون في عقب المستودع ، فالحسن كان إماماً مستودعاً والحسين هو الإمام
المستقر . وتستخدم الشيعة الغلاة ، ثم الإسماعيلية هذه المصطلحات أسوأ استخدام .

ويبدو أن محمد بن الحنفية لم يشغل بمسألة الإمام المستودع والإمام المستقر . لأنه لم يعرفها ولم تظهر
في عهده . ولكن ما شغله هو نسبة العلوم السرية إليه . وقد كره أن يعلم عنه أنه يحوى هذه العلوم
فيفتن الناس فيعلن « إنا والله ما ورثنا من رسول الله إلا ما بين هذين اللوحين (٣) » ويقصد بهذا القرآن
الكريم .

هذه الأفكار الفلسفية الثلاث التي ظهرت في عهد محمد بن الحنفية . منسوبة إلى المختارية أحياناً
وإلى الكيسانية أحياناً . وقد ظهرت في الكوفة بالذات ، وعاون عليها بلا شك السبئية التي انتشرت
لدى بعض القبائل التي اتخذت التشيع عقيدة لها ومبدأ - كقبيلة عجلة وقبيلة بجيلة وقبيلة كندة .
وغلت في التشيع أشد غلواً ، وقد دخلت هذه العقائد في صورة مخففة في عقائد الإمامية الاثنى
عشرية .

(١) الأشعري . مقالات الإسلاميين ج ١ ص ٣٩ .

(٢) الشهرستاني : الملل ج ١ ص ١٤١ .

(٣) ابن سعد : طبقات ج ٥ ص ٣٢ .

وقد ساد الكوفة - إبان ذلك الوقت - الأساطير الكبرى عن ملجئة قتل الحسين عليه السلام ، ثم عن قتل قتلته ، فالملائكة على الخيل البلق تحارب معهم والحمامات البيض التي تظهر في الهواء والملائكة تنزل على صورة الحمامات ^(١) . أساطير ظهرت في هذا المجتمع الغريب . وكان مع المختار السبئية أى محبو على بن أبى طالب . وهم عرب أقحاح ، والكيسانية . وهم عبيد أهل الكوفة أى الموالى من الفرس «لأنه وعدهم أن يعطيهم أموال سادتهم» ^(٢) ، ولا بد أن تظهر كل تلك الأساطير في هذا الجيش النائر ، وأن يعاون عليه ثقافات عدة وأفكار متباينة . ولكن لم يكن المختارين أبى عبيد صاحب هذه الأساطير أو منشئها .

أما تطور العقائد الكيسانية بعد ذلك - إلى أن الدين طاعة رجل ، وتأويل الأركان الشرعية من الصلاة والصوم والزكاة والحج وغيرها على رجال . . . والتناسخ والحلول والرجعة بعد الموت . . . فلم تظهر في عهد محمد بن الحنفية . ولم يعرفها المختار .

أما مصادر الأفكار الشيعية الثلاث في هذا الوقت فهي : المهدي . ويستند الشيعة على الحديث «لا تنقضى الدنيا حتى يخرج رجل من أمتي يواطئ اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي فيملا الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً» . ولكن من الثابت أن المهدي فكرة تتنازعها الأديان الثلاثة وأنت بها اليهودية والمسيحية والإسلام فهي حظ مشترك بينهم جميعاً . ومن المحتمل أن يكون كعب الأحبار ، كما سنرى بعد . هو الذى أدخلها في التراث الإسلامى . أما البداء ففكرة يهودية . والعلم السرى فهو فكرة غنوصية .

وأخيراً مات محمد بن الحنفية بشعب رضى عام ٨١ هـ .

(١) الشهرستاني : الملل .. ج ١ ص ٢٤ .

(٢) البغدادي : الفرق .. ص ٢٢ .

الفصل السابع

الشيعة الأبوهاشمية

الإمام أبو هاشم بن محمد بن الحنفية

انتقلت الإمامة بعد وفاة محمد بن الحنفية إلى ابنه أبي هاشم ولالإمام أبي هاشم من المكانة العظمى في تاريخ الفكر الإسلامى ، ما لا يدانيه أحد من رجالات أهل البيت في عصره أو حتى من التابعين ، والكشف عن شخصيته من أعقد الأمور وأكثرها إشكالاً : هل كان أبو هاشم رجلاً ذكياً من رجال البيت العلوى ، أم كان غنوصياً قائماً .

أما أهل السنة والجماعة فقد اعتبروه إماماً من أئمة المسلمين ، سار على هدى أبيه ، وأخذ يعمل معه في نشر العقيدة ، وكان له دور فعال - فيما يبدو - في المكتب الذى أنشأه أبوه لنشر العلم . ثم كان محدثاً كبيراً . أخرج له أصحاب الصحاح الستة ووثقه ابن سعد والنسائى وغيرهما (١) . وفى الوقت نفسه يعتبره طاش كبرى زاده - كما قلنا من قبل - شيخاً من شيوخ واصل بن عطاء ، أى يعتبره أول من نادى بالاعتزال . يقول طاش كبرى زاده « أول ما ظهر مذهب الاعتزال وشاع ، إنما ظهر من واصل بن عطاء . أخذ الاعتزال عن الإمام أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية بن على بن أبي طالب . قيل كان أول من أحدث مذهب الاعتزال واخترعه . كان الإمام أبو هاشم المذكور » (٢) بينما كان أخوه الحسن بن محمد بن الحنفية أول المرجئة وله تصنيف فيه . فنحن إذن أمام محدث ثقة في رأى المحدثين ومنشئ الاعتزال في رأى مؤرخى علم الكلام ، وأخوه الحسن منشئ الإرجاء . أما الشيعة الحنفية فقد رأت طائفة منها أن الإمامة الروحية قد انتقلت من محمد بن الحنفية إلى ابنه أبي هاشم معلنين أن محمد بن الحنفية « أفضى إلى أبي هاشم بأسرار الكلام ، وأطلعه على مناهج تطبيق الآفاق على الأنفس ، وتقدير التنزيل على التأويل وتصوير الظاهر على الباطن ، قالوا إن لكل ظاهر باطناً ولكل شخص مروحاً ، ولكل تنزيل تأويلاً ، ولكل مثال في هذا العلم حقيقة في ذلك العالم ، والمنتشر في الآفاق من الحكم والأسرار مجتمع في الشخص الإنسانى ، وهو العلم الذى استأثر به على

(١) تعليقه (٣) لمحمد بن زاهد الكوثرى على التفسير في الدين ص ٢٧ .

(٢) طاش كبرى زاده : مفتاح السعادة ج ١ ص ٢٤٣ .

عليه السلام ابنه محمد بن الحنفية ، وهو أفضى بذلك السرى إلى ابنه هاشم ، وكل من اجتمع فيه هذا العلم ، فهو الإمام حقاً^(١) نص من أخطر النصوص إن صح فعلاً أنه ظهر في عهد أبي هاشم ، ويدوم منه أن المجامع الغنوصية - في نواحي الكوفة بدأت تعمل عملها الكبير الذى سيؤدى في تاريخ الإسلام العقائدى إلى أخطر النتائج ، ولا شك أنه كان هناك فرس كثيرون في جيش المختار بن أبى عبيد ، بل إن المحمرة كانوا سواد جيش إبراهيم بن الأشتر في حربه مع عبيد الله بن زياد ، ولا شك أن العقائد الثنوية بدأت تستشرى في هذا الوسط الغربى . إن انتقال العلم السرى من على إلى محمد بن الحنفية إلى أبى هاشم ، ثم إلى كل من اجتمع فيه هذا العلم سيؤدى إلى نتائج خطيرة في تاريخ الشيعة ، وسرى بعد قليل أن هذا العلم - سيخرج من دائرة العلويين إلى دائرة أناس آخرين وبخاصة في قبيلة عجلة أو قبيلة بجيلة ، يدعم الفكرة بعض الموالى ، وهم يحملون عقائد قديمة كامنة في نفوسهم . وأخيراً نرى فكرة تطبيق الآفاق على الأنفس . وظهور مصطلحى الظاهر والباطن ، وأن الظاهر لا يفسر ولا يؤول إلا باطناً ، وأيضاً نلمح لأول مرة فكرة الشخص الروحانى ، وأن إليه جماع الدنيا . وستخرج من هنا فكرة أن الدين طاعة رجل ، طالما اجتمعت الآفاق في نفس رجل ، ثم نرى الفكرة الأفلاطونية التى تقرر أن لكل شيء مثالا ، والتى دخلت ببراعة نادرة في العقائد الغنوصية ، تدخل أيضاً في قلب المذهب الشيعى . وكما أخذت الشيعة المعتدلة فيما بعد بكل العقائد التى أعلنها الشيعة في محمد بن الحنفية ونسبها إلى الأئمة الاثنى عشر ، دخلت أيضاً العقائد الغنوصية بعد عهد أبى هاشم في عقائد الشيعة الإمامية الاثنى عشرية في صورة معتدلة وفي عقائد الشيعة الإسماعيلية في صورة مغالية . بل إن منهج تطبيق الآفاق على الأنفس ، وأن لكل مثال في العالم الآخر مثلاً في هذا العالم . سيصبح نظرة ميتافيزيقية تكون أساس المذهب الإسماعيلى الميتافيزيقى في نظرية المثال والممثل ، كما أن فكرة الظاهر والباطن والتأويل والتنزيل ستصبح كلها دعائم للمذهب الإسماعيلى ، بل ومن العجب أن نرى «العدل والتوحيد» وهما أهم عقائد المعتزلة ، وهى التى تنسب أيضاً إلى أبى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية تدخل وتسيطر على عقائد الاثنى عشرية ، كما تسيطر على عقائد الزيدية ، وتسيطر على عقائد الإسماعيلية وينتمى الغلاة جميعاً في آرائهم إلى تلك الآراء الشيعية التى ظهرت في عهد إمامة أبى هاشم . وكان القرامطة أيضاً تلاميذ أئمة للأبى هاشمية .

لم تكن تلك الأفكار الغنوصية هى كل ماظهر في عهد إمامة أبى هاشم الروحية وإنما ظهرت فكرة خلود الإمام ورجعته ، وهى متصلة بالغلاة وسنبحثها في موضعها . وأخيراً نرى أبا هاشم يقدم على سليمان بن عبد الملك ، الخليفة الأموى ، فيقول سليمان لخاصته :

(١) الشهرستانى : الملل ج ١ ص ٢٤٣ .

« ما كلمت قرشيًّا قط يشبه هذا . وما أظنه إلا الذي كنا نحدث عنه (١) » ويبدو أن الأخبار تواترت بأن هناك من سيظهر ويعلن الثورة من آل البيت ، وكان أبو هاشم ذا نشاط جم لسناً عالماً ، وكان على صلة بأهل خراسان . بل إن أهل خراسان كانوا يعتبرونه « الإمام » وأنه ورث الوصية عن أبيه (٢) وهذا هو سبب تخوف سليمان بن عبد الملك منه . وفي خلال عودته من دمشق إلى المدينة ، وبعد محادثة سليمان له وتبينه خطورة الرجل . أرسل سليمان من أتباعه من ضربوا له أخبية في الطريق . وحين استقاهم أبو هاشم . حين مر بهم . قدموا له اللبن المسموم . فلما استقر اللبن في جوفه ، وأحس أنه سم قال لمن معه من أصحابه « أنا والله ميت ، فانظر من هؤلاء » أي هؤلاء الذين قدموا له السم . فنظروا فإذا القوم قد قوضوا أخبيتهم ورحلوا فارين ؛ فطلب أبو هاشم من أتباعه أن يحملوه إلى ابن عمه محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بأرض الشراة ، فأسرعوا به إليه .

ويعلن العباسيون فيما بعد : أن أبا هاشم أوصى إليهم « ويوردون القصة الآتية : « أنه لما قدم - وهو في نزعه الأخير على محمد بن علي بن عبد الله بن عباس . وقال له : يا ابن عم أنا ميت ، وقد صرت إليك ، وهذه وصية أبي إلى وفيها أن الأمر صائر إليك وإلى ولدك ، والوقت الذي يكون ذلك والعلامة ، وما ينبغي لكم العمل به ، على ما سمع وروى عن أبيه على بن أبي طالب عليه السلام ، فاقبضها إليك . وهؤلاء الشيعة استوص بهم خيراً . وهؤلاء دعائك وأنصارك فاستبطنهم ، فإني قد بلوتهم بمحبة ومودة لأهل بيتك » (٣) ثم طلب منه أن يرسل رسله إلى خراسان ، ثم أبان له عن مراكز الشيعة في رقعة العالم الإسلامي ، وطلب منه آخر الأمر اختيار الدعاة ، وأن يكونوا اثني عشر نقيباً ، فإن الله عز وجل لم يصلح أمر بني إسرائيل إلا بهم وسبعين نفساً بعدهم يتلونهم . فإن النبي ﷺ إنما اتخذ اثني عشر نقيباً من الأنصار اتباعاً لذلك .

ومات أبو هاشم بعد أن دفع الوصية وأسرار الدعوة إلى محمد بن علي . وذلك عام « ٩٧ » وسأعود إلى مناقشة هذه الوصية حين أعرض لنشأة الدعوة العباسية والغلو العباسي . ومع أن هذه الوصية لم تكن الوحيدة التي تركها أبو هاشم . ولكننا نستطيع أن نستخلص منها الآراء العامة الشيعية التي ظهرت عنها .

يبدو تماماً منها أن أبا هاشم كان منظم الدعوة الشيعية في العراق وخراسان ، حيث اعتبر في

(١) اليقوتى : تاريخ ج ٣ ص ٤٠ .

(٢) الأصفهاني : مقاتل الطالبين ص ٩١ .

(٣) اليقوتى : تاريخ ص ٤١ .

خراسان - وستكون هي موطن الحركة العباسية - الوصى والإمام . ثم استخدم الدعاة والحجج . وأصبح مصطلح الداعي والحجة من أهم مصطلحات الشيعة . وأصبح الدعاة والحجج أعمدة هذه العقيدة سواء لدى العباسيين ثم الاثني عشرية . ثم الإسماعيلية .

وهو أيضاً الذى استخدم « النقباء » أو من أشار باستخدامهم . وطلب من محمد بن على أن يكون دعامة دعوته اثني عشر نقيباً . وهو أيضاً الذى نادى بفكرة « العلم السرى » الغنوصى المتوارث عن أبيه عن الإمام على . وأخيراً كان أبو هاشم أول من أخرج الوصية فعلاً من البيت الفاطمى . ولم يكن هو نفسه فاطمياً . وأخرجها أيضاً من البيت العلوى إلى بنى عبد المطلب عامة . وسرى بعد من الشيعة الغلاة ؛ من يخرجها كلية من آل البيت إلى أناس وأشخاص ليسوا من الفاطميين ولا من العلويين ولا حتى من الطالبين . وسيؤدى كل هذا إلى نفوذ الغنوص . وبخاصة في تلك القبيلة الغالية - بنى عجل - أو بنى بجيلة . وسيؤدى أيضاً إلى فكرة التبنى الروحى عند الإسماعيلية وستعمل الدوائر الغنوصية من ماندائية ومزدكية ومانوية . ودبصانية . عملها الكبير في تاريخ العقيدة الشيعية . وعلى أية حال كانت وصية أبى هاشم للعباسيين تكأة لهم في نشر دعوتهم بخراسان وهي التي قام فيها أبو هاشم بنشاطه السياسى الخطير . أو بمعنى أدق أخذت الراوندية العباسية أعمدتها وأساسها من كيسانية أبى هاشم . ولكن لم تكن هذه الوصية الوحيدة التي تركها أبو هاشم بل كانت هناك وصية أخطر ، وأدق ، وأستر . فقد ذهبت الكيسانية الخالص إلى أن أبا هاشم عبد الله بن محمد مات وأوصى إلى أخيه على بن محمد بن الحنفية . ويذهب هؤلاء إلى أن أبا هاشم ذهب إلى أرض الشراة ليرك الوصية لأخيه على بن محمد بن الحنفية ولكن العباسيين غيروا الاسم إلى على بن محمد العباسى ، وأن أتباع أبى هاشم الذين كانوا معه لم يتبينوا هذا الخطأ . ثم أوصى على بن محمد بن الحنفية إلى ابنه الحسن بن محمد ، وأوصى الحسن إلى ابنه على بن الحسن . وأوصى على بن الحسين إلى ابنه الحسن بن على . ويقول أبو خلف القمى : « والوصية والإمامة عندهم في ولد محمد بن الحنفية لا تخرج إلى غيرهم . ومنهم زعموا يكون القائم المهدي ، وهم الكيسانية الخالص الذين غلبوا على هذا الاسم . وهذه الفرق خاصة تسمى المختارية » (١) هذه الفرق - الكيسانية الخالص - هي أهم الفرق الشيعية فعلاً ، فيها بقيت الكيسانية الخالصة ، وقد تابعت نظام المختار الاقتصادي ، فأنشأت المجتمع المعروف باسم المجتمع القرمطى ، وهو مجتمع اقتصادى ذو نزعات اشتراكية أو شيوعية ، وإلى هذه الفرق تنسب النقابات المشهورة في الحركة القرمطية ، كما أن هذه الفرق التي بقيت في الكوفة وفي واسط ، ستطور العقائد المختارية والعقائد الكيسانية ، فتختلط أشد الاختلاط بالغنوصية ، وسينتج عنها كتاب بل كتب دينية منسوبة لأحد

(١) أبو خلف القمى : المقالات ص ٣٩ والنويعتى ، فرق الشيعة ص ٣١ .

أولاد ابن الحنفية ، وسيكون « القائم المهدي » هو محمد بن الحنفية أو أحد أولاده وهو المنتظر عند القرامطة جميعاً . وسأثبت إثباتاً قاطعاً أن القرامطة لم يكونوا إسماعيلية ، بل هم الكيسانية الخلفاء . أما الوصية الثالثة - فكانت لعل بن الحسين زين العابدين فقد أعلنت طائفة من الأبي هاشمية أن أبا هاشم قال « إن الوصية له مادام حياً ، فإذا مات رجعت إلى أصلها - يعنى إلى أبيه » ولكن البعض قال بأنه جعل الوصية عند موته - أى محمد بن الحنفية إلى أبي هاشم ، فإذا مات ؛ أن ترد إلى علي بن الحسين بن علي وهذه الفرقة انصهرت بلا شك في الإمامية . ولكن على أساس أن الوصية انتقلت من أبي هاشم إلى زين العابدين^(١) ؛

ولكن ما لبث أن فاض الأمر وضخم . قام عبد الله بن عمر بن حرب الكندي - وهو من السبابة يدعى الوصية من أبي هاشم ، كما قام عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب يدعيها أيضاً ، ثم ادعى بيان بن سمعان وصية أبي هاشم ، وكلهم أدخل في باب الغلو ، ومن العجب أن الغلاة جميعاً يظهرون في إثر أبي هاشم ، وباسمه ، ومن العجب ! أن يظهر المعتزلة أعداء الغلاة وأعداء الغنوصية الشداد في إثر أبي هاشم وباسمه .

(١) أبو حلف القمي : كتاب المقالات ص ٣٥ .

الباب الثاني

الغلاة الأولون

ظهر الغلو في التشيع في الكوفة في جنوب العراق ومنها انتشر شرقاً وغرباً، ولعل مما يسترعى النظر أن يكون في الكوفة بالذات وليس في البصرة مثلاً. ومن العجب أيضاً أن يكون التشيع الغالي في الكوفة ولا يكون في المدينة حيث قضى على بن أبي طالب الشطر الأكبر من حياته. ويفسر ابن أبي الحديد (١) تفسيراً دقيقاً انتشار التشيع الغالي في العراق وفارس فيقول «ومما يتضح لي في الفرق بين هؤلاء القوم وبين العرب الذين عاصروا رسول الله ﷺ أن هؤلاء من العراق وسكان الكوفة وطينة العراق مازالت تنبت أرياب الأهوال وأصحاب النحل البدية، وأهل هذا الإقليم أهل بصر وتدينق ونظر، وبحث عن الآراء والعقائد وشبه معترضة في المذهب، وقد كان منهم في أيام الأكاسرة مثل ماني وديصان ومزدك وغيرهم، وليست طينة الحجاز هذه الطينة ولا أذهان أهل الحجاز هذه الأذهان والغالب على أهل الحجاز الجفاء والعجرفة، وخشونة الطبع ومن سكن المدن منهم كأهل مكة والمدينة والطائف فطباعهم قريبة من طباع أهل البادية بالمجاورة، ولم يكن فيهم من قبل حكيم ولا فيلسوف ولا صاحب نظر وجدل ولا موقع شبهة ولا مبتدع نخلة، ولهذا نجد مقالة الغلاة طارئة وناشئة من حيث سكن على بالعراق والكوفة لا في أيام مقامه بالمدينة وهي أكثر عمره. ونحن نعلم أنه وفد على الكوفة - وقد اختطها سعد بن أبي وقاص بعد الفتح - الفرس أو الموالى، وأسلموا - ولكن كانت عالقة بأذهانهم بعض بقايا أورواسب من عقائدهم القديمة. أو بمعنى أدق، أسلم الكثيرون منهم عن يقين وعقيدة، وبقي الآخرون في رباط قوى بأديانهم القديمة، ومن هؤلاء تكونت المراكز الغنوصية في الكوفة، ومنهم ظهرت - فيما أرجح - الآراء الغالية.

ولكن إذا كانت الأديان الغنوصية قد وفدت إلى الكوفة، فهل كان لها آثار من قبل ومراكز في قلب الجزيرة العربية؟ إن شاهداً من اليعاقبة يوضح المسألة توضيحاً كاملاً؛ ويشبها حين يتكلم عن أديان العرب؛ إنه يقرر أنه بجانب بقايا دين إبراهيم، كان هناك قوم من العرب دخلوا في دين اليهود.

(١) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة مجلد ٣ ج ٧ ص ١٧٦-١٧٧ وقد وجه نظري إلى هذا النص تلميذ الدكتور أحمد

ودخل آخرون في دين النصرانية «وترندق منهم قوم فقالوا بالثنوية» (١)، ويذكر «وترندق حجر بن عمرو الكندي». فالثنوية إذن كانت موجودة في كندة. وقد سكنت قبيلة كندة بعد ذلك الكوفة، وفي هذه القبيلة أيضاً نشأ الغلو الشيعي وكان من أخطر الزنادقة أبو سفيان الأموي وعدو الإسلام العتيد. بل إن مسيلمة المنتهي الكذاب قد تأثر بالثنوية أيضاً. وقد كان للدكتور محمد جابر عبد العال فضل توجيه أنظار الباحثين إلى النص الهام الذي أورده الجاحظ في كتاب الحيوان «أن مسيلمة طاف قبل التنهي في الأسواق التي كانت بين دور العجم والعرب يلتقون للتسويق والبيعات كتحرس سوق الأبله وسوق حكة وسوق الأنبار وسوق الحيرة يلتبس الحيل والنيرنجات واختيار المنجمين والمنتبين» (٢)، فكان وراء مسيلمة الكذاب إذن حركة غنوصة كبرى لم يتنبه الباحثون إليها من قبل. وقد سكن الكوفة - بعد اختطاطها - كثيرون ممن ارتدوا، ثم أسلموا، وبعض من ارتدوا مع مسيلمة، وبقوا حتى بعد القضاء على الردة، أتباعاً مخلصين لمسيلمة، ومنهم عبادة الحارث أحد بني عامر بن حنيفة والمعروف بابن النواحة وقد كان عبادة الحارث رسول مسيلمة إلى النبي محمد ﷺ. وقد ذهب إلى الكوفة ولما علم الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود «أمير عمر بن الخطاب على الكوفة» أن عبادة الحارث وجاعة معه ما زالوا يدينون نبوة مسيلمة، قام بقتلهم (٣)، ففي الكوفة إذن يجتمع شذاذ الناس وأشرارهم مع خيارهم، وأتى الصحابة كما أتى النصاري واليهود، وأقبلت القبائل العربية كما أقبل الموالي، وانتشرت الزندقة والسحر والنيرنجات. وكان فيها العثمانية كما كان فيها حب على وآل البيت، وانتشرت الحلقات المتعارضة والمجامع المتنافرة، ولما استفحل النزاع بين العلوية والعثمانية أطلت رؤوس المجامع السرية والمراكز المتغلطة الحفية، ويجانب هذا كله كان هناك اليهود، وفي العراق، وفي منغاهم السحيق أنشدوا التلمود وكتبوه، وكان هناك النصاري أيضاً ينادون بتجسد الألوهية، كان هؤلاء جميعاً يرقبون بعيون غادرة سيادة الجنس الآتي من الصحراء بعقيدة بسيطة سهلة يملكون بها أرض الأكاسرة والقباصرة، ويقوا في انتظار الفرصة السانحة لتزريق «الجماعة» وتفريق «الكلمة» وكان النزاع بين الهاشميين والأمويين فرصتهم السانحة.

كان مقدمة الغلو في عقائد التشيع غلواً في الحب، والحب يستتبع دائماً الأسطورة، تحيط المحبوب بكل غال. وقد أحبت مجموعة كبيرة من العرب آل البيت وأبناءه وانقسمت شعبة آل البيت أيضاً أقساماً: الهاشمية وكانت أخطر فرق الشيعة وأقواها: أتباع أبي هاشم بن محمد بن الحنفية والإمامية:

(١) اليعقوبي: تاريخ ج ١ ص ٢١٤.

(٢) الجاحظ: الحيوان ج ٤ ص ٣٦٩، ص ٣٧٠ وانظر أيضاً الدكتور جابر عبد العال حركات الشيعة المتطرفين ص ١٧.

(٣) الدكتور جابر عبد العال: حركات الشيعة المتطرفين ص ١٨.

أتباع أبناء الفواطم من حسنين وحسينين والجعفرية أتباع أبناء جعفر بن أبي طالب والعباسية أتباع أولاد العباس بن عبد المطلب .

والغلو يتناولهم جميعاً ، ويحيك حولهم أساطير وفوكلورا . كل واحد من هؤلاء كان نقطة البدء أو مركز الدائرة ، ثم يظهره الغالى من الشيعة بوجه خُطت عليه مجموعة من الأصباغ المسيحية واليهودية والمندائية والمناوية والمزدكية والزرادشتية . وقد تنبه الشهرستاني إلى هذا فقال لنا في نص رائع « الغالية هم الذين غلوا في حق أئمتهم حتى أخرجوهم من حدود الخلقية وحكموا فيهم بأحكام الإلهية ، وربما شبهوا واحداً من الأئمة بالإله ، وربما شبهوا الإله بالخلق ، وهم على طرفي الغلو والتقصير » وهذا تفسير واضح للغلاة ، ثم يبين مصدر هذا الغلو فيقول : « وإنما نشأت تشبيحاتهم من مذاهب الحلولية ومذاهب التناسخية ، ومذاهب اليهود والنصارى إذ اليهود شبهت الخالق بالخلق ، والنصارى شبهت الخلق بالخالق ، فسرت هذه المشبهات في أذهان الشيعة الغلاة حتى حكمت بأحكام الإلهية في حق بعض الأئمة . وكان التشبيه بالأصل والوضع في الشيعة ، وإنما عادت إلى بعض أهل السنة بعد ذلك^(١) فالشيعة إذن رواد التشبيه والتجسيم ثم انتقل التشبيه والتجسيم إلى فريق من أهل السنة والجماعة . ثم يحدد الشهرستاني بدع الغلاة فيرى أنها محصورة في أربع : التشبيه والبداء والرجعية والتناسخ ، ثم يرجع هؤلاء الغلاة إلى الفرق الآتية : الخزمية والكردية بأصفهان ، والمزدكية والسنيادية بالرى والدقولية أو المحمرة بأذربيجان ، والمبيضة بما وراء النهر^(٢) ويرى في نص آخر أن الغلاة على أصنافها ، كلهم متفقون على التناسخ والحلول . ويقرر أن مصدر التناسخ ليس فقط المحوس المزدكية ، بل إن الغلاة تلقوها أيضاً من براهمة الهند والفلاسفة الصابئة وأن مذهبهم : أن الله قائم بكل مكان ، ناطق بكل لسان ، ظاهر بكل شخص من أشخاص البشر وهذا مذهب وحدة الوجود - يخلطه الشهرستاني بمذهب الحلول . ولكنه يستدرك فيقول « وقد يكون الحلول يجرء هو كإشراق الشمس في كوة كإشراقها على البللور ، وأما الحلول بالكل ، فهو كظهور ملك بشخص أو كشیطان بجيوان . ومراتب التناسخ أربعة : النسخ والمسح والفسخ والرسخ وأعلى المراتب مرتبة الملكية أو النبوة ، وأسفل المراتب الشيطانية أو الجنية^(٣) وأياً ما كان الأمر ، فقد تنبه الشهرستاني إلى الجوانب المتعددة الغنوصية والفلسفية للغلو ، ووضحها وضوحاً أقرب إلى الحقيقة .

وسنحاول أن نعطي صورة لنشأة الغلو ، محاولين بكل وسيلة أن نفصل نوعين من الغلو : الغلو في

(١) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٨٨-٢٨٩ .

(٢) نفس المصدر ج ١ ص ٢٨٩ .

(٣) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٩١-٢٩٢ .

الحب ، والغلو في العقيدة ، وإن كان الأول قد أدى إلى الثاني ، في كثير من الأحوال . ولا يضير المجتمع الإسلامي في شيء أو العقيدة في شيء أن يغلو إنسان أو مجموعة في حب آل البيت ، ولكن يهدم العقيدة أن ينسب لواحد من أهل البيت النبوة أو الألوهية أو أن ينحل علم ما كان وما هو كائن وما سيكون . وأن يؤدي هذا إلى تكوين فرق خطيرة علنية وسرية لتقويض الكيان الإسلامي ، وتفثيت الجماعة ، ولم يستنكر علماء أهل السنة والجماعة حركة التواوين ، كما لا يستنكر الكثيرون منهم حركة المختار ابن أبي عبيد ، بل إننا نرى أبا حنيفة عالم الإسلام الكبير يؤيد زيد بن علي في خروجه على بني أمية ، ويعلمه بلال والعون ، ولم يكن أبو حنيفة شيعياً . بل نرى أيضاً الإمام الشافعي - وهو أبعد الناس عن التشيع ، يردد .

لو كان رفضاً حب آل محمد فليعلم الثقلان إني رافض فالحبة والحب لا يضير فيها ، وإنما أدت المحبة والغلو في المدينة ، وفي الكوفة إلى أخطر النتائج في المجتمع الإسلامي ، كما أدت إلى أخطر النتائج أيضاً في التصوير النهائي لعقائد الشيعة الإمامية الاثني عشرية - وسنبداً في شرح آراء الغلاة حول محمد بن الحنفية وابنه أبي هاشم ، فقد كانت هذه الآراء - كما قلت - أول آراء غالبية في المحيط الشيعي .

الفصل الأول

غلاة الكيسانية الأبي هاشمية

كان لابد أن يفرخ الغلو ويبيض في الكوفة أولاً وفي المدينة ثانياً ثم ينتقل منها شرقاً وغرباً . وقد بدأ الغلو في الكوفة ، وفي أوساط النساء بالذات ، وكانت الكيسانية والمختارية تنشر التشيع وتغلا به متنديبات الكوفة ومجامعها ، وكان أثر الكيسانية النافذ في نساء الكوفة .

وقد شغلت نساء الكوفة بالتشيع أكثر من الرجال ، واستجابت لعقيدة الحب الكبرى في عترة آل البيت ، حباً ملك عليهن كل شيء . وقد بدأ الغلو في بيت امرأتين كوفيتين من الكيسانية هما : هند بنت المتكلفة الناعطية ولبلى بنت قامة المزنية الناعطية . يقول الطبري : « إن هند بنت المتكلفة الناعطية كان يجتمع إليها كل غال من الشيعة فيتحدث في بيتها ، وفي بيت لبلى بنت قامة المزنية . . » ويبدو أن هذين البيتين كانا أول حلقات أو ندوات التشيع الغالي ، ويبدو أن هذا قد حدث بعد مقتل الحسين عليه السلام . ويذهب نص الطبري إلى أن « أخاها - أخو لبلى بنت قامة - رفاعة بن قامة كان من شيعة علي وكان مقتصداً فكانت لا تحبه » فكان هناك إذن في هذا الوقت المبكر شيعة معتدلة وشيعة غلاة . وذهب أبو عبد الله الجدللي ويزيد بن شراحيل - ونحن نعلم أن أبا عبد الله الجدللي كان على جيش المختار الموفد لمكة لإنقاذ محمد بن الحنفية من برائن عبد الله بن الزبير - إلى محمد بن الحنفية وأخبره خبر هاتين المرأتين وغلوها في حب آل بيت رسول الله ، وخبر الغلاة الآخرين « وهم أبو الأحراس المرادي والبطين الليثي وأبو الحارث الكندي » (١) .

ولا نخبرنا الروايات التاريخية الشيء الكبير عن هند بنت المتكلفة الناعطية . وكان عبد الله بن نوف من تلامذتها ، وعبد الله بن نوف كان أمير السرية التي خرجت بأمر المختار لقتال مصعب بن الزبير . فهند إذن عاصرت هي ولبلى بنت قامة تلك الأحداث العظمى التي حدثت في الكوفة من قتل الحسين إلى حركة التوايين إلى قيام المختار - وكانت الشعلة الكبرى في إدكاء الشعور الشيعي الغالي ، ويذكر الطبري أن عبد الله بن نوف خرج من بيت هند بنت المتكلفة حين خرج الناس إلى حوراء لقتال مصعب - وهو يقول « يوم الأربعاء ، ترفعت السماء ونزل القضاة ، بهزيمة الأعداء » فلما انهزم قال له عبد الله بن

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٢ ص ٧٣١-٧٣٣ .

شريك النهدى وكان من رجاله وقد سمع مقاله « ألم تزعم لنا يابن نوف أنا سنهزمهم قال : « أو ما قرأت في كتاب الله ، يحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » (١) . وهنا يتضح لنا أنه أخذ هذا القول وتعلمه في بيت هند وقد أدى هذا القول إلى فكرة « البداء » إحدى الأفكار الشيعية الكبرى ، والتي أخذت بعد ذلك مكانها الكبير في عقائد الشيعة الغالية والمعتدلة على السواء . فبيت هند المتكلفة وبيت ليلي بنت قامة كانا ندوتين لتفسير القرآن على طريقة الشيعة - أيضاً ميداناً لأفكار غنوصية وغيرها . ونستنتج أيضاً من كتاب محمد بن الحنفية لشيعة في الكوفة حين علم بأمر هند وليلي - أن فكرة العلم السري الغيبي قد نسبت إلى أهل هذا البيت النبوي - يقول محمد بن الحنفية في خطابه « من محمد ابن علي - إلى من بالكوفة من شيعتنا : أما بعد : فآخروا إلى المجالس والمساجد ، فادكروا الله علانية وسراً ولا تتخذوا من دون المؤمنين بطانة ، فإن خشيتهم على أنفسكم ، فاحذروا على دينكم الكذابين وأكثرُوا الصلاة والصيام والدعاء ، فإنه ليس لأحد من الخلق يملك لأحد ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله ، وكل نفس بما كسبت فاعملوا صالحاً وقدموا لأنفسكم حسناً ولا تكونوا مع الغافلين » والخطاب يدل دلالة واضحة على النهي لما يتردد في الكوفة وفي بيتي هند وليلي من أفكار لم يرد محمد بن الحنفية أن تنتشر بين الشيعة .

أما ليلي بنت قامة الناعطية ، فهي كما قلنا ، أخت رفاعة بن قامة الناعطي ، نسبة إلى ناعط حصن في رأس حميل بناحية اليمن ، ونحن نعلم أن التشيع فشا في اليمن ، « وكان الناعطيون من أصحاب علي في الكوفة وطائفة من طوائف جيشه في اليمن » (٢) وفي هذا الوسط الشيعي نشأت ليلي الناعطية ، وكانت ذا عقل مدبر بحيث اعتقد بشارين برد فيما بعد ، أنها عادت في التناسخ إلى نحلة ، والنحلة مشهورة في سلسلة التناسخية بتعقلها ، ويرد عليه صفوان الأنصاري :

أتمجّل ليلي الناعطية نحلة وكل عريق في التناسخ والرد
عليك بدعد والصدوف وفرتنى وحاضنتي كسف وزاملتي هند

عاشت ليلي الناعطية وهند المذكورة في آخر البيت في عقائد الشيعة حتى عهد بشار (٣) . - بل ويذكر صفوان الأنصاري أيضاً حاضنة الكسف . أي حاضنة أبي منصور العجلي كما سنين فيما بعد - واسمها الميلاء ويقول أعشى همدان (٤) :

(١) نفس المصدر السابق ونفس الصحائف .

(٢) الجاحظ : البخلاء - ص ٣٥٠ ، ٣١٠ ، (تعليق ٥٦ لمحقق الكتاب) .

(٣) الجاحظ : البيان والبيان ج ١ ص ٤٠ .

(٤) الجاحظ : الحيوان ج ١ ص ٢٦٦ ، ج ٦ ص ٣٨٩ .

إذا سرت في عجل فسر في صحابة وكندة فاحذرهما حذارك للخصف
وفي شيعه الأعمى خناق وغيلة وقشب^(١) وإعمال الجندلة القذف
وكلهم شر على أن رأسهم حميدة والميلاء حاضنة الكسف

وسنعود إلى هذه الآيات فيما بعد . ولكن يهنا الآن أنه ذكر حميدة - ويذكر الجاحظ « أنها كانت من أصحاب ليلي الناعطية ولها رئاسة في الشيعة »^(٢) - والميلاء حاضنة أبي منصور . وهذا يدل دلالة واضحة على أن ليلي كانت قد توفيت - حين قام أبو منصور العجلي بحركته الرهيبة . ويبدو أن تلميذ ليلي - حميدة والميلاء - أثرتا فيه أثراً كبيراً - وسنراه أيضاً يفسر « وإن يروا كسفا من السماء ساقطاً يقولوا سحب مركوم » بأنه هو الكسف ، ونحن نعلم أن عبد الله بن نوف من قبل حاول تفسير « يححو الله ما يشاء ويثبت » بالبذاء ، فالصورة واحدة ، صورة غنوصية لا خلاف فيها . وأخيراً فإن ليلي الناعطية كانت متسكة زاهدة حاول الجاحظ في البخلاء أن يسخر من ترهدها وتنسكها فاعتبرها في محاولة مضحكة من البخلاء « وأما ليلي الناعطية ، صاحبة الغالية من الشيعة ، فإنها ما زالت ترقع قبصا لها وتلبسه ، حتى صارت لا تلبس إلا الرفو ، وذهب جميع الكساء ، وسمعت قول الشاعر :

البس قبصك ما اهتديت لجيبه فإذا أضلك جيبه فاستبدل .

فقال إني إذن لخرقاء - أنا والله أخوص الفتق وفتق الفتق ، وأرقع الحرق وخرق الحرق^(٣) ، ولعل هذا مدخلا من مداخل التصوف ومنشأ لفكرة المرقعة الصوفية ، أو الحرق التي أخذت مكانها الكبير في التصوف بعد ذلك . ولعل الجاحظ فيما بعد - قد أدرك حقيقة ليلي الناعطية فقال في نص آخر « من النساك والزهاد من نساء الغالية ليلي الناعطية والصدوف وهند »^(٤)

وسيؤدى تنسك النساء الكيسانيات إلى ظهور زنادقة الصوفية ، وهم الذين سيلعبون في أوائل التصوف دوراً هاماً .

وبعد : فهذا أوائل التشيع الغالي عند النساء الكيسانيات . ولكن ما لبث التشيع الغالي أن يأخذ وجهة منظمة على يد الكيسانية . فيعلن في الكوفة خلود محمد بن الحنفية ورجعته ، أى يعلن بصورة قاطعة مهديته .

(١) فسر محقق الحيوان القشب : بخلط الطعام بالسم ، وجندلة : واحدة الجندل وهو الحجارة؛

(٢) الجاحظ : الحيوان ج ٢ ص ٣٩٠-٣٩١ .

(٣) الجاحظ : البخلاء ص ٣٧ .

(٤) الجاحظ : البيان ... ج ١ ص ١٨٣ .

وأقدم من نادى بالرجعة من فرق الشيعة : هم « أصحاب أبي عمرة من المختارية » ويعنى هذا أن فكرة الرجعة نشأت لدى موالى الكوفة الكيسانية من أصحاب أبي عمرة بعدمقتل كل من المختار وأبي عمرة ، ورأى هؤلاء الموالى أن إمامهم الذى أحبوه وقاتلوا وقتلوا لأجله - محمد بن الحنفية - قد لجأ إلى عبد الملك بن مروان وبإيعه . فلجأوا هم إلى دورهم تجمعهم محبته ، وموالاته ، ويمضهم ويقلقهم مبايعته لعدوه ولعدوهم . ثم مات محمد بن الحنفية ، فتولوا ابنه أبا هاشم . ثم مات أبو هاشم . فأعلنوا أنهم فى التيه « لا إمام لهم ولا قيم ولا مرشد . إن عليا - فى نظرهم - أوصى إلى الحسن ، والحسن وصى إلى الحسين وأوصى الحسين إلى محمد بن الحنفية . « فكان العلم والمقنع فى دار التقية » ولكن محمد بن الحنفية أذنب حين لجأ إلى عبد الملك بن مروان الجبار وبإيعه . فعاقب الله الإمام وأخرجه من داره بأصحابه وأهله وأوغله فى جبل وعمر ، وغار مظلم . إن الله فعل هذا من قبل مع الأنبياء والرسل المقربين عقوبة لهم على معصيتهم . فأخرج آدم من الجنة وأهبطه إلى الأرض عقوبة له على معصيته ، كما عاقب ذا النون حين أذنب فكدف به فى بطن الحوت ، فكانت تلك عقوبته ، وكذلك فعل الله فى محمد بن الحنفية ، ففيه فى ظلمات شعب رضوى عقوبة على معصيته . وحين حضره الأمر ، وعلم أن الله أراد إخراجه إلى الشعب وإيلاجه فى الكهف ، « نبذ الأمر إلى ابنه عبد الله أبى هاشم » وكان الإمام يعلم أنه لا عقب له ، ولم يكن بحضرته من بنى على سواه . فكانت الإمامة وديعة عند الإمام الصامت أبى هاشم إذ غيب الله الإمام التاطق . فلما مات أبو هاشم ولم يعقب ، ولم يوص بها إلى أحد من رهنه ، لأن الله أراد أن يعيدها إلى محمد بن الحنفية بعد تمام العقوبة وقدر المدة والاستحقاق ، وقد فعل الله هذا من قبل مع ذى النون ، فأخرجه من حبسه - من بطن الحوت ، وأعاده إلى عز نبوته ، « والناس اليوم فى التيه يدخلون فيما يخرجون منه ، ويخرجون مما يدخلون فيه ، لا يعرفون حجة من غيره ، ولا حقا من شبهة ، ولا يقينا من خبرة ، حتى يبعث الله الإمام العالم ، محمد المكنى بأبى القاسم ، على رغم الراغم ، والدهر المتفاقم ، فيملك الأرض جميعاً ، ويقطعها من حاية قطعاً » ويقول أبو خلف القمى إنه ينقل إلينا ألفاظهم بنفسها ، ثم يذكر أنهم تغالوا فى على غلوا تجاوزوا به غلو السبائية^(١).

ومن الواضح تماماً أن الموالى من أتباع أبى عمرة شعروا بحسرة شديدة بعد فشل حركة المختارية والكيسانية . فعادوا كما قلت يعيشون تحت سناط بنى أمية ، وكان المختار قد سوى بينهم وبين العرب . كما أنهم أيضاً آمنوا بأحقية آل البيت فى الإمامة ، وأصبحت لهم فى عنق محمد بن الحنفية بيعه لم يتخلوا عنها على الإطلاق وبقوا على ولائهم له حتى بعد مبايعته لعبد الملك بن مروان ، كما بايع من قبل

(١) أبو خلف القمى : كتاب المقالات ص ٢٢ / ٢٣

يزيد بن معاوية . في هذا الجو القائم ، عاشوا يرسمون الأسطورة حول مهديهم ، وأطلق اليهود - كالعادة - يوحون إليهم «أنهم في التيه» مثلهم مثل اليهود تماماً ، وأن المهدي مخنف لا يظهر بسبب معاصيه ، كما أنهم لا يعرفون الحق «من الشبهة» ولا «اليقين من الخبرة» وهنا نداء واضح لرفع التكليف ، والتحلل من أوامر الشريعة ونواهيها ^(١) . ثم إننا نرى أيضاً أول ظهور لفكرة الإمام الناطق والإمام الصامت ، تلك الفكرة التي ستلعب دوراً هاماً لدى الغلاة ، كما ستؤثر أثراً نفاذاً لدى الإسماعيلية .

كانت عقيدة الرجعة - فيما يبدو - تنتشر إذن في الكوفة وفي المدينة وقد أخذت تتطور في صورة أسطورية لدى طائفتين - الكرية - أتباع أبي كرب الضرير : وقد ذهب إلى أن محمد بن الحنفية حي لم يموت ، وأنه في جبل رضوى وعنده عين من ماء وعين من عسل ، يأخذ منها رزقه ، وعن يمينه أسد وعن يساره نمر يحفظانه من أعدائه إلى وقت خروجه وهو الإمام المنتظر ^(٢) . أما الطائفة الثانية فهي الحربية - أتباع عبد الله بن عمر بن حرب الكندي . كان عبد الله بن حرب من قبيلة كندة الغالية . وكان أول أمره أبا هاشمياً ثم ادعى أن الوصية خرجت من أبي هاشم إليه . فهو الإمام غير أن أقدم مصدر شيعي يحدثنا بأن ابن حرب هو أول من نادى بأن الأئمة أربعة أسباط بهم يسقى الخلق الغيث ، ويقاتل العدو ويظهر الحجة وتموت الضلالة ، من تبعهم لحق ومن تأخر عنهم محق . وإليه المرجع وهم كسفينة نوح من دخلها صدق ونجا ، ومن تأخر عنها غرق وهوى . وتستند الحربية في هذا على خطبة على ، عند زوال التقية عنده في أول خطبة خطبها . أي حينما بويج للخلافة ، فناطق للمسلمين بحقيقة أهل البيت فقال «ألا إن عترتي وأطايب أرومتي أحلم الناس صغاراً وأعلمهم كباراً . ألا وإنا أهل بيت ، من علم الله علمنا ، ومن قول الله سمعنا ، إن تتبعوا أثرنا ، تهتدوا ببصائرنا ، وإن تدبروا عنا يهلككم الله بأيدينا ، معنا راية الحق ، من تبعها لحق ، ومن تأخر عنها محق ، ألا وبنا تدرك ترة كل مؤمن ، وبنا يخلع الله ربقة الغل من أعناقكم ، ألا وبنا تفتح ، وبنا نختم ،

هؤلاء هم الأسباط الأربعة ، عتره أهل البيت . «سبط إيمان وأمن ، وهو على ، وسبط نور وتسليم وهو الحسن ، وسبط حجة ومصيبة وهو الحسين . وسبط أخير» هو الذي يبلغ الأسباب ، ويركب السحاب ويزكي الرياح ، وينفخ المد ، ويسد باب الروم ، ويقم أود الحكم ، ويبلغ الأرض السابعة ، ويقرب منه الحق ، وينأى عن الجور ، وهو الإمام المنتظر محمد بن علي بن الحنفية إمام الحق» وهكذا أحب هؤلاء الكرية والحربية محمد بن الحنفية ، فلما لم يتحقق لهم شيء من آمالهم فيه في حياته ، ومات عياناً ، لم يصدقوا بموته ، وقالوا إنه لم يموت . لقد وضع مثله في مضجعه ، ومضى

(١) أبو خلف القمي : كتاب المقالات ص ٢٢ / ٢٣ .

(٢) البغدادي : الفرق ص ٢٧ .

مهاجرًا. كما وضع الرسول محمد ﷺ عليًا في مضجعه ومهاجر. وهكذا فعل محمد بن الحنفية، هاجر إلى الله، فغيبه في جبل رضوى بين أسدين ونمرين تؤنسه الملائكة، ويجرسه الثمران^(١) وهكذا أعلن الكربية من ناحية والحربية من ناحية أخرى غيبة محمد بن الحنفية، ونادوا برجعته. وسرعان ما التفت مجموعة من الشعراء حول الكربية والحربية تنادى بأرائهم، بحيث تكون أدب كيسانى، ينشر الآراء الكيسانية في العالم الإسلامى. وكان في مقدمة هؤلاء الشعراء، الشاعر الغزلى المشهور كثير بن عبد الرحمن المشهور بكثير عزة (المتوفى عام ١٠٥ هـ = ٧٢٣ م) ويبدو أنه كان كريبًا وحريًا، ولكنه اشتهر بالكيسانية على العموم. وصور لنا في شعره قصة الأسباط (٢):

ألا إن الأئمة من قريش ولاة الحق أربعة سواء
على الثلاثة من بنيه هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر وسبط غيبتهم كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى يقود الخيل يقدمها اللواء
تغيب لا يرى فيهم زمانا برضوى عنده غسل وماء
وهنا إعلان بالغيبة الكيسانية، وستتقل الفكرة بنفسها إلى الإمامية الاثني عشرية - ينسبوننا إلى الإمام الثاني عشر. ثم يؤكد إمامية محمد بن الحنفية في أبيات جميلة رقيقة (٣).

مامت يامهدى يا ابن المهتدى أنت الذى يرضى به ويرنجى
أنت ابن خير الناس من بعد النبی أنت إمام الحق لستأخترى
يا ابن على سر ومن مثل على سر بنا مصاحباً لانتشنى
حتى نجاوز ذات كرب ولى ثم أقبل جارك الله العلى
ين لنا وانصح لنا يا ابن الوصى ين لنا من ديننا مانبتغى

أما قصة الأسباط فقد وردت في القرآن، ولكن اقتباسها وتطبيقها على الأربعة من أهل البيت يسترعى النظر في أوساط الكوفة، ومن قبل نادى السبابة بمهدية على في المدائن. فالمتزج يهودى بحث، ولا شك أن السبابة بدأت تختلط بالكيسانية في الكوفة. ويبين لنا كثير - المصدر اليهودى ببساطة، حين يقول (٤):

(١) أبو خلف القمى: كتاب المقالات والفرق ٤ ص ١٧ / ٢٨.

(٢) البغدادي: الفرق ص ٢٢.

(٣) أبو خلف القمى: كتاب المقالات ص ٢٩.

(٤) ابن خلكان: وفيات ج ١ ص ٤٣٣.

هو المهدي خبرناه كعب أخو الأحبار في الحقب الخوالى
أقر الله عيني إذ دعاني أمين الله يلفظ في السؤال
وأثني في هواي على خيراً وساءل عن بني وكيف حالى

فكعب الأحبار إذن - تلك الشخصية اليهودية الغريبة في العصور الأولى من الإسلام ، هي التي أخبرت بمهدية ابن الحنفية ، أنه وجد عنده في الكتاب مهدية محمد بن الحنفية ، اختفاؤه أو غيبته - ثم رجعت . عبد الله بن سبأ والسبابة . . . قصة الأسباط - كعب الأحبار . لا جرم بعد ذلك أن يعلن أهل السنة أن منشأ الرفض يهودى .

ويرى ابن خلدون أيضاً أن مصدر فكرة الواقعية هم أتباع أبي هاشم بن محمد الحنفية . والواقعية عنده هم القائلون بإمامة واحد بعينه ، والقول بحياته الخالدة فهو حى لم يمت ، ولكنه غائب عن أعين الناس . ويستشهد الواقعية على هذا بقصة الخضر ، وهو الشخصية القرآنية التي أعلن المسلمون خلوده ، وأن الله أظهره لموسى ليعلمه معنى الظاهر والباطن « وما فعلته عن أمرى » ثم ليفسر له الفرق بين « عالم الغيب وعالم الشهادة » ويرى ابن خلدون أن أول إمام اعتقد الشيعة بغيبته هو على بن أبى طالب ، وأن السبابة ، ثم الكيسانية من بعدها اعتقدت أنه فى السحاب والرعد صوته . والبرق سوطه . ثم قالوا مثله فى محمد بن الحنفية . أو بمعنى آخر إن السببية قد انصهرت فى بوتقة الكيسانية ، أو أن الفكرة لم تأخذ صورتها الكاملة إلا ممثلة فى محمد بن الحنفية وأن ملامح المهدي تتضح فيه أكثر من انضاحها فى أبيه على بن أبى طالب . ونسبت مهدية على بن أبى طالب وعاشت مهدية محمد بن الحنفية . وأخذت تستمد أصولها من القرآن . فليس فى القرآن فقط . قصة الخضر الخالد . بل قصة الكثيرين ممن ماتوا ثم حيوا .

ويستشهد الكيسانية لذلك بما وقع فى قصة أهل الكهف « أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها . قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها ، فأما الله مائة عام . ثم بعثه ، قال كم لبثت قال : لبثت يوماً أو بعض يوم ، قال بل لبثت مائة عام » وقتل بنى إسرائيل حين ضرب بعظام البقرة التى أمرؤا بذبحها . . فأحياء الله وأرشد عن قاتله « وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة » وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها . والله مخرج ما كنتم تكتمون . فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويرىكم آياته لعلكم تعقلون » (١) ويعبر عن هذا رأى السيد الحميرى (الشاعر المشهورة المتوفى عام ١٧٣ هـ - ٧٨٩ - ٧٩٠ م) فى شعره :

(١) ابن خلدون : مقدمة ٥٣١-٥٣٩- وانظر هامش (٦٠٢) (٦٠٣) للدكتور على عبد الواحد .

إذا ما المرء شاب له قذال وعلاه المواشط بالخضاب
 فقد ذهبت بشاشته وأودى فقم يا صاح نبك على الشباب
 إلى يوم تثوب الناس فيه إلى دنياهمو قبل الحساب
 فليس بعائد ما فات منه إلى أحد إلى يوم الإياب
 مناد أن دين الله حق وما أنا في النشور بذي ارتياب
 كذلك الله أخبر عن أناس حيوا من بعد درس في التراب

أما هذا الإمام الذي سيعود - عند السيد الحميري - فهو محمد بن الحنفية :
 يا شعب رضوى ما لمن بك لا يرى حتى متى تحق وأنت قريب
 يا ابن الوصي ويا سمى محمد وكنيه نفسى عليك تذوب
 لو غاب عنا عمر نوح أيقنت منا النفوس بأنه سيؤوب
 بل إن السيد الحميري ليفتن أشد الافتتان بمحمد بن الحنفية فيطلق أشعاره .

سنين وأشهرها ويرى برضوى بشعب بين أنمار وأسد
 مقيم بين آرام وعين وحفان تروح خلال ربد
 تراعيها السباع وليس منها ملافيهن مفترساً بحد
 أمن به الردى فرتعن طوراً بلا خوف لدى مرعى وورد

فمحمد بن الحنفية في رأى الكيسانية خلد على الزمن - يقيم بشعب رضوى بين النور والأسود ،
 تحف به الظباء والشيء ، ولا تجرؤ هذه النور والأسود أن تفرسها ، إنها آمنة طالما كانت تحيا في رحاب
 المهدي الوصي وتأخذ فكرة الأسباط في عقائد الكيسانية مكانها الكبير وتضخم شيئاً فشيئاً ، وتستمد
 الكيسانية من التراث اليهودي - فهو عند اليهود « لاوى ويهوذا ويوسف وابن يامين ، وبنو هاشم أسباط
 مثل هؤلاء ، وفيهم الإمامة والمملك في أربعة .

ويفسر الكيسانية التين والزيتون وطور سينين ، وهذا البلد الأمين ، بأنها رموز وكتابات على الأئمة
 الأربعة ، فالتين على الزيتون الحسن ، وطور سينين الحسين . وهذا البلد الأمين محمد بن الحنفية . إنهم
 عمد الإسلام وقوامه . فأقسم بالله بهم . وجعل الله البلد الأمين محمد بن الحنفية ، لأنه آخرهم في
 الوصية ، وأنه المهدي المنتظر ، يخرج من البلد الأمين ، في عدد أهل بدر ، فيقتل الجباير ، ويهدم
 دمشق - بلد الأمويين - ويكون معه الرايات السود ، فإذا خرج من الغار ، تقدمه الأسد ، وتأخره

الفران ، والملائكة على يمينه وشيعته على يساره . . . آمال أسطورية ترددت في حلقات الكيسانية .
وعلنها السيد الحميري في شعره :

ألا حى المقيم بشعب رضوى وأهد له بمتزله السلاما
ألا قل للوصى فدتك نفسى أطلت بذلك الجبل المقاما
أضر بمعشر والوك منا وسموك الخليفة والإماما
وعادوا فيك أهل الأرض طرا مقامك عنهم سبعين عاما
وما ذاق ابن خولة طعم موت ولا وارت له أرض عظاما
وإن له به لمقيل صدق وأنسدية تحدثه كراما
لقد أمسى المجاور شعب رضوى تراجع الملائكة الكلاما
تمام مودة المهدي حتى ترى راياته تجري نظاما
ترى راياته بالشام سودا وبين النقع تحسبها قتاما
فيهدم ما بنى الأحزاب فيه ويلقى أهله منه غراما^(١)
جزاء بالذى عملوا ونفى جبابرهم ويستقم انتقاما

ضخمت أسطورة المهدي إذن ، وتناقلها شعراء الكيسانية في أرجاء العالم الإسلامي . ويبدو أن الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية كانوا يدعون بالمهدين بمعنى هداة . أو بمعنى من وضعهم الله في طريق المهدي ، ثم وضعت لها الكيسانية معنى خاصا هو خلود الإمام ورجعته .

ولقد عاشت الرجعة كما قلنا قوة صارخة لدى الكيسانية وبخاصة حين تنتقل إلى القرمطة ، وقد انتقلت إلى طوائف الشيعة المختلفة . وأصبحت ركناً من أركان التشيع - بل ديناً - غير أن أبرز آثار الكيسانية إنما كانت في تصوير فكرة الغيبة عند الشيعة الاثني عشرية . وقد تنبه ابن خلدون من قبل إلى هذا فقال « مثله غلاة الإمامية فيهم وخصوصاً الاثني عشرية ، يزعمون أن الثاني عشر من أئمتهم . وهو محمد بن الحسن العسكري ويلقبونه المهدي دخل في سرداب بدارهم بالحلة ، وتغيّب حين اعتقل مع أمه ذهاب هنالك ، وهو يخرج آخر الزمان فيملاً الأرض عدلاً^(٢) » وهكذا أثرت عقائد الكريية في الشيعة الاثني عشرية ، إنها أخذت نفس الفكرة وصبغت بها قصة الإمام الثاني عشر ، وكما ينتظر الكريية الموقى ، تنتظر الشيعة الاثني عشرية .

وقد انتقلت عقائد الكريية إلى المدينة ، وقام بأمر هذه الطائفة حمزة بن عمار البربري ، ولكنه

(١) أبو خلف القمي : كتاب المقالات ص ٣٠-٤٣ .

(٢) ابن خلدون : مقدمة ج ٢ ص ٥٣١ .

ما لبث أن خرج عليها حين غلا في محمد بن الحنفية ، وذهب إلى نوع من ألوهيته ، كما أعلن أنه هو - أى حمزة - نبي وبهذا يكون إمام الشيعة الأبي هاشمية . وقد أدى به إعلانه لنبوته - وأنه ينزل عليه سبعة أسباب من السماء يفتح بها الأرض ويملكها - بأن نسخ بعض أحكام الشريعة الإسلامية - فتروج ابنته ، وأحل جميع المحارم (١) . وقد تبعه في دعوته بعض أهل المدينة والكوفة . وكان حمزة البربري يعاصر الإمام محمد الباقر . وقد علم بأمره ولكن ما لبث رجلاً من أهل الكوفة أن آمنّا بكلامه ونشر آراءه وهما «صائد النهدى ، وبيان بن سمعان» . وقد تبرأ منها أيضاً الإمام جعفر الصادق فيما يذكر الكشي والحلي - وكانا أيضاً من جملة السبعة الملعونين ، كما كان منهم حمزة البربري .

أما صائد النهدى فقد اعتبره الإمام جعفر الصادق من جملة ممن تنزل عليهم الشياطين من قوله تعالى «هل أنبئكم على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفك أثم» وهم سبعة في رأى الصادق . أحدهم : صائد النهدى ، وقد أعلن الصادق أيضاً أن صائداً ممن كذب عليه (٢) .

أما بيان بن سمعان التميمي ، فهو الشخصية الأخرى ، والتي نالت أهمية أكثر من أهمية صائداً في تاريخ العقيدة الشيعية الغالية ، ويذكر المؤرخون أنه بيان بن سمعان النهدى (٣) ويقول الإيجي صاحب المواقف إنه بيان بن سمعان التميمي النهدى يعني (٤) فهو إذن من تميم من اليمن . ويذكر ابن حجر العسقلاني أنه ظهر في العراق بعد المائة . وكان بيان تبناً يتبن التبن في الكوفة (٥) . كان بيان - كما قلت - تلميذاً لحمزة البربري . أخذ منه فكرة قدسية الإمام ، ونبوته وكيله . ومن الخطأ القول بأن الغلاة اعتبروا الأئمة آلهة . وإنما قالوا بحلول جزء إلهي في الإمام فهو شخص مقدس مصون . وقد ذهب بيان إلى تجسد نوع من القداسة في أبي هاشم ، فلما مات أبو هاشم أعلن أن أبا هاشم نبي بياناً «أى أعلنه نبياً . وتأول في ذلك قول الله عز وجل «هذا بيان للناس وهدى» فهو إذن البيان المذكور في القرآن والمبشر به بوصاية أبي هاشم . ونحن نرى أن التفسير الغنوصي للقرآن - الذي بدأ في بيت كل من ليلي الناعطية وهند المزنية يعود ثانية ، وسيفعل أبو منصور العجلي نفس الشيء ، ويستمر هذا النوع من التفسير لدى الإمامية الاثني عشرية ولدى الإسماعيلية ونراه لدى البائية والبهائية في عصورنا الحديثة . أعلن بيان نبوته ، وأرسل إلى الإمام الباقر أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين يدعوه إلى نفسه وإلى

(١) النوبختي : فرق الشيعة : ص ٢٨ .

(٢) أبو خلف القمي : كتاب المقالات ص ٧٥ .

(٣) البغدادي : الفرق : ص ١٣٦ والرازي : اعتقادات ص ٥٧ .

(٤) الإيجي : المواقف ج ٥ ص ٣ .

(٥) ابن حجر العسقلاني : لسان الميزان ج ٢ ص ٦٥ .

الإقرار بنبوته . ويقول له « أسلم تسلم ، وترتق في سلم ، وتنتج وتغنم ، فإنك لا تدري أين يجعل الله النبوة والرسالة ، وما على الرسول إلا البلاغ ، وقد أعذر من أنذر » (١) .

وبدأ خطر بيان يشتد ويكبر في المجتمع الإسلامي في الكوفة ، ويبدو أنه نسخ بعض شريعة محمد ﷺ (٢) . ولما رأى خالد بن عبد الله القسري حاكم الأمويين على الكوفة أن أمر بيان قد استفحل وأن طائفة اجتمعت عليه ودانوا بمذهبه (٣) ، قبض عليه هو وخمسة عشر رجلاً من أتباعه ، وشدهم في أطناب القصب وألب فيهم النار ، وقد أفلت منهم بيان ، ثم التفت فرأى أصحابه يحترقون ، ففكر راجعاً إلى أن ألقى نفسه في النار (٤) . وبعد مقتله ادعى أتباعه ألوهيته .

آراء بيان بن سمعان :

اتخذ بيان بن سمعان - كما قلت - التفسير الباطني للقرآن أساساً لدعوته ، ففسر « هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين » بأنه هو البيان ، وقال : أنا البيان وأنا الهدى والموعظة وسرى هذا التفسير فيما بعد على صورة أوسع لدى الباطنية في تفسيرهم للقرآن . وسيتأثر به « الباب » مؤسس البائية في العصور الحديثة ويسمى كتابه « بالبيان » . غير أن أهم فكرة نادى بها بيان هو التشبيه ثم التجسيم ، أما التشبيه فيرى الرازي « كان بدء ظهور التشبيه في الإسلام من الروافض مثل بيان (٥) بن سمعان الذي كان يثبت لله تعالى الأعضاء والجوارح ، ثم شبه الله بإنسان نوراني ذي جسد » إن الله الأزلي رجل من نور ، وهو على صورة إنسان عضواً فعضواً جزءاً فجزءاً وهو يهلك كله إلا وجهه . كل شيء هالك إلا وجهه (٦) » وقرر أن على بن أبي طالب قد حل فيه جزء إلهي واتحد بجسده وهذه فكرة مسيحية ، ثم جعل في على عنصراً إستمولوجياً ، أنه كان يعلم الغيب ويخبر عن الملاحم وصح خبر ما أخبر به ، وأنه كان يحارب الكفار بعلمه الغيبي وله النصرة والظفر . ويذكر قصة خلع على لباب حصن خيبر . ويورد حديثاً لعل يقول فيه ، والله ما قلعت باب خيبر بقوة جسدانية ولا بحركة غذائية ولكن بقوة ملكوتية بنور بها مضيئة (٧) .

(١) أبو خلف القمي : كتاب المقالات ص ٣٣ وص ٣٧ النوبختي : فرق الشيعة ص : ٣

(٢) البغدادي : الفرق ص ١١٥

(٣) الشهرستاني : الملل ٢٤٧

(٤) النوبختي : فرق الشيعة ص ٣٨

(٥) الرازي : اعتقادات ص ٦٣ ، ٦٤

(٦) الشهرستاني : الملل ح ص ١٤٢ والبنادري الفرق ص ١٤٥

(٧) الملطي : التنبيه ص ١٤٨

ويفسر بيان بن سميان القوة الملكوية في نفس على كالمصباح في المشكاة ، والنور الإلهي كالنور في المصباح ، وبهذا يفسر تفسيراً غنوصياً - فكرة نور المشكاة القرآنية المشهورة . ويمضي في التفسير مؤيداً للتجسد . فعلى الذي حل فيه جزء إلهي ، يظهر في بعض الأزمان ، وهو الذي يأتي في ظلال الغمام ، والرعد صوته والبرق تبسمه ، ويؤيد قوله بالآية القرآنية « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام » .

ثم ادعى بيان الحلول أو بمعنى أدق ادعى هذا أتباعه من بعده « وكذلك البيانية زعمت أن روح الله دارت في الأنبياء والأئمة حتى انتهت إلى علي ثم دارت إلى محمد بن الحنفية ، ثم صارت إلى ابنه أبي هاشم ثم حلت بعده في بيان بن سميان (١) » ولعل فكرة التناسخ بعد ذلك أدخلت في عقائد البيانية ، فانتقل إلى بيان الجزء الإلهي بنوع من التناسخ ، ولذلك استحق أن يكون إماماً وخليفة ، وذلك الجزء هو الذي استحق به آدم سجود الملائكة (٢) .

فبيان إذن حلولي يدين بدورة الحلول ، وهي فكرة مسيحية غنوصية ، وهو يفسر بهذه الفكرة الغنوصية قصة سجود الملائكة لآدم وهي القصة القرآنية المشهورة . ثم تكونت الفرقة السمعانية بعد ذلك وقالت بنبوته أو بألوهيته واعتنقت التناسخ (٣) .

وتظهر فكرة الاسم الأعظم على يد بيان ، وكان يزعم أنه يعرفه وأنه يهزم به الجيوش ويدعو به الزهرة فتجيبه (٤) . ويؤكد هذا أيضاً الأشعري « وادعى بيان أنه يدعو الزهرة فتجيبه ، وأنه يفعل بالاسم الأعظم (٥) » وستأخذ فكرة الاسم الأعظم وأسراره مكاناً كبيراً لدى الصوفية من بعده وبخاصة حين يخلطون التصوف بالكيماويات وهذا واضح لدى سهل بن عبد الله العسكري والحلاج وذو النون المصري وغيرهم . ويذكر البغدادي أنه حين ظفر به خالد بن عبد الله القسري قال له « إن كنت تهزم الجيوش بالاسم الذي تعرفه ، فاهزم به أعوانى عنك » (٦) . وحين قتل بيان بن سميان عام ١١٩ هـ ، أعلنت السمعانية ألوهيته كما قلت ، وأن الوصية باقية فيه ، وأنه لم يكن له أن يوصى بها إلى عقبه (٧) . وينبغي قبل أن نختم حديثنا أن نذكر ملاحظة قيمة للدكتور جابر عبد العال عن خطأ نسبة نظرية تجسد الألوهية إلى بيان بن سميان ، وأن هذه الفكرة نشأت متأخرة لدى الخطابية ، وإحدى فرقها : وهي العميرية - أصحاب عمر بن بيان العجلي . ويرى أن الرواة خلطوا بين بيان بن سميان وبين عمير

(٥) الأشعري : مقالات - ج ١ ص ٦٠٥

(٦) البغدادي : الفرق . ص ١٤٦

(٧) الأشعري : مقالات - ج ١ ص ٢٣

(١) البغدادي : الفرق ص ١٥٤

(٢) الشهرستاني : الملل والنحل - ج ٢ ص ٢٤٦

(٣) الملطى : التنبيه ص ٣٠

(٤) البغدادي : الفرق ص ١٥٤

ابن بيان هذا ، وأن عمير بن بيان هو الذى نادى متابعة لشيخه أبى الخطاب الأسدى بالتناسخ والوهية الأئمة ، وقد قتل عمير بن بيان على يد يزيد بن عمر بن هبيرة فى كناسة الكوفة بعد أعوام قليلة من مقتل بيان بن سمعان (١) . فتشابه ظروف الرجلين ومقتلها أدى إلى هذا الخلط بين آراء الرجلين . من المحتمل هذا ، ولكن الدكتور محمد جابر عبد العال يذكر أن من الجائز أن تكون البيانية بعد منشئها قد تأثروا بفرق الخطابية لا بعدها ، وهذا ما يهمنى ، فسواء صدرت الآراء عن بيان بن سمعان أو عن أتباعه ، فإنها تكون الإطار العام للفرقة ، ثم إن من الصعوبة أن نبين الفروق الدقيقة بين عقائد هذه الفرق وكلها تتصل بفكرة واحدة : هى قداسة أهل البيت أولاً ومن والاهم ثانياً .

ومن المحتمل أن تكون الأفكار ظهرت بادئ ذى بدء فى دائرتهم ، ثم انتقلت إلى العميرية أو المغيرية أو المنصورية أو الخطابية ، أو أن تكون الآراء قد ظهرت أولاً عند هؤلاء الأخيرين - ثم انتقلت إلى البيانية . وكل حاكها حول إمامه ومن الثابت أن البيانية أو السمعانية قد عاشت بعد بيان .

(١) دكتور محمد جابر عبد العال : حركات الشيعة للتطرف من ص ٣٣ ، ٣٤

الفصل الثاني

غلاة الإماميين

١ - المغيرة بن سعيد البجلي

وعاد الغلو ينسج خيوطه حول أبناء فاطمة عليها السلام على يد المغيرة بن سعيد البجلي أبو عبد الله الكوفي . والمغيرة مولى لبجيلة فهو إذن على الأرجح فارسي الأصل . وقد نشأ في الكوفة في قبيلة بجيلة الغالية ، وقيل إنه كان مولى «لخالد بن عبد الله القسري»^(١) أمير الأمويين على العراق ولكن هذا بعيد ، فالرجل من موالى بجيلة وهم من أحباء بيت الفواطم . وفي هذا الوسط الغالي نشأ وتشرب حب على وقد سأله الشعبي : ما فعل حب علي . قال : في العظم والعصب والعروق . وتردد الرجل على الإمام محمد بن علي بن الحسين المعروف بالباقر وكان أول الأمر من خاصة مردييه وأخلص أتباعه . ويقول المغيرة : سألت أبا جعفر كيف أصبحت . . . ؟ قال : أصبحت برسول الله خائفا ، وأصبح الناس كلهم برسول الله آمنين . ثم بدأت مرحلة الغلو والابتعاد عن الباقر شيئا فشيئا . يقول الأعمش «أول من سمعته ينتقص أبا بكر وعمر - المغيرة المصلوب» فكانه أول من استن البراءة من الشيخين ، وأعلن لعنهما ، وأخذ يفسر الآيات على طريقة الغنوصيين الباطنية ، فذكر أيضا أن الآيات كناية عن رجال : فالآية : إن الله يأمر بالعدل والإحسان «أى فاطمة» وإيتاء ذى القرى : «الحسن والحسين» وينهى عن «الفحشاء» «أبى بكر» والمنكر «عمر» وسنجد تأويل هذه الآية بهذه الصورة نفسها لدى غلاة الإمامية ، بل إننا نجد أيضا لدى الإمامية المعتدلة ما يشبه هذا التفسير . ثم أخذ يغلو في على أشد غلو فقال : كان على يحبي الموتى . وسئل عن هذا فقال : لو شاء أحيا عادا وثمود وقرونا من ذلك كثيرا وكذلك زعم أن عليا رد البصر حين مسح على عين أعمى^(٢) فلم ينسب إذن المغيرة لنفسه إحياء الموتى ، كما ذكر بعض المؤرخين بل نسبها للإمام علي وسرى أنه ينكر قدرته هو على إحياء الموتى أمام خالد بن عبد الله القسري^(٣) . إنما تضخمت الأسطورة في هذا

(١) الملاحظ : الحيوان ج ٢ ص ٢٦١ وكذلك الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٩٥ .

(٢) لسان الميزان ج ٦ ص ٧٥ - ٧٨ ابن قتيبة عيون الأخبار ج ٢ ص ١٤٩ .

(٣) ابن الأثير الكامل ج ٥ ص ٦٧ .

الوقت حول على ، وعمل الرواة من الشيعة على نشر فضائله وأعماله الخارقة .
 وكان يدعى العلم الغيبي وقد سأله الأعمش عن هذا فقال : أتيت بعض أهل البيت فسقاني شربة
 من ماء فما بقي شيء إلا علمته^(١) ويذكر ابن الأثير أن المغيرة ذهب إلى محمد الباقر وقال له : أقرر
 أنك تعلم الغيب حتى أجبي لك العراق . فنهز وطرده ، وجاء ابنه بعد ذلك إلى جعفر الصادق فقال
 له مثل ذلك فقال : أعوذ بالله^(٢) .

ويقال إنه ادعى بعد خلافه مع جعفر الصادق أن الإمام بعد محمد بن علي بن الحسين هو محمد بن
 عبد الله بن الحسن الخارج بالمدينة ، ولما قتل عام ١٤٥ زعم أنه حي لم يم^(٣) وهذا خطأ فقد قتل
 المغيرة قبل مقتل محمد بن عبد الله بن الحسن ولكن يبدو أن أتباعه فعلوا هذا من بعده . ثم يقال : إنه
 ادعى الإمامة لنفسه بعد الإمام محمد الباقر ثم ادعى النبوة^(٤) وأنه قتل على ادعائها^(٥) ويذكر
 المؤرخون أنه تعلم السحر وكان ساحراً^(٦) . وقال الأعمش : وكان المغيرة يخرج إلى المقبرة فيتكلم فيرى
 مثل الجراد على القبور^(٧) . ويقول ابن قتيبة ، وكان سبأيا وصاحب نيرنجات^(٨) . وأنه تعلم السحر
 من يهودية تعيش بالكوفة . وكان اليهود أصحاب سحر ونيرنجات .

وأسمع المغيرة النيران بالكوفة - كما يقول ابن حجر - بالتمويه والشعبذة . وخرج في سبعة نفر -
 وكانوا يدعون بالوصفاء^(٩) وأجابه خلق كثير . وكان خالد يخطب على منبر الكوفة حين بلغه خروج
 المغيرة وصحبه فارتاع وهو يخطب ، وصاح : أطعموني ماء ، فعيه يحيى بن نوفل وقال :

وقلت لما أصابك أطعموني شرباً ثم بلت على السرير
 لأعلاج ثمانية وشيخ كبير السن ذى بصر ضرير^(١٠)

والأعلاج الثمانية هم الوصفاء السبعة والمغيرة ، وقد كان المغيرة أعمى البصر ، وقد قبض عليهم
 خالد بن عبد الله القسري - وقتل أحدهم - ثم طلب من المغيرة أن يحياه ، فقال والله ما أحيا الموتى .
 ثم استتابه خالد فأبى ، بل على العكس دعاه إلى الإيمان به ، فأحرقه خالد بن عبد الله عام ١١٩ .
 وينسب بعض المؤرخين - كالنوبختي^(١١) - مصطلح الرفض إلى المغيرة بن سعيد . وذلك لقوله
 بمهدية محمد بن عبد الله بن الحسن وأنه القائم وأنه حي لم يم . يقول النوبختي « وأظهر المغيرة بن

- | | |
|---|---|
| (١) ابن حجر : لسان الميزان ج ٦ - ص ٧٥ - ٧٨ | (٧) الطبري : ج ٣ من ١٤٩ |
| (٢) ابن الأثير : الكامل ج ٥ ص ٦٧ | (٨) ابن قتيبة . عيون الأخبار ج ٢ من ١٤٩ |
| (٣) الشهرستاني : الملل والنحل ج ٢ ص ٢٥ - ٢٨ | (٩) الطبري : تاريخ ج ٢ من ١٦٤ |
| (٤) الشهرستاني : الملل والنحل ج ٢ ص ٢٩٥ | (١٠) ابن الأثير : الكامل ج ٥ من ٦٧ |
| (٥) ابن حجر : لسان الميزان ج ٦ من ٧٥ - ٧٨ | (١١) النوبختي . فرق الشيعة من ٦٣ |
| (٦) نفس المصدر ونفس الصحائف | |

سعيد المقالة بذلك ، فبرئت منه الشيعة - أصحاب أبي عبد الله جعفر بن محمد - ورفضوه فزعم أنهم رافضة وأنه هو الذى سماهم بهذا الاسم (١). وهذا خطأ لتقدم مقتل المغيرة على مقتل كل من محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن . لكن من الثابت أن المغيرة بقيت بعد مقتل مؤسسها ، ويبدو أنها هى التى رفعت إلى مقام النبوة بعد وفاته ، وأنها هى التى قالت بمهدية محمد بن عبد الله ، وأنها احتضنت فكرة التناسخ .

آراء المغيرة :

ادعاء النبوة : ذهب كثيرون من مؤرخي العقائد إلى أن المغيرة ادعى النبوة ، ودعواه علمه بالاسم الأعظم وأنه يحى الموتى به ويهزم الجيوش (٢) والعقيدة كما رأينا بدأت لدى بيان ، ولكنها غير واضحة لدى المغيرة ، بل يبدو أنه لم ينسب النبوة حتى لعلى بن أبي طالب . إنه غلا فى حق على عليه السلام غلوًا لا يعتقده عاقل ، كما يقول الشهرستاني ، ولكن تراقى الأمر به إلى زعمه أنه رسول نبي وأن جبريل يأتيه بالوحي (٣) - فلا يشبهه النقد الداخلى للنصوص . وقد سأله الأعمش عن فضائل على فقال : إنك لا تحتملها . قلت : بلى . فذكر آدم صلوات الله عليه - فقال : على خير منه ، ثم ذكر من دونه من الأنبياء . فقال : على خير منهم . حتى انتهى إلى محمد ﷺ فقال : على مثله . فقلت : كذبت عليك لعنة الله : قال قد أعلمتك أنك لا تحتملها .

التجسيم : إن الله تعالى عنده جسم هو «صورة رجل من نور ، وعلى رأسه تاج من نور وله أعضاء وجوف وقلب ينبع منه الحكمة . وأن أعضاءه على صور حروف الهجاء ، وأن الألف منها مثال قدميه أو موضع قدمه لاعوجاجها ، والعين على صورة عينه ، وشبه الماء بالعورة قائلاً : لو رأيت موضعها منه لرأيت أمراً عظيماً . وهذا أثر واضح للكبالات اليهودية . وأعلن المغيرة أنه رأى الله .

وتكلم المغيرة عن بدء الخلق . فقال إن الله كان وحده لا شئ معه ، فلما أراد أن يخلق العالم ، نطق بالاسم الأعظم ، فطار ذلك الاسم فوق رأسه ، ووقع تاجاً عليها وذلك قوله «سبح اسم ربك الأعلى الذى خلق فسوى» وزعم أن الاسم الأعلى إنما هو ذلك التاج ، ثم إنه بعد وقوع التاج على رأسه ، كتب بإصبعه على كفه أعمال عبادته من المعاصي والطاعات ثم نظر فيها ، فغضب من معاصيهم فغرق ، فاجتمع من عرقه بحران أحدهما مظلم مالح ، والآخر عذب نير ، فاطلم فى البحر النير ، فأبصر ظله ،

(١) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٩٥

(٢) الشهرستاني . الملل والنحل ج ١ ص ٢٩٥

(٣) التوبخى فوق الشيعة ص ٦٣

فانتزع عيني ظله ، فخلق منها الشمس والقمر ، وأفنى باقى ظله ، وقال . لا ينبغي أن يكون معى إله غيرى ، ثم خلق الخلق كله من البحرين ، فخلق المؤمنين (الشيعة) من البحر النير العذب ، والكفرة (وهم أعداء الشيعة) من البحر المظلم المالح ، وأن الله خلق الناس قبل أجسادهم ، فكان أول ما خلق فيها ظل محمد ، وذلك قوله « قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين » ثم أرسل ظل محمد إلى أظلال الناس ، ثم عرض على السموات والجبال أن يمنعن على بن أبى طالب من ظلمه ، فأين ذلك ، فعرض ذلك على الناس ، فأمر عمر بن الخطاب أبا بكر أن يحمل ظلم على وضمن له أن يعينه على الغدر به على شرط أن يجعل له الخلافة من بعده ، ففعل أبو بكر ذلك . فذلك تأويل قوله « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً » والظلم الجهول فى تفسيره هو أبوبكر ، وتأول فى عمر قول الله تعالى « كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ، فلما كفر قال : إني برىء منك » والشيطان عنده عمر^(١) .

هذه هى آراء المغيرة ، يكاد المؤرخون أن يذكروها فى صورة متشابهة . وسياقها : غلوفى حب على بن أبى طالب عليه السلام . ثم تصوير أسطورى له ، اتخذ الغنوصية مادة لآرائه وبالأخص المانوية والماندائية : فترى النور والظلمة واضحتين فى تفسيره للأعمال الإنسانية ، وردها إلى هذين المصدرين الثنوين . ثم يكاد يكون المغيرة بن سعيد أول من أثار النزاع حول الحديث المشهور « كان الله ولا شىء معه » فيستخدمه فى بدء الخلق ، ثم يصور البدء هذا التصوير الماندائى المشهور . ويمزجه باليهودية القبلية « ويفسر حقيقة على تفسيراً مسيحياً ، فعلى هو المسيح الثانى . ويضع أصول « الحقيقة المحمدية » أو كلمة التكوين أو الإنسان الأول . وهى ذات آثار بعيدة فى التصوف الإسلامى فيما بعد . ونجد فكرة الاسم الأعظم عنده . وقد آمن كثيرون من صوفية الإسلام بعد ذلك بفكرة « الاسم الأعظم » ونسب إلى الخضر معلم موسى الكبير .

فعل المغيرة كل هذا فى ضوء تأويل قرآنى ، فانحأ هذا الباب الكبير ، فانحأ له بشدة وعمق . متخذاً حروفية الفيناغورية الجديدة - مختلطة أيضاً بالغنوصية - أداة له . ثم نراه يرمز للرسول ولعلى ولأبى بكر ولعمر بآيات قرآنية - وبهذا فتح الطريق للحرفيين ، كما صور الله على صورة حروف الهجاء وسيستبج الصوفية هذا فيما بعد ، فالألف ، والباء ، والماء لها معان خاصة ومصطلح معين عندهم . ثم فتح الطريق أيضاً للعديدين ، فاعتبر حواريه سبعة وهو ثامنهم . ويبدو أن المغيرة لم يكن رجلاً بإباحة . فلم يبطل المحرمات ، بل كان أقرب إلى الزهد ، وهو يختلف فى هذا عن بيان معاصره ، وعن أبى منصور

(١) الأشرى . مقالات الاسلاميين ج ٧ ، ٨ ، والبغدادى : الفرق ص ١٤٦ ، والشهرستانى الملل والنحل ج ١ ص

العجلى ، وأبى الخطاب الأسدى وغيرهم ممن تلوه موقتل المغيرة بن سعيد عام ١١٩ هـ بعد أن أثار المجتمع الإسلامى فى العراق كله . ولكن المغيرة عاشت قوية . إذ تولاها من بعده جابر بن يزيد الجعفى - فيما يذكر الأشعرى^(١) - وأنزله أصحاب المغيرة بمنزلة المغيرة . ومن العجيب أن ينسب جابر بن يزيد الجعفى إلى المغيرة . وكان جابر بن يزيد من أصحاب أبى جعفر الباقر وأبى عبد الله الصادق وهو عند الشيعة الإمامية المعتدلة محدث ثقة جليل بل إن صاحب شذرات الذهب يذكر أنه كان من كبار المحدثين بالكوفة ، وأن البعض وثقوه والبعض ضعفوه^(٢) كما ذكره أيضاً ابن سعد فى طبقاته والذهبي فى ميزان الاعتدال . وأخرج له أبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه . وأيا ما كان الأمر فإن مؤرخى الفرق يذكرون « وكان جابر الجعفى على هذا المذهب وادعى وصية المغيرة إليه بذلك »^(٣) فلما مات جابر ادعى وصيته أبو بكر الأعور الهجرى القتات وأخبرهم أن جعفرأ لا يموت . فنحن إذن قد عرفنا أساء اثنين من أوصيائه . ولكن يبدو أن المغيرة بن سعيد قبل قتله كان يأمرهم أنه فعل هذا بعد موت الإمام الباقر . وقال المغيرة لأتباعه : إن جبرائيل وميكائيل يبايعانه بين الركن والمقام ، ويحجى له سبعة عشر رجلاً من الشيعة ، يعطى كل رجل منهم حرفاً واحداً من حروف الاسم الأعظم ، فيهرمون الجيوش ويملكون الأرض . فلما خرج محمد بن عبد الله وقتل ، قال بعض أصحاب المغيرة ، ومنهم أبو بكر القتات : لم يكن الخارج محمد بن عبد الله وإنما كان شيطاناً تمثل فى صورته ، وإن محمداً سيخرج ويملك . تحقيقاً لنبوء المغيرة^(٤) مع أن النوبختى يذكر أن المغيرة - أصحاب المغيرة بن سعيد - يتوقعون فى مسألة الرجعة فيقولون « لا ننكر لله قدرة ولا تؤمن بالرجعة ولا نكذب بها . وإن شاء الله تعالى أن يفعل فعل »^(٥) ويذكر النوبختى أيضاً أن المغيرة نزلوا إلى القول بإمامة محمد بن عبد الله بن الحسن وتولوه وأثبتوا إمامته ، فلما قتل ، صاروا لا إمام لهم ولا وصى ، ولا يثبتون لأحد إمامة بعده^(٦) وهذا يدل أيضاً على اختلاف المغيرة فيما بينها ، فالبعض ثبت على إمامة الباقر والبعض تولى محمد بن عبد الله بن الحسن المعروف بالنفس الزكية . ودخل فى نطاق فرقته الحمديّة^(٧) . وهذا يعنى أن المغيرة بقيت حتى عام ١٤٥ هـ وهى السنة التى قتل فيها محمد بن عبد الله بن الحسن فى المدينة . فعقائد المغيرة

(١) الأشعرى . مقالات الإسلاميين - ج ١ ص ٨

(٢) ابن الهاد ، شذرات الذهب - ج ١ ص ١٧٥ وانظر النوبختى : فرق الشيعة ص ٣٥

(٣) البغدادى . الفرق ص ١٤٨

(٤) الأشعرى : مقالات - ج ٢ ص ٩ ، والبغدادى : الفرق ص ١٤٨ والاسفراينى التبصير فى الدين ص ٢١

وانظر النوبختى : فرق الشيعة ص ٣٥

(٥) النوبختى . الشيعة ص ٥١

(٦) نفس المصدر ص ٥٩

(٧) الاسفراينى . التبصير فى الدين ص ٢١

كانت منتشرة في المدينة وينسب إلى المغيرة أيضاً القول بالتناسخ (١) وهذا ما لم يقل به المغيرة في حياته .

ودخل أتباع المغيرة بعد ذلك في عداد الخناقين من أصحاب أبي منصور العجلي وشاركوا في قتل مخالفهم بالختق ، وستكلم عن هذا فيما بعد . وذكرهم أعشى همدان في قصيدته :

إذا سرت في عجل فسر في صحابة وكنته فاحذرهما حذارك للخسف
وفي شيعة الأعمى خناق وغيلة وقشب وإعمال الجندلة القذوف (٢)

والأعمى المشار إليه في البيت هو المغيرة بن سعيد . وسنورد الأبيات نفسها ونقوم بشرحها حين نتكلم عن المنصورية والخناقين . ولكن ما يهمنا الآن أن أتباع المغيرة استمروا في نشاطهم زمناً طويلاً ، ينشرون فكرة الختق التي نادى بها أبو منصور العجلي ويتبنونها ، نكاية في أعدائهم ، وانتقاماً لإمامها المقتول .

٢ - أبو منصور العجلي (المقتول عام ١٢١هـ)

ينتمي أبو منصور العجلي إلى قبيلة عجلة أيضاً . وهو ليس بمولى ، بل هو عربي . نشأ في حضارة الميلاء صاحبة ليل الناعطية . وغذته بالتشيع والغلو . وليس لدينا ما يؤكد صلته ببيان ، ولكن من المرجح أنه اتصل بالمغيرة بن سعيد ، غير أنه لا يذكر بين «الوصفاء السبعة» الذين خرجوا مع المغيرة ، وقتلهم خالد بن عبد الله القسري . فلم يكن إذن أحد الحوارين المقرين للمغيرة . وكان هو أيضاً من المقرين للإمام محمد بن علي الباقر ، فهو إذن من غلاة الشيعة الإمامية المنتسبين إلى الفواطم . ولا شك أنه تأثر بالمغيرة ، ويذكر الرازي أن أتباع أبي منصور العجلي كانوا على مقالة المغيرة . وزادوا عليهم بأن أباحوا الزنا واللواط (٣) أما النوبختي فيقول « إن أبا منصور هذا من أهل الكوفة من عبد القيس وله فيها دار وكان منشؤه بالبادية ، وكان أمياً لا يقرأ » (٤) ونحن لا نقر القول بأميته ، فقد نشأ في بيت الميلاء ، وهي امرأة شيعية من تلامذة ليل الناعطية ، علاوة على أن التفسيرات المتعددة التي قدمها لنا أبو منصور العجلي تدل على سعة اطلاعه بالتراث الإسلامي وبالتراث الفلسفي غنوصياً كان أو مسيحياً أو يهودياً . ثم إنه كان يتقن اللغة الفارسية .

(١) النوبختي . الشيعة ص ٦٣

(٢) الجاحظ : الحيوان ج ٢ ص ١٦٦ وح ٦ ص ٣٨٩

(٣) الرازي : اعتقادات . . ص ٨٥

(٤) النوبختي : فرق الشيعة من ٣٨

اتصل أبو منصور بالإمام الباقر ، ولكن يبدو أنه اختلف مع الإمام جعفر الصادق بعد وفاة الباقر .
وتذكر المصادر الشيعية أن الإمام جعفر قد لعنه ثلاثاً (١) . وأداه اختلافه مع الإمام جعفر الصادق إلى إعلان إمامته هو .

يرى أبو منصور العجلي أن آل محمد هم السماء ، والشيعية هم الأرض . وأنه هو الصلة بين الاثنين .
عرج به إلى السماء فسمح الله على رأسه ، وقال له بالسريانية أى بنى - أنزل فبلغ عنى ، ثم أنزله الله على الأرض ، وهو الكسف الساقط من السماء « وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحاب مكروم »
وهو الكلمة . ويمين أصحابه إذا حلفوا - ألا والكلمة . وهذا يدل على تأثير المسيحية فيه . وما يؤيد هذا أنه قال : إن عيسى أول من خلق الله من خلقه ثم على .
وأعلن أبو منصور أن النبوة لا تنقطع أبداً بل هي متجددة دائماً . وأن على بن أبى طالب كان نبياً ورسولاً ، وكذا الحسن والحسين وعلى بن الحسين ومحمد بن على وأنه هو أيضاً نبي ورسول ثم « النبوة في ستة من ولدى يكونون بعدى أنبياء آخرهم القائم » .

وذكر أبو منصور العجلي أن الوحي يأتيه ، وأن الله بعث محمداً بالتريل وبعثه بالتأويل . وبدأ يتأول التصورات الدينية في القرآن فالجنة « رجل أمرنا بمولاته وهو إمام الوقت وأن النار رجل أمرنا بمعاداته وهو خصم الإمام ، وتأول المحرمات كلها على أسماء رجال أمرنا الله تعالى بمعاداتهم وتأول الفرائض كلها على أسماء رجال أمرنا الله تعالى بمولاتهم . ويرى الشهر ستاني « إنما مقصودهم هو حمل الفرائض والمحرمات على أسماء رجال . وإن ظفر بذلك الرجل وعرفه ، فقد سقط عنه التكليف . إذ وصل إلى الجنة وبلغ إلى الكمال » (٢) .

ويذكر الأشعري أنه استحل النساء والمحارم ، وأحل ذلك لأصحابه . وزعم أن الميتة والدم ولحم الخنزير والخمر والميسر - وغيرها - من المحارم والآثام حلال ولم يحرمها الله ، وإنما هذه الأشياء أسماء رجال ، حرم الله ولايتهم ، وتأول في ذلك قوله تعالى « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا » .

وأخيراً - أعلن أبو منصور العجلي الجهاد الحق . وهو خنق واغتيال من يخالفه في مذهبه ، يقول .
« من خالفكم فهو كافر مشرك فاقتلوه فإن هذا جهاد خنق » وقد أخذت حركة الخنق مظهراً عنيفاً كما سنين فيما بعد .

(١) النوبختي : فرق الشيعة ص ٨ وانظر الكشي ص ١٩٦ .

(٢) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٩٩ والأشعري : مقالات الإسلاميين ج ١ ص ٩ / ١٠ والبغدادى : الفرق بين

الفرق ص ١٤٩ والنوبختي : فرق الشيعة ص ٣٨ والأسفرايينى التبصير ص ٧٣ وابن تيمية منهاج السنة : ج ١ ص ٣٣٨ / ٢٣٩ .

وبعد : فقد كانت لآراء أبي منصور العجلي أكبر الأثر في المجتمع الكوفي في زمنه ثم في المجتمع الشيعي عامة . لقد أعلن فتح باب الوحي وعدم انقطاعه بعد محمد ﷺ ، فالوحي متجدد دائماً ، والنبوة مستمرة غير منقطعة ، ومهد السبيل بفكرته هذه لفلاة الإسماعيلية من بعده ، ثم البهائية في العصور الحديثة . فأعلنوا أن الوحي لا ينقطع أبداً وهذه فكرة غنوصية ترى أنه لا يغلق باب الغنوص أبداً .

وفتح أبو منصور العجلي باب التأويل ؛ وقد ولج منه الإسماعيلية والقرامطة فيما بعد . وقد نسخ الشريعة الإسلامية بتأويل ، وأقام المجتمع المتحرر المتجرد من كل الشرائع . وقد تابعه الإسماعيليون أيضاً ، ونادى بقدوم الكلمة ، وبأولية عيسى بن مريم في الخلق ، وهذا تفكير متأثر بالغنوصية المسيحية . ثم إنه أيضاً كان عددياً » .

وكما لاحظ الدكتور كامل الشيبى أن عدد أنبيائه هو اثنا عشر . وبهذا أثر في المذهب الإمامي الاثني عشرى الذى حدد عدد الأئمة باثني عشر . والاهتمام بالعدد هو أثر للفيثاغورية الحديثة . وضع أبو منصور فكرة المعراج الروحي ، وسأخذه الصوفية ويصبح جزءاً من طقوسهم . وأخيراً - نادى أبو منصور العجلي بنفسه مسيحاً ثانياً ، فقد عرج به إلى السماء ومسح الله على رأسه ، ولعل هذه الفكرة هي التي أوحى إليه بأن المسيح هو أول خلق الله . وأخيراً - كانت دعوته إلى خنق مخالفه مؤدية إلى أفظع النتائج فقد تكونت فرقة الخناقين من أتباعه ومن أتباع المغيرة - كما سئري فيما بعد . وحين ظفر به يوسف بن عمر الثقفي وإلى الكوفة من لدن هشام بن عبد الملك قتله ، وقتل من أصحابه عدداً كبيراً . وانقسم أصحابه إلى فريقين : الحسينية : وقد نقلوا الوصاية إلى ابنه الحسين بن أبي منصور العجلي ، واعتبروه الإمام بعده (١) ، وقد قام الحسين بن أبي منصور بقيادة الخناقين قيادة عنيفة ناشراً الذعر في العالم الإسلامي ، وأعلن هو أيضاً نبوته واستجاب له بشر كثير ، حتى تمكن منه عمر الخناق أحد رجال الخليفة المهدي ، وأرسله للخليفة المهدي ، وقد استتابه المهدي فأبى ، بل أقر بعقيدته وبمهديته ، فعذبه المهدي وصلبه ، بعد أن استولى على أمواله الكثيرة . ثم تتبع الكثيرين من أتباعه ، فقتلهم (٢) . أما الفرقة الثانية - من أتباع أبي منصور العجلي ؛ فيقال لها المحمدية ، فقد مالت إلى تثبيت إمامة محمد بن عبد الله بن الحسن وقالوا : إنما أوصى أبو جعفر إلى أبي منصور دون بني هاشم . كما أوصى موسى إلى يوشع بن نون دون ولده - ودون ولد هارون . ثم الإمامة بعد أبي منصور

(١) الأشعري : مقالات الإسلاميين ج ١ ص ٣٤

(٢) التوحيدي : فرق الشيعة ص ٣٨ ، ٣٩

راجعة إلى ولد على مرة أخرى ، كما رجع الأمر بعد يوشع بن نون إلى ولد هارون . وقالوا : وإنما أوصى موسى إلى يوشع بن نون دون ولده ودون ولد هارون لثلا يكون بين البطينين اختلاف فيكون يوشع هو الذى يدل على صاحب الأمر . فكذلك أبو جعفر أوصى إلى أبي منصور . ونقلوا عن أبي منصور أنه قال : إنما أنا مستودع ، وليس لى أن أضعها فى غيرى . ولكن القائم هو محمد بن عبد الله ^(١) ، ونحن نتساءل هل ظهر حقاً مصطلح الإمام المستودع فى عهده ؛ هذا الاصطلاح الذى سيأخذ مكانه لدى الشيعة الإسماعيلية ، وهل ظهر كذلك مصطلح « القائم » وهو مصطلح أيضاً يظهر لدى الإسماعيلية . ويبدو أن دعواه التى نادى فيها بالوكالة دعت إلى قيام فرقة مشهورة هى الكاملية نسبة إلى أبي كميل الشيعى تجادله جдалاً عنيفاً . إن الكميلية لا تجيز الوكالة فى الإمامة وتقول بأنه لابد من إمام صامت وناطق ولابد من علم يمد الناس أعناقهم إليه .

وقد أنكر أبو منصور هذا . وقد ذكر هذا النزاع أبو السرى معدان الشميطى - فيقول :

إن ذا الكسف ضد آل كميل وكميل رذل من الأرذال
تركنا بالعراق داء دويا ضل منه تطف المختال
منهم جاعل العسب إماما وفريق يرضى زند الشمال
وفريق يقول إنا براء من على وجند بلال
وبراء من الذى سلم الأمر على قدرة بغير قتال
وفريق يدين بالنص حتما وفريق يدين بالإهمال ^(٢)

وقد أدت دعوة أبي منصور العجلى إلى خنق مخالفيه ؛ إلى قيام أتباعه الكثيرين بهذه الحركة على نطاق واسع ، وخلقت ذعراً كبيراً فى العالم الإسلامى وبخاصة فى العراق وفارس وبادية الشام . واشتهرت قبائل بجيلة وعجل وكندة بهذا الأمر ويقول سفيان بن عيينة :

إذا ————— ترك العيش فلا تمرر على كندة
وكان أكثر الخناقين من المنصورية بالكوفة ، وقد اشتهر فيها رجل من بنى كندة بالخنق هو أبو قطنة أو قطبة الخناق من المنصورية ، وكانت داره بالكوفة ، وكان يدعى أنه مولى لهم وقد كان أحد شخصيات الفرقة المنصورية المشهورين بالخنق ، وقد قتل أبو قطنة وصلب ، وقد شبه باليربوع - ويقول الشاعر :

(١) الأشعرى : مقالات الإسلاميين ج ١ ص ٢٥

(٢) الجاحظ : الحيوان ج ٢ ص ٢٦٩

انزل أبا عمرو على حد قرية ترينغ إلى سهل كثير الخلائق
 وخذ نفق اليربوع واسلك سبيله ودعنى إلى ناطق وابن ناطق
 وكن كأبى قطن على كل زائع له منزل فى ضيق العرض شاهق (١)
 وانتقلت الخناقية أيضاً إلى المدينة . ويقول الجاحظ «ومن كان يَحْتَقُّ الناس بالمدينة عدية المدينة
 الصفراء» (٢) ، وفى نص آخر «وكان بالكوفة ممن يأكل لحوم الناس عدية المدينة الصفراء
 وانتشرت الحركة فى البصرة يتزعمها قصاب غالى ورادويه (٣) » .
 وقد ذكر أعشى همدان فى شعر نقله إلينا حماد الراوية المرمين بالحق من القبائل وأصحاب النحل
 والتأويلات ، وكيف يصنع الخنادق . ويقول :

إذا سرت فى عجل فسر فى صحابة وكندة فاحذرهما حذارك للخسف
 وفى شعبة الأعمى زيار وغيلة وقشب وإعمال لجندلة القذف
 وكلهم شر على أن رأسهم حميدة والميلاء حاضنة الكسف
 متى كنت فى حى بجيلة فاستمع فإن لهم قصفاً يدل على حتف
 إذا اعترمو يوماً على خنق زائر تداعوا عليه بالنباح وبالعرف (٤)
 ونلاحظ هنا أنه حدد القبائل التى تقوم بالحق وهى بنو عجل وبنو بجيلة وكندة - وهى القبائل التى
 اشتهرت بالغلو ، وحدد الغالية من هؤلاء - وهم أتباع الكسف أبى منصور العجلي والأعمى «المغيرة بن
 سعيد البجلى» وأضاف إلى قائمة الخناقين امرأتين - هما حميدة والميلاء . وأما عملية القتل نفسها : فقد
 حددها بالسم والحق ورضخ رؤوس الناس بالحجارة .

وقد ذكر أبو معدان الأعمى الشميطى طرق الخناقين فقال :

خشى وكافر سيياني حرى وناسخ قتال
 تلك تيمة وهاتيك صمت ثم دين المغيرة المختال
 خنق مرة وشم بخار ثم رضخ بالجندل المتوالى (٥)

(١) الجاحظ : الحيوان ج ٦ ص ٣٨٨ ، وابن قتيبة ، عيون الأخبار ج ٢ ص ١٤٧ .

(٢) الجاحظ : الحيوان ج ٦ ص ٣٨٨ .

(٣) الجاحظ : الحيوان ج ٢ ص ٢٦٧ ، ٦٣٧ % ج ٦ ص ٣٨٨ .

(٤) الجاحظ : الحيوان ج ٦ ص ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ج ٢ ص ٢٦١ .

وابن قتيبة : عيون الأخبار ج ٢ ص ١٤٦ . وقد شرح الأستاذ عبد السلام هارون كلمات الشعر . فالقشب : خلط السم بالطعام
 وزيار الحق . وإعمال لجندلة القذف : أى رضخ رؤوس الناس بالحجارة .

(٥) الجاحظ : الحيوان ج ٢ ص ٢٧٠ .

خشى أى أنهم كان يقتلون بالحشب - وقد عرف ابن حزم الحشبية بأنهم فرقة من المنصورية تقتل بالحشب فقط . ثم هم عنده سبابة ينسخون الدين ويقتلون . أما معنى تيمية - أى أنهم كانوا يقتلون من يتولى التيمى - أى أبا بكر - فيقتلون مدعين أنه تيمى ويقتلون الآخر لأنه صامت لا يدلى برأيه . ثم إنهم أيضاً مغيرية ، وهذا يدل على أن المغيرية قد انطوت تحت لواء المنصورية . ثم يذكر طرق القتل - وهى إما بالخنق وبالتشميم « أى يستخدمون البنج » ، وقد كان البنج معروفاً لدى الأطباء فى هذا العصر ، ثم الرمى بالحجارة . ويقول الجاحظ « إن من الخناقين من يكون جامعاً » إذ أجمع الخنق والتشميم ، وحمل معه فى سفره حجرين مستديرين مدملكين وململين فإذا خلا برجل من الرفقة - أى من المسافرين معه - استدبره « أى تأخر خلفه » ثم رمى قعدوته بأحد الحجرين . والقعدوة : ما فوق القفا وأعلى خلف الأذنين ، وإصابة هذا المكان قاتلة ، وكذلك إذا كان ساجداً . فإن قتله لأول مرة سلبه ، وإن رفع رأسه طبق بالآخر وجهه ، وكذلك إن ألفاه نائماً أو غافلاً (١) . وكان الخناق لا يسيرون إلا معاً ، ولا يقيمون فى مكان إلا مجتمعين ، وإذا عزم أهل دار منهم على خنق زائر ممن ليس على مذهبهم ، كانت العلامة بينهم الضرب على دف أو طبل على ما يكون فى دور الناس ، وعندهم كلاب مرتبطة ، فإذا تجاوزوا بالعزف ، لإخفاء صراخ المخنوق ، ضربوا تلك الكلاب فنبحت - يقول الجاحظ « إن الخناقين يظاهر بعضهم بعضاً ، فلا يكونون فى البلاد إلا معاً ، ولا يسافرون إلا معاً ، فربما استولوا على درب بأسره أو على طريق بأسره . ولا يتزلون إلا فى طريق نافذ ، ويكون خلف دورهم إما صحارى وإما بساتين ، وإما مزابل وأشباه ذلك . وفى كل دار كلاب مربوطة ، ودفوف وطبول ، ولا يزالون يجعلون على أبوابهم معلم كتاب منهم ، فإذا خنق أهل دار منهم إنساناً ، ضرب النساء بالدفوف ، وضرب بعضهم الكلاب . فسمع المعلم فصاح بالصبيان : انبحوا ، وأجابه أهل كل دار بالدفوف والصنوج - كما يفعل نساء أهل القرى - وهيجوا الكلاب فلو كان المخنوق حاراً ، لما شعر بمكانه أحد » ويذكر لنا الجاحظ - قصصاً مربعة عن محاولة قتلهم لأحد الخالين فى الرقة وكيف اكتشف الأمر وقتلوا عن آخرهم . وكذلك فى الرى . وغيرهما من بلاد (٢) .

كانت حياة المنصورية حياة مجتمع مغلق سرى بشع ، منظم تنظيمًا دقيقاً ، وله تقاليد وقواعده ، ويبدو أن المجتمع المنصورى نساء وأطفالاً ورجالاً آمنوا بمقيدة أبى منصور ثم ابنه الحسين بعده ، وكانت غابتهم الكبرى من القتل والاغتيال جمع الخراج للإمام . ولا نعجب بعد ، إذ قام يوسف بن عمر الثقفى أولاً بتتبعهم وقتل أبى منصور ثم قيام المهدي بنفس الأمر ، ونرى أيضاً

(١) الحيوان : الجاحظ ج ٢ ص ٢٧٠ .

(٢) الجاحظ : الحيوان ج ٢ ص ٢٦٥ و ج ٦ ص ٣٩٠ .

استخلاصه لأموال كثيرة من الحسين بن منصور ، وهى أموال حصل عليها من أتباعه خلال الاغتيال والقتل الذريع وتهديد المسافرين الآمن ممن لم يدخل فى غنوصيتهم الحاقدة ، لقد انقلبوا على المجتمع الإسلامى كوحوش كاسرة يعيشون فى الأرض فساداً ، ولا عجب بعد ذلك أن يدعوهم الشهرستانى بأنهم « صنف من الحرمية » أى أتباع بابلك الحرمى الذى ظهر فيما بعد يقاتل المسلمين أعنف قتال ، حتى قتل ، ومن المحتمل أن يكون المنصورية - بعد قتل أبى منصور - قد لجأوا إلى الحرمية يحاربون معها المسلمين من السنة ، كما أن المنصورية كانت أيضاً فى كثير من عقائدها ووسائلها باكورة وسلفا للحشاشين فيما بعد .

الفصل الثالث

غلاة الجعفرين

عاش آل جعفر بن أبي طالب في رحاب النبوة أولاً ، ثم في شيعه على ثانياً ، وشيعه الحسن والحسين مخلصين لآل البيت ، وقد قتل جعفر بن أبي طالب شهيداً يوم موته وبكاه النبي أشد البكاء ، وقتل ابنه محمد بن جعفر بن أبي طالب تحت راية على في صفين . وفي كربلاء استشهد مع الحسين ثلاثة من أبناء عبد الله بن جعفر هم عون ومحمد وعبيد الله . فأسرة جعفر اذن قدمت للمذهب الشيعي بعض أبنائها ، وسفك دماء بعضهم على المسرح الشيعي . ولكن لم يعلن واحد من آل جعفر أحقيته في الإمامة . حتى أعلن جعفرى منهم هو عبد الله بن معاوية بن عبيد الله بن جعفر أنه تلقى الوصية من أبي هاشم بن محمد بن الحنفية ، وأن الامامة انتقلت إليه هو . . . والأخبار التي وردتنا عن عبد الله بن جعفر متناقضة . هل كان الرجل حقيقة من الغلاة ، أم كان رجلاً من بني هاشم ، ذا قوة وكفاءة ، فقام محاولاً أن يعيد الأمر إلى أصحابه ، وبخاصة أن دعوته كانت للرضا من آل محمد . ؟ هل هو صورة من المختار بن أبي عبيد ، قام مثله بحركة عنيفة لإعادة الأمر إلى أصحابه ، واستخدم الغلاة ، كما استخدم المعتدلين ، ولكنه لم ينجح . ثم أسلمته الحركة العباسية إلى الأمويين ، خوفاً من قوة الرجل وسطوته وذكائه ، ونفوذ . ؟ وقد دعا كل هذا « الباحث العراقي الممتاز الدكتور كامل الشيبى » إلى بحث تركيبى لحياة الرجل وآرائه ، وألقى عليه ضوءاً جديداً . وسيظهر البحث قريباً . وإلى أن يظهر هذا البحث ، سنعالج حياة الرجل وحركته وآراءه طبقاً للنصوص التقليدية التي بين أيدينا : يبدو أنه نشأ في المدينة ويذكر الأصفهاني « أنه كان جواداً فارساً شاعراً ، ولكن كان سىء السيرة ردىء المذهب ، قتالاً مستظهِراً ببطانة السوء ومن يرمى بالزندقة (١) بل إن الأصفهاني ود ألا يؤرخ له . والظاهر أن عبد الله بن معاوية نشأ في المدينة مترفاً خلى الببال وأنه عاش في وسط كان يموج بالغلو فلم يخالط سوى الغلاة أو أنه حاول استخدام كل الحاقدين على الحكم الأموى . يقول الأصفهاني « كان عمار بن حمزة يرمى بالزندقة ، فاستكتبه عبد الله بن معاوية ، وكان له نديم يعرف بمطيع بن إياس وكان زنديقاً . . . وكان له نديم يعرف بالبقل ، وإنما سمي كذلك لأنه كان يقول الإنسان مثل البقلة ، فإذا

(١) الاصفهاني : مقاتل الطالبين ص ١١٨ .

مات لم يرجع » وإذا ذكرنا من قبل أن حمزة بن عمار البربري كان كريباً ، ثم غلا وهو أحد السبعة الذين لعنهم الصادق . عاش إذن عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر في وسط الزنادقة والإباحين . ويقول الأصهباني « كان هؤلاء الثلاثة خاصته وكان له صاحب شرطة يقال له قيس وكان دهرياً لا يؤمن بالله ^(١) » وقد دفعه هؤلاء إلى ابتلاع فكرة انتقال الوصاية إليه من أبي هاشم ، وقد مات أبو هاشم وعبد الله بن معاوية غلام صغير . فادعى أصحابه أن أبا هاشم دفع الوصية إلى صالح بن مدرك وأمره أن يحفظها حتى يبلغ عبد الله بن معاوية فيدفعها إليه ، فهو الإمام وهو العالم بكل شيء ^(٢) . وقد عرف عبد الله بن معاوية بالفصاحة وبالقسوة هذا مع ادعائه بأن الوحي ينزل عليه « إن ابن معاوية كان يغضب على الرجل فيأمر بضربه بالسياط ، وهو يتحدث ويتغافل عنه حتى يموت بالسياط ، وأنه فعل ذلك برجل فجعل يستغيث ، فلا يلتفت إليه فناداه : يا زنديق أنت الذي يزعم أنه يوحى إليك » .

وقد رأينا من قبل اتهام المختار بن أبي عبيد بادعاء الوحي ، وبيننا تهافت هذا الاتهام ، فهل كان اتهام عبد الله بن معاوية من هذا القبيل أيضاً .

وقد كان عبد الله بن معاوية كالمختار أيضاً ذا أطماع عنيفة ، ولكنه انتظر الفرصة السانحة ، كما فعل المختار بن أبي عبيد حين كانت الدولة السفينانية تلفظ أنفاسها الأخيرة . أما في أيام عبد الله بن معاوية فقد كانت الدولة الأموية تتخبط وتخبطها الأخير ، فلما بويغ يزيد بن الوليد المعروف بيزيد الناقص ، تحرك عبد الله بن معاوية بالكوفة . ودعا الناس إلى بيعته « على الرضا من آل محمد » إذن إن الرجل لم يدع هو إلى بيعته ، بل كان يقوم بنفس الأمر الذي كان يقوم به العباسيون . كانوا يدعون إلى « الرضا من آل محمد » وتذكر المصادر أن عبد الله حاول خديعة أهل الكوفة « فلبس الصوف وأظهر سياء الخير » . ولكن أهل الكوفة هم شيعة أبناء علي من الفواطم ، فرفضه جمهورهم الأكبر وتعللوا له بأن « ما فينا بقية » ، فقد قتل جمهورنا مع أهل هذا البيت وأشاروا إليه بالانتقال إلى فارس ونواحي المشرق » ويقال إن قتالاً حدث بينه وبين عبد الله بن عمر وإلى الكوفة الأموي ، وأنه هرب بعد هزيمته إلى أصهبان ، وأنه أخذ يجمع من الأطراف والنواحي من أجابه ، حتى غلب على فارس أي « أن الرجل قد أقام دولة فعلاً » كما لاحظ الدكتور كامل الشيبني ، ويبدو أن من استجاب إليه من أهل الكوفة جماعة الحرية ، كانوا آمنوا برجل من قبيلة كندة الغالية – هو عبد الله بن عمر بن حرب الكندي ، كان يائساً ثم ادعى أيضاً وصية أبي هاشم ، وأن الإمامة خرجت من بني هاشم إليه ، وتحولت روح

(١) نفس المصدر ص ١١٩ .

(٢) التوبخى : فرق الشيعة ص ٣٢ .

أبي هاشم إليه، وكان الرجل ممخرقاً ، فأدرك بعض أتباعه خيانتَه وكذبه فأعرضوا عنه ، وقالوا بإمامة عبد الله بن معاوية ^(١) وكان يعاونه رجلان مخارق بن موسى مولى ابن يشكر، وقد دخل دار الإمارة، وطلب البيعة من الناس فقالوا : علام نبايع ؟ فقال على ما أحبتموه وكرهتموه . فبايعوا ^(٢) ثم وجد ضالته في رجل يقال له عبد الله بن الحارث من أهل المدائن ومن شذاذ الشيعة ^(٣) وسيصبح هذا الرجل فيما بعد رئيس فرقة الحارثية .

وكان عبد الله بن معاوية يدعو إلى الرضا من آل محمد ، ثم ما لبث أن دعا إلى نفسه ^(٤) . وبهذا أعطى مثلاً للعباسيين من بعده ، ونلاحظ أنه لم يتبعه عرب الكوفة ، فقد كانوا كما قلت إمامية ، بل إن الغلاة منهم كانوا يلتصقون بالبيت العلوي الفاطمي ، ولكن سرعان ما استجاب له أهل فارس كما قلنا ، ويبدو أن عبد الله بن الحارث - وكان من غلاة أهل المدائن - كان داعية ممتازاً له ، عرف أهل فارس ، وكان أبوه نفسه زنديقاً ، فادعى أن الله نور وهو في عبد الله بن معاوية ، ثم قال : من عرف الإمام فليصنع ما يشاء . وكانت هذه آراء تجد صدى في قلوب الكثيرين من الفارسيين المستسلمة . وفي إيجاز - التف حول عبد الله بن معاوية « شذاذ صنوف الشيعة » ^(٥) فأقام مجتمعاً إباحياً ، سيطر على فارس حقبة قصيرة من الزمن ، واستولى على إصطخر وشيراز وكرفان وقم ، وقصدته بنو هاشم جميعاً ومنهم السفاح والمنصور ، فمن أراد منهم عملاً قلده ، ومن أراد صلة وصله ، وحين تولى مروان بن محمد أرسل إليه جيشاً ، حتى إذا قرب من أصبهان ، تخلى أتباعه عنه . فهرب إلى خراسان ، وفي الطريق نزل على رجل من التناذى مروءة وفي خلال الحديث نرى لماذا لم يتابعه الشيعة الحقيقيون ، فقد سأله : أنت من ولد رسول الله ؟ فأجاب عبد الله : لا . فسأله مرة أخرى : أفأنت إبراهيم الإمام (الإمام إبراهيم والد الخلفاء العباسيين) الذي يدعى له بخراسان ؟ قال عبد الله بن معاوية : لا . فقال الشيخ : فلا حاجة لي في نصرتك . وانتهى أمر عبد الله بن معاوية إلى خراسان وسلم نفسه إلى أبي مسلم الخراساني ويقال : إن أبا مسلم سلمه إلى والي الأمويين ابن هبيرة فقتله وأرسل رأسه إلى مروان بن محمد عام ١٢٩ هـ .

وقد عرف أتباع عبد الله بن معاوية بالجناحية نسبة إلى جعفر بن أبي طالب جدتهم الأعلى والمشهور بذي الجناحين ، وعرف أتباع عبد الله بن الحارث بالحارثية ، وهذا هو مجمل آرائهم :

(١) الأصهباني : مقاتل الطالبين .. ص ١٢١ .

(٢) الشهرستاني : الملل ج ١ ص ٢٤٤ .. والبغدادى : الفرق ص ١٤٩ والأشعري : مقالات ج ١ ص ٦ .

(٣) نفس المصدر ص ١٢٢ .

(٤) النوبختي : فرق الشيعة ص ٣٢ .

(٥) النوبختي : فرق الشيعة ص ٣٤ .

١ - إن الله نور ، وإن الأرواح تتناسخ من شخص إلى شخص وإن روح الله تناسخت ، كانت في آدم ثم في شيث ، ثم دارت في الأنبياء إلى أن انتهت إلى علي ثم دارت في أولاده الثلاثة حتى وصلت إليه وحلت فيه . ففيه الإلهية والنبوة معاً . وأنه يعلم الغيب^(١) . وأن العلم ينبت في قلبه كما تنبت الكفاة^(٢) .

٢ - أن الثواب والعقاب في الأشخاص ، إما أشخاص بني الإنسان وإما في أشخاص الحيوانات . وأن التناسخ يكون في الدنيا والعقاب في هذه الأشخاص . وتأول قوله تعالى « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا » أن من وصل إلى الإمام وعرفه ارتفع عنه الحرج في جميع ما يطعم ؛ ووصل إلى الكمال والبلاغ . ويشير الشهرستاني إلى أصل المذهب المائوي القديم ، ويذكر أيضاً أن الحرورية والمزدكية الحديثة في العراق إنما نشأت عن دعوة الجناحية^(٣) .

ويشرح النوبختي المذهب شرحاً وافياً - فيذكر أن أصحاب عبد الله بن معاوية يدعون أنهم يتعارفون في كل جسد صاروا فيه على ما كانوا عليه ، مع نوح عليه السلام في السفينة فهم « أصحاب السفينة » ومع كل نبي في عصره وفي زمانه ، ثم عادوا أيضاً في أيام محمد ﷺ ، ويسمون « بأصحاب الرسول » ، ويزعمون أن أرواحهم فيه ، وقد نسبوا مذهبهم إلى الصحابي جابر بن عبد الله وإلى التابعي جابر بن يزيد الجعفي ، ويتأولون الحديث « الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف ؛ فيدعون « فنحن نتعارف » كما قال علي عليه السلام وكما روى عن النبي ﷺ^(٤) .

ثم يشرح النوبختي فكرة التناسخ والأظلة والدور عند الجناحية ، وهي صدى للغنوصية الفارسية « للتناسخ والأرواح مدة ووقت . وهو أن كل دور في الأبدان الإنسانية فذلك للمؤمنين خاصة » ثم هم يتحولون إلى ذواب التزهة مثل الأفراس والشهاري، وفي غيرها مما يكون لمواكب الملوك والخلفاء وذلك على قدر أديانهم وطاعتهم لأئمتهم ، فيحسن إليها أصحابها في علفها وإمساكها وتحليها بالديباج ، وغيره من الخلال النظيفة المرتفعة والسروج المحلاة وأما من لم يسم بإيمانه إلى إيمان المؤمنين ؛ فيكون في ذواب لأوساط الناس والعوام « وتمكث الأرواح في هذا الانتقال ألف سنة ، ثم تحول ثانية إلى الأبدان الإنسانية عشرة آلاف سنة . وهذا امتحان لها ، لكيلا يدخلهم العجب فتزول طاعتها لأئمتها . أما الكفار والمشركون والمنافقون والعصاة فينتقلون في الأبدان المشوهة عشرة آلاف سنة ما بين الفيل .

(١) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٣٢٤ .

(٢) البعدادي : الفرق ١٥٠ والاشعري : مقالات ج ١ ص ٦ .

(٣) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٤٥ . (٤) النوبختي : الشيعة ص ٣٩ .

والحمل إلى البقرة الصغيرة . والتأويل ثانية يأخذ مكانه فتأولوا قول الله « حتى يلج الجمل في سم الخياط » ، وليس من المعقول أن الجمل يستطيع أن يلج في سم الخياط ، والله لا يكذب . إذن لابد من أن يكون ذلك ولا يتحقق هذا إلا بتقصان جسمه وتصغيره ، في كل دور ، حتى يرجع القيل والجمل إلى حد البقرة الصغيرة فتدخل حيثئذ في سم الخياط ، فإذا خرج من سم الخياط ، رد إلى الأبدان الإنسانية ألف سنة ، فصارت في الخلق الضعيف المحتاج في عوام الناس . وكلف بالأعمال المضنية والتعب والمشقة والصناعات المذمومة القذرة - كل على حسب معاصيهم ويمتنحون في هذه الأجسام بالإيمان والرسول والأنبياء والأئمة ومعرفتهم ، فإذا لم يؤمنوا وكذبوا ولم يعرفوا إمامهم ، فلا يزالون متنقلين في هذه الأبدان الإنسانية على هذه الحال - ألف سنة ، ثم يردون بعد ذلك إلى ذلك العذاب ، إلى الأمر الأول عشرة آلاف سنة . وينتهي التوبخى إلى القول « فهذه حالهم أبد الآبدين ، ودهر الداهرين ، هذه قيامتهم وبعثهم ، وهذه جنتهم ونارهم وهذه الرجعة عندهم . لا رجوع بعد الموت - والقوالب تفتى وتلاشى ولا تعود ولا تريد أبداً (١) . ومن ثم أباحوا المحرمات وعاشوا عيشة من لا تكليف عليه .

* * *

قتل عبد الله بن معاوية - كما قلت - وبقي عبد الله بن الحرث مدة يحل لهم الخمر والميتة والزنى واللواط وسائر المحرمات ، ويسقط العبادات ويتأولها على أنها كتابات عمن نجب موالاتهم من أهل البيت والمحرمات على أنها كتابات عن قوم يجب بغضهم كأبي بكر وعمر وطلحة والزبير وعائشة (٢) وأخيراً - ما مصير الجناحية والحارثية في فارس ؟ يرى التوبخى أنهم انقسموا إلى فرق ثلاث وكان عبد الله بن الحارث نفسه حياً بعد قتل عبد الله بن معاوية ، ونقلت إليه الألوية ، وتذكر بعض المصادر أنه رجع عن أقواله ، وحاول ما استطاع أن يبين لأتباعه كذب ما ادعاه ، ولكنهم لم يصدقوه .

أما الفرقان الأولى والثانية : فقد آمتا بمهديته ، وأنه حتى لم يمت ، مقيم في جبال أصفهان خالداً ، وأنه هو القائم المهدي الذي بشر به النبي ﷺ وأنه يملك الأرض ويملؤها قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً ، ثم يسلم الأمر عند وفاته إلى رجل من بني هاشم من ولد فاطمة . والفرقة الثالثة : قالت إن عبد الله مات ولم يوص وليس بعده إمام ، فتأهوا وصاروا مذبحيين بين صفوف الشيعة وفرقها لا يرحلون إلى أحد (٣) وقد استمر النقاش بين الجناحية والحارثية من ناحية ،

(١) التوبخى : فرق الشيعة ص ٣٩-٤١ . (٢) التوبخى : فرق الشيعة ص ٢٥ ، ٣٦ .

(٣) البغدادي : الفرق .. ص ١٥٠ .

وبين الراوندية من ناحية ، يقول الشهرستاني : إن التزاع والجدل استقر بين أصحاب محمد بن علي وأصحاب عبد الله بن معاوية ، كل يدعى الوصية من أبي هاشم إليه ، « ولم يثبت الوصية على قاعدة تعتمد (١) » وأخيراً — رضى الجناحية بأحد زعمائهم حكماً وهو أبو رباح وكان من رؤسائهم وعلمائهم . فشهد بأن أبا هاشم عبد الله بن محمد الحنفية أوصى إلى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، فرجع معظم أصحاب عبد الله بن معاوية إلى القول بإمامة محمد بن علي وقويت الراوندية بهم . والحق أن عقيدة الراوندية ستوافق هوى في نفوس الجناحية ، إننا سنرى فيها نفس الأساطير . ولكن . . إن الجناحية مع الأسف الشديد مهدت السبيل لبابك الحزبي ولأفكاره — ولكل حركات الإباحية واستحلال قتل المسلمين التي سادت فارس فيما بعد — حقبة من الزمن طويلة في عهد العباسيين .

* * *

والزيدية — كما سنرى بعد — هم أتباع زيد بن علي بن الحسين — وكان زيد تلميذ واصل بن عطاء ، في عقيدته ، فهو معتزلي — وكان أبو حنيفة تلميذ زيد في الفقه ، فزيد إذن من أصحاب الرأي في فقهه . والمعتزلة أعداء الغنوص ، والأحناف أصحاب الرأي والقياس ، أعداء التقليد . فكيف يحدث إذن غلو بين أتباعه ؟ وسمة الغلو هي الارتفاع بالأئمة إلى مرتبة القداسة والعصمة ، وهذا مالا نجده في الزيدية .

لكن بعض الباحثين اعتبروا فرقة من الزيدية — هي الجارودية — من الغلاة بنسبتهم العلم الإلهي إلى آل البيت جميعاً ، وبهذا دخلوا في عداد الغنوصية ، ثم بتكفيرهم الصحابة جميعاً لتركهم بيعة علي ، ثم قالوا برجعة الإمام محمد بن عبد الله بن الحسن وقد اعتبر إماماً زيدياً أيضاً . والجارودية حقاً من الغلاة ، ولكني أفضل أن أضع الجارودية في إطار الزيدية العام . ذلك أن الزيدية بدأت عقلية معتدلة أقرب إلى السنة ، ولكنها انتهت إلى فولكلور أسطوري في الأئمة ، ارتفع بهم إلى مرتبة القداسة ، ولعل هذا التطور يكون أثراً من آثار الجارودية ولذلك أوفر بحث الجارودية إلى الفصل الخاص بالزيدية .

البَابُ الثَّالِثُ

الإمامة الروحية

الفصل الأول

على زين العابدين

لاشك أن الشيعة الإمامية قد بدأت عقيدتها في الإمامة الروحية بالإمام على بن أبي طالب . بل إن المسلمين عامة — شيعة وسنة — يرون نفس الأمر في على ، ولكن عليا كان بجانب خصائصه الروحية الكبرى مقاتلاً ، كما كان ابنه الحسين من بعده . بل إن ابنه الحسن أراد القتال أيضاً أول الأمر . ثم إذا اتجهنا إلى الابن الثالث محمد بن الحنفية ، نراه من طرف خفي ، يدفع المختار إلى حركته العنيفة ، فيقتل قتلة الحسين جميعاً وإن كان هو نفسه قد أبى أن يبايعه المسلمون حتى تجتمع الأمة جميعاً عليه . ولكن بقي العقب الوحيد الباقي من أبناء الحسين « على بن الحسين » يخطط للشيعة بل للمسلمين جميعاً سنة أخرى . وقد أجمع أهل السنة والجماعة والشيعة على تلقيبه بزين العابدين وبالسجاد ، وبذى الثغفات ، وغلب عليه اللقب الأول ؛ بل نرى عالم الخلف العظيم محمد بن زاهد الكوثري يدعو « بالإمام الذي يجلب عن الوصف (١) » .

ولد على بن الحسين بالمدينة عام ٣٨هـ . ومات جد على وهو في السنة الثانية من عمره ، وقتل أبوه في سهل كربلاء ، وهو في الثالثة والعشرين ، وكان مريضاً فلم يشترك في المذبحة التي قتل فيها أبوه وإخوته وأعمامه وبنو أعمامه . وأراد عبيد الله بن زياد قتله ، ولكن عمته زينب بنت علي قامت دونه تحول بينهم . وبينه ، وأرسله عبيد الله إلى يزيد مع أهل بيت الحسين عليه السلام من النساء . وحين وصلت قافلة آل الرسول من النساء إلى دمشق ، أراد الأمويون قتله حتى لا يبقى من آل الرسول أحد على وجه الأرض . ولكن زينب بنت فاطمة الزهراء حالت دون هذا مرة أخرى ، ويقرر يزيد آخر الأمر أن يوجه بعلي بن الحسين إلى المدينة مع نساء آل البيت . ووصل على بن الحسين إلى المدينة ، واستقر فيها لم يبرحها — على الإطلاق — مدى حياته (٢) .

كانت الحوادث قد صقلته صقلاً نهائياً ليكون أول عابد رسمي من عباد الإسلام . وأن يأخذ بحق لقب زين العابدين والسجاد وذى الثغفات . رأى بعينه الصفوة من آل رسول الله يتساقطون الواحد بعد

(١) هامش كتاب التبصير . للإسفرائيلي .

(٢) ابن العاد - شذرات الذهب ج ١ ص ١٠٤ .

الآخر أمام سيف أهل الكوفة الغلاظ ، ثم رأى ما نزل بالصفوة من نساء بنى هاشم من مهانة ، من ابن مرجانة ، ثم من يزيد ، رأى نفسه وقد أمره يزيد أن يصعد المنبر في دمشق « لكى يعذر إلى الناس بما كان من أبيه » ليعلم للناس أن أباه كان على الباطل ، وهو موقن أن أباه كان على الحق ، ويصعد الشاب الفتى إلى المنبر فيصيح « يا أيها الناس ، من عرفنى فقد عرفنى ، ومن لم يعرفنى فأنا أعرفه بنفسى ، أنا على بن الحسين ، أنا ابن البشير النذير ، أنا ابن الداعى إلى الله بإذنه ، أنا ابن السراج المنير (١) » رأى كل هذا ، وأخيراً يجد نفسه ثانية عائداً إلى المدينة ، هو وآل بيته من النساء مشعثاً مغبراً ، وبالألمس القريب كان يترك المدينة مع أبيه وأهل بيته ، مستجيبين لدعوة أهل العراق وكلهم أمل في نصرته لأبيه . فلجأ إلى العبادة ، وإلى كثرة السجود ، وإلى المقابر يلوذ بها . ولكن الأحداث تترى ، وتصبح المدينة مرة أخرى مسرحاً لأعظم الحوادث في العالم الإسلامى . فقد أعلن أهلها من الأنصار الثورة ضد يزيد خليفة دمشق الغارق في لهوه وفجره ولعبه وسكره ، وأخرجوا عامله عليها . فأرسل يزيد بن معاوية مسلم بن عقبة إلى الأنصار ، فهزمهم في واقعة الحرة ، ثم دخل مسلم بن عقبة المدينة ، وكان يؤتى إليه بالرجل من الأنصار فيطلب منه أن يبايع على أنه عبد ليزيد . وكان الأنصار يأبون هذا ، فقتلهم مسلم واحداً بعد واحد . وكان على بن الحسين قد لاذ بالقبر النبوى ، فلما رأى فشوا القتل في المسلمين ، ذهب إلى مسلم فقال له : علام يريد يزيد أن أبايعك ؟ فأجاب مسلم الجبار ، وقد ارتعد من السجود وقام له قائلاً : على أنك أخ وابن عم . فقال : وإن أردت أن أبايعك على أنى عبد قن فعلت . فقال مسلم : ما أجشمتك هذا . فلما رأى أهل المدينة إجابة على بن الحسين . قالوا : هذا ابن رسول الله ﷺ بايعه على ما يريد ، فبايعوه على ما أراد (٢) « وبهذا أنقذ على بن الحسين الكثيرين من أهل المدينة من القتل . وكانت هذه أول قدوة قدمها على بن الحسين لإنقاذ المسلمين من سيف يزيد القاسى .

ومات يزيد . وأقبل العزاقيون إلى على بن الحسين يحاولون جذبه إليهم ، وينادون بإمامته ، فقال لهم ، وقد ذكر جده وعمه وأباه « ما أكذبكم وأجرأكم على الحق ، نحن من صالحى قومنا وبحسبنا أن نكون من صالحى قومنا (٣) » فلا عجب إذن . إن رفض دعوة المختار إليه لبايعه ، يقول المسعودى : « وكتب المختار كتاباً إلى على السجاد يريد أن يبايع له ويقول بإمامته ويظهر دعوته ، وأنفذ إليه مالا »

(١) أبو الفرج الاصبهاني : مقاتل الطالبين .. ص ٨٩ .

(٢) اليعقوبى : تاريخ ج ٢ ص ٢٣ ، ٢٤ وأيضاً المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ١٨ .

(٣) ابن سعد : طبقات ج ٥ ص ٥٨ .

كثيراً ، فأبى أن يقبل ذلك منه ، وأن يجيبه على كتابه (١) ، بل نصح عمه محمد بن الحنفية أن يفعل ذلك ، ولكن محمد بن الحنفية أبى ، وأرسل بعده إلى المختار ، ويبدو أن علي زين العابدين خشي أشد الخشية أن تؤدي حركة المختار إلى قتل الشيعة في الكوفة ، وهو أمر حاول بكل الوسائل أن يتجنبه ولكن مالبث أن رضى عن المختار حين قتل عبيد الله بن زياد . يذكر اليعقوبى «أن المختار وجه برأس عبيد الله بن زياد — قاتل الحسين عليه السلام — إلى علي بن الحسين عليه السلام إلى المدينة مع رجل من قومه ، وقال له : قف بباب علي بن الحسين ، فإذا رأيت أبوابه قد فتحت ودخل الناس ، فإذا ذاك الوقت الذى يوضع فيه طعامه ، فأدخل إليه . فجاء الرسول إلى باب علي بن الحسين عليه السلام ، فلما فتحت أبوابه ودخل الناس للطعام ، نادى بأعلى صوته : يا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومهبط الملائكة ومزل الوحي ، أنا رسول المختار بن أبي عبيد ، معى رأس عبيد الله بن زياد ، فلم تبق في شيء من دور بنى هاشم امرأة إلا صرخت . ودخل الرسول ، فأخرج الرأس » فلما رأى علي زين العابدين رأس قاتل أبيه وقاتل إخوته وأولاد أعمامه ، ومذل نساء الرسول ، أشاح بوجهه وقال «أبعده الله إلى النار» وروى اليعقوبى : «أن علي بن الحسين لم يرضاحكاً منذ قتل أبوه إلا في ذلك اليوم ، وأنه كان له إبل تحمل الفاكهة من الشام إلى المدينة . فلما أتى برأس عبيد الله بن زياد أمر بتلك الفاكهة ففرقت في المدينة . وفي هذا اليوم أيضاً اختضبت نساء آل الرسول ﷺ ، وما اختضبت امرأة منهن منذ قتل الحسين» (٢) .

وعاش علي بن الحسين الأحداث العظمى التي مرت بالعالم الإسلامي إبان ذلك الوقت ، عاصر حركة ابن الزبير ، ولكنه لم يكن — فيما يرجح — ممن حصرهم عبد الله بن الزبير في شعب مكة . فاسم زين العابدين لا يظهر في تلك الأحداث ، كان معه محمد بن الحنفية هو صاحبها . وحين أعلنت الكيسانية مهدية محمد بن الحنفية ، لم ينازعه زين العابدين الأمر ، بل حين أعلن كعب الأخبار ، أن محمد بن الحنفية ، هو المهدي ، لم ينس على زين العابدين بينت شفة ، بل يقوم الشعراء — ككثير ينادى واصفاً محمد بن الحنفية :

هو المهدي تخبرناه كعب أخو الأخبار في الحقب الخوالي (٣)

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٢١ ، ٢٢ .

(٢) اليعقوبى : تاريخ . ج ٣ ص ٦ .

(٣) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٢٥ .

يسمع كل هذا فلا يعترض على ، وتعلن الكيسانية أن الأئمة من قريش أربعة على والثلاثة من بنيه ، ولا يقدح زين العابدين في عمه لا من بعيد ولا من قريب ولقد اندفعت الإمامية فيما بعد إلى المقارنة بين علي زين العابدين ، وبين عمه محمد بن الحنفية ، ولجأوا إلى وضع أسطورة الاحتكام إلى الحجر الأسود حين تنازع الاثنان الوصية وحكم الحجر الأسود لعل زين العابدين ، فقبل محمد بن الحنفية إمامة ابن أخيه . وكل هذه أخبار لا ظل لها في الحقيقة ، فلم يختلف الاثنان قط ، بل كان محمد بن الحنفية كشيخ بني هاشم ! إبان ذلك الوقت أكبر مدافع عن بني الفواطم ، ولقد وقف يقارع عبد الله ابن الزبير الحجة ويعرض نفسه للقتل حين وقف هذا الأخير يخطب ويقول : إني لأؤتم بغضكم أهل هذا البيت منذ أربعين سنة ، ثم هاجم علياً وأبناء فاطمة ، وقد نفاه عبد الله بن الزبير إلى منى وحبس ابنه الحسن بن محمد بن الحنفية ، ثم ادعى ابن الزبير - وهو يلحد في حرم الله - أنه العائد بالبيت ويرد عليه كثير :

تخبر من لاقيت أنك عائد بل العائد المظلوم في سجن غارم
ومن ير هذا الشيخ بالخيف من منى من الناس يعلم أنه غير ظالم
سمى نبي الله وابن وصيه وفكك أغلال وقاضى مغارم
بل عمد ابن الزبير - بعد أن حصر محمد بن الحنفية وبني هاشم - إلى حطب كبير لو وقعت فيه
شرارة من نار ، لم يسلم من الموت أحد (١) . فعل ابن الحنفية كل هذا لأجل أبيه على وإخوته من
بني الفواطم فما كان إذن لزين العابدين أن يختلف معه . ومات محمد بن الحنفية في المدينة عام ٨١ هـ .
ولم يختلف أبداً مع ابن أخيه .

كان لعل زين العابدين طراز في الحياة أغناه عن الخلاف مع الناس . كان يتعبد بلا انقطاع ، فسمى بزين العابدين ، ويكثر السجود ، فقليل له السجاد ، وصهر نفسه في العبادة حتى ثفت جبهته - وورمت ركبته وراحته - فسمى بذى الثفنت وكان يقول « إن لله عبداً عبده رهبة فتلك عبادة العبيد ، وآخرين عبده رغبة ، فتلك عبادة التجار ، وآخرين عبده شكراً ، فتلك عبادة الأحرار » (٢) . وسن للشيعه البكاء على الحسن بل اعتبره الشيعة أحد البكائين الخمسة . فقد بكى آدم ثلاثمائة سنة بعد ارتكابه المعصية ، وبكى نوح قومه ، ويعقوب يوسف ، ويحيى خوف النار ، وبكت فاطمة النبي صلوات الله عليه ، وزين العابدين الحسين والذى استشهدوا معه . وقد طبع زين العابدين التشيع عامة بالحزن المقيم ، وشارك فيه على السواء الغلاة والمقتصدون من الشيعة . ولقد طبعت حركة

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٢٣ .

(٢) ابن العباد : شذرات ج ١ ص ١٥٤ .

التوايين من ناحية وحركة المختارية والكيسانية من ناحية أخرى بهذا الطابع الحزين ، ولعل هذا ما يفسر إصرار المختار بن أبي عبيد بإرسال رأس عبد الله بن زياد إلى علي زين العابدين ، ولم يرسلها إلى الإمام الرسمي للشيعة محمد بن الحنفية ، مع أن المختار كان يقاتل باسمه وتحت رايته ، ولقد عاش هذا الحزن الذي انبثق من قلب زين العابدين في قلوب الشيعة حتى يومنا هذا . غير أنه انقلب إلى حقد مقيت وسخيمة قتالة ، ولم يعرف ابن الحسين هذا أبداً . بل إن الحديث الذي رواه عن عمرو بن عثمان عن أسامة بن زيد عن رسول الله إنما كان يتناول غفران الله للعابدين : كل عين باكية للقيامة إلا أربعة : عين بكت من خشية الله تعالى ، وعين فقتت في سبيل الله تعالى ، وعين غفت عن محارم الله تعالى ، وعين باتت ساهرة ساجدة بياهي الله الملائكة يقول : انظروا إلى عبدی روحه عندی وجسده فی طاعتي ، قد جافی بدنه عن المضاجع يدعوني خوفاً من عذابي وطمعاً في رحمتي ، اشهدوا أنني غفرت له (١) ، لقد كان البكاء على الحسين هو السنة التي استنها على بن الحسين للشيعة وقد نقل الشيعة عنه «أما مؤمن دمعت عيناه لقتل الحسين ، حتى تسيل على خده ، بؤاه الله بها في الجنة غرقاً يسكنها أحقاباً ، وأما مؤمن دمعت عيناه على خديه فيما مسنا من الأذى من عدونا في الدنيا ، بؤاه الله منزل صدق ، وأما مؤمن مسه أذى فينا ، فدمعت عيناه حتى تسيل على خديه من فرط ما أودى فينا ، صرف الله عن وجهه الأذى وأمنه يوم القيامة من عذاب النار» (٢) ، ولقد كان البكاء على الحسين كما قلت داعياً إلى قيام حركة التوايين ، وإلى ملحمتهم الكبرى في عين الوردية - فقد نادى التوابون كما قلنا بالتلاوم والتنادم وخرجوا وقد أخذت ذكرى الحسين عليهم أيما مأخذ - ووقف عبد الله بن الأحمر يبكي الحسين :

صحوت وقد وودعت الصبا والعواديا	وقلت لأصحابي أجيئوا المناديا
وقولوا له إذ قام يدعو إلى الهدى	وقبل الدعا : ليك ليك داعيا
ألا وانع خير الناس جدًا ووالدًا	حسبنا لأهل الدين إن كنت ناعيا
ليك حسينا مرمل ذو خصاصة	عديم وأيتام تشكى المواليا
فأضحى حسين للرماح دريئة	وغودر مسلوباً لدى اللفظ ثاوريا
فياليتني إذ ذاك كنت شهادته	فضاربت عنه الشائنين الأعاديا
سقى الله قبراً ضمن المجد والتقى	بغريئة اللفظ الغمام الغواديا

(١) كاظم جواد الساعدي : حياة الإمام علي بن الحسين ص ٣٢٦ و ٣٣٠ .

(٢) انظر الفصل الرابع الذي كتبه أحمد صبحي عمر عن علي زين العابدين في بحثه عن الإمامة عند الشيعة الاثني عشرية وهو بحث ثمت الطبع . وإن لأدين له بمعرفة كثير من هذه النصوص عن علي زين العابدين ومواضعها .

فيا أمة تاهت وضلت سفاهة أنبيو فأرضوا الواحد المتغاليا^(١)

هذه صورة لبكاء على بن الحسين يتردد في الكوفة ، فيقوم التوابون بحركتهم ويقتل التوابون ، ولكن الشيعة يجددون البكاء على الحسين في مجالس العزاء الشيعية ويذكرون فيها الحسين على الدوام . وقد بقيت هذه المجالس حتى الآن .

أما القداسة التي نسبت إلى أهل البيت ، والعصمة التي أضيفت إليهم ، فلم تر الشيعة المعاصرة لعل رين العابدين وضعه في سلسلة الخالدين أو المعصومين أو الراجعين ، فالغلو أو لا يتركز حول جده على ، ثم ينتقل إلى عمه محمد بن الحنفية ، ثم يضيئ على أبي هاشم ، ثم ابنه الإمام الباقر . ويبدو أنه قطع الطريق على كل غال بنوع حياته التي حياها ، وبطراز دعواته . وقد قدم لنا الدعاء الآتي : «إلهي بعزتك وجلالك ، ما أردت بمعصيتي مخالفتك وما عصيتك إذ عصيتك وأنا بك شاك ولا بنكالك جاهل ولا لعقوبتك معترض ، ولكن سولت لي نفسي وأعاني على ذلك سترك ، فأنا الآن من عذابك مستجير ، فمن ينقذني ؟ وبجل من أعتصم ؟ إن قطعت عني فوا أسفاً مما ألقاه غداً من الوقوف بين يديك إذا قيل للمخففين جوزوا ، وللمثقلين حطوا ، أمتع المخففين أجوز أم مع المثقلين أحط ؟ . سبحانه تفوقك أن لا ترى وتحلم كأنك لم تعط نتودد إلى خلقك بحسن الصنيع كأن بك الحاجة إليهم وأنت سيدى الغنى عنهم » فلما قيل له « أنت تفعل هذا بنفسك وأبوك الحسين ، وأمك فاطمة وجدك رسول الله . فقال : هيات هيات - دع عنك حديث أبي وأمي وجدى . خلق الله الجنة لمن أطاعه وأحسن ، ولو كان عبداً حبشياً ، وخلق النار لمن عصاه ، ولو كان شريكاً قرشياً ، فإذا نفخ في الصور ، فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون »^(٢) ، فهو هنا يعلن أنه رجل من قريش ، عليه ما على الناس وله ما لهم ، بل ولا فضل لقرشى على عجمي . بل إنه يقول لأهل العراق « ما أكذبكم وما أجرأكم على الله نحن من صالحى قومنا ، وبحسبنا أن تكون من صالحى قومنا »^(٣) ويقول الدكتور كامل الشيبى : إن زين العابدين كان حرباً على السبائية والكيسانية ، وكان يقول لهم « أشهد أنكم لسبم من الذين قال الله عز وجل فيهم » : « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رؤوف رحيم » . وإني أعتقد أنه فعل هذا في مبدأ الأمر ، ولكن صلاته بالختار كانت على خير ما يكون . وقد قبل هداياه . كما قبل منه أيضاً أم ولده زيد . أما أنه كان يكره الغلو ، فإنه كان يذكر « أيها الناس أحبونا حب الإسلام ، فما برح بنا حبكم حتى صار

(١) كاظم حواد الساعدي : حياة الإمام على بن الحسين ص ٣٢٦ ، ٣٣٠ .

(٢) السعدي : مروج الذهب ... ج ٣ ص ٣٨ .

(٣) ابن سعد : طبقات ج ٥ ص ٦٠ .

علينا عاراً»^(١) ويقول أيضاً «إنه ليس عندنا ما يرمينا به هؤلاء» وأشار بيده إلى أهل العراق . فهذا ما فعله أيضاً ابن الحنفية ، وهذا يمثل الجانب الحقيقي من أهل البيت ، أو الجانب السنّي فيهم . ولا عجب أن نراه يتولى أصحاب محمد رسول الله ويدعو لهم في الصحيفة السجادية المنسوبة إليه ، وأن نرى ابنه الإمام زيدا يتابع سنة أبيه ويختلف مع غلاة الشيعة في الكوفة فيما بعد - حين يتولى الشيعيين . وكان من أصحابه أو بمعنى أدق من مشايخه ، سعيد بن المسيب عالم المدينة الكبير وكان سعيد يقول : ما رأيت قط أفضل من علي بن الحسين عليه السلام ، وما رأيته قط إلا مقت نفسى^(٢) كما كان أيضاً تلميذاً للتابعي الكبير «سعيد بن جبير» ونستنتج من كل هذا أن علياً زين العابدين وضع نفسه في تيار السنة العام .

ويقول ابن تيمية «أما علي بن الحسين ، فن كبار التابعين وساداتهم علماءً وديناً . أخذ عن أبيه وعن ابن عباس والمصور بن مخزومة وأبي رافع مولى رسول الله وعائشة وأم سلمة وصفية أم المؤمنين ، ومروان ابن الحكم وسعيد بن المسيب وعبد الله بن عثمان بن عفان » ، ويذكر ممن روى عنه عدداً كبيراً من المحدثين . ويذكر أن يحيى بن سعيد قال ؛ هو أفضل هاشمي رأيته وروى عن حماد بن زيد قال : سمعت علي بن الحسين يقول : يا أيها الناس أحبونا حب الإسلام ، فما برح حبكم حتى صار علينا عاراً ، ثم يذكر ابن تيمية أن له من الخشوع وصدقة السر وغير ذلك من الفضائل مما هو معروف . وأنه كان متواضعاً يجالس زيد بن أسلم مولى عمر بن الخطاب^(٣)

ولا نرى أيضاً في محيط الغلاة في عصره نسبة العلم السري إليه وقد نسب الغلاة هذا العلم إلى محمد ابن الحنفية ، كما نسبوه إلى أبي هاشم ، وهو ابن عم زين العابدين ، حقاً إن ابن عري وهو الصوفي المتأخر ، ينطق علياً زين العابدين بالآيات الغنوصية الآتية :

إني لأتكم من علمي جواهره كي لا يرى الحق ذو جهل فيفتتنا
وقد تقدم في هذا أبو حسن إلى الحسين ووصى قبله الحسن
يارب جوهر علم لوأبوح به لقليل لي أنت ممن يعبد الوثنا
ولاستحل رجال مسلمون دمي يرون أقبح ما يرونه حسناً^(٤)

(١) الدكتور كامل الشيبى : الصلة بين التصوف والتشيع ١٠٤ .

(٢) البقوى : تاريخ .. ح ٣ ص ٤٥ .

(٣) ابن تيمية : منهاج ج ٢ ص ١٢٣ .

(٤) ابن عري الفتوحات المكية ج ١ ص ٢٦٠ .

إن من الثابت أن علي بن زين العابدين لم يظهر في سلسلة الأئمة الغنوصيين لدى الغلاة ، لقد وضح كل نواحي حياته أمام الناس ، فلم يعد ثمة مدخل لغنوصي أولغال أو لدساس . وكان يتكلم دائماً وفي أحاديثه الرقيقة الغنية عن جيران الله - هؤلاء الذين كانوا في الدنيا يتجالسون في الله ويتذاكرون في الله ويتزاوون في الله ، وأهل الفضل ، الذين إذا جهل عليهم حلموا ، وإذا ظلموا صبروا ، وإذا أسى عليهم عفوا ، وأهل الصبر الذين صبروا على طاعة الله . وصبروا عن معاصي الله ، بل إنه كره أوائل الكلام العقلي ، واعتبره مرأاً^(١) . ووضح بهذا سنة لأبي حنيفة والشافعي وابن حنبل ، ولعل أوائل المعتزلة كانوا قد ظهوروا في عصره وسرى ابنه زيداً يأخذ على واصل بن عطاء وسينكر عليه هذا الإمام الباقر والإمام الصادق .

ويبدو أيضاً أن علي بن زين العابدين سن للشيعة التقية ، فقد اتقى مسلم بن عقبة يوم الحرة ، كما اتقى الحجاج ، وقد حاول الحجاج ، أن يجرحه الغيظ ، وكان يتهده دائماً ، ولكن الإمام العظيم لم يهن ولم يرع بل قال له «إن لله في كل يوم ثلاثمائة لحظة وأرجو أن يكفينيك في أول لحظة من لحظاته»^(٢) وأرسل عبد الملك بن مروان بنفس هذا الكلام إلى ملك بيزنطة حين بعث يتهدد عبد الملك بغزو الشام ، فلما قرأها ملك بيزنطة قال لرسول عبد الملك «هذا ليس من كلامه ، هذا من كلام عترة نبي» ، وقد كتب عبد الملك بعدها إلى الحجاج - وهو أمير على الحجاز - «جنبي دماء آل أبي طالب ، فأني رأيت آل حرب لما تهاجموا بها لم ينصروا» فما تعرض الحجاج بعدها للإمام ، وفي أيام سليمان بن عبد الملك اتقاه زين العابدين ، وكان يرسل إليه الرسائل يقرظه ويمدحه ، فلما تولى عمر بن عبد العزيز كتب إليه يعظه ويخوفه من الله - فلما سئل عن هذا قال : إن سليمان كان جباراً ، فكتبت إليه بما يكتب إلى الجبارين ، وإن عمر أظهر أمراً ، وكتبت إليه بما شاكلة^(٣) ونصائح بعد ذلك في «حق السلطان وحق الرعية ، دعوة إلى التقية من السلطان الجائر ، وقد أراد الرجل أن يحفظ دماء الشيعة»^(٤) .

ثم تأتي مشكلة الزهد ، فهل كان الرجل حقاً رائد الزهد ، كما حاول الزهاد فيما بعد ؟ لقد كان علي بن زين العابدين يقول : «من عفا عن محارم الله كان عابداً ومن رضى بقسم الله كان غنياً ، ومن أحسن مجاوره من جاوره كان مسلماً ومن صاحب الدنيا بما يجب أن يصاحبه كان عدلاً ، وبش القوم اختلوا الدنيا بالدين وبش القوم قوم عملوا بأعمال يطلبون بها الدنيا» ، وكان يقول «كلكم سيصير حديثاً حسناً فليفعل . وقد نظم ابن دريد بعد ذلك :

(٣) نفس المصدر ج ٢ ص ٤٧ .

(١) الدكتور كامل الشيبى ص ١٦٢ .

(٤) نفس المصدر ج ٣ ص ٤٨ .

(٢) البعقوني : تاريخ ج ٣ ص ٤٦ ، ٤٧ .

وإنما المرء حديث بعده فكأن حديثاً حسناً لمن وعى

بل يضع على زين العابدين أساس فكرة المحاسبة ، وهى فكرة أخذت جانباً كبيراً من تفكير الزهاد والمتصوفة فيقول : « ابن آدم لن تزال بخيرها ما كان لك واعظ من نفسك ، وما كانت المحاسبة من همتك . وما كان لك الخوف شعاعاً والحزن دثاراً » نحن نعلم أن المحاسبة وخوف الموت والحزن كانت كلها شعارات الزهاد الأولين . ولكن من الخطأ القول . إن علياً زين العابدين كان يؤسس « نظاماً معيناً » للزهد وللزهاد . ولم يرد عنه أنه لبس الصوف ، كما كان يفعل زهاد الغلاة الشيعة . كان هؤلاء إما يتزهدون فعلاً في لباس الصوف كما فعلت ليلي الناعطية ، وإما يظهرن التزهد ، وهو تزهد انتهى بهم إلى الزندقة ، كان تزهد على السجاد ، تزهداً إسلامياً ، يشبه زهد على بن أبى طالب نفسه ، إنه تزوج وتسرى بل كان يتاجر بين الشام والمدينة ، وهو ما لم يفعله جده الأعلى على . أما الصحيفة السجادية التى نسبت إليه فإن أغلبها منحول ، وضعها الشيعة المتأخرون ، وحملوه فيها ما لم يقله ، وما لا يثبت صحته أمام النقد الداخلى للنصوص . وحين مات وغسل وجدوا على كتفيه جلباً كجلب البعير ، أى قشرة سمكة كتلك التى تعلق الجرح عند البرء منه فليل لأهله : ما هذه الآثار ؟ فقالوا من حملة الطعام فى الليل يدور به على منازل الفقراء . وتذكر المسلمون قوله حين دفنه « فقد الأحبة غرباً » (١) وقد عاش على زين العابدين غريباً فى الدنيا ، وذهب آخر الأمر إلى جده العظيم حيث الأحبة ، وحيث لا غربه .

واحتل على زين العابدين بن الحسين المكان البارز لدى الشيعة الاثني عشرية والإسماعيلية ، فهو الإمام الرابع لدى الفرقتين ، ومنه تناسلت الأئمة . ولكن لعل زين العابدين فى تاريخ التشيع مكانة أخرى فهو ابن الخيرتين ، ذلك أن أمه هى شهر بانويه بنت يزدجرد ، آخر الأكاسرة . فقد أسرها العرب هى وأختها فوهبها عمر بن الخطاب - واحدة للحسين بن على والأخرى لمحمد بن أبى بكر - وقد سماها الحسين تكريماً لها - السلافة ، فعلى زين العابدين نسل النبوة والأكاسرة معاً وقد ذكر أبو الأسود الدؤلى الديلمى هذا بقوله :

وإن وليداً ين كسرى وهاشم لأكرم من نيطت عليه التمام

هو النور نور الله موضع سره ومنيع ينبوع الإمامة عالم

وقد وضع الشيعة حديثاً عن رسول الله ﷺ وهو « لله من عباده خيرتان : فخيرته من العرب قریش وخيرته من العجم فارس » وقالوا بأن زين العابدين هو المقصود بهذا الحديث . ولعل هذا يفسر بعد ذلك اتباع الفارسيين للمذهب الشيعى فقد جمع العقب الباقي من الحسين بن على فى نفسه وصية

الرسول وارث فارس ، فهو إذن صاحب الحق الإلهي في ملك العرب والعجم ؛ فعلى عرش قلبه الإسلام وعلى رأسه تاج الأكاسرة . إن هذا الترميز في علي زين العابدين متأخر كل التأخر ، وما فكر فيه ابن الحسين ، ولا فكر فيه معاصره . إن من المؤكد أن دعوى مثل هذه استخدمت في عصور متأخرة لنشر التشيع الإمامي الاثني عشري في فارس ، ولكنها لم تعرف أولاً ، ولم يذكرها الغلاة ، وكان الكثيرون منهم من الفرس ، كما أن فكرة النور الفارسية الثنوية الغنوصية لم تنسب إلى علي زين العابدين ، كما لاحظ بيراعة الدكتور الشيبى أنها نسبت إلى عبد الله بن معاوية بن جعفر (١) . ونأق أخيراً إلى وفاة زين العابدين ، فقد قرر الشيعة أنه مات مسموماً ، وذلك حين رأى الأمويون ازدحام الناس حوله وبالرغم منه ، ويذكرون دليلاً على هذا قصة حجه حينما حج هشام بن عبد الملك . وأراد الأخير أن يصل إلى الحجر الأسود فحال الزحام دون وصوله إليه ، فلما أقبل زين العابدين انفرجت الصفوف ، حتى استلم الحجر ، وسأل رجل من أهل الشام : من هذا ؟ فقال هشام : أنا لا أعرفه . وأنشد الفرزدق وكان حاضراً :

هذا سليل حسين وابن فاطمة بنت الرسول من انجابت به الظلم
هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم هذا التقى النقي الطاهر العلم
هذا ابن فاطمة إن كنت تجهله يجده أنبياء الله قد ختموا (٢)

وخشى الأمويون آخر الأمر الإمام ، والناس تنبعه من حيث لا يريد ، فسدوا إليه من سبه . ولكننا لا نجد إشارة إلى سبه في أقدم المصادر الشيعية وعلى الأخص في تاريخي يعقوبى والمسعودى . ولقد توفي زين العابدين في خلافة عمر بن عبد العزيز عام ٩٩ هـ ، ويقول يعقوبى إن عمر بن عبد العزيز ذكره يوماً فقال : ذهب سراج الدنيا وجمال الإسلام وزين العابدين . فقليل له : إن ابنه أبا جعفر محمد بن علي فيه بقية . بل إنه حين وعظه زين العابدين قبل وفاة الإمام بقليل ، قال عمر بن عبد العزيز : إن أهل هذا البيت لا يخليهم الله من فضل (٣) يبدو إذن أن قصة سبه اخترعها الشيعة المتأخرون لإسباغ العطف على الأئمة ، ولتناسق دعوى الشيعة الاثني عشرية « أن الأئمة الاثني عشر قد ماتوا جميعاً شهادة » ، ولقد خلف علي زين العابدين أولاداً كثيرين يعنيها منهم اثنان هما : محمد الباقر ، وزيد بن علي ، وقد كان لهما الأثر الكبير في تطور العقيدة الشيعية ، كل من وجهة نظره .

(١) الدكتور الشيبى : الصلة ... ص ١٥٦ .

(٢) انظر القصيدة كاملة في ابن العاد : شذرات ج ١ ص ١٤٢ .

(٣) يعقوبى : تاريخ ج ٣ ص ٤٨ .

الفصل الثاني

الإمام محمد الباقر

ولد محمد الباقر سنة ٥٧ هـ ، وقتل جده الحسين وله من العمر أربع سنوات . وكان يقول « إني لأذكر مقتله وما نالنا في ذلك الوقت » وقد بشر رسول الله بولادته وقال للصحابي المشهور جابر بن عبد الله الأنصاري : « إنك ستبقى حتى ترى رجلاً من ولدي أشبه الناس بي - اسمه اسمي إذا رأيته لم يخل عليك ، فأقرئه مني السلام » وورد الحديث في صورة أخرى « يا جابر إنك ستعيش حتى تدرك رجلاً من أولادي اسمه اسمي يقر العالم بقرأ ، فإذا رأيته فأقرئه مني السلام » ولما كبر جابر ، وخاف الموت ، كان يسير في طرقات المدينة يصبح « يا باقر يا باقر أين أنت ؟ » حتى ولد محمد ، ودخل الكتاب فأقبل عليه جابر يقبل يديه الصغيرتين ورجليه ويقول « بآي وأمي شبيه أبيك رسول الله ، إن أباك يقربك السلام (١) . . وإذا كانت العبادة قد غلبت على أبيه وأصبحت سمته ، فقد غلب العلم على محمد الباقر ، فكان أول عالم من الأئمة الفاطميين بعد علي بن أبي طالب ، وقد عاصر الباقر حتى وفاته عام ١١٩ هـ أهم الحركات العقلية التي أسست التفكير الإسلامي عامة - فيما بعد - كما عاصر أيضاً الحركات السياسية التي سادت في العالم الإسلامي إبان ذلك الوقت ، وإذا كان قد سار على سنة أبيه فيما يخص السياسة ، فقد اختلف عن أبيه في أنه أخذ يرسى قواعد « عقيدة الإمام » ويضعها في أسلوبها المنهجي ، الذي سنراه يتضح عند ابنه جعفر الصادق على أكبر صورة ولقد اعتنى أيضاً بالحديث وروايته ، وقد روى عن أبيه كما روى عن الثقات العظماء من محدثي المدينة كسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير . ولعله رأى تلك الغنوصية التي أدخلها الغلاة في الأحاديث ، فوجه اهتمامه إلى هذه الناحية الهامة من التراث الإسلامي . وقد أخرج جماعة من ثقات رواية الشيعة من أمثال جابر بن يزيد الجعفي ووزارة بن أعين وبريد العجلي وسدير الصيرفي . وتذكر الأخبار الشيعية أن أبا حنيفة أيضاً روى عنه .

عاصر الباقر ابن عم أبيه أبا هاشم بن محمد بن الحنفية ، وما أحاطه من حركات الغلو في الكوفة ، بل في المدينة نفسها . وقد أهمه كل هذا . وحاول جهده أن يوقف تيار الغلو فتبرأ من حمزة بن عمار

(١) الباقوني : تاريخ ج ٣ ص ٦١ .

البربري ولعنه في مسجد رسول الله (١) كما فعل هذا مع بيان بن سميان والمغيرة (٢). وفسر الشيعة بقوله «يا معشر الشيعة: شيعة آل محمد، كونوا التفرقة (أى الوسادة) الوسطى، يرجع إليكم الغالى ويلحق بكم التالى» ويفسر الغالى بأنه من يقول فيه ما لا يقال فى نفسه، والتالى بأنه المرتاد يريد الخير يؤجر عليه (٣)، وينبغى أن نلاحظ أن كلمة الإمامية لم تظهر على عهد الباقر، إنما كان أتباعه هم المقتصدى من الشيعة. ويبدو أنهم كانوا فى عهد زين العابدين والباقر قلة فى المدينة وفى الكوفة. أما بقية الشيعة فقد تقاسمهم الكيسانية بفرقها المختلفة، والغلاة بحركاتهم العنيفة، بينما كانت العباسية أوالراوندية تثبت أقدامها فى خراسان وفى وسط هذه الحركات المتضاربة المتناقضة عاش محمد الباقر حياته الهادئة بمنأى عن كل شىء سوى رسالته العلمية، إن صلته الوحيدة بالسياسة إنما كانت - كما كان أبوه من قبل - ثنايا مدحه للمختار بن أبى عبيد، وفيما سوى ذلك، لم يتصل بالسياسة أو يتكلم فيها لا من قريب ولا من بعيد.

ولكن هنا نقابلنا المشكلة التى تقابلنا دائماً فى حقيقة أئمة أهل البيت، هل دعوا فعلاً إلى نظرية «الإمامة» وهل أرسوا قواعدها؟ أو بمعنى أدق: إن أهل السنة والشيعة تتنازعان دائماً آل البيت وكل من ناحية يورد أخباراً تؤكد وجهة نظره.

وقد جمع تلميذى الدكتور أحمد صبحى فى بحثه عن الإمامة عند الشيعة الاثنى عشرية جملة من هذه الأحاديث المنسوبة إلى الباقر والتى أوردها رجال الشيعة كالحلى فى «درر البحار»، والكلينى فى «الكافى» وقام بتحليلها. وأهم هذه الأحاديث: أنه لما سئل «الباقر» عن الحاجة إلى الإمام فقال ليرفع الله العذاب عن أهل الأرض وذكر قول الله، «وما كان الله ليعذبهم وأنت فىهم» وقول الإمام الباقر أيضاً «لا تبق الأرض يوماً واحداً بغير حجة لله على الناس منذ خلق آدم وأسكنه الأرض، وقيل له: أكان على حجة من الله ورسوله على هذه الأمة فى حياة رسول الله؟ فقال: نعم يوم أقامه للناس ونصبه علماً ودعاهم إلى ولايته وأمرهم بطاعته. وسئل: أفكانت طاعة على واجبة على الناس فى حياة رسول الله وبعد وفاته؟ قال: نعم، ولكنه صمت فلم يتكلم فى حياة الرسول، وهكذا أنطق الشيعة الإمام الباقر بنظرية الإمام الصامت والإمام الناطق. فإن صح حقاً أنه دعا إليها، فقد دعا إلى نظرية أو وضع أساساً لنظرية من أدق النظريات الغنوصية التى استخدمت لدى الإسماعيلية والغلاة فيما بعد.

(١) النوبختى: فرق الشيعة ص ٢٧ - ٢٨.

(٢) النوبختى: فرق الشيعة ض ٣٤ وابن سعد: طبقات ج ٥ ص ٣٩٥.

(٣) الشيبى: الصلة بين التصوف والشيعة ص ١٧٠.

ثم يفسر الباقر الآية « واجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم » وهو ينظر إلى الحجيج يطوفون الكعبة فيقول : هكذا كانوا يطوفون في الجاهلية ، إنما أمروا أن يطوفوا بها . ثم ينفروا إلينا فيعلمونا ولايتهم ومودتهم ويعرضوا علينا نصرتهم » أما أن الحجيج قطعان . يسرون حول كعبة الله كسيرهم في الجاهلية . فما كان يخطر على إمام من أهل البيت يعلن في كل حين أنه لا يريد نصرة المسلمين له لتولي الأمر لقد اعتبر ولايته ولاية روحية لا صلة لها بمال ولا بجاه . أكان ينظر إلى المسلمين في حجهم هذه النظرة ؟ إنه أشبه بكلام القرامطة فيما بعد حين خاطبوا الحجر الأسود ، وهم يضربونه « أيها الحجر كرم تعبد في الأرض وآل محمد لا يظهرون » إن النقد الداخلي للنصوص السالفة الذكر يثبت أنها موضوعة أو محرفة كما أن نظرية العلم السري التي تنسب جريمتها الأولى لمحمد الباقر لم تصدر عنه فيما يبدو . أما أخبار أهل السنة فقد ذكروا أنه سئل : هل من أهل البيت من أشرك بالله ؟ قال : لا . قيل : وهل منكم أهل البيت من يعتقد بالرجعة ؟ قال : لا . وسئل : هل منكم أهل البيت - من يبغض أبا بكر وعمر ؟ قال : لا . بل نحبهما ونودهما وندعو لهما (١) . بل إنه يقول لجابر الجعفي : بلغني أن قوماً بالعراق يزعمون أنهم يحبوننا وينالون من أبي بكر وعمر ويزعمون أني أمرتهم بذلك . فأبلغهم أني والله منهم بريء والذي نفس محمد بيده لو وليت . لتقربت إلى الله بدمائهم . لا نالني شفاعة محمد إن لم أستغفر لهما ! ! (٢) بل إنه يذكر أبا بكر بالصديق فلما سئل وثب واستقبل القبلة ثم قال : نعم الصديق ، نعم الصديق فن لم يقل الصديق فلا صدق الله له قولاً في الدنيا والآخرة . ويقول : من لم يعرف فضل أبي بكر وعمر فقد جهل السنة . ويفسر قوله تعالى (إنما وليكم الله ورسوله) بقوله : هم أصحاب محمد ﷺ ، فقيل له : هو علي : قال : علي من أصحاب محمد ﷺ (٣) . ولقد كانت زوجته وأم ابنه أكبر أئمة الإمامية - جعفر الصادق - هي أم فروة بنت القاسم بن محمد ابن أبي بكر الصديق .

وأخيراً نأتي إلى صورة محمد بن علي في كتاب عالم سلفي حارب الشيعة وهو ابن تيمية . يقول : « أبو جعفر محمد بن علي من خيار أهل العلم والدين . وقيل إنما سمي الباقر . لأنه يقر العلم لا لأجل بقر السجود جبهته » .

ويقول ابن خلكان : وإنما قيل له الباقر لأنه تبقر في العلم أي توسع ، والتبقر والتوسع يقول فيه الشاعر :

يا باقر العلم لأهل التقى وخير من لى على الأجل (٤)

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ٥ ص ٣٢٥ . (٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٠٩ .

(٣) ابن تيمية : حلية الأولياء ج ٣ ص ١٨٥ . (٤) ابن خلكان : وفات - ٢ - .

وهذا اختلاف ضئيل في تسمية محمد بن علي بالباقر مع الشيعة ، ولكن ابن تيمية ينكر «كونه أعلم أهل زمانه» إنه يرى أن هذا القول يحتاج إلى دليل ، ويرى أن الإمام الزهري وهو من أقران محمد بن علي ، هو عند الناس أعلم منه . ولكن ابن تيمية يعترف أنه أخذ الحديث عن جابر ، وأنه روى عنه عدداً كبيراً من الأحاديث الصحيحة ، ودخل على جابر مع أبيه علي بن الحسين بعد ما كبر جابر . وكان جابر من المحبين لهم رضى الله عنهم ، ويرى ابن تيمية أن الباقر أخذ الحديث أيضاً عن أنس بن مالك ، وابن عباس وأبي سعيد وأبي هريرة وغيرهم من الصحابة ، وعن سعيد بن المسيب وعبد الله بن أبي رافع كاتب علي . ثم روى عنه أبو إسحاق الهمداني وربيعة بن عبيد أبو عبد الرحمن والأعرج وهو أسن من محمد بن علي وابنه جعفر وابن جريج ويحيى بن أبي كثير والأوزاعي وغيرهم (١) وعمرو بن دينار (٢) .

هذه صورة لمحمد بن علي الباقر كتبها عالم من علماء السلف ، بل عالمهم الكبير المتأخر . وهي تدل دلالة واضحة على ما يمكنه من احترام كبير له كإمام من أهل البيت ، نشر العلم الإسلامي ، وأخلص لأعظم جوانبه وهو جانب الحديث ، وكان ابن تيمية محدثاً مشهوراً ، فوضعه لمحمد بن علي في نسق المحدثين العظماء العدول يدل دلالة واضحة على ما كان للإمام الباقر من مقام علمي عظيم حتى في أوساط السلف وأهل السنة والجماعة .

أما إنكار ابن تيمية كون الباقر أعلم أهل زمانه ، فهذا اتجاه سلفي من عالم اشتهر عنه تخطئة الناس جميعاً ، حتى إمامه أحمد بن حنبل ، بل الصحابة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي . ثم هو مزاج ابن تيمية الحار وهو يناقش ابن المطهر الحلي ، من عدم كون علي وأولاده دون الناس أصحاب العلم وورثة الأنبياء ، وإليه مرجع أمور المسلمين . وإذا كان ابن تيمية يذهب في كثير من أحكامه شططاً ، فإن الشيعة يفعلون نفس الأمر . ودعواهم دعوى عريضة ، ولكن «كون الباقر أحد أئمة الاثني عشرية» لم يمنع أيضاً ابن كثير الشافعي أن يقول عنه إنه «تابعي جليل ، كبير القدر ، أحد أعلام هذه الأمة علماً وعملاً وسيادة وشفراً ، وهو أحد من تدعى فيه طائفة الشيعة أنه أحد الأئمة الاثني عشر ، ولم يكن الرجل على طريقهم ولا على منوالهم ولا يدين بما وقع في أذهانهم وأوهامهم وخيالهم ، بل كان ممن يقدم أبا بكر وعمر . وذلك عنده صحيح في الأثر» ويذكر ابن كثير أن الباقر قال : ما أدركت أحداً من أهل بيتي إلا وهو يتولاها ، رضى الله عنهما ويذهب ابن كثير إلى أنه روى عن غير واحد من

(١) ابن تيمية : منهاج السنة ج ١ ص ١٣٢ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٠٩ .

الصحابة . كما روى عن جماعة من كبار التابعين : أى أنه كان من كبار رجال الحديث من أهل السنة (١) .

ثم نأتى إلى موقفه من المعتزلة . لقد رأينا موقفه كمحدث ، وأهل الحديث في المدينة كرهوا «الكلام في الدين» واعتبروه مراءاً . وأتى واصل بن عطاء إلى المدينة . وتعلمذ عليه أخوه زيد بل سيطر واصل بن عطاء على زيد كما سنرى . وكره الباقر هذا كل الكراهية . وكان يقول لجابر الجعفي «يا جابر لا نخاصم ، فإن الخصومة تكذب القرآن» وهو يحدد الخصومة هنا بقوله «لا تجالسوا أصحاب الخصومات . فإنهم الذين يخوضون في آيات الله» وكانت مسألة الفاسق شغل المجامع الإسلامية فسأله جابر «أكان منكم أهل البيت أحد يزعم أن ذنباً من الذنوب شرك . . . ؟ قال : لا . (٢)» وهو يرى أن «شيعتنا من أطاع الله عز وجل واتقاه» ويؤكد ثانية كراهيته للكلام . حين يقول : «ياكم والخصومة فإنها تفسد القلب وتورث النفاق» الذين يخوضون في آيات الله هم أصحاب الخصومات (٣) ويورد الشهرستاني مناظرة جرت بين الباقر وأخيه زيد لأنه «كان يتعلمذ لواصل بن عطاء ويقتبس العلم ممن يجوز الخطأ على جده في مقال الناكثين والقاسطين ومن يتكلم في القدر على غير ما ذهب إليه أهل البيت ومن حيث إنه كان يجعل الخروج شرطاً في كون الإمام إماماً ، حتى قال له يوماً : على قضية مذهبك والدك ليس بإمام ، فإنه لم يخرج قط ولا تعرض للخروج» (٤) وتنسب هذه المناظرة إلى جعفر الصادق ، وبخاصة أن خروج زيد كان بعد وفاة أبى جعفر الباقر ، ومن المحتمل أن الأخوين قد تناقشا. بادئ الأمر ، وحاول الباقر أن يرد أخاه عن عزمه على الخروج .

ونرى ابن كثير يذكر أن محمد بن علي قال «القرآن كلام الله عز وجل غير مخلوق» (٥) وهذا نص خطير يثبت أن الإمام الباقر أزعجه تماماً الأصل المعتزلي : أن كلام الله مخلوق ولكن القول المنسوب إليه «أنه لا جبر ولا اختيار» فمن الثابت أنه لابنه جعفر الصادق .

وأخيراً نأتى إلى مسألة زهد الباقر وتصوفه ، فقد حاول الكثيرون من المتصوفة والزهاد وضع الباقر في سلسلة الزهد والتصوف . وحاولوا أن يثبتوا انتقال العلم اللدني إليه خلال البشارة بمولده . ولكن تحليل كلمة الباقر نفسها يثبت العكس تماماً فقد قيل له الباقر ، لأنه بقر العلم أى شقده ، وعرف أصله وخفيه وتوسع فيه (٦) والمقصود بالعلم هنا علم الحديث ، واستفاضت الآثار في أنه محدث ، وتابعي

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج ٩ ص ٣٠٩-٣١١ . (٤) الشهرستاني : الملل ج ١ ص ٢٥١-٢٥٢ .

(٢) ابن سعد : طبقات .. ج ٥ ص ٢٣ . (٥) ابن العباد : شذرات .. ج ١ ص ١٤٩ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية .. ج ٩ ص ١١٣ . (٦) ابن كثير : البداية ج ٩ ص ٣٠٩ .

مدنى ثقة بل ينقل ابن سعد عنه قوله «إنا آل محمد نلبس الخبز واليمنة والمعصفرات والممصرات (١)». وقال ابن حنيف : «رأيت أبا جعفر متكئاً على طيلسان مطوى في المسجد . وقال محمد بن عمر : ولم يزل ذلك فعل الأشراف وأهل المروءة عندنا . الذين يلزمون المسجد يتكئون على طيالة مطوية سوى طيلسانه وردائه الذى عليه (٢) ، وقد أوردت هذه النصوص لكى أصل إلى أن محمداً الباقر لم يكن زاهداً . بمعنى اتخاذه الزهد نظاماً معيناً له قواعده وأصوله ، وقد كره أيضاً زهد الغلاة . إنه إنما كان محدثاً عابداً أو زاهداً على طريقة أهل السنة .

ولكن نرى في الآن نفسه نصاً يقدمه لنا ابن كثير يقول فيه «وسمى الباقر لبقره العلوم واستنباطه الحكم وكان ذاكرة خاشعاً صابراً ، وكان من سلالة النبوة . رفيع النسب ، على الحسب ، وكان عارفاً بالخطرات . كثير البكاء والعبرات معرضاً عن الجدال والخصومات» وينبغي أن نفسر النص في حدوده ، وهى حدود عالم الحديث ، فعالم الحديث الحق - سنياً كان أو شيعياً - له زهده الخاص ، وهو يختلف عن زهد غيره . فهو يلتزم بالقرآن والسنة ، ولا تنبثق معاني زهده من أى مؤثر خارجي مسيحي أو هندي أو فارسي أو غنوصي على الإجمال . إنه يتحرى الحديث تحرياً علمياً ، ولا يتعبد إلا على ما ثبت له صدقه . فالذكر والخشوع والصبر ومعرفة الخطرات وكثرة البكاء والعويل كانت سمة لمحدثي الإسلام الحقيقيين . بل كانت سمة للمعتزلة ، وكانوا أيضاً يتحرون الدقة الكبرى في الأخذ بالأحاديث . فكان زهد الباقر - إذا كان زاهداً - هو الزهد الذى عرفه علماء الحديث في الإسلام وعرفوا به . وفى ضوء هذا نستطيع بسهولة فهم أقواله في الفقر والزهد ، فتفسير قوله تعالى «وأولئك يجزون الغرفة بما صبروا» الغرفة الجنة ، بما صبروا على الفقر في الدنيا ، ثم يذكر الصواعق تصيب المؤمنين وغير المؤمنين ولا تصيب الذكور . وقد يذهب الصوفية بعد ذلك إلى أنه يضع الذكر فوق الصلاة وهذا خطأ . إننا نرى ابن عباس - ولم يكن ابن عباس زاهداً - يقول نفس القول : لو نزل من السماء صواعق عدد النجوم لم تصب الذكور .

ثم يذكر جابر بن يزيد الجعفي عنه أنه قال له : يا جابر إني لمحزون وإني لمشتغل القلب . قلت : وما حزنك وما شغل قلبك ؟ قال يا جابر : إنه من دخل قلبه صافي دين الله عز وجل شغله عما سواه . يا جابر ما الدنيا ؟ وما عسى أن تكون ؟ هل هى إلا مركباً ركبتة ؟ أو ثوباً لبسته أو امرأة أصبتها ؟ يا جابر إن المؤمنين لم يطمثوا إلى الدنيا لبقاء فيها ، ولم يأمّنوا قدوم الآخرة عليهم ، ولم يصممهم عن ذكر الله ما سمعوا بأذانهم من الفتنة ، ولم يعمهم عن نور الله ما رأوا بأعينهم من الزينة ففازوا بثواب الأبرار . إن أيسر أهل الدنيا مؤونة ، وأكثرهم لك معونة ، إن نسيت ذكرك ، وإن ذكرت أعانوك ، قوالين

(١) ابن سعد : طبقات .. ج ٥ ص ٢٤٥ . (٢) ابن كثير : البداية ج ٣ ص ٣١١ .

بحق الله ، قوامين بأمر الله ، قطعوا لهبة ربهم عز وجل ، ونظروا إلى الله وإلى محبته بقلوبهم وتوحشوا من الدنيا لطاعة محبوبهم ، وعلموا أن ذلك من أمر خالقهم ، فأنزلوا الدنيا حيث نزلها ملكهم كمتزل نزله ، ثم ارتحلوا عنه وتركوه ، وكما أصبته في منامك ، فلما استيقظت إذا ليس في يدك منه شيء ، فاحفظ الله فيما استرعاك من دينه وحكمته » (١) ، وينبغي أن نلاحظ أن الكلام يبدو زهداً بلا شك ، ولكنه زهد من نوع خاص يبعده تمام البعد عن حركة الزهد العام التي عاصرتة إنه أقرب إلى الحكم وليس صادراً عن زفرة حرة ، كما نراها عند معاصريه من الزهاد ، إنه كلام محدث عابد معلم للمسلمين . ولا نرى كلمة الزهد على الإطلاق في كلماته أوحى حكمه . وكذلك نراه يتكلم عن الخطرات ، وهي ليست من نوع خطرات النفس عند الزهاد والصوفية ، بل يفسر بها اليقين فيقول « الإيمان ثابت في القلب ، واليقين خطرات ، فيمر اليقين بالقلب ، فيصير كأنه زبر الحديد ، ويخرجه منه فيصير كأنه خرقة بالية ، وما دخل قلباً شيء من الكبر إلا نقص من عقله بقدره أو أكثر » (٢) . ثم هو يتابع أباه في سن البكاء للمسلمين فيقول : ما اغرورقت عين عبد بماثها إلا حرم الله وجهه صاحبها على النار ، فإن سألت على الحدين ، لم يرهق وجهه قتر ولا ذلة ، وما من شيء إلا وله جزاء إلا الدمة فإن الله يكفر بها بحور الخطايا ولو أن باكياً بكى من خشية الله في أمة رحم تلك الأمة » (٣) وقد استغل الصوفية فيما بعد كل هذا وأدخلوا الباقر في تيار الزهد العام . ونرى بشراً الخافي يقول : سمعت سفيان الثوري يقول : سمعت منصوراً يقول عن الباقر : الغنى والفقر يحولان في قلب المؤمن ، فإذا وصلا إلى مكان فيه التوكل أو طفاؤه (٤) « وأخيراً يقول الباقر : والله لموت عالم أحب إلى إبليس من موت ألف عابد » (٥) وهو بهذا يضع العلم فوق العبادة والحديث فوق الزهد .

أما ما تذكره كتب الشيعة من ناحية وكتب طبقات الصوفية من ناحية أخرى عن كون الباقر زاهداً ، فلا يثبت أمام النقد العلمي لوضع الباقر في إطار الزهد والتصوف فليس قوله « قال الله في الصيد . ولا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ؛ فقتل الصيد أعظم أم قتل النفس التي حرم الله » (٦) قول متصوف هذا قول في كراهة القتل ، ولكنه يقول في نص يذكره صاحب الحلية ، كما يذكره أيضاً ابن كثير « إن الله يلقي في قلوب شيعتنا الرعب ، فإذا قام قائمنا ، وظهر مهدينا ، كان الرجل منهم أجراً من ليث وأمضى من سيف » (٧) وإذا كان النص الأول في الزهد (وهو ليس كذلك) ؛ فالنص الأخير

(١) ابن كثير : البداية . ج ٩ ص ٣٠٩ . (٥) نفس المصدر السابق : ج ٩ ص ٣١١ .

(٢) نفس المصدر : نفس الصحيفة . (٦) نفس المصدر السابق : ج ٩ ص ٣١١ .

(٣) نفس المصدر السابق : ج ٩ ص ٣١١ . (٧) نفس المصدر السابق : ج ٩ ص ٣١١ .

(٤) أبو نعيم : الحلية ج ٣ ص ١٨٤ ؛ وابن كثير : البداية ج ٩ ص .

ليس زهداً . والنقد الباطني للنصوص يحتم علينا مع ذلك أن ننكر صدور هذا النص الأخير عنه ، فقد ذكر فيه مصطلح القائم ، وهو ما أنكره على أخيه زيد ، كما ذكر فيه المهدي - وهو مصطلح كان يستخدمه الغلاة من حوله ، وقد أنكر الغلاة ، وكان يقول : « شيعتنا من أطاع الله عز وجل واثقاه » ، وكان يقول : « اللهم إني أبرأ إليك من المغيرة بن سعيد وبيان » (١) .

وقد حاول الدكتور الشيبى ببراعة أن يثبت زهد الباقر وصوفيته وأورد النصوص الكثيرة التي تؤيد فكرته : منها نص ابن حجر في الصواعق المحرقة الذي يقول فيه « وله من الرسوم في مقامات العارفين ما تكل عنه ألسنة الواصفين ، وله كلمات في السلوك والمعارف » ، ثم يحاول الشيبى أن يثبت أن بذرة نظرية الحب الصوفي وجدت عند الباقر . ويورد عن فريد الدين العطار فكرة الملك أو السلطان الروحي ، وأن الباقر كان يقضى ليله وهو يردد في صوت عال « إلهي وسيدى ، حل الليل وانتهت ولاية تصرف الملوك وظهرت النجوم ونام الخلائق » ثم يورد الشيبى حديث عبد الله بن المبارك الصوفي (المتوفى سنة ١٨١ هـ) المشهور عن نجلى محمد الباقر له - كتجلى الخضر لكبار الصوفية ، وأن محمداً الباقر أنشده :

فنحن على الحوض رواده نلذوده ونسعد وراده
فا فاز من فاز إلا بنا وما خاب من حينا زاده
ومن سرنا نال منا السرو ر ومن ساءنا ساء ميلاده
فن كان حقاً لنا غاضباً فيوم القيامة ميعاده (٢)

وأرى أن هذا تصوير الصوفية له ، ولكن ليست آراءه هو ، وأحوال الصوفية أنفسهم ينسبونها إليه ، وليست أحواله هو . إن نظرية الحب الصوفية لها بلا شك أصولها القرآنية ، ولابن تيمية نفسه نظرية خاطئة في الحب الإلهي ، ولكن الحب الإلهي أدى عند صوفية الحلول من ناحية وصوفية وحدة الوجود من ناحية أخرى إلى نظريات تخالف الحب الإلهي القرآني . وهذا ما نأى عنه أهل البيت جميعاً ، وزهاد الصوفية من السنة والشيعة جميعاً ، ولم يكن تطور هذه عن تلك .
وأخيراً - لقد كان لمحمد بن علي الباقر أعظم مكان لدى أهل السنة والجماعة ولدى الشيعة . إنه لدى الأولين . إمام أهل البيت « وبقية فاطمة العظيمة في الدنيا ، ومحدث المدينة الكبرى ، وكان هو الإمام الخامس لدى الشيعة الاثني عشرية والإسماعيلية .

(١) اس سعد : طبقات ج ٥ ص ٢٣٥ .

(٢) الشيبى : الصلة .. ص ١٧٥ - ١٧٦ .

الفصل الثالث

الزيدية

زيد بن علي

لم يكن لمحمد الباقر أثر كبير في تطور العقيدة الشيعية ، لقد كان إماماً كبيراً من أئمة المسلمين . شغل بالعلم والحديث واحتل مكانه العظيم كمحدث ممتاز في كتب السنة وأهل الشيعة ، ولكن لم يكن له أبداً هذا الحماس الديني المشتعل الذي ينشئ حوله فرقة أو مذهباً أو يثير حركة ثورية في العالم الإسلامي ، كانت حياته رتيبة خالية من الإثارة ، وجاء الشيعة المتأخرون فحاكوا حوله الأسطورة ، ونسبوا له الولاية ، والعلم الإلهي الباطن الذي يستخرج به معاني القرآن الحقيقية ، واعتبروه في سلك الغنوصيين من أهل البيت . ولكن حين نتقل إلى بحث حياة أخيه الأصغر زيد وعقائده ، نجد سيلاً عارماً من الأخبار ، وحياة ديناميكية قابلت جميع الاتجاهات والتيارات الفكرية والسياسية في عصره ، وقصة مثيرة أشد مما تكون الإثارة ، وحياة أشد ما تكون الحيوية .

ولد زيد بن علي لأبيه علي زين العابدين (عام ٨٠ هـ) عن أم سندية أهداها له المختار بن أبي عبيد . ومات أبوه وهو في الرابعة عشرة من عمره فكفله أخوه الأكبر محمد الباقر وكان لمحمد الباقر ولد في سن زيد وهو جعفر الصادق . ويبدو أنه أخذ عن أبيه زين العابدين العلم في باكورة حياته ، ثم عن أخيه محمد الباقر بعد وفاة أبيه ، ولكن لم تطمئن نفس الفتي العلوي الشغوف الطلعة إلى الحياة المدنية الرتيبة ولا إلى طريقة الحياة التي عاشها أبوه بعد محنة كربلاء ، وعاشها أخوه الباقر أيضاً متبعاً سنة أبيه علي زين العابدين . بدأ الفتى رحلاته إلى الكوفة ، ثم زارها مراراً ، ثم مضى إلى البصرة ، يقابل علماءها ، ويناقش مفكرها وما أكثرها في ذلك الوقت . وفي البصرة قابل واصل بن عطاء شيخ المعتزلة ، ويذهب الشهرستاني إلى أن «زيداً تتلمذ على واصل ، حين أراد أن يحصل الأصول والفروع حتى يتحلى بالعلم» ويؤيد الشهرستاني هذا بمناقشة جرت بين زيد وبين أخيه الأكبر محمد الباقر يعتب الباقر فيها على أخيه أن يأخذ العلم عن واصل بن عطاء وهو ممن يجوز الخطأ على جده الأكبر علي في قتال الناكثين والقاسطين من أهل الشام ، ومن يتكلم في القدر على غير ما يذهب إليه أهل البيت ، ومن

حيث إن زيدا كان يشترط الخروج شرطاً في كون الإمام إماماً . فقد قال له الباقر في أثناء المناقشة « على قضية مذهبك والدك ليس بإمام ، فإنه لم يخرج قط ، ولا تعرض للخروج »^(١) .

وقد حاول العلامة الكبير الشيخ محمد أبو زهرة أن يثبت أن الإمام زيدا لم يتلمذ على واصل بن عطاء ، وإنما ذكره في آرائه وزامله فيها ، وبخاصة أن واصل بن عطاء إنما أخذ مذهب عن رجل من أهل البيت هو أبو هاشم بن محمد بن الحنفية^(٢) ، وسواء أصبحت تلمذة زيد لواصل بن عطاء أم مذاكرته له في المذهب ، فإن آراء المعتزلة كانت هي المرحلة الحاسمة في تفكير الفقيه العلوي . لقد أتى إلى المدينة ، وهو على معرفة تامة بكثير من أصول واصل . وها هو يناقش أخاه شيخ البيت العلوي فيها ، ويكاد يعلن أن أباه لم يكن إماماً ، بل كان في نظره رجل من صالحى أهل البيت ، كما أن اعتناق زيد المذهب القدرى أقلق محمداً الباقر . ومن الخطأ الشديد القول بأن على زين العابدين وابنه الباقر كانا قدرين . إنها كانا من رجال الحديث ، وإذا صح أن الباقر هو أول من قال : لا جبر ولا اختيار ، وإنما هو أمر وسط وتفويض ، فإنه يكون إذن من سلف أهل السنة ، وهذا الأمر الوسط هو في نهاية الأمر جبر . وأخيراً إن اشتراط الخروج في كون الإمام إماماً إنما هو نابع من أصل المعتزلة الخامس « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » . وقد كان هذا الفقيه العلوي مخلصاً لآرائه وعقائده ، فخرج على هشام بن عبد الملك ، وفاز بالشهادة في طرقات الكوفة ، كما فاز بها من قبل في الكوفة رأس البيت العلوي « على بن أبي طالب » وقد كان على مثل زيد الأعلى ، وكما فاز بها أيضاً الحسين بن على في كربلاء على أطراف الكوفة القريبة ، بل مثل زيد بن على مع هشام بن عبد الملك نفس قصة الحسين ابن على مع يزيد بن معاوية . خرج الحسين بن على على يزيد بن معاوية العاقى ، وقتله عامله على الكوفة عبيد الله بن زياد ، ولم يسلم نفسه ، بل مات تحت ظلال السيوف . وخرج زيد بن على على هشام القاسى الظالم المتحجر ، وقتله يوسف بن عمر الثقفى في كناسة الكوفة ، ومات أيضاً بسهم ، ولم يسلم نفسه . وكما خدع أهل الكوفة حسيناً عليه السلام ، خدعوا - هم أنفسهم - زيدا .

وقد كتب المؤرخون الصحائف الكثيرة عن تعرض زيد بن على في حياته لأفطع أنواع الإهانات من عامل هشام بن عبد الملك على المدينة وهو خالد بن عبد الملك بن الحارث . كان هذا الأخير يندفع في عداوته ومؤامراته لأهل البيت ، بل كان يدفع أعوانه لسب فاطمة الزهراء في مسجد أبيها في المدينة ، بل يدفع بعضاً من آل البيت لانتقاص ابن عمهم الكبير زيد بن على^(٣) . والفقيه العلوي ساكت على الضيم ، كاظم للغيت عاف عن الناس . ويضيق زيد بن على بالوالى وبالناس ، فيذهب إلى دمشق ،

(١) الكامل : ابن الأثير ج ٥ ص ٣٨-٨٥ .

(٢) الشهرستانى : اللؤلؤ والنحل ج ١ ص ٢٥٠ .

(٣) الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة : الإمام زيد .

يطلب مقابلة هشام بن عبد الملك ، يشكو إليه ظلم عامله ، ولكن هشاماً الخليفة العاتي - يتذكر كيف حيل بينه وبين الحجر الأسود في حجه وكيف وقف الناس إجلالاً لعل بن الحسين زين العابدين والد زيد وأفسحوا له المكان - فيرفض مقابلة زيد ، ولكن زيداً - وهو العالم الفقيه - أراد أن يخلى ضميره من خروجه على هشام ، فأصر على مقابلة الخليفة فلما قابله ، تناز الأثنان وفقد هشام عقله ، فقال له : « أنت الذي تنازعك نفسك في الخلافة ، وأنت ابن أمه » فرد زيد : « إن الأمهات لا يقعدن بالرجل عن الغايات وقد كانت أم إسماعيل أمة لأم إسحق صلى الله عليها وسلم . فلم يمنعه ذلك أن بعث الله نبيا . وجعله للعرب أباً . فأخرج من صلبه خير البشر محمداً صلى الله عليه وسلم . فتقول لي هذا وأنا ابن فاطمة وابن علي » وقام وهو يقول :

شرده الخوف وأزرى به كذلك من بكره حر الجلال
منخرق الحقيقين. يشكو الوجي تذكره أطراف مرو. حداد
قد كان في الموت له راحة والموت حتم في رقاب العباد
إن يحدث الله له دولة يترك آثار العدى كالرماد (١)

ومرة أخرى يستدعيه هشام بن عبد الملك ويأمره أن يشخص إلى والي الكوفة القاسي يوسف بن عمر الثقفي . فلما سأل زيد الخليفة عن سر تسييره إلى هذا الوالي القاسي أخبره هشام أن خالد بن عبد الله القسري ، والي هشام المعزول عن الكوفة ادعى لدى الوالي الحالي أنه ترك ودائع لدى زيد بن علي وداود بن علي بن عبد الله بن عباس ومحمد بن عمر بن أبي طالب - أي لدى العلية من بني هاشم - وأقسم زيد أنه لم يأخذ منه وديعة ولا غيره ولكن هشاماً قال : لا أصدقك . وعجب ابن رسول الله ألا يصدق يمينه رجل من بني مروان ، وجده الأكبر كان طريد رسول الإسلام . ولكنه تمالك نفسه وقال له : لا توجه بي إلى عبد ثقيف يتلاعب بي . ولكن هشاماً أصر على أن يذهب زيد إلى الكوفة حتى يواجه بخالد بن عبد الله القسري المسجون . وخرج زيد يقول : « والله إنني لأعلم أنه ما أحب الحياة قط أحد إلا ذل » .

ويذكر اليعقوبي أن هشاماً خشي بعدها من سفر زيد إلى الكوفة فأرسل إلى يوسف بن عمر يقول له : « إذا قدم عليك زيد بن علي فاجمع بينه وبين خالد ، ولا يقيمن قبلك ساعة واحدة . فإني رأيته رجلاً حلو اللسان شديد البيان خليقاً بتمويه الكلام ، وأهل العراق أسرع شيء إلى مثله » وكان هشاماً أحس بخطورة زيد ، فأرسل إلى عامله يحذره منه .

وقدم زيد الكوفة ، فلما دخل إلى يوسف قال له : لم نقلتني من عند أمير المؤمنين . . . ؟ فقال

(١) المسعودي : مروج الذهب . . . ج ٣ ص ١٨٢ .

يوسف : ذكر خالد بن عبد الله أن له عندك ستائة ألف درهم . ثم أحضر خالداً وهو في الحديد فقال له يوسف : هذا زيد بن علي فاذكر مالك عنده . فقال خالد : والله الذي لا إله إلا هو مالي عنده قليل ولا كثير ، ولا أردتم بإحضاره إلا ظلمه ، فتبين لزيد وللناس أن إحضاره لم يكن إلا لإهانتته وتحقيره، وقد كان زيد حيثئذ - وبعد وفاة أخيه - شيخ العلويين وكبيرهم .

وأراد زيد أن يبقى في الكوفة أياماً ، ولكن يوسف بن عمر قال له : إن أمير المؤمنين أمرني أن أخرجك من الكوفة ساعة وصولك ، قال : فاستريح ثلاثاً ثم أخرج . فرفض يوسف أن يدعه حتى ساعة واحدة . فخرج زيد في حراسة جند يوسف حتى وصلوا إلى العذيب ، فانصرف الجند ، ثم انكفأ زيد راجعاً إلى الكوفة . فاجتمع إليه من بها من الشيعة وبلغ يوسف بن عمر ، فوثب بينهم ، وكانت بينهم ملحمة ثم قتل زيد بن علي داخل الكوفة ونصبت رأسه على قصبة ثم حين ظهر ابنه يحيى بن زيد فأرسل الوليد بن يزيد إلى يوسف : « إذا أتاك كتابي هذا فانظر عجل أهل العراق فأحرقه وانسفه في الهم نسفاً » فجمع وأحرق وذرى نصفه في الفرات ونصفه في الزرع وقال يوسف : والله يا أهل الكوفة لأدعنكم تأكلونه في طعامكم وتشربونه في مائكم ، تلك هي القصة التي ذكرها اليعقوبي - أقدم مؤرخ شيعي - ثم ذكرها من بعده المسعودي وأضاف أنه خرج مع زيد القراء والأشراف وأن أهل الكوفة خذلوه وأنه تمثل حيثئذ :

أذل الحياة وعز المات وكلا أراه طعاماً وبيلاً
فإن كان لابد من واحد فسيروا إلى الموت سيراً جميلاً

وألحظ على كلتا الروايتين محاولة تفسير خروج زيد بن علي بما لاقاه من عنت واضطهاد ومحن من عامل هشام بن عبد الملك على المدينة ، ثم بما لاقاه من هشام وعامله على الكوفة يوسف بن عمر . وهذا خطأ ، فزيد بن علي إنما خرج لإثبات الأصل المعتزلي أولاً : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وثانياً : لكي يثبت للناس جميعاً - ولم يستخدم أبداً كلمة الشيعة - أن العلويين على أتم استعداد للشهادة في سبيل الله ، ولم يدع علويّاً آخر معه بل سار إلى الملحمة وحيداً مع ابنه يحيى ، وقتل هو وحده ، ونجا ابنه لكي يبدأ الجهاد من جديد بعد فترة وجيزة . وقد كان يعلم أنه ميت لا محالة في هذه المعركة ، وقد بشره أبوه بالشهادة من قبل ، وعرفه أنه المصلوب في الكناسة أي في كناسة الكوفة ، وكذلك أخوه محمد الباقر ، ويبدو أن المهدي أيضاً قد نسبت إلى زيد بن علي ، وأنه عرف بها ، ويذكر المسعودي أن شاعراً من شعراء بني أمية ذكر بعد مقتل زيد :

صلبتنا لكم زيداً على جذع نخلة ولم نر مهدياً على الجذع يصلب^(١)

(١) المسعودي : مروج ج ٣ ص ١٨٢ .

ومكث زيد مصلوباً خمسين شهراً بكناسة الكوفة ، فلما ظهر ابنه يحيى في عهد الوليد بن يزيد - كتب الوليد إلى عامله بالكوفة أن أحرق زيدا بخشبته ، وألاحظ أن المسعودي واليعقوبي لم يذكر إطلاقاً السبب في انهزام أصحاب زيد عنه في المعركة ولكن أبا الفرج الأصفهاني في مقاتل الطالبين يقول إن زيدا « قد تعجل الخروج قبل الأجل الذي بينه وبين الناس ، وذلك لانكشاف أمره ، ومعرفة يوسف ابن عمر بموعد بدء الحركة . وقد استطاع يوسف بن عمر أن يحول بين السواد الأعظم من أهل الكوفة وبين زيد ، فلما نادى أبو الجارود بشعار زيد - يا منصور أمت - لم يوافه سوى مائتين وثمانية عشر رجلاً ، فسأل زيد عن الناس وكان قد بايعه من قبل خمسة عشر ألف رجل من أهل الكوفة خاصة سوى أهل المدائن والبصرة وواسط والموصل وخراسان وجرجان والرى . فلما أجيب زيد « هم محصورون في المسجد ، قال : « لا والله ما هذا لمن بايعنا بعذر » ويذكر أبو الفرج أنه حين اشتد القتال سأل زيد أحد عيون أتباعه من أهل الكوفة وهو نصر بن خزيمة ، فقال « أتخاف أهل الكوفة أن يكونوا فعلوها حسينية ؟ » - أى أنهم دفعوه كما دفعوا جده الحسين ، ثم انصرفوا عنه وأسلموه لعدوه - فقال نصر بن خزيمة : جعلني الله فداك ، أما فوالله لأضربن بسيفي هذا معك حتى أموت ، وقاتل زيد مع الفتنة القليلة التي تابعتها ، وهزم جند الخليفة ، حتى وصلوا إلى المسجد وصاح نصر بن خزيمة يناديهم « يا أهل الكوفة اخرجوا من الدل إلى العز وإلى الدين والدنيا : ولكن ما من مجيب بل إن فاطمة الزهراء نسب علناً ، ويسبها أهل الشام . وأهل الكوفة نظارة ينظرون فقط ، ولا يشاركون في قتال (١) » . فلم يكن إذن حصر الناس في المسجد هو السبب في تخلى أهل الكوفة عن زيد ، ولكن أبا الفرج سكت أيضاً عن ذكر السبب ، مع أنه من الواضح تماماً أن هناك سبباً ما دعاهم إلى خذلانه .

أما مؤرخو أهل السنة والجماعة فيرون أن السبب في تخاذل أهل الكوفة عنه هو مذهبه الرئيسي في الإمامة « وهو جواز إمامة المفضول مع قيام الأفضل » ومعنى هذا أنه أقر بإمامة أبي بكر وعمر وعثمان بل إن الشهرستاني نقل إلينا نص كلام زيد « كان علي بن أبي طالب أفضل الصحابة ، إلا أن الخلافة فوضت إلى أبي بكر لمصلحة رأوها ، وقاعدة دينية راعوها ، من تسكين نائرة الفتنة وتطيب قلب العامة فإن عهد الحروب التي جرت في أيام النبوة كان قريباً ، وسيف أمير المؤمنين على عليه السلام لم يخف من دماء المشركين من قریش بعد والضغائن في صدور القوم من طلب الثأر . كما هي - فإكانت القلوب تميل إليه كل الميل ولا تنقاد له الرقاب كل الانقياد - وكانت المصلحة أن يكون القيام بهذا الشأن لمن عرفه باللين والتودد والتقدم بالسن والسبق في الإسلام والقرب من رسول الله ﷺ ، وكذلك يجوز أن يكون المفضول إماماً والأفضل قائماً فيرجع إليه في الأحكام ، ويحكم بحكمه في القضايا (٢) » وأورد

(١) الأصفهاني : مقاتل الطالبين ص ٩٦-١٠٦ . (٢) الشهرستاني : الملل والنحل . ٢٥٠ .

نفس القصة ابن كثير^(١) وغيرهما من المؤرخين . وقد تبنى لشيع الكوفة وهم فئات ثلاث ، - بقايا الكيسانية والغلاة وأتباع ابن أخيه جعفر الصادق - الخلاف الكبير بين عقائدهم وبين الأصل الذي ينادى به ، إن قوله بإمامة المفضل يهدم نظرية الوصاية وهي التي قام عليها أساس المذهب الشيعي في مختلف تطوراته . ولذلك رفضوه ولما سمعت شيعة الكوفة هذه المقالة منه ، وعرفوا أنه لا يتبرأ من الشيخين رفضوه حتى أتى قدره عليه فسميت رافضة^(٢) . وهذا أول ظهور لكلمة الرافضة كمصطلح ينطبق على جمهور الشيعة أو ما عرفوا فيما بعد - بالشيعة الإمامية - أتباع جعفر الصادق كما أطلق على الشيعة المتأخرة الاثني عشرية .

وهناك دليل آخر يثبت ظهور هذا المصطلح إنما كان في عهد إمامه جعفر الصادق ، وإن كان أطلق الاسم هنا شخصية من الغلاة ، وهو المغيرة بن سعيد العجلي والنوحي يذكر أن الشيعة وأصحاب أبي عبد الله جعفر بن محمد تبرأوا من المغيرة ورفضوه ، فزعم أنهم رافضة ، وأنه هو الذي سماهم بهذا الاسم^(٣) . وسواء أطلق اللقب زيد بن علي أو المغيرة بن سعيد فإنه يشير بوضوح إلى أتباع جعفر الصادق أو بالتالي ما يعرفون بالشيعة الإمامية . ومنذ ذلك الحين أطلق اسم الروافض على الشيعة جميعاً - اللهم إلا بعض فرق الزيدية التي أقرت بشرعية خلافة أبي بكر وعمر - فالروافض إذن إبان خروج زيد بن علي أنكروا عليه حركته في صورة نصح أجياناً ، كما فعل جعفر بن محمد في المدينة ، وكان جعفر بن محمد ينكر على زيد صلته بالمعتزلة أشد إنكار ، ووصل الأمر بينهما إلى حد التلاحي الشديد بالكلام وذلك حين أتى واصل بن عطاء المدينة ، وذهب إليه جعفر بن محمد ينكر عليه آراءه ، بل يجيئه إلى المدينة ، ويشتبك زيد والزيدية مع جعفر الصادق وينسبون معارضة جعفر لواصل ابن عطاء في آرائه إلى حسده له . أنكر جعفر - متابعاً لأبيه - صلة زيد بواصل ثم أخلص له النصح في عدم خروجه . لاجرم بعد ذلك أن رفضه أتباع جعفر بن محمد - وأطاعوا دعوة يوسف بن عمر في الالتجاء إلى المسجد ، وأقاموا فيه لا يلقون أذناً إلى صيحة الحرب يطلقها زيد وفتته القليلة وقد سماها بما بعد ، بأصحاب المسجد ، وأرسل إليه أيضاً - وهو يعي قواه في الكوفة - عبد الله بن الحسن بشبطه عن الموقعة ويقول له : « فإن أهل الكوفة نفخ في العلانية ، خور السريرة هرج في الرخاء خرج في اللقاء ، تتقدمهم ألسنتهم ، ولا تشايهم قلوبهم ، ولقد تواترت إلى كتبهم بدعوتهم ، فصممت عن ندائهم ، وأبست قلبي غشاء عن ذكرهم ، يأسا منهم وإطراحاً لهم ، وما لهم مثل إلا كما قال علي بن

(١) ابن كثير : البداية ج ٩ ص ٣٣٠ .

(٢) الشهرستاني . الملل والنحل ج ١ ص ٢٠١ واليعقوبي : تاريخ ج ٤ ص ٨٦٤ .

(٣) النوحي : فرق الشيعة ص ٦٣ .

أبي طالب : إن أهملتم خضتم ، وإن حوربتم خورتم ، وإن اجتمع الناس على إمامة طعنتم ، وإن أجبتم إلى مشقة نكصتم» (١) أرسل إليه عبد الله بن الحسن ينصحه وهو في مستهل المعركة ، يبائع له الناس ، ينصحه في الظاهر ، وكم جرعه عبد الله بن الحسن الغيظ في المدينة أمام والي هشام ودعاه بآبن السندية وزيد يكظم غيظه ، ولا يظهر لبني هاشم غير المودة الصافية والإيثار الكامل . وكان عبد الله بن الحسن يكره خروج زيد ، لأمر في نفسه : هو إعداد ابنه محمداً ليكون مهدي الإسلام ، ولعله كره أن يأخذها زيد ، فيفوت عليه آماله في ابنه محمد .

ثم تأتى إلى الغلاة الغنوصيين ، وقد كره هؤلاء زيدا أيضاً ، فقد كان زيد على صلات بواصل وواصل والمعتزلة أكبر أعداء الغنوصية . اجتمع كل هؤلاء في موقف عدائي تجاه زيد . ويرسل هشام إلى واليه يوسف بن عمر يقول له « إنك لغافل . وإن زيد بن علي غارز ذنبه بالكوفة يبائع له ، فألح في طلبه واعطه الأمان ، وإن لم يقبل فقاتله » .

وأريد هنا أن أصل إلى النتيجة القاطعة في حقيقة زيد بن علي . إنه لم يكن شيعياً على الإطلاق ، ولم تكن حركته للشيعية ، وإنما هي حركة إسلامية ، استهدفت الخروج على الإمام الظالم من عالم من علماء المسلمين يمتاز عن غيره من العلماء أنه من دوحة النبوة ومن أبناء علي عليه السلام . ويدعم رأئي هذا دعوته إلى أصحابه وهو يعلن الجهاد « إني أدعو إلى كتاب الله وسنة نبيه ، وإحياء السنن وإماتة البدع فإن تسمعوا كان خيراً لكم ولي ، وإن تأبوا فلست عليكم بوكيل » (٢) ثم كانت صيغة بيعته هي « إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وجهاد الظالم والدفع عن المستضعفين وإعطاء المحرومين وقسم هذا النىء بين أهله بالسواء ، ورد المظالم ونصر أهل الحق ، أتبايعون على ذلك ؟ فإذا قالوا : نعم ، وضع يده على أيديهم ويقول : عليك عهد الله وميثاقه وذمة رسوله ﷺ ، لتفنين بيعتي ، ولتقابلن عدوى ، ولتتصحن لي في السر والعلانية . فإذا قال المبايع : نعم ، مسح يده على يده ، وقال : اللهم اشهد (٣) فلم يكن إذن في بيعته وجهاده يذكر نصاً أو وصية أو حقاً إلهياً ، وإنما كان رجلاً من أهل البيت ، ساد علماء المسلمين في عصره بعلمه وديانته ، « كان وهو شاب يذكر الله عنده فيغشى عليه حتى يقول القائل : ما يرجع إلى الدنيا » (٤) . وذكروا عنه أنه لم يهتك الله محرماً منذ عرف يمينه من شبابه ، وكانت أسارير النور في وجهه « ولذلك تابعه أهل النسك ولا يعدلون به أحداً » ثم أصبح في العلم في أوجه ، أخذ أبو حنيفة ، وعدد كبير من العلماء عنه ، ثم كان بعد - فتى بني هاشم ، أشجع العرب قاطبة ، وابن فاطمة الزهراء ، ويقول عبد الله بن مسلم بن بابل : خرجنا مع زيد بن علي إلى

(١) ابن الأثير : تاريخ ج ٥ ص ٨٧ . (٣) ابن الأثير : ج ٥ ص ٨٦ .

(٢) ابن الأثير : تاريخ ج ٩ ص ٣٣٠ . (٤) الاصفهاني : مقاتل . ص ٦٣ .

مكة فلما كان نصف الليل ، واستوت الثريا فقال : يا بابل أما ترى هذه الثريا أتري أحداً ينالها ؟ قلت : لا . قال : والله لوددت أن يدي ملصقة بها ، فأقع إلى الأرض أوحث أقع ، فأنقطع قطعة قطعة ، وأن الله أصلح بين أمة محمد ﷺ وكان يدعى بمكة « حليف القرآن » (١) . وأخيراً - رأى عالم الإسلام الكبير أنه لا بد أن يخرج على الإمام الظالم وخرج ، ولم يحارب معه أحد من الشيعة .

وهنا نتساءل من كان إذن أنصاره ورجاله . . . ؟ يمكننا أن نعدد هؤلاء الأنصار فيما يأتي : أولاً : جماعة من عيون أهل الكوفة ممن أحبوا آل البيت . وأخلصوا لهم كل الإخلاص ، لم تتمرغ عقائدهم بالغلاة ، ولم تشبههم شائبة الغنوصية المنتشرة في أرجاء الكوفة ، ولم يؤمنوا بالرجعة ولا يعلم خاص ينسب للإمام ، وفي مقدمة هؤلاء معاوية بن إسحق الأنصارى وزباد الهندي ونصر بن خزيمه العبسي ، كانوا أشرف الكوفة ، بايعوا زيدا وقتلوا بين يديه وصلبوا معه بكناسة الكوفة ، وجماعة آخرون قاتلوا معه ولم يقتلوا ومنهم سعد بن خبثم وسلمة بن ثابت .

ثانياً : التف حولة أهل العلم من الفقهاء ونقله الآثار والفقهاء . عدد منهم أبو الفرج الأصفهاني : منصور بن المعتمر ، وأبا حنيفة النعمان . بل إن محمداً بن جعفر الصادق ، يقول : « رحم الله أبا حنيفة ، لقد تحققت مودته لنا في نصرته زيد بن علي وفعل ابن المبارك في كتمان فضائلنا » (٢) ، فأبو حنيفة إذن ممن أيدوا زيدا وقد أمده بالسلاح والمال ، وكان يقول ، من يأت زيدا هو من فقهاء الناس . وتراه ينكر على عبد الله بن المبارك الزاهد المشهور إخفاءه لفضائل أهل البيت ، ومن المعروف أن أبا حنيفة تتلمذ على زيد لمدة عامين . وسنراه أيضاً يمد إبراهيم بن عبد الله بن الحسين في ثورته على أبي جعفر المنصور حين خرج باسم الزيدية في البصرة فالمرجئية إذن وقفت في شخص رئيسها أبي حنيفة مع الزيدية (٣) .

ثالثاً : المعتزلة : كان زيد بن علي يضع في حيز العمل والتطبيق أصلهم الخامس « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » . وكان زيد من أصحاب واصل بن عطاء وقد أيدته واصل كما أيد عثمان الطويل تلميذه إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بل إن عثمان الطويل حين سئل : خرج هذا الرجل ، (أي إبراهيم بن عبد الله بن الحسين) وقعدتم عنه . فقال عثمان . ومن أخرجه غيرنا (٤) . فتورته زيد بن علي كانت ثورة إسلامية وخروجاً على خليفة دمشق هشام بن عبد الملك باسم الإسلام ، لا تمت إلى الشيعة

(١) أبو الفرج الأصفهاني : مقاتل الطالبيين . ص ٩٤ . ٩٥ .

(٢) نفس المصدر ص ١٠٧ .

(٣) الأصفهاني : مقاتل الطالبيين ص ٢٤٤ .

(٤) نفس المصدر ص ٢٥٠ .

بسبب ، ولذلك وقفوا منها إما موقف الحياء - كموقف جعفر الصادق وعبد الله بن الحسن شيخي بني هاشم - وإما موقف الخذلان ، كموقف شيعتهم في الكوفة ، وإما موقف الشجاعة - كموقف الغلاة - ولم يأبه زيد بن علي بل حارب حرباً عنيفة في طرقات الكوفة ، وكان في متناول يده أن يقتل يوسف ابن عمر وإلى هشام بن الحكم ، وهزم جيش هشام مراراً ، ثم أصابه سهم فاستشهد ، ضارباً للمسلمين جميعاً أعظم المثل في التضحية بالنفس في سبيل العقيدة .

ومن الملاحظ أن الزيدية فيما بعد أصبحت علماً على شيئين :

أولاً : جهاد الأئمة لبني أمية ولبنی العباس بالسيف ، فكل من خرج اعتبر زيدياً .

ثانياً : العلم - إننا نرى أحد أعداء زيد بن علي وهو حى - عبد الله بن الحسن - يذكره بعد موته ، لابن زيد الحسين بن زيد . فيقول : « وإن أدنى آباءك زيد بن علي الذي لم أرفقنا ولا غيرنا مثله » . ويقابله مرة أخرى في مصلى النبي فيردد له نفس الأمر « إني أدنى آباءك الذي لم يكن فينا مثله ، لا والله ما كان فينا مثله (١) » لقد قال عبد الله بن الحسن هذا ، بعد وفاة زيد ، وقد كان يسومه كما قلت من قبل - الإهانة تلو الإهانة ويدعوه بابن السندية معيراً لزيد أن أمه هندية الأصل . ثم نرى الفرع الآخر وقد أنكره شيخهم جعفر الصادق ، يعلن على لسان علي الرضا « أن زيد بن علي كان من علماء آل محمد » . أما العلماء جميعاً فأجمعوا على علمه الفياض وفقهه الواسع وفي مقدمتهم أبو حنيفة وسفيان الثوري وعبد الرحمن بن أبي ليلى وهؤلاء كانوا من طبقتهم . أما تلامذته الذين أخذوا عنه ، فمنهم الفقيه المشهور منصور بن المعتمر ، وهو أحد رجال الصحيحين ، وهارون بن سعد العجلي ، وكان من شيوخ مسلم ، وسليمان بن مهران الأهمش الفقيه المحدث وغيرهم كثيرون . وقد نقل تلامذته العديدون علمه وفقهه إلى مختلف الأمصار الإسلامية ، غير أن أهم تلامذته هو أبو خالد عمرو بن خالد الواسطي ، وهو الذي روى « المجموع » في الفقه الزيدي وهو الذي ينسب إلى الإمام زيد ابن علي .

آراء زيد بن علي في الإمامة والمهدية :

رأى زيد بن علي اختلافات الفرق في الإمامة : فالكيسانية تنادى بإمامة محمد بن الحنفية ومهديته ، وأنصار أخيه محمد الباقر ينادون بإمامته ، والغلاة تنادى بإمامة بعض آل البيت وبعض الدعاة من غير أهل البيت ، بل تعلن قدسيتهم وألوهيتهم . والعباسية تنادى بإمامة محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب . والخليفة الأموي في دمشق يحكم بالحديد والنار دار الإسلام ،

(١) نفس المصدر : ٢٦٢ .

وقد أخذ الملك غضباً . ورأى زيد أيضاً اختلافات الشيعة حول خلافة أبي بكر وعمر ، فمنهم السابريون الذين يسبونهم ، ومنهم المكفرون - الذين كفروا الشيخين لسلبهم علياً خلافة الرسول . ورأى الأئمة - أباه وأخاه - يتولونهم ، إن ظاهراً أو باطناً ، كما يقول أهل السنة والجماعة ، وإن تقية كما يقول شيعتهم . ورحل زيد إلى الكوفة وإلى البصرة يستمع لكل هذا ، ويقابل الناس في مجامعهم وحلقاتهم ، وانتهى آخر الأمر إلى مثال جده الأكبر على بن أبي طالب وإلى سنته ، واستخرج منها أصل الزيدية الأول في الإمامة وهو «إمامة المفضل مع وجود الأفضل» فعلى أفضل المسلمين بعد رسول الله ، ولكن مصلحة الإسلام استلزمت تولية الإمامة لمن دونه في الفضل ، وهو أبو بكر ثم عمر . وهنا ينهدم - كما قلت - أصل من أصول الشيعة ، وهو النص على عليٍّ والوصية له ، وهذا أول اختلاف جوهري بين آراء زيد بن علي والزيدية الخلفاء من بعده وبين الشيعة على مختلف فرقها ، ولقد رأينا كيف خذله شيعة الكوفة - وهو في مستهل المعركة - حين أعلن هذا الأصل . وكان شيعة الكوفة يتبرأون من الشيخين ، ويبدو أن زيداً بن علي قد وضع هذا الأصل ونادى به ، لتبرير موقف جده على بن أبي طالب من خلافة أبي بكر وعمر تبريراً واقعياً ، فقد قبل على خلافة الشيخين ، وإن كان قد فعل هذا على مضض - كما تذكر بعض المصادر الشيعية - ومن المحتمل أيضاً أن يكون زيد بن علي أعلن هذا الأصل تورعاً ، فقد ثبت له - كما ثبت للمؤرخين جميعاً - أن خلافة كل من الصاحبين لم يشيا دنيا على الإطلاق ، بل كانت خالصة للدين .

وأخيراً . . إن علياً هو الخليفة الرابع من خلفاء محمد صلوات الله عليه لا نزاع في ذلك ولا جدال . وهنا يقدم لنا زيد الأصل الثاني من أصوله وهو «الإمامة في أولاد فاطمة عليها السلام ولا تجوز إمامة في غيرهم»^(١) . ولكن لا يجوز أن يكون واحد منهم بعينه إماماً ، بل «يجوز أن يكون كل فاطمي عدل زاهد شجاع سخي خرج بالإمامة - أن يكون - إماماً واجب الطاعة سواء أكان من أولاد الحسن أم من أولاد الحسين»^(٢) . فلا وصية إذن ولا نص لا على محمد بن الحنفية ، كما تدعى الكيسانية ولا على أولاد الحسين خاصة ، كما تدعى الإمامية ، ومع أن هذا النص الوحيد من بين قواعد الزيدية ، تفوح منه رائحة التشيع ، إلا أنه لم يوافق هوى في نفوس فرقتي الشيعة الكبيرتين ، الكيسانية والإمامية ، وأغضب كلا منهما ، فالكيسانية تؤمن بإمامة علوي ليس بفاطمي ، والإمامية تؤمن بإمامة الفاطميين الحسينيين فقط . واشتراط الخروج سيؤدي إلى إنكار إمامة زين العابدين والباقر ، وسيهدم نظرية الاثني عشرية كما سيهدم نظرية الإسماعيلية في سلسلة الأئمة لديهم . ولكن إذا كانت المصلحة

(١) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٤٩ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٥٠ .

تقتضى إمامة المفضول من غير آل فاطمة ، فهل يكون هذا الشرط إذن غير واجب التنفيذ في بعض الأحيان ؟ لقد رأى هذا في أصله الأول - وهو ولاية المفضول - وهو بصدد والد الفاطميين جميعاً على بن أبي طالب ، ما دامت المصلحة ، فالمصلحة هي الأساس لا الأفضلية ، ولكنه رأى أن يضع بأصله الثاني «إمامة فاطمي عادل وخروجه» موضع التنفيذ ، فخرج ، ووضع بهذا سنة الخروج ، أو بمعنى أدق أصبح الزيدية فيما بعد «خوارج» أيضاً ، لا يؤمنون بعقيدة الشيعة الإمامية ، ومن العجب أن زيداً لم يمثل إجماع أهل البيت في خروجه ، فأخوه الأكبر نهاه قبل وفاته عن الخروج ، بل تواترت الأنباء أن أباه وأخاه وعمه الأكبر محمد بن الحنفية كانوا ينهونه عن الخروج ، ويعدونه - بعلم غيبي - أن يكون قتيلاً الكناسة ومصلوبها ، ولكن الفتى الذي يؤمن بالعقل ، كأصل للدين أبي وخرج ، واستن سنة الخروج .

وقد أذاه النظر في حقيقة الأئمة من قبله إلى الأصل الثالث من أصوله وهو «عدم عصمة الأئمة» ولم يناد الأئمة أبداً بعصمتهم ، ولكن أتباعهم في الكوفة وفي المدينة فعلوا هذا ، ورأى زيد في رحلاته إليها كل هذا واستمع لآراء الغلاة وانتهى به الأمر إلى الإيمان بالاجتهاد وبالرأى واجتهد هو وقاس في فقهه ، وآمن بالعدل والتوحيد في عقائده ، فالإمام الفاطمي إذن في رأى الزيدية غير معصوم ولا علم لديه مخزون ، وإن كان تلميذه هرون بن سعيد العجلي هو الذي نقل لنا الجفر - كتاب الشيعة السري - عن جعفر الصادق ، ولكن زيداً تلميذ المعتزلة كان عدو الغنوصيات وعدو فكرة العلم السري . وإذا كان الأمر كذلك ، ففيم اشترط كون الإمام فاطمياً ؟ إن زيداً يرى أن أبناء فاطمة هم أقرب الناس ، بنسبهم الطاهر إلى العدالة والسخاء والشجاعة وأنهم بنسبتهم إلى فاطمة الزهراء سيقومون أكثر من غيرهم عمود الدين وسنن الإسلام ، ولكن المصلحة أولى بالاعتبار من الأفضلية ، ومصلحة المسلمين أولى بالاعتبار من أولاد فاطمة عليها السلام ، فإذا كان الإمام غير الفاطمي عدلاً ، ولم يخرج فاطمي ، واستقام أمر المسلمين ، فلا ضرر ولا ضرار .

أعاد زيد أمر المسلمين إذن إلى المسلمين أنفسهم ، أهل الحل والعقد منهم ، أن يختاروا إماماً عادلاً ، فإذا تقدم «فاطمي» يتصدى للإمامة بالدعوة إلى نفسه كان على أهل الحل والعقد والموازنة بين من تقدم ، فإذا تقدم الفاطمي ، ولى أمر المسلمين ، وإذا تقدم غير الفاطمي ، كانت المصلحة في تقديمه . فليس هناك إذن شرط في الإمام سوى المصلحة ، وهي الأساس لا القرشية ولا الفاطمية . وهذا أيضاً اتجاه خارجي .

وأخيراً . . . تأتى إلى الأصل الأخير من أصول الزيدية في الإمامة وهو «تجويز خروج إمامين في

قطرين يستجمعان هذه الخصال ، ويكون كل واحد منها واجب الطاعة » (١) وأعتقد أن هذا النص لم يصدر عن الإمام زيد ، بل وضعه الزيدية الذين تابعوا الإمامين محمداً وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن بن الحسن في ثورتها على المنصور ، حين خرجا في دولة هذا الأخير وقتلا . اللهم إلا إذا فسرنا النص تفسيراً آخر ، وهو تجويز الخروج والطاعة في الخروج ، بمعنى الثورة على الإمام الظالم ، فيجوز أن يقوم إمام من أئمة أهل البيت بالثورة على الظلم ، ثم يسلم أحدهما الأمر للآخر ، هذا تخريج بعيد ، ومن الأفضل القول بأن هذا الأصل لم يصدر عن زيد ، وهو القائل : والله لوددت أن يدي معلقة بالثرى فأقع على الأرض أوحى أفع فأنقطع قطعة قطعة دون أن أصلح بين أمة محمد ، والإصلاح لن يكون إلا باجتماعها على رجل واحد .

وأخيراً . . هل نرى في فقه الزيدية السياسى مصطلح المهدي ؟ أما أن زيدا أنكر المهديّة بمعنى الرجعة ، فواضح جداً من هذا الإمام المعتزلى العقلى ، فلا مهدى منتظر ولا رجعة ، ولكن المهدي : هو الخارج على الظلم ، المجدد الفقهي وهو الذى يخرج مجاهداً في سبيل الله ليملا الأرض عدلاً ، فإذا كان زيد قد لقب بالمهدي ، ويبدو أنه كان يدعى بالمهدي في حياته وأشار إلى هذا شاعر بنى أمية حين قال :

صلبنا لكم زيدا على جذع نخلة ولم نر مهدياً على الجذع يصب
فالمقصود بالمهدي منسوباً إلى زيد ، من يقوم بهداية الناس ، ومجالدته الإمام الظالم .

آراء زيد الكلامية :

يحاول الشيعة المتأخرون - ما وسعهم الحيلة - أن يثبتوا أن « العدل والتوحيد » ، إنما نشأ في رحاب البيت العلوى وأنه انبثق من على أولاً ثم من محمد بن الحنفية وابنه أبى هاشم ثانياً ، ثم أخذ به الأئمة جميعاً حتى دخل في عقائد الأئمة الاثني عشرية . وهذا خطأ ، فعلى زين العابدين كان على عقيدة رجال الحديث في مسألة العدل والتوحيد ، كما كان ابنه محمد الباقر . أما الإمام جعفر الصادق فكان على عقيدة أهل السنة والجماعة في الجبر والاختيار . وكان تلامذته على خلاف مجسمة كما سرى في الفصول التالية ، وكان هشام بن الحكم أكبر تلامذته من أشد أعداء المعتزلة . أما الاتصال الحقيقي بين المذهب المعتزلى وأئمة أهل البيت فكان على يد زيد بن على . ولا شك أن زيدا قابلاً واصلاً وعرفه معرفة وثيقة في البصرة ، ثم قابله في المدينة . بل إن صلة واصل بزيد بن على وبعبد الله بن الحسن قسمت البيت العلوى إلى قسمين ، وجعلت القسمين يتلاحيان بالألفاظ . ويقص لنا صاحب المنبة

(١) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٥٠ .

وصول واصل إلى المدينة ونزولة على إبراهيم بن يحيى. ومسارة زيد بن علي وابنه يحيى بن زيد وعبد الله بن الحسن وإخوته لمقابلته والترحيب به . فلما علم جعفر بن محمد الصادق بمسارة أهل البيت له واجتماع الناس عليه ، اصطحب جملة من أصحابه وذهب إليه والقوم من بني هاشم عنده ، فقال له جعفر : أما بعد فإن الله تعالى بعث محمداً بالحق والبينات والنذر وأنزل عليه ، « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » فنحن عترة رسول الله وأقرب الناس إليه ، وإنك يا واصل أتيت بأمر يفرق الكلمة وتطعن به على الأئمة وأنا أدعوكم إلى التوبة .

فوقف واصل يرد عليه فقال : « الحمد لله العدل في قضائه ، الجواد بعطائه ، المتعالي عن كل مذموم ، والعالم بكل خفي مكتوم ، نهى عن القبيح ولم يقضه ، وحث على الجميل ولم يحل بينه وبين خلقه ، وإنك يا جعفر وابن الأئمة شغلك حب الدنيا ، فأصبحت بها كلفاً ؛ وما أتيناك إلا بدين محمد ﷺ وآله وصاحبيه وضجيعيه ابن أبي قحافة وابن الخطاب ، وعثمان . وعلى بن أبي طالب وجميع أئمة الهدى ، فإن تقبل الحق تسعد به وإن تصدف عنه تبو يا ثمك » وتكلم زيد بن علي فأغلظ لجعفر أى أنكر عليه وقال : ما منعك من اتباعه إلا الحسد لنا (١) ، ويقول ابن المرتضى « كان زيد ابن علي لا يخالف المعتزلة إلا في المتزلة بين المتزلتين » ويحاول ابن المرتضى - على عادة أهل الفرق في تحميل مذاهبهم لآل البيت « لا نقول إن جعفرأ أنكر على واصل القول بالعدل بل المتزلة بين المتزلتين » وسئل جعفر عن القدر فقال : « ما استطعت أن تلوم العبد عليه ، فهو فعله ، وما لم تستطع فهو فعل الله ، يقول الله للعبد لم كفرت ولا يقول لم مرضت (٢) » .

ولكن إذا كان الخلاف بين جعفر وبين واصل هو في المتزلة بين المتزلتين ، وكان هذا الخلاف هو بين زيد وبين واصل ، فلم أسرع جعفر إلى الحلقة ؟ ولم تلاقى زيد وابن أخيه ؟ إن الواضح تماماً أن الخلاف كان جوهر المذهب ، « وهو العدل والتوحيد » ومهما حمل جعفر من أقوال قدرية ، فالرجل كان على عقيدة أبيه محمد الباقر في الموقف المتوسط بين الجبر والاختيار ، وهو أقرب المذاهب إلى ما نادى به أهل السنة فيما بعد ، ومهما يكن الأمر ، فإن زيداً تابع المعتزلة في جوهر عقائدهم مع اختلافات يسيرة .

١ - التوحيد :

ليس هناك نص واضح يثبت بأن زيد بن علي ذهب - موافقاً المعتزلة - إلى أن الصفة عين الذات ، ولكن الشيخ المفيد يذهب إلى أن الزيدية تثبت الصفات التي جاءت في القرآن والسنة على

(١) ابن المرتضى : المنية والأمل ص ٢٠ ، ٢١ . (٢) ابن المرتضى : المنية .

أنها ليست معاني غير الذات (١) وهذا أصل معتزلي ، وكان واصل بن عطاء أول معبر عنه . ولكن هل تكلم زيد في « التوحيد » ودعا إليه كما دعا واصل وهل دخل زيد في مناقشات الفرق ، وهل عني رجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بهذا الدقيق من الكلام ، أم قالت به الزيدية بعده - حين اعتنقت اعتناقاً كلامياً آراء المعتزلة ؟ إن الأستاذ الشيخ أبو زهرة يصل إلى رأى صائب حين يقول : « وإذا كان زيد يتفق في جملة من الآراء مع واصل بن عطاء ، وهذا رأى واصل في الصفات - أن الصفات عين الذات - فإنه يصح لنا أن نقول : رأى زيد في الصفات كان هو رأى واصل . وتفصيل ذلك الرأى أن الله تعالى يتصف بأنه حي قادر سميع بصير ولكن بذاته ، ومن غير قدرة زائدة على الذات - ولا سمع زائد على الذات - وذلك ليتفادوا قول الحشوية ، وليتفادوا قول النصارى الذين ادعوا أن الأقانيم الثلاثة صفات للذات العلية (٢) .

وإذا كان العلم هو الذات ، والذات هي العلم ، والذات قديمة ، والعلم من حيث هو ذات قديم ، فلا بداء إذن في علم الله ، لأن البداء تغير ، والقديم لا يتغير ، والإرادة قديمة ، ولا تتغير الإرادة بتغير العلم ، كما يذهب من يقول بالبداء .

وقد تفرع عن مشكلة قدم الصفات ، أو حدوثها مشكلة قدم كلام الله أو خلقه وبالتالي فكرة قدم القرآن أو خلقه . وقد آمنت الزيدية بفكرة خلق القرآن ، ولكن لا يرد عن الإمام زيد نفسه شيء يمس هذه المسألة لا من قريب ولا من بعيد ؛ فهل كره الإمام زيد الخوض فيها ، وقد رأى خالد بن عبد الله القسري - وقد كان على صلوات طيبة به - أن يحارب كل من يعتنقها ؟ فقتل بيان بن سميان التميمي وكان أول من نادى بها ، ثم قتل الجعد بن درهم ، وقد نسبت حركة خلق القرآن إليه (٣) .

٢ - العدل :

آمن زيد بن علي بالعدل ؛ بأن الله عادل في حكمه بمعنى أنه لا يجبر الناس على المعاصي ، وقد نسبت عقيدة العدل إلى أبيه علي زين العابدين من قبل ، وأنه نادى بها أمام يزيد بن معاوية ، بعد مذبحة أبيه وإخوته وأهل بيته . فقد دعا يزيد بن معاوية علي بن الحسين وقال له : ما اسمك ؟ فقال : علي . قال : أو لم يقتل الله علياً ؟ فأجاب زيد : قد كان لي أخ أكبر مني يسمى علياً فقتلتموه . فقال يزيد : بل الله قتله . قال علي : الله يتوفى الأنفس حين موتها (٤) . اتخذ القديرون من هذه القصة دليل على أن الإمام علي زين العابدين ليس جبرياً . ولكنهم اقتطعوا بقية المناقشة والتي يبدو منها يزيد

(١) الشيخ المفيد : أوائل المقالات ص ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ . (٣) ابن قتيبة عيون الأخبار ج ٢ ص ١٤٨ .

(٢) محمد أبو زهرة : الإمام زيد ص ٢١٨ . (٤) ابن المرتضى : المنية ص ٧ ، ٨ .

قدرياً ، وعلى زين العابدين جبرياً : فإن يزيد يستطرد ويرد بالآية « ما أصاب من مصيبة فبما كسبت أيديكم » ويرد على زين العابدين « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور » ^(١) . بل إن أهل العدل يذهبون إلى أن علياً نفسه كان من « أهل العدل » وأنه فسر القدر بمعنى الأزل « والقضاء بمعنى الحكم التكليفي » ؛ « فلا قدر حتماً ولا حكماً واجباً » ، فالقدر هو أنه يعلم علماً أزلياً ما نفعه ولكن لم يجبرنا عليه وإلا « بطل الثواب والعقاب وسقط الوعد والوعيد » والقضاء هو الحكم ، والإرادة هي أمر تخيير ونهى وتحذير . ولم يكلف مجبراً ولا بعث الأنبياء عبثاً . وقضاهن سبع سماوات - أى جعلهن سبع سماوات ، « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً » أى أراد ربك ، وواصل أخذ مذهبه في العدل عن أبي هاشم بن محمد بن الحنفية . وضع المعتزلة إذن آل البيت في نسق رجالهم وفي سلسلة مشايخهم ؛ ولكن كل هذا تخريج بارع فالمجبرة وضعوا نفس الأئمة في سلسلة مشايخهم ؛ ولكن من الثابت أن زيدا بن علي آمن بالعدل . فصلته بواصل بن عطاء كانت صلة واضحة ، ولا شك أنه رأى المعاصي في البصرة ترتكب باسم القضاء والقدر ، فأنكر فكرة الجبر . وقد رأينا واصلاً يرد على جعفر بن محمد بن أخيه ، باسم الله العدل في قضائه ، بل يبدو أن أبا الخطاب الأسدي سأله عما يذهب إليه في هذه المشكلة فقال ، أبرأ من القدرية الذين حملوا ذنوبهم على الله ومن المرجئة الذين طمعوا الفساق في عفو الله ، فزيد إذن ينكر المجبرة ، وقد دعاهم هنا بالقدرية ، كما ينكر أقوال المرجئة الخالصة الذين قالوا بأنه لا يضر مع الإيمان معصية وهو هنا قطعاً لا يقصد « إرجاء السنة » الذي نادى به صديقه وتلميذه أبو حنيفة بل « مرجئة البدعة » كما بينت في الجزء الأول من كتابي هذا .

٣ - الإيمان ومرتكب الكبيرة :

إن تبرؤ الإمام زيد بن علي من المرجئة يدعونا إلى أن نبحت موقف زيد من حقيقة الإيمان وما يستتبعه من رأيه في مرتكب الكبيرة . فزيد يذهب مع المعتزلة إلى أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، فالمعاصي لا تنقصه والطاعات لا تزيده . إن الإيمان الصحيح يقتضي العمل حتماً . فالعمل والإيمان متلازمان فن لا يعمل عاص ومرتكب كبيرة . وهذا يختلف عن رأى أبي حنيفة الذي يذهب إلى أن الإيمان لا تنقصه المعصية ولا تزيده الطاعة . لأنه حقيقة ثابتة في القلب ^(٢) . وإذا كان الإيمان

(١) ابن المرتضى : المنية ص ١٢ .

(٢) الشيخ أبو زهرة : الإمام زيد ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

لا يزيد ولا ينقص ، فما هو موقف زيد من مرتكب الكبيرة ؟ لقد وضعه واصل بن عطاء في المرتلة بين المرتلين المشهورة ، وإرجاء الماصرية - أصحاب عمر بن قيس الماصر - وأبو حنيفة من رأيه ونظرائه (١) الحكم في مرتكب الكبيرة إلى الله ، إن شاء الله عفا برحمة من عنده ، وإن شاء عذب بما فعله الإنسان بكسبه ، وتعالى مرجئة البدعة وأعلنوا أن « الإيمان عقد بالقلب » وأن ما سوى ذلك لا يضر مع الإيمان ، فرتكب الكبيرة - ما دام مؤمناً - من أهل الجنة . ولكن زيدا يختلف مع كل هؤلاء ، ويختلف تماماً مع المعتزلة ، بل إن صاحب المنية المعتزلي يقول إن الاختلاف الوحيد بين زيد وبين المعتزلة إنما كان في « المرتلة بين المرتلين » (٢) « لقد ذهب إلى عقيدة الجمهور وهي : أن مرتكب الكبيرة لا يذهب عنه اسم الإيمان ولا اسم الإسلام ، بل يعذب حيناً من الدهر ثم مردّه إلى الجنة » (٣) .

تلك هي آراء زيد في المشاكل الكلامية التي كانت تشغل العالم الإسلامي في عصره . آراؤه بالإجمال مصبوعة بصيغة المعتزلة ، ولكن من المبالغة أن نقول - مع الشهرستاني - إن زيدا بن علي تتلمذ على واصل وأخذ الأصول عنه ، ونستنتج من هذا أن الزيدية - وكما يستنتج الشهرستاني أيضاً - صارت كلها معتزلة (٤) فلم يتفق زيد اتفاقاً تاماً مع معتزلية واصل . من المحتمل أن يكون الزيدية بعد زيد اعتنقوا المذهب المعتزلي جملة ، ولكن ليس من دقة القول في شيء أنهم أخذوا بكل تفصيلات هذا المذهب ، وليس من الصواب في شيء أن نقول : إن الزيدية أخذت بالفكرة المعتزلية (التحسين والتقيح العقلين كاملة) واعتنقتها ، إن المعتزلة تعلن أن الأشياء حسنة وقيحة في ذاتها ، وأن العقل بذاته يصل إلى الحسن والقبح في الأشياء فالعقل هو مصدر التكليف أولاً ، والزيدية تذهب إلى أن « العقل قد يحسن ويقبح ويصل إلى ما في الأشياء من حسن وقبح ، ولكنها ترى أن العقل في علمه يحتاج إلى السمع ، وأنه غير منفك عن سمع ينه الغافل على كيفية الاستدلال وأنه لابد في أول التكليف وابتدائه في العالم من رسول » (٥)

والإمامية تتفق مع الزيدية في أن العقل أيضاً ليس هو مناط التكليف الوحيد مع أنه قد يصل إلى الحسن والقبح في الأشياء ، ولكن مناط التكليف هو السمع ثم نرى فكرة وجوب الأصلح على الله المعتزلة . تصادف هوى لدى الإمامية المتأخرة ، ولكن الزيدية ترفضها . وأخيراً ننهي من آراء زيد بالقول بأنه لم يؤمن بالتقية الشيعية ، بينما يعلن ابن أخيه على لسان

(٤) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٣٣ .

(٥) الشيخ المفيد : أوائل المقالات ص ٤٤ .

(١) النوحى . فرق الشيعة ص ٧ .

(٢) ابن المرتضى : المنية ص ٢٠ .

(٣) الشيخ المفيد : أوائل المقالات ص ٩٤ .

الإمامية «أنها ديني ودين آبائي» . وهذا قاعدة أصل الخروج استمدته زيد بن علي أو تأثر فيه - علي الأقل - الخوارج ، ويلزم عنه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . كما لم يؤمن بنسبة المعجزات إلى الأئمة ، وأنكر إنكاراً باتاً قدسيهم وعصمتهم . وأنكر فكرة الرجعة في تطوراتها وصورها المختلفة . ولقد خاض زيد بن علي في الفقه ، وأصوله . وقد ترك لنا كتاب المجموع «مجموع الحديث ومجموع الفقه» ، جمعه تلميذه أبو خالد عمرو بن خالد الواسطي . والمجموع هو أساس الفقه الزيدي . وقد تعرض جامعه لهجمات عنيفة من الإمامية ومن أهل السنة . ولكن الزيدية قبلت المجموع ، وإن كان قد خالفه في بعض المواضع إمام زيدى مشهور هو الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين ، والمذهب الزيدي يتسع لهذا ويقرر ضرورة الاجتهاد في المذهب .

الفصل الرابع

حركات الزيدية السياسية

لم يكن استشهاد زيد بن علي في الكوفة نهاية المطاف للحركة الزيدية ، بل كان هذا الاستشهاد في سبيل العقيدة ، داعياً إلى حركة استشهاد أخرى كانت العامل الأكبر في القضاء على الدولة الأموية المروانية ، فقد هرب يحيى بن زيد بعد مقتل أبيه إلى خراسان ، وهناك بقي مستتراً في خلافة هشام يطلق الأشعار في أبيه :

خليلي عني بالمدينة بلغا بني هاشم أهل النهى والتجارب
فحقى متى مروان يقتل منكم خياركم والدهر جم العجائب
وحقى متى ترضون بالخسف منهم وكنتم أباة الخسف عند التجارب
لكل قتيل معشر يطلبونه وليس لزيد بالعراقي طالب (١)

ولما مات هشام بن عبد الملك وتولى الخلافة الوليد بن يزيد ، واستفاض ظلمه وفساده ظهر يحيى بن يزيد بخراسان مجاهداً ، منفذاً لمذهب أبيه « خروج فاطمي عادل سخي زاهد » طلباً للخلافة ، وكما قتل الأب قتل الابن. وكما صلب الأب في الكوفة ، صلب الابن. وذلك في عام خمس وعشرين ومائة. وقد أتى يحيى أناس من المحكمة (فرقة من الخوارج) يسألونه أن يخرج معهم فيقاتلون بني أمية ، فأراد لما رأى من نفاذ رأيهم وقوتهم أن يخرج معهم ، ولكن أصحابه نهوه أن يفعل وقالوا له « كيف نقاتل بقوم تريد أن تستظهر بهم على عدوك ، وهم يبرأون من علي وأهل بيته ؟ » . وفي هذا دلالة على ما يشعر به الخوارج من اتفاق مع الزيدية في الخوارج على الإمام الظالم (٢) وقد أثر قتله وصلبه فيما بعد في أهل خراسان ، ويقول المسعودي :

« أظهر أهل خراسان النياحة على يحيى بن زيد سبعة أيام في سائر أعمالها في حال أمنهم على أنفسهم من سلطان بني أمية ، ولم يولد في تلك السنة بخراسان مولود إلا وسمي يحيى أو يزيد لما داخل أهل خراسان من الجزع والحزن عليه (٣) » وكانت هذه الملحمة في أرض خراسان سبباً هاماً في التفاف الخراسانيين حول أبي مسلم الخراساني ، وقيام « المسودة » أي شيعة العباسيين الراوندية بالضربة الأخيرة للقضاء على دولة بني أمية . وأخيراً - تولى العباسيون الخلافة ، وآلت من السفاح إلى أبي جعفر المنصور . وهناك

(١) الأشعري : مقالات ج ١ ص ١٣١ .

(٣) المسعودي : مروج . ج ٢ ص ١٨٥ .

(٢) الأصفهاني : مقاتل ... ص ١١٣ .

تحرك الزيدية أو بمعنى أدق آل البيت من ذرية الحسن متخذين الزيدية أساساً لقيامهم في وجه المنصور. إن عقيدة زيد في الإمامة هي خروج فاطمي عالم سخي . مجاهداً في سبيل الله . فلم يقصر زيد الإمامة على أولاد الحسين بل أشرك فيها أولاد الحسن ، وسرعان ما تلقف هذا عبد الله بن الحسن ابن الحسن ، وقد كان على عداوة بينة مع زيد بن علي في أثناء حياته ولكنه آمن بآراء زيد بعد استشهاده وكان الرجل قد أعد ابنه محمداً بالمدينة للإمامة وقد تلقب بالمهدي وبالنفس الزكية ، كما خرج ابنه الآخر إبراهيم بالبصرة ، وهم أيضاً ينفذون ما نسب إلى الزيدية من جواز خروج إمامين فاطميين عادلين في وقت واحد ، وقد قتل الاثنان عام ١٤٥ هـ . وفيهم يقول دعبل بن علي الخزاعي :

مدارس آيات خلت من تلاوة ومتمزل وحى مقفر العرصات
قبور بكوفان وأخرى بطيبة وأخرى بفخ نالها صلواتي
وأخرى بأرض الجوزجان محلها وأخرى بباخمرا لدى الغربات
فأما المضضات التي لست واصفاً مبالغها منى بكنه صفات
قبور لدى النهرين من أرض كربلا معرسهم منها بشط فرات

قلت إن عبد الله بن الحسن وكذلك أخاه الحسن بن الحسن قد اعتنقا مذهب الزيدية في الأمر المعروف والنهي عن المنكر (١) . وقد أعد عبد الله بن الحسن ابنه محمداً كما أعد ابنه إبراهيم للخروج . وكانت المعتزلة قد تكونت فعلاً كحزب سياسي ، وقد أثرت المعتزلة في زيد بن علي - كما قلنا - ، وخرج منفذاً لأصلها الخامس وما لبثت المعتزلة أن سيطرت على يزيد بن الوليد ، فخرج يزيد ابن الوليد على أبيه الوليد « وكان خروج يزيد بن الوليد بدمشق مع سابقه من المعتزلة وغيرهم على الوليد لما ظهر من فسقه وشمل الناس جوهره . وكان يزيد يذهب إلى قول المعتزلة وما يذهبون إليه في الأصول الخمسة » ويرى المسعودي أن المعتزلة تفضل يزيد بن الوليد على عمر بن عبد العزيز (٢) .

ولكن يزيد بن الوليد لم يعيش في خلافته سوى خمسة أشهر وليتتين ثم مات ، ورأى المعتزلة أن يتجهوا إلى آل البيت ، بعد أن عاد الأمر إلى المروانية يحكمون بالنار والحديد ويشيعون الظلم والفسق والفجور في العالم الإسلامي . وفي الأبواء اجتمع بنوهاشم وبابيعوا محمد بن عبد الله بن الحسن وبابيع معهم أبو جعفر المنصور ما عدا الإمام جعفر الصادق الذي أبى أن يبايع ، وأخبرهم أن محمداً وإبراهيم سيقتلان في خروجهما وأن الأمر لبنى العباس .

ويذكر الأصبهاني أن أبا جعفر المنصور كان قد عقد لمحمد بن عبد الله بن الحسن في ناس من

(١) الأصفهاني : مقاتل الطالبيين . ص ١٣١ ، ١٣٢ .

(٢) المسعودي : مروج ... ج ٢ ص ١٩١ إلى ١٩٣ .

المعتزلة . ولكن يبدو أن المعتزلة انقسمت فيما بعد حول بيعة أبي جعفر المنصور لمحمد بن عبد الله الحسن ، فقد دعا محمد بن عبد الله الحسن عمرو بن عبيد لبيعته فأبى « وكان عمرو حسن الطاعة في المعتزلة ، خلع نعله ، فخلع ثلاثون ألفاً نعالهم »^(١) وكان يقول : « لا أباع رجلاً حتى أختبر عدله » فالمعتزلة إذن لم يقفوا جميعاً بجانب محمد بن عبد الله بن الحسن في خروجه على أبي جعفر المنصور^(٢) . وقد حفظ أبو جعفر المنصور لعمرو بن عبيد هذه المنة . وفي الحقيقة إن حركة محمد بن عبد الله كانت أشبه بحركات الخوارج ، وقد دعا المنصور محمد بن عبد الله بالخارجي في حديث له مع أبي مسلم العقيلي^(٣) . بل إن عبد الله بن الحسن نفسه كان صديقاً ليسير الخارجي^(٤) .

فحركة محمد بن عبد الله كانت مزيجاً من عقائد معتزلية ، فمن الثابت أنه تتلمذ هو وجماعة من بني طالب على أبي أيوب بن الأوبر داعية واصل بن عطاء ورسوله للمدينة^(٥) . ثم اعتنق مذهب الزيدية في الإمامية ، ثم مزج كل هذا بفكرة الخوارج في الخروج وعدم التقية . وقد أوهمه أبوه وأهل بيته أنه مهدي الزمان وأنه سيخرج فيملاً الأرض عدلاً ، وحاول جعفر الصادق بكل جهده أن ينهاهم عن هذا ، وتنبأ لهم بقتله وقتل أخيه فنسبوه إلى الحسد والمقتل لها .

ومنذ صباه أخذ الفتى يتوارى ويراسل الناس بالدعوة إلى نفسه ويعلم أنه المهدي . وأنكر عمرو بن عبيد على محمد دعوته ، وكان هذا سبباً في انفضاض الناس من حوله ، ويبدو أن محمد بن عبد الله لم يكن قدراً خالصاً ، بل إنه كان يدعى الاعتزال « لاشتغال الناس » أي لجمع الأنصار^(٦) . ثم اختلف الشيعة أيضاً في خروجه ، فكثير من أتباع جعفر الصادق لم يحاربوا مع محمد بن عبد الله وإن كان موسى وعبد الله ابني جعفر الصادق قد شاركا في القتال مع محمد ، وانقسم أولاد زيد بن علي قسمين . البعض مع أبي جعفر المنصور والبعض في رجال محمد بن عبد الله . كما انقسم أيضاً الفقهاء غير أن العدد الكبير منهم شارك في الخروج . كابن هرمز الفقيه المشهور وكذلك محمد بن عجلان فقيه المدينة ورائدها ومالك بن أنس . وقد سأله أهل المدينة عن بيعتهم لأبي جعفر المنصور فأفتى « إنما يابعم مكرهين وليس على مكره يمين » فأسرع الناس إلى مبايعة محمد بن عبد الله^(٧) . وعدد كبير آخر من كبار المحدثين والفقهاء كالمنذر بن المنذر وأبو بكر بن أبي سيرة وعبد الله بن عطاء وأولاده التسعة وعبد الرحمن بن أبي الموالي وأبوسفيان الثوري وهو القائل « وهل أدركت خيار الناس إلا الشيعة » وقد أعطانا سفيان الثوري سر انصراف الناس عن محمد بن عبد الله « إلا أن قوماً من هذه الرافضة وهذه المعتزلة قد

(١) الأصفهاني : مقاتل الطالبين ص ١٤٨ .

(٢) الأصبهاني : مقاتل الطالبين ص ١٤٥ .

(٣) للمسعودي : مروج ج ٢ ص ٢٣٧ .

(٤) الأصبهاني : مقاتل الطالبين ص ١٦٢ .

(٥) الأصفهاني : مقاتل الطالبين ص ١٦٥ .

(٦) نفس المصدر : ص ١٧٢ .

(٧) الأصبهاني : مقاتل الطالبين ص ١٩٥ .

بغضوا هذا الأمر للناس^(١) فكثير من أهل السنة إذن الذين كانوا يكرهون حكم العباسيين - كما كرهوا حكم الأمويين - لم تظمن أنفسهم إلى القتال مع طوائف متباينة التفت حول محمد بن عبد الله ، غير أن الاسم الذي غلب على أنصار محمد بن عبد الله بن الحسن هو الزيدية ويقول المسعودي « وقتل معه من الزيدية من شيعته أربعائة رجل »^(٢) .

وكما فشلت حركة الزيدية في الكوفة أولاً وفي المدينة ثانياً - والبلدتان كما نعلم موطننا الشيعة - فإننا نجدها تقوم في بلد اشتهر بأمويته وبعثانيته ، وهو البصرة . ولعل البصرة وجدت منفذاً لهذا - أي منفذاً من الحكم الهاشمي العباسي ، وفي حركة مضادة - وإن كانت أيضاً من علوى - وقامت الزيدية في البصرة مع الابن الثاني لعبد الله بن الحسن وهو الإمام إبراهيم بن عبد الله بل خرج إليه جماعة من الكوفة من أصحاب زيد بن علي متكررين في زى الحجاج حتى لحقوا به بالبصرة وعلى رأسهم مسلم بن أبي واصل (الخداء)^(٣) . وكان إبراهيم بلا شك أقوى بياناً وأكثر شجاعة من أخيه محمد بن عبد الله وأجابه وجوه أهل البصرة ، وفتيان العرب فيها . ووقف إبراهيم بخطيبهم فقال : يا أهل البصرة لقيتم الحسنى . آويتم الغريب ، لا أرض ولا سماء ، فإن أملك فلکم الجزاء وإن أهلك ، فعلى الله عز وجل الوفاء يقول الأصهباني « فجعلت الزيدية هذه الكلمة ندبة تندب بها بعد قتله ، مشبهينها بالنوح » ولكن إبراهيم أيضاً اختلف مع الزيدية ، فقد أتى عيسى بن زيد إلى البصرة ، ودعى الزيدية إلى إمامته فأجابوه إلى هذا ، ولكن أهل البصرة - وهم سنة وجماعة - لم يوافقوا على إمامة عيسى بن زيد فاتفق عيسى بن زيد وإبراهيم على قتال جعفر ، حتى إذا تم لهم النصر نظروا في الأمر . ثم ما لبث أن اختلف الاثنان^(٤) فقد صلى إبراهيم على جنازة بالبصرة فكبر عليها أربعاً ، فاعترض عليه عيسى بن زيد بن علي ، قائلاً « لم نقصت واحدة ، وقد عرفت تكبير أهلك ؟ » فقال : « إن هذا أجمع للناس ونحن إلى اجتماعهم محتاجون وليس في تكبيرة تركتها ضرر إن شاء الله » فغضب عيسى واعتزله وقتاً ما ، وبلغ الأمر المنصور فأرسل إلى عيسى يطلب منه أن يخلد الزيدية عن إبراهيم^(٥) ولكن عيسى بن زيد تروى في الأمر وما لبث أن عاد للقتال مع إبراهيم .

ونستنتج من هذا أن الزيدية كانت فئة قليلة في البصرة ، وأن إبراهيم أراد أن يجذب إليه أهلها ، وكانوا أهل سنة وجماعة ، فكبر أربعاً ، وهي عادة السنة ، فاعترض عليه عيسى بن زيد وهذا ما فت في عضد الزيدية ولا شك أن خذلان هذا البعض من الزيدية لإبراهيم - إن صحت الرواية - كانت

(٤) الأصهباني : مقاتل الطالبين . ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

(٥) الأصهباني : مقاتل ... ص ٢٤٩ .

(١) الأصهباني : مقاتل الطالبين ص ٢٠١ .

(٢) المسعودي : ج ٢ ص ٢٣٩ .

(٣) الأصهباني : مقاتل ... ص ٢٣٩ .

عاملاً من عوامل هزيمته ، وكان أيضاً من عوامل هزيمته أن أهل البصرة لم يدافعوا بيقين كامل عن أحقية إبراهيم في الخلافة والإمامة .

كما أن كثيرين من أهل السنة لم يتابعوه فرفض خالد بن عبد الله الواسطي شيخ أهل السنة والجماعة إعلان بيعته ، كما كان يكره أهل البصرة بعضاً من رجاله وبخاصة الفضل بن محمد الضبي ، وكان يستغل قيام إبراهيم بالدعوة إليه في بيته ، فيحتال لنشر المذهب الشيعي خلال إقامة إبراهيم لديه ، ولكن إبراهيم كان زاهداً عابداً فتابعه عباد البصرة وقراءها وفقهاؤها ، ولم يتابعه جمهور البلدة ، وحين قامت الحرب وأصابه سهم غائر ، كما أصاب زيد بن علي في طرقات الكوفة من قبل ، طافت به البقية من الزيدية التي ثبتت معه وأكبوا عليه يقبلون يديه ورجليه ويقاتلون دونه لا يبالون . وقد ترك لنا أبو الفرج الأصفهاني ثبناً طويلاً بأساء المحدثين والفقهاء والرواة الذين شاركوا إبراهيم خروجه: وعلى رأسهم أبو حنيفة وزفر بن الهذيل تلميذ أبي حنيفة المشهور ، بل إن زفر يقول : « إن أبا حنيفة كان يجهز في أمر إبراهيم جهازاً شديداً ويفتي الناس في الخروج معه » فقلت له : والله ما أنت بمنته عن هذا حتى توفي ، فوضع في أعناقنا الحبال » بل إن أبا حنيفة كتب إلى إبراهيم هو ومسر بن مكدام ، « بدعوانه إلى أن يقصد الكوفة ويضمننا له نصرتها وإخراج أهل الكوفة معه فكانت المرجئة تبعه بذلك »^(١) وكان يقول : إن القتل مع إبراهيم يعدل القتل (لوقتل الإنسان يوم بدر) ، والشهادة مع إبراهيم خير للإنسان من الحياة^(٢) . وكان مسر بن مكدام زعيم مرجئة الكوفة . وقد عاتبته المرجئة كما عاتب أبا حنيفة لدعوتها لإبراهيم وبيدوا أن الزيدية كانت قد قويت في الكوفة وقد ذكر أبو حنيفة في كتابه لإبراهيم أن الزيدية في الكوفة على استعداد للقضاء على المنصور فيها . وقد قيل إن المنصور لأجل وقوفه مع إبراهيم في حركته . وأيده أيضاً عثمان الطويل تلميذ واصل بن عطاء والأزرق بن ثمة من أصحاب عمرو بن عبيد^(٣) .

ويصف لنا الأشعري في مقالات الإسلاميين حركة إبراهيم فيقول : « ثم خرج بعد محمد بن عبد الله أخوه إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب بالبصرة ، وغلب عليها وعلى الأهواز وعلى فارس وأكثر السواد ، وشخص عن البصرة في المعتزلة وغيرهم من الزيدية يريد محاربة المنصور ومعه عيسى بن زيد بن علي ، فبعث إليه أبو جعفر بعيسى بن موسى وسعيد بن سلم فحاربا إبراهيم حتى قتل وقتلت المعتزلة بين يديه^(٤) وهذا يبين حقيقة الزيدية للمرة الثالثة - مجموعة من القراءة والعباد والفقهاء ، مع فئة من الزيدية وفئة من المعتزلة وكان أمر الزيدية بعد إلى عيسى بن زيد ، بنص

(١) الأصبهاني : مقاتل الطالبين ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ . (٣) الأصبهاني : مقاتل ص ٢٥ .

(٢) المصدر السابق : ص ٢٤٤ و ص ٢٤٦ . (٤) المصدر السابق : ص ٢٥٧ .

من محمد بن عبد الله ، فإن محمد بن عبد الله جمع إليه وجوه الزيدية ، ومن حضر معه من أهل العلم وعهد إليه إنه إن أصيب في وجهه ذلك فالأمر إلى عيسى بن زيد وكان عيسى «أفضل من بقي من أهله ديناً وعلماً وورعاً وزهداً وتقاً وأشدّهم بصيرة في أمره ومذهبه مع علم كثير وكان محدثاً - طلعة في كل مكان - وروى عن أبيه وجعفر بن محمد وأخيه عبد الله بن محمد سفيان الثوري والحسن بن صالح ومالك بن أنس وغيرهم من كبار المحدثين» (١) .

وقد اختلف عيسى كما رأينا مع إبراهيم - وفي رواية أنه اعتزل عنه وفي رواية أخرى أنه قاتل معه حتى مقتل إبراهيم ، وأراد الزيدية أخذ العهد له - ولكنه أبى - وتواري ، يتدارس العلم والحديث والسيرة ، ويقابل في تواريه أهل الحديث من الزيدية في الكوفة والمدينة ومكة حين يأتي للحج متنكراً وبعد لحركة زيدية خطيرة وقد عرف باسم «موتم الأشبال» لقوته الحارقة ، ثم طلب منه الزيدية الخروج بعدمدة وفي حكم المهدي العباسي ، وكان الحسن بن صالح من رجال الكوفة وصاحب ديوانه وفي بيته نزل عيسى . وقال له الحسن بن صالح يوماً : «حتى متى تدافعنا بالخروج ، وقد اشتمل ديوانك على عشرة آلاف رجل ؟» فقال له عيسى : «ويحك أتكثر على العدد وأنا بهم عارف ؟ أما والله لو وجدت فيهم ثلاثمائة رجل أعلم أنهم يريدون الله عز وجل ويبدلون أنفسهم له ويصدقون للقاء عدوه في طاعته لخرجت قبل الصباح حتى أبلى عند الله عذراً في أعداء الله وإجراء أمر المسلمين على سنته وسنة نبيه» ولكنه رفض . وهو يعلم يقيناً أن قلوب الناس معه وسيوفهم عليه ومع أعدائه . . . وكان دعائه يعملون وكان صاحبه الحسن بن صالح هو الذي ينشر الدعوة مع ثلاثة من أشهر أتباع الزيدية هم ابن علاق الصيرفي ، وحاضر مولى زيد ، وصباح الزعفراني وطلبهم المهدي ، فتواري ابن علاق وصباح ووقع حاضر في يدي المهدي ، فاستجوبه عن مكان عيسى ، فأبى أن يدلّه عليه ، فقتله ، واختفى الآخرون . فلما مات عيسى قال صباح للحسن بن صالح «أما ترى هذا العذاب والجهد الذي نحن فيه بغير معنى ؟ ! قد مات عيسى بن زيد ومضى لسبيله وإنما نطلب خوفاً منه ، وإذا علم أنه مات ، آمنوا وكفوا عنا . فدعني آتي هذا الرجل - يعني المهدي - فأخبره بوفاته حتى نتخلص من طلبه لنا ونخوفنا» . فقال الحسن بن صالح : «لا والله لا نبشر عدو الله بموت ولي الله ابن نبي الله فوالله لليلة يبيتها خائفاً منه أحب إلى من جهاد سنة وعبادة بها» وهذا يدل على أن الحركة الزيدية في الكوفة كانت تعمل عملها في الخفاء وتستعد لضربتها القادمة وأن الإمامية لم تكن المسيطرة عليها . ولكن قضى على الحركة وفاة عيسى بن زيد - وقد كان عيسى من أخطر رجال الحركة الزيدية - ثم مات صاحبه الحسن بن صالح بعد وفاة

(١) الأشعري : مقالات الإسلاميين ج ١ ص ٢٩ .

(٢) الأصبهاني : مقاتل : ص ٢٧٢ .

الإمام عيسى بشهرين . وذهب صباح الزعفراني داعية عيسى بن زيد إلى بغداد - ومعه ابنا عيسى بن زيد «أحمد ، وزيد» - وطلب مقابلة الخليفة المهدي ، وتبين لنا المقابلة إلى أي مدى ذهب زيد الكوفة في حب زيد وأولاده فقد أخبر صباح الخليفة أنه إنما أتى ليضع ولدى عيسى بن زيد وهو ابن عمها ، لكي ينشأ نشأة طيبة صالحة ، وأنه لا يأبه هو نفسه بعقاب الخليفة ولا يريد جزاء منه ولا مكافأة ، ولولا كبر سنه وفقره لما أتى إليه بهما . وسر المهدي العباسي وعاش الطفلان في أكتافه . وقد بقي أحمد بن عيسى إلى خلافة الرشيد وتنسك وترهد وكان الزيدية يجتمعون إليه ، فأخذ الرشيد وحبه مدة ولكنه تخلص من الحبس ، وتوارى .

وانتشرت الزيدية في بغداد ، فقد قام فيها أيضاً على بن العباس من ولد الحسن بحركة زيدية ، ولكن المهدي العباس قضى عليها ، وسجن على بن العباس ثم سمه . غير أن المهدي العباسي لم يبلغ مبلغ أبيه في معاملته القاسية لبني الحسن فلما توفي وتولى ابنه موسى الهادي بدأ ولاته بإيحاء منه ، يعاملون بني طالب أسوأ معاملة ، وقام الحسين بن علي بن الحسن والمعروف «بصاحب فخ» بحركة زيدية أخرى بعد أن تحمل من عامل الهادي بالمدينة هو وأهل بيته أشد أنواع المهانة والاضطهاد . وخرج الحسين مع جماعة من بني الحسن إلى مكة يدعون إلى «الرضا من آل محمد» ، وفي فخ قابلتهم جيوش العباسيين وقتلتهم واحداً بعد واحد . ومن العجب - أن موسى الكاظم ابن الإمام جعفر الصادق نهاهم عن الخروج . كما فعل أبوه من قبل مع محمد بن عبد الله وأخيه إبراهيم ، بل أخبرهم : أنهم مقتولون بفخ^(١) . حين يذكر عيسى بن عبد الله قصتهم واستشهادهم العظيم في وادي الحجاز ، يشير إلى أنهم «هيجوا» أي أرغموا على الخروج حين عم ظلمهم وظلم الناس .

فلا	بكين	على	الحسين	بعولة	وعلى	الحسن
وعلى	ابن	عاتكة	الذي	أثوه	ليس	بذي
تركوا	بفخ	عدوة	في	غير	متزلة	الوطن
كانوا	كراماً	هيجوا	لا	طائشين	ولا	جن
غسلوا	المذلة	عنهم	غسل	الثياب	من	الدرن
هدى	العباد	بجدهم	فلهم	على	الناس	المتن

ثم خرج يحيى بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب على الرشيد وكان يحيى أخذ العلم عن جعفر الصادق ، وشارك في حركة الحسين شهيد فخ . وذهب يحيى إلى الديلم وتابعه بعض زيدية الكوفة من الزيدية البترية ، وهم - كما سنرى بعد - يتولون أبا بكر وعمر . ثم عثمان في ست سنين من إمارته ،

(١) الأصهباني : مقاتل ... ص ٢٨٨-٣٠٥ .

ثم يكفرونه في باقي عمره وقد اختلفت الزيدية البترية مع يحيى . واضطر يحيى إلى مصالحة الرشيد - بعد أن أعطاه أماناً ولكن ما لبث الرشيد أن حبسه ثم قتله - في قصة طويلة مثيلة ^(١) .

وتظهر الزيدية مرة أخرى مع إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، فقد أفلت إدريس من واقعة فخ وهرب إلى المغرب . وهناك تتبعه هارون الرشيد - ويذكر الأصبهاني أن يحيى بن خالد البرمكي دعا إليه سليمان بن جرير الجزري وكان من متكلمي الزيدية البترية ومن أولى الرئاسة فيهم ووعدوه وعوداً كثيرة أن يذهب إلى المغرب وأن يدس السم لإدريس ، ويذكر أن سليمان بن جرير سافر إلى المغرب واحتفى بإدريس فأنس به واجتباها « وكان ذا لسان وعارضة وكان يجلس في مجلس البربر فيحتج للزيدية ويدعو إلى أهل البيت ، وقد أعجب به إدريس وقربه إليه ، حتى تمكن سليمان بن جرير من دس السم له ^(٢) .

وإذا صح هذا ، فيكون الزيدية البترية إذن قد انقلبت على أولاد الحسن بن علي واختلفت معهم مرة مع يحيى بن عبد الله ومرة مع إدريس بن عبد الله .

وبقي العباسيون يخشون الزيدية فقتل هارون الرشيد عبد الله بن الحسن بن علي بن علي بن الحسين ابن علي بن أبي طالب بدعوى أنه يجمع الزيدية أيضاً للخروج ^(٣) .

ثم كتبت الزيدية ملحمة أخرى من الملاحم حين خرج محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين أيضاً هو ومحمد بن إبراهيم - وكان داعيهم الأكبر في فارس - من أكبر فرسان الإسلام هو أبو السرايا ، السري بن منصور « وكان علوى الرأى ذا مذهب في التشيع ، ولكنه حارب مع الزيدية واستولى على الكوفة وأغلب فارس وانتصر على العباسيين ، ولكن أهل الكوفة خذلوه في نهاية الأمر ، وقد قتل فيما بعد هو ومحمد بن محمد وفي مكة خرج محمد بن جعفر بمائتي رجل من الجارودية الزيدية وعليهم ثياب الصوف وسباء الخير عليهم ظاهرة ^(٤) » ثم خرجت الزيدية الجارودية مع محمد بن القاسم ، من أحفاد الحسن بن علي - ويذكر الأصفهاني أنه كان يذهب إلى القول بالعدل والتوحيد ، ويرى رأى الزيدية الجارودية ، وقد تفرق عنه أهل الكوفة لما عرفوا زيديته وميله إلى المعتزلة . وقد عرف محمد بن القاسم بصاحب الطالقان ، وقد انتهى الأمر بأسره وسجنه ، ومات في سجنه ^(٥) .

ثم خرج في أيام المستعين يحيى بن عمر من أحفاد زيد بن علي ، واجتمع عليه أهل الكوفة أيضاً ، وكان له أنصار كثيرون يقول الشهرستاني : « خرج ودعا الناس واجتمع عليه خلق كثير » ، ويبدو أن

(١) الأصبهاني : مقاتل .. ص ٣٠٧ .

(٢) الأصبهاني : مقاتل الطالبين ص ٢٢٦ .

(٣) الأصبهاني : مقاتل الطالبين ص ٣٧٢ .

(٤) الأصبهاني : مقاتل ... ص ٢٥٣ .

(٥) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٥٦ .

الشيعة كانت قد استقرت أيضاً في بغداد . ووافقت دعوته «إلى الرضا من آل محمد» هوى في نفوس البغداديين . يقول الأصفهاني : «وكان هوى أهل بغداد مع يحيى ولم يروا قط مالوا إلى طالبي خرج غيره» ولما قتل يحيى في الكوفة وحمل رأسه إلى بغداد ، جعل أهلها يقولون «إن يحيى لم يقتل ميلاً منهم إليه ، وأخذ الناس يصيحون «ما قتل وما فر ، ولكن دخل البر (١)» وهذا يدل على انتشار المذهب الشيعي حيثئذ في بغداد ، وإيمان عدد كبير منهم بالغيبة ، هذا بالرغم من أن يحيى بن عمر كان يقاتل على قاعدة زيدية .

وتعددت الحركات الزيدية ، ولكنها فشلت جميعاً حتى ظهر الإمام الناصر الحسن بن علي من نسل الحسين والمعروف بالأطروش يقول الشهرستاني : «ولم ينتظم أمر الزيدية بعد ذلك حتى ظهر بخراسان ناصر الأطروش فطلب مكانه ليقتل ، فاختنى واعتزل إلى بلاد الديلق والجبل ولم يتحلوا بدين الإسلام بعد ، فدعا الناس دعوة الإسلام على مذهب زيد ، وبقيت الزيدية في تلك البلاد ظاهرين ، وكان يخرج واحد بعد واحد من الأئمة (٢)» .

ثم انتقل المذهب الزيدي إلى اليمن على يد الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم من أحفاد الحسن ، وقد ولد بالمدينة سنة ٢٤٥ . والإمام الهادي زيدي المذهب معتزلي العقيدة ، وقد بايعه أهل اليمن عام ٢٨٤ ، وأخذ يحارب التشيع الغالي ومذهب القرامطة ، وفي سنة ٢٩٢ اشتبك في حروب عنيفة مع القرامطة ، حتى مات عام ٢٩٨ . وتولى الأمر بعده أبناؤه .

(١) الأصفهاني : مقاتل الطالبيين ص ١٣٤

(٢) الشهرستاني : الملل ج ١ ص ٢٥٤

الفصل الخامس

تطور العقائد الزيدية الكلامية

ألقى الإمام زيد بن علي بآرائه في الإمامة وعقائده الدينية ، فشغلت بها مجامع المسلمين جميعاً في ذلك العصر ، وعاشت آراؤه بعده ، وتناولها أتباعه وتلامذته بالتفسير ، واختلفوا عليها . واختلفاتهم وتفسيراتهم إنما استلهمت من حياة زيد وآرائه . وقد قسم مؤرخو العقائد الإسلامية الزيدية إلى فرق متعددة سنحاول أن نعطي في هذا الفصل صورة لها .

أول فرقة نشأت - فيما يبدو - كفرقة زيدية هي الجارودية نسبة إلى مؤسسها أبي الجارود - ويكنى أبا النجم زياد بن المنذر الحمداني الخراساني العبدى ويقال له أحياناً النهدي والثقفى الكوفى (توفى ما بين عام ١٥٠هـ و ١٦٠هـ) ^(١) ويبدو أنه أخذ العلم أولاً على محمد الباقر ، ثم فارقه . ولقبه سرحوباً ، وفسر الباقر نفسه سرحوباً بأنه شيطان أعمى يسكن البحر ^(٢) ، أما جعفر الصادق فقد لعنه وقال «إنه أعمى القلب أعمى البصر» أما أهل السنة فقد اعتبروه رافضياً يضع الحديث في مثالب الصحابة ويرى في فضائل أهل البيت عنهم أشياء لا أصول لها . بل اعتبروه من أهل الكوفة الغلاة ^(٣) ويبدو أنه اتصل بزيد بن علي في الكوفة ، وأصبح من رجاله المعدودين ، وقد شارك ، بالرغم من علمه ، في المعركة مع زيد هو ورجاله ، وثبت معه ، حين تخلى عنه شيعة الكوفة من الروافض .

ولقد عادى الإمامية الجارودية عداوة مرة ، ولقد رأينا كيف أن الإمامين محمد الباقر وجعفر الصادق تبرأ منه . ويتضح هذا من إعلانه للأصل الهام للزيدية وهو «أن الإمامة قد صارت بعد مضي الحسين في ولد الحسن والحسين فهي فيهم خاصة دون سائر ولد علي بن أبي طالب» وبهذا الأصل خرج على إمامة الباقر والصادق . ثم يضيف إلى هذا الأصل شروط الخروج «وهم كلهم فيها شرع سواء ، من قام منهم ودعا لنفسه فهو الإمام المفروض الطاعة بمنزلة علي بن أبي طالب واجبة إمامته من الله عز وجل على أهل بيته وسائر الناس كلهم . وهذا شرط يفتقد أيضاً في الباقر والصادق . ثم يشير إلى قعود كل من الباقر والصادق ويقول «من تخلف عنه في قيامه ودعائه إلى نفسه من جميع الخلق فهو كافر» ثم يغمز كلا من الباقر والصادق من طرف خفي «ومن ادعى منهم الإمامة - وهو قاعد في بيته

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٢٦٧ والنويعي : فرق الشيعة ص ٢١ والشهرستاني : الملل ج ١ ص ٢٥٥ .

(٢) تهذيب التهذيب : ص ٢٨٦ .

(٣) النويعي فرق الشيعة ص ٥٥ .

مرخى عليه ستره ، فهو كافر مشرك » ، « وكل من اتبعه على ذلك وكل من قال بإمامته » وقد دعا هذا إلى كراهية الإمامية للجارود ، وللجارودية وتسميته بسرحوب وفرقة بالسرحوية ، ويبدو أنه كون عقائده قبل أن يتصل بزید ، فلما أعلن زيد دعوته . انضم إليه هو وأصحابه وقالوا بإمامته (١) . ويختلف أيضاً أبو الجارود مع الإمامية في أنه يرى أن النبي ﷺ نص على علي عليه السلام بالوصف لا بالتسمية ، والناس قصرُوا حيث لم يتعرفوا الوصف ولم يطلبوا الموصوف ، وإنما نصبوا أبا بكر باختيارهم ، فكفروا . أو بمعنى أدق إن أبا الجارود لم يتول الشيخين - كما فعل زيد بن علي - بل كفرهما ، وكفر الصحابة جميعاً . بل ذهب أبو الجارود إلى أن الإمام بالنص سواء من النبي أو من علي الحسن والحسين بعد علي ، وقد كفر الناس أيضاً بتركهم الاقتداء بهما بعد أبيهما (٢) . ويقص لنا النوبختي - وهو شيعي إمامي نفس الشيء عن الجارودية فيقول « قالوا بتفضيل علي عليه السلام ولم يروا مقامه يجوز لأحد سواه ، وزعموا أن من دفع علياً عن هذا المكان فهو كافر ، وأن الأمة كفرت وضلت في تركها بيعته وجعلوا الإمامة بعده في الحسن بن علي عليهما السلام ثم في الحسين عليه السلام ثم هي شوري بين أولادهما فن خرج منهم مستحقاً للإمامة فهو الإمام ويرى النوبختي أن من الجارودية تشعبت صفوف الزيدية (٣) فالجارودية إذن هي الزيدية الأولى .

نسبت الجارودية العلوم الخاصة إلى الأئمة من آل البيت جميعاً بلقي فيهم فطرة وضرورة قبل التعلم ، « إن علم ولد الحسن والحسين عليهما السلام كعلم النبي ﷺ ، فيحصل لهم العلم قبل التعلم فطرة وضرورة بل إنهم متساوون فيه من المهد » الحلال حلال آل محمد ﷺ وآله والحرام حرامهم والأحكام أحكامهم وعندهم جميع ما جاء به النبي ﷺ وآله كامل عند صغيرهم وكبيرهم والصغير منهم والكبير منهم في العلم سواء لا يفضل الكبير الصغير ، من كان منهم في الخرق والمهد إلى أكبرهم سناً وليس يحتاج أحد منهم أن يتعلم من أحد منهم ولا غيرهم ، العلم ينبت في صدورهم كما ينبت الزرع المطر ، والله عز وجل قد علمهم بلطفه كيف شاء . فنحن إذن نعود هنا إلى فكرة الغلاة في العلم الإلهي ، وأنه ينتقل من إمام إلى إمام ، أو بمعنى أدق أصبح الإمام عنصراً أبستيمولوجياً . يفيض العلم منه وينتقل . ويحاول أن يعلل النوبختي قول الجارودية فكرة فطرية العلم عند الأئمة : وإنما قالوا بهذه المقالة كراهة أن يلزموا الإمامة بعضهم دون بعض ، فينتقص قولهم إن الإمامة صارت فيهم جميعاً فهم فيها شرع سواء (٤) ، قد يكون تعليل النوبختي معقولاً إلى حد ما ولكن يبدو أن السبب العام في قول

(١) النوبختي : فرق الشيعة ص ٥٥ .

(٢) الأشعري : مقالات ج ١ ص ٦٧ . والبغدادى : الفرق ٢٣ والشهرستاني : الملل : ج ١ ص ٢٥٥ .

(٣) نفس المصدر السابق ص ٥٦ .

(٤) النوبختي : فرق الشيعة ص ٢١ .

الجارودية بهذا هو ضخامة فكرة العلم السرى المنسوب إلى الأئمة وانتشار هذه العقيدة في الكوفة ، بل إننا نرى زيدياً معتدلاً - هو هارون بن سعيد العجلي - هو الذى نقل لنا كتاب الجعفر المنسوب إلى جعفر الصادق . لقد كان من الشائع في الكوفة أن لدى أهل البيت جميعاً علم الأولين والآخرين وأنه انتقل إليهم من محمد ﷺ إلى علي ثم إلى أولاده من بعده . ومن العجب أن زيداً بن علي هو الذى كره الجامع الغنوصية في الكوفة - ولعل استعانتة بواصل بن عطاء وموافقة على منهجه العقلى إنما كان للقضاء على الغنوصية ، ثم يقع أتباعه في غنوصية كاملة . بل ذهب البعض منهم إلى أن علياً علم ما علمه رسول الله ﷺ من علم الدنيا والآخرة ، وما كان وما هو كائن ، وعلم على بعد رسول الله علماً لم يكن يعلمه ، وأن علياً أعلم من رسول الله ﷺ ، وجعلوا الأئمة بعده يرثون ذلك منه إلى يومنا هذا الأكبر فالأكبر ، وأن العلم يولد معه لا يحتاج إلى تعليم (١) اختلطت إذن فكرة العلم السرى بعقائد الزيدية وأثرت في أكبر فرقها ، ولكن ما لبثت سائر الفرق الزيدية الأخرى أن أنكرت ذلك ووسعوا الأمر فقالوا : العلم مثبت مشترك فيهم وفي عوام الناس هم والعوام من الناس فيه سواء . وبهذا فتحو باب الاجتهاد والاختيار والرأى (٢) .

والآن . . . وضحت لنا معالم الجارودية ، مزيج من شيعة غالية وزيدية ، أى رافضة وزيدية . وأخيراً ، عادت الجارودية ، رافضة بعد أوشعة غالية فاختلفت في «التوقف والسوق» وآمنوا بالمهدية وخلود الإمام فشاركوا في حركة النفس الزكية محمد بن عبد الله بن الحسن . واختلفوا بعد مقتله فمنهم من قال : إنه لم يقتل وهو حي ، وسيخرج ويملا الأرض عدلاً . ومنهم من أقر بموته وساق الإمامة إلى محمد بن القاسم بن عمر بن علي بن الحسين على صاحب الطالقان . ومنهم من قال بإمامة يحيى بن عمر . حدث كل هذا بعد موت أبي الجارود ، والنوختي يرى «أن هؤلاء الذين وضعوا الإمامة على هذا النسق . علي ، ثم زيد بن علي بن الحسين ، ثم يحيى بن زيد ، ثم عيسى بن زيد بن علي ثم محمد بن عبد الله بن الحسن هم الحسينية من الزيدية . ولا شك أن الفرق تتداخل وينطوى الواحدة منها في الأخرى . وقد تشتت الجارودية بعد ذلك في الإمامية والزيدية ، ولم يظفر أبو الجارود بمحبة أى من طوائف الشيعة المختلفة ، وإن كان هو يمثلها جميعها .

وقد ذكر أن من أصحابه فضيل بن الزبير الرسان وأبا خالد عمرو والواسطي ، وقد كان هذا الأخير راوياً لزيد ، وقدّم لنا الفقه الزيدى في كتاب الزيدية المشهور المجموع ، ومنصور بن أبي الأسود ، وقد اعتبرهم النوختي الأقوياء من الزيدية (٣) .

(١) الملطى : التنبيه ص ١٥١ .

(٢) النوختي : فرق الشيعة ص ٥٨ .

(٣) النوختي : فرق الشيعة ص ٥٦ ، ٥٧ .

أما الفرقة الثانية من الزيدية فهي الصالحية نسبة إلى الحسن بن صالح بن حي الهمداني الكوفي ، وكان الحسن بن صالح من أعظم فقهاء الإسلام وعبادهم ومتكلمينهم وذكر عنه أنه « اجتمع فيه إتقان وفقه وعبادة وزهد ، وقد طلب منه أن يصف غسل الميت فما قدر عليه من البكاء » وكان هو وأخوه على وأمه من العبادة أن قسموا الليل ثلاثة أجزاء ، فكان كل واحد يقوم ثلثاً ، فأتت أمهما فاقسموا الليل بينهما ثم مات على فقام الحسن الليل كله » وكان من أصحاب سليمان الداراني عابد الشام الكبير ، وكان الداراني يقول عنه : « ما رأيت أحداً الخوف أظهر على وجهه من الحسن . قام ليله بعم يتسألون ، فغشي عليه فلم يهتمها » ويذكر عنه أيضاً أنه كان ممن تجرد للعبادة ورفض الرئاسة . وقد كرهه بعض علماء الفقه من أمثال سفيان الثوري وقال فيه « ذاك رجل يرى السيف على الأمة » (١) . أى أنه يرى الخروج .

ويذكر ابن النديم أن الحسن بن صالح ولد سنة مائة ، وكان من كبار الشيعة الزيدية وعظماهم وعلمائهم ، وكان فقيهاً متكلماً ، وأنه كان له أخوان على وصالح وكان الاثنان على مذهب أخيهما ، وكان على بالذات متكلماً ، ويرى ابن النديم أن أكثر علماء المحدثين والفقهاء زيديه . ثم يذكر أن الحسن بن صالح مات سنة ثمان وستين ومائة ، متخفياً وله من الكتب « كتاب التوحيد . وكتاب إمامة ولد على من فاطمة ، وكتاب الجامع في الفقه » (٢) . وقد حظى الحسن بن صالح باحترام أهل السنة ، وقد ذكر البغدادي أن الحسن بن صالح وأصحابه أقرب الناس إلى السنة ، وقد أخرج له مسلم ، وذكره البخاري في التاريخ الكبير وقال الحسن بن صالح بن حي الكوفي : سمع سماك بن حرب ومات سنة سبع وستين ومائة وهو من ثوار همدان وكنيته أبو عبد الله (٣) . فالجمهور إذن على توثيقه كمحدث .

شارك الحسن بن صالح وأهل بيته في الخروج مع زيد بن علي ، ولكن لا يبدو أنه شارك في خروج إبراهيم بن عبد الله . ثم حين قتل هذا الأخير وتواري عيسى بن زيد وجد في دور بني صالح بن حي ملجأً آمناً . وقد لزم الحسن بن صالح عيسى بن زيد في تواريه ، وكان صاحبه ووزيره ، ذهب معه إلى الحج ، وكانا يتذاكران العلم ، وقص لنا الأصبهاني صاحب كتاب « مقاتل الطالبين » مقابلة الاثنین لسفيان الثوري ، وقد دعا الحسن بن صالح سفيان « بالشفاء » وهذا ما يدل على أن الحسن بن صالح لم يتأثر بكرهية سفيان له (٤) . ثم أخذ الحسن بن صالح يجتمع بالزيدية وينظم الدعوة لعيسى

(٣) البغدادي : الفرق . . . ص ٢٤ .

(٤) الأصبهاني : مقاتل . . . ص ٢٧٧ .

(١) تهذيب : التهذيب ج ٢ ص ٢٨٥ .

(٢) ابن النديم : الفهرست ص ١٢٧ .

ابن زيد، وقد أحصى له في ديوانه عشرة آلاف رجل . وطلب من عيسى بن زيد الخروج ولكن عيسى رفض . وقد مات الحسن بن صالح بعد وفاة إمامه بشهرين ، وقد ذكرنا من قبل - ونحن نتكلم عن عيسى بن زيد - كيف نهى الحسن بن صالح صباح الزعفراني أن يبلغ خبر وفاة عيسى بن زيد للمهدي العباسي . ونحن بلغ المهدي العباسي وفاة الحسن بن صالح سجد وقال : الحمد لله الذي كفاني أمره ، فلقد كان أشد الناس على ولعله لو عاش لأخرج على غير عيسى (١) فالحسن بن صالح إذن كان أخطر رجال الحركة الزيدية على الإطلاق . لقد اختص فيما يبدو بأبناء زيد وبني مخلصاً لهم دون أولاد فاطمة الآخرين مدى حياته . ويذكر النوبختي أن أحد أبناء الحسن بن صالح بن حى خرج مع جماعة من أهل الكوفة - الزيدية البتية ، مع يحيى بن عبد الله بن الحسن والمشهور بصاحب الطالقان . فاختلف معه ثم فارقه (٢) . وهذا دليل واضح على أن الحسن بن صالح وأولاده أخلصوا لأبناء زيد بن علي وهم من ولد الحسين .

والشخصية الثانية من شخصيات الفرقة الصالحية - وتنسب هذه الفرقة إليها أيضاً - هي شخصية «كثير النواء» وهو أبو إسمايل كثير بن إسمايل بن نافع النواء ، وسمى أتباعه بالبتية لأن كثيراً كان يلقب بالأبتر (٣) . وكان كثير النواء محدثاً ، وهو من رجال الميزان . ويذكر النوبختي أن البتية هم أصحاب الحديث . وعدّ منهم سفيان بن سعيد الثوري وشريف بن عبد الله وابن أبي ليلى ، بل محمد ابن إدريس الشافعي ومالك بن أنس . ومن الخطأ الكبير أن يعتبر هؤلاء جميعاً زيدية ، وإن كانت تشوبهم فعلاً شائبة من زيدية .

أما آراء الحسن بن الصالح أو الصالحة : فهي تكاد تكون آراء زيد بن علي نفسها : أولاً : إمامة المفضول وتأخير القاضل والأفضل ، إذا كان الأفضل راضياً بذلك «إن علياً أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ وأولاهم بالإمامة ، ولكنه سلم الأمر راضياً ، وفوض الأمر إليهم طائعاً ، وترك حقه راغباً ، فنحن راضون بما رضى مسلمون لما سلم ، لا يحل لنا غير ذلك ، ولو لم يرض على بذلك ، لكان أبو بكر هالكاً» فالصالحية إذن تتولى الشيخين ، في صورة من الصور . ولا ضير في طريق توليهم هذا لها عند أهل السنة والجماعة فإذا انتقلنا إلى رأيهم في عثمان : وهل هو مؤمن أم كافر ، نراهم مرجئة قالوا : إذا سمعنا الأخبار الواردة في حقه وكونه من العشرة المبشرين بالجنة ، قلنا : يجب أن يحكم بصحة إسلامه وإيمانه وكونه من أهل الجنة ، وإذا رأينا الأحداث التي أحدثها من استهتاره

(١) الأصهباني : مقاتل ... ص ٢٨٣ .

(٢) النوبختي : مقاتل الطالبيين ص ٣١٢ .

(٣) الأشعري : مقالات الإسلاميين ج ١ ص ٩٨ ، ٩٩ .

بنى أمية وبنى مروان واستبداده بأمور لم توافق الصحابة . قلنا : يجب أن يحكم بكفره . فتحيرنا في أمره وتوقفنا في حاله ، ووكلائه إلى أحكم الحاكمين ^(١) . وهذا خلاف بلا شك مع أهل السنة والجماعة ، ولكنه خلاف رقيق ، ويتضح منه قبول الصالحية لأسانيد أهل السنة ، والحديث عن العشرة المبشرين بالجنة ، وقد أنكره الإمامية ثم نرى - كما قلت - روحاً مرجئية ، أو تطبيقاً لمبدأ الإرجاء في عثمان رضى الله عنه .

أما النوبختي ، فقد اعتبر الزيدية المعتدلة أو الضعفاء هم العجلية : أصحاب هارون بن سعيد العجلي الكوفي ، وهو من أصحاب جعفر الصادق ، ومن نقل عنه كتاب الجفر ، واعتبر الصالحية والبرية فرقة من العجلية ، وعد من أصحاب العجلي - كثير النواء ، وهو الذي يدعى بالأبتر ، وكان أيضاً من رجال الحسن بن صالح ، ثم سالم بن أبي حفص والحكم بن عتيبة وسلمة بن كهيل وأبوالمقداد ثابت الحداد .

ويرى النوبختي أن آراء هذه الفرقة سواء سميت بالعجلية أو البرية : هي الدعوة إلى ولاية علي بن أبي طالب ثم خلطها بولاية أبي بكر وعمر . ويرى النوبختي « هم عند العامة أفضل الشيعة » وذلك أنهم يفضلون عليا ويثبتون إمامة أبي بكر ^(٢) .

ثانياً : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : كانت هذه الفرقة الممثلة حقيقة لهذا المذهب . آمنوا به ، وقد تفرع عنه فكرتهم في الخروج مع كل من ولد من علي عليه السلام عن طريق فاطمة . ويثبتون الإمامة لمن شهر سيفه من أولاد الحسن والحسين وكان عالماً زاهداً شجاعاً ، أى يثبتونها له عند خروجه ، وعليهم إذن القتال تحت رايته .

ثالثاً : إنكار التقية : ويتفرع عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر « إنكار التقية » فلا يكون إماماً من يفتي بالباطل على شيء بوجه من الوجوه ولا في حال من الأحوال . ولا يكون إماماً من يفتي تقية بغير ما يجب عند الله أو من يفتي على وجه التبخيث ، فيفتي يوماً بوجه ، ويوماً آخر بوجه ، فيفضل صحيحي العزم ممن يتدينو بإفتائه . ولا يكون إماماً من يرخي ستره ويغلق بابه . لا يسع الإمام إلا الخروج ^(٣) ، وفي هذا نقص كبير لمبادئ الإمامية .

أما الفرقة الثالثة الكبيرة من الزيدية فهي السلمانية وقد نسبت إلى مؤسسها سليمان بن جرير الرق ^(٤) وقد ظهر أبام المنصور ويبدو أنه كان إمامياً أول الأمر ، ثم كون فرقته بعد انفصاله عن جعفر

(١) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٦١ - ٢٦٢ .

(٢) النوبختي : فرق الشيعة ص ٥٧ .

(٣) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٥٩ ، والنوبختي : فرق الشيعة ص ٩ .

(٤) النوبختي : فرق ص ٦١ .

الصادق . وهو يوافق الصالحية في أن الإمامة شورى فيما بين الخلق ، ويصح أن تنعقد بعقد رجلين من خيار المسلمين . وأنها تصح في المفضل مع وجود الأفضل . فإمامة أبي بكر وعمر حق باختيار الأمة ، حق اجتهدى . ومن المرجح أن الأمة أخطأت في البيعة لها مع وجود الأفضل - على - خطأ لا يبلغ درجة الفسق . وذلك الخطأ خطأ اجتهدى . ثم يخالف الصالحية في عثمان . فقد طعن فيه للأحداث التي أحدثها ثم أعلن تكفيره وتكفير أصحاب الجمل - عائشة والزبير وطلحة بإقدامهم على قتال على . ثم اختلف سليمان بن جرير مع «الرافضة» أى الإمامية من أتباع جعفر الصادق . أومع جعفر نفسه . كان جعفر الصادق قد أعلن ولاية ابنه إسماعيل بن جعفر من بعده ، ولكن إسماعيل مات في حياة أبيه ، فلما سئل جعفر الصادق - أومن عقائد الإمامية أن الإمام يعلم غيب السموات والأرض ؟ قال : إن الله عز وجل بدا له في إمامة إسماعيل ، أى أن الأمر داخل في نطاق البداء ، بدا له أن يموت إسماعيل ولا يكون إماماً ، أى تغيرت مشيئته . فأنكر سليمان بن جرير إمامة جعفر نفسه فأنكر «البداء» «والمشيئة من الله» وقال لأصحابه «إن أئمة الشيعة وضعوا لشيعتهم مقاتلين لا يظهرون منها من أئمتهم على كذب أبداً ، وهما القول بالبداء وإجازة التقية (١) أما البداء ، فينكره سليمان بن جرير لأن أئمة الإمامية أحلوا لأنفسهم من شيعتهم محل الأنبياء من رعيتهما في العلم «فما كان ويكون» أى أن الأئمة حاملون للعلم الغيبى . «والإخبار بما يكون في غد» قالوا لشيعتهم «إنه سيكون في غد وفي غابر الأيام كذا وكذا» فإن حدث ذلك الشيء على ما قالوه . قالوا لهم «ألم نعلمكم أن هذا يكون ، فنحن نعلم من قبل الله عز وجل مثل تلك الأسباب التي علمت بها الأنبياء عن الله ما علمت» وإن لم يحدث الشيء على ما قالوه . قالوا لشيعتهم «بدا لله في ذلك بكونه» أى شاء الله غير ما أراد أولاً . ولهذا أنكر سليمان بن جرير البداء .

أما التقية ، فقد قرر سليمان بن جرير «أنه لما كثرت على الأئمة مسائل شيعتهم في العبادات من حلال وحرام ، أجابوا على تلك المسائل ، وحفظ عنهم شيعتهم ما سألوه وكتبوه ودونوه . ولم يحفظ الأئمة تلك الأجوبة لتقادم العهد وتفاوت الأوقات ، لأن مسائلهم لم ترد في يوم واحد ولا في شهر واحد ، بل في سنين متباعدة وأشهر متباعدة وأوقات متفرقة ، فوقع في أيديهم في المسألة الواحدة عدة أجوبة مختلفة متضادة وفي مسائل مختلفة أجوبة متفقة ، فلما وقفوا على ذلك منهم ردوا إليهم هذا الاختلاف والتخبط في جواباتهم وسألوهم عنه وأنكروهم عليهم ، فقالوا : من أين هذا الاختلاف وكيف جاز ذلك ؟ قالت لهم أئمتهم : إنما أجبنا بهذا التقية ولنا أن نجيب بما أجبنا ، وكيف شئنا لأن ذلك إلينا ونحن نعلم بما يصلحكم وما فيه بقاؤنا وبقاؤكم وكف عدوكم عنا وعنكم» يتساءل سليمان بن

(١) التويحيى : فرق . ص ٤٢ .

جرير «فتى يظهر من هؤلاء على كذب ، ومضى يعرف لهم حق من باطل ٩» (١) وهنا أنكر النقية ، ومالت نفسه إلى الزيدية ، قامن بها . وليس في الزيدية علم سرى ، ولا إمام معصوم ولا نقية ولا بداء . وكانت لحركة سليمان بن جرير أثر كبير في الشيعة إذ انفض عدد كبير منهم عن جماعة جعفر ابن علي ، وتركوا إمامته .

تلك هي الفرق الهامة من فرق الزيدية ، ولكن المسعودي يذكر «أن الزيدية كانت في عصره ثمانية فرق» (٢) فيضيف إلى الفرق الثلاثة السابقة الفرق الآتية : الموثية ، والأبرقية . ولا ينسبها إلى شخص من الأشخاص ، ثم يعقوبية : وهم أصحاب يعقوب بن علي الكوفي ، ثم العقبية ثم الإمانية : وهم أصحاب محمد بن إسمان الكوفي . وقد ذكر الأشعري هذه الفرقة الأخيرة باسم النعيمية : أصحاب نعم ابن إسمان . ويرى المسعودي أن هذه الفرق قد زادت في المذهب ، وفرعوا مذاهب على من سلف من أصولهم «ونلاحظ أن معظم تلك الفرق كانت كوفية ، فالكوفة إذن كانت مجالاً للجدل عنيف زيدي ، واختلافات زيدية . ويقول التوحيدي «سموا كلهم في الجملة زيدية إلا أنهم مختلفون فيما بينهم في القرآن والسنة والشرائع والفرائض والأحكام» (٣) .

أما الملطي - وهو أقدم مؤرخ للعقائد ، وتسود كتاباته روح سلفية - فقد اعتبر الزيدية من جملة الروافض . وعلل تسميتهم بهذا الاسم أنهم «صاروا بطعنهم على عثمان وتقدمهم علياً أرافضه يقال لهم الزيدية» (٤) فكل من رفض الخلفاء الثلاثة - في رأى الملطي - رافضة ومنهم : الإمامية لرفضهم الشيخين ، والزيدية لرفضهم عثمان - وإن كانوا يتولون الشيخين . ثم قسم الملطي الزيدية إلى أربع فروع :

الفرقة الأولى من الزيدية عنده : ولا ينسبها إلى شخص معين وإنما يقول هي أعظمهم قولاً ، وهم «الذين يذكرون الصدر الأول وسائر من يشتنون رأياً إذا خالفهم» (٥) أي أنهم يكفرون من ليس على مذهبهم . ويذكر الملطي أن هذه الفرقة ترى قتل المخالفين وسبي نساءهم ، وأخذ أموالهم وقتل أطفالهم . بل يراهم أشد أنواع الشيعة ضرراً «إنما هو بقدر ما يخرج الواحد منهم يضع السيف والحريق والنهب والسبي ولا يقصدون ولا يروعون» ويذكر أنه ظهر من هذه الفرقة محمد بن علي صاحب ثورة الزنج في البصرة فقتل مخالفيه وأطفالهم متأولاً «ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً» وبما لا شك فيه أن الملطي هنا يبالغ كثيراً في وصف هذه الفرقة ، وبما لا شك فيه أن في الزيدية شبيهاً بالخوارج - كما قلت - ولكن لا يصل

(١) التوحيدي : فرق . ص ٦٥ ، ٦٦ .

(٢) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ١٨٣ .

(٣) التوحيدي : فرق ص ٥٥ .

(٤) الملطي : التنبيه ص ١٥٦ .

(٥) الملطي : التنبيه ص ٣٨ ، ٣٩ .

إلى هذا الحد العنيف من قتل المخالفين وأطفالهم وسبي نسائهم . ومن العجب أنه يضع صاحب ثورة الزنج بن الزيد . فهل كان محمد بن علي زيدي ومن آل البيت ومن الغريب أن النوبختي يعتبر الجارودية : بين الغالية والتناسخية . ويقول : إنهم لا يفصحون بالغلو ، ويرون أن الله نور وأرواح الأئمة والأنبياء منه متولدة ، وينحون نحو التناسخ ولا يقولون بانتقال الروح من جسد إنسان إلى جسد غير إنسان أي أن التناسخ عندهم في نطاق النوع ، فتنتقل الروح من جسد إنسان ردىء إلى جسد إنسان مؤلم ممرض ، فيعذب فيه مدة بما عمل من الشر والفساد ثم تنقل إلى جسد إنسان متنع ، فتنع فيه طول ما بقيت في الجسد الأول ويرى الملطي . أن الجارودية تذكر أن هذا هو « الكور » فيكون معذباً أو مقيداً في جسد هرم أو ممرض أو مسقم . أو يكون منعماً في جسد شاب حسن مثلذذ ، وأنهم يستندون في ذلك لقول الله « أفعيننا بالخلق الأول ، بل هم في لبس من خلق جديد (١) » . لا ينسب أحد من مؤرخي العقائد مذهباً في التناسخ إلى الجارودية فهل أخطأ الملطي ، أم أن الجارودية دخلت في الغلو بعد وفاة مؤسسها وشاركت الغلاة في آرائهم ؟ . ليس لدينا من المصادر ما يؤكد هذا . إن من المحتمل أن الجارودية قد انصهرت في الإمامية وشاركتها في آرائها ولكن من البعيد جداً أن تنتهي إلى مذهب ثنوي بعيد كل البعد عن الإسلام . ثم يذكر الملطي الفرقة الثانية من الزيدية وهي التي تكفر السلف ويتبرأون من الشيخين ويتولون علياً وأبناءه ولكنهم لا يرون السيف - أي وضع السيف في رقاب المخالفين وقتلهم ، ولا استحلال نسائهم ولا أقوالهم .

أما الفرقة الثالثة عنده فهي فيما أرجح الصالحية وذلك أنه يذكر أنهم يقولون بأن الأمة ولت أبا بكر « اجتهداً » لا عناداً ، وأن الصحابة قصدوا الحقيقة فأخطأوا في الاجتهاد غير متعمدين ، وولوا مفضولاً على فاضل . ولم يكفروا أحداً من الصحابة . ويكاد يمدحهم الملطي - مع حديثه ومرارة قلمه - فيقول « وهم أصحاب سمت ، ويظهرون زهداً وعبادة وخيراً ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقولون بالعدل والتوحيد » وهذه أوصاف تنطبق تماماً على الصالحية البتية وبهنا أيضاً أنه يوجه الأنظار إلى معتزلة هذه الطائفة من الزيدية ، ثم يبين بحسم الاتفاق النهائي بين الزيدية وبين المعتزلة أو بينها وبين مدرسة كبيرة من المعتزلة فيقول : إن الفرقة الرابعة من الزيدية - هم معتزلة بغداد يقولون بقول الجعفرية - جعفر بن مبشر الثقفي وجعفر بن حرب الهمداني ومحمد بن عبد الله الإسكافي وهؤلاء أئمة معتزلة بغداد ، وهم زيدية يقولون : بإمامة المفضول على الفاضل . ويقول : إن علياً عليه السلام أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ لا يسبقه بالفضل أحد من الأمة وزعموا أن إمامة المفضول على الفاضل جائز ، لما ولي النبي ﷺ عمرو بن العاص على فضلاء المهاجرين والأنصار في غزوة ذات

اختلطت إذن بعض فرق الزيدية ببعض فرق المعتزلة ومن الواضح أن المعتزلة أثرت أثراً ينياً في الزيدية ، ولكن لم تأخذ كل فرق الزيدية بآراء المعتزلة في دقيق الكلام وجليله . اقترب البعض منهم من الأشاعرة ، واقترب البعض الآخر منهم من المعتزلة والبعض الثالث مزج بين بعض عقائد المعتزلة والأشاعرة ونعطي بعض الأمثلة على هذا : فجمهور الزيدية - في رأى الأشعرى - يقولون إن الله شيء لا كالأشياء ولا تشبه الأشياء . وهذا اتجاه سنى ، ولكنى الأشعرى يورد أيضاً أن فرقة أخرى من الزيدية تقرر أن البارى ليس بشيء ، ومثال آخر : إن سليمان بن جرير - يقرر أن الله عالم بعلم لا هوو ولا غيره ، وأن علمه شيء . قادر بقدرة لا هو ولا غيره وإن قدرته شيء . وكذلك سائر صفات الذات . وفرقة ثانية تقول : إن الله عالم قادر سميع بصير بغير علم وحياة وقدرة وسمع وبصر . وكذلك في سائر صفات الذات . أى ينكرون الصفات إنكاراً كاملاً . فالسليمانية أصحاب سليمان بن جرير - كما رأينا - وقد كان متكلماً ممتازاً وترك كتاباً في دقيق الكلام - يقترب إلى حد كبير في فكرته عن الصفات من أهل السنة والجماعة ، ويختلف إلى حد ما عن المعتزلة ، وتقترب الفرقة الثانية من المعتزلة ، ولكن سليمان بن جرير سرعان ما يتفق مع المعتزلة في إحالة القدرة : على الظلم لله « فالله عنده لا يوصف بالقدرة على أن يظلم ويجور ، ولا يقال لا يقدر : لأنه يستحيل أن يظلم ويكذب » وهذا اتجاه معتزلى . بل إن الاتجاه المعتزلى يصل أوجه عنده حين يسأل عن قدرة الله على ما علم أنه لا يفعله ، فيجيب : « إن هذا الكلام له وجهان : إن كان السائل يعنى ما علمه أنه لا يفعله مما جاء الخبر بأنه لا يفعله ، فلا يجوز القول يقدر عليه ، ولا يقدر عليه ، لأن القول بذلك محال وأما ما لم يأت به خبر ، فإن كان مما فى العقول دفعه ، فإن الله عز وجل لا يوصف به ، وأن من وصفه به محيل ، فالجواب فى ذلك مثل الجواب فيما جاء الخبر بأنه لا يكون وأما ما لم يأت به خبر ، وليس فى العقول ما يدفعه ، فإن القول إنه يقدر على ذلك جائز ، وإنما جاز القول فى ذلك لجهلنا بالمغيب فيه ، ولأنه ليس فى عقولنا ما يدفعه ، وأنا قد رأينا مثله مخلوقاً » وهنا نجد سليمان بن جرير معتزلياً ، بينما فرقة أخرى موافقة للاتجاه السلقى تقول : إن الله يوصف بالقدرة على أن يظلم ويكذب ولا يظلم ولا يكذب ، وأنه قادر على ما علم وأخبر أنه لا يفعله أن يفعله (٢) .

ويختلف الزيدية أيضاً فى خلق الأعمال ، ففريق منهم يرى أن أعمال العباد مخلوقة ، خلقها الله وأبدعها/واخترعها فهو الفاعل على الحقيقة ، وفرقة أخرى ترى أنها غير مخلوقة لله ولا محدثة وهى أكساب العباد ، أحدثوها واخترعوها وأبدعوها وفعلوها ، وقد أدى هذا إلى بحث الاستطاعة فى المجامع

(١) الملطى : التنبيه . . ص ٣٩ .

(٢) الأشعرى : مقالات ج ٢ ص ٥٥ - ٥٦ .

الزيدية : فهي عند البعض « مع الفعل والأمر قبل الفعل » وهذا رأى سنى . بينما يذهب سليمان بن جرير إلى أن الاستطاعة قبل الفعل وهى مع الفعل مشغولة بالفعل فى حال الفعل وإنما يستطيع الفعل إذا فعله ، ويرى أن الاستطاعة بعض المستطيع وأن الاستطاعة مجاورة له ، ممازجة كما مزجة الدهنين ، وهذا رأى معتزلى . وفرقة ثالثة ترى أن « الاستطاعة قبل الفعل وأن الأمر قبل الفعل وأنه لا يوصف الإنسان بأنه يستطيع الشيء قادر عليه فى حال كونه » وهذه معتزلية مشوبة بأشعرية (١) . فالزيدية إذن تردد بين المعتزلية وبين الأشعرية . وتختلف بينهما . هى بلا شك أقرب إلى المعتزلة ، ولكن ليس معنى هذا أنها لم تأخذ بعضاً من عقائد أهل السنة الكلامية . على أن عقائد الزيدية الكلامية تحتاج إلى بحث تركيبى متسع وتتبع لتطورات هذا الفكر وبخاصة لدى متكلم الزيدية الممتاز سليمان بن جرير .

* * *

وبعد : فقد تطورت الزيدية . أما فى الأصول - فيما يقول الشهر ستانى - « فيرجعون إلى رأى المعتزلة حذو القذة بالقذة ، ويعظمون أئمة الاعتزال أكثر من تعظيمهم أئمة أهل البيت وأما فى الفروع فهم على مذهب أبى حنيفة إلا فى مسائل قليلة يوافقون فيها الشافعى والشيعة » ثم يتكلم الشهر ستانى عن زيدية عصره فيقول : « وأكثرهم فى زماننا مقلدون لا يرجعون إلى رأى واجتهاد » (٢) وعصر الشهر ستانى كان القرن السادس الهجرى . ويبدو أن الزيدية بدأت تفقد خصائصها فى العراق وخراسان وتندمج فى الإمامية أيضاً فى ذلك القرن . فيقول الشهر ستانى : « ومالت أكثر الزيدية بعد ذلك عن القول بإمامة الفضول وطعنت فى الصحابة طعن الإمامية » (٣) . وانقرضت الزيدية فى كل مكان اللهم إلا اليمن فقد بقيت ، وفى مطلع هذا القرن ، انتشرت فيها فكرة عصمة الإمام وقداسته ، وسادها الفوكلور الإمامى على أشد ما يكون . وبذلك قطعت كل صلة بينها وبين المذهب الزيدى الحقيقى .

(١) الأشعرى : مقالات ج ١ ص ٧٢ ، ٧٣ .

(٢) الشهر ستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٢٦٤ .

(٣) الشهر ستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٢٥٤ .

البَابُ الرَّابِعُ

الشَّيْعَةُ الْإِمَامِيَّةُ

الفصل الأول

الإمام جعفر الصادق

لقد كان ظهور جعفر الصادق الحدث الأكبر في تاريخ الشيعة . لقد نسبت الشيعة الاثنا عشرية - وهم جمهرة الشيعة - إليه فلقبوا « بالجعفرية » ونسب الفقه الشيعي الاثنا عشرى إليه ، فأطلق عليه الفقه الجعفري وما أبعد آراء جعفر الصادق الكلامية وما أبعد فقهه عن آراء وكلام وفقه الاثنى عشرية بعد وفاة أو اختفاء الإمام الثاني عشر وتكون عقائد الشيعة الاثنى عشرية .

ولم يكن المذهب الشيعي الإمامي هو أبدا المذهب الاثنى عشرى . وإذا كان الشيعة الفاطمية الحسينية لم تختلف قبل الصادق ، ولم تختلف في عصره ، فقد اختلفت بعده ، فقد انقسمت إلى شيعة نقلوا الإمامة إلى ابنه موسى ، ليكون الإمام السابع - بعد أبيه الإمام السادس - في سلسلة مقدار عدد الأئمة فيها اثنا عشر ، وإلى شيعة نقلت الإمامة إلى ابنه إسماعيل الإمام السابع ، ليختتم دورة من دورات الأئمة عند بعضهم ، ودورة من دورات الأنبياء عند البعض الآخر ، وسمت الأولى اثني عشرية ، وسميت الثانية ، إسماعيلية . وكما نسب إلى جده الأكبر على بن أبي طالب ، كل علوم الدنيا والدين ، نسب إليه أيضاً كل العلوم سرية وفلسفية وصوفية وفقهية وكيميائية وطبيعية ، وكما اختلف المسلمون في جده الأكبر على ، اختلف فيه أيضاً ، فكان عند أهل السنة عالماً محدثاً ثقة ، وعند الشيعة الاثنى عشرية الإمام السادس ، وعند الغلاة نبياً وولياً وإلهاً . وعند الصوفية ، شيخها وكبيرها ، وعند أصحاب الكيمياء وعلوم الأوائل معلمها الكبير .

ولقد ولد جعفر بن محمد لأبيه الباقر عام ٨٠ هـ أى أنه ولد في السنة التي ولد فيها عمه زيد بن على والإمام أبو حنيفة النعمان وواصل بن عطاء شيخ المعتزلة الأول . أما أمه فهي أم فروة بنت القاسم ابن محمد بن أبي بكر ، فهو من جهة الأب ينتسب إلى رسول الله ﷺ ، ومن جهة الأم ينتسب إلى أبي بكر الصديق . وقد أخذ العلم وبخاصة الحديث عن جده لأبيه الإمام على زين العابدين ، وقد توفي زين العابدين وحفيده في الرابعة عشرة - وعن جده لأمه القاسم بن محمد بن أبي بكر . وكان من فقهاء المدينة السبعة الذين حملوا إلينا الفقه المدني . وقد مات القاسم بن محمد وجعفر الصادق في

الثامنة والعشرين من عمره . ولزم جعفر الصادق أباه محمد الباقر ، يأخذ عنه ، ويعيش في رحابه ، رحاب بيت النبوة ، يرشف من منابعه . ولما مات أبوه ، وهو في الرابعة والثلاثين ، انتقلت إليه الإمامة الروحية للشيعة الإمامية ، فكان في نسقها الإمام السادس . وكان عمه زيد يتزعم حركته السياسية التي تكلمن عنها في الباب السابق . ولم يعاد أحد منهم الآخر . بل أعلن الإمام زيد « من أراد الجهاد فإلى ، ومن أراد العلم فإلى ابن أخي » ، ويقول جعفر الصادق نفسه : « القائم إمام سيف ، والقاعد إمام علم » وقد ترك الصادق القيام لعمه زيد . وبقي هو إماماً قاعداً يمشي بالعلم الإسلامي إلى أوجه ، فبقي حتى وفاته عام ١٤٨ هـ - منقطعاً تمام الانقطاع للعلم ممثلاً للإمامة الروحية للمسلمين جميعاً . واعتبره أهل السنة رجلاً من صالحى أهل البيت ، وإماماً من أعظم أئمة المسلمين ومحدثاً ثقة أفاض على الناس علمه ، ويصفه الشهرستاني بأنه « ذو علم غزير ، وورع تام عن الشهوات ، وقد أقام بالمدينة مدة يفيد الشيعة المنتمين إليه ، ويفيض على الموالين له أسرار العلوم ، ثم دخل العراق ، وأقام بها مدة ، ما تعرض للإمامة قط ، ولا نازع أحداً في الخلافة ، ومن غرق في بحر المعرفة لم يطمع في شط ، ومن تعلّى إلى ذروة الحقيقة لم يخف من حط ، وقيل من آنس بالله توحش عن الناس ، ومن استأنس بغير الله نهى الوسواس ، وهو من جانب الأب ينتسب إلى شجرة النبوة ومن جانب الأم ينتسب إلى أبي بكر رضى الله عنه ، وقد تبرأ عما كان ينسب بعض الغلاة إليه وتبرأ عنه ، ولعنه وبرئ من خصائص مذاهب الرافضة وحماقاتهم من القول « بالغيبة والرجعة والبداء والتناسخ والحلول والتشبيه » (١) . هذا ما رآه أهل السنة والجماعة في الصادق رجلاً بلغ مرتبة الاجتهاد في العلم الفقهي ووصل إلى قمة العلم اللدني . ولا عجب بعد ذلك أن اعتبره صوفية أهل السنة في سلسلة مشايخهم الكبار اجتمع فيه إلى نهاية مقام العرفان ، الدم النبوي المقدس . وإذا كان البخاري لم يرو عنه حديثه فلم يكن علة هذا ضعف حديثه وإنما السبب في هذا - ما يقوله شريك بن عبد الله : « إن جعفرأ كان رجلاً صالحاً مسلماً ورعاً ، فاكتنفه قول جهال يدخلون عليه ويخرجون من عنده ويقولون : حدثنا جعفر ابن محمد ويحدثون بأحاديث كلها منكرات كذب موضوعة على جعفر يستأكلون الناس بذلك ويأخذون الدراهم » (٢) . وبالرغم من هذا نجد ابن تيمية - وهو عالم السلف المتأخر ، والذي لم يسلم أحد من قلمه حتى الصحابة والتابعين وأئمة المذهب الأشعري العظماء - يكن لجعفر الصادق أكبر الاحترام ويعتبره هو وأباه وجده خير أهل البيت جميعاً بعد الإمام على . وذهب الذهبي - وهو مؤرخ طبقات الرجال ، وناقد المحدثين - إلى أن جعفرأ « هو أحد الأئمة الأعلام بر صادق كبير الشأن » (٣) .

(١) الشهرستاني : الملل ح ١ ص ٢٧٢ . (٢) الذهبي : ميزان الاعتدال ج ٢ ص ٢٨٥ .

(٣) الشيبى : الصلة بين التصوف والتشيع ص ١٨٩ .

هذا هو رأى أهل السنة فى الإمام جعفر الصادق : رجلاً متعبداً دينياً فقهاً محدثاً من أعلام أهل

البيت .

أما الشيعة فيقدمون لنا صورة مخالفة لجعفر الصادق . فهو الإمام السادس عند الاثنى عشرية ، انتقلت إليه الوصية ، كما انتقل إليه العلم الربانى جميعه . وينسب الجفر الأبيض إليه . « ويحتوى الجفر الأبيض - فى رأى الشيعة - على زبور داود وتوراة موسى والإنجيل عيسى وصحف إبراهيم وفيه أيضاً الحلال والحرام أى الفقه ومصحف فاطمة ، فيه كل ما يحتاج إليه الناس ، كما يحتوى الجفر أيضاً على أخبار الملوك المتعاقبين وأسماء آبائهم من ملك يملك إلا وهو مكتوب فيه اسمه واسم أبيه . ونسب إلى جعفر الصادق القول « ورب الكعبة لو كنت بين موسى والخضر لأخبرتهما أنى أعلم منهما ولأنبأتها بما ليس فى أيديهما . لأن موسى والخضر عليهما السلام أعطيا علم ما كان ، ولم يعطيا علم ما يكون وما هو كائن ، حتى تقوم الساعة ، وقد ورثناه من رسول الله وراثته (١) .

وقد ذكر ابن خلدون أن هارون بن سعيد العجلي هو الذى روى الجفر عن جعفر الصادق . « وفيه علم ما سيتبع لأهل البيت ولبعض الأشخاص منهم على الخصوص » ويفسر ابن خلدون هذا بأنه وقع ذلك لجعفر كما يقع لنظرائه من الأولياء على طريق الكرامة والكشف . ونحن نعلم أن هارون بن سعيد العجلي زيدى ، أنشد فيما بعد شعراً يتبرأ فيه من الجفر ومن كل غال فى جعفر الصادق . ويبدو أن الجفر وأشباهه من كتب سرية قد وضعت فى القرن الرابع الهجرى - وأنها زيفت بكل أنواع الزيف وأنها دخلت عقائد الشيعة الاثنى عشرية فيما بعد - حين صور الإمام - بأنه مبدأ المعرفة ، كما هو مبدأ الوجود ، ثم أخذت صورتها الكبرى عند الإسماعيلية .

أما حقيقة الأمر فهو أن جعفر الصادق كان من هذا النوع من المحدثين ، أو الملهمين ، وأنه ألهم وأخبر بقتل محمد بن عبد الله بن الحسن - المعروف بالنفس الزكية - ، وأخيه إبراهيم . بل أعلن فى مجمع الهاشميين فى الحجاز حين اجتمعوا لمبايعة النفس الزكية أنه لن يملك ، بل سيخرج ويقتل . وأن الأمر إلى بنى العباس ، يتداولونه واحداً بعد واحد حتى تملكهم النساء والغلمان . وأنه أيضاً - وعلى طريقة الكشف - أشار إلى أبى جعفر المنصور وذكر أنه هو قاتل الاثنى عشرية . وقد نازعه شيخ العلويين عبد الله بن الحسن الأمر حينئذ وأنكر عليه العلم بالغيب وأنه إنما حسد ابنه محمد بن عبد الله ، وحين تم الأمر كما حدث جعفر ، دعاه المنصور بالصادق . هذا النوع من الإلهام الذى عرف عن الرجل فتن الشيعة به فحملوه علم ما كان وما سيكون . وحيكت الأسطورة وكتبت الكتب ونسبت إلى الإمام . وقد أعلن هو نفسه تبرؤه من هذه الدعوى . ولكن هذا « الإلهام » أو هذا « التحديث » الذى عرف به الصادق

(١) الكليني : الكافي ص ١٥٧ .

انقلب في عقائد الشيعة الاثني عشرية والإسماعيلية إلى فكرة العنصر الاستمولوجي في الإمام ، فالإمام هو منبع المعرفة ومصدرها وواهبها .

ولم يكن الشيعة يجعل الصادق ينطق بفكرة الإمام الغنوصي ، بل جعلوه ينطق أيضاً بفكرة الإمام الكوزمولوجي - أي الكوني ، فالإمام هو عنصر الوجود ، فعنصر الوجود الأول هو نور ، هو أول ما أبدع الله ، هذا النور هو صورة محمد ﷺ ، ثم انتقل - بعد أن بعث الله الخلق - في آدم ثم في الأصلاب الطاهرة ، إلى أن ظهر أخيراً في محمد الرسول ، ثم في أعقاب الأئمة . وهذه هي فكرة النور المحمدي التي أثرت أكبر التأثير في فرق المسلمين المختلفة ، في أهل السنة والجماعة أنفسهم ، وما زال المؤذنون في كثير من بلاد السنة ، ينادون من أعلى المآذن بالصلاة على أول خلق الله ، ثم دخلت في عقائد الصوفية ، معتدلة وغلاة .

ويقدم لنا المسعودي الصورة الأولى لفكرة النور المحمدي ، منشأ الوجود ، وظهور هذا النور قبل الموجودات ، وينسبها إلى جعفر الصادق ، ويوردها رواية عنه ، فيقول « إن الله حين شاء تقدير الخلق وذرة البرية وإبداع المبدعات ، نصب الخلق في صورة كالهباء قبل دحو الأرض ورفع السماء ، وهو في انفراد ملكوته وتوحد جبروته ، فأتاح نوراً من نوره فلمع ، ونزع قبسا من ضيائه فسطع ، ثم اجتمع النور في وسط تلك الصور الخفية فوافق ذلك نبينا محمد ﷺ . فقال الله عز من قائل : أنت المختار المنتخب وعندك مستودع نوري ، وكنوز هدايتي ، من أجلك أسطح البطحاء ، وأموج الماء ، وأرفع السماء ، وأجعل الثواب والعقاب والجنة والنار » هذا هو النور المحمدي الأول ، أنطق فكرته الشيعة على لسان جعفر كما قلت . ثم تذهب الرواية إلى أن الأرض أو خلق الأرض إنما كان لأجل هذا النور . ويمضي المسعودي قائلاً - على لسان جعفر - إن الله في القديم خاطب محمداً فقال : « وأنصب أهل بيتك للهداية ، وأوتيتهم من مكنون علمي مالا يشكل عليهم دقيق ولا يعيبهم خفي ، وأجعلهم حجتي على بريتي ، والمنبين على قدرتي ووحدانيتي ، ثم أخذ الله الشهادة عليهم بالربوبية والإخلاص بالوحدانية » ولقد آمن أهل السنة بالميثاق في عالم الذر ، وهو أن فطر الناس ، وهم في أصلاب آبائهم على التوحيد ، وأقر الخلائق وهم في عالم الذر بالتوحيد ولكن الشيعة ترى الميثاق على غير هذا - إنه قيل إن أخذ ما أخذ جل شأنه ببصائر الناس انتخب محمداً وآله ، وأراهم أن الهداية منه والنور له والإمامة في آله ، تقديماً لسنة العدل ، وليكون الإعذار متقدماً ، فهم إذن ميثاق الله على البشر ، آمنوا بالله بتوحيده خلال محمد وآله ، وهم في عالم الذر ، ثم أخفى الله الخليفة في غيبه وغيبها في مكنون علمه « ثم خلق الله الكون ، نصب العوالم ، وبسط الزمان ، وموج الماء ، وأثار الزبد ، وأهاج الدخان ، فطفأ عرشه على الماء ، فسطح الأرض على ظهر الماء ، ثم استجابت الأرض والسماء إلى الطاعة .

فأذعنا بالاستجابة ، ثم أنشأ الله الملائكة من أنوار أبدعها وأرواح اخترعها ، وقرن توحيده بنبوة محمد ﷺ . فشهره في السماء قبل أن يبعثه في الأرض ، فلما خلق الله آدم أبان فضله للملائكة وأراهم ما خصه به من سابق العلم ، حيث عرفه عند استنبائه إياه أسماء الأشياء فجعل الله آدم محرراً وكعبة وباباً وقبة أسجد إليها الأبرار والروحانيين الأنوار ، ثم نبه آدم على مستودعه وكشف له عن خطر ما ائتمنه عليه . بعد ما ساءه إماماً عند الملائكة ، فكان حظ آدم من الخير ما أواه من مستودع نورنا . انتقل النور المحمدي إلى آدم ، وكان آدم إماماً مستودعاً .

وأخذ النور ينتقل - وهو مخبوء - « ولم يزل الله تعالى يخفي النور تحت الزمان إلى أن وصل محمدنا ﷺ في ظاهر الفترات . فدعا الناس ظاهراً وباطناً ، وندبهم سرّاً وإعلاناً » فالنور إذن اختتم النبوة بمحمد ﷺ .

وكانت رسالة الرسول « هي التنبيه على العهد الذي قدمه إلى الذر قبل النسل ، فمن وافقه واقتبس من مصباح النور المقدم اهتدى إلى سيره ، واستبان واضح أمره ، ومن ألبسته الغفلة . استحق السخط » .

ولكن هل توقف النور واختتم بمحمد ﷺ . كما يذهب بعض مفكري أهل السنة من الذين قبلوا فكرة النور المحمدي ؟ « وانتقل النور إلى غرائزنا ولمع في أئمتنا ، فنحن أنوار السماء وأنوار الأرض . فبنا النجاة . ومنا مكنون العلم وإلينا مصير الأمور . ومعهدينا تنقطع الحجج ، خاتمة الأئمة ومنقذ الأمة وغاية النور ، ومصدر الأمور ، فنحن أفضل المخلوقين ، وأشرف الموحدين . وحجج رب العالمين فليهنأ بالنعمة من تمسك بولايتنا وقبض عروتنا » (١) فالنور الأول نور محمد القديم . انتقل في باطن الأئمة واحداً بعد واحد ولمع فيهم . فهم نور السموات والأرض ومن تولاهم نجاً بتوليهم . إن نهايات الأمور إليهم ، ومصير الناجين في أيديهم وهذه هي « ولاية الإمام » المشهورة في العقيدة الاثني عشرية لأنه كما لدى الإمام حنايا العلم وخفاياه فيبيده أمره الكوني . وينتهي الأمر كله إلى المهدي الأخير ، وهو الحجة البالغة على الخلق وخاتمه أو غاية النور الأخيرة وكما لها .

وهكذا جعل الشيعة جعفر الصادق يطلق هذه الغنوصيات ويذكر مصطلح الإمام المستودع ، فالنظرية هنا ، تردد بين غنوص الثنوية الفارسية - وبخاصة وهي تستخدم فكرة النور - وبين الأفلاطونية المحدثة وهي تتكلم عن فكرة الهباء ، وبين غنوص المسيحية في الكلمة . لقد وضع الشيعة

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ١ ص ٢٢ ، ٢٣ .

من قبل على لسان الباقر قوله « إن الأئمة معصومون وإن أهل البيت خالصون من ارتكاب المعاصي ، والأرض هي ملك للأئمة » والنقد الداخلي لآراء محدث من كبار المحدثين ، وتابعي من أعظم التابعين ، ثم عالم من أهل البيت العظيم ، يقرر عدم صدور مثل هذه الأقوال عن الباقر . فهل الأمر كذلك مع جعفر الصادق ؟ إنى أميل إلى الترجيح بأن هذه النظرية ليست لجعفر الصادق ، وأن من الأولى أن ننسبها إلى الغلاة من بعده ، ولعلها من ابتكارات أواخر القرن الثالث وأوائل العقود الأولى من القرن الرابع . وفيها روح إسماعيلية أكثر منها إمامية أو اثني عشرية . ولكن الإمامية بعده ثم الاثني عشرية قبلوها تماماً في عقائدهم ، وهذا أمر يدعو إلى العجب .

وقد نتج عن التسليم بفكرة النور المحمدي وانتقاله في الأئمة ، أن أصبح الإمام « معصوماً » على أن يكون « منصوباً عليه » ، ونتج عن عصمته ظهور المعجزات منه وقد نسب كل هذا إلى جعفر الصادق ، كما نسب إليه البداء - في صورته الكاملة - ونسب إليه الرجعة والتقية . وهذه آراء تنسب له ، وأجزم بأنها ليست له إطلاقاً . فإن النقد الداخلي والخارجي لها يثبت أنها بعيدة عن نفس الإمام كما أنها بعيدة عن عصره إطلاقاً . وما يهمننا أن نوضحه الآن هو أن عقائد الشيعة الإمامية - كفرقة - تنسب كلها إلى جعفر الصادق كما أن عقائد الشيعة الاثني عشرية تنسب إليه أيضاً إن حقاً وإن باطلاً . وأخيراً نسبت إليه آراء جابر بن حيان الكيميائية .

وبعد : فلقد تعرض الصادق لحن متعددة في عهد هشام والوليد وإبراهيم ومروان - من الأمويين ، وفي عهد المنصور العباسي ، وقد تتبع هؤلاء أهل بيته بالقتل الذريع ، وامتنحن الرجل أشد امتحان ، وصبر جعفر بن محمد على كل مانزل به من محن واضطهاد ، وتضييق وتشريد ومهانة . وتذكر المصادر الشيعية أن المنصور أمر بإحراق داره فتخطى النار ثم مشى فيها . وهو يقول : أنا ابن أعراق الثرى . أنا ابن إبراهيم الخليل .

وأخيراً . وفي عام ١٤٨ مات جعفر الصادق ، ولا تهمننا حياته السياسية ولكن ما يهمننا هو ما ترك من أثر في الفكر الفلسفي في العالم الإسلام . إن الاثني عشرية تنسب عقائدها المعتزلية إليه ، كما تنسب الإسماعيلية عقائدها إليه .

ومن بعده - كما قلت - اختلفت الشيعة ، فالسابع عند الاثني عشرية ، غيره عند طائفة نشأت ونسبت إلى ابنه الأكبر - إسماعيل - واختلفت في السياسة أنظار كل من الفريقين ، كما اختلفت أيضاً في فلسفة العقيدة .

ونسب إلى جعفر الصادق العلم السرى ، كما نسب إليه التصوف - وتعددت المدارس من غلاة ومعتدلين ومقتصدين . وكما ادعته الشيعة ، ادعته السنة .
غير أن أهم مدرسة تعبر عن آرائه ، وعاصرته ، وحظيت منه بالتأييد ، هي مدرسة مجسمة الإمامية ، ورأسها هشام بن الحكم .

الفصل الثاني

مجسمة الشيعة الإمامية

كان لابد أن تظهر حول جعفر الصادق - حول لسان المذهب وواضعه - مدرسة كلامية تفتق الكلام في الإمامة وتخوض « دقيق الكلام وجليله » تجاه الفرق الأخرى التي كان يضطرم بها العالم الإسلامي إبان ذلك الوقت . ومن العجب أن هذه المدرسة ورجالها الكبار كانوا أبعد فكراً ومنهجياً عن مدرسة المعتزلة التي اختلطت عقائدها في وقت متأخر بعقائد الشيعة الاثني عشرية . لقد كان العمل الأساسي لهذه المدرسة معارضة المعتزلة بالذات ، ومجادلة أهل الاعتزال بكل وسائل الجدل ، وكان أهم ما يميز هذه المدرسة ، كما سنرى فيما بعد - فكرة التجسيم - معارضة لفكرة التنزيه المطلق عند مشيخة المعتزلة . ويرى الأشعري - وهو مؤرخ العقائد العتيق - أن أوائل الإمامية كانوا ينادون بالتجسيم والتشبيه أما من قالوا منهم بأن الله ليس بجسم ولا صورة ولا يشبه الأشياء ولا يتحرك ولا يسكن ولا يماس ، وأخذوا بقول المعتزلة والخوارج في التوحيد « فهؤلاء قوم من متأخريهم ^(١) » بل يؤكد الأشعري انتشار فكرة الجسمية لدى الشيعة الإمامية ، فيعرض لمذاهبهم في التجسيم في فصل خاص . ونحن لا نجد جدالاً عنيفاً أو هاماً بين هذه المدرسة وبين مدرسة أهل الحديث ، سلف أهل السنة والجماعة ، في مجال العقائد ، والسبب في هذا هو أن التجسيم أيضاً انتشر لدى طائفة من أهل الحديث ، وإن كان مذهب أهل السنة والجماعة ينكر التجسيم والتشبيه ، ونحن نرى أيضاً - في عصور متأخرة - مفكر السلف ابن تيمية يناقش الإمامية الاثني عشرية المختلفة بعقائد المعتزلة ، ولا يهاجم إطلاقاً مجسمة الشيعة ، بل يكاد يمسه برفق . وقد ذكر النوبختي وجوه أصحاب جعفر الصادق مثل هشام بن الحكم وهشام بن سالم ووزارة بن عيين ومحمد بن النعمان أبي جعفر الأحول مؤمن الطاق « وجوه الشيعة وأهل العلوم منهم والنظر والفقه » ^(٢) أما الخياط المعتزلي ، فقد اعتبر هؤلاء الشيعة المجسمة « حشواً أهل الإمامية » ^(٣) فهو يضعهم مقابلاً لحشواً أهل الحديث ، ويبدو أنه كانت هناك صلة بين مشيخة الإمامية ومشيخة أهل الحديث يقول الشهرستاني ؛ وكان التشبيه بالأصل والوضع في الشيعة ، وإنما عادت إلى بعض أهل السنة بعد ذلك « فالشيعة إذن أول المشبهة والمجسمة في العالم الإسلامي وهم الذين نقلوا

(١) الأشعري : مقالات ج ١ ص ٣٤ ، ٣٥ .

(٢) النوبختي : فريق الشيعة ص ٧٨ ، ٧٩ .

(٣) الخياط : الانتصار ص ١ .

هذه الأفكار التجسيمية إلى أهل السنة : والجماعة « ثم تمكن الاعتزال فيهم لما رأوا ذلك أقرب إلى المعقول وأبعد من التشبيه والحلول » (١) بل إن من متأخري الإمامية أيضاً من بقى على تشبيهه وتجسيمه « ثم لما اختلفت الروايات عن أئمتهم وتمادى الزمان ، اختارت كل فرقة طريقة ، وصارت الإمامية بعضها معتزلة إما وعيدية وإما تفضيلية ، وبعضها إخبارية إما مشبهة وإما سلفية » (٢) .

وفي نص من أهم النصوص يقدمه لنا ابن تيمية ، يثبت تمام الإثبات أن متكلمي الشيعة الأوائل كانوا مجسمة ، يقول ابن تيمية « وكان متكلمو الشيعة كهشام بن الحكم وهشام بن سالم الجواليقي وأمثالهم يزيدون في إثبات الصفات على مذهب أهل السنة ، فلا يقتنعون بما يقوله أهل السنة والجماعة من أن القرآن غير مخلوق ، وأن الله يرى في الآخرة ، وغير ذلك من مقالات أهل السنة والحديث » ويرى ابن تيمية أن قدماء الشيعة غلوا في الإثبات والتجسيم والتبعيض والتمثيل وقد انتشرت مقالاتهم في هذا بين الناس ، ولكن في أواخر المائة الثالثة دخل كثير من الشيعة في أقوال المعتزلة كابن النوبختي صاحب كتاب الآراء والديانات وأمثاله وجاء بعد هؤلاء المفيد بن النعمان وأتباعه . ويقرر ابن تيمية أن مؤرخي الفرق كالأشعرى وغيره لا يذكرون عن أحد من الشيعة أنه وافق المعتزلة في توحيدهم وعدلهم إلا بعض المتأخرين ، وإنما يذكرون عن بعض قدمائهم التجسيم وإثبات القدر وغيره . أما أول من عرف عنه في الإسلام أنه قال إن الله جسم ، هو هشام بن الحكم ، بل إن الجاحظ يذكر في كتابه حجج النبوة : ليس على ظهرها رافضي إلا وهو يزعم أن ربه مثله ، وأن البدوات تعرض له ، وأنه لا يعلم الشيء قبل كونه إلا بعلم يخلقه لنفسه (٣) .

ويذكر ابن تيمية أن الشيعة فيهم طوائف تثبت القدر وتنكر مسائل التعديل والتجوير . ويرى أن المعتزلة هم القائمون بالتعديل والتجوير ، وأن شيوخ الرافضة المتأخرين كالمفيد والموسوي والطوسي والكراجلي وغيرهم إنما أخذوا ذلك من المعتزلة ، وإلا فالشيعة القدماء لا يوجد في كلامهم شيء من هذا (٤) .

وأبرز ممثل لمدرسة الصادق هو هشام بن الحكم (١٣٥) ، وهشام بن الحكم أكبر شخصية كلامية في القرن الثاني . شغل جميع المجالس العقلية في عصره وخاض معارك كلامية وفلسفية من أدق المعارك مع مخالفي المذهب الإمامي . أما اسمه فهو هشام بن الحكم ، البغدادي - الكندي مولى بني شيان وكنيته أبو محمد أو أبو الحكم « نشأ بالكوفة ، وانتقل إلى بغداد ، وكان يتردد على المدينة ، وعاش بها مدة بجوار الإمام جعفر بن محمد الصادق . ويذكر ابن النديم أنه من أصحاب أبي عبد الله بن محمد

(١) الشهرستاني : الملل ج ١ ص ٢٨٩ . (٢) الشهرستاني : الملل ج ١ ص ٢٧١ .

(٣) ابن تيمية : منهاج السنة - تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم - ج ١ ص ٤٥ - ٤٧ .

(٤) ابن تيمية : منهاج السنة ج ١ ص ٨٥ .

الصادق وهو من متكلمي الشيعة الإمامية ، ومن دعا له الصادق عليه السلام فقال : أقول لك ما قال رسول الله ﷺ : لا تزال مؤيداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك » ويرى أيضاً أنه هو الذي فتى الكلام في الإمامة وهذب المذهب وسهل طريق الحجاج فيه ، وكان حاذقاً بصناعة الكلام حاضر الجواب (١) .

أما عن دراسته ، فيبدو من ثبت كتبه أنه درس كل ما كان في عصره من فلسفات ومذاهب ، وأنه تعمق فيها أكثر من جميع معاصريه ، فله كتب في الرد على الزنادقة والنووية ، كما أنه له كتاباً في الرد على أصحاب الطبائع ، ومن المحتمل أن بعض كتب أرسطوطاليس قد وصلته ، فكتب ينقض على أرسطوطاليس ، ثم من الثابت أيضاً أنه كتب في نقد نظرية الجزء الذي لا يتجزأ . فالرجل إذن كان على ثقافة واسعة عميقة بالفلسفة والكلام والسياسة ، وأنه بهر الإمام جعفر الصادق بما لديه من معرفة واسعة . وأنه عاصر حركة الترجمة التي بدأها المنصور ورعاها الرشيد ، ثم بلغت أوجها لدى المأمون وقد كان منقطعاً إلى يحيى بن خالد البرمكي ، والبرامكة اعتنوا بالعلم القديم وساعدوا على نقله أيضاً بل ويقول ابن النديم إنه كان القيم بمجالس يحيى بن خالد البرمكي الكلامية والنظرية . ويذكر أنه كان يسكن الكرخ في بغداد ، ثم توفي بعد نكبة البرامكة بمدة مستترا ، وقيل في خلافة المأمون .

أما أسماء كتبه فهي على ما يذكر ابن النديم : الإمامة ، الدلالات على حدوث الأشياء ، الرد على الزنادقة ، الرد على أصحاب الاثني عشر ، كتاب التوحيد ، الرد على هشام الجواليقي ، الرد على أصحاب الطبائع ، الشيخ والغلام ، التدبير ، الميزان الرد على من قال بإمامة المفضل ، اختلاف الناس في الإمامة ، الوصية والرد على من أنكرها ، في الجبر والقدر ، الحكيم ، الرد على المعتزلة في طلحة والزبير ، القدر ، المعرفة . الاستطاعة ، كتاب الثمانية الأبواب ، الرد على شيطان الطاق ، الأخيار كيف يفتح كتاب على أرسطوطاليس في التوحيد ، المعتزلة وهذا الثبت من كتبه يدل على عمق معرفته أنواع الفلسفات المعروفة في عصره ، وعلى ما كان للرجل من مكانة كبرى في دوائر المتكلمين . وقد نشأ هشام بن الحكم في الكوفة أولاً جهماً ، فتابع آراء جهم بن صفوان (٢) ، ويبدو هذا في نظريته عن العلم ، ثم قابل على بن إسماعيل بن شعيب بن ميثم التمار (توفي عام ١٧٩) ، وميثم كان من أصحاب على ، أما حفيده فقد سكن البصرة ، وكان من كبار متكلمي الروافض ، وأول من كتب منهم كتاباً ، وقد ناظر أبا الهذيل عند أمير البصرة ، ثم قابله هشام بن الحكم وحضر مجالسه (٣) وقد كان

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٢٧٥ - ٢٨٣ . (٢) الشيخ المفيد : أوائل المقالات ٣٧ . ٣٨ .

(٣) الطوسي : الفهرست ص ٧٧ ولسان الميزان ج ٢ ص ٢٦٥ .

على بن إسماعيل هو أول من وجه هشاماً إلى المذهب الإمامي ، وسيسير على نهجه فيما بعد - ويناقدش المعتزلة نقاشاً عنيفاً ، بحيث يقول الشهرستاني : « وهذا هشام بن الحكم صاحب غور في الأصول لا يجوز أن يغفل عن إزماته على المعتزلة فإن الرجل وراء ما يلزمه على الخصم ، ودون ما يظهره من التشيع » كما ذكر الشهرستاني إزماته على أبي الهذيل العلاف (٢) . كما أن المسعودي أيضاً يذكر مناقشات هشام مع أبي الهذيل العلاف ومع عمرو بن عبيد . « قد كان أبو الهذيل هذا اجتمع مع هشام ابن الحكم الكوفي الحراري . وكان هشام شيخ المجسمة والرافضة في وقته ممن وافقه على مذهبه » وهذا صريح من المسعودي الشيعي أن الرافضة كانوا مجسمة . ثم يذكر أن « أبا الهذيل يذهب إلى نفي التجسيم ورفع التشبيه وإلى ضد قول هشام في التوحيد والإمامة » ثم يورد المسعودي المناقشة : قال هشام لأبي الهذيل : إذا زعمت أن الحركة ترى فلم لازعت أنها تلمس ؟ فقال : لأنها ليست بجسم ، لأن اللمس يقع على الأجسام فقال له هشام : فقل أيضاً أنه لا ترى ، لأن الرؤية إنما تقع على الأجسام . فرجع أبو الهذيل سائلاً فقال له : من أين قلت إن الصفة ليست الموصوف ولا غيره ؟ قال هشام : من قبل أنه يستحيل أن يكون فعلي أنا . ويستحيل أن يكون غيري ، لأن التغاير إنما أوقعه على الأجسام والأعيان القائمة بأنفسها ، فلما لم يكن فعلي قائماً بنفسه ، ولم يجر أن يكون فعلي أنا . وجب أنه لا أنا ، ولا غيري . وعلة أخرى أنت قائل بها زعمت - يا أبا الهذيل أن الحركة ليست بماسة ، ولا مباينة ، لأنها عندك مما لا يجوز عليه الماسة ولا المباينة ، فلذلك قلت أنا : إن الصفة ليست أنا ولا غيري علتك في أنها لا تماس ولا تنقطع ، فانقطع أبو الهذيل ولم يرد جواباً .

ثم يورد المسعودي بعض مناقشات هشام مع عمرو بن عبيد . وهذه المناقشات تدور حول الإمامة ، ولكن سرعان ما تدخل في لطيف الكلام وجليله ، فبينما يذهب هشام إلى أن الإمامة نص من الله ورسوله على علي بن أبي طالب وولده ، يذهب عمرو إلى أنها اختيار من الأمة في سائر الأعصار : ويسأل هشام عمرو بن عبيد لم خلق الله لك عينين ؟ قال : لأنظر بهما إلى ما خلق من السموات والأرض وغير ذلك فيكون ذلك دليلاً لي عليه . فقال هشام : لم خلق الله لك سمعاً ؟ قال عمر : لأسمع به التحليل والتحريم والأمر والنهي . فقال له هشام : فلم خلق الله لك قلباً ؟ قال عمرو : لتكون هذه الحواس مؤدية إليه ، مميزاً بين منافعها ومضارها . قال هشام : فكان يجوز أن يخلق الله سائر حواسك ولا يخلق لك قلباً تؤدي هذه الحواس إليه . قال عمرو : لا . فقال هشام : ولم ؟ قال : لأن القلب باعث لهذه الحواس على ما يصلح له ، فلما لم يخلق الله منها أنبعاثاً من نفسها استحال أن لا يخلق لها باعثاً يبعثها على ما خلقت له ، إلا بخلق القلب ، فيكون هو الباعث لها على ما تفعله ، والمميز لها بين

مضارها ومنافعها . فقال هشام : ويكون الإمام من الخلق بمنزلة القلب من سائر الحواس ، إذ كانت الحواس راجعة إلى القلب لا إلى غيره ، ويكون سائر الخلق راجعين إلى الإمام لا إلى غيره ، فلم يأت عمرو بفرق يعرف .

وقد جمع هذه المجالس والمناقشات أبو عيسى محمد بن هارون الوراق المتوفى عام ٤٤٧هـ في كتابه المجالس ، وقد نقل منه المسعودي (١) .

إن ما أود أن أنتهى إليه هو أن هشام بن الحكم كان أكبر شخصية فلسفية في عصره ، ومن أكبر تلامذته النظام فيلسوف المعتزلة الكبير . يقول البغدادي إن النظام « خالط هشام بن الحكم الرافضي فأخذ عن هشام وعن ملحدة الفلاسفة قوله بإبطال الجزء الذي لا يتجزأ أو بنى عليه قوله بالطفرة وأخذ عن هشام بن الحكم قوله بأن الألوان والطعوم والروائح والأصوات أجسام وبنى على هذه البدعة قوله بتداخل الأجسام في حين واحد » ويبدو أثر هشام بن الحكم كبيراً جداً في معظم المذهب النظامي ، إن النظام لم يذهب إلى جسمية الله ، ولكنه ذهب إلى جسمية الأعراض ، وبهذا أعطى كثيراً من أجزاء مذهبه وسما هشامياً واضحاً .

وأخيراً نأتى إلى قصة اتصاله بالثنوية والملاحدة . وهذه القصة وضعها المعتزلة . فيتهمه الخياط بأنه كان يعرف بقول الديصانية وبصحبة أبي شاعر الديصاني ، وأن تجسيم هشام بن الحكم إنما هو مأخوذ من الديصانية (٢) . ثم يذكر أيضاً مجادلات هشام بن الحكم وعلى بن ميثم والسكاك مع أبي الهذيل وانقطاعهم ويشير ثانية إلى صلة هؤلاء الشيعة بالديصانية - أبي شاعر والنعمان وابن طالوت وهذه أخبار غير قائمة على أساس علمي ، فقد تعودت الفرق المختلفة نيز بعضها البعض بالاتصال والأخذ عن الثنوية والمسيحية واليهودية . إن هشام بن الحكم كان عدواً للثنوية جاهدها أشد جهاد ، وكتب المصنفات المختلفة . كما رأينا في قائمة كتبه - يناقشه ويهاجمها أشد هجوم . وبينما يهاجم المعتزلة هشاماً وينبزه بالزندقة ، لا نرى مفكرى أهل السنة والجماعة يفعلون هذا . إنهم يهتمونه بالرفض والتجسيم والتشبيه ، ولكن لا نرى عالماً منهم ينبزه بالزندقة والإلحاد . وهذا دليل واضح على أنه كان أكبر مناقض للمعتزلة ، بل إنه نجح إلى حد كبير في قطعهم . وسنحاول الآن أن نقدم صورة من آراء هشام ابن الحكم وفلسفته ، غير أن كثيراً من هذه الآراء وصلت إلينا - مع الأسف - في صورتها العكسية ، أى في صورة إلزامات على مذهبه ، ولا نجد عند الشيعة أنفسهم تفسيراً لهذه الإلزامات ، وليس بين أيدينا أى كتاب من كتب هشام ، حتى نصل بيسر إلى قواعد مذهبه ، ولكننا سنحاول أن نخلص عناصر فلسفته من هذه الإلزامات ، حتى يتبين لنا المذهب جلياً واضحاً .

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٨١ - ٣٨٢ .

(٢) الخياط : الانتصار ص ٤٠ ، ٤١ .

فلسفة هشام بن الحكم

١ - مشكلة الألوهية

(١) مشكلة الذات . الله جسم :

أجمع مؤرخو الفكر الإسلامي القدامى ، شيعة ، سنة ، ومعتزلة على أن هشام بن الحكم هو أول من قال إن « الله جسم » وأن مقالة التجسيم في الإسلام إنما تنسب إليه ، فهو أول من أدخلها أو ابتدعها كما نسب إليه التشبيه أيضاً . وثمة خلاف بين التجسيم والتشبيه . ونحن نعلم أن مقاتل بن سليمان نادى أيضاً بالتجسيم ، كما نادى بالتشبيه ، غير أن مقاتلاً وصل إلى آرائه خلال تفسير للقرآن - أى خلال طريق نقل - فقد حشا تفسيره بإسرائيليات ومسيحيات وثنويات ، انتهى منها إلى تجسيم وتشبيه غليظين . وهذا ما لم يفعله ، فيما يبدو ، هشام بن الحكم بل يكاد يكون طريقه في إثبات الجسمية لله طريقاً عقلياً بحتاً .

وينسب الخياط إلى مشيخة الرافضة هشام بن الحكم وهشام بن سالم وعلى بن منصور والسكاك القول « إن الله عز وجل ذو قد وصوره وحد ويتحرك ويسكن ويدنو ويبعد ويخف ويثقل . أما البغدادي فيذكر أن هشاماً يرى أن الله جسم ذو حد ونهاية وأنه طويل عريض عميق ، وأن طوله مثل عرضه ، وعرضه مثل عمقه . ولم يثبت طولاً غير الطويل ، ولا عرضاً غير العريض . وليس ذهابه في جهة الطول أزيد على ذهابه في جهة العرض ، وأنه ذو لون وطعم ورائحة ومجسة وأن لونه هو طعمه ، وطعمه هو رائحته ، ورائحته هو مجسته ، ولم يثبت لوناً وطعماً هما غير نفسه ، بل زعم أنه هو اللون وهو الطعم . وقد كان الله ولا مكان . ثم خلق المكان بأن تحرك ، فحدث مكانه بحركته ، وصار فيه ومكانه هو العرش . وزعم هشام أيضاً في رأى البغدادي أن الله نور ساطع ، متلألئ كالسيكة الصافية من الفضة وكاللولؤة المستديرة من جميع جوانبها ، ثم ينقل البغدادي حكاية عن هشام أنه قال : إن الله سبعة أشبار بشير نفسه ، كأنه قاسه على الإنسان لأن كل إنسان في الغالب من العادة سبعة أشبار بشير نفسه (١) . ويذكر الشهرستاني نفس هذا الكلام ، نقلاً عن الكعبي المعتزلي ، أن هشاماً قال : هو جسم ذو أبعاد له قدر من الأقدار ، وأنه سبعة أشبار بشير نفسه ، وأنه في مكان مخصوص وجهة مخصوصة ، وأنه يتحرك وحركته فعله وليست من مكان إلى مكان . وهو متناهي الذات غير متناهي القدرة (٢) . وهذا إلزام واضح ، إن هشام بن الحكم كان يخوض في مساحة الله . وكان هناك من

(١) البغدادي : الفرق ص. ٤١ .

(٢) الشهرستاني : الملل ج ١ ص ٢٣٩ .

يثبت له المساحة ، وأن مساحته على قدر العالم . وأدلى هشام بدلوه ، فقال « إنه في أحسن الأقدار » وأحسن الأقدار أن يكون ليس بالعظيم الجافى ولا القليل القمى . وهنا ألزم أن يكون سبعة أشبار بشير نفسه ، لأن هذا هو أحسن الأقدار . ثم نسب الإلزام إليه ، واعتبر مذهبه (١) .

وينقل أبو الحسن الأشعري آراء هشام بن الحكم في صورة أدق إجمالاً ، ولكن لم يسلم نقله أيضاً لآراء هشام من خلل ويسود عرضه للمذهب صور الإلزامات أيضاً : يقول الأشعري إن هشام يزعم « أن الله جسم محدود ، له نهاية وحد طويل عريض عميق طوله مثل عرضه . وعرضه مثل عمقه ، لا يوفى بعضه على بعض ، ولم يعيوا طويلاً غير الطويل ، وإنما قالوا طوله مثل عرضه على المجاز دون التحقيق » ويبدو من هذا النص أن قول هشام بن الحكم الأساسى : إن الله جسم . ثم ألزم أن الجسم له نهاية وحد . . إلخ . ولم يقبل الإلزام فأضيف إلى المذهب ، كما أن للجسم طولاً وعرضاً . ويبدو أن هشام أجاب بأن لكل جسم طولاً وعرضاً ، ولما سئل إذا كان الله جسماً فلا بد أن له طولاً وعرضاً فأجاب بأن طوله مثل عرضه ، وأنه هو الطول والعرض . فالزم بأن الله عرضاً وطولاً . وقد لاحظ الأشعري ، وهو أدق من ينقل لنا أخبار الفرق أن هشاماً كان يقول إن طوله مثل عرضه على سبيل المجاز ، ويبدو أن هشاماً كان يقول إن الله نور ساطع ، تفسيراً للآية « الله نور السموات » فالزم بأنه نور ساطع له قدر من الأقدار في مكان دون مكان ونسب إليه القول بعد ذلك وألزم أنه كالسيكة الصافية يتلأأ كاللؤلؤة المستديرة من جميع جوانبها ذولون وطعم ورائحة ومجسة ، لونه هو طعمه ، وطعمه هو رائحته هي مجسته وهو نفسه لون ولم يعين لوناً ولا طعماً هو غيره ، وزعم أن هو الله وهو الطعم ، وأنه كان لا في مكان ، ثم حدث المكان ، بأن تحرك الله ، فحدثت الحركة بحركته ، فكان فيه . إن من الثابت تماماً أن الأشعري كان ينقل عن أعداء هشام بن الحكم من المعتزلة وبخاصة عدو هشام الكبير أبى الهذيل العلاف ويصرح الأشعري بهذا فيقول : « وذكر أبو الهذيل في بعض كتبه أن هشام بن الحكم قال له : إن ربه جسم ذاهب جاف ، فيتحرك تارة ويسكن أخرى . ويقعد مرة ويقوم أخرى ، وأنه طويل عريض عميق ، لأن ما لم يكن كذلك دخل في حد الثلاثي » ومن الخطأ الكبير أن ننقل أقوال المفكر عن آراء خصمه وهما في معركة عقلية تناوها الإلزامات . ولكن يبدو من تعبير « ما لم يكن كذلك دخل في حد الثلاثي » أن هشام بن الحكم أراد أن يضع فكرته عن الله في صورة حسية ، أى أنه بدون تجسيم الله يكون الله وهما . . « لا حقيقة » .

ونسير خطوة في محاولة اقتناص فكرته الحقيقية عن الله فإن الأشعري يعدد أقواله في الله فهو (أ) كالبلورة (ب) كالسيكة (ج) أنه غير صورة (د) أنه بشير نفسه سبعة أشبار (هـ) أنه جسم

لاكالأجسام . وقد خاطبه بشر بن المعتمر المعتزل بالبيت الآتي :

تلعبت بالتوحيد حتى كأنما تحدث عن غول ببهاء سملق

لأن الغول عند العرب تقلب نفسها من صورة إلى صورة ، كذلك هشام بن الحكم قال في الله مقالات كثيرة . فمرة نور يتلألأ ومرة من حيث جثته رأيته نوراً ومرة هو مثل الإنسان ^(١) ويتضح لنا من هذا العرض لمختلف آرائه أنه ينادى بأن الله جسم لاكالأجسام ^(٢) ويؤيد هذا الشهر ستاني حين ألزم العلاف في مسألة الجسمية فقال : إنك تقول الباري عالم بعلم وعلمه ذاته فشارك المحدثات في أنه عالم بعلم ، ويباينها في علمه ذاته ، فيكون عالماً لاكالعالمين . فلم لا نقول هو جسم لاكالأجسام وصورة لاكالصور وله قدر كالأقدار ، فهو إذن يفسر الجسم بأنه شيء ، ثم ينزعه عن مشاركة غيره من الأجسام والأشياء والشيخ المفيد يعترف أيضاً بأنه قال : إنه جسم لاكالأجسام . ثم حكى رجوعه عنه ^(٣) « ولكن لا يوجد دليل واضح على أنه فعل . إن تعبير أو اصطلاح « جسم لاكالأجسام » كان منتشرًا في الدوائر الكلامية ، وكان ينادى به طوائف من أهل الحديث . ولكن ما الذي دعاه إلى إطلاق اسم الجسم على الله ؟

ينقل إلينا الأشعري والبغدادى عن ابن الراوندى القول الآتي « وحكى ابن الراوندى في بعض كتبه عن هشام أنه قال : « بين الله وبين الأجسام المحسوسة تشابه من بعض الوجوه ، ولولا ذلك ما دامت عليه » ولكنه « لا يشبهها ولا تشبهه » ^(٤) « هل أراد هشام بن الحكم بهذا أن يقول : إن الأجسام المحسوسة هي برهان على وجود جسم قديم أزلي لا أول لوجوده ؟ - سيذهب إلى القول بهذا فعلا - أم أن هناك منهجاً صاعداً لديه ، يذهب من المحسوس إلى المعقول ، ومن الصنعة للصانع ، ثم تأتى إلى المعرفة : كيف يعرف الجسم من هو لا جسم ، إن الشبيه يدرك الشبيه ، فالجسم يدرك جسمًا ، وإن خالفه في الحقيقة . هذا تفسير .

غير أن ثمة تفسيراً آخر نجده عند ابن حزم وهو يعرض للمجسمة عامة يذكر ابن حزم « أن المجسمة يذكرون أن الله تعالى جسم » ويضع تفسيراً لهذا القول « أنه لا يقوم في المعقول إلا جسم أو عرض ، فلما بطل أن يكون الله تعالى عرضاً ، ثبت أنه جسم » ولكن هذا تفسير لا ينطبق على هشام . إن هشاماً لا يعترف بالأعراض . ثم يمضى ابن حزم عارضاً لفكرة القائلين بجسمية الله ويرى أن المجسمة تقول إن

(١) ابن المرتضى : طبقات المعتزلة ص ٣١ .

(٢) الأشعري : مقالات ج ١ ص ٣١ - ٣٣ ونفس النص مع تغيير طفيف في نفس المصدر ج ١ - ص ٢٠٧ - ٢٠٩ .

(٣) الشيخ المفيد : أوائل المقالات ٣٧ - ٣٨ .

(٤) الأشعري : مقالات ج ١ ص ٣٢ ، ٣٣ والبغدادى : الفرق ص ٤١ .

الفعل لا يصح إلا من جسم ، والله فاعل ، فوجب أنه جسم » هذا هو التفسير الحقيقي لفكر المجسمة عامة لا لفكر هشام بن الحكم . الوجود عندهم إما جسم وإما عرض ، فالله إذن جسم . ويرى ابن حزم أن الصواب أن يقال « إنه لا يوجد في العالم إلا جسم أو عرض ، وكلاهما يقتضى بطبيعته وجود محدث له ، فبالضرورة نعلم : « أنه لو كان محدثها جسماً أو عرضاً ، لكان يقتضى فاعلاً فعله ، ولا بد ، فوجب بالضرورة أن فاعل الجسم والعرض ليس جسماً ولا عرضاً . وهذا برهان يضطر إليه كل ذى حس بضرورة العقل » ثم يرد ابن حزم أنه لو كان الله جسماً ، لاقتضى ذلك ضرورة أن يكون له زمان ومكان هما غيره » ويؤدى هذا إلى إبطال التوحيد وإيجاب الشرك معه تعالى لشيئين سواء ، وإيجاب أشياء معه مخلوقة .

ويبدو أن هذا هو الإلزام الذى ألزم به هشام بن الحكم ، أنه ما دام الله جسماً ، فإن له زماناً ومكاناً ، ثم اعتبر هذا الإلزام أحد آرائه . ويلزم ابن حزم هشاماً إلزاماً آخر فيقول « إنه لا يعقل ألبة جسم إلا مؤلف عريض عميق » .

ويذكر ابن حزم صراحة أن هذا إلزام ثان ونظارهم لا يقولون بهذا ، وهذا يدل تماماً على أن ابن حزم لم يقل إن هشاماً قال هذا وإنما نسب إليه إلزاماً ، ويستطرد فيقول . فإن قالوه لزمهم أن له مؤلفاً جامعاً مختزلاً فاعلاً ، فإن منعوا من ذلك ، لزمهم أن لا يوجبوا لما فى العلم من التأليف لا مؤلفاً ولا جامعاً ، إذ المؤلف كله كيفاً وجد يقتضى مؤلفاً ضرورة . ولكن هشام والمجسمة يقولون : إنه جسم غير مؤلف . ويرى ابن حزم أن هذا لا يعقل أبداً من مفهوم الجسم ولا يتشكل فى النفس ألبة .

وقد تنبه ابن حزم إلى حقيقة تصور الجسم عند هشام . فإنه يذكر أنه يفسر « الجسم بمعنى شئ » إذن فم الخلاف ؟ . إنه لافرق بين قولنا شئ وبين قولنا جسم . ويرد ابن حزم « هذا باطل ، لأن الحقيقة أنه لو كان الشئ والجسم بمعنى واحد ، لكان العرض جسماً لأنه شئ . وهذا باطل يتعين ، والحقيقة أنه لا فرق بين قولنا شئ ، وقولنا موجود وحق ومثبت فهذه كلها أسماء مترادفة على معنى واحد لا يختلف . وليس منها اسم يقتضى صفة أكثر من أن المسمى بذلك حق ولا مزيد » أما لفظة الجسم فهي تعنى الطويل العريض العميق المحتمل للقسمه ذى الجهات الست التى هى فوق وتحت ووراء وأمام ويمين وشمال .

إن المسألة ستنتهى إلى بحث لغوى . وهذا ما يلحظه ابن حزم . ويرى أنه لا بد من عدم نقل مفهوم اسم المستخدم إلى مفهوم آخر مستخدم . ويضع هذه الملاحظة النادرة « إنما يلزم كل مناظر يريد معرفة الحقائق أو التعريف بها أن يحقق المعانى التى يقع عليها الاسم ثم يخبر بعد بها أو عنها بالواجب أما مزج

الأشياء وقلها عن موضوعها في اللغة ، فهذا فعل السوفسطائية (١) « انتهى النزاع إذن إلى اختلاف في اللغة . ويتضح هذا أكثر حين يورد ابن حزم اعتراض المحسمة بأنهم يخاطبون أهل السنة بأنكم تقولون إن الله حي لا كالأحياء ، وعليم لا كالعلماء . وقادر لا كالقادرين ، وشيء لا كالأشياء ، فلم منعتم القول بأنه جسم لا كالأجسام . . ؟

ويرد ابن حزم رده المشهور والذي يعبر عن مذهبه الظاهري بأنه لولا النصوص الواردة بتسمية الله بأنه حي وقدير وعليم ، ما سميناه بشيء من ذلك ، لكن الوقوف عند النص فرض ، ولم يأت إلينا نص بتسميته جسماً ، بل البرهان يمنع من تسميته بذلك ، ولو أتانا نص بتسميته جسماً ، لوجب علينا القول بذلك . وكنا حينئذ نقول : إنه لا كالأجسام . كما قلنا في عليم وقدير وحى ، ولا فرق وأما لفظة شيء . فالنص أيضاً جاء بها ، والبرهان يوجبها (٢) .

إن مانستخلصه من هذا الكلام أن هشام بن الحكم يعلن أن الله جسم بمعنى شيء أو بمعنى موجود وأنه قائم بنفسه . وأن كل ما ذكر منسوباً إليه - فيما سوى ذلك - هو إلزامات . يقول الأشعري : « وقال هشام بن الحكم : معنى الجسم أنه موجود . وكان يقول : إنما أريد بقولي جسم أنه موجود وأنه شيء قائم بنفسه (٣) .

ويحاول ابن حزم جاهداً أن ينكر قول هشام بأن الله متحرك ، فيرى أن ما يبطل وصف الله تعالى بأنه جسم ووصفه بحركة - أن الضرورة توجب أن كل متحرك فذو حركة . وأن الحركة لمتحرك بها ، وهذا من باب الإضافة ، كما أن الصورة في المتصور لمتصور ، وهذا أيضاً من الإضافة ويستنتج ابن حزم من هذا أنه كان لو كل مصور متصوراً وكل متحرك متحركاً ، لوجب وجود أفعال لا أوائل لها « إذن كيف نتصور وجود الله . وجب ضرورة وجود محرك المحركات ومصور المصورات . وكل جسم فهو ذو صورة وكل ذي حركة ، فهو ذو عرض محمول فيه ، فثبت أنه تعالى ليس جسماً ولا متحركاً ، وعجباً أن ينكر هشام بن الحكم على أرسطاطاليس فكرته في محرك غير متحرك ، ولعل كتابه الذي ذكرناه في قائمة كتبه عن نقده لأرسطاطاليس إنما هو هذا ، بينما يذهب عالم الظاهر الكبير إلى اعتناق رأى أرسطاطاليس » .

ويتابع ابن حزم نقده لمذهب هشام فيرى أن الحركة والسكون مدة . والمدة زمان ، والزمان محدث ، فالحركة محدثة ، وكذلك السكون ، والله لا يلحقه الحدث إذ لو لحقه محدث ، فإنه يقتضى محدثاً . فالله تعالى غير متحرك ولا ساكن

(١) ابن حزم : الفصل ج ٢ ص ١١٧ - ١١٨ . (٢) الأشعري : مقالات ج ٣ ص ٣٠٤ - ٣٢١ .

(٣) ابن حزم : الفصل ج ٢ ص ١١٨ - ١١٩ .

ولم يفهم ابن حزم مفهوم الحركة عند هشام . ولكن الأشعري يوضحها عن هشام « إن إرادة الله سبحانه حركة وهي معنى ، لا هي الله ، ولا غيره ، وإنما صفة له » (١) .

ويرى ابن حزم أن الجسم إنما يفعل آثاراً في الجسم فقط ، ولا يفعل الأجسام ، فالله - على رأي المجسمة - هو فاعل آثاراً في الأجسام فقط لفاعل أجسام العالم ويرى ابن حزم أن المجسمة يقولون : إنكم تسمونه فاعلاً وتسمون أنفسكم فاعلين . وهذا تشبيه . ويرد ابن حزم بأن هذا القول لا يوجب تشبيهاً ، لأن التشبيه إنما يكون بالمعنى الموجود في كلا المشتبهين لا بالأسماء ، وأن هذه التسمية إنما هي اشتراك في العبارة فقط ، والاشتراك في اللفظ لا يوجب الاشتراك في المعنى لأن هناك فرقاً بين فاعل متحرك باختيار أو اضطرار أو عارف أو شاك أو مريد أو كان باختيار أو ضمير ، أو اضطرار ، كذلك فكل فاعل منا فمتحرك وذو ضمير ، وكل متحرك فذو حركة تحركه ، وأعراض الضمائر انفعالات ، فكل متحرك فهو منفعل ، وكل منفعل ، فلفاعل ضرورة . وأما الله ففاعل باختيار واختراع لا بحركة ولا بضمير . ويرى ابن حزم أن هنا اختلافاً ، لا اشتهاً . وكذلك العرض ليس جسماً ، والجسم ليس عرضاً ، وليس الله جسماً ولا عرضاً . فهذان الحكمان لا يوجبان اشتهاً أصلاً ، بل هذا عين الاختلاف ، لكن الاشتباه إنما يكون بإثبات معنى في المشتبهين به اشتهاً ، ولو وجب ما ذكر اشتهاً ، لوجب أن يكون لشبه الجسم في الجسمية . لأنه ليس عرضاً ، وأن يكون لشبه العرض في العرضية ، لأنه ليس جسماً ، فكان يكون جسماً لا جسماً ، عرضاً لا عرضاً معاً . وهذا محال فصح أن بالنص لا يجب الاشتباه أصلاً .

ولكن فم كل هذه الإلزامات . إن هشام بن الحكم يقول جسم لا كالأجسام (٢) . وليس هنا اشتباه ولا مشتبه ، ويقر ابن حزم نفسه بهذا فيقول : « إنه ليس مشتبهاً ولكنه أُلحِد في أساء الله ، إذ سباه بما لم يسم به نفسه . وأما من قال : إنه كالأجسام ، فهو ملحد » (٣) .

أما الخياط فيقرر : « أن هشام بن الحكم يذهب إلى أن الله القديم جسم ، فأبطل دلالة الأجسام على الحدث بحكمه أن منها ما هو قديم . وهو ينسب فكرة هشام إلى الديصانية (٤) . والديصانية - كما نعلم - أخذت بالرواقية . ونستنتج مما تقدم أن الجسم عند هشام بمعنى الموجود ، فكل موجود جسم . أما عن الله فيورد الخياط عن ابن الراوندي قول هشام « إن الله جسم لا يشبه الأجسام في معانيها ولا في أنفسها ، غير متناهى القدرة ولا محدود العلم لا يلحقه نقص ولا يدخله تغيير ، ولا تستحيل منه الأفعال ، لا يزال قادراً عليها ، وهذا هو تفكير هشام بن الحكم . الوجود كله جسم ، والله موجود ،

(١) ابن حزم ج ٢ ص ١١٨ - ١١٩ . (٢) ابن حزم : الفصل ج ٢ ص ١٢٠ - ١٢١ .

(٣) الأشعري : مقالات ج ١ ص ٢٧ - ٢٠٩ . (٤) الخياط : الانتصار ص ٤٠ - ٤١ .

فهو جسم، ولكنه لا كالأجسام. ولكن المشكلة تبدو فيما يقول الخياط من أنه « كيف يجوز للرافضة القول بأن الله جسم لا يشبه الأجسام مع القول بأنه يتحرك ويسكن ويدنو ويبعد وأنه ذو صوت وقد وهبته »^(١) وليس بين أيدينا من النصوص ما يوضح موقف هشام من اعتراض الخياط هذا . ويتصل بمشكلة الذات عند هشام بن الحكم مشكلة العرشية. وينقل لنا الأشعري النص الآتي عن المسلمية في العرشية « وزعم أبو عيسى الوراق أن بعض أصحاب هشام أجابه مرة إلى أن الله عز وجل على العرش مماس له ، وأنه لا يفضل عن العرش ، ولا يفضل العرش عنه^(٢) » وبهذا تكتمل الصورة الجسمية لله ، كما صورها مؤرخو الفرق . ولكننا نلاحظ أن هذا القول نقل عن بعض أصحابه ، ولم ينقل عن هشام نفسه ، ومن المحتمل كثيراً أن يكون أصحاب هشام لم يفهموا المعنى الدقيق لكلمة الجسم عند الأستاذ . ونلاحظ أيضاً أن فكرة الاستواء المادى سادت العالم الإسلامى حينئذ شيعة وأهل حديث . وثمة نص آخر عنه ينقله البغدادي وهو : قد كان الله ولا مكان . ثم خلق المكان بأن تحرك ، فحدث مكانه بحركته فصار فيه ، ومكانه هو العرش .

(ب) صفات الله :

أما عن الصفات ، فيرى هشام بن الحكم أن الصفة ليست هي هو ولا غيره ولا بعضه ، والصفة لا توصف . فالعلم صفة الله ، وليست هي هو ولا هي غيره ولا هي بعضه . ولا يقال لعلمه أنه قدم ولا يحدث ، لأنه صفة والصفة لا توصف ، وكذلك في قدرته وسمعه وبصره وحياته وإرادته . ويرى هشام - انه محال أن يكون الله لم يزل عالماً بالأشياء بنفسه ، وأنه إنما يعلمها بعلم ، لأنه لو كان لم يزل عالماً ، لكانت المعلومات لم تزل ، لأنه لا يصح عالم إلا بمعلوم موجود ، ولو كان عالماً بما يعلم عباده ، لم يصح المحنة والاختبار ، أى إذا كان عالماً بعلم قديم بأفعال العباد ، لما كان هناك معنى الثواب والعقاب^(٣)

وينقل البغدادي عنه : « لو كان لم يزل عالماً بالمعلومات ، لكانت المعلومات أزلية ، لأنه لا يصح عالم إلا بمعلوم موجود ، كأنه أحال تعلق العلم بالمعلوم^(٤) » ويقرب هشام في فكرته عن العلم بجهنم بن صفوان . والمصادر تجمع على أنه كان جهنمياً في مطلع شبابه ، ونلاحظ أنه كان يحاول هنا محاولة

(١) نفس المصدر : ص ١٠٦ - ١٠٧ .

(٢) الأشعري : مقالات ج ١ ص ٣٣ ويذكر النص نفسه البغدادي : الفرق ص ٤١ .

(٣) الأشعري : مقالات ج ١ ص ٣٧ ، ٣٨ ص ٤٩٤ .

(٤) البغدادي : الفرق ٤١ .

للتنزيه المطلق . إذا كان الله لم يزل عالماً ، يوجب وجود المعلومات قدماً ، وهذا يستدعي وجود قديم بجانب القديم . فالله إذن يعلم بعلم حادث متجدد . وهو أشبه كما قلت بمذهب جهنم . ومن حسن الحظ أن نقل إلينا الحياض نصوص هشام بن الحكم نفسها عن كتاب فضيحة المعتزلة لابن الراوندي ، وهو - أى الحياض - بصدد مناقشة هذا الأخير ، وسرى إلى أى حد يضع هشام بن الحكم مذهباً متناسقاً ، كما ترى أيضاً قوة نفسه وعلو عارضته في الجدل .

يقسم هشام بن الحكم حججه على حدوث العلم إلى قسمين :

(١) حجج عقلية (ب) حجج عقلية .

أما الحجج الأولى العقلية فيشرحها هشام بقوله : « ليس يخلو من أن يكون لم يزل عالماً لنفسه كما قالت المعتزلة . أو عالماً بعلم قديم . كما قالت الزيدية ، وعالماً على الوجه الذى ذهبت إليه » ويحدثنا هذا النص بأشياء كثيرة ، يكشف عنها النقد الباطنى للنص : أولها : أنه يستخدم القديم - إشارة إلى الله لا الجسم ، وهذا يدل دلالة واضحة على أن الله عنده هو خارج عن الجسمية العامة المحسوسة التى تملأ الكون .

ثانيها : أنه يقسم الفرق إلى ثلاث : المعتزلة والزيدية والإمامية ، ويبدو أنها هى كبار الفرق عنده ، فلا نجد ذكراً لأهل السنة والجماعة أو أهل الحديث ، ولعله لم يرد جدالها ، وبخاصة أن البعض من هؤلاء سكتوا عن المناقشة ، والبعض يوافق في التجسيم والتشبيه .

ثالثها : نلاحظ دقة العرض : فهو يعرض آراء أعدائه ، ثم يتقدم لمناقشتها فيقول : « فإن كان عالماً بدقائق الأمور وجلاتها لنفسه ، فهو لم يزل يعلم أن الجسم متحرك لنفسه . لأنه الآن عالم لذلك ، وما علمه الآن ، فهو لم يزل عالماً به » ثم يستطرد فيقول « فإن كان هذا هكذا ، فلم يزل الجسم متحركاً . لأنه لا يجوز أن يكون الله لم يزل عالماً بأن الجسم متحرك إلا وفي الوجود جسم متحرك على ما وقع العلم به ، ولا بد أيضاً من أن الجسم لا يزال متحركاً ، لأنه لا يجوز أن يكون لا يزال عالماً بأن الجسم متحرك إلا وفي الوجود جسم متحرك على ما وقع به العلم ، ولا بد أيضاً من أن يكون لا يزال عالماً بأن الجسم متحرك ، إذ النفس التى لها ومن أجلها علم ، لا تزال موجودة » (١) .

لم يقف المعتزلة أمام فكرة العلم الحادث عن هشام موقف التسليم . إن العلم عند المعتزلة هو الذات فكيف يكون العلم حادثاً . وهنا يلجأ المعتزلة إلى إلزام واه ضعيف ، إن هشاماً وصف الله بأنه جاهل بالأمور غير عالم بها « ولو كان القول على ما قال ، لم يجوز أن يقع من القديم فعل أبداً ، لأن الفاعل لا بد من أن يكون قبل فعله عالماً بكيفية فعله ، وإلا لم يجوز وقوع الفعل منه ، كما أنه إذا لم يكن قادراً على

(١) الحياض : الانتصار ص ١٠٨ - ١٠٩ .

فعله ، لم يجوز وقوع الفعل منه أبداً . ويرى المعتزلة أن هذا حكم كل فاعل : لابد من أن يكون قبل فعله عالماً به وإلا لم يجوز وقوعه منه فإذا ذهب هشام إلى أن الله كان غير عالم بغيره ، فكيف جاز وقوع الفعل منه ، وهو غير عالم بكيفية فعله . . .

ويرى المعتزلة أنه إذا احتج محتج وجوز وقوع الفعل من الله ، وذلك بأن يحدث لنفسه علماً به ، فكان يحدث ذلك العلم عالماً بكيفية يفعل أفعاله ، فجاز منه عند ذلك وقوع الأفعال ويرد المعتزلة « وكيف يجوز أن يحدث لنفسه علماً ، وكيف يفعل ذلك العلم ، وهل استحالة وقوع ذلك العلم منه مع جهله بكيفية يفعله إلا كاستحالة وقوع سائر الأفعال منه مع الجهل بكيفية يفعلها ؟ ولئن جاز وقوع الفعل ممن لا يعلم كيف يفعله قبل فعله له ليجوز وقوعه من غير قادر عليه ، لأن « بعد الفعل ممن لا يعلم كيف يفعله ، كبعده ممن لا يقدر عليه »^(١) .

ويرى الخياط أن السكاك تلميذ هشام بن الحكم استمر في اعتناق رأى أستاذه وأنه ناقش جعفر ابن حرب ، وأن جعفراً ألزمه قياس القدرة والحياة على العلم . وحيث أن يكون الله غير قادر وغير حي ، ثم خلق لنفسه القدرة والحياة . وليس لدينا مع الأسف كتب هشام بن الحكم أو السكاك حتى نحكم على رأيها في مسألة القدرة والحياة . ولكن مما لاشك فيه أن هشام بن الحكم لم يرض قط أن يؤمن بقدوم العلم ، بل قال بحدوثه - كما أنكر أن علم الله هو ذاته - حتى يتجنب خطأ المعتزلة الأكبر في إحاطة الذات بالمعلومات . إن المعتزلة حين نادوا بأن الله عين الصفة والصفة هي عين الله ، وبالتالي إن العلم هو الذات ، وقعوا في خطأ عبر عنه ابن الراوندي بقوله « إن الله سيكون متناهي القدرة والعلم » ذلك أن المعلومات متناهية ، محدودة ، محصورة محاط بها ، فهل أحاط بها بعلم محدود ؟ وهذا العلم في نهاية الأمر عند المعتزلة هو الذات ، فاتهام هشام بن الحكم للمعتزلة صحيح . وإذا أحاط الله بالمعلومات بعلم غير محدود ، فكيف يتفق هذا مع قول المعتزلة وأبي المذيل إنها محدودة ومحصاة ومحاط بها ؟ . وإن قالوا إن معلومات الله ومقدراته غير محدودة وغير محصورة ، شاركت الذات في صفاته . لا تعطى نصوص هشام هذا الحل صراحة ، ولكنه هو التفسير الوحيد لآرائه في هذه المسألة من دقيق الكلام وجليله . أما أين يحدث العلم : في نفسه أم في غيره أم لا في شيء . يرى الخياط « أنه إن كان أحدثه في نفسه ، فقد صارت نفسه محلاً للحوادث ، ومن كان كذلك فحدث لم يكن ثم كان ، وإن كان أحدثه في غيره فوجب أن يكون ذلك الغير عالماً بما حله منه دونه ، كما أن من حله اللون ، فهو المتلون به دون غيره ، وكذلك من حله الحركة ، فهو المتحرك بها دون غيره . وليس يجوز أن يكون عالماً بعلم في غيره ، كما لا يجوز أن يكون متحركاً بحركة في غيره . ولا متلوناً بلون في غيره هذا كله محال . وليس يجوز

(١) نفس المصدر السابق : ص ١٠٩ - ١١٠ .

أن يكون ما أحدثه قائماً بنفسه ، لا في شيء محل فيه ، كما لا يجوز أن يحدث حركة قائمة بنفسها لا في متحرك ، ولا لونها قائماً بنفسه لا في ملون » (١) .

إن هذه الاحتمالات التي أوردها الحيايط وجدت فعلاً صدى في الفكر الفلسفي الكلامي . سيأتي الكرامية ويعلمون أن الحوادث تحدث في ذات الله ، وبالتالي أن علم الله يحدث في ذاته . ولكن يبدو أن هشام بن الحكم يذهب إلى أن العلم يحدث في لا محل . وهذا متابعة لجهنم بن صفوان . ويقول ابن حزم : « قال جهنم بن صفوان وهشام بن الحكم ومحمد بن عبد الله بن سبرة أن علم الله تعالى » هو غير الله ، وهو محدث مخلوق (٢) .

ويذكر ابن تيمية عن هشام بن الحكم وهشام بن سالم وغيرهما من المجسمة الرافضة وغير الرافضة كالكرامية بأنهم يجوزون جسماً قديماً أزلياً لا أول لوجوده وأن هذا الجسم خال من جميع الحوادث ، وأما الأجسام المخلوقة فلا تخلو عن الحوادث « ويقولون مالا يخلو عن الحوادث فهو حادث ، ولكن لا يقولون إن كل جسم فإنه لا يخلو عن الحوادث (٣) » ويصف ابن تيمية جميع هؤلاء السابقين باسم الجهمية فيقول : « إن هؤلاء الجهمية أصحاب هذا الأصل المبتدع - الذي أصله هشام بن الحكم - احتاجوا أن يلتزموا طرد هذا الأصل فقالوا : إن الرب لا تقوم به الصفات والأفعال ، فإنها أعراض وحوادث ، وهذه لا تقوم إلا بجسم ، والأجسام محدثة فيلزم أن لا يقوم بالرب علم ولا قدرة . ولا كلام ولا مشيئة ولا رحمة ولا رضا ولا غضب ولا غير ذلك من الصفات ، بل ما يوصف به من ذلك ، فإنما هو مخلوق منفصل عنه » (٤) فن الثابت إذن أنه لا يقول بمحدث العلم في ذات الله ، بل بمحدث العلم في لا محل .

ثم يقدم لنا الحيايط عن ابن الرواندي النصوص الآتية والتي أرجح أنها لهشام بن الحكم « إنه إن كان لم يزل علماً بدقائق الأمور لنفسه ، فهو لم يزل يعلم أن الجسم متحرك لنفسه . لأنه الآن عالم بذلك ، وما علمه الآن فهو لم يزل علماً به » . ثم يقول أيضاً فإن زعموا أن الله يعلم لنفسه أن الجسم متحرك إذا تحرك ، ويعلم لنفسه أن الجسم ساكن إذا ساكن من غير أن يحدث له علم ، فلما أنكروا أن يكون الجسم متحركاً إذا خلى مكانه وفرغه . ساكناً إذا صار فيه وتثبت من غير أن يحدث له حركة وسكون » ويقول ابن الرواندي : « فهذا بعض ما يحتاج به هشام في القياس » .

(١) الحيايط . الانتصار ص ١١١ .

(٢) ابن حزم : ج ٢ ص ١٢٦ .

(٣) ابن تيمية : منهاج السنة (نشرة الدكتور سالم) ص ٢٤٢ .

(٤) ابن تيمية : منهاج السنة ص ٢٤٢ .

ومن الواضح أنه يريد في النص الأول أن يلزم المعتزلة بأن إنكار حدوث العلم سيؤدي إلى القول بقدمه ، وكما أن المعتزلة تنكر أشد الإنكار حدوث العلم ، فإنها تنكر قدمه . يقول الخياط « إنه لما فسد أن يكون القديم جل ثناؤه عالماً بعلم محدث لما بينا ، وفسد أيضاً أن يكون عالماً بعلم قديم لفساد الاثنين ، صح وثبت أنه لم يزل عالماً بالأمور دقيقتها وجليلها على ما هي عليه من حقائقها لنفسه لا بعلم » إذن كيف يرد المعتزلي إلزام هشام بن الحكم ؟ يرى الخياط أن الله كان ولا شيء معه وأنه « لم يزل يعلم أنه سيخلق الأجسام ، وأنه بعد خلقه لها ستتحرك وتسكن » ، وأنه « لم يزل يعلم » أنها متحركة إذا حلتها الحركة ، ساكنة إذا حلها السكون ، « فهو لنفسه » لم يزل يعلم ، أن الجسم قبل حلول الحركة فيه سيتحرك ، وأنه في حال حلول الحركة فيه متحرك . فعلمه لنفسه إذن غير حادث وغير متغير ولكن المتغير هو حركة الأجسام . . وإنما اختلفت العبارة عن العلم لاتصالها بالعبارة عن اختلاف أحوال الجسم ، فلما كانت أحوال الجسم ، مختلفة ، اختلفت العبارة عنها ، ثم اتصلت العبارة عنها بالعبارة عن العلم بها ، فاختلفت العبارة عن العلم بها ، لاختلاف ما اتصلت به العبارة عنها ؛ أما العلم فلا يختلف ولا يتغير . « فالله جل ذكره لم يزل عالماً بالجسم ولا يزال عالماً به وبما يحله - وقول القائل يكون الجسم وهو كائن وقد كان ويتحرك الجسم وهو متحرك وقد تحرك - إنما هو عبارة عن الجسم وعن اختلاف أحواله ، ولكن إذا ذكر العلم مع اختلاف الجسم ، اختلفت العبارة عنه لاختلاف ما ذكر معه ، فأما العلم به في الحقيقة فتقدم غير حادث .

أما النص الثاني - فيكاد يجيب عليه الخياط بما رد به على النص الأول^(١) أما الحجج النقلية ، فيقول ابن الراوندي نصوص هشام نفسه ، أنه احتج من القرآن بالآية « لننظر كيف تعملون » ويقول « الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً » . قال : فكما أن التخفيف حدث الآن . فكذلك العلم بضعفهم . لأن الكلام الثاني معطوف على الأول ، هذه دلائل من القرآن . ثم يقدم لنا شاهداً من الإجماع بقول المسلمين « لدينا دار محنة ، وإنما خلقت ليمتحن العقلاء فيها » ويقول هشام « وليس يصح الامتحان فيها ، لمن لم يزل عالماً في الحقيقة قبل امتحانه إياها » .

ولو جاز أن يمتحن الشيء من يعلمه من جميع وجوهه ، جاز أن يتعرفه من يعلمه من جميع وجوهه فلما فسد تعرفه ممن لم يبق عليه من العلم به شيء ، فسد امتحانه ممن قد أحاط علمه بجميع حقائقه « فإن كان الله لم يزل عالماً بكفر الكافرين ، علماً قديماً فما معنى إرسال الرسل إليهم » وما معنى الاحتجاج عليهم ، وما معنى تعريضهم لما قد علم أنهم لا يتعرضون له . . . هل يكون حكيماً من دعا من يعلم أنه لا يستجيب له ومن لا يرجو إجابته . ثم يقول هشام - مستنداً مرة أخرى إلى آية قرآنية

(١) الخياط : الانتصار ص ١١١ - ١١٥ .

يدعم بها حدوث العلم - وما وجه قول الله لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون « فقولوا له قولاً لنا لعله يتذكر أو يخشى » هل يجوز مثل هذا الكلام ممن علم أن التذكير والخشية لا تكون منه ، وهل يصح إلا من المتوقع المنتظر؟ إن علم الله حادث بلا شك .
وقد أثار هشام بن الحكم بآرائه هذه المعتزلة فضوا يناقشونها أشد النقاش ، وقد حفظ لنا الخياط جملة هذه الآراء الهاشمية وردود المعتزلة عليها ^(١) .

وأما كيفية علم الله بالأشياء الساترة فإن الجاحظ يورد رأياً له بأن هشاماً كان يقول إن الله إنما يعلم ما تحت الثرى بالشعاع المتصل منه الذاهب في عمق الأرض ، ولولا ملابسته لما وراء ما هنالك ، لما درى ما هناك ، « وزعم أن بعضه يشوب وهو شعاعه ، وأن الشوب محال على بعضه ^(٢) » لعل هذا الرأي يعبر فعلاً عن آراء هشام بن الحكم أو هو إلزام عليه أيضاً . يجوز هذا ويجوز ذاك . فمن المحتمل أنه سؤال عن معرفة الله بما هو في باطن الأرض وهو ما سماه بالأجسام الساترة ، فأجاب بأن معرفته بشعاع مادي محسوس ، ينفذ خلال الأجسام الكثيفة ويعلم حقائقها . ومن المحتمل أنه مجرد إلزام من المعتزلة ، ثم وضع كراى من آرائه .

ولكن ما المقصود - في آخر الأمر - بأصل هشام هذا إذا صح أنه له . . . يبدو لي أنها أيضاً محاولة للتزويه ، وقد أثبت مسألة علم الله للشيء أو للموجود ، هل يعلم الله الأشياء من غير ملابسة أو مماسة أو يعلم الله الأشياء على المماس والملابسة والشوب . . . أراد هشام أن ينزه الله عن كل هذا ، فابتدع فكرة الشعاع المتصل الذاهب في عمق الأرض .

أما الإرادة فيذهب هشام بن الحكم إلى أنها « حركة » وهي « معنى » لا هي الله ولا غيره وأنها صفة لله . وأن الله إذا أراد الشيء ، تحرك فكان ما أراد الله ^(٣) فالإرادة عنده هي حركة . وتفسيرها أنها « الخلق » وكلمة التكوين فيها أرى ، فإذا أراد الشيء أحدث حركة وأحدث العلم بعدها . ولم يتنبه المعتزلة إلى ربط هشام للإرادة والعلم . يقول هشام « لا يعلم الشيء حتى يحدث الإرادة ، فإن أحدث الإرادة ، لأن يكون (الشيء) كان عالماً بأنه يكون ، وإن أحدث الإرادة لأن لا يكون كان عالماً بأنه لا يكون ^(٤) » فالإرادة سابقة على العلم ، يريد الله الشيء ثم يعلمه .

أما القرآن ، فقد رأى هشام بن الحكم اختلافات الفرق حوله في قدمه وحدثه ، ورأى الزيدية

(١) الخياط : الانتصار ص ١١٥ - ١٢٣ .

(٢) الأشعرى مقالات ج ١ ص ٣٣ - ٢٢١ . ج ٢ ص ٤٩١ . والبغدادى : الفرق ص ٤١ .

(٣) الأشعرى : مقالات ج ١ ص ٤٠٤ . ج ٢ ص ٥١٤ .

(٤) الأشعرى : مقالات ج ١ ص ٢٢ .

والمعتزلة والخوارج تقول بخلقه ، وأهل السنة تقول بقدمه ، بل يذهب وكيع بن الجراح الراسبي المحدث المشهور (المتوفى عام ١٩٦) أن القرآن هو الخالق أو بعضه ، أن الله مسمى ، فلما كان اسم الله في القرآن والاسم هو المسمى كان الله في القرآن بل هناك من ذهب إلى أن القرآن هو أزل قائم بالله لم يسبقه ، واختلفوا أيضاً هل هو جسم أم عرض ، فإذا كان موقف هشام بن الحكم من كل هذه الآراء ؟ .

يرى هشام أن القرآن صفة لله لا يجوز أن يقول إنه مخلوق ولا أنه خالق^(١) ولا يقال إنه غير مخلوق ، لأنه صفة والصفة لا توصف . ولم يذكر إطلاقاً أنه جسم .

٢ - الوجود الطبيعي

ونظف من ابن حزم بهذا النص الخطير عن هشام بن الحكم « إنه ليس في العالم إلا جسم » فالله ليس جسماً فقط بل لا يوجد إلا جسم واحد « والألوان والحركات أجسام » « وأن الجسم إذا كان طويلاً عريضاً عميقاً ، فن حيث وجدته ، وجدت اللون فيه ، فوجب الطول والعرض والعمق للون أيضاً ، فإذا وجب ذلك للون ، فاللون أيضاً طويلاً عريضاً عميقاً ، وكل طويلاً عريضاً عميقاً جسم ؛ فاللون جسم » وكل هذه الأقوال التي أوردها ابن حزم لهشام تثبت تمام الإثبات اتجاه الرجل الفيلسوف ، فهو يرى أن الوجود جسم مادي رقيق شفاف ، ويدخله هذا الاتجاه في عداد الرواقين الإسلاميين ، فهو اسمي النزعة ، حسي مادي . رأى الوجود كله جسماً ، وفسر الوجود كله بأنه جسم شفاف رقيق يتكثف ويتلطف . والله جسم ولولا جسميته ، مادت الأجسام عليه ، ولكنه ليس كأجسامنا . وقد أدرك ابن حزم أثر هشام في النظام فقال « وذهب إبراهيم بن سيار النظام إلى مثل هذا سواء سواء إلا الحركات ، فإنه قال خاصة أعراض » ويرد ابن حزم على هشام بأن الجسم متفق على وجوده ، ولكن الاعتراض موجود أيضاً ، إننا لا نجد في العالم إلا قائماً بنفسه حاملاً لغيره أوقائماً لغيره لا بنفسه لا محمولاً في غيره ، ووجدنا القائم بنفسه شاغلاً لمكان يملؤه ، ووجدنا الذي لا يقوم بنفسه ، لكنه محمول في غيره لا يشغل مكاناً ، بل يكون الكثير منها في مكان حاملها القائم بنفسه - ويرى أن هذه قسمة حاصرة « لا يمكن وجود شيء في العالم بخلافها ، ولا وجود لقسم زائد على ما ذكرنا » والضرورة تحتم « أن القائم بنفسه الشاغل لمكانه هو نوع آخر غير القائم لغيره الذي لا يشغل مكاناً ، فوجب أن يكون لكل واحد من هذين الجنسيتين اسم يعبر عنه وقد اصطللحنا على تسمية القائم بنفسه

(١) الأشعري : مقالات ج ٢ ص ٥٨٢ - ٥٨٦ .

الشغل لمكانه جسماً ، وما لا يقوم بنفسه عرضاً ثم إن الجسم تتعاقب عليه الألوان ، والجسم قائم بنفسه . فبينما نراه أبيض صار أخضر أو أحمر ، وهذا ما نشاهده في الثمار والأصباغ ، هي أجسام ولكن تتعاقب عليها الألوان ، فبالضرورة نعلم أن الذي عدم وفى من البياض والخضرة وسائر الألوان هو غير الذي بقى موجوداً لم يفن ، وأنها جميعاً غير الشيء الحامل لها . لأنه لو كان شيء من ذلك هو الآخر ، لعدم لعدمه ، فدل بقاؤه بعده على أنه غيره . ولا بد إذن من المحال الممتنع أن يكون الشيء معدوماً موجوداً في حالة واحدة في مكان واحد في زمان واحد .

ثم يرى ابن حزم أن الأعراض هي الأفعال من الأكل والشراب والمشى والنوم وغير ذلك ، فن أنكر الأعراض ، فقد أثبت الفاعلين وأبطل الأفعال ، وهذا محال ، ولا يوجد فرق على الإطلاق بين من أثبت الفاعلين ونفى الأفعال ، وبين من أثبت الأفعال ونفى الفاعلين ، وكل الطائفتين مبطلتان لما يشاهد بالحواس ويدرك بالعقل . إنهم سوفسطائيون حتماً .

ويعضى ابن حزم في حججه ، معتبراً هشاماً وإبراهيم النظام سوفسطائيين يتلاعبان بالأسماء والمسميات أو ينكران البدهة والضرورة ، حين ينكران وجود الأعراض .

ويبدو أن هشاماً أنكر وجود الأعراض مستنداً إلى أن فيما يسمى أعراضاً تتحقق فيها خصائص الأجسام فاللون مثلاً يوجد فيه الطول والعرض والعمق . وينكر ابن حزم تحقق خصائص الأجسام في اللون مثلاً فليس للون طول وعرض وعمق وإنما هو طول الجسم الملون وعرضه وعمقه فقط وكذلك الطعم والمجسة والرائحة « ويرد ابن حزم على هذا بما يأتي : إنه لو كان للجسم طول وعرض وعمق وكان للون طول غير طول الملون الحاصل له ، وعرض آخر غير عرض الحاصل له وعمق آخر غير عمق الملون الحامل له ، لاحتاج كل واحد منهما إلى مكان آخر غير مكان الآخر ، إذ من أعظم المحال الممتنع أن يكون شيئان طول كل واحد منهما ذراع وعرضه ذراع وعمقه ذراع ، ثم يسعان جميعاً في واحد ليس هو إلا ذراع في ذراع فقط ، ويلزمه مثل هذا في الطعم والرائحة والمجسة ، لأن كل هذه الصفات توجد من كل جهة من جهات الجسم الذي هي فيه ، كما يوجد اللون ولا فرق ، وقد يذهب الطعم حتى يكون الشيء لا طعم له ، وتذهب الرائحة حتى يصير الشيء لا رائحة له ، ومساحته باقية بحسبها « فصح يقيناً أن المساحة للملون والذي له الرائحة والطعم والمجسة لا للون ولا للطعم مكان ولا للرائحة ولا للمجسة » وقد نجد جسماً طويلاً عريضاً عميقاً لا لون له ، وهو الهواء ساكنه ومتحركه ، وبالضرورة ندري أنه لو كان له لون ، لم يزد ذلك في مساحته شيئاً « فالهواء جسم قوى متكثر محسوس » وينتهي ابن حزم من مناقشته بقوله « إن كل أحد يدري أن الطول والعرض والعمق » لو كان لكل واحد منها طول وعرض وعمق ، لاحتاج كل واحد منها أيضاً إلى طول آخر وعرض آخر وعمق آخر ، وهكذا مسلسل إلى

مالا نهاية له ، وهذا باطل ، فبطل قول إبراهيم وهشام ^(١) .
 أليس هذا دليلاً على ما أثاره هشام بن الحكم والنظام من حركة عقلية كبرى حين أعلن الأول
 وتابعه الأخير أن الوجود جسم ! ! ؟

أما تفسير ما يصدر عن الجسم من حركات وأفعال فيفسرها هشام بن الحكم بقوله « الحركات
 وسائر الأفعال من القيام والقعود والكراهية والطاعة والمعصية وسائر ما يثبت المثبتون الأعراض أعراضاً
 أنها صفات الأجسام ، لا هي الأجسام ولا غيرها . إنها ليست بأجسام ، فيقع عليها التغير » إذن كان
 هشام بن الحكم يميز بين الأجسام والأفعال ، لا كما ذهب ابن حزم عنه . ويوضح هذا نص آخر يقول
 فيه هشام : « إن صفات الإنسان ليست أشياء لأن الأشياء هي الأجسام عنده ، وكان يزعم أن
 الحركة معنى وأن السكون ليس بمعنى » ^(٢)

وهنا يقابلنا السؤال الهام ، من أين استمد هشام بن الحكم فكرة الجسم والجسمية ؟ ، هذه
 النزعة التي سادت كتابات هشام بن الحكم ومدرسته الشيعية ، وتلميذه المعتزلي إبراهيم بن سيار
 النظام . . .

لقد حاول الأقدمون الإجابة على هذا السؤال . وقد رأينا من قبل كيف حاول الخياط نسبة آراء
 هشام إلى الديصانية . ثم نجد الأشعري يقول « إنه حكى هذا (أى مقالة هشام) عن بعض
 المتقدمين ، وأنه كان يقول كما حكينا عن هشام ، وأنه لم يكن يثبت أعراضاً غير الأجسام ^(٣) »
 ويقصد بالمتقدمين هؤلاء فلاسفة ليسوا أرسطاطالين ثم يورد الأشعري أن مذهب هشام بن الحكم
 « حكاه أبو عيسى عن أصحاب الطبائع » ^(٤) وأصحاب الطبائع هم في الغالب عند المسلمين -
 الفلاسفة الطبيعيون المتقدمون على سقراط أيضاً . ولكن الأشعري يورد أيضاً عن أبي عيسى أى الوراق
 أن من أهل الثنية من يزعم أن الأعراض صفات الأجسام لا هي الأجسام ولا غيرها ^(٥) . وهذه
 المقارنات الدقيقة حقاً والإشارات إلى صلات بين هشام بن الحكم وبين الثنية على جانب كبير من
 الأهمية . فقد ناقش هشام الثنية وكتب الكتب الكثيرة في نقدهم ونقد الفلاسفة . ولكن يبدو أنه علق
 به بعض آرائهم مما لا يخالف جوهر التوحيد في نظره . إنها فكرة تبادل الأسلحة .

(١) ابن حزم : الفصل ج ٥ ص ٦٧ - ٦٨

(٢) الأشعري : مقالات ج ٢ ص ٣٤٤ - ٣٤٥ .

(٣) الأشعري : مقالات ج ٢ ص ٣٤٤ .

(٤) نفس المصدر ج ٢ ص ٣٤٥ .

(٥) الأشعري : مقالات ج ٢ ص ٣٤٤ .

وقد وجه الخياط الأنظار إلى علاقة هشام بفرقة الثنوية الديصانية أتباع برديسان وقد كانت الديصانية - كما يقول برترل - ميداناً حصياً للفلسفة الغنوصية ، حيث ازدهر التوفيق بين مختلف مذاهب اليونان الفلسفية على نحو لا يوجد في آراء الفرق . وثبت برترل أن هرمونيوس بن برديسان ، والمؤسس الأكبر لفرقة الديصانية ، قد درس في أثينا حوالي العصر الذي ازدهرت فيه الفلسفة الرواقية آخر ازدهارها « وأنه أضاف إلى ضلالات أبيه - وهذا لم يكن غنوصياً صريحاً ولا رواقياً خالصاً - أيضاً ضلالات اليونان التي تتعلق بالنفس وبولادة الأجسام وفنائها وبالحلق الجديد للإنسان بعد الموت . ثم إن المقالات التي رد بها على ابن ديسان تستحق النظر من حيث إنها تدين تأثير أصحاب أفلاطون وتأثير الرواقين حول مدينة الرها ^(١) » فالرواقية إذن كانت منتشرة في مجامع الرها وحلقاتها ، معروفة لدى الديصانية ، وقد حملها هؤلاء إلى المفكرين الإسلاميين في جدهم معهم ، ويبدو أن نزعة هشام بن الحكم الحسية قبلت هذا الأصل الرواقي ، كما قبلت أصولاً أخرى رواقية خلال الديصانية . ومن الملاحظ أن بعض المؤرخين القدامى تنهبوا إلى رواقية ابن ديسان الرهاوي وقد كان للأستاذ فورلاني فضل تنبيهنا إلى هذا - ففي مقال عن ابن ديسان الرهاوي يذكر ملاحظة لسرجيوس الرأس عيني يقرر فيها موافقة ابن ديسان السرياني للرواقين في تجسيمهم كل شيء حتى الألوان والطعوم والروائح والأشكال الهندسية .

ويذكر فورلاني أن سرجيوس الرأس عيني عرف الرواقية عن طريق شراح أرسطو ثم قارن بينها وبين الديصانية ، وانتهى إلى موافقة الأخيرة للأولى ^(٢) . فلا شك أن آراء هشام بن الحكم وآراء النظام المجسمة إنما أخذت عن هذا الطريق .

وهذا ما يذهب إليه الأستاذ الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريده في كتابه الممتاز إبراهيم بن سيار النظام يقول : « إن تأثير الفلسفة الرواقية في آراء المتكلمين الفلسفية من هذا الطريق ممكن على الجملة ، لكن ينبغي ألا نسرف في تطبيق ذلك لعدم وجود مصادر ومعلومات أدق ولأن فلسفة الرواقين لم تكن وحدها بين العرب وأن دراسة العوامل التي أدت إلى نشوء الفكر الإسلامي من حيث البواعث والمادة في ذلك لا يزال من أهم ما يجب أن تتجه إليه جهود الباحثين » وقد وجه هذا العالم الممتاز أنظارنا إلى كتاب يعقوب الرهاوي (وقد عاش يعقوب في النصف الثاني من القرن الثاني والنصف الأول من القرن الثالث الهجري) كتاب الذخائر وهذا الكتاب الذي كتب في السورانية ونقل حديثاً

(١) مقالة برترل : مذهب الجواهر الفرد عند المتكلمين الأوائل ترجمة : الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريده : في كتاب مذهب الدرة عند المسلمين ١٤٤ .

(٢) الدكتور أبو ريده : النظام ص ٦٦ - ٧٧ .

إلى الإنجليزية يشير إلى رأى بعض الفلاسفة المحدثين الذين يقولون بأن الألوان والروائح والعطور والأصوات أجسام وليست أعراضاً . ويذكر يعقوب أنه قابل رئيس هذه الضلالة وناقشه وأبطل أدلته . ويرى الدكتور أبو ريده أن الأقوال المنسوبة للفلاسفة المحدثين في هذا الكتاب هي أقوال هشام بن الحكم والنظام ^(١) .

وإذا كان لا بد من تلمس مصدر خارجي لفكرة هشام بن الحكم في الجسمية وإنكار الأعراض ، فإن هناك أيضاً مصدراً خارجياً يراه هورتن . وهو الهنود فقد كان الهنود ينكرون الأعراض ، ويرون أن القول بوجودها يؤدي إلى التناقض لأن قيام العرض بجسم ، هو عرض يحتاج أن يقوم بشيء آخر إلى نهاية . ولقد كانت السمنية وآراؤها معروفة لدى المسلمين وبخاصة في زمن هشام بن الحكم والنظام ^(٢) .

أما الإسفراييني فيرى أن اليهود هم مصدر أقوال هشام في التشبيه والتجسيم وأن اليهود من قبل أثبتوا لله المكان والحد والنهاية المجيء والذهاب ^(٣) .

كان لا بد لمنطق التجسيم أن ينتهي - وهو في جداله العنيف مع شيخ المعتزلة أبي الهذيل العلاف ، أن ينكر نظرية الجزء لا يتجزأ . وقد نقل إلينا الأشعري أن هشاماً كان يذهب إلى أن الجزء يتجزأ أبداً ولا جزء إلا وله جزء وليس لذلك آخر إلا من جهة المساحة ، وأن لمساحة الجسم آخراً وليس لأجزائه آخر من باب التجزؤ .

ولقد ذهب المعتزلة والأشاعرة من بعدهم إلى القول بالجزء الذي لا يتجزأ لتحقيق شمول القدرة الإلهية . فالقدرة الإلهية تتناول ما هو متناه في التجزؤ . ولكن هشام بن الحكم يرى أن الجسم له آخر في المساحة ، فلا يتعارض هذا مع القدرة الإلهية وإحاطتها بالجسم ، أما الجزء فهو يتجزأ دائماً في داخل الجسم ذى « الآخر » وقد أثر هشام بن الحكم في النظام . وقد وصلت إلينا نصوص النظام ولكن لم يصلنا سوى شذرة أو شذرات قليلة من نقد هشام للمذهب الذري ويقول البغدادي : « وكان هشام يقوم بنى نهاية أجزاء الجسم وعنه أخذ النظام إبطال الجزء الذي لا يتجزأ » ^(٤) كما أثر النظام بدوره في الإمام ابن حزم فأنكر ابن حزم أيضاً كما أنكر هشام والنظام المذهب الذري ، ويقول : « ذهب جمهور المتكلمين إلى أن الأجسام تنحل إلى أجزاء صغار لا يمكن ألبيتة أن يكون لها جزء ، وأن تلك الأجزاء

(١) نفس المصدر : السابق ص ٩ هامش ٣ .

(٢) الدكتور أبو ريده : النظام ص ١١٩ .

(٣) الإسفراييني : التبصير ص ٢٥ .

(٤) البغدادي : الفرق ص ٤٢ .

جواهر لا أجسام لها . وذهب النظام وكل من يحسن القول من الأوائل إلى أنه لا جزء وإن دق إلا وهو يحتمل التجزؤ أبداً بلا نهاية وأنه ليس في العالم جزء لا يتجزأ^(١) وأن كل جزء انقسم الجسم إليه فهو جسم أيضاً وإن رق أبداً ، ويعني من هذا النص إشارته إلى فلاسفة ما قبل النظام « وكل من يحسن القول من الأوائل » فلا شك أنه يقصد بهم الفلاسفة وفلاسفة اليونان على وجه الخصوص . فهل تنبه الإمام الظاهري إلى أنه يأخذ من الفلاسفة وأرسطو بالذات ! ! ؟

أما نقد ابن حزم للقائلين بالجزء الذي لا يتجزأ فهو يعرضه في صورة ردود على ما أسماه بخمس مشاغب لهم . ويهمننا بالذات المشغب الأول ورد ابن حزم عليه . إذ أنه يتشابه تماماً مع الفقرة الوحيدة التي وصلتنا عن هشام بن الحكم في نقده لنظرية الجزء الذي لا يتجزأ . يعرض ابن حزم هذا المشغب كالآتي : فأول مشاغبيهم أن قالوا أخبرونا إذا قطع الماشي المسافة التي مشى فيها ، فهل قطع ذا نهاية . فهذا محال . وإن قلتم قطع ذا نهاية ، فهو قولنا .

ورد ابن حزم : إننا لم نرفع النهاية عن الأجسام كل من طريق المساحة ، بل نثبتها ، ونعرفها ، ونقطع على أن كل جسم فله مساحة محدودة أبداً ، وإنما نفينا النهاية عن قدرة الله تعالى على قسمة كل جزء وإن دق ، وأثبتنا قدرة الله تعالى على ذلك ، وهذا هو شيء غير المساحة ، ولم يتكلف القاطع بالمشي أو بالذراع أو بالعمل قسمة ما قطع ولا بتجزئته ، وإنما تكلف عملاً ، أو مشى في مساحة معدودة بالليل أو بالذراع أو الشبر أو الأصبع أو ما أشبه ذلك ، وكل هذا له نهاية ظاهرة ، وهذا غير الذي نفينا وجود النهاية فيه ، هذا فعلاً هو اعتراض هشام بن الحكم الوحيد الذي ظفرنا به ، ولكنه هنا مفسر ومفصل . فالجسم له مساحته ينتهي إليها ولكن هو نفسه - تحقيقاً للقدرة الإلهية - ينقسم إلى مالا نهاية . فقدرة الله تقسم الجزء إلى جزء والجزء إلى جزء إلى مالا نهاية . ومن العجب أن يجعل أبو الهذيل القول بالجزء الذي لا يتجزأ أيضاً فرعاً عن القدرة الإلهية فالله القادر على كل شيء ، قادر على تفريق الجسم إلى جزء أو مقدار لا تأليف ولا تركيب فيه . فنكرو الجزء الذي لا يتجزأ ومثبته يثقلون جميعاً بفكرة تحقيق القدرة الإلهية .

وببدو أن هشام بن الحكم كان أول من ابتدع فكرة الطفرة وينقل الأشعري أن أصحاب هشام بن الحكم يقولون إن الجسم يكون في مكان ثم يصير إلى المكان الثالث من غير أن يمر بالثاني^(٢) . فهل تكلم هشام بن الحكم في الطفرة ؟ أم أن أصحابه من بعده وافقوا النظام في قوله بها . . . ؟

(١) ابن حزم : الفصل ج ٥ ص ٩٢ .

(٢) الأشعري . مقالات : ج ١ ص ٢٢٧ .

والبغدادي يصرح بأن قول النظام بالطفرة لم يسبق إليه أحد قبله ^(١) . كما أن الأشعري ينسب إليه أيضاً القول بالكون ^(٢) .

وينتج عن القول بالكون فكرة تداخل الأجسام ، ويذكر البغدادي أن هشاماً قال : بمداخلة الأجسام بعضها في بعض كما أجاز النظام تداخل الجسمين اللطيفين في حيز واحد ^(٣) . وفي نص آخر يقول الأشعري : إن هشاماً يقول بالمداخلة ويثبت لون الجسمين اللطيفين في مكان واحد كالحرارة واللون ^(٤) .

ومعنى المداخلة - فيما يقول الأشعري « أن يكون حيز أحد الجسمين حيز الآخر ، وأن يكون أحد الشئيين في الآخر ^(٥) » وليس ين أيدينا نصوص واضحة تفسر لنا نظرية هشام بن الحكم في التداخل اللهم إلا إذا قلنا إنها نظرية النظام ، وهي تداخل جسمين لطيفين الواحد في الآخر ، أو جسم لطيف وجسم كثيف . وقد اختلف في مصدر النظرية - هل أخذها النظام وبالتالي هشام من الرواقية أو من أنكسا غوراس أو من الثنوية .

ويبدو أن نزعة الرجل العلمية الحسية ملكت عليه كل تفسيراته . فيفسر الزلازل بأن الله خلق الأرض من طبائع مختلفة أو أنها مركبة من طبائع مختلفة أو أنها مركبة من طبائع مختلفة يمسك بعضها بعضاً ، فإذا ضعفت طبيعة منها ، غلبت الأخرى ، فكانت الزلزلة . وإن ازدادت الطبيعة ضعفاً . كان الخسف ^(٦) . وهل يمكن أن نربط هذا التفسير بالمداخلة ؟ أي إذا تداخلت طبيعة من الطبائع المكونة للأرض بالطبيعة الأخرى حدثت الزلازل . أم أن هذا فقط تفسير علمي له لحدوث الزلازل والخسف .

وهشام بن الحكم يفسر المطر أيضاً بأنه جائز أن يكون ماء يصعده الله « بخارا » ثم يطره على الناس ، وجائز أن يخترعه الله في الجو ثم يطره . ويقر هشام أن الجو جسم رقيق ^(٧) .

(١) البغدادي : الفرق ص ٤١ .

(٢) الأشعري : مقالات ج ٢ ص ٤٢٩ .

(٣) البغدادي : الفرق ص ٤٢ .

(٤) الأشعري : مقالات . . ج ١ ص ٦٠ .

(٥) الأشعري : مقالات . . ج ١ ص ٥٢٧ .

(٦) الأشعري : مقالات : ج ١ ص ٦٣ والبغدادي : الفرق ص ٤٢ .

(٧) الأشعري : مقالات ج ١ ص ٦٣ .

٣- العالم الإنساني

(١) الإنسان :

يقول هشام بن الحكم : الإنسان اسم لمعنيين : لبدن وروح ، فالبدن موات والروح هي ^(١) الفعالة الحساسة الداركة دون الجسد ، وهو نور من الأنوار ومن العجيب أن يقول هشام بن الحكم ذو التزعة الحسية إن الروح هي الفعالة الحساسة الداركة دون الجسد ، وأن يعتبر الروح نوراً من الأنوار . ولكن يبدو إذا فسرناه في ضوء تلميذه النظام - أن الروح عنده جسم لطيف يداخل جسماً كثيفاً هو البدن . وأن الروح - لأجل لطافتها هي التي تدرك وتحس . هذا تفسير ، ومن ناحية أخرى ما الذي دعا هشاماً إلى قوله هذا ؟ هل هو نقد لعدوه المعتزلي ومعاصره أبي الهذيل العلاف . وهذا الأخير يذهب إلى أن الإنسان هو الشخص الظاهر المرئي الذي له يدان ورجلان ، أي هو الجسد . المكون من أجزاء لا تتجزأ وهل نعتبر ، « نوراً من الأنوار » إشارة إلى مصدر الفكرة الديصانية والرقونية وهي أن الإنسان هو الروح ^(٢) ، وهل هذا ما دعا النظام إلى أن يقرر أن الروح ليست نوراً ولا ظلمة حتى يعارض الأصل الثنوي لفكرة هشام ؟ مع أنه هو نفسه أخذ بجوهر تعريف هشام . وهو أن الإنسان هو الروح . إننا نتوقف عن الحكم . لأن النصوص التي تركت لنا عن هشام قليلة .

غير أن ابن حزم يرى أن مصدر فكرة أن الإنسان هو الروح ، على الحقيقة ، هو القرآن ، كما أن مصدر فكرة أن الإنسان هو الجسم هو القرآن أيضاً . أما أدلة الأولين من القرآن فهي الآية ، « إن الإنسان خلق هلوعاً ، إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً » ^(٣) ويقول ابن حزم : إن الهلع والجزع والمنع صفات النفس لا صفات الجسد ، لأن الجسد موات والنفس هي حياة ، وهي الفعالة المميزة حاملة لهذه الأخلاق وغيرها . ثم يستمد أيضاً سنداً لهذه الفكرة من الحديث حين خاطب الرسول ﷺ يوم بدر قتلى المشركين - وأخيراً أنهم وجدوا ما توعدهم به حقاً ، قبل أن يكون لهم قبور فقال المسلمون : يا رسول الله أنخاطب قوماً قد جيفوا ؟ فقال عليه السلام : ما أنتم بأسمع لما أقول منهم . فلم ينكر عليه الصلاة والسلام على المسلمين قولهم : إنهم قد جيفوا . وأعلمهم أنهم سامعون ،

(١) الأشعري : مقالات ج ١ ص ٦٠ . ٦١ ج ٣ ص ٣٣١ .

(٢) المصدر السابق : ج ٣ ص ٣ .

(٣) ابن حزم : الفصل ج ٥ ص ٦٥ - ٦٦ .

نصح أن ذلك لأرواحهم فقط بلا شك وأما الجسد فلا حس له . كما أن في آثار الصحابة ما يدل على ذلك . فقد دخل عبد الله بن عمر المسجد الحرام فأبصر عبد الله بن الزبير مطروحاً قتيلاً وذلك قبل أن يصلبه الحجاج بن يوسف الثقفي ويحانب الجثة أمه أسماء بنت أبي بكر . فقليل له : هذه أسماء بنت أبي بكر . قال إليها وعزاها وقال : إن هذه الجثث ليست بشيء ، وإن الأرواح عند الله . فقالت أسماء : وما يمنعني . وقد أهدى رأس يحيى بن زكريا إلى بغى من بغايا بنى إسرائيل .

وينتهي ابن حزم إلى القول بأن « الأرواح باقية عند الله ، وأن الجثث ليست بشيء^(١) . وهذا يدل على أن تفسير الإنسان بأنه الروح وأنها هي الحساسة الداركة قرآني المصدر أو على الأقل أنه كان هناك اجتهاد في النصوص لدى هشام والنظام من بعده .

أما أدلة القائلين بأن الإنسان هو الجسد ، فإن ابن حزم يرى أيضاً أنه اجتهاد في تفسير الآيات . فالقرآن يقول « خلق الإنسان من صلبا كالْفَخَار » ويقول : « فلينظر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب » وبقوله تعالى « أئحسب الإنسان أن يترك سدى ، ألم يك نطفة من منى مئى ، ثم كان علقة فخلق فسوى » ويرى ابن حزم أن هذه بلاشك صفة للجسد . لا صفة للنفس ، لأن الروح إنما تنفخ بعد تمام خلق الإنسان الذى هو الجسد^(٢) ومن المغالاة القول بأن مصدر هذا البحث قرآني فقط ، وإنما المنهج الصحيح لتفسير مصدر أقوال هشام ، هو أن هشاماً اجتهد في النصوص ، وكذلك عدوه أبو الهذيل ووصلوا إلى نتائج فلسفية ، ثم وجدا - فيما قبلهم من فلسفات ما يؤيد نظرياتهم ، فأخذوا بها .

(ب) الجبرية والحرية :

ماذا كان موقف هشام بن الحكم من المشكلة الأخلاقية . إرادة الإنسان : هل هي جبر أم اختيار ؟ إن النصوص قليلة جداً . ولكن الأشعري ينقل لنا نصاً هاماً عنه يقول فيه « إن أعمال العباد مخلوقة لله »^(٣) ونصاً آخر عن جعفر بن حرب المعتزلي أن هشاماً كان يقول « إن أفعال الإنسان اختيار له من وجه ، اضطرار من وجه ، اختيار من جهة أنه أرادها ، واضطرار من جهة أنها لا تكون منه إلا عند حدوث السبب المهييج لها »^(٤) . ونرى من هذا أن هشاماً في النص الأول جبرى ، وفي النص الثانى كسبى أو أقرب إلى كسب الأشاعرة الذين نادوا به من بعد . إن تفسير مذهب هشام هو أن الإنسان يختار الفعل مقترناً بسبب خارجي مثير ، ويفسر موقف هشام فكرته عن الاستطاعة « أن

(١) ابن حزم : الفصل ج ٤ ص ٦٧ - ٦٨ . (٣) الأشعري : مقالات ج ١ ص ٤١ .

(٢) ابن حزم : الفصل ج ٥ ص ٦٦ . (٤) الأشعري : مقالات ج ١ ص ٤٢ ، ٤٣ .

الاستطاعة خمسة أشياء : الصحة وتخلية الشئون والمدة في الوقت والآلة التي بها يكون الفعل كاليد التي يكون بها اللطم والفأس التي تكون بها النجارة والإبرة التي تكون بها الخياطة وما أشبه ذلك من الآلات ، والسبب الوارد المهيج الذي من أجله يكون الفعل ، فإذا اجتمعت هذه الأشياء ، كان الفعل واقعاً ، فمن الاستطاعة ما هو قبل الفعل ، موجود ، ومنها ما لا يوجد إلا في حال الفعل وهو السبب ، وزعم أن الفعل لا يكون إلا بالسبب الحادث ، فإذا وجد ذلك السبب وأحدثه الله ، كان الفعل لا محالة ، وأن الموجب للفعل هو السبب ، وما سوى ذلك من الاستطاعة لا يوجب . لا بد إذن من الاستطاعة ، وهي جسم . وهي بعض المستطيع . وهي السلامة عن الآفات . وصحة الحواس . والمدة ، ولكن لا يتحقق الفعل ، إلا إذا حدث السبب ، فنحن إذن في الأسباب وفي متعلقات الأسباب ، فأعمالنا إذن معلومة لعل ، ولا شيء أكثر . لا جرم بعد ذلك أن يقول الخياط : «أما جعلتهم ومشايخهم (أى الرافضة مثل هشام بن سالم وشيطان الطاق وعلى بن هيثم وهشام بن الحكم وعلى بن منصور والسكالك) فقولهم في القدر : إن الكافر كفر بعله وبسبب من قبل الله ألجأه إلى الكفر ، بل ألجأه إلى كفره واضطراه إليه ، وأدخله فيه . وإن الله يشاء كل فاحشة ويريد كل معصية (١)» .

ومن الواضح أن هشام بن الحكم تلميذ أمين هنا لجهم بن صفوان . فقد وافقه في العلم الحادث ووافقه أيضاً في الجبر . وفي الحق أن موقفه ينقصه التوازن بين أجزاء المذهب . ولقد أثر هشام بن الحكم في إبراهيم بن سيار النظام ، وإن من الصعوبة أن ندرج النظام في سياق المذهب القدرى المعتزلى بل يضطرب رأيه كثيراً في مسألة الإرادة الإنسانية بحيث يبدو قريباً من الجبر ، وهذا بلا شك أثر من آثار هشام فيه .

(ج) عصمة الأنبياء والأئمة :

يبدو أن المسألة أثرت منذ وقت مبكر في تاريخ الإسلام وقد اتهم هشام بن الحكم بأنه يقول بعصمة الأئمة بينما يجوز المعصية على الأنبياء ويذهب الأشعرى إلى أن هشاماً زعم أن النبي ﷺ جائر عليه أن يعصى الله لأن الرسول إذا عصى ، فالوحي يأتيه من قبل الله ، فيرده عن خطئه وعصيانه ، أما الأئمة فلا يوحى إليهم ، ولا تهبط عليهم الملائكة فهم معصومون ، فلا يجوز عليهم أن يسبوا ولا يغلطوا (٢) وقد رد البغدادي نفس هذا الكلام . وأنه تأول على ذلك قول الله تعالى «ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر» فالرسول إذن يرتكب الذنب ، ولكن الله يرده . (٣)

(١) الخياط : الانتصار .

(٢) البغدادي : الفرق ص ٤٢ .

(٣) الأنصرى : مقالات ج ١ ص ٤٨ .

وكذلك الشهر ستانى فإنه يقول « إنه نقل عنه أنه أجاز المعصية على الأنبياء مع قوله بعصمة الأئمة ويفرق بينها أن النبي يوحى إليه ، فينبه على وجه الخطأ ، فيتوب منه ، والإمام لا يوحى إليه فيجب عصمته (١) .

وليس هناك نص واضح يبين رأى هشام بن الحكم فى علم ومعجزات وأعلام الأئمة . ونحن نعلم أنه كان من خواص جعفر الصادق وابنه موسى الكاظم . وأن الشيعة فى عصرهما زعموا أن الإمام يعلم كل ما كان وكل ما يكون ولا يخرج شئ عن علمه من أمر الدين والدنيا . وأنه يعرف جميع أنواع الكتابة واللغات ؛ ولكى يبرروا هذا أنكروا أمية الرسول محمد ﷺ ، بل ذهبوا إلى أنه كان كاتباً ويعرف الكتابة وسائر اللغات (٢) ولكن لم يترك لنا نص عن هشام يبين رأيه فى هذا كما أنه لم يترك لنا نص واضح يبين رأيه فى ظهور الكرامات والمعجزات على يد الأئمة . وإن كان قد ترك عنه . أنه كان يحيز المشى على الماء لغير نبي ، ولا يجوز أن تظهر الأعلام المعجزة على غير نبي (٣) وهذا نص متناقض أومبتور . ولكن قوله بعصمة الأئمة وعدم تنزل الوحي عليهم يننى نفياً باتاً أنه يقول بظهور المعجزات على أيديهم . وقد ذكر الشهر ستانى أن هشاماً غلا فى حق على حتى قال « إله واجب الطاعة » وهذا خطأ من الشهر ستانى ويجب ألا يلتقى إليه بال (٤) .

فإذا انتقلنا إلى الناحية الاستمولوجية فى الإمام ، فالمعرفة كلها باضطراب عند الشيعة بل إن الخلق جميعاً مضطرون وأن القياس والرأى لا يؤديان إلى علم وما تعبد الله العباد بهما . فعلم الإمام علم معصوم ، يقول هشام بن الحكم « إن المعرفة كلها اضطراب بإيجاب الحلقة ، وأنها لا تقع إلا بعد النظر والاستدلال ، يعنون بذلك بما لا يقع منها إلا بعد النظر والاستدلال ، العلم بالله عز وجل (٥) هل هنا تراجع عن موقف الإمامية العامة ، اللجوء إلى النظر والاستدلال لاستكناه المعرفة الاضطرابية . أو هو إشارة إلى عالم الذر حيث ألقى الله المعرفة فى الناس اضطراباً . ! !

ويبدو أنه كان لهشام بن الحكم تفسير قرآنى ، أو أن الرجل كان يستخرج أشياء من لطيف الكلام منه . وهو يفسر لنا الأنواع الثلاثة من الكائنات الغيبية فالنوع الأول هو الجن : ويبدو أن المعتزلة كانت تنكر الجن ، ولكن هشام بن الحكم يثبت وجودهم ويشرح الآيات : يا معشر الجن والإنس إن استطعتم . إلى . . . فبأى آلاء ربكما تكذبان « فىرى أنهم موجودون ، وأنهم مأمورون منهيون ثم يفسر النوع الثانى وهو الشيطان فيتكلم فى وساوس الشيطان فيقول مفسراً للآية : (الوسواس الخناس الذى

(٤) الشهر ستانى : الفرق ج ١ ص ٣١٣ .

(١) الشهر ستانى : الملل ج ١ ص ١١٣ .

(٥) الأضرى : مقالات ج ١ ص ٦٢ .

(٢) الأضرى : مقالات ج ١ ص ٥٠ .

(٣) نفس المصدر : ج ١ ص ٦٣ .

يوسوس في صدور الناس) بأنه مجرد خاطر ، ولكن لا يحل الشيطان أبدان الناس . وأن الجرادة الشيطان حيث يعيش ويصل بالجو إلى القلب ، أى تصل آثاره وخواطره ، بدون أن يدخل فيه . وأن الشيطان يعلم ما يحدث في القلب ، وليس ذلك بغيب ، لأن الله قد جعل عليه دليلاً ، « مثل ذلك ، أن يشير الرجل إلى الرجل أن أقبل ، أو أدبر ، فيعلم ما يريد ، فكذلك إذا فعل الإنسان فعلاً يريد شيئاً من الخير أو البر عرف الشيطان ذلك ، فينبه الإنسان عنه ويزين له عدم فعله .

والنوع الثالث من الموجودات الخفية هو الملائكة وقد رأى هشام - خلال تفسيره القرآن - أنهم مأمورون منيرون . فالله يقول « ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم . وقال : يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون ^(١) »

وأخيراً حارب الرجل السحر ، وقد كان منتشرًا في أوساط الغلاة ، ينسبون للأئمة وينسبون لأنفسهم ، فكان يقول عنه « إنه خديعة ومخاريق ، ولا يجوز أن يقلب الساحر إنساناً حياً ، أو العصا حية ^(٢) » وهو لا ينكر « قلب العصا حية فيما يذكره القرآن عن سحرة فرعون ، فإن سياق القرآن يدل على أنه خيل إليهم من سحرهم أنها تسعى .

وبعد : فقد أردنا أن نرسم صورة تركيبيّة متكاملة لهشام بن الحكم ، وقد كان أكبر شخصية فلسفية في عصره ، أحاط بثقافتها ، ونزل في معترك الفرق ، فجادلها أشد جدال ، لم يكن غرضاً على الإطلاق - ديصاناً أو مرقونياً أو مانوياً بل إنه حارب كل هؤلاء أشد الحرب ، ولكن علق منهم به آثار ، وناقش الفلاسفة المشائين وكتب عليهم ، فاتصلت منهم به رواقية لاشك فيها ، وتتلذذ على جهنم ، وترك جهنم آثاره فيه ، وأنكر الغلاة وجادلهم ، فاتصلت بعض آثارهم به . كان المقدم فعلاً في دقيق الكلام وجليله ، كما كان صاحب غور كما قال الشهرستاني . وكرهه المعتزلة ، وشغل شغلهم وشغل مجامعهم وهجاه شعراؤهم فقالوا :

ما بال من يتحلل الإسلاماً متخذاً إمامه هشاماً ^(٣)
ثم كان أكبر تلامذته واحداً منهم وهو النظام ، لقد نفذ إلى أعماق المذهب المعتزلي خلال هذا الشيخ الكبير من شيوخ المعتزلة ، كما نفذ أيضاً إلى أعماق أهل الحديث ، فانتشر تجسيمه بينهم كما أثرى الكرامية وفي السلف للتأخرين من أمثال ابن تيمية ومدرسته ولعل سكوت ابن تيمية عنه ، وهو الذي لم يسلم عالم من علماء المسلمين من قلمه ، أن تجسيمه صادف هوى في نفس ابن تيمية . ولم يخلص

(١) الأشعري . مقالات ج ١ ص ٦٢ .

(٢) الأشعري : مقالات ج ١ ص ٦٣ .

(٣) الحياط : الانتصار ص ١١٩ .

الفكر الكلامي العقائدي من أثره إلا حين تكون المذهب الأشعري ، فخلص عقائد أهل الحديث من الحشو والتشبيه والتجسيم ، ومن كل ما علق عقائد المسلمين من عناصر أجنبية ، وقد تنبه المستشرق الكبير أوتوبرتزل في مقاله الممتاز «مذهب الجوهر الفرد عند المتكلمين الأولين في الإسلام فقال : «ورغم أنه منذ العصر الإسلامي الأول قد وجهت حرب شديدة على المعتنقين للمذهب الثنوي المجاهرين بعقيدتهم ، فقد بقي تعارض مستتر بين الدين الإسلامي وبين الآراء الفلسفية الأخرى ، ثم يوضح هذا توضيحاً أكثر فيقول : ، وبعبارة أخرى ، فقد بقيت في المجتمع الإسلامي آراء الثنوية الذين انتقلوا إلى هذا الدين ، وصارت تفعل ما تفعله الذئاب في الغم ولم تزال موجودة حتى أخذ مذهب أهل السنة يتكون على مهل . ويتبين أنها لا تلتئم مع الإسلام ، وأخذ يستبعداها من جملة الآراء الكلامية الإسلامية . وإذا نظرنا للأمر من هذه الجهة ، أمكن أن نتصور أن تكون العقائد الإسلامية لم يكن دخولاً فقط ، بل كان أيضاً خروجاً تدريجياً لأفكار مسيحية ومانوية وغنوصية ، وما يتصل بذلك من آراء فلسفية يونانية ^(١) .

وهذا دليل واضح على ما قام به الأشاعرة من تخليص العقائد الإسلامية مما لحقها من آثار مجادلات هشام وتلامذته والمعتزلة ورجالهم مع الثنوية والفلسفة اليونانية والمسيحية واليهودية . وأياً ما كان الأمر ، فقد كان هشام بن الحكم مرحلة حاسمة في تاريخ الفكر الإسلامي . وسنحاول في الفصل المقبل تتبع آثاره في مدرسته الشيعية الإمامية .

(١) انظر الترجمة العربية لهذا المقال القيم في النص العربي لكتاب : مذهب الذرة عند المسلمين ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة .

الفصل الثالث

مدرسة هشام بن الحكم

كان هشام بن الحكم - كما رأينا - رائد التجسيم في الفكر الفلسفي الإسلامي . ولم يفهم الشيخ المفيد حقيقة فكر هشام بن الحكم ولم ينفذ إلى أعماق مذهبه المتكامل . بل راح تحت تأثير معتزلي متأخر يحاول تبرئة هشام بن الحكم من القول بالجسمية فقال : « لم أقف على وجه مخالفته لسائر الشيعة في باب أسماء الله الحسنى إلا ما نسب إليه من إطلاق لفظة أنه جسم لا كالأجسام والذي حكى رجوعه عنه »^(١) وهذا خطأ بالغ من الشيخ المفيد ، فهشام بن الحكم لم يرجع عن مذهبه الجسمي ، وإلا انهدمت النظرية المشامية كاملة ، ولم يكن جعفر الصادق في حاجة إلى أن يأمره بالكف عن مذهبه ، طالما كانت الفرق المختلفة يجادل بعضها البعض في حقيقة « الوجود » « والله » وكان تصور « الجسم » سائداً لدى بعض الفرق ، تتناوله ببساطة ، وتذكره بدون ما حرج . كما دخل مصطلح « الجوهر أو الماهية » فيها بعد ، واختلف المتكلمون في نسبتها إلى الله ، فأثبتها بعض وأنكرها الآخر . كما أن إنكار نسبة العلم الحادث إلى هشام أيضاً^(٢) لا معنى له ، فن الثابت أن هشام بن الحكم تتلمذ على جهنم بن صفوان وعرف آراءه ، وأخذ ببعضها . والعلم الحادث المتجدد بتجدد المحدثات نظرية فلسفية أيضاً . فلا محل إذن لقول الشيخ المفيد : « نقول إن الله تعالى عالم بكل ما يكون قبل كونه وأنه لا حادث إلا وقد علمه قبل حدوثه ولا معلوم إلا وهو عالم بحقيقته . هذا هو مذهبنا ، ولسنا نعرف ما حكاه المعتزلة عن هشام بن الحكم في خلافه ، وعندنا أنه تخرص منهم عليه ، وغلط من قلدهم ، ومعنا فيما ذهبنا إليه جميع المنتسبين إلى التوحيد سوى الجهنم بن صفوان من المجبرة وهشام بن عمرو الفوطي من المعتزلة ، فإنها يزعمان أن العلم لا يتعلق بالمعبدوم ولا يقع إلا مع موجود والله لو علم الأشياء قبل كونها لما حسن منه الامتحان » إن النقد الباطني لنصوص هشام يثبت أنه بقي أميناً لفكرته ، وبخاصة أنها لا تقدح في التوحيد إنما هي فقط صورة لاجتهاد في النصوص . ولكن الشيخ المفيد يتنبه إلى أن هشاماً كان في أول أمره جهمياً ، ثم رجع عن جهميته بعد ما لقي الإمام الصادق وأن المعتزلة تقولوا عليه هذه الأقاويل ، ثم يذكر الشيخ المفيد أنه من المحتمل جداً أن تكون هذه الحجج قد أوردها هشام إلزاماً للمعتزلة . وهنا يناقض الشيخ نفسه . إنه يقرر أولاً بأن هشاماً آمن بالعلم الحادث خلال

(١) الشيخ المفيد : أوائل المقالات ٣٧ - ٣٨ . (٢) نفس المصدر : ص ٥٦ - ٥٧ .

اتصاله الباكر بالمذهب الجهمي ، ثم يذكر ثانية أنه من المحتمل أنه قال بها إلزاماً للمعتزلة . ثم نسبها المعتزلة إليه كراى من آرائه . ولعل السبب الرئيسى فى إنكار المفيد لنسبة هذه الآراء لهشام أنه كان هو نفسه قد دخل فى الطور الثانى من أطوار المذهب الإمامى ، وهو الطور الاثنى عشرى الذى تميز بمعتزليته الواضحة . فأخذ ينسب عن هشام ما اتهمه به هؤلاء ، ومهما حاول المجتهدون المتأخرون من محاولات فى هذا السبيل ، فإن مذهب هشام يقف متمسكاً ، مختلفاً تمام الاختلاف عن مذهب المعتزلة ومذهب الاثنى عشرية المعتزلى :

وقد أثر هشام فى معاصريه من متكلمي الإمامية ، فسادت النزعة التجسيمية كتاباتهم ، وكلهم - كما قلت فى السابق - من جلة أصحاب الإمام جعفر الصادق ، ومن أقران هشام بن الحكم . وأهم رجال هذه المدرسة هو هشام بن سالم الجواليتى ، وقد نسب التجسيم والتشبيه إلى الرجلين معاً : هشام بن الحكم وهشام بن سالم ، واختلطت آراؤهما اختلاطاً كاملاً ، فنسبت الفرقة إليهما معاً - فقليل لها المشامية ، وقيل عنها المشامان . أما اسم هشام بن سالم الكامل فهو هشام بن سالم الجواليتى الجعنى مولى بشر بن مروان ، وكنيته أبو محمد أو أبو الحكم ، من سبى جوزجان ولا نعرف تاريخ ميلاده ولا تاريخ وفاته . ولكن يجمع المؤرخون على أنه كان معاصراً لهشام بن الحكم ، وإن كان أكبر منه فى السن ، وقد كتب هشام بن الحكم كتاباً « فى الرد على هشام الجواليتى »^(١) . ولكن كتب الشيعة تجمع على مدحه . ولم يذكر لنا اسم كتبه ، غير أن ابن النديم يذكر فى الكتب المصنفة فى الأصول كتاب هشام بن سالم^(٢) . ويبدو أن له أيضاً كتاباً فى الإمامة .

ويذهب الشهرستاني إلى أنه نسج على منوال هشام بن الحكم فى التشبيه^(٣) . وكذلك يذهب الحياط^(٤) أما البغدادي فيقول : هذا الجواليتى مع رفضه على مذهب الإمامية مفرط فى التجسيم والتشبيه^(٥) .

وقد أعلن هشام بن سالم أن الوجود جسم « وأنه لا شىء فى العالم إلا الأجسام . وأجاز أن يفعل العباد الأجسام » فهو يتابع إذن هشام بن الحكم فى فكرته المجسمة ، ولكن ما هى صورة الله عنده ؟ هل هو جسم أم ليس جسماً ، وهل الجسم عنده بمعنى الوجود - كما هو عند هشام بن الحكم ، وأنه لا أجزاء له مؤلفة وأبعض متلاصقة ؟ لا نظفر من هشام بن سالم بنص صريح فى هذا . ولكنه يقدم لنا تفسيراً جديداً لله وهو أن الله على صورة الإنسان ، ويبدو أنه يستند فى هذا على الأثر اليهودى « خلق

(١) ابن النديم : الفهرست ص ١٧٤ ، ١٧٥ .

(٢) الحياط : الإنتصارى ص ٦ .

(٣) المصدر السابق : ص ٣٣٢ .

(٤) البغدادي : الفرق ٤٣ .

(٥) الشهرستاني : الملل ج ١ ص ٣٠٨ .

الله آدم على صورته» ولكنه ينكر أن يكون الله لحماً ودماً. ولكنه على صورة إنسان نوراني «هو نور ساطع يتلألأ بياضاً» ويبدو هنا أنه يفسر «الله نور السموات والأرض» وأنه ذو حواس خمس كحواس الإنسان، له يد ورجل وأنف وأذن وعين وفم» أى له اللمس والشم والسمع والبصر والذوق «وهذا إلزام بلا شك»، ثم إنه يسمع بغير ما يبصر به وكذلك سائر حواسه متغايرة ^(١) ثم «إن نصفه الأعلى مجوف ونصفه الأعلى مصمت»، ثم إن لله وفرة سوداء، وأنه نور أسود وباقيه نور أبيض، وأن له قلباً تتبع منه الحكمة ^(٢). وهذا عبث حقيقى نقله إلينا البغدادى عن أبى عيسى الوراق.

إن من الواضح أن التجسيم فى مختلف صورته ساد المدرسة الإمامية إبان ذلك الوقت، فهشام بن الحكم يدعو الله جسماً لا كالأجسام، ويرى أن الجسم بمعنى موجود وأن الله مستو على العرش بلا ممارسة ولا كيفية. وفرقة أخرى ولا ينسبها الأشعرى لشخص ترى أن الله على صورة الإنسان وتمنع أن يكون جسماً. وفرقة ثالثة - وهى فرقة هشام بن سالم - وهى تقرب من الفرقة الثانية، وهى ترى أن الله على صورة الإنسان ولكنه ليس لحماً ولا دماً، وفرقة رابعة وهى تقرب أيضاً من الفرقة الثالثة، وهى تقول إن الله ضياء خالص ونور بحت وهو كالمصباح الذى من حيث جثته يلقاك بأمر واحد، وليس بذى صورة ولا أعضاء ولا اختلاف فى الأجزاء، وأنكرت هذه الفرقة أن يكون الله على صورة الإنسان أو على صورة شيء من الحيوان، فهى تقرب إذن من الجواليقية فى زعمها أن الله نور وتختلف عنها فى أنها تنكر أنه على صورة الإنسان.

ثم هناك طائفة أخرى تقول: إنه جسم، ولكنها تنكر أن يكون موصوفاً بلون أو طعم أو رائحة أو مجسة، أو شيء مما وصفه به هشام، غير أنه على العرش مماس له، وطائفة تثبته ملوناً ولكن لا طعم له ولا رائحة ولا مجسة، أو أن يكون طويلاً وعريضاً وعميقاً.

وطائفة أخرى تقول إن الله هو الفضاء وهو جسم تحل الأشياء فيه ليس بذى غاية ولا نهاية، وطائفة أخرى تقول: هو الفضاء وليس بجسم والأشياء قائمة به. من هذا نرى أن فكرة التجسيم هى الأساس فى التفكير الشيعى الإمامى إبان ذلك الوقت، ولكن أضاف أعداء الإمامية إلزامات ضمنوها مذاهب هؤلاء.

وأخيراً - نتساءل: ما هو مصدر فكرة الإله الإنسانى عند هشام بن سالم؟ قلنا من قبل: إنه الحديث الإسرائيلى «إن الله خلق آدم على صورته» ويبدو أن مقاتل بن سليمان من قبل وداود الجوارى - والأخير شيعى غال - ذهبوا إلى أن الله جسم، وأنه جثة على صورة الإنسان له لحم ودم وشعر وعظم، وله جوارح وأعضاء من يد ورجل ولسان ورأس وعينين، وهو مع هذا لا يشبه غيره

(١) الأشعرى: مقالات ج ١ ص ٣٤. (٢) البغدادى: الفرق ص ٤٢، ١٣٩.

ولا يشبهه غيره ؛ ثم زادت فكرة التشبيه ووصف الله بصفات المخلوقين . فيذهب داود الجوارري إلى أن الله أجوف من فيه إلى صدره ، مصمت ما سوى ذلك أما مصمت فهي تأويل لقول الله « الصمد ، المصمت الذى ليس بأجوف »^(١) .

أما قول هشام بن سالم فى الإرادة فهو قول هشام بن الحكم : إرادته حركة وهى معنى لا هى الله ولا هى غيره ، وأنها صفة الله ليست غيره ، وأن الله إذا أراد شيئاً ، تحرك ، فكان كما أراد الله . ووافق أبو مالك الحضرى وعلى بن ميثم الهشامين فى قولها إن إرادة الله غيره وهى حركة لله ولكنه خالفها ، وقال : إن إرادته حركة ، وأنها غير الله بها يتحرك^(٢) .

قلنا من قبل إنه قال الوجود جسم ، وليس فى العالم إلا جسم . وأن أفعال العباد أجسام . ومعنى هذا أن الاستطاعة جسم ، وهى بعض المستطيع ، وهذا يؤدى إلى أن الإنسان يستطيع أن يفعل الأجسام . والاستطاعة قبل الفعل .

وينسب إليه الأشعرى كما ينسب إلى شيطان الطاق : أن حركات العباد وأفعالهم وسكناتهم أشياء ، وهى أجسام ، وأنه لا شىء إلا الأجسام وأن العباد يفعلون الأجسام^(٣) . هل يريد هشام بن سالم أن يقرر حرية الإنسان . لا نستطيع أن نذهب إلى هذا المدى ، وليس بين أيدينا نصوص كافية . ثم ينسب إليه الحياط أنه يقول بالبداء ، وأن الله يبدو منه البدوات^(٤) . ولا شك أن البداء عقيدة عامة فى المذهب الإمامى اعتنقها مفكروهم جميعاً .

والشخصية الثانية فى مدرسة هشام بن الحكم هى شخصية زرارة بن أعين ويكنى أبو على (المتوفى عام ١٥٠هـ) .

وقد أجمعت المصادر على أنه كان رومى الأصل . كان أبوه عبداً رومياً ، كما كان جده سنيس راهباً فى بلاد الروم . ونشأ أعين فى الكوفة وتعلم القرآن فأعتقه سيده وكان رجلاً من بنى شيان وعرض عليه أن يدخله فى نسبه ، فرفض أعين ذلك وقال : أقرئ على ولأنى ، وقد ولد ثلاثة أبناء : بكير وحرمان وزرارة وكان الثلاثة يتشيعون وكان حرمان أشدهم تشيعاً ، ولكنه لم يشتهر شهرة زرارة فى الكلام ، وإنما كان نحوياً . وقد تكلم ابن النديم عن آل زرارة بن أعين وذكر أنهم جميعاً من خاصة أصحاب جعفر بن محمد ، فالأسرة إذن كانت أسرة شيعية إمامية ولا يضعه ابن النديم فى ثبت

(١) الأشعرى : مقالات ج ١ ص ٢٠٩ .

(٢) الأشعرى : مقالات : ج ١ ص ٢٤ ، ج ٢ ص ٥١٥ .

(٣) المصدر السابق : ج ١ ص ٤٣ ، ٤٥ .

(٤) الحياط : الانتصار ص ٦ .

متكلمى الشيعة ، وإنما يضعه ضمن فقهاءهم ومحدثيهم وعلمائهم ^(١) . ويبدو أن الرجل - بالرغم من حذقه في الكلام ، قد شغلته العادة عن الكلام والمتكلمين ، فيما يقول الشيخ المفيد ^(٢) . كما يذكر أنه كان محدثاً ، وأنه روى عن أبي جعفر كتاباً ، تتبع فيه حديثه ، ولم يره ^(٣) ويذكر عن جعفر الصادق أنه قال «لولا زرارة لظننت أن أحاديث أبي ستذهب ^(٤) وكل هذا يدل على رسوخ قدم الرجل في الحديث ، ولكنه مع ذلك خاض في الكلام وناقش المتكلمين وترك كتاباً في الاستطاعة والجبر ^(٥) . وفي إيماز يجمع المؤرخون على أنه كان من أكبر رجال الشيعة فقهاً وحديثاً ومعرفة بالكلام . ولم يرد عن زرارة - فيما ترك لنا من أخبار في كتب العقائد - نصوص صريحة عن التجسيم ، كما ترك لنا عن المشامين - ولكن ورد له نص في مقالات الإسلاميين أنه يذهب في الصفات إلى أن الله لم يزل غير سميع ولا عليم ولا بصير حتى خلق ذلك لنفسه ^(٦) » والنص واضح في إنكاره الصفات القديمة . ثم نص ثان في باب الاستطاعة ، يوافق فيه هشام بن سالم الجواليقي في الاستطاعة ^(٧) . ويذكر الشهرستاني أن زرارة بن أعين وافق هشام بن سالم في حدوث علم الله وزاد عليه بحدوث قدرته وحياته وسائر صفاته ، وأنه لم يكن قبل خلق هذه الصفات عالماً ولا قادراً ولا حياً ولا سمياً ولا بصيراً ولا مريداً ولا متكلماً ^(٨) .

ولكن البغدادى يمدنا بنصوص أكثر ، فينقل لنا أنه ينسب لزرارة بن أعين أنه قال : «إن الله عز وجل لم يكن حياً ولا قادراً ولا سمياً ولا بصيراً ولا عالماً ولا مريداً ، حتى خلق لنفسه حياة وقدره وعلماً وإرادة وسمعاً وبصراً فصار بعد أن خلق لنفسه هذه الصفات حياً قادراً عليمًا مريداً سمياً بصيراً ^(٩) » .

ويرى البغدادى أنه يذهب إلى حدوث الصفات وأنها من جنس صفاتنا «لأن الله إذا لم يكن في الأزل حياً ولا عالماً ثم أحدث لنفسه الحياة والعلم ، فلم يكن مستحقاً لها إذن حتى أحدثها ، كما أن الواحد منها بصير حياً قادراً عند حدوث الحياة والقدرة فيه ^(١٠) » . وهذا إلزام من البغدادى أراد به أن يضع زرارة بن أعين في المشبهة ، أى أنه يشبه الله بالموجودات في قياسه صفاته على صفاتها . غير أن البغدادى ينهنا إلى أثر الرجل العظيم في فرقتين من الفرق الكلامية عامة . فيقرر أن مدرسة المعتزلة البصرية اعتنقت فكرته في حدوث كلام الله ، كما أن الكرامية أخذت بقوله في حدوث قول الله

(١) ابن التديم : الفهرست ٣٢٢ - ٣٣٢ .

(٢) الشيخ المفيد : أوائل المقالات ص ١١٦ .

(٣) الطوسي : فهرست ص ٧٤ ، ولسان الميزان ج ٢ ص ٢٧٣ .

(٤) الطوسي : ج ٢ أعيان الشيعة ص ٢٢٢ .

(٥) الطوسي : فهرست ص ٧٤ .

(٦) الأشعري : مقالات ج ١ ص ٤٦ .

(٧) الأشعري : مقالات ج ١ ص ٤٣ .

(٨) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٤١٣ .

(٩) البغدادى : الفرق ص ٤٣ .

(١٠) المصدر السابق : ص ١٤١ ، ٢٠١ .

وإرادته وإدراكاته ^(١) ، ويذهب الإسفراييني أيضاً إلى نفس الشيء عنه فيقول « وجرى على قياس قوله قوم من بصرية القدرية فقالوا : كلام الله مخلوق له ، وإرادته مخلوقة له ، وزاد عليه الكرامية قالوا : إن إرادته وإدراكاته ^(٢) ، ويتضح لنا من هذا إلى أي حد أثر الرجل الكبير في علم الكلام من بعده .

أما آراؤه في الإمامة فقد آمن بالإمام جعفر الصادق إيماناً كاملاً ، كما آمن بإمامة أبيه من قبل . بل يبدو أنه كان من المؤمنين بعلم الأئمة الغيبى وأنهم يعلمون ما كان وما يكون وما هو كائن . وأنه بعث إلى جعفر الصادق يسأله هل هو من أهل النار أم من أهل الجنة . ويؤكد لمن أرسله لجعفر الصادق أن جعفراً يعلم ذلك ^(٣) . وإن كان يذكر « أنه التوى على جعفر بعض الالتواء » ويذكر الشهرستاني عنه « أنه لا يسع جهل الأئمة ، فإن معارفهم كلها ضرورية . وكل ما يعرفه غيرهم بالنظر ، فهو عندهم أولى ضرورى » ^(٤) .

ثم هو يؤمن بالتقية وسميها جراب النورة ويرى أن جعفر الصادق كان يكيل منها ^(٥) . ويورد المؤرخون روايات عن أهل البيت في ذمه ، ولكن الجاحظ نفسه يذكر أن الرجل كان من رجال الإجماع عند الشيعة وأن روايات ذمه مطروحة مردودة . والعامل يفسر لنا هذه الروايات بالقصة الآتية : « دخل عبد الله بن زرارة على الإمام الصادق . فقال له : اقرأ منى على والدك السلام ، وقل له ، إنما أعييك دفاعاً عنك ، فإن الناس والعدو يسارعون إلى كل من قربناه وحمدناه أمره بإدخال الأذى عليه وقتله ، ويحمدون كل من عبناه ، ويكون ذلك دفع الشر عنه ، وكان العيب كعيب السفينة ، لتسلم من الملك والمقصود بالسفينة ^(٦) ، سفينة الخضر ، فالتقية كانت سلاح الشيعة ، وكان يستخدمها الإمام فيما يدعى الشيعة ، كما يستخدمها أتباعه ، وقد آمن بها زرارة .

ويذكر المؤرخون أن زرارة بن أعين ذهب إلى الكوفة بعد وفاة جعفر الصادق ، ليلقى الإمام الجديد عبد الله بن جعفر المشهور بالأفطح ، ولكن حين امتحنه هو ووجوه الشيعة بمسائل في الحلال والحرام ، لم يجدوا عنده شيئاً ، فعادوا عن إمامته إلى إمامة موسى بن جعفر .

بل إن الشهرستاني يذكر أن زرارة أنكر إمامة موسى . وأنه حين عاد إلى الكوفة سأله أصحابه عن الإمام ، وكان المصحف بين يديه فأشار لهم إليه ، وقال لهم : هذا إمامي ، لا إمام لي غيره ^(٧) ،

(١) المصدر السابق : صفحة ٤٣ (٥) لسان الميزان : ج ٢ ص ٤٧٣ والطواشي : الفهرست ص ٧٣

(٢) الإسفراييني : التبصير صفحة ٢٤ (٦) العامل : أعيان الشيعة ج ٣٢ ص ١٧٠ ، ٢٢٢ .

(٣) ابن حجر : لسان الميزان ج ٢ ص ٤٧٣ (٧) الشهرستاني : الملل ج ١ ص ١٣٢ .

(٤) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢١٢

ويستتج كتاب أهل السنة من هذا أنه رجع عن تشييعه ، كما يذكرون هذا أيضاً عن هشام بن سالم . ولم يعمر زرارة بن أعين كثيراً بعد وفاة جعفر الصادق ، فقد مات في نفس السنة . أما الشخصية الثالثة في مدرسة هشام بن الحكم ، فهي شخصية يونس بن عبد الرحمن القمي مولى آل يقطين ، وتنسب إليه فرقة اليونسية ، وكنيته أبو محمد . وتذكر المصادر أنه « كان وجيهاً في الشيعة متقدماً عظيم المنزلة عندهم »

وقد ولد أيام هشام بن عبد الملك ، ورأى جعفر الصادق بين الصفا والمروة ، ولم يرو عنه ، ولكنه روى عن الإمامين موسى الكاظم والرضا . وكان الرضا يشير إليه في الفتيا ، وكان يطلب من أنصار أتباعه أن يأخذوا معالم دينهم عن يونس . وقد ذكر الطوسي له كتباً كثيرة - أهمها « جامع الآثار » ، و« كتاب العلل »^(١) . وتوفي يونس عام ٢٠٨ هـ .

وقد أجمعت المصادر على أنه كان مشبهاً ، والتشبيه - هي كلمة أوسع من التجسيم . فقد رأينا كيف أطلقت الجسمية بمعنى الشيئية وبمعنى الوجود - أما التشبيه فهو مماثلة الله للمخلوقات . وقد أفرط يونس فيما يقول مؤرخو أهل السنة في التشبيه . ويبدو أنه أراد أن يفسر الاستواء ، ففسره بالاستواء المادي^(٢) ثم أخذ يفسر الآية « ويحمل عرش ربك فوقهم » فذهب يونس إلى أن الله يحمله حملة عرشه ، وهو أقوى منهم ، كما أن الكرسي يحمله رجلان وهو أقوى منهم . إذ أن في الخبر أن الملائكة تنط أحياناً من وطأة عظمة الله على العرش ويبدو أن هنا إلزاماً من أعدائه ، اعتبر فيما بعد جزءاً من مذهبه^(٣) ، وعلى العموم اشتهر هشام بالتشبيه ، بل إنه ألف كتاباً للشيعة يدافع فيها عن التشبيه . ولذلك قلما دعى يونس مجسماً بل وصم بالتشبيه . وليس بين أيدينا نصوص كافية تبين مذهب الرجل . هذا مع أن الأشعري يذكر أنه كان من كبار مؤلفي كتب الشيعة^(٤) .

أما الشخصية الثالثة ، وهي أهم شخصية في مدرسة جعفر الصادق ؛ فهي شخصية أبي جعفر الأحول محمد بن علي بن النعمان مولى بجيلة ، وقد عاش في الكوفة ، وعاصر الإمام أبا حنيفة . وقد اشتهر عند الشيعة باسم مؤمن الطاق وعند أهل السنة باسم شيطان الطاق . وكان من خواص أصحاب جعفر الصادق ، وقد روى عنه ، كما روى عن أبيه الباقر وجده زين العابدين . وقد أجمعت المصادر الشيعة على أنه كان أبرز رجال مدرسة هشام الكلامية « وكان حسن الاعتقاد والهدى ، حاذقاً في

(١) الطوسي : الفهرست ص ١٨٢ .

(٢) البغدادي : الفرق ص ٤٣ ، ١٣٨ .

(٣) الشهرستاني : الملل ج ١ ص ٣١٥ ، ٣١٦ ؛ والأشعري : مقالات ج ١ ص ٣٥ ، ٢١١ - ٢١٢ .

(٤) الأشعري : مقالات ج ١ ص ٦٣ .

صناعة الكلام ، سريع الخاطر والجواب وله مع أبي حنيفة مناظرات « وكان رجال الشيعة الكبار يجولونه أعظم إجلال ، ويقال إن هشام بن الحكم هو الذى دعاه مؤمن الطاق . واشتهر أيضاً بشاعريته ، وكان جعفر يقدمه فى الشعراء على غيره » ولكنه شغل نفسه بالكلام . أما كتبه فهى ، كتاب الإمامة ، كتاب فى أمر طلحة والزبير وعائشة ، كتاب المعرفة ، كتاب الرد على المعتزلة فى إمامة المفضول وكتاب إثبات الوصية ^(١) . كما ذكر الشهرستانى « وقد صنف ابن النعمان كتباً للشيعة منها افعل - لم فعلت ، ومنها افعل ، لا تفعل » ^(٢) ويبدو أن الرجل كان شديداً على مخالفيه ، فناقش أبا حنيفة نقاشاً عنيفاً ، وفى مناقشاته مع أبي حنيفة يتبين إيمانه الكامل بإمامة جعفر الصادق كما يتبين أيضاً إيمانه بالرجعة والمتعة ، كما ينكر أيضاً فتوى تحليل النبيذ ^(٣) . ويبدو أيضاً شدة الرجل على الخوارج ، وقد أورد المجلسى مناظرة جرت بين شيطان الطاق وبين أبي خدره ينكر فيها على الأئمة تفضيل أبي بكر على على ^(٤) .

أما ابن حزم فقد عزا شيطان الطاق إلى الغلو وينقل عنه هذه القصة الغريبة عن الجاحظ أنه قال : « أخبرنى أبو إسحاق إبراهيم النظام وبشر بن خالد أنها قالوا لمحمد بن جعفر الراضى المعروف بشيطان الطاق « ويحك أما استحييت من الله أن تقول فى كتابك فى الإمامة إن الله تعالى لم يقل قط فى القرآن : ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا . قال : فضحك والله شيطان الطاق ضحكاً طويلاً حتى كأننا نحن الذين أذنبتنا » ويستنتج ابن حزم من هذا أن الإمامية كلها قديماً وحديثاً تقول « إن القرآن مبدل زيد فيه ما ليس منه ، ونقص منه كثير ، وبديل منه كثير » ^(٥) ولا أستطيع إطلاقاً أن أقبل رواية النظام عن شيطان الطاق ، فالرجل تلميذ أمين لجعفر الصادق ولم يرد عن الإمام جعفر إطلاقاً ذمه ، فلا يعقل إطلاقاً أنه أنكر آية من القرآن أو اعتقد فيه التبديل والزيادة ، ولقد ورد هذا القول الأخير عن الغلاة فقط ، وقد أنكرهم جعفر كما أنكرهم تلاميذه ومريده .

كان محمد بن النعمان شيطان الطاق أو مؤمنه مجسماً . فقد ذهب أيضاً كما ذهب المشامان - ابن الحكم وابن سالم إلى أن الوجود جسم ، ولكن هل الله جسم ^(٦) . وهنا ينقلب شيطان الطاق مشبهاً ،

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٢٥٨ - ٦٤ ، والطوارق : فهرست ص ١٣٢ - ١٣٣ ولسان الميزان ج ٥ ص ٣٠٠ .

(٢) الشهرستانى : الملل ج ١ ص ٣٤١ .

(٣) ابن النديم : الفهرست ص ٢٥٨ .

(٤) المجلس : بحار الأنوار ج ١ ص ٢٤ ، ٢٥ / ٢ ، ٣٠٨ .

(٥) ابن حزم : الفصل ج ٤ ص ٢٨١ ، ٢٨٩ .

(٦) البغدادي : الفرق ص ٤٤ .

فيقول «إن الله تعالى نور على صورة إنسان ، ويأبى أن يكون جسماً ، لكنه قد ورد في الخبر - إن الله خلق آدم على صورته وصورة الرحمن ، فلا بد من تصديق الخبر» (١) أى أن محمد بن النعمان توقف - من ناحية عقلية - عن القول بأن الله جسم أو على صورة إنسان ، ولكن الحديث المذكور فجأه ، فاضطر إلى التسليم بجسمية الله ومشابهته للإنسان .

أما عن علم الله ، فهو يقول «إن الله عالم في نفسه ليس بجاهل ، ولكنه إنما يعلم الأشياء إذا قدرها وأرادها ، فأما قبل أن يقدرها ويريدها فحال أن يعلمها ، لا لأنه ليس بعالم ، ولكن الشيء لا يكون شيئاً حتى يقدره ويثبتته بالتقدير ، والتقدير هو الإرادة» (٢) وفي نص آخر له يوضح فكرته توضيحاً أدق فيقول إن الله لا يعلم شيئاً حتى يؤثر أثره ويقدره ، والتأثير عنده التقدير ، والتقدير الإرادة ، فإذا أراد الشيء فقد علمه ، وإذا لم يردده ، فلم يعلمه ، ومعنى أرادته أنه تحرك حركة هي إرادة ، فإذا تحرك تلك الحركة ، علم الشيء ، وإلا لم يجز الوصف له بأنه عالم به ، وإنه لا يوصف بالعلم بما لا يكون (٣) ، وبهذا يكون قد شارك - إلى حد كبير هشام بن الحكم في فكرته عن العلم الإلهي . وقد تنبه الشهرستاني إلى هذا .

وإذا كان الوجود جسماً ، فإن أفعال الناس أجسام ، وإن الإنسان يصح أن يفعل الجسم . وقد شارك هشام بن سالم في هذا (٤) .

ويقول الأشعري «وحكى عن الجوالقية وشيطان الطاق أن الحركات هي أفعال الخلق ، لأن الله عز وجل أمرهم بالفعل ، ولا يكون مفعولاً ، إلا ما كان طويلاً عريضاً عميقاً ، وما كان غير طويل ولا عريض ولا عميق فليس بمفعول» (٥) .

أما عن المعرفة فيقول شيطان الطاق إن المعارف كلها اضطرار ، وقد يجوز أن يمنعها الله بعض الخلق ، فإذا منعها بعض الخلق ، وأعطاه بعضهم ، كلفهم الإقرار مع منعه إياهم المعرفة (٦) . ولقد قسم شيطان الطاق كبار الفرق الإسلامية ، وذكر أنها أربعة : القدرية والخوارج والعمامة والشيعة ، ثم عين الشيعة بالنجاة في الآخرة من هذه الفرق ، ولكن يبدو أن شيطان الطاق وهشام بن سالم امتنعا في آخر حياتهما عن الخوض في دقيق الكلام وجليله ، وأمسكا عن الكلام في الله . ورويا

(١) الشهرستاني : الملل ج ١ ص ٣١٣ .

(٢) الأشعري : مقالات ج ١ ص ٣٧ .

(٣) نفس المصدر السابق : ج ١ ص ٢١٩ - ٢٢٠ وج ٢ ص ٤٩٣ .

(٤) البغدادي : الفرق ص ٤٤ .

(٥) الأشعري : مقالات ج ٢ ص ٣٤٦ .

(٦) الأشعري : مقالات ج ١ ص ٥١ .

الحديث عن النبي ﷺ «سئل عن قول الله - وأن إلى ربك المنتهى - قال : إذا بلغ الكلام إلى الله فألجسكوا» - فأمسكا عن البحث الكلامي حتى ماتا (١) .
ويبدو أن محمد بن النعمان قد عمر طويلاً ، فقد عاصر جعفر الصادق ، وعاصر موسى الكاظم ، وقطع بموت موسى ، ثم انتظر بعض أسباطه ، فهو إذن ممن يؤمنون كما قلت بالرجعة .

* * *

يتبين لنا - من تلك الصور التي عرضناها - لرجال المدرسة الإمامية في عصرها الذهبي - إلى أي حد آمن الشيعة الإمامية بالتجسيم ثم بالتشبيه ، وإلى أي حد تختلف الشيعة الإمام جعفر الصادق عن شيعة الاثني عشرية فيما بعد . ويتبين إلى أي حد كان الاعتزال طارئاً على تلك المدرسة من مدارس الفكر الإسلامي .

الباب الخامس

الشعة الاثنا عشرية

سنحاول في هذا الباب أن نلقى الأضواء على أن الشعة المتأخرة - الاثني عشرية - منفصلة تمام الانفصال عن الشعة الإمامية الجعفرية ، آخذة بعقائد لم يعرفها الإمام جعفر الصادق ، ولا تلامذته ، محتضنة المذهب المعتزلى - وقد كان جعفر الصادق أشد أعداء هذا المذهب ، اختلف مع شيخه واصل كما اختلف مع عمه زيد بن على ، لمتابعة زيد لواصل . وقد رأينا من قبل كيف أسرع جعفر الصادق إلى منزل زيد بن على حيث وفد واصل من الكوفة ، وهناك جادله جعفر الصادق أشد المجادلة ، وانبرى زيد بن على متهماً ابن أخيه بالحسد لواصل . عجباً أن تأخذ الشعة بالمذهب المعتزلى ، ويصبح سمة لها وعنواناً حتى عصورنا الحديثة ، وعجباً أن يعلن الشيعة الاثنا عشرى المعاصر أنه جعفرى على ما فى عقيدته من خلاف بين واضح مع عقيدة الإمام جعفر الصادق . إن ما بقى من آثار جعفر الصادق فى الاثني عشرية هو الفقه ، فما زال فقه جعفر الصادق هو قانون الاثنا عشرية . ولكن تختلف العقائد الدينية أشد الاختلاف بينه وبين الشعة الاثني عشرية .

واحتضنت الشعة الاثنا عشرية - فكرة العدد ، وهى فكرة غنوصية ، أخذتها من الكيسانية وأخذتها الكيسانية من قبل عن القبالة اليهودية ، كما احتضنت فكرة الرجعة ، وهى فكرة يهودية مختلطة بغنوصية واضحة . ولم يعرف جعفر الصادق فكرة العدد ، كما لم يعلن فكرة الرجعة . وهنا نتساءل : هل توضع الاثنا عشرية فى نسق الغلاة أم فى نسق المعتدلين من الشعة ؟ . إن ابن خلدون - من قبل - اعتبر القائلين بالرجعة من الاثني عشرية غلاة ، ولكن من الصعوبة بمكان أن نضع الاثني عشرية فى فرق الغلاة . إن ما يمكننا أن نقوله هو أنهم فرقة معتدلة من الشيعة ، اعتنقت بعض الآراء الغالية ، امتزجت فيها عقائد المعتزلة بعقائد الغنوص إلى قدر ما . واحتضنت فكرة العدد - الاثني عشر - متابعة لأثر قرآنى عن عدد النقباء ، نقباء بنى إسرائيل ، ثم متابعة لأثر حديثى عن عدد نقباء رسول الله يوم بيعة العقبة . ولكن سرعان ما صيغ الغنوص هذه الأفكار القرآنية الحديثة بصيغات غنوصية ، لا تمت إلى الإسلام بأدى صلة . وسنعرض الآن لحياة الأئمة (الستة) وأفكارهم ، وما تركوه من أثر فى تطور المذهب الشيعى .

الفصل الأول

الأئمة الستة

لا نجد في حياة هؤلاء الأئمة الستة ، ولا في نتائجهم ، ما نراه في حياة السابقين من الأئمة ، فلم ينقل عنهم ما نقل عن الأولين من علم سابغ ، ونظرة متعددة واسعة للمجتمع الإسلامي الذي عاشوا فيه . ولم يرد عن واحد منهم في الرواية العلمية الصحيحة - مذهب خاص ، يجعل الشيعة من بعده ، ينسبون المذهب إليه . لا جرم بعد ذلك أن تعلق الشيعة الاثنا عشرية باسم جعفر الصادق ، فحاولوا نسبة المذهب إليه ، ولم يحاولوا نسبته إلى واحد من هؤلاء الأئمة الستة المتأخرين . ولم يظهر في هؤلاء من يقارن بجعفر الصادق أو أبيه الباقر . ويبدو أن جعفر الصادق كان قد وضع كل آماله في إسماعيل ، ابنه الأكبر ، ويبدو أن إسماعيل كان على علم وذكاء ولكن مات إسماعيل في حياة أبيه ، وكان جعفر الصادق قد عهد إليه في حياته ، فلما مات ظهرت فكرة « البداء » مرة أخرى منسوبة إلى جعفر . وانتقل جعفر إلى الرفيق الأعلى . وهنا بدأ الانقسام بين الشيعة الإمامية الفاطمية الحسينية - بل يبدو أن الانقسام نفسه قد حدث أيام جعفر . إذ أن أناساً من أتباع جعفر نفسه توقفوا في موت إسماعيل ، وستنشأ عنهم فرقة الإسماعيلية ، تبدأ ساذجة بسيطة أول الأمر على يد المبارك الكوفي مولى جعفر الصادق ، ثم تنتهي فلسفية معقدة غالية . وتوقف فريق من الشيعة في موت الإمام الصادق نفسه وهم أتباع عجلان بن ناووس أعلنوا « أن جعفر بن محمد حي لم يمت حتى يظهر ويتولى أمر الناس ، وأنه هو المهدي ونقلوا عنه أنه قال : « إن رأيتم رأسي قد أهوى عليكم من جبل فلا تصدقوه - فإني أنا صاحبكم » وأنه قال : « إن جاءكم من يخبركم عنى أنه مرضى وغسلنى وكفنى فلا تصدقوه فإني صاحبكم - صاحب السيف » (١) وفرقة نقلت الإمامة إلى ابنه عبد الله الأفطح - وسما بالأفطحية وكان أسن أولاد الصادق - ونقلوا أيضاً عن أبيه أنه قال « الإمامة في أكبر أولاد الإمام » .

وأنه قال : « الإمام من يجلس مجلسى » وهو الذى جلس مجلسه والإمام لا يغسله ولا يصلى عليه ، ولا يأخذ خاتمه ولا يواريه إلا الإمام ، وهو الذى تولى ذلك كله » وتولى الشيعة عبد الله « غير نفر يسير عرفوا الحق فامتحنوا عبد الله بمسائل في الحلال والحرام من الصلاة والزكاة وغير ذلك فلم يجدوا عنده علماً » فرجعوا عن إمامته وكان فيهم وجوه أصحاب كجعفر الصادق مثل - هشام بن الحكم » وعبد الله

(١) أبو خلف القمى : كتاب المقالات ص ٨٠ والنويعتى : فرق الشيعة ص ٦٧ والشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٢٧٣ .

ابن أبي يعفور، وعمر بن يزيد يباع السابري، ومحمد بن النعمان أبي جعفر الأحول مؤمن الطاق، وهشام بن سالم، وعبد الله بن زرارة، وجميل بن دراج، وأبان بن تغلب وهؤلاء حقاً وكما يذكر النوبختي «وجوه الشيعة وأهل العلم منهم والنظر والفقه» ثبتوا على إمامة الابن الرابع لجعفر الصادق وهو الإمام موسى الكاظم المولود عام (١٢٨ هـ)، ثم توفي عبد الله الأفطح، وعاد معظم أتباعه إلى الانتماء بموسى الكاظم (١).

وقد رويت الأساطير، ووضعت الآثار عن الإمام السابع حتى يمكن الشيعة إقدامه مقابلاً لدعوة الإسماعيلية التي بدأت تنتشر في ذلك الحين. فنقل عن الصادق أنه قال لبعض أصحابه: «عد الأيام» فعدها من الأحد حتى بلغت السبت. فقال له: كم عدت؟ فقال سبعة. فقال جعفر: «سبت السبوت، وشمس الدهور ونور الشهور، من لا يلهو ولا يلعب، وهو سابعكم قائمكم هذا» وأشار إلى موسى. وقال أيضاً «إنه شبيه بعيسى» (٢) «غير أن السبب الحقيقي في ولاية شيعة جعفر الصادق لموسى الكاظم هو أنه كان أكثر أولاد الإمام جعفر علماً ويبدو هذا تماماً من اجتماع وجوه الشيعة ومتكلميهم وبخاصة هشام بن سالم وهشام بن الحكم ومؤمن الطاق وغيرهم عليه» (٣).

وقد استمرت إمامة موسى الكاظم مدة ربع قرن من الزمان (من عام ١٤٨ هـ إلى عام ١٨٣ هـ) وبإمامته دخلت الإمامة دورها السري أيضاً، ودورها العبادي، انتهى دور الفقه، فلا نسمع فقهاً خاصاً لموسى بن جعفر، كما لا نسمع أن له دوراً كلامياً في عقائد الإمامية. لقد تنقل موسى الكاظم من سجن إلى سجن، وصب عليه المهدي والرشيدي صنوفاً كبرى من العذاب، احتملها الإمام بصبر عجيب حتى لقب بالكاظم. وهو في الحقيقة أقرب إلى جده الأكبر علي زين العابدين، نقلت عنه أورايد الليل، ودعاؤه المشهور في جوف الليل ما زال حتى الآن يردده أهل مصر - وهم سنة - «عظم الذنب عندي، فليحسن العفو من عندك، يا أهل التقوى ويا أهل المغفرة» ولم يرد عنه رواية، وإن كان يقال إنه حدث، ولكن الحديث كان ينسب إليه بدون ذكر اسمه. وآخر الأمر كتب الإمام موسى الكاظم صفحة من الشهادة لأهل البيت. فقد قتله الرشيد بالسم في سجن بغداد، وأصبح فيما بعد «باب الحوائج» لأهل العراق من الشيعة يلجأون إليه روحياً، ويلتمسون منه الشفاعة في اليوم الآخر. وبالرغم من أن الرشيد أمر - بعد قتله - أن تعرض جثته على الجسر في بغداد عارية ليعرف الناس أن إمام الرفض قد مات، فقد توقف في موته مجموعة من أتباعه، وأعلنوا أنه لم يمت وسيخرج بعد

(١) النوبختي: فرق الشيعة ص ٧٢، ٧٧.

(٢) الشهرستاني: الملل والنحل ج ١ ص ٢٦٧.

(٣) أبو خلف القمي: كتاب المقالات ص ٨٩.

الغيبة مستندين على روايات لأبيه جعفر الصادق . أنه قال « هو القائم المهدي فإن يدهده رأسه من جبل ، فلا تصدقوه . فإنه صاحبكم »^(١) ولكن جمهرة الشيعة نقلت الإمامة إلى ابنه على المشهور بالرضا ولقد ولد على الرضا عام ١٥٣ هـ ومات سنة ٢٠٣ هـ وكانت إمامته عشرين عاماً ، وفي السنوات الأخيرة منها استقدمه المأمون وجعله ولياً لعهد ، ثم قتله بالسم بعد ذلك . ولعل الرضا قبر بطوس ، يعتبره الشيعة الإمامية من أكبر مزاراتهم . وقد دفن بجوار الرشيد ، قاتل أبيه . وقد توارى قبر الرشيد ، وبقي قبر الرضا حتى الآن .

وتتضح أهمية على الرضا فيما أضافه إليه الشيعة الاثنا عشرية وما حملوه إياه من عقائد وكتب ، فقد نسبوا إليه صحيفة تحوى مجموعة من الأحاديث ، كما أنهم نسبوا له رسالة في أصول الدين وفروعه . ويرى الدكتور أحمد صبحي في بحثه عن الإمامة عند الشيعة الاثني عشرية « أنه إذا كان في عصر الصادق قد اكتمل التشيع مذهباً وعقيدة ، فإنه في عصر الرضا قد اكتملت صياغة هذه العقائد المذهبية في عبارات ونصوص تجدد سبيلها السريع إلى الحفظ والتصديق وسرعة الإيمان حتى يجتمع عليها المعتنقون فينشأ على حفظها الصغار ويردد نصوصها الكبار في جوهر المذهب ولب العقيدة .

ولكن ينبغي أن نلاحظ أن رجال المذهب من أمثال هشام بن الحكم ووزارة بن أعين ومؤمن الطاق كانوا صاغوا المذهب وفتقوا الكلام فيه ، بحيث أصبح في صورته النهائية ، ولكن رسائل وصحف الأئمة مقدسة ، وهذا ما جعل لصحيفة الرضا ورسائله المنسوبة إليه كل هذه القيمة ثم انتقلت الإمامة بعد وفاته إلى ابنه محمد الجواد ، وهو مازال طفلاً في السابع من عمره ، وقد عدت كتب الشيعة ما أظهره من معجزات وكرامات ، وهو في طفولته ، وقد اختلفت الشيعة الاثنا عشرية في علمه ، فالعلم عند الشيعة إنما يكون بالنقل والأخذ عن الإمام الذي سبقه ولكن على الرضا قد ذهب إلى باريته وترك ابنه وهو ابن أربع سنين وأشهر ، ومن كان في هذا السن ، فلا يستطيع تعلم « دقيق الدين وجليله » وهو ما يفترض في الأئمة . أجابت فرقة من الإمامية بأن الله عز وجل علمه ذلك عند البلوغ « بضروب مما يدل على جهات علم الإمام مثل الإلهام والنكت في القلب ، والنقر في الأذن والرؤيا الصادقة في النوم والملك المحدث له ووجوه رفع المنار والعمود والمصباح وعرض الأعمال « أى لجأ هذا الفريق من الشيعة الإمامية إلى المغيبات ، يلتمسون فيها وفي تصورها إقامة علم الإمام . بل يذهبون إلى أن الأخبار الصحيحة القوية الأسانيد والتي لا يجوز دفعها ولا رد مثلها . قد صحت في الإمام محمد الجواد »^(٢) .

(١) القمى : كتاب المقالات ص ٩٠ ، النوبختي : فرق الشيعة ص ٨١ ، والشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٧٨ .

(٢) أبو خلف القمى : كتاب المقالات ص ٩٧ ، النوبختي : فرق الشيعة ص ٨٩ .

وطائفة ثانية لم توافق على أن علم الإمام من جهة الإلهام والنكت والملك ، لأن الوحي منقطع بعد النبي ﷺ ، والإلهام إنما هو أن يلحقك عند الخاطر والفكر معرفة بشيء قد كانت تقدمت معرفتك به من الأمور النافعة ، فذكرته ، وذلك لا يعلم به الأحكام وشرائع الدين على كثرة اختلافها وعللها قبل أن يوقف بالسمع منها على شيء ، لأن أصبح الناس فكراً ، وأوضحه خاطراً وعقلاً . وأحضره توفيقاً ، لو فكر وهو لا يسمع بأن الظهر أربع والمغرب ثلاث والغداة ركعتان ، ما استخرج ذلك بفكره ولا عرفه بنظره ولا استدل عليه بكمال عقله ولا أدرك ذلك بحضور توفيقه ، ولا لحقه علم ذلك من جهة التوفيق أبداً . ولا يعلم ذلك إلا بالتوفيق والتعليم ، فقد بطل أن يعلم شيئاً من ذلك بالإلهام والتوفيق . وهنا تنقطع الإمامة . ولكن هذه الطائفة من الإمامية ما تلبث أن تجد مخرجاً فتقول إن محمد الجواد هو قبل البلوغ إمام على معنى أن الأمر له دون غيره إلى وقت البلوغ ، فإذا بلغ علم من كتب أبيه وما ورثه من العلم فيها ويجده فيها من الأصول والفروع . وذهبت هذه الفرقة إلى إجازة القياس في الأحكام للإمام خاصة على الأصول التي في يديه ولكونه معصوماً من الخطأ والزلل ، فلا يخطئ في القياس أبداً . وبهذا انتهت هذه الطائفة إلى احتضان فكرة القياس ، ونحن نعلم أن الشيعة الاثني عشرية لا تجيزه إطلاقاً .

أما الفرقة الأخيرة التي اختلفت في علمه ، فقد أعطت الإمام القداسة العظمى التي تشيع في فكرة الإمامية عامة ، وهو أن الإمام إمام بالغ أو غير بالغ ، لأنه حجة الله على الأرض ، وقد يجوز أن يعلم وإن كان صبيّاً ، ويجوز عليه الإلهام والنكت والرؤيا والملك المحدث ، فكل ذلك يجوز عليه ، كما جاز على سلفه الماضين ، حجج الله في الأرض ، وقد حدث هذا ليحيى بن زكريا من قبل ، وأتاه الله الحكيم صبيّاً ، وعيسى بن مريم وغيرهما من الحجج (١) ومات محمد الجواد عام ٢١٩ هـ ولم يبلغ الخامسة والعشرين .

وتولى الإمام على الهادي الإمامة بعد وفاة أبيه وهو العاشر في دورة الأئمة ، وكانت سنه حين توفي الإمام محمد الجواد ثمانية أعوام ، وقد عاصر الإمام على الهادي حكم المتوكل . وكان المتوكل ناصبياً ، يكره على بن أبي طالب وأولاده أشد الكراهية وقد هدم قبر الحسين وحاول إخفائه ، وقد اتخذ مع الإمام على الهادي موقف أبي جعفر المنصور مع الإمام جعفر الصادق ، فكان يستدعيه من المدينة لِسؤاله وإحراجه . وحضر الإمام مراراً . ويذكر المسعودي أنه سعى به مرة عند المتوكل ، وقيل له : إن في منزله سلاحاً وكتباً وغيرها من شيعته ، فأرسل إليه ليلاً جماعة من حراسه الأتراك وهجموا عليه في

(١) المسعودي : مروج ج ٢ ص ٣٧٤ .

متزله على غفلة ممن في داره ، فوجدوه في بيت وحده مغلق عليه ، وعليه مدرعة من شعره ولا بساط في البيت إلا الرمل والحصى ، وعلى رأسه ملحفة من الصوف ، متوجهاً إلى ربه يترنم بآيات من القرآن في الوعد والوعيد . فأخذوه كما هو إلى المتوكل في جوف الليل ، وأخبروه بخبره وكان المتوكل في مجلس شرايه والكأس بين يديه ، فقدم إليه المتوكل الكأس الذي بين يديه ، فقال : يا أمير المؤمنين ما خامر لحمي ودمي قط ، فاعفني منه ، فأعفاه المتوكل ، ثم أمره بإنشاد شعر .

فقال الإمام :

باتوا على قلل الجبال تحرسهم	غلب الرجال فيما أغنتهم القلل
واستزلوا بعد عز عن معاقلهم	فأودعوا حفر يا بشس ما نزلوا
ناداهم صارخ من بعد ما قبروا	أين الأسرة والتيجان والحلل
أين الوجوه التي كانت منعمة	من دونها تضرب الأستار والكلل
فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم	تلك الوجوه عليها الدود يقتل
فلطالما أكلوا دهرأ وما شربوا	فأصبحوا بعد طول الأكل قد أكلوا
وطالما عمروا دورأ لتحصنهم	ففارقوا الدور والأهلين وانتقلوا
وطالما كنزوا الأموال وادخروا	فخلفوها على الأعداء وارتحلوا
أضحت منازلهم قفراً معطلة	وساكنوها إلى الأحداث قد رحلوا

وحين سمعها المتوكل ، وضع الكأس ويكى ^(١) .

ولكن المتوكل ما يلبث أن يأمر يحيى بن هرثة بإشخاص الإمام من المدينة . ويضج أهل المدينة ويعجوا ، ويؤكد لهم يحيى بن هرثة أنه لم يؤمر فيه بمكره . ويستجوبه المتوكل ، ولا يجد عليه حرجاً ، ثم يعيده إلى المدينة .

وقد نسبت الشيعة إلى الإمام على الهادي المعجزات ، فالسحاب يظله ، والمطر طوع يديه ، إلى آخر تلك المعجزات التي تعود الشيعة نسبتها إلى الأئمة . كما أنهم أسندوا إليه أيضاً حديث «الإيمان ما وقرته القلوب وصدقته الأعمال ، والإسلام ما جرى به اللسان وحلت به المناكحة» وينقل المسعودي أنه كان لديه صحيفة بخط علي بن أبي طالب ياملأ رسول الله يتوارثها الأئمة كائناً عن كابر . كما يذكر الشيعة أيضاً خبره مع زينب الكذابة وهي التي ادعت أنها ابنة الحسين عليه السلام وإن الله أطال عمرها إلى ذلك الوقت . وقد أرسل المتوكل للإمام على لكي يحاجها . وقد فعل ، وتحداها أن تنزل بركة السباع فأبت . فتزل هو فتدلت له السباع ورجعت زينب الكذابة عن دعواها ^(٢) . ومات الإمام

(٢) المسعودي : مروج الذهب . ج ٢ . ص ٧٤٣ - ٢٤٥ .

(١) المسعودي : مروج ج ٢ ص ٣٧٤ .

على الهادى فى خلافة المعتز سنة أربع وخمسين ومائتين .

وخلفه فى الإمامة الإمام الحادى عشر الحسن العسكرى وقد زوجه أبوه من جارية رومية هى مليكة بنت يشوع بن قيصر ملك الروم ، وقد ذكرت كتب الشيعة الإمامية أن أمها من نسل شمعون - وصى المسيح وهنا أيضاً صورة أخرى لزواج الحسين بن على بابنة كسرى كما ذكرت كتب الإمامية أيضاً قصة اتصالها بالإمام الحسن العسكرى فى أسلوب روائى جميل ، والغاية من هذا كله عند الشيعة الاثنى عشرية هى إعداد الإنسانية جميعاً لتلقى نهاية الدور الثام - من الأئمة فى قصة من أروع القصص الإنسانية ، والمزج بين مهدى الإسلام وبين قصة «المهدى» المسيحية أو نزول عيسى فى آخر الزمان مؤتماً بمهدى الإسلام . وقد نسبت المعجزات إلى الحسن العسكرى ، وبالرغم مما كان يحيا من قسوة حتى سمى المعتمد العباسى عام ٢٦٠ هـ وهو ابن تسع وعشرين سنة . وقبل وفاته بخمسة أعوام فى يوم الجمعة منتصف شعبان عام ٢٦٠ هـ - ومن جاريته التى سميت باسم نرجس خاتون أوريحانة أوصقيل أوسوسن أو خمط على اختلاف ولد الإمام الثانى عشر سنة ٢٥٥ م أو ٢٥٦ - مهدى الزمان وحجة الله على البشر . بشر به القرآن «أفئن هو قائم على كل نفس بما كسبت» وبشر به النبى «اسمى اسمى واسم أبيه اسم أبى» اسمه محمد وكنيته أبو القاسم «واللقاب المهدى والحجة المنتظر ، وصاحب الزمان» وصاحب الدار والقسم والمهدى والهادى والصاحب «إنى نبى وعلى وصى . ألا وإن خاتم الأئمة منا القائم المهدى صلوات الله عليه ، ألا إنه الظاهر على الدين ، ألا إنه المنتقم من الظالمين ، ألا إنه فاتح الحصون وهادمها» .

أما ولادته ، فقد نقل الشيعة إلينا ما فيها من خوارق تتجاوز خوارق عيسى المعروفة ، فقد تكلم فى المهد كما تكلم عيسى من قبل وحمله أبوه فكلمه ، ودعا هو الله أن ينجز وعده ثم دعا طيراً من السماء ، وكان هذا الطير روح القدس ، فحمله إلى أعلى عليين . وبكت أمه ، وهو يودعها إلى القدس الأعظم . وكان يعود بين الفينة والفينة .

ثم مات أبوه وكان عمر القائم خمس سنوات وبقى القائم قليلاً ، ثم غاب الغيبة الصغرى وقد امتدت إحدى وسبعين عاماً ، وقد ظهر فى هذه الآونة لطائفة من كاملى الشيعة . ثم بدأت الغيبة الكبرى ، وسيعود فى آخر الزمن .

هكذا نشأت عقيدة الغيبة ، وعقيدة الرجعة فى صورتها النهائية عند غلاة الشيعة الإمامية أى الاثنى عشرية ^(١) هى حجب الله للإمام واختفاؤه عن أعين البشر ، وهو حى يلهم العبادة والتسبيح ، ويطلع على خفايا البشر ، والثانية : أن الله سيعيده ، فيحقق للناس كمالاً ، من ناحية تحقيقه بالصفات التى

(١) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ج ٢ ص ٥٣١ .

تظهر عن إمام العصر ، ويحارب الشيطان حتى يقضى عليه . وهكذا نرى أثر الكيسانية النافذ في عقائد الاثني عشرية . أو بمعنى آخر أن الأسطورة التي نشرها الكيسانية عن غيبة محمد بن الحنفية في جبل رضوى ، وأنه حي يلهم العبادة والتسبيح تعود في صورة غنوصية أو أشد في عقائد الاثني عشرية . ويعتقد الشيعة الاثنا عشرية أن المهدي اختفى في سامرا - بالحلة ، ولذلك يذهبون كل ليلة إلى باب السرداب في مسجد سامرا . وقد أعدوا مركباً وعليهم السلاح ، ويقرءونه السلام ، ويدعونه للخروج « باسم الله ، يا صاحب الزمان ، اخرج . قد ظهر الفساد وكبر الظلم وقد آن أوان خروجك » وسلمون عليه منادين « خليفة الله ، ووصي الأوصياء الماضين ، وبغية الله من الصفوة المنتخبين ، وباب الله الذي لا يؤق إلا منه ، ونور الله الذي لا يطفأ » .

انتهى دور الأئمة بالتوقف في موت الإمام الثاني عشر ، وبدأ دور الوكلاء الأربعة . وقد عين الإمام الحسن العسكري أول هؤلاء الوكلاء - وهو عثمان بن سعيد ثم عين عثمان ابنه مجمداً . ثم عين محمد الحسن بن روح . وكان الوكيل الأخير هو علي السمرى . ول هؤلاء الوكلاء عند الشيعة الاثني عشرية ما للأئمة من الاحترام والتقديس . وقد سئل الوكيل الأخير أن يعين وكيلاً بعده - وهو يجود بنفسه - فأبى وقال « لله أمر هو بالغه » .

وقد كان هؤلاء الوكلاء الأربعة من خواص الإمام العسكري ، وكانوا هم الوسطاء بينه وبين شيعته ، يلجأ إليهم في أصول الدين وفي الأحكام الفقهية . وقد شهد الإمام العسكري بعد التهم وجعلهم أمناء على شئون الإمام المهدي . وبموت الرابع ، بدأت غيبة الإمام الكبرى . غاب الإمام ، ولكن لم ينقطع سلطانه على الناس ، إنه حي في خلود دائم حتى يوم رجعه ، إنه ينظر الناس ويراهم ، وهم لا ينظرونه ولا يرونه . ولكن قد يراه خواص الناس ، إنه هو « المتصرف في شئون شيعته ، القائم على أمورهم ، المدبر لوجودهم » .

عجيباً أن تنتهى قصة الأئمة الاثني عشرية إلى هذا الحد الأسطوري . وعجيباً أن تثير عقائد راسخة متمكنة في عقائد مجموعة من البشر ، بل أن ينبرى لها جماعة كبرى من متكلمي الإسلام يدافعون عنها وينافحون . وسنحاول أن نتبع في الفصل المقبل عقائد الشيعة الاثني عشرية ، أو بمعنى أدق تطور هذه العقائد حتى تصل إلى صورتها الكاملة ، كما هي بين أيدينا اليوم .

الفصل الثاني

عقائد الشيعة الاثني عشرية

لم تكن هناك عقائد شيعية واحدة ، بل كان لكل عصر من عصور الأئمة تراث أضيف إلى تراث السابقين ، وكان الأئمة غير متعاصرين ، فكان لكل عصر من عصورهم عقائده وفلسفته واتجاهاته . فامتاز عصر كل إمام بالاتجاهات العلمية السائدة في عصره ، وامتاز عصر الإمام على زين العابدين بالحديث ، وكان الرجل من خيار التابعين . وامتاز الباقر بالحديث أيضاً ، ولكنه كان في معترك الفرق ، فوقف تجاهها موقف المحدث ، ينهى عن الكلام والأهواء والخصومات في الدين ، ويكاد يتشابه مع الإمام مالك بن أنس . ويضخم الفقه والكلام في عصر الصادق ، ويكون هو مرآة لكل هذا ، فيرسي أسس الفقه الشيعي الإمامي ، ويكاد يتشابه مع الإمام أبي حنيفة ، فأبو حنيفة إمام الفقه ، وخاض في الكلام ونسب إليه رسائل ، كما نسب إلى جعفر رسائل ، ولم يترك جعفر الصادق كتاباً كاملاً مدوناً ، وكذلك أبو حنيفة ، وكما أثار أبو حنيفة الأبحاث المتعددة في فقه السنة ، فعل جعفر الصادق هذا في فقه الشيعة . وكما اختلف الناس في أبي حنيفة فقالوا إنه قدرى ومرجئ وجري ومن القائلين بخلق القرآن ، كذلك اختلفوا في جعفر الصادق ، فقد نسبوا إليه كل الفرق ، وأضافوا إليه كل الاتجاهات ، وأنطقوه بكل المتناقضات . وبعد جعفر الصادق ، قام علماء المذهب ، كهشام بن الحكم ومؤمن الطاق وغيرهما من علماء الإمامية بالعمل الأكبر في صوغ مذاهبها . أما الأئمة الستة الآخرون فلم يكن لهم أى دور إيجابي هام في تصوير العقيدة الشيعية ووضعها في صورتها النهائية .

والملاحظة الثانية : أن المذهب في أيدينا الآن غيره في عهد الأئمة الأولين ولم يقبل الأولون - أئمة وأتباعاً - المذهب المعتزلي ، بل إن محمداً الباقر كان عدوياً صريحاً للمعتزلة ، وكان من رجال الحديث المتبعين للأثر ، ونرى جعفر الصادق أقرب إلى أهل السنة والجماعة في آرائه الكلامية مع اعتزال غير واضح ، بل تورّد المصادر حجاجه العنيف مع عمرو بن عبيد من ناحية وواصل بن عطاء من ناحية . إن من « الواضح أن جعفر الصادق كره الرجلين أشد الكراهية » وكره مذهبيهما ، وكره أن يتابع عمه زيد واصلاً في كثير من أصوله الكلامية . ثم يكاد التجسيم ينبثق من رجاله الأقرين مثل هشام بن سالم الجواليقي وهشام بن الحكم ومؤمن الطاق وغيرهم . فكيف اعتنق المتأخرون من الشيعة المذهب المعتزلي واعتبروا أصول الدين أربعة : التوحيد والعدل والنبوة والإمامة ، وترنم شاعرهم المتأخر :

سطران قد خطا بلا كاتب العدل والتوحيد في جانب
وحب آل البيت في جانب

ونحن لا نجد أدنى فرق بين أى معتزلى وابن المطهر الحلى عالم الشيعة المتأخر الكبير حين يكتب عن عقائد الاثنى عشرية الكلامية فيقول «إن الله عدل حكيم ، لا يفعل قبيحاً ، ولا يخل بواجب ، وأن أفعاله إنما تقع لغرض صحيح وحكمة ، وأنه لا يفعل الظلم ولا العبث ، وأنه رؤوف رحيم بالعباد ، يفعل بهم ما هو الأصلح لهم والأمنع » وأنه تعالى كلفهم تحييراً لا إجباراً ، ووعدهم الثواب وتوعدهم العقاب على لسان أنبيائه ورسله المعصومين بحيث لا يجوز عليهم الخطأ ولا النسيان ، ولا المعاصي ، وإلا لم يبق وثق بأقوالهم وأفعالهم ، فتنتفى فائدة البعثة »^(١) هذا كلام معتزلى واضح ، تبناه مجتهدو الشيعة المتأخرين حين وجدت المعتزلة ملجأ فى الشيعة ، بعد أن أنزل علماء الأشاعرة الضربات الساحقة بهم ، وليس فى قدماء الشيعة شىء من هذا . بل إن الإمام جعفر الصادق يقول فى الإرادة «إن الله تعالى أراد بنا شيئاً . وأراد منا شيئاً ، فما أرادنا طواه عنا ، وما أراد منا أظهره لنا ، فما بالناس نشتغل بما أرادنا بنا ، عما أرادنا منا » ثم إن رأيه فى القدر هو «أمر بين أمرين لا جبر ولا تفويض » وكان يقول فى الدعاء «اللهم لك الحمد ، إن أعطتك ، ولك الحجة إن عصيتك ، لا صنع لى ولا لغيرى فى إحسان ولا حجة لى ، ولا لغيرى فى إساءة »^(٢) وهذا رأى يكاد يقترب من الأشاعرة ، فلم يكن جعفر الصادق إذن معتزلياً مهما حاول الشيعة المتأخرون نسبة العدل والتوحيد إليه . وقد تنبه الشهرستانى إلى هذا ، فقال إن الشيعة بعد أن افترقوا وانتحل كل واحد منهم مذهباً ، وأراد أن يروجه على أصحابه ، ونسبه إليه وربطه به ، والسيد برىء من ذلك ومن الاعتزال ومن القدر ، وفى فقرة أخرى . . «وقد تبرأ عما كان ينسب بعض الغلاة إليه ، وتبرأ منه ولعنهم ، وبرىء من خصائص مذاهب الرافضة وحماقاتهم ، من القول بالغيبة والرجعة والبداء والتناسخ والحلول والتشبيه»^(٣) . وكتاب الانتصار للخياط المعتزلى وثيقة نادرة تثبت تمام الإثبات ما بين المعتزلة والشيعة الإمامية - وبخاصة هشام بن الحكم وهو تلميذ جعفر وصديقه وصفيه - من اختلافات كبرى فى دقيق الكلام ورفيقه .

والإمامية تؤمن باثنى عشر إماماً ، فهل ذكر الأولون من الأئمة - اثنى عشر إماماً ؟ وهل أعلن الإمام على بن أبى طالب استخلاف اثنى عشر إماماً ؟ وهل نادى بهذا على زين العابدين ، أو محمد الباقر أو جعفر الصادق ؟ من المحتمل أن يكون أبو هشام بن محمد بن الحنفية ، قد ذكر شيئاً عن اثنى

(١) ابن تيمية : منهاج السنة ج ١ ص ٣٠ .

(٢) الشهرستانى : الفرق ج ١ ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

(٣) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٢٧٢

عشر نقيباً لمحمد بن علي العباسي ولكن الشيعة حملوا الأئمة السابقين أثراً تعلن فكرة التعدد الاثني عشرى كما حملوهم فكرة الإمام الغائب ، غيبته وخلوده ورجعته ، مع أنهم لم يذكروها أبداً . إن إقامة المذهب الإمامي الاثني عشرى في صورته الكاملة إنما كان على يد المجتهدين المتأخرين من علماء المذهب ، الذين قاموا بأخذ مصادره الأولى ، وأخذوا يصوغونها صياغة جديدة ، ويضيفون إليها عناصر متعددة من هنا وهناك ، حتى اكتمل في أيديهم .

وسنحاول أن نعطي صورة لآراء الاثني عشرية في إيجاز .

صاغ مجتهدو الشيعة الاثني عشرية أصولهم في أربع : (١) التوحيد (٢) العدل (٣) النبوة (٤)

الإمامة .

وقد فصل عالم الشيعة الكبير ابن المطهر الحلي عقائد الإمامية الاثني عشرية في الفقرة الرائعة الآتية : « ذهب الإمامية إلى أن الله عدل حكيم لا يفعل قبيحاً ولا يخل بواجب ، وإن أفعاله إنما تقع لغرض صحيح ، وأنه لا يفعل الظلم ولا العبث ، وأنه رؤوف بالعباد ، يفعل بهم ما هو الأصلح لهم والأنفع ، وأنه تعالى كلفهم تخيراً لا إجباراً ، ووعدهم الثواب وتوعدهم العقاب على لسان أنبيائه ورسله المعصومين بحيث لا يجوز عليهم الخطأ ولا النسيان ولا المعاصي ، وإلا لم يبق وثوق بأموالهم وأفعالهم ، فتنتفي فائدة البعثة ، ثم أردف الرسالة بعد موت الرسول بالإمامة فنصب أولياء معصومين منصوبين ليؤمن الناس من غلطهم وسهوهم وخطئهم ، فينقادون إلى أوامرهم لئلا يخلى الله العالم من لطفه ورحمته ، وأنه لما بعث الله محمداً ﷺ ، قام بنقل الرسالة ، ونص على أن الخليفة بعده علي بن أبي طالب عليه السلام ، ثم من بعده ولده الحسن الزكي ، ثم ولده الحسين الشهيد ، ثم علي بن الحسن زين العابدين ، ثم علي بن محمد بن علي الباقر ثم علي بن جعفر بن محمد الصادق ، ثم علي بن موسى جعفر الكاظم ثم علي بن علي بن موسى الرضا ، ثم علي بن محمد بن علي الجواد ، ثم علي بن علي بن محمد الهادي ، ثم علي بن الحسن بن علي العسكري ، ثم علي الخلف الحجة محمد بن الحسن المهدي عليهم الصلاة والسلام وأن النبي ﷺ لم يمّت إلا عن وصية بالإمامة » (١) .

هذا التعبير الدقيق عن أصول الشيعة الاثني عشرية يجعل بينه وبين الأئمة الأوائل هوة من أعماق الهوات في مسألتين من أهم المسائل : وهما التوحيد والعدل في هذين الأصلين لجأ الشيعة إلى المعتزلة ، واعتنقوا المذهب المعتزلي كاملاً ، أو بمعنى آخر لجأ المعتزلة إلى الشيعة ، بعد أن نزلت بهم ضربات أهل السنة والجماعة ، واختلطت عقائدهم بعقائد الاثني عشرية ، كما اختلطت من قبل بعقائد الزيدية . وهنا نتساءل ما هي العلة في احتضان الشيعة للمذهب المعتزلي في التوحيد والعدل ؟ نحن نعلم أن

(١) ابن تيمية : منهاج السنة ج ١ ص ٣٠ .

المذهب المعتزلى عاش فى رحاب العباسيين ، وكان عقيدة الدولة العباسية إجمالاً ، اللهم إلا المتوكل ، كما كان المذهب الجبرى عقيدة الدولة الأموية من قبل اللهم إلا يزيد بن الوليد المعروف بيزيد الناقص . أما أئمة أهل البيت الكبار وبالأخص محمد الباقر وجعفر الصادق فقد كانوا من رواد المذهب السنى ، إن جعفرأ الصادق بالذات كان أقرب فى عقائده الكلامية إلى عقيدة الأشاعرة ، وهى العقيدة التى تكونت بعده على هدى من عقائد السلف . وكان أعظم رجاله الكلاميين كما سنرى بعد - هشام ابن الحكم - مجسماً أو أقرب إلى التجسيم . وسنرى أيضاً كيف هاجم الحياط المعتزلى هشاماً فى كتابه « الانتصار » .

إن الإجابة على هذا التساؤل تنقلنا إلى التريجيات الآتية : التريج الأول : بعد العهد بين المجتهدين الجدد والأئمة ، ولم يكن هناك إمام ذو سلطة دينية يوقف « المجتهدين » فى صوغ آرائهم . فنسى هؤلاء الاتجاه السلفى الواضح لدى الباقر ، كما نسوا الموقف الوسط لجعفر الصادق . وأرادوا أن يتلمسوا أو أن يبنوا قلعة محصنة ضد الأشاعرة - حين ازدهر هؤلاء وقضوا على المذهب المعتزلى - فأرادوا الاستعانة ببقايا هذا المذهب لايقاف المذهب الأشعرى الذى كان قد تكامل إبان هذا الوقت على يد مشيخة الأشاعرة العظام . نسى المجتهدون أو تناسوا آراء الباقر وآراء الصادق الكلامية كما مروا سراعاً بهشام بن الحكم وكان عدو المعتزلة ، وند أبى الهذيل العلاف ، كانت غايتهم فقط مخالفة المذهب الأشعرى بمجيج أعدائه القدماء . التريج الثانى : إن معتزلة بغداد - كانوا أقرب إلى التشيع ووضعوا نظرية فى الإمامة هى مزيج من الإمامية الشيعية العلوية ومن الإمامية الشيعية العباسية ، فهل كانت الاثنى عشرية امتداداً لمعتزلة بغداد ؟ . والتريج الآخر هو دخول كثير من الزيدى فى الإمامية وعودتهم إليها ، فحملوا معهم كثيراً من عناصر مذهبهم ، المعتزلى ، ومزجوه بمذهب الاثنى عشرية ، وكانت الزيدية متكاملة المذهب الكلامى . وينبغى أن نحدد العقائد الشيعية الإمامية المعتدلة ونرسم تاريخها على الشكل الآتى : عقائد سلفية قديمة على يد عالم الإسلام الكبير على بن أبى طالب وحفيديه على زين العابدين ومحمد الباقر ، عقائد كلامية عقلية تتوسط المذاهب وهى أقرب إلى الأشاعرة على يد جعفر الصادق ، وعقائد مجسمة على يد تلامذة جعفر هشام بن الحكم وهشام بن سالم الجوالقي ومؤمن الطاق ، وانتشر التجسيم ، وظهر كتاب الانتصار للمعتزلى ، فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى يؤرخ لنا تلك المرحلة الشيعية المجسمة ، ثم ظهر كتاب الشيخ المفيد (المتوفى ٤١٣ هـ) أوائل المقالات يمثل لنا المرحلة المعتزلية فى عقائد الشيعة . أو يمثل لنا تكون العقائد الشيعية الاثنى عشرية ، وتابع الشيخ المفيد مشيخة من أعلام المذهب الاثنى عشرى كالشريف المرتضى والرضى والطوسى ثم ابن المطهر الحلى فى عصر متأخر . ولا يقدح فى مذهب من المذاهب تطوره العقائدى ، إن هذا التطور إنما

هو دليل على حيوية المذهب ومرونته وقبوله للتطور العقلي المستمر . لا جرم بعد ذلك كان ينسب الشيعة المجتهدون إلى الصادق أنه قال : « الله ليس كمثله شيء ، ليس يحسم ولا صورة ولا تقع عليه الرؤية في الدنيا والآخرة ولا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وأنه لا جسم ولا صورة وهو جسم الأجسام ومصور الصور لم يتجزأ ولم يتناه ولم يتزايد ولا يتناقص ومن زعم أن الله في شيء أو على شيء أو يحول من شيء إلى شيء ، أو يخلو منه شيء ، لا يشتغل به شيء ، فقد وصفه بصفة المخلوقين ، والله خلق كل شيء ، لا يقاس بالقياس ولا يشبه بالناس ولا يخلو منه مكان . ولا يشتغل به مكان ، قريب في بعده . بعيد في قربه . ومن زعم أن الله تعالى من شيء ، فقد جعله محدثاً . ومن زعم أنه في شيء ، فقد جعله محصوراً ، ومن زعم أنه على شيء فقد جعله محمولاً .

هذا النص الذي نقله لنا الكافي يدل دلالة واضحة على مزج أقوال جعفر الصادق بكلام معتزلي أو بمعنى أدق بكلام اثني عشرى متأخر . كانت غايته أولاً وبالذات تدعيم الأصل المعتزلي القديم الذي اعتنقه متأخرو الاثني عشرية إنكار رؤية الله في الدنيا وفي الآخرة ، وهكذا فعل المجتهدون الموسومون بمجتهدى المذهب الاثني عشرى في نسبة أصول العدل والوعد والوعيد إلى الأئمة .

فإذا انتقلنا إلى الأصل الثالث عند الشيعة الاثني عشرية وهو النبوة . فلا نجد ثمة اختلافاً كبيراً بينهم وبين أهل السنة والجماعة ، فالفريقان يجتهدان سلسلة النبوة بمحمد ﷺ ، ولكن يختلف الفريقان اختلافاً جزئياً في مسألة العصمة ، فبينما يذهب الشيعة الإمامية إلى أن الأنبياء معصومون عن الكبائر والصغائر قبل النبوة ، وبعدها ، يذهب أهل السنة في الجملة ، إلى اعتبار الأنبياء معصومين عن الكبائر قبل النبوة وبعدها ، ولكن غير معصومين عن الصغائر سهواً في بعض الأحيان . ولكن لم يكن في هذا خلاف جوهري .

وإنما يبدأ الخلاف بين الشيعة الاثني عشرية وبين أهل السنة في مفهوم الإمامة اختلافاً كبيراً ، اتفق أهل السنة والاثني عشرية والإسماعيلية في وجوب نصب الإمام . ولم يشذ عن هذا سوى بعض المعتزلة - فرقة الأصم - التي ذهبت إلى أن الإمامة غير واجبة لا سمعاً ولا عقلاً ، وكذلك النجدات العاذرية من الخوارج فقد ذهبت إلى نفس الرأي ، وقررت أن الإمامة إنما تعود إلى مصالح العباد ، لا إلى لطف من الله يستلزم الأصلح والأكمل .

ولكن هذه آراء شاذة لا تتوقف عندها . فالخلاف الحقيقي إنما كان بين الشيعة وأهل السنة الأشاعرة ، يذهب الأشاعرة إلى أن الإمامة واجبة سمعاً ، بينما يذهب الشيعة إلى أن الإمامة واجبة سمعاً وعقلاً ، والإمامة هي جوهر العقيدة الشيعية عامة - اثني عشرية وإسماعيلية - والشيعة هي التي خرجت في فكرتها عن الإمامة عن إجماع الجمهور . والإيمان عند الشيعة إنما يتكون من الاعتراف

بتوحيد الله ونبوة محمد ﷺ وموالاته إمام العصر . فالإيمان بإمام العصر هي قاعدة إمامية تتصل بمجهر العقيدة وتتصل بها أوثق الاتصال . وهذا ما دعا الأشاعرة فيما بعد إلى مناقشة الشيعة في فكرتهم عن الإمامة في باب العقائد مع أن الإمامة مشكلة عملية ، واعتبار الشيعة الاثني عشرية «الإمامة» جزءاً من العقيدة أثار ضجة كبرى في العالم الإسلامي . ونفر علماء أهل السنة بحاربونها ومجادلونها بعنف بالغ ، وقد راعهم أن يضاف إلى العقيدة التقليدية أصل لم يرد إطلاقاً من قبل ، بل لقد فتش المحدثون في آثار السلف من أهل البيت فلم يجدوا له مكاناً . إنه من المؤكد أن الإمام علي بن أبي طالب كان يرى أنه أحق الناس بالخلافة بعد رسول الله ﷺ وكذلك أبنائه وأحفاده من بعده ، ولكن ليس في آثار هؤلاء ما يجعل الإمامة جزءاً من العقيدة يسوى بينها وبين شهادة التوحيد «لا إله إلا الله محمد رسول الله» . ولو كانت الإمامة جزءاً من العقيدة ، ومتممة لشهادة التوحيد ، فهل كان علي بن أبي طالب يقبل الحياة بعقيدة ناقصة . قد يقول الشيعة إنه اتخذ التقية في عهد الشيخين . وهذا مرفوض قطعاً . ما كان فارس الإسلام العظيم علي بن أبي طالب يأبى الدل ، ويتق في العقيدة . لقد اتقى في حقوقه ، ولكنه لم يتق أبداً في حقوق الله .

ولكن المتأخرين من الاثني عشرية ما لبثوا أن وضعوا الأدلة على الإمامة بأنها واجبة وجزء من العقيدة - ودليلهم الأول أن الإمامة لطف من الله وهذا اتجاه معترى واضح ودليلهم الثاني حفظ الشريعة . وهذا اتجاه عملي ، ثم تتابعت الأدلة على ذلك .

ولا يكنى الشيعي مجرد الإيمان بالإمام ، بل لابد من موالاته ، والولاية بمعنى الانتهاء للأئمة . وهذا ركن شيعي هام ، ويستتبع الولاية البراءة من الأعداء ، ولذلك كان لعن أعداء علي وغاصبيه ، وبخاصة الشيخين فريضة افترضها الشيعة الاثني عشرية على أنفسهم . ومن الإنصاف للشيعة أن نقول : إن لعن أعداء علي وغاصبيه كان رد فعل لما قام به الأمويون من سب علي وآل بيته من على منابر المسلمين . وكم كان جزع المسلمين من الأوائل من هذا السب . وقد انتهى الأمويون وانتهى سب علي وأولاده ، بل إن أهل السنة من قبل والآن يتعبدون على تراث أهل البيت . فقيم لعن الشيخان إذن ؟

والإمام ، هو مصدر التشريع بعد القرآن والسنة المؤكدة عن طريق أهل البيت ، فلا يقبل الشيعة إسناداً إلا عن طريقهم . فالإمام وارث العلم النبوي ، وإنما يعلو على البشر باتصاله الدائم بالعلم الإلهي ، ولم يصل إلى هذا عن اكتساب واعمال دليل ، بل ينقذ العلم في نفسه انقداحاً ، إنه منه وفي طبيعته ومادته انتقل إليه العلم الغيبي بعد تسلسل طويل في أرواح الروحانيين من الملائكة والأنبياء . في البدء كانت هناك مادة نورانية ، انتقلت من نبي إلى نبي حتى وصلت محمداً ومنه إلى علي وفاطمة .

واجتمع النور في الأئمة الفاطميين ، فمادة أرواحهم من هذا النور الخلاب الذي بهر المخلصين والمحبين من الشيعة ، فأمنوا به إيماناً عجيباً . ولقد آمن من قبل الملائكة حين انتقل هذا النور إلى آدم ، فسجد الملائكة إلا إبليس أبى واستكبر . وقد أمر الله آدم أن ينظر إلى قبة العرش الإلهي ، حيث شاهد تلك الأجسام النورانية المقدسة منعكسة في هذا القدس العظيم ، كما تنعكس صورة الوجه في مرآة صافية . فانعكاسات هذه الأجسام المقدسة محتواة في العرش الإلهي ، ومنها إمام العصر ، يؤمن به خلص المؤمنين ، بينما يكفر به أتباع الشياطين . فالعلم الغيبي إذن للأئمة ، هو أشبه بالوحي ، بل إن علوم الأئمة أشمل وأعظم من علوم الأنبياء باستثناء النبي محمد ﷺ ويورد الاثني عشرية قولاً ينسبونه إلى الإمام جعفر الصادق هو قول الله تعالى : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا - ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان » قال الصادق : منذ نزل ذلك الروح على النبي ما صعد إلى السماء ، وهو فينا » ويحدد الرضا اتصال الإمام بالوحي « أنه يسمع الكلام ولا يرى الشخص » أي يتلقى الوحي ولا يرى الملك . والإمام في هذا يختلف عن النبي الذي يتلقى الوحي ويرى الملك .

وأطلق الشيعة أيضاً على لسان جعفر الصادق « ورب الكعبة لو كنت بين موسى والخضر ، لأخبرتهما أني أعلم منهما ولأنبأتهما بما ليس في أيديهما ، لأن موسى والخضر أعطيا علم ما كان ، ولم يعطيا علم ما يكون وما كان حتى تقوم الساعة ، وقد ورثناه من رسول الله وارثه ^(١) » ولكن جعفر الصادق كما يروي الكليني نفسه ، يجب - حين سئل عن علم الأئمة - أنهم كصاحب موسى وذو القرنين كانا عالمين ولم يكونا نبيين ، إذ لهم ما للنبي ، ولكن ليسوا أنبياء ، فلا يتنزل عليهم الوحي ولا يحل لهم ما يحل للنبي من النساء فأما ما خلا ذلك ، فهم بمنزلة رسول الله ، إذ لم يعلم الله نبيه علماً ، إلا أمره أن يعلمه أمير المؤمنين ، فهو شريكه في العلم « وهذا الأصل متصل بولاية الأئمة ، إذ كيف يفرض الله طاعة الإمام على العباد ، ثم يحجب عنه أمر السماء ، فيتصرف في العباد على غير يقين . فالإمام مرجح الناس جميعاً . أو بمعنى أدق الإمام هو الولي الكامل .

والإمامة تسير في انتقالها طبقاً لناموس ثابت ، لا تختلف فيه ، قدر الله في علمه القديم ، فهل تنتقل من إمام إلى إمام - كما خط الله في اللوح ، لا تغيير ولا تبديل في علمه ، وهكذا كانت الإمامة نصاً لا تعييناً ، ولا ترك لتزعجات البشر وأهوائهم وإلا فسد أمر الشريعة ، إذ أن حفظها موكول بالإمام المعصوم يقول الصادق : « إن الله تعالى أوضح بأئمة الهدى من أهل بيتنا عن دينه ، وأبلى بهم عن سبيل مناهجه ، وفتح بهم عن باطن ينابيع علمه ، فمن عرف واجب حق إمامه ، وجد طعم حلوة إيمانه ، وعلم فضل طلاوة إسلامه ، لأن الله نصب الإمام علماً لخلق ، وجعله حجة على أهل مواده

(١) الكليني : الكافي ص ٥٦ - ٦٠ .

وعالمة» بل يذهب الشيعة الاثني عشرية إلى منح الإمام سلطة كونية «نحن أمان لأهل الأرض ، كما أن النجوم أمان لأهل السماء ، ونحن الذين بنا تمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، وبنا تمسك الأرض أن تميد بأهلها ، وبنا ينزل الغيث وتنشر الرحمة . ولولا من في الأرض منا لساخت الأرض بأهلها ، ولم تخل منذ خلق الله آدم من حجة لله فيها ظاهر مشهور أو غائب مستور ، ولا تخلو إلى أن تقوم الساعة من حجة لله ، ولولا ذلك لم يعبد الله ^(١) . وستنتقل هذه العقيدة إلى الصوفية ، وسيعلن هؤلاء أن الأرض خلقت لأجل محمد وآله .

بل إن الانتفاع أيضاً حادث بالإمام الحجة الغالب . يقول الشيعة على لسان الإمام علي زين العابدين : «إننا نتفع به ، كما نتفع الشمس المحجوبة بالغيوم ، فنعلم من هذا أن فيوضه وبركاته تعم الخلق حتى في زى الغيبة» وقد سئل كيف يتفع الناس بإمام مستور ويكون حجة الله عليهم . قال «كما يتفع الناس بالشمس إذا سترها السحاب» . وهكذا أنطق الاثني عشرية الإمام عليا زين العابدين بغيبة الإمام وبالانتفاع منه في الغيبة أيضاً .

وإذا كان الإمام مصدر المعرفة ومصدر الوجود ، فلا يقبل الله أعمال العباد إلا بمعرفته ، ومن مات ولم يعرف إمام زمانه ، مات ميتة جاهلية .

وكان لا بد لمنطق المذهب الاثني عشرى أن ينتهى بنسبة العصمة إلى الأئمة . وقد اختلفت أنظار المجتهدين من الشيعة فيها . فبينما يذهب البعض منهم إلى أن المعصوم من الأئمة يفعل الطاعة مع عدم قدرته على المعصية ، يرى البعض أن المعصوم قادر على فعل المعصية وإلا لم يستحق المدح على تركها ولا الثواب وليلطل الثواب والعقاب في حقه ، فكان خارجاً عن التكليف وأن العصمة ليست مانعة من القدرة على القبيح ولا مضطرة للمعصوم إلى الحسن ولا ملجئة إليه ، بل هي الشيء الذي يعلم الله تعالى أنه إذا فعله بعبد من عبيده لم يؤثر معه معصية له ، وليس كل الخلق يعلم هذا من حاله ، بل المعلوم منهم ذلك هم الصفوة الأخيار لقوله تعالى «ولقد اخترناهم على علم على العالمين» ، وقوله . وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار» ولا شك أن في نسبة العصمة للأئمة مع قدرتهم واختيارهم تناقضاً . وانتهى المجتهدون إلى القول تحت تأثير معتزلى إلى أن العصمة هي أمر يوجده الله للإمام لطفاً منه ، فيهديه إلى الطاعة ، فلا يقدم على المعصية ^(٢) .

ولقد حاول الشيعة الاثني عشرية تخريج قول علي زين العابدين في المعصوم بأنه «هو من اعتصم بحبل الله المتين» أى القرآن ، فلا يفترق الإمام عن القرآن إلى يوم القيامة .

(١) المرتضى : البحر الزخار ج ٥ ص ٣٨٠ .

(٢) الشيخ المفيد : شرح عقائد الصدوق ص ٦١ من ١١٤ .

فالإمام يهدي الناس إلى القرآن والقرآن يهديهم إلى الإمام لقوله تعالى : « إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم » يفسره المجلسي بأن تفسير العصمة بالاعتصام بجبل الله - إما باعتبار أن الله يعصم الأئمة من الذنوب بسبب اعتصامهم بالقرآن أو بأن المراد بأن الله عصمه بالقرآن فيعمل بما جاء به ويعرف معانيه » ولكن هل هذه العصمة - بهذا المعنى - مقصورة على الإمام ، أم أنها في متناول كل قرآني اعتصم بالقرآن ؟

وقد يتساءل الإنسان : فيم هذا كله ، وما الذي أثار الشيعة الاثني عشرية للقول بعصمة الإمام ودفعهم إلى الدفاع عنها وبحثها بحثاً كلامياً وفقهياً ؟ إن الأسباب لاعتناق الاثني عشرية لهذا الأصل أولاً : هو أن الإمام صاحب السلطة لا الأمة كما يدعى الأشاعرة ، أو بمعنى أدق بينما يعلن الأشاعرة « عصمة الأمة » مستندين على الأصل المشهور « الإجماع » متخذينه من الحديث المشهور « لا تجتمع أمتي على ضلالة » يعلن الاثنا عشرية عصمة الإمام مستندين أيضاً على أصلهم المشهور « موالاته الإمام » وأن الأرض لا تخلو من قائم بالحق وعلى الحديث الشيعي « من مات ولم يعرف إمامه ، مات ميتة جاهلية » ثانياً - نسب الاثنا عشرية للإمام « العلم الإلهي » وهو علم سرى في كتب وجوامع - الجفر والجامعة ومصحف فاطمة . إلخ ، وعلم ما كان وما هو كائن وما سيكون . إن حامل هذا العلم الإلهي ، هذا المستودع لثراث الأئمة ، عن خاتم الأنبياء ، لا بد وأن يكون معصوماً عن الخطأ والنسيان . ثالثاً - النور الإلهي نور محمد ، كيف يكون مستوراً ومستقراً في إمام ويكون هذا الإمام عرضة للخطأ ؟ وهنا مدخل للغنوصية في مصدرها الأفلوطيني المحدث . ورابعاً - الإمام مصدر الأحكام ، وله وحده مطلق التصرف في أعناق المسلمين وكل ما يمس حلالهم وحرامهم ، وكما أنهم لم يوافقوا أهل السنة على الإجماع ، لم يوافقوا أكثر وأكثر على القياس . فحين حرموا القياس ، لجأوا إلى الحكم المباشر من الإمام . يلقيه إليهم عن تلقى أو عن اجتهاد ، ولا بد أن يكون اجتهاده مبرأ من العيوب ، معصوماً من الخطأ .

لا إجماع إذن ولا قياس ، وإنما نص قرآني أو حديث عن إمام من الأئمة ، أو اجتهاد أشبه بصليصلة الجرس ، ولكن الإمام غائب ، وانتهى عهد الوكلاء ، فأى أصل من الأصول يعود إليه الشيعة الاثنا عشرية ، إذا استحدثت حادثات استحدثوا أصلاً غريباً : كل ما خالف العامة فهو رشاد . وما أعجب هذا الأصل .

وأخيراً - نأتى إلى الإمام الغائب - وقد رأينا نشأة الفكرة من قبل عند السبابة الأوائل ، ثم عند الكيسانية وعند الكثيرين من الغلاة . وقد آمن بها الاثنا عشرية إيماناً كاملاً ، حتى يومنا هذا . وقد تعرضوا لأجلها لأشد أنواع الهجوم العقلي من أعدائهم معتزلة وأشاعرة . بل إن الشيعة الإمامية اختلفت

فما بينها أشد الاختلاف . وقد نقل لنا النوبختي (١) في فرق الشيعة عقائد أربع عشرة فرقة ، اختلفت فيما بينها أشد الاختلاف ، حول حقيقة القائم ، وأخيراً انتصرت الفرقة القائلة بإمامة محمد بن الحسن العسكري ، على أن الشيعة الإمامية لم تسلم من اختلاف حتى بعد ظفر هذه الفرقة الأخيرة . يقول الشهرستاني : «صارت الإمامية متمسكين بالعدلية في الأصول وبالمشبه في الصفات ، متحيرين تائبين ، وبين الإخبارية منهم والكلامية سيف وتكفير ، وكذلك بين التفصيلية والوعيدية قتال وتفصيل (٢) وما زال لهذا الاختلاف بقايا حتى الآن .

وقد ظهرت لدى الشيعة الاثني عشرية مشكلة من أدق المشاكل وهي : متى يظهر الإمام المخبئي ؟ وقد اختلفوا في هذا . أما الذين حددوا ظهور الإمام المهدي في زمن معين ، فقد سموا بالوقتتين وكتبوا - كتاباً عدة يحاولون بها تحديد وقت ظهور الإمام الغائب ، بينما آمن الأغلبية العظمى من الشيعة الاثني عشرية بإنكار الوقت ، ويبدو هذا من دعائها أمام مسجد الإمام الغائب في سامرا «أشهد أنك الحق الثابت الذي لا ريب فيه ، وأن وعد الله فيك حق . لا أرتاب فيك لطول الغيبة وبعد الأمد ، اللهم طال الانتظار ، وشممت بنا الفجار ، وصعب علينا الانتظار ، اللهم أرنا وجه إمامك في حياتنا وبعد المنون ، اللهم إني أدين لك بالرجعة بين يدي صاحب هذه البقعة . . الغوث ! الغوث ! الغوث ! ولكن لم تنته فكرة التوقيت في محيط الشيعة الاثني عشرية ، لقد ظهرت الشيعة ثم البابية ثم البهائية ، مؤمنة بالوقت ، منسلخة عن الشيعة الاثني عشرية ، بل منسلخة عن الإسلام كلية ضاغطة على الإسلام أشد الضغن ، مستعدية عليه في جميع بقاع الأرض اليهودية والنصرانية .

قد رأينا الشيعة تحاول أن تجد مصدراً للرجعة في الإسلام وتستند في هذا إلى أحاديث كثيرة منها ما أورده الترمذي ، وابن حجر العسقلاني ، بل إن ابن تيمية نفسه - وهو المحدث الكبير - يوافق على صحة أحاديث المهدي وخروجه في آخر الزمان . غير أن نسق مذهب الرجعة عند الشيعة يخالف تماماً نسقها عند أهل السنة والجماعة ، وإن كانت الفكرة الشيعية عن المهدي قد أثرت بلا شك في فكرة مهدي أهل السنة والجماعة ، ويبدو أن أهل السنة اختلفوا في حقيقة المهدي ورجعته ، وأنكره البعض ، كما أنكره المعتزلة جميعاً .

وأخيراً . . . هل الفكرة يهودية ؟ فالمهدي يوازي المسيح ، والمسيح فكرة أنتجها العقل اليهودي وهي تعني منقذاً ومخلصاً يظهر لإنقاذ البشر ، وما زال اليهود يتطلعون إلى ظهوره . بل إن اليهودية تؤمن بأن إيليا أيضاً رفع إلى السماء وسيعود وأثرت الفكرة اليهودية في المسيحية أيضاً ! فالمسيحية وقد اعتقدت

(١) النوبختي : فرق الشيعة ص ٩١ وما بعدها .

(٢) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ .

في ظهور المسيح ، تؤمن أيضاً بخلوده أولاً ثم بيعته ثانياً . أم أن المهدي هو ساوسخايات المهدي الزرادشتي مختلطاً بعناصر مسيحية ويهودية (١) ؟

هل أثرت كل هذه الأساطير اليهودية الزرادشتية في التراث الشيعي ؟ وكان المهديون في الإسلام محمداً ﷺ وعلى بن أبي طالب ومحمد بن الحنفية ، وزيد بن علي بن الحسين ، ويحيى بن زيد ، هؤلاء من آل البيت . ثم نرى كثيراً من المصلحين ولا سيما في العصور الحديثة قاموا يحاربون الفساد أو الاستعمار باسم المهدي مثل مهدي السودان ، ومهدي السنوسي ، ومهدي القوقاز إيليا منصور ، ومهدي الأكراد حسن بن عدي . وما زال المسلمون في القوقاز يأملون في عودة إيليا منصور ليخلصهم من حكم الروس ، كما أن الأكراد يأملون في ظهور حسن بن عدي . ويبدو أن فكرة المهدي إنما تعود إلى فترة من فترات الحسرة التي تسود العالم الإسلامي حيناً إذا ما سلبت منه السلطة الدينية فيؤمل الناس في ظهور رجل أو إمام ينافع عن الدين ويعيد مجده ولعل هذا الضمير القلق هو الذي أبدع فكرة المهدي ، أبدعها من لا شيء ، وبدون استناد على أي من النصوص ، ورأى بقايا اليهود في العالم الإسلامي إسباغها حيثئذ على أئمة الشيعة ، إضراماً للعداوات المتأججة بين المسلمين ، فدخلت في عقائد الشيعة مؤيدة بالحجج ، ومسلحة بالبراهين وأصبحت جزءاً من العقيدة الشيعية على مر العصور.

البَابُ السَّادِسُ

تطور الغلو

الفصل الأول

غلاة الجعفرية

الخطابية

بينما كانت الإمامية تشق طريقها المنهجى ، وافتتحت كما قلنا مراراً رجالها وعلمائها المذهب ، ويضعون أركانه ، ويتبنون نظريات فلسفية - رواقية وأرسططاليسية أحياناً ، لتدعيم المذهب - كان الغلو الشيعى يأخذ مداه الخفيف فى الكوفة مرة ثانية ، فلم ينته الغلو بمقتل أبى منصور العجلي ، ولا بمقتل عبد الله ابن معاوية ، بل ظهر فى أبشع صورة لدى شخصية احتلت أكبر مركز فى تاريخ الغلاة ، وأقلقت مضجع الدولة ، كما أقلقت مضجع الإمام جعفر الصادق فى بيته الهادئ فى المدينة ، أما هذه الشخصية فهى شخصية أبى الخطاب الأسدى (المقتول عام ١٣٨هـ) .

أما اسمه الكامل فهو محمد بن مقلص أبو زينب الأسدى الكوفى الأجدع الزراد البزاز - ويكنى تارة أبا الخطاب وأخرى أبا الظبيان وثالثة أبا إسماعيل ، وقد نشأ بالكوفة ، ثم تردد على الإمام جعفر الصادق وأخذ عنه ، وقد وردت روايات متعددة عن مقامه لدى الإمام .

أما الأولى : « قال عنبسة قال لى : أبو عبد الله (جعفر الصادق عليه السلام) : أى شىء سمعت من أبى الخطاب . قال : سمعته يقول : إنك وضعت يدك على صدره وقلت له «عه ولا تنس» وإنك تعلم الغيب . وإنك قلت له : هو غيبة علمنا وموضع سرنا وأمين على أحيائنا وأمواتنا .

أما الثانية فهى للخصيبى النصيرى قال : جعفر قال لأبى الخطاب : يا محمد : أناطبك بما خاطبك به رسول الله ﷺ سلمان . وقد دخل عليه عند أم أيمن وقال : أصبحت يا سلمان غيبة علمنا ، ومعدن سرنا ، ومجمع أمرنا ونهينا ، ومؤدب المؤمنين بآدابنا . أنت والله الباب الذى يؤدى إلى علمنا . وفيك ينبأ علم التأويل والتتزيل وباطن السر وسر السر ، فبوركت أولاً وآخراً ، وظاهراً وباطناً وحيّاً وميتاً . فقال رسول الله هذا القول لسلمان وقلته أنا لك يا أبا محمد ^(١)

(١) ماسينيون : شخصيات قلقة ص ٤٧ ، ٤٨ .

والنص الأول عن عنبة الناوسى والثانى عن الخصىبى النصيرى . وكلاهما غاليان ، وروايتهما مردودة . وفى النصين محاكاة لأسلوب جعفر ، فهل هما لجعفر فعلاً ، حينما كان أبو الخطاب يتردد عليه ويتابعه فى اقتصاد ؟

إن الكشى - وهو مؤرخ رجال الشيعة ، يذكر أن هذه الأخبار التى رواها أبو الخطاب عن جعفر قد عرضت على الإمام نفسه فكذبها وأنكرها ، بل إن الإمام جعفرأ قال : ما مس شئ من جسد جسد إلهي (١) . كما يذكر الكشى أن الإمام جعفرأ قال : « اللهم العن أبا الخطاب ، فإنه خوفى قائماً وقاعداً وعلى فراشى اللهم أذقه حر الحديد » ثم أورد روايات متعددة تدل على ذمه (٢) . وأياً ما كان الأمر ، فإن أبا الخطاب الأسدى قد تردد على جعفر الصادق بعض الوقت ، ثم عاد إلى الكوفة ، وأخذ ينشر مبادئه ويكون فرقة وقد التف حوله وآمن بدعوته بعض فلول المنصورى من أتباع أبى منصور العجلي ، كما أن فلول الجناحية من أتباع عبد الله بن معاوية قد أسرعت إليه ، وكان الرجل على مهارة وذكاء ودقة ومرونة فى تنظيم الدعوة ، وكان يدعو أولاً باسم جعفر الصادق ، ويبدو من رواية الكشى أن أول دعوته هى نسبة العلم الغيبى إلى جعفر ، فلما « وقف الصادق على غلوه الباطل فى حقه ، تبرأ منه ولعنه ، وأخبر أصحابه بالبراءة منه ، وتشدد القول فى ذلك ، وبالحق فى التبرئ منه واللعن عليه » (٣) . وثبت تماماً أن الرجل اتصل بجعفر أول الأمر ، وأن جعفرأ قد قرب إليه ما يذكره أحد أتباع جعفر وهو عيسى بن أبى منصور شلقان لإسماعيل بن الإمام جعفر « قلت لأبى الحسن - وهو يومئذ غلام قبل أوان بلوغه : جعلت فداك ما هذا الذى يسمع من أبيك (جعفر) إنه أمرنا بولاية أبى الخطاب ، ثم أمرنا بالبراءة منه . فقال أبو الحسن من تلقاء نفسه : إن الله خلق الأنبياء على النبوة . فلا يكونون إلا أنبياء . وخلق المؤمنين على الإيمان فلا يكونون إلا مؤمنين . واستودع قوماً إيماناً ، فإن شاء أجمع وإن شاء سلبهم إياه . وإن أبا الخطاب كان ممن أعاره الله الإيمان فلما كذب على أبى سلبه الله الإيمان » (٤) .

هذه هى أول الدعوة ، وكان جعفر الصادق يكره نسبة العلم الغيبى إليه - وكان أبو الخطاب ينسب إلى جعفر أيضاً معرفة الاسم الأعظم ، وأنه علمه إياه وجعله قيمه ووصيه من بعده (٥) . ثم حين تبرأ منه جعفر ادعى الأمر لنفسه ، ويذهب القاضى أبو حنيفة النعمان الإسماعيلى إلى أن

(١) الكشى : معرفة الرجال ص ١٨٨ وانظر أيضاً الدكتور الشيبى : الصلة بين التصوف والتشيع ص ١٤٢ .

(٢) الكشى : معرفة الرجال ص ١٨٧ - ١٨٩ .

(٣) الشهرستانى : الملل : ج ١ ص ٣٠٠ .

(٤) الكشى : معرفة الرجال ٢١١ .

(٥) النوبختى : فرق الشيعة ص ٤٢ .

أبا الخطاب كان من أجل دعاة جعفر الصادق « فأصابه ما أصاب المغيرة فكفر وادعى أيضاً النبوة وزعم أن جعفر بن محمد إله ، ثم استحل المحارم كلها ورخص فيها . ويذكر أن أصحابه كلما ثقل عليهم أداء فريضة أتوه . وقالوا : يا أبا الخطاب . خفف علينا ، فيأمرهم بتركها ، حتى تركوا جميع الفرائض واستحلوا جميع المحارم وارتكبوا المحظورات ، وأباح لهم أن يشهد بعضهم لبعض بالزور وقال : من عرف الإمام فقد حل له كل شيء كان حرم عليه ، فبلغ أمره جعفر بن محمد ، فلم يقدر عليه أكثر من لعنه وتبرأ منه وجميع أصحابه فعرفهم بذلك ، وكتب إلى البلدان بالبراءة منه واللعنة عليه ^(١) . أما النوبختي الاثنا عشرى فقد ذهب إلى أن أبا الخطاب كان يدعى أن جعفر الصادق جعله قيمه ووصيه من بعده ، وأن جعفر علمه اسم الله الأعظم ثم ترقى إلى أن ادعى النبوة ثم ادعى أنه من الملائكة وأنه رسول الله إلى أهل الأرض والحجة عليهم » ثم قالوا - أى الخطائية - « إن أبا الخطاب نبى مرسل أرسله جعفر وأمر بطاعته وأحلوا المحارم من الزنا والسرقة وشرب الخمر وتركوا الصلاة والصيام والحج وأباحوا الشهوات بعضهم لبعض . وقالوا : من سأل أخوه ليشهد له على مخالفته فليصدقه ويشهد له ! فإن ذلك فرض واجب وجعلوا الفرائض رجالاً سموهم والفواحش والمعاصي رجالاً وتأولوا على ما استحلوا قول الله تعالى (يريد الله أن يخفف عنكم) وقالوا خفف عنا بأبى الخطاب ووضع عنا به الأغلال والآصار - يعنون الصلاة والزكاة والصيام والحج - فن عرف الرسول النبى الإمام فليصنع ما أحب » ^(٢) .

ويبدو أن دعوة أبى الخطاب لم تصل إلى هذا الحد في مرحلتها الأولى . فإذا كان أبو الخطاب حقاً من أجل دعاة جعفر ، فما كان جعفر يسكت أبداً عنه منذ البداية ، وقد كان لجعفر عيون وأنصار ورجال من كبار المتكلمين في الكوفة .

بل يبدو أن تلك كانت المرحلة الثانية في دعوة أبى الخطاب ، حين تبرأ منه جعفر . بدأ ينظم الدعوة لنفسه ، ويستغل كل ما وصل إليه من عقائد الغلاة من قبله ، وبدأ يقيم هذا المجتمع الباطنى الإباحى حوله ، ولم تكن سوى امتداد لمجتمع غال تكرر مراراً في الكوفة . وأعلن أبو الخطاب ، كما أعلنت الخطائية من بعده أن الإمام جعفر بن محمد الصادق أودعهم الجفر ، وفيه كل ما يحتاجون من علم الغيب وتفسير القرآن ^(٣) . وهذا يدل دلالة واضحة على أن مركز الدائرة في دعوة أبى الخطاب إنما كانت في نسبة الغيبى والسرى إلى جعفر ، وأن جعفر أودعه أبا الخطاب . ثم غلا في تصويره لحقيقة

(١) القاضى النعمان : دعائم السلام ص ٦٢ ، ٦٣ .

(٢) النوبختى : الشيعة ص ٤٢ ، ٤٣ .

(٣) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٣٥٢ .

الإمام الذي أحبه . ويذكر أبو خلف القمي عنه أنه قال : « رأيت أبا عبد الله (أى جعفر الصادق) في الحجون جالسا . فقلت له : يا سيدى أرني نفسك في عظمتك وملكوته فقال له : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى . ولكن ليطمئن قلبي . قال فبسط يده على الأرض فإذا السموات والأرضون والحلائق في قبضته . ثم قال : فأرني ركن الحجر الأسود ، فإذا البيت قد رفعه على أصبعه في الهواء ، وإذا من حوله قردة وخنازير . وإذا موضع البيت بحيرة قطران أسود . ثم رده كما كان . وقال : هذا مركز الشيطان ومأوى إبليس (١) » . فلما انفصل الرجلان بدأ أبو الخطاب يضع دعوته النهائية ، ويأخذ جملة آراء المغيرة والمنصورية .

آراء أبى الخطاب الأسدى :

يذهب الشهرستاني إلى أن أبا الخطاب كان يعلن أن الأئمة أنبياء ثم انتهى إلى القول بأنهم آلهة . أى أنه نادى بإلهية جعفر بن محمد وإلهية آبائه ، وأنهم أبناء الله وأحباؤه . والإلهية نور في النبوة ، والنبوة نور في الإمامة ، ولا يخلو العالم من هذه الآثار والأنوار . وزعم أن جعفر هو الإله في زمانه ، وليس هو المحسوس الذي يرونه ، لكن لما نزل إلى هذا العالم ، لبس تلك الصورة فرآه الناس (٢) . هذا هو نقل الشهرستاني للمذهب ويبدو أن الرجل كان يؤمن بنظرية « الحلول » أن الله نور من الأنوار ، وأن هذا النور يحل في الأنبياء والأئمة ، بل إن البغدادي نفسه يضعه في فرقة الحلولية ، (٣) ونحن نعلم أن نظرية النور المحمدي كانت قد بدأت في عصر جعفر الصادق ، وتكلمنا عن أصلها الأفلاطوني المحدث ونظرية الكلمة المسيحية اختلط هذا كله في مذهب أبى الخطاب مع نظرية النور الثنوية الغنوصية . غير أنه ينبغي أن نتفهم في ضوء النصوص المتعارضة آراء أبى الخطاب الأسدى في حقيقة الأئمة . أن الأشعري ، وهو أقدم من البغدادي والشهرستاني يقول إن الخطائية تزعم « أن الأئمة أنبياء محدثون ورسول الله وحججه على خلقه ، ولا يزال منهم رسولان واحد ناطق والآخر صامت ، فالناطق محمد ﷺ ، والصامت على بن أبى طالب ، فهم في الأرض اليوم طاعتهم مفترضة على جميع الخلق يعلمون ما كان وما سيكون وما هو كائن (٤) . وتكاد تجمع المصادر على أن أبا الخطاب هو أول من نادى بنظرية الإمام الناطق والإمام الصامت ، وتنسب إليه القول بأنه لا بد من رسولين في كل عصر ، ولا تخلو الأرض من واحد ناطق ، وآخر صامت وقال في ذلك الآية « ثم أرسلنا رسلكنا تترى (٥) » .

(١) أبو خلف القمي : كتاب المقالات ص ٥٥ . (٢) الشهرستاني : الملل ج ١ ص ٣٠٠ / ٣٠١ . (٣) البغدادي : الفرق ١٣٧ . (٤) البغدادي : الفرق ص ١٣٨ . (٥) أبو خلف القمي : المقالات ص ٥١ .

ويضيف البغدادي إلى هذا أنهم قالوا إن علياً صار بعد النبي ﷺ ناطقاً ، وهكذا يقولون في الأئمة إلى أن انتهى الأمر إلى جعفر ، وكان أبو الخطاب في وقته إماماً صامتاً وصار بعده ناطقاً (١) . هل كانت هذه هي دعوة أبي الخطاب ، وهل ادعى أنه حجة الإمام النبي ووصيه وقيمه ؟ أم أنه ادعى أنه نبي ، كما ادعى أن جعفرأ هو الإله في زمانه ، وليس هو المحسوس الذي يروونه ، ولكن لما نزل إلى هذا العالم ، ليس تلك لصورة ، فرآه الناس فيها (٢) « النصوص متعارضة ومتناقضة ، فبينما يذكر أنه كان يقول بأن جعفرأ نبي ، وأنه من الرسل فرض على الناس طاعة أبي الخطاب يذكر أن الأئمة آله ، وأن أبا الخطاب إله ، ويذكر « ولد الحسين أبناء الله وأحباؤه وكذلك أبو الخطاب » - ويذكر أنهم تأولوا في ذلك قول الله تعالى (فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) وهذا آدم ونحن - أي الخطائية أولاده - وأخيراً إن الخطائية عبدوا أبا الخطاب ، وزعموا أنه إله وزعموا أيضاً أن جعفرأ إلههم أيضاً ، إلا أن أبا الخطاب أعظم منه وأعظم من علي (٣) . ويذكر أقدم مؤرخ شيعي - وهو أبو خلف القمي أن أبا الخطاب ادعى أنه جعفر بن محمد وأنه يتصور في أي صورة شاء . وذكر بعض الخطائية أن رجلاً سأل جعفرأ عن مسألة وهو بالمدينة . فأجابه فيها . ثم انصرف إلى الكوفة . وسأل أبا الخطاب عنها . فقال له : أو لم تسألني عن هذه المسألة بالمدينة فأجبتك فيها (٤) .

أين الحق في كل هذا ؟ فالأئمة أولاً أنبياء ثم آله وأبو الخطاب حجة وقيم ، ثم نبي ، ثم إله . والأئمة أبناء الله وأحباؤه وكذلك أبو الخطاب .

إن هذا التناقض فيما نقل إلينا من أخبار متعارضة عن أبي الخطاب الأسدي يجعلني أشك تمام الشك فيما أحيط بالرجل من أساطير غالية ، تكاد تجمع عليها مصادر السنة والشيعية الإمامية معاً وتجعلني أرجح أن ثمة خلافاً كبيراً بين أبي الخطاب نفسه وبين الخطائية من بعده . ونستطيع أن نتبين طريقنا خلال شواهد ثلاثة تركها لنا التاريخ فيما ترك من أخبار .

أما الشاهد الأول : فهو أبو خلف القمي - المؤرخ والمتكلم الشيعي القديم . فبينما يذهب في نص من النصوص إلى أن أبا الخطاب كان يدعى « أن جعفرأ الصادق جعله قيماً ووصيه من بعده ، وعلمه اسم الله الأعظم ، ثم ترقى إلى أن ادعى النبوة ثم ادعى الرسالة ، ثم ادعى أنه من الملائكة ، وأنه رسول الله إلى أهل الأرض والحجة عليهم » يذهب في نصوص أخرى إلى أن الرجل قد نهى عن كل هذا . فهو يشرح لنا قصة معمر بن خيثم أحد الغلاة والمتنسين إلى الخطائية . فيقول : إن هذه الفرقة جعلت جعفر ابن محمد إلهاً بمعنى أن نور الله نور يدخل في أبدان الأوصياء فيحل فيها ، فكان ذلك النور في جعفر ،

(١) البغدادي : الفرق ص ٥١ .

(٢) الشهرستاني : الفرق ج ١ ص ٣٠٠ / ٣٠١ .

(٣) أبو خلف القمي : المقالات ص ٥١ .

(٤) الأشعري : مقالات : ج ١ ص ٦ .

ثم خرج منه فدخل في أبي الخطاب ، فصار جعفر من الملائكة ثم خرج من أبي الخطاب ، فدخل في معبر وصار أبو الخطاب من الملائكة (١) . ثم خرج أحد أتباع معمر ويدعى بابت اللبان يدعو إليه « وصلى له وصام وأحل الشهوات كلها ما حل منها وما حرم ، وليس عنده شيء محرم وقال : لم يخلق الله هذا إلا لخلق ، فكيف يكون محرماً ، وأحل الزنا والسرقة وشرب الخمر والميتة والدم ولحم الخنزير ونكاح الأمهات والبنات والأخوات ونكاح الرجال ، ووضع عن أصحابه الجنبات وقال : كيف أغتسل من نطفة خلقت منها ، وزعم أن كل شيء أحله الله في القرآن وحرمه فإنما هو أسماء رجال » (٢) هذه هي آراء تلك الفرقة المعمرية ، عقائدها وعبادتها وطقوسها الوثنية الغنوصية . ومن العجب أن أبا خلف القمي يذكر أن من أنكر على معمر عقائده وتبرأ منه ولعنه هما جعفر الصادق وأبو الخطاب الأسدي فيقول « وخصمه قوم من الشيعة وقالوا لهم . إن الذين زعمتم أنها صارا من الملائكة قد برئ من معمر وبزيف وشهدا عليها كافرين شيطانان وقد لعناهما ، فقالوا إن الذين ترونها جعفر وأبا الخطاب شيطانان تمثلا في صورة جعفر وأبي الخطاب يصدان الناس عن الحق ، وجعفر وأبو الخطاب ملكان عظيمان عند الإله الأعظم إله السماء ومعمر إله الأرض ، وهو مطلع لإله السماء يعرف فضائله وقدره » (٣) . ويتبين واضحاً من هذا النص أن أبا الخطاب الأسدي نهى كما نهى جعفر عن دعوى معمر وبزيف الغالية ، وأن أبا الخطاب تبرأ كما تبرأ جعفر من كل من معمر وبزيف وقد دعا هذا إلى اعتبار جعفر الصادق وأبا الخطاب شيطانين تمثيلين في صور بشرية .

وأما الشاهد الثاني : فهو قصة القتال الذي حدث بين أتباع أبي الخطاب الأسدي وبين عيسى بن موسى أمير الكوفة من قبل أبي جعفر المنصور . فقد بلغ هذا الأمير أن الخطابية أتباع أبي الخطاب مجتمعون في المسجد يدعون إلى أبي الخطاب فيبعث إليهم ، فحاربوه وامتنعوا عليه ، وكانوا سبعين رجلاً فقتلهم رجال عيسى بن موسى جميعاً ، ولم ينج منهم إلا رجل واحد أصابته جراحات فعد في القتلى فتخلص وهو أبو سلمة سالم بن مكرم الجبال الملقب بأبي خديجة ، وسالم بن مكرم كان من رجال الحديث الشيعي ووثقه النجاشي في رجاله .

ويذكر المؤرخون أن أبا الخطاب وأصحابه حاربوا رجال عيسى بن موسى حرباً عنيفة شديدة بالحجارة والقصب والسكاكين ، لأنهم جعلوا القصب مكان الرماح . وقد كان من أبي الخطاب أن قال لهم « قاتلوهم فإن قصبكم يعمل فيهم عمل الرماح والسيوف ورماحهم وسيوفهم وسلاحهم

(١) أبو خلف القمي : المقالات ص ٥٣ وانظر أيضا النوبختي : فرق ٤٢ .

(٢) أبو خلف القمي : كتاب المقالات ص ٥٣ ، والنوبختي : فرق ص ٤٤ .

(٣) أبو خلف القمي : كتاب المقالات ص ٥٣ ، والنوبختي : ص ٤٢ .

لا تضركم ولا تحل فيكم ، وأخذ يقدم منهم عشرة عشرة للمحاربة ، فلما قتل منهم نحو ثلاثين رجلاً قالوا له : ما ترى ما يحل بنا من القوم . وما نرى قصبنا يعمل فيهم ولا يؤثر . وقد عمل سلاحهم فينا وقتل من ترى منا ؟ فقال لهم : « إن كان قد بدا لله فيكم فما ذنبى » ثم قال : يا قوم قد بليتكم وامتحنتم وأذن في قتلكم ، فقاتلوا على دينكم وأحسابكم ولا تعطوا بلدكم فقتلوا ، مع أنكم لا تتخلصون من القتل فوتوا كراماً » فقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم . وأسر أبو الخطاب وقتله عيسى بن موسى مع مجموعة من أصحابه ، ثم صلبه وأحرقه (١) .

ويبدو واضحاً من هذه الصورة التي ذكرناها أن الرجل لم يدع ألوهية أو نبوة ، وإنما كان يغلو في حب آل البيت وأنه حاول محاولة المختار بن أبي عبيد من قبل أو هو صورة منه . اتصل بالإمام الشيعي جعفر الصادق . كما اتصل المختار بمحمد بن الحنفية ، وحاول السيطرة على الكوفة كما حاول المختار . ولكن المختار كان أكثر فاعلية وقوة ، ثم نادى - كما نسب إلى المختار - بالبداء - بل يذهب بعض المؤرخين إلى أن البداء ظهر على يديه ، وأنه هو أول من بشر به . ثم نلاحظ أيضاً أنه كان من أتباعه سالم بن مكرم وهو محدث مشهور وأحد رجال جعفر الصادق ، بل إن جعفر الصادق هو الذي كناه أبا سلمة ، مستبدلاً بها كنيته القديمة ، أبا خديجة ، ولقد بقي أبو سلمة سالم بن مكرم مع أبي الخطاب في قتاله الأخير حتى النهاية .

أما الشاهد الثالث : فهو أن جميع كتب الفرق بلا استثناء تنسب المذهب إلى أصحابه ولا تطلق على لسان أبي الخطاب إلا القليل . أما تبرؤ جعفر منه ، فقد كانت هذه هي خطة جعفر الصادق ، وهي إعلان التبري من بعض رجاله المخلصين حتى لا يضاروا أو يضار جعفر نفسه ، وقد فعل هذا مع زرارة بن أعين كما رأينا من قبل - ولعل جعفر قد مثل مع أبي الخطاب قصة محمد بن الحنفية مع المختار ، فمحمد بن الحنفية تبرأ - فيما يقال - من المختار . ولو ظاهرياً مع أن المختار كان من أخلص رجاله . وكذلك فعل جعفر مع أبي الخطاب . ويؤيد هذا ما يذكره الخطابية - بعد مقتل أبي الخطاب في تأويل الآية « أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أغيها . . . » أن السفينة أبو الخطاب ، وأن المساكين أصحابه ، وأن الملك الذي وراءهم هو عيسى بن موسى العباسي قاتل أبي الخطاب . وأن جعفر الصادق أراد أن يعيهم بلعنهم في الظاهر وفي الباطن يعني أضدادهم ومن خالفهم (٢) . وكما نسبت إلى المختار الآراء الكيسانية نسبت إلى الخطاب الآراء الخطابية من بعده . غير أنه يبدو أن ثمة خلافاً حقيقياً قد حدث بين أبي الخطاب والأسدي وبين الإمام جعفر

(١) أبو خلف القمي : كتاب المقالات ص ٨١ ، ٨٢ .

(٢) أبو خلف القمي : كتاب المقالات ص ٥٥ .

الصادق ، وهو أن أبا الخطاب كان من محبي إسماعيل بن الإمام جعفر ، وكان جعفر الصادق يكره صلات ابنه - كما سنرى بعد - بالغلاة مما يجعله يفكر في عزله عن إمامة الشيعة بعده وقد قتل أبو الخطاب في نفس السنة التي توفي فيها إسماعيل وحدث الانقسام وسرعان ما انضم الخطابية - منفذين لسياسة زعيمهم - لمحمد بن إسماعيل ونرى أن الإسماعيلية أطلقت أول ما أطلقت على الخطابية . يقول النوبختي « وأما الإسماعيلية الخالصة فهم الخطابية أصحاب أبي الخطاب محمد بن أبي زينب الأسدي الأجدع ، وقد دخلت منهم فرقة في فرقة محمد بن إسماعيل وأقروا بموت إسماعيل بن جعفر في حياة أبيه » (١) . وقد لاحظنا من قبل أن أبا الخطاب الأسدي تكنى بأبي إسماعيل ، واضعاً بذلك أسس فكرة الأبوة الروحية والتبني الروحي ، مما كان له أثر في عقائد الإسماعيلية - فيما بعد - علاوة على أنه ينسب إليه فكرة الناطق وفكرة الإمام الصامت .

ولقد كان لأبي الخطاب الأسدي المقام الكبير في تاريخ الشيعة - غلاة وإسماعيلية - ولقد وضع كما قلنا من قبل في موازنة « سلمان الفارسي » ولما كان سلمان « من أهل البيت » ، كان أبو الخطاب « مولى بني هاشم » . كما اعتبر سلمان ممثلاً لدور السين - كذلك اعتبر أبو الخطاب ممثلاً له . يقول ماسينيون : « وهذا الدور العالي دور السين ، أي دور النقيب الموحى إليه ، هو الذي ادعاه أبو الخطاب - وكان لقبه في البدء مولى بني هاشم في سنة ١٣٨ هجرية بالكوفة قائلاً : إن الإمام جعفراً اعترف له به - متخذاً صيغة أخرى مدسنة له - غنوصية زعم أن محمداً استخدمها متحدثاً عن سلمان . وقد أنكر الخطابية أن يكون آل علي قد قدر لهم قدراً سابقاً أن يكونوا أئمة بمجرد كونهم من نسله . وقالوا إن الاختيار الإلهي بالتبني الروحي هو وحده المعترف . وعلى هذا لقبوا سلمان لا بلقب محمدى وإنما بلقب - ابن الإسلام ، كما لقبوا خليفته أبا الخطاب بلقب - أبي إسماعيل » (٢) وقد حاول ماسينيون جهده أن يثبت الموازنة بين سلمان وبين أبي الخطاب . يرى ماسينيون أن الإمامية - وهم بصدد تأمل رسالة سلمان الفارسي - إفترضوا صحة القول بأن روح التأويل التي تفتح لنا معاني الكتاب تمتاز سموً وعلوً من الروح - جبريل - التي نزلت على محمد ﷺ . إنها أعلى وأسمى لأنها روح الأمر المذكورة في القرآن « وحددوا روح الأمر بأنها هي نوع من الفيض الإلهي يحقق تدريجياً مقاصد الله الحقية . ورأت الإمامية أن سلمان إحدى وسائل روح الأمر وإحدى عللها الإلهية لدى الرسول على معاً .

هذه الروح تنفذ الأمور الإلهية ، وتفسر قواعد هذه الأمور الثابتة كهؤلاء الذين تختارهم وسائل لها .

(١) أبو خلف القم : كتاب المقالات ص ٨١ ، والنوبختي فرق ص ٦٩ .

(٢) ماسينيون : سلمان الفارس والبراكير الروحية للإسلام في إيران في كتاب « شخصيات قلقة في الإسلام » ترجمة الدكتور

وبينما نجد استعمال التزليل لا يسمح ولا يغنى سوى مكافحة أحد غير الملاحدة والمشركين ، نجد روح التأويل تسمح بتمييز نفاق المنافقين وأسرار الأفئدة ولعل ماسينيون يشير بأسلوبه الشعري الخيالي إلى تلك الفكرة الإمامية التي استندت على قول عمار بن ياسر في صفين « اليوم نقاتلكم على تأويله كما قاتلناكم من قبل على تزليله » أو على الأثر المشهور « إننا كنا نتعرف على المنافقين على رسول الله يفضهم لعلى ». وأياً ما كان الأمر فإن ماسينيون يذكر أن الإمامية ترى أن روح الأمر - روح التأويل - تتجسد في كل جيل في ممثلين للدراما الإنسانية لطاعة الله وأولئك الذين يتعرفون بالإمام الشرعى ومن ينكرونه دورة بعد دورة وأن هذه النظرية القائلة بدوام التصميم التاريخي وبالعود الدورى للنماذج الكتابية الدينية قد ظهرت سنة ٣٣٣هـ . حينما أعلن صعبعة بن صوحان أن الإمام - وقد كان في البدء آدم - يجب أن يتعرف آنذاك على « ثم أتى المغيرة من الغلاة قبل عام ١٠٠هـ وأعلن أن المنكر الأول في حياة على هو عمر ، وهو يوازى إبليس الأول المنكر في حياة آدم وقد أنكر إبليس الثانى - أو المنكر الأول على على - ميثاق على ، ميثاق الله ، ثم تابعه أبو بكر المنكر الثانى ، ثم عثمان المنكر الثالث وهو يضع عمر أول المنكرين ، لشدة عداوته لعلى وفاطمة .

أما روح الأمر ، وأول المؤمنين فقد كان في حياة على هو سلمان - كما ترى الإسماعيلية فيما بعد - ويرى ماسينيون أنه « منذ بداية القرن الثانى أدمجت شخصية سلمان التاريخية في النموذج الإلهي الأعلى الذى تجسده زمنًا والذى سيسمى من بعد باسم سلسل أو بأول حرف منه وهو السين . نعتقد أن أبا الخطاب (المتوفى سنة ١٩٣) هو الذى أدرك في تلك الفترة رسالة سلمان بكل قوتها. وهو ألا يجعل نفسه روح الأمر مباشرة إنما يوجد بينه وبينها تدريجياً بعملية رفع روحى ، وبهذا يرفعه إلى مرتبة الألوهية فوق مرتبة الإمام . وهذا عنده خماس أعنى من خمسة أشخاص - محمد ، على ، فاطمة ، الحسن والحسين - وفي هذا نشاهد خماس المباهلة » يحاول ماسينيون إذن أن يجعل من أبى الخطاب الأسدى - في عقيدة الشيعة - صورة أخرى من سلمان ذى الصورة الشيعية أيضاً . وأن أبا الخطاب أدرك قبل الإسماعيلية والدروز فكرة العين والميم والسين . العين هى النموذج الأول للإمام - ومثاله آدم في مسألة السجود وعلى في غدير خم - وكان صعبعة بن صوحان أول من أعلن أمام معاوية نفسه سنة ٣٣هـ النظرة الشيعية التى تجعل من إمامة آدم وإمامة على (العين ، الصامت) شيئاً واحداً فكان حينئذ أحد الأفراد الذين قدروا مقام على الحقيقى في ذلك الحين ، وينسب ماسينيون فكرة صعبعة إلى أستاذة سلمان الفارسي . العين يتربع في الوسط ساكناً صامتاً ، مستوراً عتيداً مثل أمر الله وهو يهيمن على هيئة شخص واحد غالباً ، وأحياناً على هيئة خماس لرئيس القانون الإلهي ، والسين عند غلاة الشيعة هو المعنى الذى يضعه الله في مركز الجماعة ، والحجاب المستور الذى يكشف

عن حضرة خفية ، وهو الجسد المتوارث للجنس المختار للإمامة ، أهل الاصطفائية بنى الصاد - ولكي بموت المرء مسلماً صحيحاً ، فن الضروري الإيمان به ومحبه في تجليات ظهوره المتقطعة المتواترة هذه التي تبدو بطريقة دور كعودة الهلال عودة العرجون القديم . الذى ينظم وحدة الأعمال الشرعية من صوم وحج . . . إلخ . ويحيا . كما يحيا الهلال بالتلبية والتهليل .

« والميم هو النموذج الأول للنبي - خصوصاً محمد ﷺ - متغير وناطق » ينشر بدعوته الأوامر الإلهية ، وهو يعين تشخص العين ويسيمه ، والميم حجاب حاجز يجب اجتيازه ، لأنه يجب .

والسين - وهو سلمان - هو النموذج الأول للأسباب ، وهى الروابط الخارقة التى بين السماء والأرض ، من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة ، فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهب كيده ما يغيظ « والسين - سبب الشدو التلقين ، تدعو إلى سبيل الله بالحسن والإقناع كما أن نداء المؤمن يذكى القلب بالصلاة ، وهو الباب الذى يدخل منه النور الشعشعاني ، أو منه يتصل المؤمن بالحضرة الإلهية ، ويحقق عمل الله ، ينفخ الروح مولداً الأبدان ، ومعلماً للنفوس ، وهو المقدرة التى تمنح الوجود ، وسلسل أو السين يمنح الحكمة ويؤتى البرهان ، ويرى ماسينيون أن اللفظ سلسل قد تكون عن الكلمة سلسلة الواردة فى القرآن فى قوله « ثم فى سلسلة ذرعتها سبعون ذراعاً فاسلكوها » وصيغت فى حروف المذكور كما يكون حساب الحروف س + ل + س = ل + س = ١٨٠ = س + ل + م + ن .

ويرى ماسينيون أن من هذا كله تنشأ تصورات ثلاثة مختلفة للروح الإلهي « ويلاحظ أنه على العكس مما تدعيه كتب الفرق السنية ، لم توجد فرقة شيعية مغالية ادعت بأن أحد هذه النماذج الثلاثة يمكن أن يكون الله بيوهره ، فعند جميع الغلاة أن الله لا يمكن معرفته فى ذاته وهو فوق كل وصف وحد ، وإنما الأمر هنا أمر تأليه بالمشاركة ، ونوع هذه المشاركة يختلف وفقاً للنموذج الذى تفضله الفرقة .

حاول ماسينيون أن يثبت أن أبا الخطاب الأسدى قد أدرك هذه النماذج الثلاثة إدراكاً واعياً مطلقاً ، وأنه حاول تحقيقها فى نفسه ، فهو السين كما رأينا . إنه يمثل دور الخضر مع موسى ووصيه ودور آصف مع النبی سليمان . جمع ماسينيون أقوال الإسماعيلية المتأخرين وأقوال الدروز والعلائية ، وحاول أن يبين أن هذا الاتجاه الغنوصي الخطير كان فى يد سلمان الفارسي وتلميذه صمصمة بن صوحان ، ثم بيد أبى الخطاب الأسدى فيما بعد . كان ماسينيون مصوراً بارعاً يرسم بريشته صورة لسلمان ، مضيفاً عليها ما شاء من أصباغ وألوان ، وضعها المتأخرون من الإسماعيلية والدروز على وجه الرجل الصالح ،

المهاجر من فارس وراء الحقيقة ، والذي أحب على بن أبي طالب ، لأن علياً كان أقرب الناس إلى الرسول .

لقد تناسى ماسينيون صورة أخرى لسلمان ، هي صورته السنية ومحبه لأبي بكر وعمر ، وتوليته المدائن للخليفة الثاني ، تجاهل ماسينيون - عن عمد - كثيراً من الحقائق التاريخية الثابتة عن هذا الصحابي الجليل ، لكي يرسم صورة معينة حدد هو إطارها من قبل ، لا تمت إلى الحقيقة التاريخية الثابتة لسلمان ، ثم حاول أن ينقل هذه الصورة لأبي الخطاب الأسدي ، ومن المؤكد أن كثيراً من الغنوصيات ظهرت في نظريات أبي الخطاب ، وأنه غلا أشد الغلو في جعفر الصادق ، غلو ياباه أهل السنة والإمامية معاً ومن المحتمل أن يكون أبو الخطاب قد أعلن أن جعفر الصادق إله ، وأنه نبي ، ثم إنه من المحتمل أيضاً ألا يكون . ولكن ليس في كتابات الرجل ما يدل على معرفة بالمفاهيم الغنوصية الغنية التي نقلها إلينا ماسينيون عن العين والسين والميم ، من كتابات المتأخرين من الإسماعيلية والدروز كما أن ماسينيون نفسه ينكر على الغلاة القول بالوهية تلك العناصر - ثم يعود فيقول إن السنية عند أبي الخطاب معناها أن س . تصبح ، ملكاً ، ثم إلهاً . ولم يذهب بالوهية السين أي سلمان سوى السلمانية ، ثم الدروز .

ثم إذا كان هذا الثالث قد تحقق في عهد محمد ﷺ فكان العين «على» هو النموذج الأول للإمام ، وكان الميم «محمد» هو النموذج الأول للنبي وكان السين «سلمان» هو النموذج الأول للأسباب ، فكيف تحقق هذا الثالث في عهد أبي الخطاب . إذا كان جعفر هو العين وسلمان هو «السين» فأين نجد «الميم» . لقد تصيد ماسينيون - مع الأسف - فكرة عبادة الميم والعين والسين أي فكرة عبادة محمد وعلى وسلمان عند الدروز ووضعها في قالب ثالث مسيحي وحاول أن يفرضها على آراء الشيعة الغلاة مبتدئاً بعهد الرسول ، متدرجاً بها في مختلف العهود . وقد فعل هذا بتصنع شديد وتكلف ظاهر - وهو في هذا يتأثر بعقيدته الكاثوليكية التي سيطرت على أبحاثه هنا ، كما سيطرت على أبحاثه في الحلج . وأياً ما كان الأمر ، فقد أعلنت الشيعة الإمامية ثم خليفاتها الاثنا عشرية ، وأعلن أهل السنة والجماعة - وفي هاتين الفرقتين إجماع المسلمين على مدى الدور وهاتان الفرقتان الاثنا عشرية ، وأهل السنة والجماعة ، هما الحافظتان لحوزة الإسلام والمنافحتان عن عقائده في الألوهية والنبوة . أعلنتا البراءة من أبي الخطاب الأسدي وتكفيره وإخراجه من حظيرة الأئمة .

وقتل أبو الخطاب - كما قلنا - ولكن الرجل ترك أتباعاً كثيرين وفرقاً مختلفة اختلفت فيه وزادت . وقد وصف المقرئ هذه الخطابية «بأنهم أتباع أبي الخطاب محمد بن ثور - وقيل محمد بن يزيد الأجدع» وأن مذهبه هو «الغلو في جعفر بن محمد الصادق ، وهو أيضاً من المشبهة وأتباعه خمسون

فرقة» وهذه مغالاة من المقرئى أو خطأ نسخى فإن عدد فرقته خمس . ثم يرى المقرئى أنهم كلهم متفقون على أن الأئمة - كعلى وأولاده - أنبياء ، وأنه لا بد لكل أمة من رسولين أحدهما ناطق والآخر صامت ، فكان محمد ﷺ الرسول الناطق وعلى الرسول الصامت . ثم إنه يجمعهم جميعاً أن جعفرًا الصادق كان نبياً ، ثم انتقلت النبوة إلى أبى الخطاب ، وأن هؤلاء الأنبياء أى الأئمة - عالمون بما هو كائن إلى يوم القيامة . ويزعم هؤلاء جميعاً أن جعفرًا الصادق قد أودعهم جلدًا - وهو الجفر ، فيه كل ما يحتاجون إليه من علم الغيب ، وفيه تفسير القرآن ومن الأمثلة التى قدموها للناس من هذا التفسير الجفرى . قول الله « إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة » أن البقرة هى عائشة ، وأن الخمر والميسر الواردان فى القرآن هما أبو بكر وعمر ، والجبب والطاغوت هما معاوية بن أبى سفيان وعمر بن العاص (١) .

أما الأشعرى فقد اعتبرهم خمس فرق . أما الفرقة الأولى : فهى المعمرية ، (أتباع معمر بن خيثم) وأهم آرائهم : أن الدنيا لا تفى - أى أنها أزلية سرمدية - وأن الجنة هى ما يصيب الناس من خيرات فى هذه الدنيا ، وأن النار هى ما يصيبهم من بلاء . ثم آمنوا بفكرة التناسخ وأداهم هذا إلى القول بأنهم خالدون لا يموتون ، ولكن ترفع أبدانهم إلى الملكوت ، وتوضع للناس أجساد شبه أجسادهم . ثم استحلوا سائر المحرمات من خمر وزنا ، كما دانوا بترك الصلاة (٢) وهذا هو المذهب السائد الذى ينسب دائماً إلى الغلاة ، مزيج من غنوصية مانوية ، ومسيحية ؛ فالتناسخ غنوصى والرفع مسيحى . وقد ذكرنا من قبل أن المعمرية تذهب إلى أن الله نور دخل فى أبدان الأوصياء ، دخل فى جعفر ثم خرج منه فدخل فى أبى الخطاب ، وصار جعفر من الملائكة ، ثم خرج من أبى الخطاب ودخل فى معمر هذه رواية يذكرها النوبختى ثم يضيف النوبختى رواية أخرى : وهى أن النور الذى هو الله دخل فى عبد المطلب ثم انتقل إلى أبى طالب ثم انتقل إلى محمد ، ثم انتقل إلى على ، ثم تناسخ فى الأئمة حتى انتقل إلى معمر . ورواية ثالثة : أن النور دخل فى أبى طالب - فهو إله ، ثم سكن فى محمد ﷺ وكان محمد هو الله الحق ، وكان على بن أبى طالب رسولاً ، فلما مضى محمد خرجت منه الروح ، فلم تزل تناسخ فى واحد بعد واحد حتى صارت فى معمر . ورواية رابعة تذهب إلى المعمرية تقول : إن قوالب هذه الروح لا تموت ولا تفى ، ولكنها تتحول إلى ملائكة وأنهم يرفعون إلى السماء ولا يموتون . يرفعون بأبدانهم وأرواحهم (٣) . هذه النقول المتعارضة تجعلنا نشك فى كل ما تتضمنه ، وإنما من الأوفق أن نقول : إن معمرًا كان غنوصياً بلا شك ، آمن بنظرية النور المحمدى وانتقالها من نبي إلى نبي ، ثم نقلها إلى حجج الإمام أودعاته ، كما آمن بالتناسخ (٤) .

(١) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٣٥٣ .

(٢) الأشعرى : مقالات ج ١ ص ١١ .

(٣) القمى : المقالات ص ٥٤ .

(٤) الدكتور عبد الرحمن بدوى : شخصيات قلقة ص ٣١ .

ويرى ماسينيون أن المعمرية سينية قالت بإله ونبي وإمام والإمام (سبعة أسباب : خناس المباهلة أو أصحاب الكساء المشهورين على وفاطمة والحسن والحسين وسلمان + ٢ أبو طالب وعبد الله) (١) ولكن عبد الله والد الرسول ﷺ ، لم يذكر إطلاقاً ، فهل يقصد ماسينيون عبد المطلب . ولعله أراد بهذا أن يجعل المعمرية أو اليعمرية - كما تدعى أحياناً - سلفاً للإسماعيلية ، ثم يتكرر هذا السباع في كل دورة وزمان . وهل يكون المذهب هو هذا كما قلت من قبل : النور المحمدي ، يتجلى في دورة دورة من دورات الأئمة ، على شكل سباع . إن النصوص لا تقدم إلى المذهب واضحاً . أما صلة هذه الفرقة بأبي الخطاب ، فقد قلنا - من قبل - إن أبا الخطاب قد تبرأ منها ، كما تبرأ جعفر ، وشهدا على معمر بأنه كاذب وشيطان .

وننتقل إلى فرقة أخرى (من تلامذة أبي الخطاب) : هي البزيفية أصحاب بزيع بن موسى . ويذهبون أيضاً إلى أن جعفرأ إله ، ولكنه ليس هو الظاهر المرئي ، وإنما تشبه للناس بهذه الصورة . وهذا يعني أيضاً في لغة محايدة أنه يرى أن النور الإلهي قد حل فيه . وأن جعفرأ بعث أبا الخطاب بالرسالة ، ثم بعث بزيعا ، فأبو الخطاب وبزيع نبيان . بل ينقل الأشعري أن البزيفية تقول : « إن كل مؤمن يوحى إليه » واستندوا في هذا إلى تأويل الآيات « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله » أي يوحى من الله . والآية « وأوحى ربك إلى النحل » والآية « وإذا أوحيت إلى الحواريين » ويبدو واضحاً أننا أمام تفسير غنوصي للقرآن ، ونحن نعلم أن « الغنوص » هو إلقاء المعرفة اللدنية في النفس وأن دائرته مفتوحة لمن أراد من البشر أن يسلك طريقه . فهذا إذن نداء غنوصي واضح في العالم الإسلامي . وقد أداهم القول بالغنوص إلى أنهم أعلنوا أن منهم من هو خير من جبريل وميكائيل ومحمد ، وأنهم خالدون ، وأن أحدهم إذا بلغت عبادته مبلغها الأكمل ، رفع إلى الملكوت ، وادعوا معاينة أمواتهم وأنهم يرونهم بكرة وعشياً (٢) . وكل هذه أصول غنوصية ، نفذ الكثير منها بعد إلى التصوف الفلسفي ، وكانت الكوفة فعلاً بيئة سبخة لكل هذا . وقد تبرأ جعفر الصادق ، كما تبرأ أبو الخطاب من بزيع (٣) .

وأما الفرقة الثالثة : فهي العميرية أصحاب عمرو بن بيان العجلي ، ويبدو أن هؤلاء كانوا تلامذة أمناء لأبي الخطاب الأسدي ، لقد أنكرت هذه الفرقة التناسخ ، كما أنكرت الخلود في هذه الدنيا ، ولكنهم - ولعلها زيادة من مؤرخي السنة - قالوا بنبوة الأئمة ثم عبدوا جعفرأ . وأنهم نصبوا خيمة في

(١) التوحيدي : فرق . . ٤٤ ، ٤٥ .

(٢) الأشعري : مقالات ج ١ ص ١٢ ، والشهرستاني : ج ١ ص ٣٠١ .

(٣) التوحيدي : فرق . . ٤٣ ، ٤٤ .

كناسة الكوفة يجتمعون فيها على عبادة جعفر ، وقد نعى خبرهم إلى يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري ، فأخذوا عميراً ، فصلبه في كناسة الكوفة عام ١٢٨ هـ . وسجن بعض أصحابه وتسمى هذه الفرقة أيضاً بالعجلية (١) .

وأما الفرقة الرابعة : فهي « فرقة السري » ومن العجيب أن فهرس فرق الشيعة يدعوه بالسري بن منصور ويجعل وفاته عام ٢٠٠ هـ في عهد المأمون وأنه قتل بيد الحسن بن سهل بينما يذكر أصحاب الطبقات كمنهج المقال ومنتهى المقال أن الإمام جعفر الصادق قد لعنه فيمن لعن من الغلاة وأن الصادق قال : إن بنائاً والسري وبزيغا لعنهم الله تراءى لهم الشيطان في أحسن ما يكون صورة آدمي من قرنه إلى سرتيه (٢) .

أما آراء هذه الفرقة فهي . . أن السري رسول مثل أبي الخطاب ، أرسله جعفر وقال : إنه قوي أمين ، فهو موسى القوى الأمين ، إشارة إلى الآية القرآنية ، « إن خير من استأجرت القوى الأمين » ، « وهو فيه تلك الروح » . ثم إن جعفر هو الإسلام ، والإسلام هو السلام ، وهو الله ، ونحن بنو الإسلام ، أي بنو الله ، كما قالت اليهود والنصارى : نحن أبناء الله وأحباؤه وكما قال رسول الله : سلمان ابن الإسلام وقد قام أتباع السري بالصيام والصلاة والحج لجعفر ، وكانوا يلبون له مرددين « لبيك يا جعفر لبيك » (٣) . وهذه التلبية والتلهيل للدليل على أن غلو السري لم يصل إلى حد نسبة الألوهية إلى جعفر ، بل إنه يدل فقط على أنهم آمنوا به كإمام غنوصي يتلقى من الله الأمر ، وهو هنا عودة الملل ، أو عودة العرجون ، هذه فكرة غنوصية لاشك تجعل منه آدم أوتجلى آدم الأول فيه .

أما الفرقة الخامسة : فهي المفضلية أتباع المفضل بن عمر الجعفي (المتوفى سنة ١٧٠ تقريباً) وكان صيرفياً في الكوفة . وقد آمن فيما يرى الأشعري - بألوهية جعفر الصادق (٤) . وقد تولى ابنه محمد بن المفضل الدعوة من بعده . وقد كان للثنتين في تاريخ الغلاة مقام كبير ، بحيث اعتبرا فيما بعد « الباب » ويذكر الشاعر الغالي أبو الغمر الثمالي الديلمي (١٩٠ هـ) - رامزاً لها :

أنا أبصرت ديك العرش في صورة أنسى أنا أبصرت ربي قاعداً في حى جعفي
وعند ماسينيون أن الباب - السين - ديك العرش أى المؤذن ، لأنه أول من سلم على الإمام بالتلهيل « أنت أنت » (٥)

(١) الأشعري : مقالات ج ١ ص ٢١ ، والشهرستاني ج ١ ص ٣٠٢ ، ٣٠٣ .

(٢) النوبختي : فرق الشيعة ص ٤٣ .

(٣) نفس المصدر ٤٣ ، ٤٤ .

(٤) الأشعري : مقالات ج ١ ص ١٣ .

(٥) الدكتور بدوي : شخصيات قلقة ص ٤١ .

كانت الخطائية إذن حركة ضخمة سياسية وعقائدية ، ويدولى أنها بدأت بعقيدة بسيطة غالية في حب الإمام ، وقد حدث هذا على يد أبي الخطاب ، ثم بدأ الغلو يفشوا فيها ويفشو ، ويدخل الغنوص شيئاً فشيئاً ، حتى امتلكها امتلاكاً كاملاً ، ولم يجد الداعية أبو الخطاب وسيلة للسيطرة عليها فصار معها ، وكره منه جعفر هذا فتبرأ منه ، كما تبرأ هو من غلاة فرقته ، وحين قتل انضم بعض أتباعه لمعاصره الحسين بن أبي منصور ودخلوا في طائفة الخناقين ، وانضم الأتباع الآخرون للإسماعيلية ، بل هناك - كما رأينا - من يذهب إلى أن أبا الخطاب مؤسس الإسماعيلية الحقيقية وأنه دعى بأبي إسماعيل . وسنبحث هذا في الفصل الخاص بالإسماعيلية ، وقد بقى أبو الخطاب يشغل الأجيال من بعده ، وعاشت ذكراه لدى الغلاة حتى وقت متأخر .

لقد تفرق أتباعه فيما يقول ابن الأثير - وتعلموا الشعبذة والنيرنجات والنجوم والكيمياء ، وأنهم يجتالون على كل قوم « بما يتفق عليهم » أى ينشرون دعوتهم ويدخلونها على الناس بما يتفق مع ميل كل واحد ممن يقابلونه - ثم أظهروا الزهد للعوام ^(١) . وكأن ابن الأثير يريد أن يربط الغلو بالزهد ثم بالتصوف .

وأخيراً يلاحظ الدكتور الشيبى ببراعة أن « حركة أبي الخطاب لم تمت بهذه السهولة ، وإنما وجدنا محمد بن عبد الله بن مهران يكتب في القرن الثالث كتاب مناقب أبي الخطاب ووجدنا كتاباً في الرد على الخطائية بقلم رجل من أنصار الإمام الحسن العسكري المتوفى سنة « ٢٦٠ » وهذا يدل على أن الحركة الخطائية بقى لها أنصارها حتى النصف الثاني من القرن الثالث .

(١) ابن الأثير الكامل ج ٨ ص ٢١ .

الفصل الثاني

ظهور الفرق الميمية والعينية والسينية

بدأ الغلو كما رأينا بقداسة أسبغت على الإمام على بن أبي طالب . وحيكت الأسطورة حول هذا الغلو ، ونسبت إلى شخصية يهودية هي شخصية عبد الله بن سبأ ، وأصبح دعاء السبئية وتهليلهم « أنت أنت » . « أنت الخالق الباري » عنواناً على كل حركة غالية (١) . وسواء - كما قلت من قبل - صبح وجود عبد الله بن سبأ أو لم يصب ، فقد وجد الغلو - قاسياً وعنيفاً - في قلب المذهب الشيعي ، وقدم لهذا المذهب أضراراً كبرى في أرجاء العالم الإسلامي . بل إن حركة المختار بن عبيد ، وهي حركة من أجل الحركات في تاريخ الإسلام ، قد شوهت أشد التشويه حين نسب إليها الزبيرية والأموية الغلو ، واعتبروها حركة خارجة على الإسلام ، ومزج بينها وبين الكيسانية ، وقد حاول ماسينيون أن يعتبر الكيسانية أو المختارية فرقة عينية تقول بنوع من الألوهية لابن الحنفية ولوكيله المختار ثم للسادن : حوشب البرسمى (٢) .

وقد قدمنا للقارئ صوراً من هذا الغلو وأصحابه ، وسنقدم للقارئ في هذا الفصل صوراً أخرى غريبة ، كانت أصولها أيضاً في هذا الغلو الذي قدمنا صورته من قبل : بل زادت في الغلو . ويبدأ هذا الغلو بإسباغ الألوهية على النبي محمد ﷺ ؛ بمعنى أن روح القدس كانت في النبي ﷺ ، ثم في على وأولاده حتى الإمام الثاني عشر . لعل هذه هي الفرقة الميمية الأولى ، وقد وجدت أصولها في السبئية القديمة . ويعلق الأشعري عليها بأنها ذهبت إلى ألوهية « كل واحد من هؤلاء » أي النبي ﷺ والأئمة الاثني عشر « كل واحد منهم إله عن التناسخ ، والإله عندهم يدخل في الهياكل (٣) . ويقصد بهذا أن روح القدس نحل وتناسخ في الأجسام . ولم يتنبه ماسينيون إلى هذه الفرقة العينية الاثني عشرية الغالية في عرضه الفرق الميمية . ومن المؤكد أن المقصود بالألوهية هنا حلول الكلمة في النبي محمد ، ثم انتقالها في الأئمة . فالغنوص المسيحي واضح هنا تمام الوضوح . مع نزعة صابئية حرنانية تتضح في قول هذه الفرقة بأن الإله يدخل في الهياكل .

(١) الملطي : التنبيه ص ٢٥ .

(٢) ماسينيون : شخصيات قلقة ص ٤٠ - ٤٢ ؛ والطبري : تاريخ ج ٢ ص ٧٠٦ .

(٣) الأشعري : مقالات : ج ص ١٤ .

ويمكن أن يدرج في اتجاه هذه الفرقة الكاميلية أو الكميلية . وقد نسبت هذه الفرقة إلى كميل بن زياد صاحب الإمام على ، ونسب إليه أنه يقول « بأن الإمامة نور يتناسخ من شخص إلى شخص ، وذلك النور في شخص يكون نبوة ، وفي شخص يكون إمامة وربما تناسخ الإمامة فتكون نبوة » . وقال بتناسخ الأرواح وقت الموت ^(١) . وقد كان بشار بن برد الشاعر من أتباع هذه الفرقة الأخيرة ، وهذه الفرقة وإن كانت لا تقول بالوهمية اثني عشر إلا أنها تقول بحلول نور في النبي ، ومنه إلى الأئمة . وقد نتساءل هل كان كميل بن زياد (المقتول عام ٨٣) بيد الحجاج والذي وثقه ابن سعد وابن معين ^(٢) ، ممن ذهبوا إلى القول بالتناسخ في هذا الوقت المبكر . أم أنه كان هناك كميل بن زياد آخر ومتأخر .

وأضح أيضاً تحت هذه الفرقة (المفوضة) وهي تقول إن الله خلق محمداً ﷺ ، ووكل الأمور وفوضها إليه فخلق الدنيا دون الله تعالى ، ثم فوض محمد ﷺ تدبير العالم إلى علي بن أبي طالب - فهو المدبر الثاني بعد محمد ولا ينسبون الحسن والحسين إلى علي ، لأن الإله لا يكون له ولد ولا والد . وكانوا يسمون محمداً وموسى الخائنين لأنهم يدعون أن هارون أرسل موسى وعلياً أرسل محمداً ، فخاناها . ويزعمون أن علياً أمهل محمداً عدة سنين ، مدة أصحاب الكهف . فإذا انقضت هذه المدة ، وهي ثلاثمائة وخمسون سنة انتقلت الشريعة .

ويقولون إن الملائكة ، كل من ملك نفسه ، وعرف الحق ، وأن اللجنة معرفة الإمام وانتحال مذهبه ، والنار الجهل به والعدول عن مذهبه .

أما فخر الدين الرازي فيقول في كتابه اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (ص ٥٩) : أن المفوضة هم الذين يقولون إن الله خلق روح علي وأرواح أولاده ، وفوض العالم إليهم ، فخلقوا هم الأرضين والسموات ، وقالوا من هنا قلنا في الركوع سبحان ربي العظيم وفي السجود سبحان ربي الأعلى . فالإله الأعلى هو علي وأولاده ، والإله الأعظم هو الذي فوض إليهم العالم .

ويقابل هذه الفرقة الميمية الغالية الاثني عشرية فرقة عينية وتنسب إلى العلياء بن ذراع الدوسي أو الأسدي ، وهذه الفرقة تؤمن بأن «روح الإله» قد حلت في علي وأنه بعث محمداً رسولاً ، فدعا إلى نفسه ، وتسمى هذه الفرقة أيضاً بالذمية لأنها تدم الرسول محمداً ﷺ . وأضح تحت هذه الفرقة أيضاً الغرابية أتباع ابن جمهور الغرابي الذي ادعى أن جبريل أخطأ وأزاح الرسالة من علي إلى محمد

(١) الشهرستاني : الملل ج ١ ص ١٩٢ .

(٢) الذمعي : ميزان الاعتدال ج ٣ ص ١٤٥ .

عليه السلام (١) . ويرى الشهرستاني أن من يقدمون علياً في أحكام الإلهية يسمون العينية ، ومن يقدمون محمداً عليه السلام يسمون الميمية .

غير أن هناك تفسيراً آخر لهذه الفرقة العلياية أو العلياوية أورده ماسينيون عن الكشي وغيره عن مقالة بشار (أى بشار الشعيرى المتوفى حوالى سنة ١٨٠ هـ) هى مقالة العلياوية . يقولون إن علياً عليه السلام رب وظهر بالعلوية الهاشمية ، وأظهر به عبده ورسوله بالمحمدية . ووافق أصحاب أبى الخطاب فى أربعة أشخاص : على وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام ، وأن معنى الأشخاص الثلاثة : فاطمة والحسن والحسين تلبس ، وفى الحقيقة شخص على ، لأنه أول هذه الأشخاص فى الإمامة والكثرة ، وأنكروا شخص محمد عليه السلام ، وزعموا أن محمداً عبد وعلياً رب . وأقاموا محمداً مقام سلمان عند الخمسة . وجعلوه - أى سلمان - رسولاً لمحمد صلوات الله عليه . فوافقهم أى بشار فى الإباحات والتعطيل والتناسخ . والعلياوية سمتها الخمسة عليائية وزعموا أن بشاراً الشعيرى لما أنكر ربوبية محمد وجعلها فى على وجعل محمداً عبد على وأنكر (٢) رسالة سلمان - مسخ فى صورة طير يقال له عليا ، يكون فى البحر فلذلك سموهم العلياوية .

ويتصل بهاتين الفرقتين «السينية» وهم القائلون بإلهية سلمان الفارسي (٣) . ويرى أبوخلف القمى أنهم غلاة أظهروا التشيع واستبطنوا المجوسية ، وأنهم زعموا أن سلمان هو الرب ، وأن محمداً داع إليه ، وأن سلمان لم يزل يظهر نفسه لأهل كل دين (٤) . ويقول أبو حاتم الرازى : إن السلمانية ، وهم الذين قالوا بنبوة سلمان الفارسي وتعالى قوم منهم فأعلنوا ألوهيته . أما الذين يؤمنون بنبوته فيؤولون قول الله عز وجل «واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا» قالوا : إنما هو سلمان «أرسلنا قبلك من رسلنا» وإنما كانت الكتابة فى المصحف . الميم ملصقة بالنون بلا ألف وهو سلمان كما كتبوا لقمن وعثمان بلا ألف . وغلا فيه قوم حتى فضلوه على أمير المؤمنين - على - «صلوات الله عليه (٥)» . فسلما هنا أحد الأنبياء القرآنيين ، وسياقى الإسماعيلية ويقولون : إنه حامل القرآن . وسنرى ما يشبهه عند محمد بن على السلمغانى الكاتب المعروف بابن أبى العزاقر وصاحب فرقة العزاقرية . (قتل حرقاً عام ٣٢٢ هـ) وهو شخصية هامة لم تدرس بعد ، وله كتب متعددة منها كتاب فى المباهلة وكتاب فى الحسن السادس

(١) الشهرستاني : الملل ج ١ ص ٢٩٣ ، والبغدادى : الفرق ص ١٥٢ ، والملطى : التنبيه ص ٢٩ ، والرازى : اعتقادات ص

٥٩ ، ٦٠ .

(٢) ماسينيون : شخصيات ص ٤١ .

(٣) الأشعري : مقالات ج ٢ ص ٣١ .

(٤) أبوخلف القمى : المقالات ص ٦١ ٪ ٦٢ .

(٥) نقل الأستاذ ماسينيون النص عن أبى حاتم الرازى - فى شخصيات قلقة ص ٤٥ .

ويذكر ابن الأثير أنه أحدث مذهباً غالباً في التشيع والتناسخ وحلول الإلهية فيه . ويبدو أنه ادعى لنفسه مقام سلمان وهو يساوي عنده ميكائيل وقد تسمى بالباب ، أى ادعى أنه الباب إلى الإمام المنتظر وقد ذكر أنه أعلن أنه إله الآلهة بحق الحق ، وأنه الأول القديم الظاهر الباطن الرازق التام الموماً إليه بكل شئ .

ويبدو أنه ادعى فقط حلول الإلهية فيه وأن الله يحل في كل شئ على قدر ما يحتمل . وأنه خلق الضد ليدل على المضدود . فمن ذلك أنه حل في آدم لما خلقه ، وفي إبليس أيضاً . وكلاهما ضد لصاحبه لمضادته إياه في معناه . ويرى الشلمغانى أن الدليل على الحق أفضل من الحق وأن الضد أقرب إلى الشئ من شبيهه . وأن الله إذا حل في جسد ناسوتي ظهر من القيدة والمعجزة ما يدل على أنه هو - أى الله ، وأنه لما غاب آدم ظهرت اللاهوتية في خمسة ناسوتية كلما غاب منهم واحد ظهر مكانه آخر . وفي خمسة أبالسة أضداد لتلك الخمسة ثم اجتمعت اللاهوتية في إدريس وإبليس وتفرقت بعدهما كما تفرقت بعد آدم . . . إلى أن انتهت إلى على بن أبي طالب فاجتمعت فيه اللاهوتية وفي إبليس . ثم إن الله يظهر في كل شئ . وكل معنى وأنه في كل أحد بالخاطر الذى يخطر في قلبه فيتصور له ما يغيب عنه حتى كأنه يشاهده وأن الله اسم لمعنى . وأن من احتاج الناس إليه فهو إليه . ولهذا المعنى يستوجب على كل أحد أن يسمى إلهاً . وأن كل أحد من أشياعه يقول : إنه رب لمن هو دونه في درجته . وكان الرجل منهم يقول : أنا رب لفلان ولفلان ، وفلان رب ربي حتى ينتهى إلى الشلمغانى فيقول : إنه رب الأرباب ، لا رب غيره ولا ربوبية بعده (١) .

ويذكر المسعودى أنه قتل معه رجل من أتباعه يقال له ابن أبى عون ويعرف بإبن المنجم الكاتب (٢) .

ونحن قد رأينا من قبل أن هناك من أنكر على سلمان - أى جبرئيل - أمانته وأنه خان ، وأزاغ الرسالة من على إلى محمد ﷺ ولكن ما لبثت أن ظهرت فرقة من أكثر الفرق غلواً ، وهى فرقة الخمسة . وهذه الفرقة تستند على حديث الكساء المشهور فى قصة المباهلة بين محمد رسول الله ﷺ ووفد نصارى نجران . فقد أتى وفد من نصارى نجران يسألون الرسول عن اعتقاد الإسلام فى المسيح . وكان الوحي قد نزل يقول «إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبنى إسرائيل» ووصل الوفد النجرانى إلى المدينة . وأكرم الرسول وفادته ، وناقش الوفد الرسول ، وأصر كل على رأيه فى المسيح . وهنا نزلت الآية «فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم . فقل : تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم ثم نبهل . فنجعل لعنة الله على الكاذبين» وقبل الوفد النجرانى

(٢) المسعودى . التنبيه والإشراف ص ٣٤٣ .

(١) البغدادي : الفرق ص ١٥٩ - ١٦٠ .

المباهلة وأنى محمد ﷺ برهائن المباهلة وهم فاطمة والحسن والحسين وعلى ثم الرسول نفسه وعلى «الكثيب الأحمر» بجوار المدينة ، فى الموعد الذى اتفق فيه الفريقان على المباهلة ألقى رسول الله ﷺ بكساء أسود على شجرتين صغيرتين وتحت الكساء وفى ظلاله جلس ويحانه على وأمامه الحسن والحسين وخلفه فاطمة . . . هؤلاء أصحاب الكساء ينتظرون مقدم الوفد النصرانى للمباهلة . وأقبل أسقف نجران والوفد متقدمين نحو أصحاب الكساء . وآهم محمد ﷺ ، وبدأ يرفع يديه ممدودتين فوق رأسه وظهرت الأضواء الصاعقة ، وتلاأت السماء ، وانحنت الأشجار وبدأ الكون ، وكأن صاعقة من السماء تكاد أن تنقض على الأرض . وولى الأسقف ووفد نجران هارين . . . وأعلنوا تخليهم عن المباهلة .

أما أهل السنة والجماعة ، فقد رأوا فى حادثة الكساء ، معجزة لمحمد ﷺ ، قام بها تنفيذاً للأمر القرآنى الوارد من السماء . ولكن ما لبث الشيعة المعتدلة أن رأوا فيها ركيزة من ركائز عقيدتهم فى الحق الإلهى لعلى وأولاده من بعده فى إمامة المسلمين . واقتن الشيعة فى وصف الكثيب الأحمر ، وعليه أصحاب الكساء ، وهالات الجمال الإلهى تحيط بهم . وكان لابد أن يتناول الغلاة من الشيعة هذه الحادثة بكل أنواع التفاسير ، ويحيكون حولها الأساطير . ومن هنا تكونت «الخمسة» من غلاة الشيعة . ويبدو أن الفرقة الخمسة ظهرت فى أصحاب أبى الخطاب . والفرق الخمسة تنقسم إلى ثلاث : ميمية ، وعينية ، وسينية .

وبالرغم من أن ماسينيون يزعم تحت تأثير عقيدته الكاثوليكية - أن أبا الخطاب والخطابية كانوا سينية يؤمنون بالسين - سلمان - المسيحى فى نظره ، فإن أقدم مؤرخ شيعى وهو أبوخلف القمى - يذكر لنا الخمسة أصحاب أبى الخطاب ميمية آمنوا أولاً - وبالذات - بمحمد ، وأن الله جل وعز هو محمد . وأن محمداً ظهر فى خمسة أشباح وخمس صور مختلفة . ظهر فى صورة محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين . وأن الأربعة الآخرين من هذه الخمسة تلييس لا حقيقة لها . «والمعنى شخص محمد» لأنه أول شخص ظهر وأول ناطق نطق . لم يزل بين خلقه موجوداً بذاته يتكون فى أى صورة شاء . يظهر نفسه لخلق فى شتى الصور . يظهر فى الشيوخ وفى النساء وفى الأطفال . يكون مرة والداً ومرة مولوداً وما هو بوالد ولا مولود وهو يظهر فى الزوج والزوجة . أما العلة فى أنه أظهر نفسه بالإنسانية والبشرانية ، فذلك لكى يأنس به الخلق ولا يستوحشوا ربه .

وكان محمد - فى نظر هؤلاء الخمسة - آدم ونوحاً وإبراهيم وعيسى . ينتقل فى الصور لدى العرب والعجم ، ظهر لدى العرب فى صورته وفى صورة هؤلاء الأربعة ، كما ظهر لدى العجم فى صورة

الأكاسرة والملوك ، الذين ملكوا الدنيا . أن معناه محمد لا غيره . أو بمعنى أدق هنا نظرية « المعنى والاسم » المشهورة في تاريخ الباطنية عامة . المعنى واحد ويتعدد الأسماء .

كان محمد يظهر نفسه لخلق في كل الأدوار والدهور . إنه تراءى لهم بالنورانية فدعاهم إلى الإقرار بوحدانيته ، فأنكروه . فترأى لهم من باب النبوة والرسالة ، فأنكروه أيضاً . فترأى لهم من باب الإمامة ، فقبلوه . فظاهر الله الإمامة وباطنه ، الذي معناه محمد ، يدركه من كان من صفوته بالنورانية . أما من لم يكن من صفوته فيدركه بالبشرانية اللعانية الدموية ، وهو الإمام . أما محمد نفسه فلا جسم له ، هو معنى ولكنه يتغير ، فالأنبياء تجليات له من لدن آدم إلى ظهور محمد الأخير ، مقامهم مقام محمد القديم المعنى ، ثم انتقل المعنى إلى فاطمة ، فهي محمد ، وهي الرب ، جعلت سورة التوحيد لها « قل هو الله أحد » إنها واحدة مهدية وفسروا « لم يلد » بالحسن ، ولم يولد « بالحسين » ولم يكن له كفواً أحد » هو محمد . ثم نزل في أزواجه ، إنه كان يظهر في صورة الزوج والزوجة كما يظهر في صورة الوالد والولد .

ثم ظهر في الأئمة ، وإنما هو محمد بغير جسم وتبديل اسم « ثم ظهر في الأبواب » وهم أبو الخطاب « بيان بن سميان وصائد النهدى ، والمغيرة بن سعيد وحزمة بن عمار وبزيغ والسري ومحمد بن بشير هم أنبياء أبواب لسلطان « بتغيير الجسم وتبديل الاسم » والمعنى واحد هو سلمان وهو الباب الرسول لمحمد » يظهر معه في كل حال ، في العرب والعجم . فتي ما ظهر محمد ، ظهر معه الباب سلمان ، في أي صورة ظهر ، هو رسول محمد الرب ، متصل به . ومع الباب ، الأيتام والنساء والنقباء والمصطفون والمختصون ، والمتحنون والمؤمنون واليتيم الأول ، هو المقداد بن عمرو الصحابي المشهور ، وسمى يتيماً ، لقربه من الباب وتفرد به بالاتصال به . وهناك يتيان ، يتيم كبير ويتيم صغير - الأول هو المقداد - كما ذكرنا - والصغير هو أبو ذر .

وأخيراً - إن من عرف هؤلاء بهذه المعاني فهو مؤمن ممتحن ، وضعت عنه جميع الشرائع ، وهي استبعاد لغير المؤمنين الممتحنين ، فإذا ارتفعت الشرائع أبيع للمؤمن الممتحن جميع ما حرم الله في كتابه وعلى لسان نبيه . إن هذه الحرمات رجال ونساء ، ممن جحدوا وأنكروا الإمام ، وأن جميع ما أمر الله به من تكاليف - الصلاة والزكاة والحج والصوم والعبادات جميعاً هي الآصار والأغلال ، هي على أهل الجحود فقط ؛ عقوبة لهم . وأن الحرمات - من الزنا والخمر والسرقه واللواط وكل الكبائر ، وكذلك الوضوء وغسل الجنابة والتيمم ، فكلها اجتناب رجال ونساء واجتناب توليتهم ، فإذا حرمت على نفسك توليتهم ، فقد اجتنبت محارم الله .

ويذكر أبو خلف القمي أن هذه الفرقة الخمسة عاشت عيشة شيوعية جنسية وأنهم أبطلوا الزواج

والطلاق . وتأولوا معانيها فالزواج باطنه مواصلة أخيك المؤمن ، والصداق هو أن تطلعه على ما عندك من العلم ، والطلاق هو أن تعتزل أصدقاءك المقصرة ، ولا تطلعهم على أمرك . والمرأة سواء أكانت في حوزتك أم في حوزة أخيك المؤمن هي « بمنزلة الريحانة تقلعها إذا اشتبهت ، فإذا شممتها حييت بها أخاك المؤمن » .

ثم آمنت الخمسة بالتناسخ - على خلاف غيرهم من الغلاة - فيما يقول القمى . فأرواح الجاحدين تتقلب في جميع الصور إنسانية وغير إنسانية . يتقلبون في كل شيء ، حتى لا يبقى في السموات والأرضين دواب ولا ساكن ولا متحرك إلا جرت فيه الأرواح ، حتى النجوم والكواكب ، فإذا تم ذلك كله ، صاروا جماداً أو حجارة أو حديداً . وتأولوا في ذلك قول الله : « قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر في صدوركم » ، فسيقولون من يعيدنا : قل الله الذى خلقكم . فذلك جهنم عند الخمسة ، يعذب المقصر الجاحد بها أبداً الآبدى .

أما المؤمن العارف منهم ، فلا تنتقل روحه في شيء من الأشياء ، إنما ليس سبعة أبدان ، هي بمنزلة سبعة أقصبة ، إذا تعدى من قبض ، يقمص آخر وذلك أن الإيمان سبع درجات ، أوسع أدوار - والدور عشرة آلاف سنة ، والكور سبعة أدوار . والكور سبعون ألف سنة . يقمص في كل دور قبضاً أو قالباً ، غير القالب الأول . وفي الدرجة السابعة يكون الارتقاء إلى معرفة الغاية ، فيكشف له في نهاية الكور الغطاء ، فيصير عارفاً ، ويرفع عنه التلييس ، فيدرك الله محمداً بذاته ، بالنورانية لا بالبشرية اللهمانية (١) .

هؤلاء هم أقدم « خمسة » من أتباع أبى الخطاب ، وهم فرقة ميمية كما رأينا تمثل الآراء الباطنية في أول ظهورها الحقيقى . استخدمت فكرة النور المحمدى التى عرفت في محيط الإمام جعفر الصادق في صورة معتدلة ، فوضعتها في صورة مغالية ، ثم خلطتها بعناصر مسيحية مانداية ومانوية ومزدكية . ثم أخذت بفكرة رفع التكاليف - وهى متأثرة بالمزدكية والخزمية وربطها بالتناسخ الأفلاطونى . واستخدمت مصطلحات أفلاطونية مثل « القالب والقميص » ولعلها أن تكون قد أخذت التناسخ عن الحرنانية الأفلاطونية . إن هذه الفرقة الخمسة الميمية كانت ذات أثر كبير في فرقة الباطنية التى تكونت فيما بعد ، وهى التى تكون الجناح الأيسر المتطرف للإسماعيلية ، وتظهر كثيراً باسمها ثم زرعت الشر الخطير فيمن أتى بعدها من فرق كالنصيرية والدروز والعلائية وما زالت هذه الأفكار تعيش في صورة أوفى أخرى لدى النصيرية والدروز والإسماعيلية المعاصرة . كما أنها كانت أيضاً ذات أثر خطير في زنادقة الصوفية ، ثم في التصوف الفلسفى عامة .

(١) أبو خلف القمى : كتاب المقالات .

ولكن سرعان ما نجد فرقة من فرق الغلاة الخمسة تجمع بين العين والميم بل تنادى بإلهية خمسة أشخاص - أصحاب الكساء - وهم محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين . واعتبرت خمستهم شيئاً واحداً ، والروح حالة فيهم بالسوية ، لا فضل لواحد على الآخر . ويقول شاعرهم :

توليت بعد الله في الدين خمسة نبياً وسبطيه وشيخاً وفاطماً^(١)

وهنا فقط إعلان للتولي ولكن ما يلبث هذا التولي أن يأخذ صوره الغالية على يد شريع أو الشريعي فهو - يؤمن بالوهمية الخمسة ، وهذه الخمسة خمسة إبليسية مضادة هي أبوبكر وعمر وعثمان ومعاوية وعمر بن العاص . ثم ينتهي الشريعي كمادة الغلاة إلى أن يقر أن روح الإله حل فيه^(٢) .

وكان أهم تلامذة الشريعي رجلان من أشد غلاة الشيعة هما محمد بن نصير النخعي - وقد كون فرقته النصيرية وإسحق بن زيد بن الحرث صاحب فرقة الإسحاقية . وقد كان هذا الأخير من أصحاب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب وصاحب فرقة الجناحية الإباحية . وأما فكرتهما فهي « ظهور الروحاني بالجماني » وقد ظهر جبريل ببعض الأشخاص ، وتمثل بصور البشر ، وكذلك الشيطان . لذلك ظهر الله بصورة الأشخاص - وهم الخمسة المشهورون ، محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين « هم خير البرية ظهر الحق بصورتهم ونطق بلسانهم وأخذ بأيديهم » هذا هو معنى التأليه عند الخمسة هو نوع من التأيد الرباني ، لا اعتبارهم آلهة خالقين وقادرين . وأما السبب في اختصاص على بإطلاق اسم الإلهية عليه ، لأنه كان مخصوصاً بتأييد من الله مما يتعلق بباطن الأسرار ، وسينشأ عن هذا فكرة « المخصص » عند الإسماعيلية والدروز ، أي أنه المعلن - أي صاحب العلل . فمحمد صلى الله عليه وسلم صاحب الظواهر - وعلى صاحب السرائر « أنا أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر » . وقاتل المشركين كان إلى النبي ، وقاتل المنافقين إلى علي . واستندوا في صفة على الباطنية إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم « لولا أن يقول الناس فيك ما قالوا في عيسى بن مريم ، وإلا لقلت فيك مقالاً » وأخيراً - إن محمداً صاحب التنزيل ، وعلى صاحب التأويل ، واستندوا في هذا إلى الحديث « فيكم من يقاتل على تأويله ، كما قاتلت على تنزيله ، ألا وهو خاصف النعل » فكل هذه العلوم ، علم التأويل وغيرها من علوم ، وقاتل المنافقين ، والخوارق من مكالمة الجن وقلع باب خير ، وعلمه بما سيكون ، كل هذا لا « بقوة جسدية » دليل على أن فيه جزءاً إلهياً وقوة ربانية ، أو يكون هو الذي ظهر الإله بصورته وخلق بيده وأمره بلسانه .

وكان على عند النصيرية والإسحاقية موجوداً قبل خلق السموات والأرض واستندوا في هذا على أثر

(١) الشهرستاني : الملل ج ١ ص ٢٩٣ - ٢٩٤ .

(٢) الأشعري : مقالات ج ١ ص ١٤ ، ١٥ .

له « كنا أظلة - على يمين العرش ، فسبحنا - فسبحت الملائكة بتسبيحنا » فتلك الظلال وتلك الصور العرية عن الإظلال هي حقيقة وهي مشرقة بنور الله إشراقاً لا ينفصل عنها سواء كانت في هذا العالم أوفى ذلك . وأطلقوا على لسان علي « أنا من أحمد كالضوء من الضوء ، ولا فرق بين النورين إلا أن أحدهما أسبق ، والثاني لاحق به تال له وهذا يدل على نوع شركة » .

ويرى الشهرستاني أن الخلاف بين النصيرية والإسحاقية ، هو في أن الأولى ترى أن محمداً وعلياً يتشاركان في الإلهية ، ففي كل منهما جزء إلهي ، والثانية ترى أنهما يتشاركان في النبوة فكل منهما نبي ^(١) . وقد ذكر الملطي هذه الفرقة فقال « والفرقة الثامنة من الحلولية زعموا أن علياً ومحمداً عليهما السلام شريكان في النبوة وأن الرسالة إليهما ، وأن طاعتها ومعصيتهما واحد لا فرق بينهما ، وأن علياً نبي بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، واحتجوا بقول النبي عليه السلام « أنت مني بمنزلة هارون من موسى » ^(٢) ولعل هذه الفرقة هي الإسحاقية ، وقد ذهب فخر الدين الرازي إلى أن الإسحاقية - وهي تتفق مع النصيرية في القول بأن الله تعالى كان يحل في علي في بعض الأوقات ، كانت باقية حتى عصره في حلب وبعض نواحي الشام ^(٣) .

أما النصيرية - فما زالت تعيش حتى الآن في سوريا وبعض أجزاء من شمال فلسطين وبالرغم من أنها تحتفظ باسم النصيرية ، غير أن كثيراً من العقائد الأخرى قد دخلت في المذهب بحيث يختلف المذهب الآن عن المذهب الأول الذي ينسب إلى معلمها الأول محمد بن نصير النخعي أو الخنصبي النصيري (المتوفى عام ٣٤٦) . وقد كتب ماسينيون في دائرة المعارف الإسلامية مقالاً طويلاً عن النصيرية وتطورها .

ثم يذكر لنا فخر الدين الرازي فرقة عينية أسماها الأزلية ^(٤) وكان من الأولى أن تربطها بالعلياية ، « إنها تدعى أن علياً قديم أزلي ، وكذلك عمر بن الخطاب إلا أن علياً كان خيراً محضاً وعمر كان شراً محضاً » . ويرى الرازي أنهم اقتبسوا هذه المقالة من المجوس . وهذه فرقة بلا شك عينية ، ولكن نظام التقابل فيها أى مقابلة الخير للشر - تذكرنا بالخمسة الخيرة عند الشريعة ومقابلتهم بالخمسة الشريرة . وبعد : فإننا نتساءل ما هو مصدر الخمسة أو القول بالخمسة الخيرة أو بالخمسة الشريرة ، هل هي الجواهر الخمسة المنسوبة خطأ إلى أنبادوقليس ، أو إلى الحرثانية . إنني أرى - كما قلت من قبل - أنها نزعة فيثاغورية محدثة مختلطة بمختلف أنواع الغنوص .

(١) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٣١٦ - ٣١٨ . (٣) الرازي : اعتقادات ص ٦١ .

(٢) الملطي : التنبيه ص ٩ . (٤) الرازي : نفس المصدر - والصحيفة .

الفصل الثالث

الغلو العباسي

لم يكن العباس بن عبد المطلب من السابقين الأولين إلى الإسلام ، وإن كان المؤرخون في العهد العباسي قد حاولوا - ما وسعهم الأمر - أن يصفوا عليه الكثير من القدسية ، وأن يعتبروه ممن كتم إيمانه ليكون عيناً للرسول على كفار قريش وأنه قد فعل هذا باتفاق مع رسول الله ﷺ . غير أن من الثابت تاريخياً أنه حضر موقعة بدر مع المشركين . وأنه أسروا من عليه الرسول بالفداء . وإننا ل نرى بعد كيف صاح عبد الله بن الحسن في المنصور العباسي - وعبد الله تحت العذاب - « ما هكذا فعلنا بأسراكم يوم بدر » . وكان العباس بن عبد المطلب نديماً لأبي سفيان ، وقد أردفه على بغلته ، لكي يقابل الرسول قبل فتح مكة لينقله من القتل .

ولا شك أن العباس أخلص للرسول سواء في جاهليته - عصبية لبني هاشم - أو في إسلامه . وثبت مع الرسول يوم حنين حين تخلى عنه الناس وكان بجوار علي بن أبي طالب يوم بيعة السقيفة . وكان يرى أن علياً أحق الناس بالخلافة . ولكنه ظل مخلصاً للنظام الإسلامي في ظل أبي بكر وعمر وتورد لنا الروايات أن عمرأ استسقى به السماء ، فترل المطر وسقى الناس . وهكذا عاش العباس - عم الرسول ﷺ - بعده .

وكان عبد الله ابنه - فيما تجمع المصادر السنية حبر الأمة وعالمها ، وكان أول مفسر للقرآن مصداقاً لدعوة الرسول « اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل » أما الشيعة فيعتبرونه من أصحاب علي ، وأنه أخذ التفسير عنه ، ونحن نعلم أنه اختلف مع علي بعض الاختلاف حين تصرف ابن عباس بأموال المسلمين ، وأنه عاد إلى الحجاز غاضباً ، وكان من أسباب خذلان علي في يوم التحكيم أنه لم يرسل عبد الله بن عباس لمفاوضة عمرو بن العاص يوم الحكيم بل بعث تحت إلحاح القراء من جيشه أبا موسى الأشعري . ويبدو أن الشيعة نفسها بعد زمن طويل من التحكيم كانت تتدارس الأمر وترى كيف أخطأت حين نزلت على رأي طائفة من القراء انقلبوا بعد إلى الخوارج . وبعثوا أبا موسى . ويتضح هذا من سؤالهم لعبد الله بن عباس : ما منع علياً أن يبعثك مكان أبي موسى في يوم الحكيم ؟ فقال ابن عباس : منعه من ذلك حائل القدر ، وقصر المدة ، ومحنة الابتلاء . أما والله لو بعثني مكانه لاعترضت مدارج نفسه ، ناقضاً لما أبرم ومبرماً لما نقض أسف إذا طار ، وأطير إذا أسف ، ولكن مضى قدر ،

وبقى أسف ، ومع اليوم غداً ، وللآخرة خير للمتقين (١) .

وعاش عبد الله بن عباس بعد مقتل علي في حزن دائم مقيم ، يعنى فقط بالعلم الإسلامى من تفسير وفقه وحديث ، ووفد على معاوية - فيمن وفد من بنى هاشم ، ولكن لم تكن صلاته بالبيت الأموى صلات محبة ، بل صلة كاره مبغض مرغم ، ثم كره أشد الكره بيعة يزيد وإن كان قد بايع . ولكنه نصح الحسين بن علي ألا يخرج إلى الكوفة ، وطلب منه أن يشخص إلى اليمن « فإنها في عزلة ، ولك فيها أنصار وإخوان ، فأقم بها ، وبث دعائك ، واكتب إلى أهل الكوفة وأنصارك بالمعراق » (٢) فالرجل كان ذاهية ، وذا عقلية سياسية مستنيرة ، ونراه يستخدم مصطلح الدعاة ، ولم يستمع إليه الحسين ، وقتل الحسين . ثم قامت فتنة الزبير - وقد ذكرنا من قبل كيف اختلف ابن الزبير مع محمد ابن الحنفية وعبد الله بن عباس ، وكيف حبسها في حجرة زمزم ، وكاد أن يحرقها ، حتى أنقذها أبو عبد الله الجدللى من قبل المختار بن أبي عبيد (٣) ، ومات عبد الله بن عباس سنة ٦٨ هـ وصلاته على خير ما يكون بالبيت العلوى . بل تميز أيضاً عبد الله بن عباس بصلات قوية بمحمد بن الحنفية وأولاده .

وكان علي بن عبد الله أصغر أولاده ، ولكنه كان أعظم قدراً ، وكان علي ، هذا - من دون أولاد عبد الله بن عباس - الجد الأكبر لخلفاء بنى العباس من بعد ، ولم يرد عن علي بن عبد الله علم أو مشاركة في السياسة اللهم إلا ما يذكر من أن أخواله من بنى كندة قد منعه بعد الحرية من مسلم بن عقبة (٤) . فهل شارك علي بن عبد الله في حرب جيش يزيد ؟ ليس هناك إشارة إلى مشاركته فيها . ولكن يبدو أنه انتقل بعد استتباب الأمر للأمويين إلى الحميمة - وهى قرية بالشرية - صقع من أصقاع الشام في طريق المدينة إلى دمشق .

وقد ذهب بعض المؤرخين كالكمال في المبرد أنه كان يدعى « بالسجاد » وكان يدعى بذي الثفتات . لا شك أن هذه دعاية من العباسيين لكى يضعوه مقابلاً للإمام العلوى زيد بن علي المشهور بالسجاد وبذي الثفتات . كما أعلن العباسيون أيضاً أن علياً بن أبى طالب هو الذى سماه علياً وكناه أبا الحسن ودعاه بأبى الأملك ، بينما يذهب الواقدى إلى أنه ولد في الليلة التى قتل فيها علي بن أبى طالب . وقد مات محمد بن عبد الله بن العباس سنة ثمانى عشرة ومائة وقيل أربع عشرة ومائة أو ثمانى

(١) السعوى : مروج ج ٣ ص ٤٥ .

(٢) نفس المصدر ج ٣ ص ٤ .

(٣) السعوى : مروج ج ٣ ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٤) السعوى : مروج ج ٣ ص ١٨ .

عشرة أوتسع عشرة (١) .

ويبدو أن الحركة العباسية لم تبدأ في عهد علي بن عبد الله . أو على الأقل لم يكن هو معنياً بها . ولكن قام ابنه محمد بن علي بأمر الدعوة ، وبدأ بتنظيمها . وقد ذهب بعض المؤرخين كما قلنا من قبل إلى أن « الوصية » و « الإمامة » انتقلت إلى محمد بن علي عن طريق غنوصي . فيذكرون أن أبا هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية - سم وهو في طريقه إلى فلسطين - بإيعاز من سليمان بن عبد الملك . وكان أبو هاشم أخطر رجال البيت الهاشمي ، ويبدو أنه كان يعد العدة لانقلاب كبير فلما علم سليمان - أرسل بعض رجاله - كما قلت من قبل - وانتظروه في الطريق ودعوه إلى أخبيتهم وسقوه لبناً مسموماً ، فلما أحس أبو هاشم بالموت ، قال لمراقبيه : « ميلوا بي إلى ابن عمي محمد بن علي بالحيمية من أرض الشراة » فلما قدم عليه قال له : يا ابن عم . أنا ميت وقد صرت إليك وهذه وصية أبي وفيها « أن الأمر صائر إليك وإلى ولدك والوقت الذي يكون ذلك والعلامة . وما ينبغي لكم العمل به على ما سمع وروى عن أبيه على بن أبي طالب عليه السلام . فاقبضها إليك . وهؤلاء الشيعة استوص بهم خيراً . وهؤلاء دعائك وأنصارك ، فاستبطنهم ، فإنني قد بلوتهم بمحبة ومودة لأهل بيتك . ثم هذا الرجل ميسرة فاجعله صاحبك بالعراق ، فأما الشام فليست لكم ببلاد ، وهؤلاء رسله إلى خراسان وإليك ، ولتكن دعوتكم بخراسان ... فإنني أرجو أن تتم دعوتكم ، ويظهر الله أموركم . واعلم أن صاحب هذا الأمر من ولدك عبد الله بن الحارثية ثم عبد الله أخوه الذي أكبر منه . فإذا مضت سنة الحمار ، فوجه رسلك بكتبك ، ووطد الأمر قبل ذلك بلا رسول ولا حجة ... ثم اختر دعائك ، فليكونوا اثني عشر نقيباً . فإن الله عز وجل لم يصلح أمر بني إسرائيل إلا بهم وسبعين نفساً بعدهم يتلونهم ، فإن النبي ﷺ إنما اتخذ اثني عشر نقيباً من الأنصار اتباعاً لذلك » . ولا سأل محمد بن علي : يا أبا هاشم . . وما سنة الحمار ؟ قال : لم يمض مائة من نبوة قط إلا انقضت أمورها لقول الله تعالى « أوكالذي مر على قرية ... الآية » ، فإذا دخلت مائة سنة ، فابعث رسلك ودعائك ، فإن الله متمم أمرك » (٢) .

تلك هي الوصية التي يذكر اليعقوبي أن أبا هاشم قد دفعها ، كما دفع وثائق الدعوة ، إلى محمد بن علي قبل وفاة أبي هاشم عام ٩٧ هـ . ومن المحتمل أن أبا هاشم - وقد أحس بالموت يقترب منه بعد أن قدم له السم - أمر أتباعه بحمله إلى أقرب الناس إليه في الشام وهو محمد بن علي ، وأنه أفضى إليه قبل موته بأسرار الدعوة التي كان يقوم بها وتنظيماتها السرية ، ولكنني أشك في صيغة الوصية وأسلوبها . فلم

(١) ابن خلكان : وفیات الأعيان ج ١ ص ٥٧٩-٥٨٣ .

وانظر اليعقوبي : تاريخ ج ٣ ص ٦٢ .

(٢) اليعقوبي : تاريخ . ص ٤٠-٤١ .

يكن أبو هاشم غنوصياً ، بل هو أقرب إلى المعتزلة ، ولم يكن أبو هاشم من السذاجة بأن ينقل الحق الشرعى لأولاد عمه الأقرين أولاد فاطمة إلى أولاد عمه البعيدين أولاد عبد الله بن عباس . إن الأرجح أنه ترك لهم وثائق الدعوة وتنظيماتها ، لكي يقوموا بها « للرضا من آل محمد » أى لأبناء فاطمة . وقد اتخذ أبوه من قبل نفسه درءاً لحركة المختار لكي ينتقم من قاتلى أخيه الحسين ، ولم يقحم ابن أخيه علياً زين العابدين فى أية حركة خوفاً عليه من المصير الذى لاقاه أبوه من قبل وإخوته فى سهل كربلاء . وقلم ادعى الوصاية من أبى هاشم فرق متعددة كما ذكرنا من قبل ، بل انقسمت الكيسانية فرقاً ولكن أهمها كانت العباسية وسميت فيما بعد بالعباسية الراوندية . وقد ذهبت إلى أن أبا هاشم أوصى إلى محمد ابن على وأوصى محمد إلى ابنه إبراهيم وأوصى إبراهيم إلى أخيه أبى العباس السفاح (١) . وكان محمد بن على العباسى من أذكى رجال التاريخ ، وأوقى حفظاً من البراعة والمهارة السياسية . فسرعان ما انتشرت بين الشيعة فى الكوفة وخراسان دعوته الغنوصية وأن الوصية انتقلت إليه عن طريق إمام علوى هو أبو هاشم .

وفى عام ١٠٠ هـ وإتباعاً لوصية أبى هاشم ، أرسل محمد بن على بن عبد الله بن عباس أكبر أتباع أبى هاشم ميسرة أبا رباح النبيل مولى الأزدي إلى العراق وأرسل محمد بن خنيس وأبا عكرمة السراج وحيان العطار إلى خراسان . يقول اليعقوبى « فلقوا من لقوا بها وانصرفوا وقد غرسوا غرساً » (٢) وقد كاث هذا فى عهد عمر بن عبد العزيز . ولم يكن عمر بن عبد العزيز فى قسوة أسلافه ، فأحسن المسلمون فى عهده ببعض الحرية ولكن حين تولى يزيد بن عبد الملك عام ١٠١ هـ . بدأ مرة أخرى فى مراقبة الهاشميين ، فوجه إلى خراسان سعيد بن عبد العزيز رسلاً لأبى رباح ميسرة داعية بنى هاشم متتكرين فى زى التجار ، فدعاهم وسألهم عن حالهم . فقالوا : نحن تجار . فخلى سبيلهم فخرجوا من خراسان وقد سرت الدعوة فيها سرىناً بطيئاً منظماً حتى قام سليمان بن كثير الخزاعى وبعض من رجاله يدعون إلى بنى هاشم سنة ١١١ هـ . وظهرت دعوتهم وكثر من أجابهم ، ثم قدم داعية آخر لمحمد بن على وهو بكير بن ماهان فأجابه كثير من الناس إلى خلع بنى أمية وبيعة بنى هاشم ، وكثر أشياعهم ، ثم حين حضرت ابن ماهان الوفاة استخلف أبا سلمة حفص بن سليمان الخلال ، وهو الذى عرف فيما بعد باسم وزير آل محمد . وأرسل بكير إلى محمد بن على ، أنه استخلف أبا سلمة الخلال ، فأقره وكتب إلى أصحابه يأمرهم بالسمع والطاعة له ، فأجابوه جميعاً إلى ذلك (٣) . ولكن خالد بن عبد الله القسرى

(١) الشهرستانى : الملل ج ١ ص ٢٤٣-٢٤٤ .

(٢) اليعقوبى : تاريخ ... ص ٥٠ .

(٣) اليعقوبى : تاريخ ج ٣ ص ٦٠ .

في خلافة هشام بن عبد الملك أرسل أخاه أسد بن عبد الله والياً على خراسان فأخذ جماعة منهم وقطع أيديهم وأرجلهم ثم قتلهم ، فانتكست الحركة إلى حد ما ، وفي هذه الأثناء انضم إلى الحركة العباسية أبو مسلم الخراساني .

وفي عام ١٢٥ هـ . قدم سليمان بن كثير وجماعة من وجوه الشيعة العباسية على محمد بن علي ومعهم أبو مسلم الخراساني ، فقال لهم محمد « لن تلقوني بعد وقتي هذا وأنا ميت في سنتي هذه ، وصاحبكم ابني إبراهيم مقتول » فإذا قضى الله فيه قضاءه فصاحبكم عبد الله بن الحارثية فإنه القائم بهذا الأمر وصاحب هذه الدعوة الذي يؤتيه الله الملك ، ويكون على يديه هلاك بني أمية ، ثم خرج إليهم ابنه أبا العباس - حتى رأوه وقبلوا يديه ورجليه ثم قال لهم « إن عبد الرحمن صاحبكم - يعني أبا مسلم - فاسمعوا له وأطيعوا ، فإنه القائم بهذه الدولة » (١) .

وهكذا جعل العباسيون من محمد بن علي موازياً ومقابلاً لجعفر الصادق ، فإذا كانت الشيعة الإمامية يعتبرون جعفرأ ملهماً ، وأن الله أطلق على لسانه كثيراً من الغيبات ، فكذلك الشيعة العباسية أطلقت على لسان محمد بن علي الكثير من هذه الأمور المغيبة .

ومات محمد بن علي في آخر سنة ١٢٥ هـ ، فلما بلغ وجوه شيعته وفاته ، قدموا على ابنه إبراهيم وبايعوه إماماً لهم ، وهو أول عباسي أطلق عليه لقب الإمام ، فكان يدعى إبراهيم الإمام . ونسب إليه شيعته العلم اللدني ، والتنبؤ بالمستقبل . ولما ظهر أمر الدعوة قبض مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية على إبراهيم الإمام وحبسه بحران ، ولما علم إبراهيم أن مروان سيقنتله ، أرسل مولاة سابقاً الخوارزمي إلى أخيه أبي العباس عبد الله بن محمد بالوصية ، وأظهره على أمر الدعاة بخراسان والقباء وأمره بترك الحميمة بأرض الشراة وأن يتوجه إلى الكوفة فوراً .

وقتل إبراهيم الإمام عام ١٤٢ هـ وتوجه أبو العباس مسرعاً إلى الكوفة إلى وزير آل محمد أبي سلمة حفص بن سليمان . ولكن أبا سلمة كان يفكر في واد آخر بعد وفاة إبراهيم الإمام ، كان عهده - فيما يبدو - لإبراهيم الإمام فقط . وكانت الدعوة « للرضا من آل محمد » وهذا يعني لأبناء فاطمة في نهاية الأمر . وخشى أبو سلمة من انتقاض أمر الشيعة - بعد وفاة إبراهيم الإمام . فحين وصل أبو العباس السفاح وأهل بيته أخفاهم في الكوفة ، وراسل الإمام جعفرأ الصادق وعبد الله الحسن . ورفض جعفر الصادق أن يكون له في الأمر شيء وتلاحى مع عبد الله بن الحسن حين أراد الأخير أن يبايع آل بيت الرسول لأبنه محمد بن عبد الله - وبينما أبو سلمة في انتظار رسله لجعفر الصادق ولمحمد بن عبد الله ،

(١) البقوى : ج ٣ ص ٧٢ .

إذ يجامعة من شيعة خراسان يخرجون أبا العباس السفاح إلى مسجد الكوفة الجامع ويبايعونه بالخلافة ، ورضخ أبو سلمة وبائع .

ويتبين لنا من هذا أن شيعة خراسان آمنوا بالوصاية العباسية فحين علموا أن إبراهيم الإمام قد مات سألو : لمن الوصية بعد ١١٩ فلما علموا أنها لأبي العباس السفاح بايعوه فوراً .

ويتضح هذا الاتجاه السياسى - من خطبة داود بن علي عم السفاح إمام الخليفة الجديد على منبر الكوفة « . . . إنه والله - أيها الناس ما وقف هذا الموقف بعد رسول الله ﷺ أولى به من علي بن أبي طالب ، وهذا القائم خلى » (١) .

وهذه هي النظرية العباسية الأولى في الخلافة ، لا تعترف بالشيخين وإنما ترى أن الخلافة بعد رسول الله إنما كانت لعلي ، ويستند العباسيون الأوائل حتى عن الخليفة المهدي في هذا إلى أن العباس نفسه طلب من علي أن يمد يده لبيايه قائلاً : « يا ابن أخي - هلم إلى أن أبايعك ، فلا يختلف عليك اثنان » .

غير أن الخليفة المهدي - محمد بن عبد الله بن جعفر المنصور - أعلن نظرية سياسية جديدة تنكر أحقية علي وتنكر الوصية وتستند على الإرث . أنكر المهدي انتقال الإمامة للعباسيين عن هذا الطريق الغنوصي خلال محمد بن الحنفية وابنه أبي هاشم . بل قرر أن الإمامة بعد الرسول ﷺ كانت للعباس ابن عبد المطلب وكان العباس عمه ووارثه وأولى الناس به . والخلفاء الأربعة كانوا غاصيين متوثبين . فعقد المهدي الإمامة للعباس بن عبد المطلب ، وقد أنشد أحد شعراء العباسيين هذه النظرية الجديدة التي تستند على الإرث فقال :

أنى يكون وليس ذاك بكائن لبني البنات ورائة الأعمام
ثم عقدها المهدي بعد العباس لعبد الله بن العباس - عالم الأمة وحبرها ، ثم عقدها بعد عبد الله لابنه علي المعروف « بالسجاد » عند العباسيين ، ثم لمحمد بن علي ، ثم لإبراهيم « الإمام » وعقدها إبراهيم الإمام لأخيه عبد الله أبي العباس ، ثم لأخيه أبي جعفر المنصور ، ثم عقدت للمهدي نفسه (٢) .

ونحن نتساءل : ما الذى دفع المهدي إلى إعلان هذه النظرية الجديدة ؟ كان المهدي تقياً متديناً ، ونحن نعلم أنه تتبع الزنادقة ، وقتلهم حيثما كانوا ، كما تتبع الغلاة من المنصورية والحنافيين ، وقتل الحسين بن منصور العجلي . ومن المرجح أن الفكرة الغنوصية التي تبنتها الكيسانية ومن خلالها نفذت

(١) اليعقوبى : تاريخ ج ٣ ص ٨٧ ، ٨٨ ، والمسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ١٨٥ .

(٢) التويعتى : الشيعة ص ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ .

إلى الدعوة العباسية أقلقت الرجل كثيراً ، فرأى فكرة انتقال الوصية إلى العباسيين خلال أسطورة العلم السرى المنسوب إلى أبي هاشم بن محمد بن الحنفية إنما تشبه تماماً انتقال الوصية إلى أبي منصور العجلي وغيره من الغلاة ، وقد جعل هو حياته وفقاً على محاربة هذا الاتجاه الغنوصي ، فرأى ابتداع نظرية سياسية تستند على الفقه وتتمسك فيه مصدراً لأحقية البيت العباسي بتولي الخلافة . ووجد في نظرية «الوراثة الإسلامية» مخرجاً له ومستنداً . فأقرب الناس إلى محمد ﷺ وأحقهم بوراثة الإمامة بعد الرسول هو عمه العباس لا ابن عمه علي ولا أولاد فاطمة ، لأنه عمه ووارثه وعصبته ، لقول الله عز وجل «وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله» ^(١) . ثم إذا أخذنا مبدأ الوصية . فإن تولى المهدي للخلافة يكون بدون مسوغ ، لقد أوصى أبو العباس السفاح لأخيه المنصور ثم لابن أخيه عيسى ابن موسى من بعده ، ولكن المنصور ألغى هذه الوصية ، واستخلف ابنه المهدي . فكان لابد للمهدي من أن يضع نظرية تدعم خلافته ، وهي أن الخلافة «إرث» وهو وارثها عن أبيه ، مادامت أحقية الخلافة لمن هو أقرب الناس للخليفة ، فإن كان العباس بن بعد المطلب أقرب الناس للرسول وبالتالي هو أحق بالخلافة من علي ، فالمهدي أقرب الناس للمنصور ، وهو أحق بالخلافة من عيسى بن موسى .

وقد انقسمت العباسية المعتدلة فعلاً في أيام المهدي إلى فريقين : فريق آمن بتقديم المهدي وانضوى تحت إمامته ، وفريق آخر ثبت على إمامة عيسى بن موسى وأنكر إمامة المهدي ، وأجراه في ولد عيسى ^(٢) .

وكان يجمع شيعة بني العباس اسم الراوندية - ويبدو أن الراوندية نسبة إلى عبد الله بن عمرو بن حرب الكندي الراوندي ، وكان يذهب إلى أن روح الله تناسخت في الأنبياء والأئمة إلى أن انتهت إلى أبي هاشم بن محمد بن الحنفية ، ثم انتقلت إليه ^(٣) ، ويبدو أنه بعد وفاة عبد الله بن عمرو حرب انضم أتباعه إلى الكيسانية - والتفوا جميعاً حول الإمام العباسي ولكن غلب الاسم الراوندية على شيعة بني العباس .

ويذهب المسعودي «إلى أن من تأخر من الراوندية وانتقل وتغير عن جملة الكيسانية القائلة بإمامة محمد بن الحنفية - وهم الحريانية أصحاب أبي مسلم عبد الرحمن بن محمد صاحب الدولة العباسية - وكان يلقب بجران - أن محمد بن الحنفية هو الإمام بعد علي بن أبي طالب ، وأن محمداً أوصى إلى

(١) المسعودي : مروج ج ٣ ص ١٦٦ .

(٢) الترمذی : فرق الشيعة ص ٥٠-٥١ .

(٣) البندادي : الفرق ص ١٤٩ .

ابنه أبي هاشم ، وأن أبا هاشم أوصى إلى علي بن عبد الله بن العباس . . . إلى أن انتهت الوصاية إلى أبي عبد الله السفاح .

وهنا تقابلنا شخصية أبي مسلم الخراساني . ولقد أحاط الغموض بهذه الشخصية الكبرى في تاريخ الإسلام . هل هو أعجمي أم عربي أم كردى ؟ هل هو من نسل بني العباس أنفسهم أى هل هو ابن لسلطان بن عبد الله بن العباس أم هو مولى ؟ هل هو شخصية سياسية حربية ، أم هو وجه غنوصي استخدم الغنوص القاسي القائم المكبوت في خراسان البعيدة عن موطن الخليفة دمشق . أم أنه كل هذا - وأنه استخدم الثقافة من المسلمين ، كما استخدم الغنوص ، وجذب إليه العرب كما جذب إليها علوج العجم ، وخرج بهذا كله ليقصى على دولة بني مروان ويقيم أعظم دولة عرفتها العصور الوسطى . وهي دولة العباسيين . وفعل كل ما أراد ، ثم مات ميتة دنيئة في غدر وخسة على يد الخليفة الوحشي أبي جعفر المنصور بعد أن وطأ له ملكه ؟

إننا لا نرى غلواً في أيامه أو حركات ناشزة في خراسان أو عقائد غنوصية تظل ظاهرة باسمه . ولكن بعد موته ، قام بعض الراوندية وأعلنوا أن المنصور إله وأبا مسلم نبي ، وأنه يعلم سرهم ونجواهم . ولعلمهم استندوا في هذا إلى خطبة المنصور نفسه بعد مقتل أبي مسلم « أيها الناس لا تخرجوا عن أنس الطاعة إلى وحشية المعصية ، ولا تسروا غش الأئمة ، فإن من أسر غش إمامه أظهر الله سريرته في فلتات لسانه ، وسقطات أفعاله ، وأبداها الله لإمامه (١) » ، وأعلنوا أيضاً أن أبا مسلم نبي مرسل ، ولما بلغ المنصور قلوبهم ، وقبض على جماعة منهم وطلب منهم التوبة أبوا وقالوا للمنصور ربنا يقتلنا شهداء ، كما قتل أنبياءه ورسله ؛ فقتل المنصور الكثيرين منهم (٢) .

ولكن تحركت فرقة « الأبي مسلمية أو المسلمية » في خراسان على يد الحرورية - نسبة إلى خرم آباد قرية من قرى الري كان يسكن فيها الغلاة - وأعلن البعض منهم أن أبا مسلم لم يموت ولن يموت ، بل سيظهر ويملا الأرض عدلاً . وقطعت فرقة أخرى بموته ونادت بإمامة ابنته فاطمة بل وبناتها ويسمى هؤلاء بالفاطمية - اجتمعوا جميعاً تحت قيادة « يستفاد » أو « سنباذ » واستولوا على الري فقاتلهم المنصور وقتل معظم جيش يستفاد عام ١٣٨ هـ (٣) . ثم قامت الأبو مسلمية مرة أخرى بقيادة استاذيس . وقد قتل عام ١٤٩ وكان أيضاً خرمياً .

ما هي آراء الحرورية ؟ يرى النويختي أن بدء الغلو كان منهم ، وأن الكيسانية والعباسية والحارثية

(١) النويختي : الشيعة ص ٥٢ المسعودي : مروج ج ٣ ص ٢١٩ .

(٢) النويختي : فرق الشيعة ص ٥٢ ، ٥٣ .

(٣) المسعودي : مروج ج ٣ ص ٣٢٠-٣٢١ .

انتهت إليهم . ويسميه أحياناً الحرمدينية .

وقد أعلنوا أن الأئمة آلهة وأنهم أنبياء ورسول وملائكة . وأن الحرمة أول من تكلم في الأظلة والتناسخ والدور في هذه الدنيا . وأبطلوا العقائد الإسلامية - القيامة والبعث والحساب . وقالوا إنه لا دار إلا هذه الدنيا ، وفسروا القيامة بأنها خروج الروح من البدن ودخوله في بدن آخر غيره ، إن خيراً فخيئاً وإن شراً فشرأ . وأنهم مسرورون في هذه الأبدان أو معذبون فيها . وأن الأبدان هي الجنات وهي النار . الأولى هي الإثابة في الأجسام الحسنة الإنسية المنعمة في الحياة والثانية هي العذاب في الأجسام الرديئة المشوهة من كلاب وقردة وخنازير وحيات وعقارب وخنافس ، محولين من بدن إلى بدن ، معذبين فيها هكذا أبد الأبد ، فهي الجنة والنار - « لا قيامة ولا بعث ولا جنة ولا نار غير هذا على قدر أعمالهم وذنوبهم وإنكارهم لأنتمهم ومعصيتهم لهم ، فإنما تسقط الأبدان وتغرب ، إذ هي مساكنهم فتتلاشى الأبدان وتفتنى وترجع الروح في قالب آخر منعم أو معذب » ويرى النوبختي أن هذا هو معنى الرجعة عندهم ، فالأبدان قوالب ومساكن بمنزلة الثياب التي يلبسها الناس فتبلى وتطرح ويلبس غيرها وبمنزلة البيوت يعمرها الناس فإذا تركوها وعمرها غيرها ، خربت ، والثواب والعقاب على الأرواح دون الأجساد ثم تأولوا هذا كله في ضوء القرآن - فأوردوا لتدعيم فكرتهم الآية « في أى صورة ماشاء ركبك » وقوله تعالى : « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمت أمثالكم » وقوله « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » فجميع الحيوانات إذن من طير ودواب وسباع كانوا أمماً مصداقاً للآية القرآنية ، خلعت فيهم النذر من الله تعالى ، واتخذهم عليهم الحجة ، فأما من كان صالحاً ، فقد جعل الله روحه بعد وفاته وإخراجه قلبه وهدم مسكنه في جسد صالح ، وهذا هو النعم ، ومن كان منهم كافراً عاصياً ، نقل روحه إلى جسد خبيث مشوه يعذبه فيه بالدنيا ، وجعله في أقبح صورة وأثن رزق وأقذره . ولقد فعل الحرمدينية هذا في ضوء التفسير الغنوصي للقرآن . فتأولوا الآية « فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه ، فيقول ربي أكرمن ، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه ، فيقول ربي أهانن » فكذب الله تعالى هؤلاء ، ورد عليهم في قولهم لمعصيتهم إياه فقال : « كلا بل لا تكلمون اليتم : واليتم هو النبي ﷺ ، ولا تحاضون على طعام المسكين : وهو الإمام وتأكلون التراث أكلاً لما ، ولا تخرجون حق الإمام مما رزقكم وأجراه لكم ^(١) » .

وهكذا فسر الحرمة الآيات القرآنية ، تفسيراً غنوصياً بحتاً ، مازجين العقائد الثنوية القديمة - مانوية وديبانية وماندائية وبما تحتويها من عناصر أفلاطونية وفيثاغورية محدثة بالإسلام أو بالعقيدة الشيعية في بني العباس .

(١) النوبختي : الشيعة ص ٣٧-٣٨ .

ونلاحظ أن هذه الفرقة ميمية ، لأن عنصرها الأول الوجودى هو محمد ﷺ ، ثم تفرع عنه عمه العباس وأولاده حتى انتهى الأمر إلى أبى مسلم الخراسانى . ونلاحظ أيضاً أنه لا توجد هنا دعوى للألوهية ، وإنما هم يؤمنون فقط بالتناسخ ، ويسميه الملطى أصحاب التناسخ ، ويعتبرهم فرقة من الحلولية ويفسر مذهبهم « بأن الله عز وجل نور على الأبدان والأماكن ، وأن أرواحهم متولدة من الله القديم ، وأن الجسد لباس لا روح فيه ولا ألم عليه ولا لذة له ، وأن الإنسان إذا فعل الخير ومات ، انتقلت روحه إلى حيوان ناعم ، يتنعم فيه ، ثم يرجع إلى جسم الإنسان بعد مدة ، وإذا فعل الشر ومات ، صارت روحه في بدن حمار ذير أو كلب جرب يعذب فيه مدة ثم يعود إلى جسم الإنسان ، ولم تزل الدنيا هكذا ، ولا تزال تكون هكذا» (١) .

نستنتج من هذا أن الكيسانية تحولت في خراسان إلى عباسية راوندية ، أى «العباسية الخالص» . ثم أتى الدعاة السريون من كل مكان واستخدمهم أبو مسلم الخراسانى - على مختلف مشاربهم ، ويجمعهم جميعاً اسم الراوندية - والمسودة « للبسهم السوداء » - وسار هذا الخليط ليقضى على بنى أمية . ولعل هذا ما دعا نصر بن سيار عامل مروان بن محمد على خراسان في قصيدته المشهورة للخليفة مروان بن محمد في حران ، أن يذكر أن الحركة ستقضى على العرب والإسلام ، وقد تبين له ما فيها من عقائد سرية غنوصية متناقضة ، وما يجمع جيش أبى مسلم من أجناس متعددة متباينة :

أرى بين الرماد وميض نار ويوشك أن يكون لها ضرام
فإن النار بالعودين تذكى وإن الحرب أولها الكلام
فإن لم تطفئوها نجن حرباً مشمرة يشيب لها الغلام
أقول من التعجب ليت شعري أليقظ أمية أم نيام
فإن يك قومنا أضحوا نياماً فقل قوموا فقد حان القيام
ففرى عن رحالك ثم قولى على الإسلام والعرب السلام (٢)

وكان أبو مسلم الخراسانى واسطة العقد بين هؤلاء جميعاً ، فلما قتل أبو مسلم توزعت العباسية الراوندية : فجمهرة شيعة خراسان بقيت على ولائها للمنصور ، والرزامية - وأصل مذهبها الكيسانية فيما يقول النوبختي - أقامت على ولاية أسلافها وولاية أبى مسلم سرّاً (٣) .

ويرى البغدادى أنهم قوم بمروأفرطوا في ولاية أبى مسلم الخراسانى وأنهم اعتقدوا أن الإمامة انتقلت إليه بعد أبى العباس السفاح (٤) ويبدو أن أبى مسلم كان يغذى هذه الفرقة ويؤمن بآرائها « لأنهم ساقوا

(١) الملطى : التنبيه .. ص ٢٩ .

(٣) النوبختي : الشيعة ص ٣٧ - ٣٨ .

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٢٠٢ .

(٤) البغدادى : الفرق ص ١٥٥ .

الإمامة إليه» (١) ثم إن مجموعة الرزامية آقرت بقتله ، غير فرقة هي الأبومسلمية تغالت فيه أشد التعلو وقالوا له حظ من الإمامة وأن روح الإله حلت فيه وأنه خير من جبرائيل وميكائيل وسائر الملائكة وهو حتى لم يمت وهم على انتظاره . ويقول البغدادي «وهؤلاء بمرورهم يعرفون بالبركوكية ، فإذا سئل هؤلاء عن الذي قتله المنصور قالوا : كان شيطاناً تصور للناس في صورة أبي مسلم» (٢) .

وقد تنبه الشهرستاني إلى حقيقة أبي مسلم الخراساني فيقول : «كان على مذهب الكيسانية في الأول ، اقتبس من دعائهم العلوم التي اختصوها بها ، وأحس منهم أن هذه العلوم مستودعة فيهم ، فطلب المستقر فيه» أي أنه تنبه إلى أن محمد بن الحنفية وأولاده ثم العباسيين من بعدهم كانوا الأئمة المستودعين ، وكان أولاد فاطمة ، هم الأئمة المستقرين فهل نظرية الإمام المستودع والإمام المستقر وهي نظرية غالية - إبان ذلك الوقت ؟ وهناك رواية تذكر أن أبا مسلم أنفذ إلى الإمام جعفر الصادق «إني قد أظهرت الكلمة ، ودعوت الناس عن موالاتي بني أمية إلى موالاتي أهل البيت ، فإن رغبت فيه ، فلا مزيد عليك» فكتب إليه جعفر الصادق «ما أنت من رجالي ولا الزمان زمانى» . فحينئذ حاد إلى أبي العباس بن محمد وقلده الخلافة (٣) .

ونحن نعلم أن أبا سلمة الخلال - هو الذي فعل هذا ، ولكن من المحتمل أيضاً أن يكون أبو مسلم - وهو كيسانى في حقيقته - قد فهم تماماً أن وصية أبي هاشم لمحمد بن علي العباسي إنما كانت للدعوة «لرضا من آل محمد» أي لأبناء فاطمة وأن إبراهيم الإمام قد أسر بهذا لأبي مسلم ، وأن الدعوة السريين إنما كانوا «يدعون للرضا من آل محمد» وكان يفعل هذا أيضاً عبد الله بن معاوية بن جعفر بن أبي طالب ، معلناً أنه يدعو للرضا من آل محمد ، ثم استقل بنفسه . من المحتمل كثيراً أن الدعوة كانت تركز حول الفواطم من أول الأمر ، فهل لعبت فكرة الإمام المستودع والإمام المستقر دورهما ؟ فالدعوة لإبراهيم الإمام المستودع ، حتى تنقل فيما بعد إلى الإمام المستقر سواء كان جعفر الصادق أو غيره من أبناء فاطمة . وهل ظهرت حقاً هذه الفكرة في حركة المختار ؟ فالمختار بن أبي عبيد كان يعمل باسم محمد بن الحنفية ، ولكن لتدعيم إمامة علي زين العابدين في آخر الأمر ، وقتل المختار قتلة الحسين باسم محمد بن الحنفية وحارب باسمه ، وذلك حفاظاً على البقية الباقية من أولاد فاطمة أن يمسهم سوء إذا ما فشلت الحركة ، ونحن نجد أيضاً صالح بن علي يقتل بني أمية ، ويعلن أنه يفعل هذا انتقاماً لمقتل الحسين بن علي وزيد بن علي بن الحسين في حديثه مع ابنة مروان الكبرى (٤) . إنني أستبعد ظهور نظرية الإمام المستودع والإمام المستقر إبان هذه الأوقات جميعاً . من المحتمل أن الفكرة - فكرة الإمام

(٣) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٤٩ .

(٤) المسعودي : ج ٣ ص ١٣ ص ٢٠٦ .

(١) الشهرستاني : الملل ج ١ ص ١٤٧ .

(٢) البغدادي : الفرق ص ١٥٥ .

المستودع والإمام المستقر - قد تحققت صورتها ومادتها في حركة المختار وفي حركة العباسيين ولكن بغير أن تصاغ هذه الصياغة المنهجية في نظرية: كما كانت نظرية الإسماعيلية المتأخرة.

جاءنا نرى أنه حين جمع عبد الله بن علي الأمويين بنهر أبي فطرس بين فلسطين والأردن ، وعلموا أنه سيقتلهم جميعاً ، استعطفوه واسترحمواه بالقرابة والرحم فقال « هيات ، قطع ذلك قتل الحسين » (١) . ولكن العباسيين لم يكونوا أبداً عملاء لبني فاطمة ، ولم يفكروا قطعاً في نقل الخلافة إليهم ، فالحركة العباسية إذن إنما كانت في أول الأمر تدعى أنها تعمل لبني فاطمة تحت اسم الرضا من آل محمد ، ولكنهم استقلوا بالأمر دونهم في آخر الأمر . من المحتمل كثيراً أن يكون أبو مسلم قد عرف هذا ، فلما رأى جعفر الصادق يرفض الأمر ويأباه وتحول الأمر إلى بني العباس ، رأى أن يدعو إلى نفسه ، وأن يمهّد السبيل للأمر . وهذا سر ازدرائه لأبي جعفر المنصور في حياة السفاح ، ولعله كان يأمل في القيام بانقلاب في خراسان يتولى به هو خلافة المسلمين ، ولكن المنصور كان من المهارة السياسية والحكمة بحيث تمكن من اغتياله ، ثم القضاء على حركة تابعيه سباز أو استفاد واستاذيس (٢) . وبقيت الحركة كامنة . والغنوص يعمل في أنحاء خراسان حتى ظهر في أبشع صورة عند المقنع الخراساني وفي عهد ابن المنصور الخليفة محمد بن عبد الله الملقب بالمهدي . وقد نسبت فرقة إليه فسميت بالمقنعية . وقد اختلف في اسم المقنع ، فقيل هو عطاء وقيل هو هاشم بن حكيم المروزي كان قصاراً من أهل مرو . ويبدو أنه كان ينتمي إلى الرزمية في بادئ الأمر - أي أنه كان كيسانياً كأبي مسلم والمقدسي يوضح هذا فيقول إن المقنع كان يؤمن بأن روح الله التي كانت في آدم تحولت إلى آدم ثم تابعت في الأنبياء ثم تحولت إلى محمد بن الحنفية (٣) ثم إليه هو فهو كيسانى ثم اعتنق الرزمية وكان من دعائها السريين ، وأخلص لأبي مسلم ، وقد تعلم المقنع العلوم السرية وكان من عادة الدعاة السريين معرفة الهندسة والحيل والثيرنجيات والكيمياء (٤) .

وقتل أبو مسلم الخراساني وبقي الرجل يبت دعوته في عهد المنصور ، ولكنه خشي الظهور ولم تكن دعوته قد نضجت حينئذ . ثم أعلنها ، يقول ابن خلكان إنه ادعى الربوبية على طريق المناسخة ، أن أن النور الإلهي حل فيه عن طريق التناسخ . أما هذا الطريق التناسخي فكان كالألآي : انتقل النور إلى صورة آدم - ولذلك قال الله للملائكة « اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى » فاستحق لذلك

(١) البعقوى : تاريخ ج ٣ ص ٩٢ .

(٢) البعقوى : تاريخ ج ٣ ص ١٠٤ .

(٣) المقدسي : البلد والتاريخ ج ٦ ص ٩٧ .

(٤) ابن خلكان : وفیات ج ١ ص ٥٧٣ ، والبيروني : الآثار الباقية ص ٢١١ .

السخط ولم يتنبه المؤرخون المسلمون إلى أن هذه هي فكرة الخلافة المشهورة «إني جاعل في الأرض خليفة» ، وقد أثرت هذه الفكرة في الصوفية الفلسفية ، وهي تستند أيضاً على الحديث الموضوع ذي الصبغة اليهودية «خلق الله آدم على صورته» وهي فكرة غنوصية مستمدة من فيلون الفيلسوف اليهودي . ثم أعلن المقنع أن الصورة الإلهية تحولت إلى نوح ثم إلى صورة واحد واحد من الأنبياء والحكماء «ولعل قوله بأن الروح تناسخت في الحكماء» دليل على معرفته الواسعة بالفلسفة والغنوص - ثم يقرر أنها تحولت إلى صورة أبي مسلم ثم ظهرت فيه هو (١) .

أما البغدادي فيعرض المذهب في صورة أخرى ، فيصليه بالبيت العلوي . وأنه يزعم لأتباعه أنه هو الإله ، وإن كان قد تصور مرة في صورة آدم ، ثم تصور في وقت آخر بصورة نوح ، وفي وقت آخر بصورة إبراهيم ثم تردد في صورة الأنبياء إلى محمد ، ثم تصور بعده في صورة علي ، وانتقل بعد ذلك في صور أولاده ، ثم تصور بعد ذلك في صورة أبي مسلم ، ثم إنه زعم أنه في زمانه الذي كان قد تصور بصورة هشام بن حكيم . وكان اسمه هشام بن حكيم . وقال : إني إننا أنتقل في الصور لأن عبادي لا يطيقون رؤيتي التي أنا عليها ، ومن رأى احترق بنوري (٢) .

من الواضح إذن أنه لا يقول بالوهمية هؤلاء ولا بالوهميته هو ، وإنما هو غنوصي يؤمن بالحقيقة المحمدية ، وأنها انتقلت من نبي إلى نبي ، حتى انتهت إليه ، وهي نظرية طالما رأيناها لدى غلاة الشيعة الغنوصيين ، ونراها في نفس الصورة التي ظهرت عند المقنع لدى البهاء مؤسس البهائية الحديثة ، وقد تقنع هو أيضاً ، خوفاً على أتباعه من أن يحرقهم سبحات الوجه . فالمذهب إذن مزيج من فلسفة غنوصية ومسيحية ويهودية وإسلام .

ويرى ابن خلكان أن قوماً قبلوا دعواه وحاربوا دونه «مع ما عاينوا من عظيم ادعائه وقبح صورته ، لأنه كان مشوه الخلق أعوراً لكن قصيراً ، وكان لا يسفر عن وجهه ، بل اتخذ وجهاً من ذهب» فتقنع به ، فلذلك قيل له المقنع «ويرى أنه أثر فيهم بالسحر والشعوذة والتفويها ، بل يبدو أن الرجل كان يستخدم الحيل الفلكية والهندسية ، بحيث صنع «قراً» يطلع ويراها الناس من مسافة شهر من موضعه ، ثم يغيب فعظم اعتقادهم فيه» وقد ذكر هذا القمر أبو العلاء المعري فقال :

أفق إنما البدر المقنع رأسه ضلال وغى مثل بدر المقنع
وكذلك ذكره سناء الملك :

إليك فابدر المقنع طالما بأسحر من ألاحظ بدر المعمم

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٧٥٣ .

(٢) البغدادي : الفرق ص ١٥٥ ، ١٥٦ .

وقد افتن الناس به وأقبلوا على قريته بمرور «كازه كيمن دات» مبنى حصناً كبيراً بناحية كسن ونحشيب يقال له سيام وأقبل إليه عدد كبير من أهل الصغد والأتراك الخلجية (١) ، واحتجب عن الناس كما قلت بقناع من ذهب أحياناً ومن حرير أحياناً أخرى وكون لأتباعه مجتمعاً إباحياً ، فحرم عليهم القول بالتحريم ، وأسقط عنهم الصلاة والصيام وسائر العبادات . وانضم إليه كثيرون من كفر الأتراك الخلجية ودامت فتنته أربعة عشر عاماً يغير على المسلمين ويقتل ويسبي . وكان أتباعه يلبسون الملابس البيض ، وسمو بالمبيضة لتيبيضهم ثيابهم مخالفة للمسودة من العباسيين .

وأرسل إليهم المهدي قائده معاذ بن مسلم في سبعين ألفاً من المقاتلة ثم أتبعه بقائد آخر هو سعيد بن عمرو الجرشي فقاتلهم هذا الآخر سنوات قتالاً عنيماً . وكان المقنع يحيط بحصنه خندق كبير ، وقاتل جنده من وراء خندقه ، ولما عبر المسلمون الخندق استأمن من جند المقنع ثلاثون ألفاً ، خلا من قتل من قبل ، ولما أحس المقنع بالنهاية ، جمع نساءه وسقاهم السم ، فتن منه ، أما هو فقد أحرق نفسه في تنور كان قد أعده ، وأذاب النحاس مع القطران ، حتى ذاب فيه . وقد افتن به أصحابه بعد ذلك حين لم يجدوا له جثة ولا تراباً . وزعموا أنه صعد إلى السماء .

ويرى البغدادى أنه حتى عصره هو - أى القرن الخامس الهجرى - كان أتباع المقنع ينتشرون في جبال إبلق بخراسان ، ولهم في كل قرية من قرى خراسان مسجد لا يصلون فيه ، وهم يستحلون الميتة والخنزير ، وأنهم يعيشون معيشة إباحية ، فيستمتع الرجل منهم بامرأة غيره . ويرى أيضاً أنهم يقتلون المسلمين خفية ، أى أنهم نوع من الخناقين . ولكنه يرى «أنهم مقهورون بعامّة المسلمين في ناحيتهم» (٢) .

ثم ظهر فيروز - حفيد أبى مسلم - ثم بابك وكان في أرجح الأقوال من نسل أبى مسلم . غير أن ابن النديم يعطينا صورة عن أبى مسلم الخراسانى تختلف عن صورة الرجل الذى يمالئ الغنوصية ويذهب إليها ، بل على العكس ، إنه يحاربها ويقضى عليها . فيخبرنا أنه ظهر في صدر الدولة العباسية ، وقبل تولى أبى العباس السفاح للخلافة ، رجل يقال له فريد من قرية روى من أبر شهر ، وكان فريد مجوسياً «يصلى الصلوات الخمس بلا سجود ، متياسر عن القبلة أى أنه وضع صلاة خاصة ، وألغى الصلاة نحو القبلة ، ثم تكهن ودعا المجوس إلى مذهبه ، فاستجاب له خلق كثير . فوجه أبو مسلم الخراسانى - شبيب بن داح وعبد الله بن سعيد ، فعرضوا عليه الإسلام ، فأسلم وسود ،

(١) ابن خلكان : وفیات ج ١ ص ٥٧٣ .

(٢) البغدادى : الفرق ص ١٥٦ ، والبيرونى : الآثار ص ٢١٠

أى انضوى تحت لواء جيش أبى مسلم . ولكن أباً مسلم لم يقبل إسلامه لتكهنه فقتله . ويذكر ابن النديم أنه إلى وقته كان على مذهبه جماعة بخراسان .

ويذكر لنا ابن النديم أيضاً أن الأبا مسلمية هي من الاعتقادات التي حدثت بخراسان ، وأنها ظهرت بعد مقتله ، فقد حدث بعد قتل أبى مسلم أن هرب دعائه والمُلتفون به إلى مختلف البلاد ، معلنين إمامته وأنه ما زال حياً يرزق ويخص بالذكر منهم رجلاً يعرف بإسحق الترك ، فإنه رحل إلى بلاد ما وراء النهر ، وادعى أن أباً مسلم محبوس في جبال الرى ، وأنه سيخرج في وقت حدده لهم . محاكياً في ذلك لقول الكيسانية في محمد بن الحنفية .

ويذكر ابن النديم أنه إسحق الترك هذا ، في بعض الروايات علوى من ولد يحيى بن على ، وأنه خرج إلى بلاد الترك فاراً من بنى أمية ، ثم تستر بمذهب الأبي مسلمية ، وفي روايات أخرى أنه رجل من وراء النهر ، وكان أمياً ، وله تابع من الجن ، فكان إذا سئل عن شيء ، أجاب بعد ليلة ، فلما قتل أبو مسلم ، دعا الناس إليه ثم تحول إلى الزرادشتية ، وادعى أن « زرادشت حى » وأصحابه يعتقدون أنه حى لا يموت ، وأنه يخرج حتى يقيم الدين لهم ، وهذا من أسرار الأبي مسلمية « فكان هذه الروايات الأخيرة تقول إن الأبا مسلمية هي بقايا المجوس من زرادشتية ومزدكية (١) .

(١) ابن النديم : الفهرست ص ١٥٦ .

البَابُ السَّابِعُ

الإِسْمَاعِيلِيَّةُ

الفصل الأول

الإسماعيلية الأولى

كانت الإسماعيلية هي المنحى الأكبر الخطير للشيعه الإمامية ، وإحدى الضربات القاصمة ،التي وجهت للمذهب الإمامي المتطور إلى اثني عشرى . حقاً إن الإسماعيلية كانت تجد مادتها من الأتباع من شيعة الاثنى عشرية ، الذين كانوا يفضلون إماماً حياً ذا حجج ودعاة ويعمل للدنيا من إمام مخفى فى سرداب ، ينتظرون قيامه بدون أمل كبير ، كما كانوا يفضلون عقائده السرية ونظامه الغنوصى أكثر من عقيدة فى معظمها ظاهرية ، تقترب فى عباداتها وطقوسها من عقائد أعدائهم اللد : أهل السنة والجماعة .

ولقد تعددت الأقوال فى الإسماعيلية ، أصلها ومنشأ أئمتها وحججها ، دعائها وجزائرها - إذا تكلمنا بالأسلوب الإسماعيلى ، هل هى دعوة إسلامية تدخل فى نحل المسلمين وفرقهم ؟ أم هى ملة جديدة انفصلت عن الإسلام نهائياً ، وكونت ديناً جديداً ؟ .

وإذا كانت الكيسانية - شيعة محمد بن الحنفية القديمة - قد أنشأت دولة - هى الدولة العباسية - مستندة على أحقية رجل من بنى هاشم فى الخلافة - هو العباس بن عبد المطلب وإذا كانت الزيدية - قد أنشأت دولة - هى دولة الزيود - فى اليمن - مستندة على أحقية أئمة زيديين ينتسبون إلى أولاد الحسن فإن الإسماعيلية أنشأت - خلال جهاد ودعوة صابرة مريرة - دولة الفواطم فى مصر ، مستندة إن حقاً وإن باطلاً على أئمة ينتسبون إلى فاطمة الزهراء . أما الشيعة الاثنى عشرية فلم تنشئ دولة قام بها أحد أئمتهم ، لأن الإمام الأخير انتهى عقبه ، أو اختفى ليعود فى آخر الزمان .

وإذا كان المذهب الإمامي يعلن أنه ينبثق من جعفر الصادق ، وينتسب إليه ، والمذهب الاثنى عشرى يعلن - إن حقاً وإن باطلاً - أنه صدر من الإمام والأئمة من قبله ، والأئمة من بعده ، عن لسانهم وبشروا به فى آثارهم ، فإن الإسماعيلية - ناقضة لكل هذا - تستند أيضاً على هذا الإمام جعفر الصادق ، معلنة أنه هو الذى أنشأ الدعوة الإسماعيلية ونظمها ووضع أصولها وأن سياسته البعيدة المرمى هى التى مكنت لها النجاح الكامل فى اليمن وفى المغرب ثم فى مصر .

ولكى نتفهم العلل التي أدت إلى قيام الإسماعيلية ، علينا أن نعرض في إيجاز للمخطوط الرئيسية ، وهي التي تكلمنا عنها من قبل ، للحركات الشيعية حول جعفر الصادق ، وفي صدر الدولة العباسية .

كانت الشيعة الحسينية تحارب بعنف بالغ الدولة العباسية ، وقد سقطت صرعى لضربات المنصور وخلفائه من بعده في المدينة والبصرة وفخ وغيرها ، وقد صدقت فراسة جعفر الصادق في إيمانه بأن حركة الحسينيين ستنتهي إلى كارثة مدمرة لهم ، ولا شك أن أتباع الحسينيين أو الكثيرين منهم عادوا إلى حظيرته ، وفر البعض منهم إلى اليمن وغيرها وأنشأوا دويلات زيدية . أما الشيعة الكيسانية ، فقد رأينا كيف كونت هي في مجموعها الراوندية ، وانفصلت الراوندية نهائياً عن البيت العلوي ، ولكن بقيت من الكيسانية بقية كبيرة تؤمن بإمامة محمد بن الحنفية . وكانت مجالاً لغنوص كبير . وسرى أنه بعد فشل ثورات الكيسانية المتعددة أنهم عادوا إلى سواد الكوفة ، وعاشوا فيها ، وظهر منهم حمدان قرمط ، وسيكون أكبر عون للحركة الإسماعيلية ^(١) ، مدة من الزمن ثم ينقلب عليها ويعود لعقيدة الكيسانية .

ويجانب هؤلاء جميعاً من حسنية وراوندية وأبي هاشمية وأبي مسلمية ظهرت الخطائية متعلقة بأذيال الإمام العظيم نفسه .

وفي هذا المعترك العنيف كان جعفر الصادق « نسل النبوة العظيم ، وعلى هدى أسلافه الأطهار ، قابضاً على كتاب الله وسنة رسول الله ، يؤدي رسالته الروحية للمسلمين جميعاً ولشيئته على وجه الخصوص ، عاملاً بكل جهده على تنقية عقيدة مريديه وأتباعه من أى مذهب خارج عن الإسلام » محارباً للغنوص في جميع مظاهره ؛ ومجالداً أشد وأشد للطمع الدنيوى في نفوس كثيرين من الحسينيين والزيود ، كان جعفر الصادق يمثل الأسرة النبوية أعظم تمثيل ، ويضرب المثل الأعلى لما يكون عليه الأثر الباقي لعرة رسول الله وابن فاطمة الزهراء ، فنأى بنفسه عن خلافات الدنيا ، مدعماً فقط لإمامته الروحية للمسلمين بل إن عدوه اللدود أبا جعفر المنصور يقول حين بلغه موت الإمام ؛ إن جعفرًا كان ممن قال الله فيه « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا » وكان ممن اصطفى الله وكان من السابقين بالخيرات ^(٢) .

ولكن الرجل كان يعاني أزمة داخلية تمس أشد المساس حياته كأب وكإمام للمسلمين في الآن عينه . كان الإمام جعفر يعد ابنه الأكبر إسماعيل - وكان يعرف بإسماعيل الأعرج - للإمامة الروحية

(١) الدكتوران حسن إبراهيم ، وطه شرف : عبيد الله المهدي ص ٢٣ .

(٢) البقولي : تاريخ ج ٣ ص ١١٧ .

للمسلمين من بعده ، وكان الإمام يحب ابنه حباً جما ، كما يحب الرجل ابنه الأكبر . وقد وردت بعض الأخبار التاريخية أن إسماعيل اتصل بالغلاة ، وبخاصة الخطابية أو أن الغلاة اتصلوا به ، وقد وردت بعض الروايات أيضاً أن إسماعيل شرب الخمر ، فأسقط أبوه إمامته في حياته . أما أنه اتصل بالغلاة ، ليعد الأمر لنفسه ولأولاده من بعده . فأننا أشك كل الشك في هذا ، فإن محبة الإمام لإسماعيل وحده عليه وجزعه لوفاته يدل دلالة واضحة على أن الابن كان بريئاً مما اتهم به بعد من غلو ، أو بما ألصقه به بعض المتأخرين من تهمة شرب الخمر ، حتى يحلوا لأنفسهم هذا الشرب بدعوى أن الإمام وأتباعه لا يخضعون للتكاليف الشرعية . وقد نسب إلى إسماعيل مزاملته وصداقته للمفضل بن عمر الجعفي الصيرفي ، وأورد الكشي أن الإمام جعفراً قد كره صداقة المفضل بن عمر الجعفي الصيرفي ، وأورد الكشي أن الإمام جعفراً قد كره صداقة المفضل لابنه إسماعيل وأنه قال له : يا كافر يا مشرك - مالك ولا بني - تريد أن تقتله ^(١) ولا شك في هذا فقد كان المفضل الصيرفي من أجل أصحاب الصادق ، ثم تابع أبا الخطاب وكون فرقة . ولكن ما لبث أن تحول إلى موسى الكاظم وخدمه . وكتب كتاب توحيد المفضل . وهو من أحسن من كتب في الرد على الدهرية ^(٢)

ويبدو أن الغلاة اتصلوا بإسماعيل ، وذلك حين غضب عليه أبوه ، وأنهم حاولوا التأثير فيه وجذبته إلى صفوفهم وكان إسماعيل في ميعة الصبا ، وكما خدع فيهم أبوه من قبل ، خدع أيضاً ، فلما تدخل أبوه ، خلص منهم ، وعاد إلى رحابه كاملاً ، أما قصة شربة الخمر ، فهي قصة متهافة . وقد أورد بعض كتاب الإمامية القصة للقدح في أحقية إسماعيل للإمامية . ووردت على هذه الصورة الآتية قال عنبة الناووسي : « كنت مع جعفر بن محمد صلوات الله عليهما ، في باب الخليفة أبي جعفر بالحيرة حين أتى ببسام - وكان غالباً - وإسماعيل بن جعفر بن محمد فأدخلوا على أبي جعفر ، فأخرج ببسام مقتولاً ، وأخرج إسماعيل بن جعفر بن محمد ، فرفع جعفر رأسه إليه وقال . أفعلتها يا فاسق ؟ أبشر بالنار ! » وواضح تماماً أن القصة موضوعة ، فلم يكن أبو جعفر المنصور من الكرم النفس مع جعفر الصادق ، بحيث لا يهتبل تلك الفرصة النادرة ، ويقتل إسماعيل باسم الشريعة ، وبخاصة أنه أتى به إليه في صحبة غال زنديق . وكان جعفر الصادق « شعجا » في حلق المنصور على حد تعبيره هو ، يتخوف منه الخوائف ويتربص به الدوائر .

أما الإمامية الاثنا عشرية في مجموعها فقد اعتبرته رجلاً صالحاً « وكان من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام » أي ممن أخذ عنه ، وكان أبوه شديد المحبة والبر به . وترى أن البعض من أتباع

(١) الكشي : ٢٠٦ .

(٢) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٣٠٣ والبغدادي : الفرق ص ٢٣٦ .

الإمام كانوا يعتقدون في حياة أبيه «أنه القائم بعده والخليفة له دائماً . فلما مات في حياة أبيه ، حزن الإمام حزناً شديداً «وتقدم إلى سريره بغير حذاء ولا رداء» ثم لما حمل إلى البقيع أمر أبوه مراراً أن يوضع نعشه على الأرض . قبل دفنه - حتى يتحقق الناس من وفاته ، ويقطع الطريق على من ظنوا خلاف ذلك^(١) .

وكان جعفر أخشى أن ينتقص الأمر بعد علي ابنه موسى أو أن يقول بعض الناس بمهدية إسماعيل ، وكانت الفكرة منتشرة والغلو دائماً . ولكن لم يمنع ما فعله جعفر من أن تقوم الإسماعيلية «الخالصة» على حد تعبير النوبختي . فكان إسماعيل لديهم الإمام السابع .

وقد عللوا هذا ابن الصادق الأكبر المنصوص عليه في بدء الأمر وأن أمه فاطمة بنت الحسين ابن الحسن بن علي بن أبي طالب ، فهي فاطمة علوية أيضاً . ولم يتزوج الإمام جعفر الصادق على أمه بواحدة من النساء - ولا تسرى عليها ، كسنة رسول الله ﷺ في خديجة ، وكسنة علي في فاطمة . أما عن موته فقد اختلفت الإسماعيلية الأولى ، فالبعض منهم أقر بموته . إنما فائدة النص عليه انتقال الإمامة منه إلى أولاده خاصة ، كما نص موسى على هارون ، ثم مات هارون في حياة أخيه . فانتقلت الوصاية بعد موت موسى إلى أولاد هارون ، فنص عليه لكي تكون لأولاده «فإن النص لا يرجع قهقري^(٢) والقول بالبداء محال . وأورد الإسماعيلية قول الصادق «إن البداء والمشية لله إلى كل شيء إلا في الإمام»^(٣) ثم إن الإمام لا ينص على واحد من ولده إلا بالسماح من آبائه ، والتعيين لا يجوز على الإبهام والجهالة . والإمامية لا تنتقل من أخ لأخ بعد الحسن والحسين عليهما السلام ، ولا تكون إلا في الأعقاب ولم يكن لأخوي إسماعيل ، عبد الله وموسى حق في الإمامة كما لم يكن لمحمد بن الحنفية حق مع علي بن الحسين^(٤) .

أما من قالوا بأنه لم يمت ، فإنهم عللوا هذا بأن جعفر الصادق أظهر موته تقية عليه ، حتى لا يقصده أبو جعفر المنصور بالقتل . وأنه قال «لوجاءكم أحد بدماع ابني هذا «إسماعيل» فلا تشكوا أنه الإمام من بعدى» وكان يقول : «هذا هو الإمام من بعدى . فما أخذتموه عنه ، فهو عني»^(٥) وأنه فتح عينيه وحركها وهو على فراش الموت ، وأن إسماعيل رأى بالبصرة عام ١٥١ ومرو على مقعد ، فدعا له ، فشفاه بإذن الله . وهم ينسبون له معجزات المسيح «ويرى الإسماعيليون فيها بعد أنه قد فعل

(١) النوبختي : الشيعة ص ٦٧ هامش (٢) .

(٢) الشهرستاني : الملل ج ١ ص ٣٣٠-٣٣١ .

(٣) جعفر بن منصور : أسرار النطقاء ص ٩٥ .

(٤) النوبختي : الشيعة ص ٦٨-٦٩ .

(٥) جعفر بن منصور : أسرار النطقاء ص ٩٥ .

هذا إعجازاً للخلائق ؛ بظهور القدرة من الله تعالى وبقاء الكلمة في عقبه الطاهرين من بيته لأن تم الحكمة ، وتتصل إلى الخلاق رحمة وتكمل الحجة ، وتم النعمة « فنسبوا إليه إذن الغيبة - غيب شخصه في حياة أبيه سرّاً من أعدائه ومحنة لأوليائه » (١) .

ولما رفع إلى المنصور بأن إسماعيل مازال حياً ، أرسل إلى جعفر الصادق يخبره أن إسماعيل في الأحياء ، وأنكر جعفر هذا ، وأنفلد السجل إليه ، وعليه شهادة عامله أى عامل المنصور على المدينة . ويتساءل الإسماعيلية « ما السبب في الإشهاد على موته ، وكتب المحضر عليه ، ولم نعهد ميتاً سجل على موته » (٢) .

ويريد الإسماعيلية بهذا أن جعفرأ فعله تقية ، حتى لا يعرض ابنه للقتل . وفي الحق أن جعفرأ فعل هذا خوفاً من ادعاء الغلاة بغيبته ورجعته . لا خوفاً عليه من المنصور .

وسرعان ما نادى قوم - من خواص إسماعيل بالمدينة - بعد وفاة الإمام جعفر بمهديته (٣) ، وبخاصة أن ابنه الأكبر - عبد الله الأفطح - لم يكن على علم وفقه ، ثم توفي بعد سبعين يوماً من وفاة الإمام ، وتحولت جماهير الشيعة إلى موسى الابن الأصغر الذي عرف باسم الكاظم ، هنا ظهر المبارك - خادم إسماعيل - والمبارك شخصية غامضة - قيل إنه حجازي - وأنه كان خادماً لمحمد بن إسماعيل . وأنه كان يجيد نوعاً من الخط انتشر في هذه الأيام يسمى قرمط . ولذلك عرف باسم قرمطويه . وسنجد حين بحثنا للقرامطة أن هذا خطأ . وأن قرمطويه شخص آخر من أتباع المبارك . وقيل إنه كوفي ومن المحتمل أن يكون هو محمد بن إسماعيل . وعلى أية حال فقد ظهرت المباركية وهي الفرقة الأولى الموسومة باسم الإسماعيلية ، ومن الواضح أنها ليست فرقة غالية والبغدادى يذكرها من بين فرق الشيعة غير الغالية ويقول إن المباركية تريد الإمامة في ولد محمد بن إسماعيل بن جعفر كدعوى الباطنية فيه . ويبدو أن الرجل - إن صح وجوده - كان خادماً مخلصاً لإسماعيل وكان يحبه ، كما كان يجب ابنه محمداً . فلما مات الإمام جعفر عمل على تثبيت الإمامة لابن سيده - محمد - ، ومن المحتمل أنه اتصل بالغلاة بالكوفة ، وبخاصة أنه كان كوفياً ليقوى الدعوة الجديدة . وقد بقيت اسم المباركية في التاريخ ، مختلطة أحياناً باسم الإسماعيلية الحديثة وأحياناً أخرى باسم الباطنية . وما زال للمباركية أنصارها في سلطان بوهر الحالى وأتباعه الإسماعيلية ، وهم يسمون أحياناً بالمباركية .

والاسم الثانى الذى يختلط باسم منشئ الإسماعيلية هو اسم أبى الخطاب الأسدى . وقد رأينا من

(١) الداعى إدريس : زهر المعاني ص ٤٩ .

(٢) الشهرستانى : الملل .. ج ١ ص ٣٣١ .

(٣) القمى : كتاب المقالات ص ٨١ .

قبل أن أبا الخطاب لقب بكنية أبي إسماعيل ، وفي هذا دليل على الصلة بين أبي الخطاب وإسماعيل ، وأن تلقيبه بهذه الكنية - إنما معناه أن الخطابية أصل للإسماعيلية ، ولكن ينبغي أن نلاحظ أن أبا الخطاب - في الفترة الثانية من حياته ، وبعد تبرؤ الإمام جعفر منه ، وتبرؤ إسماعيل أيضاً - قد نقل الإمامة إلى نفسه كما يقول ماسينيون باعتبار أن الاختيار الإلهي بالتبني الروحي هو وحده المعتبر. قد تكون فكرة التبني الروحي الخطابية ملهمة للقداحية - فيما بعد - حينما سلبوا - في رأى أغلب مفكرى أهل السنة - آل محمد - الإمامة أو النبوة والألوهية ونسبوا إلى أنفسهم ، ولكنها لم تكن أبداً في هذا الوقت المبكر سنداً لفكرة الإسماعيلية ، ولا شك أن الكثير من أصول الخطابية قد دخلت في عقائد الإسماعيلية فيما بعد ، ولكن تم هذا بعد مقتل أبي الخطاب ، واعتناق كثير من أتباعه للإسماعيلية في عهد عبد الله بن ميمون القداح . وقد لاحظ ماسينيون أننا نستطيع أن نربط بين فكرة السين عند أبي الخطاب الأسدي وبين فهم الإسماعيلية للدور الذي قام به سلمان حين حمل القرآن كله إلى محمد . فأبو الخطاب - عند ماسينيون - هو أول من فهم دور السين - دور سلمان - حين حاول أن يحققه في نفسه .

ثم أتت الإسماعيلية وفهمت نفس هذا الدور . والإسماعيلية مسلمون يؤمنون بالوحي على نحو خاص فيه يستبدل بإملاء ملك خفي تعليمات ينتقل من نفس إلى نفس ، نقله بأمر الله إلى النبي صاحبه سلمان ، فسلمان هو الملك جبريل ، وهو الاسم الذي أطلق على سلمان باعتباره حامل الرسالة الإلهية . فهو إذن سبب الشد والتلقين ^(١) .

وقد قلت من قبل إن هذا هو تفسير ماسينيون لموقف أبي الخطاب أولاً ، ثم لاعتباره ثانياً سلفاً للإسماعيلية ، أو مؤسساً لها . ولكنه لا يصور الواقع أبداً .

إن الوضع الحقيقي للمسألة أن الخطابية بعد مقتل رئيسها توزعت . دخل البعض في طائفة الخناقين ، ودخل البعض الثاني في الكيسانية ، ودخل البعض الثالث في الإسماعيلية أو الإيثام بإمامة محمد بن إسماعيل . ولعل البعض الثالث هذا كان أكثر الخطابية .

ولذلك نرى أبا خلف القمي يقول « فأما الإسماعيلية فهم الخطابية أصحاب أبي الخطاب بن أبي زينب الأسدي الأجدة ، وقد دخلت منهم فرقة في فرقة محمد بن إسماعيل ، وأقروا بموت إسماعيل ابن جعفر » ^(٢) .

ولكن انتشار الدعوة لإسماعيل ثم لابنه إنما بدأت على يد مولى لجعفر الصادق هو ميمون القداح

(١) ماسينيون : شخصيات قلقة ص ٣٣ (ترجمة عبد الرحمن بدوي) .

(٢) القمي : كتاب المقالات ص ٨١ ، والنويعي : فرق الشيعة ص ٦٩ .

وابنه عبد الله بن ميمون وذهبت بعض المصادر إلى أنها كانا تلميذين لأبي الخطاب . وهذا محتمل ، ولكن يبدو أن صلتها به قد انقطعت حين تبرأ منه الإمام جعفر . وقد اتهمت دوائر أهل السنة والجماعة الاثنين بأنها ديصانيان ، وأن ميمونا هو ابن ديصان بن سعيد غضبان ، وقيل إنها يهوديان ، وأنها أنشأ المذهب الإسماعيلي للقضاء على الإسلام . وهذا خطأ كبير فيموتون القداح كان مولى للباقر وجعفر الصادق ، ووثق به الإمام الأخير ، وكان من رواة حديثه ، ويبدو أنه اختص بإسماعيل وأحبه ، ثم اختص بابنه محمد بن إسماعيل .

ويبدو أن ميمونا - وقد عاش في هذا الوسط العلمي وتلمذ على شيوخ المذهب الإماميين الكبيرين الباقر والصادق - كان على علم نفاذ وحنكة سياسية ، وأخذ يتنقل مع إمامه محمد بن إسماعيل إلى طبرستان وغيرها متخذاً نفسه حجة له ، وقد قبض المنصور في أواخر أيامه على ميمون وسجنه ، وفي السجن اجتمع مع جماعة من وجوه الشيعة ، واتفقوا على نشر المذهب بعد خروجهم من السجن (١) . ويقول ابن الأثير . إنهم تفرقوا في البلاد ، وتعلموا الشعبذة والسحر والنجوم والكيمياء فهم يحتالون على كل قوم بما يتفق عليهم ، ويخدعون العامة بإظهار الزهد والتقشف .

وخرج ميمون من السجن واجتمع بإمامه محمد بن إسماعيل مرة ثانية منتقلاً معه من مكان إلى مكان ، ويقال إنه ذهب إلى فلسطين ، وهناك أظهر النسك والتعبد ، ثم قصد إلى سورية وطبرستان ، وقيل أيضاً إنها ذهبا إلى بلاد الروم (٢) ، وقد نشأت فكرة غيبة محمد بن إسماعيل هناك . وفي كل مكان كان يجمع حوله فلول المباركية والخطائية والجعفرية ، ويعد العدة للمذهب الجديد .

ويذكر المؤرخون السنيون أن له كتاب «الميزان» وأنه كتب هذا الكتاب في نصرته الزندقة . وهذا مستبعد جداً فلم يكن الرجل زنديقاً أو ديصانياً ، في أول أمره على الأقل . بل كان أولاً - وبالذات - من محبي ومتشيعي إسماعيل بن جعفر وابنه ثم من المحتمل - وقد كان الرجل عارفاً بالمداهب الفلسفية والقنوصية والأديان - أنه كان يحاول تدعيم إمامة إسماعيل وابنه بمختلف العناصر الفلسفية وبخاصة أنه تلمذ مدة على أبي الخطاب . وإن كنا نلاحظ أن الإمام جعفر الصادق لم يتبرأ منه في حياته بل كان يثق فيه ، وقد جعله قيماً على حفيده ، وكان أيضاً من رواة ورواة أبيه ، ولم يرد عن جعفر الصادق حتى موته ما يقدر فيه ، كل هذا يجعلنا نتوقف كثيراً في الحكم على الرجل بالزندقة أو بالديصانية . من المحتمل أن يكون الكتاب في التأويل الباطني ، وأنه أخذ يؤول الآيات القرآنية بما يتفق مع عقيدته في إمامة إسماعيل وابنه محمد . وأن يسبغ عليها القداسة التي أضفتها الإمامية على أئمتها ، وأنه تعالى إلى

(١) البغدادي : الفرق ص ١٦٩ .

(٢) الدكتور حسن إبراهيم ، والدكتور طه شرف : عبيد الله المهدي ص ٤٨ .

حد كبير في فضائل هذين الإمامين . والغلو في الأئمة خروج على الإسلام فعلاً - نصه وروحه - ولكنه يختلف عن الديصانية الخالصة أو الزندقة الخالصة ، وإن كان هذا النوع من الغلو أشد خطراً على الإسلام ووحدته من كل ثنوى سافر .

وأخيراً . إلى من كان ينتسب ميمون ؟ . . ذكر بعض الباحثين أن ميموناً كان مولى لجعفر الصادق ، وأنه كان يسمى ميموناً القداح المكي ، وأحياناً ينسب إلى الأهواز فيقال له الأهوازي . وأحياناً ينتسب إلى عقيل بن أبي طالب ، أو إلى باهلة ومرة يعلن أنه من نسل سلمان الفارسي . أما كونه مكيّاً أو أهوازيّاً أو ينتسب ولاء إلى عقيل بن أبي طالب ؛ فن السهولة بمكان تفسيره . أما ادعاؤه أنه من نسل سلمان الفارسي ، فقد ظن كثيرون من الباحثين أنه يدعى أنه من نسل الصحابي الكبير دماً . وهذا خطأ . إن ما يقصده ميمون أنه لصلته بالإمامين الباقر والصادق ثم بإسماعيل وابنه محمد بن إسماعيل ولوصاية جعفر الصادق له أن يكون قيماً على حفيده محمد بن إسماعيل ، فهو من آل البيت ، كما قال رسول الله ﷺ لسلمان « أنت منا آل البيت » فهو من نسل سلمان الرواحي ، وعلى مثاله ونسقه ، ولم يتنبه ماسينيون إلى هذا ، ولعله إن فعل ، لوضعه في فرق السين ، غير أن ميموناً لم يعلن أنه حامل القرآن - كما ادعت الإسماعيلية فيما بعد ، ولا أنه سبب الشد والتلقين ، ولا أنه رسول أونى . وإنما أعلن أنه حجة الإمام محمد بن إسماعيل ونائبه ، وداعيه .

وأخيراً - إن الصورة التي قدمتها مختلف الفرق لميمون القداح : أنه كان محدثاً شيعياً عند الإمامية ، حجة ونائباً وسترّاً للإمام محمد بن إسماعيل عند الإسماعيلية ، ثنائياً ديصانياً عند أهل السنة والجماعة . بل لقد ذهبوا إلى أن ميمون القداح هو أبو شاكر ميمون الديصاني . أما الصورة المتكاملة له : أنه كان محدثاً وروياً ومولى لجعفر الصادق ، أحبه الإمام واحتضنه واعتبره من آل البيت ولاء ، كما فعل جعفر مع أبي الخطاب ثم إن ميموناً كان من تلامذة أبي الخطاب . وقد ارتبط ميمون بإسماعيل الابن الأكبر للإمام ، وكان للابن من الفضائل النفسية والروحية والعلمية ما جذب إليه مولى أبيه ، ثم جعله الإمام جعفر وصياً على حفيده ، ولما انتقل جعفر إلى جوار ربه ، نقل ميمون الإمامة لمحمد بن إسماعيل ، وبدأ ينشر الدعوة له ، ثم انتقل معه من مكان إلى مكان ، وأخذ يضع أصول الدعوة محتملاً السجن والاضطهاد والتشريد .

ومن الملاحظ أنه لم يتعرض لهجات الإمامية كما تعرض أبو الخطاب الأسدي ، ولم يحاول الرجل تقويض دعائم الإسلام - كما ذهب مؤرخو العقائد الإسلامية من أهل السنة - فلم يعمل على وضع مذهب باطنى يخرج المسلم من إسلامه كلية ، إنما كان يضع المذهب الإسماعيلي ، وفي المذهب - وهو يكافح السلطان نواح باطنية بلا شك ، ولم يكن يرمى إلى سلخ المسلمين باطنياً من العقيدة الإسلامية

بل إلى سلعهم من عقيدتي أهل السنة والجماعة ومن عقيدة الإمامية . وقد لجأ إلى مبهج التأويل وكان محمد بن إسماعيل أيضاً من أئمة مذهب التأويل . ولعل كتابه الميزان إنما كان في التأويل القرآني . ومات ميمون بعد عام ١٩٨ هـ - فيما يرجح - أي بعد وفاة محمد بن إسماعيل وتذهب روايات أهل السنة إلى أن محمد بن إسماعيل مات بدون عقب ، وأن ميموناً القداح أدعى أن محمد والد ابنه هو عبد الله بن ميمون القداح . ومن الصعوبة بمكان أن نجزم بهذا .

وأخيراً - أن هذا القداح - والقداحة هي تطبيب العين من الماء النازل بها ، وهو نوع من طب العيون انتشر في ذلك العصر - قد وضع البذرة الأولى لحركة من أكبر حركات التاريخ في العصور الوسطى - لعبت دورها العجيب على المسرح الإسلامي ، وأخذت صوراً مختلفة تغاير ما وضعها هذا القداح ، وتفرعت عنها المذاهب ، وتطورت وتغيرت .

ويحاول بعض الباحثين مثل مامور أن يثبت أن ميموناً القداح هو هو محمد بن إسماعيل . ويذهب إيفانوف إلى أن محمد بن إسماعيل كان يعرف باسمه السري « الميمون » ، وأحياناً بعبد الله بن الميمون ^(١) . ومن هنا خلط الباحثون السنيون بينه وبين ميمون القداح وابنه عبد الله بن ميمون ، وظن الباحثون أن هذا الأخير هو جد الخلفاء الفاطميين . ولايفانوف أبحاث طويلة وكثيرة ومستفيضة ، وهو حجة في مسائل الإسماعيلية ولن نناقش نحن هنا كتبه وما فيها من آراء متعددة وبخاصة كتابيه : *The alleged of Ismailism* و *Rise Of The Fatimide* بل تؤخر هذا لفرصة أخرى غير أن أهم ما قدمه لنا إيفانوف في كتابه « المؤسس المزعوم للإسماعيلية » هي جملة الأحاديث التي رواها ميمون عن الباقر والصادق ، وهي تين أنه كان خادماً أميناً للباقر يرحل معه في كل مكان ويستند عليه في سريه ، ثم صحب جعفر الصادق نفس الصبغة ، ثم إثباته أن اسم عبد الله بن ميمون ورد في كتب أهل السنة من المحدثين كابن النجار والذهبي وابن حجر ولم تنسب إليه تهمة الإلحاد . فيمون إذن كان من رجال الباقر والصادق المخلصين وكان أولاده عبد الله وأبان وإبراهيم من خواص خدم وموالي جعفر الصادق ، وكان أبان مقرئاً - ويقرأ القرآن أمام الإمام ، وكان عبد الله محدثاً يكتب أحاديث الإمام . ثم أنكر إيفانوف إنكاراً تاماً ما ذاع من أن ميموناً القداح وابنه عبد الله كان أئمة مستودعين للإمام ، وأثبت أن هذا النظام لم يكن معروفاً في عهدهما وإنما هو من ابتداعات القرن الرابع الهجري . وكل ما يمكننا أن نقوله الآن هو أن أبحاث إيفانوف تمتاز بالخصوبة والعمق ، ولكن الرجل كان يقف دائماً بجوار الفكرة الإسماعيلية ويجعل نفسه أسيراً لها . ولا يرى سواها . وقد ين لنا الكثير من الأخطاء التي وقع فيها مؤرخو الإسماعيلية من أهل السنة والجماعة والاثني عشرية ، ولكنه وقع هو نفسه

في أخطاء كثيرة لا محل لمناقشتها في هذا الخبر المختصر (١).

وقد رأينا أن مامور ذهب إلى أن ميموناً القداح هو محمد بن إسماعيل ، فهل نحن أمام قصة عبد الله بن سبأ وعمار بن ياسر مرة أخرى . وقد قيل إن المعز لدين الله ذكر أن كلمة الميمون هو لقب لجده عبد الله بن محمد بن إسماعيل ، وأنه كان يدعى بالميمون النقيية ، وأن هذا اللقب كان يطلق أيضاً على محمد بن إسماعيل وكذلك أضيف إلى إسماعيل بن جعفر ، كما كان يطلق المبارك على الإمام إسماعيل كما أن القداح كان لقباً لها ، ذلك أن القداح هو الذي ينثر من حوله ضوء الحكمة الإلهية . أو هو الذي تنقدح فيه ومنه الحكمة اللدنية .

لم يتنبه مامور أو إيفانوف إلى موازنة هذه القصة لقصة عبد الله بن سبأ وعمار بن ياسر ، فالأبحاث الحديثة تنكر وجود بن سبأ وتعتبر اسمه رمزاً على عمار بن ياسر ، ثم حملة الأمويون والنواصب أقوال غلاة الكوفة من بعده ، فهل فعل العباسيون هذا أيضاً ؟ ولم تكن هناك شخصية حقيقية تدعى شخصية «المبارك» أو شخصية حقيقية تدعى ميموناً القداح أو ابنه عبد الله بن ميمون ، وإنما وجد الأئمة فقط . هذا مجرد ترجيح لأننا نرى داعياً إسماعيلياً هو الداعي عماد الدين إدريس (توفي عام ٨٧٢) يقول : «وقام إسماعيل بن جعفر صلوات الله عليه - المبارك الميمون في كنف أبيه وعهد بمحمد ابن إسماعيل وهو ابن ثلاث سنين إلى ميمون القداح قدس الله روحه ، وهو كفيل له ومستودع أمره ، وميمون من أولاد سلمان ، وسلمان من أولاد يعقوب بن إسحق» .

ثم يذكر أن جعفر الصادق أقام موسى بن جعفر حجاباً على محمد بن إسماعيل وعلى من جعله باباً له أي «ميمون» ، السر عليه والكفيل له ، وكنى الصادق منزلة ابن ابنه ، وأقام له ميموناً القداح وابنه عبد الله بن الميمون كفلاء ، وأخفى أمر ذلك عن الخاص والعام إلا على المخلصين العارفين من أتباعه (٢) .

إن مسألة القداحين تحتاج إلى بحث أكبر ، ومناقشة علمية أدق . غير أنه يمكن القول إن ميموناً القداح إنما يرتبط اسمه سواء صح وجوده أم لم يصح بإسماعيل بن جعفر وابنه ، كما يرتبط عبد الله ابن ميمون بهما وبأولادهما ، وكما ذكرت من قبل في قصة عبد الله بن سبأ : إننا سواء أنكرنا وجوده كحقيقة تاريخية أو لم ننكره فإن الآراء السبئية قد وجدت ، وهنا أيضاً وجدت الآراء القداحية الميمونية . والميمونية الأولى أو إسماعيلية عصر ميمون - القداح الأول - تؤمن كالإمامية بالعصمة اللامتناهية

(١) لما قرأ الأستاذ محمد عبد الله عنان بعض حجج إيفانوف في كتابه الحاكم بأمر الله وتحتاج المسألة إلى مناقشة أكثر ، علاوة على أن الكثير من حجج إيفانوف التي ناقشها الأستاذ محمد عبد الله عنان صحيحة على غير ما تصورها هو .
(٢) انظر الأستاذ محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ص ١٦٤ وإيفانوف «نشأة الفاطميين» من ص ٤٧-٤٩ .

للإمام ، وتعتقد أن الإمامة لقب من الله ، وأنها واجبة لحفظ الشريعة وجوباً أزلياً في علم الله القديم ، وتعتقد أيضاً بوجود هذا النور الأول الأزلي الذي انتقل من نبي إلى نبي ومن إمام إلى إمام ، ولكن الخلاف الوحيد بين الإسماعيلية الأولى وبين الاثنى عشرية هو أن الاثنى عشرية تتوقف عند الإمام الثاني عشر بينما الدور الأعظم للأئمة عند الإسماعيلية ينتهي عند الإمام السابع ، ليبدأ دورة أخرى للأئمة . هكذا كانت فكرة الإسماعيلية في أول الأمر ثم ما لبثت الإسماعيلية أن خاضت الفلسفة الغنوصية كاملة بما فيها من فيثاغورية محدثة وأفلاطونية محدثة مختلطة بغنوص المذاهب الفارسية آخذة من كل مصدر ، داخلية في الدور الباطني الخفيف ، داخل الإمام الإسماعيلي في دور السر . كما دخل الفكر الإسماعيلي في دور الباطن .

وهذا ما ستحدث عنه في الفصول المقبلة .

الفصل الثاني

الإسماعيلية الباطنية

وظهور رسائل إخوان الصفا

كان «إسماعيل» مسجى على سرير الموت سنة وفاته عام ١٣٥ عند البعض و ١٤٥ عند البعض الآخر ، والإمام جعفر الصادق يعيش في مأساة حزينة ، تأخذ نفسه ، وتعلج في صدره الآلام النوافذ ، ويمشى إلى سرير ابنه مرتين حافى القلبيين ، كان يبكي ابنه الأكبر ، ولكن هل شعر الرجل العظيم بما ستؤدى إليه وفاة إسماعيل من كوارث قاتلة ، وأعاصير وزعازع تكاد تهزكيان العالم الإسلامى باسم إسماعيل .

هذا «الإمام الصامت» الذى حيكت الأساطير حوله فى حياته ، كان فى موته أقوى منه فى حياته . كان ينظر إليه وهو مسجى على الفراش اثنان من موالى أبيه أحباه وآمنوا به حياً وميتاً . أما أحدهما فهو «المبارك الكوفى» مؤسس المباركية فى الكوفة ، حين مات الإمام جعفر ، ذهب إلى الكوفة مبشراً بإمامته وإمامة ابنه من بعده ، أما الآخر فهو ميمون القداح ، هذا المولى الفارسى طبيب العيون ، وقداح الحكمة ، وراوي الحديث وخادم الإمام الباقر . ثم غلام الصادق ، ميمون بن غيلان بن مهران بن سلمان الفارسى ، من ولد إسحاق بن يعقوب أهل الاستيداع ، والقائمى بالبلاغ ، على مدى الأجيال السحيقة إلى عهد إمام الأئمة وسيد العترة الطاهرة جعفر الصادق . «والإمام الصامت» حياً وميتاً فى فراشه ، وفى جنبات البيت الحزين ، ابنه الصغير محمد بن إسماعيل فى الثالثة من عمره ورأى الإمام جعفر أن يعهد بحفيده لأحب مواليه إليه ، وهو ميمون . ومات جعفر الصادق بعد ثلاثة عشر عاماً من وفاة ابنه إسماعيل .

ورأى المبارك - كما رأى ميمون - كيف اختلف أولاد جعفر على إمامة أبيهم ورأى أن الثلاثة لا يصلحون «أما الأفتح أو الأفلح عند الشيعة فلم يكن على علم وكان حشواً مرجئاً ، وأما محمد الديباج فكان زليفاً ثم خضع للعباسيين وأقر على نفسه بالخطأ ، وأما موسى الكاظم ؛ فكان أصغر خوته وفى سن محمد بن إسماعيل . وهنا أعلن المبارك فى الكوفة إمامة محمد بن إسماعيل ، وأما ميمون فقد رأى أيضاً أن الأحق بالإمامة هو محمد بن إسماعيل «ابن سيده القديم» ، وقد كان يعده للإمامة بعد جده ، بل أعلن الإسماعيلية كما قلنا من قبل - أن موسى كان وصياً على ابن أخيه محمد بن

إسماعيل ، فكان موسى إماماً مستودعاً لابن أخيه الإمام المستقر محمد بن إسماعيل . ولكن موسى طمع في الإمامة له ولأولاده من بعده أو أنه فعل هذا تقية ، حتى يعمل الإمام الحقيقي محمد بن إسماعيل في صمت وهدوء .

كان سن محمد بن إسماعيل . كما قلت - حين توفي جده ستة عشر عاماً ، وكان أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي القوي يحكم العالم الإسلامي بيد من جديد ، ويتبع أعداء البيت العباسي بالقتل ويبدو أنه حتى وفاة أبي جعفر عام ١٨٥ هـ ، لم يقم محمد بن إسماعيل بأى نشاط ، بل إنه كان فعلاً في سن لا يسمح له بالقيام بالدعوة لنفسه . إن من الأرجح أن يقال : إن ميموناً كان يعده للإمام . ثم تولى الخليفة المهدي ، (المتوفى عام ١٦٩ هـ) ، بعد أبيه جعفر المنصور وتتبع هو أيضاً الزنادقة ، وقضى على الخناقين من أتباع الحسين بن منصور ، وكذلك قام ابنه موسى الهادي (المتوفى سنة ١٧٠ هـ) بنفس الشيء وقتل أيضاً الحسين في فخ ، وحارب الزندقة ، وتابع الرشيد (المتوفى عام ١٩٣ هـ) سياسة أخيه وأبيه ، وحارب الإمامية ، فسجن إمامها موسى الكاظم . وقتله بالسّم عام ١٨٣ هـ . وترى الإمامية أن محمد بن إسماعيل هو الذي أوقع بعمة موسى الكاظم لدى الرشيد حتى حبسه ، وأن الخليفة أجاز له على وشايته بمبلغ من المال . ولكنه طعن في نفس الليلة ^(١) . وهذا يعني أن محمد بن إسماعيل مات في بغداد وفي ضيافة الرشيد والقصة كلها مختلفة . إن من الثابت أن محمد بن إسماعيل مات عام ١٩٨ هـ ، أى أنه حضر جانباً من عهد المأمون نفسه . وأن صلاته لم تكن على وفاق مع الخليفة هارون .

لقد مضى عهد المهدي والهادي ، وفترة كبيرة من عهد الرشيد ، ومحمد بن إسماعيل آمن في الحجاز ودعاته يعملون في سرية وغموض ، المبارك من ناحية ، وميمون من ناحية ، يقتنصان فلول الخطائية والأبي مسلمية والأبي هاشمية والزيدية والإمامية نفسها . وتسير الدعوة في مرسومة ، ولكن هارون يفتح أذنيه ، ويلتمس الفرص للإيقاع بمحمد بن إسماعيل . وهنا رأى محمد أن يدخل في الدور الهام الذي عرفته الإسماعيلية بدور السر ، فيهرب من الحجاز ، متنقلاً من مكان إلى مكان ، إلى فرغانة وإلى نيسابور ، حيث استقر في قرية من قرى الري هي سملا ، وقد نسبت إليه فيما بعد وسميث بمحمد آباد . وكان يرجو من رحته هذه :

أولاً : اتخاذ دار هجرة وقد أصبحت هذه عقيدة عند الإسماعيلية .

ثانياً : أن يكون بعيداً عن عيون الخليفة في الحجاز ، فيستطيع بسهولة أن يبث دعاته .

ثالثاً : فشله في الحجاز أمام عمه القوي موسى الكاظم والإمامية ، ولم تستجب له الإمامية كثيراً .

(١) التوضي : الشيعة هامش ١ ص ٦٨ .

رابعاً : كانت الحجاز مليئة بالعلماء والفقهاء في عصر العباسيين الزاهر ، ولاشك أن محمد بن إسماعيل كان من أصحاب منهج التأويل الباطني - وإن كنت أعتقد أنه لم يذهب فيه إلى المدى الذي ذهب إليه أتباعه فيما بعد وغلوا فيه ، إلا أن هذا المنهج لم يكن ليجد أذنًا صاغية في مدينة الرسول أوفى مكة .

خامساً : يبدو أن دعائه كانوا قد انتشروا في شرق المملكة الإسلامية ونشروا الدعوة هناك . فذهب محمد بن إسماعيل إلى أرض زرعت له من قبل .

وحين مات محمد بن إسماعيل ادعى قوم من أتباعه أنه مهدي الأمة وأنه تغيب في بلاد الروم . وأنه القائم المهدي وأنه يبعث برسالة وشريعة جديدة ينسخ بها شريعة محمد ﷺ . وأن محمد بن إسماعيل من أول العزم . وأولو العزم عند هذه الطائفة - سبعة : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ وعلى عليه السلام ومحمد بن إسماعيل . أما علة كونهم سبعة ، فذلك لأن النظام الكوني والنظام الإنساني كذلك . فأما عن النظام الكوني ، فإن السموات سبع والأرضين سبع ، وأما عن النظام الإنساني : فإن الجسد الإنساني سبع : يدان ورجلان ، وظهر ويطن وقلب ، والرأس الإنساني سبع : عينان وأذنان وأنف وفم ولسان والأئمة سبعة ، وقلوبهم محمد بن إسماعيل .

ثم حاولت هذه الطائفة أن تعلق نسخ الشريعة الإسلامية بأحاديث نقلية رووها عن الإمام جعفر : منها أنه قال : لو قام قائمنا لعلمتم القرآن جديداً . وأنه قال : بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوى للغرباء .

كما أعلنت هذه الطائفة أيضاً أن الله جعل لمحمد بن إسماعيل جنة آدم ، ومعناها : الإباحة للمحارم وجميع ما خلق في هذه الدنيا . والدليل النقلى « فكلما منها رغداً حيث شئتم » وفي هذا إباحة للدنيا وإبطال لكل تحريم « ولا تقربا هذه الشجرة » أي موسى بن جعفر وولده من بعده ، من ادعى منهم الإمامة . ثم إن محمد بن إسماعيل هو خاتم النبيين « وما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » وأن الدنيا اثنتا عشرة جزيرة في كل جزيرة حجة ، وأن الحجج اثنا عشر ، ولكل حجة داعية ولكل داعية يد . واليد هو رجل له دلائل وبراهين يقيمها . ويسمى رجال تلك الفرقة الحجة الأب والداعية الأم واليد الابن . ويرى أبو خلف القمي أن عقائد هذه الفرقة الإسماعيلية تضاهي ثالوث النصاري : الله ومريم والمسيح .

وترى هذه الإسماعيلية أيضاً أن الفرائض والسنن التي أتى بها محمد ﷺ لها ظاهر وباطن « وأن جميع ما استعبد الله به العباد في الظاهر من الكتاب والسنة هي أمثال مضروبة وتحتها معان هي بطونها » وأن هذه البطون هي التي عليها العمل وفيها النجاة ، وأما الظواهر ففي استعمالها الهلاك والشقاء ، « وهي جزء

من العقاب الأدنى عذب الله به قوماً إذا لم يعرفوا الحق ولم يقولوا به» فالشريعة إذن عقاب يكلف به من لم يعرف إمام زمانه ، الذى يرفعها عنه . وقد تنبه النوبختي وهو يعرض لهذا المذهب إلى أن « هذا أيضاً مذهب عامة أصحاب أبى الخطاب »^(١) ونحن نعلم أن الخطائية رفعت عن أنفسها التكليف بأبى الخطاب .

هذه هى العقائد الباطنية الإسماعيلية الأولى أو بمعنى أدق هى تصور بقايا الخطائية لها مزيج من المسيحية الغنوصية والإسلام مع فيثاغورية محدثة تتلاعب بالأعداد ، وبخاصة العدد سبع والعدد اثني عشر .

وقد أسماهم فخر الدين الرازى بالسبعية ومذهبهم : أن الدور التام سبعة ، بدليل أن السموات والأرضين سبع وأيام الأسبوع سبع والأعضاء سبع والدور التام للأنبياء سبعة فالأول آدم ووصيه شيث والثانى نوح ووصيه سام ، والثالث إبراهيم ووصيه إسماعيل وإسحق الرابع موسى ووصيه هارون ، والخامس عيسى ووصيه شمعون والسادس محمد عليه السلام ووصيه على . والإمام الأول على والثانى الحسن والثالث الحسين والرابع زين العابدين والخامس محمد الباقر والسادس جعفر الصادق والسابع إسماعيل بن جعفر . والمقصود عندهم بالرسالة « أن يلحق الجفائيون من نوع الأنس بالروحانيين . فلما انتهت التوبة إلى محمد بن إسماعيل ارتفع التكليف الظاهر عن الناس »^(٢) .

غير أنه ينبغي أن نلاحظ أن هذه الفرقة ليست هى الإسماعيلية الأولى الخاصة ولا المباركة أو بمعنى أدق ليست هى الميمونة ولا المباركية . ولقد تنبه فخر الدين الرازى إلى هذا فوضع الفرقتين الأوليتين فى فرق الإسلام ، ووضح السبعية فى الفرق التى تتظاهر بالإسلام ، وليست مسلمة على الحقيقة . انتقل محمد بن إسماعيل إلى جوار ربه والعالم الإسلامى ، تنقذ فيه الآراء المتبانية فيها : الإسماعيلية الأولى ، والمباركية ، والإسماعيلية والخطائية . . . وتولى الإمامة الإسماعيلية من بعده ابنه عبد الله بن محمد بن إسماعيل المعروف بالرضى أو الناصر أو العطار ، وقام بحجته ميمون القداح لفترة قصيرة ، ثم توفى ميمون بعد أن أوصى بها لابنه عبد الله بن ميمون .

وسرى إلى أى حد تطورت العقيدة الإسماعيلية فى عهد هذا الإمام وعهد حجته وأنها أخذت تجمع وتلفق بين مختلف الآراء . وكيف صبغت محمد بن إسماعيل نفسه بصبغة الغنوصى . وكيف أخذت طريقها كدعوة مسلحة بالفلسفة اليونانية والغنوصية ، مكونة مزيجاً لا مثيل له فى تاريخ الإسلام الفكرى .

(١) أبو خلف القمى : كتاب المقالات ص ٨٥ ، والنوبختي : فرق الشيعة ص ٧٤ .

(٢) الرازى : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ٨٠ و ٨١ .

أما الإمام عبد الله الرضى ، فقد تتبع الدكتوران حسن إبراهيم وطه شرف في كتابهما الرائع عبيد الله المهدي ميلاد الإمام ورحلاته . ولد في نيسابور ، وتولى الإمامة الإسماعيلية سنة (١٦٩ هـ) وهو أول الخلفاء عند الإسماعيلية اسمه الحقيقي عبد الرحمن ولكنه تسمى باسم حجته عبد الله بن ميمون إمعاناً في التخفى ، بل اتخذ أبوه محمد بن إسماعيل له حججاً وحججاً ، وأمر كل واحد من هؤلاء الحجج والحجب أن يتسمى باسم الإمام «فن أخذ العهد على مستجيب سمي له أحد أولئك الحجب ، حتى يمضى الوهم إليه سراً على صاحب الأمر ، ولذلك صعب على الناس التفريق بين الإمام وبين حججه وحجبه ، وقد أدى هذا إلى أن رؤساء الدعوة في جزرها وبحورها ، أى في أقاليمها المتعددة كانوا يختلفون فيما بينهم في ذكر أسماء الأئمة وقد حفظ هذا الأئمة المستورين وجعلهم في منجاة من يد العباسيين . يقول الداعي إدريس : «وكان استتاره كظلمة الليل الشديد ، وذلك لما غلب الحق على الباطل ، ولشدة دولة الظلمة من آل العباس وعظم الريب والوسواس ، وكان لشدة استتار الإمام عليه السلام إذا أخذ أحد من حدود دينه العهد على مستجيبين لدعوته يقول له : وإنك سمعاً وطاعة لولى الأمر ، ولا يفوه باسمه ، وإذا ترشح في العلم ، وعلت فيه درجته ، وارتفعت منزلته ، كتب له اسم الحجب ولا يكشف له اسم إمامه ولا يبينه بإشارة ولا عبارة في كلامه إلا بحد قد بلغ الإطلاق» (١) . وأخذ الإمام عبد الله الرضى أو عبد الله الأكبر ينتقل من بلد إلى بلد فراراً من المأمون ، وكان المأمون يدرك خطر الدعوة الإسماعيلية فأراد أن يقضى عليها ، فقرب إليه الإمام على الرضا وعهد إليه بالخلافه بعده ، وتتبع الإمام عبد الله الرضى فقتل أغلب أسرته وأبنائه ، ولكن الإمام عبد الله تمكن من الوصول سالماً آخر الأمر إلى سلمية بالشام هو وابنه أحمد ، وكانت الدعوة قد نجحت فيها نجاحاً باهراً ، ولكنه بالرغم من هذا عاش هناك مدعياً أنه هاشمى ، ووجد دعائه وحججه مشقة كبرى في الوصول إليه . ولم يعرف عن الإمام عبد الله علم ظاهر ، أى أنه لم يظهر علمه لأحد ولا اطلع عليه ، ولا عرفه إلا حملة العرش ، القائمون بأمر الله أمناء خليفته وفضلاء حججه المنصوبون في دعوته ، والمقصود بحملة العرش هنا ، حججه وكبار دعائه .

وفي سلمية نص الإمام عبد الله الرضى على إمامة ابنه أحمد على مشهد من رجال دعوته . ثم انتقل بعد ذلك إلى بلدة مصياف حيث توفي بها عام ٢١٢ هـ .

وقام ابنه أحمد بالإمامة من بعده ، وقد أخذ أحمد أيضاً ينتقل من بلد إلى بلد . يقول الداعي نور الدين أحمد المتوفى سنة ٨١٧ هـ إن الإمام أحمد الملقب بأحمد التقي كان كثير التنقل في البلدان يحب

(١) الداعي إدريس : زهر المعاني ص ٥٩ وانظر أيضاً الدكتور حسن إبراهيم والدكتور طه شرف : عبيد الله المهدي ص ٤٢

التبشير بالدعوة بنفسه . فوضع الوكلاء والدعاة بمركز دعوته في سلمية وسار متنقلاً في بلاد الشام ، ثم انتقل إلى الرى وإلى همدان ثم إلى أذربيجان ومنها جاء إلى إستانبول حيث توفي فيها عام ٢٢٩ هـ .

ظهور رسائل إخوان الصفا :

وفي عهد هذا الإمام كانت الحركة العقلية الإسلامية قد بلغت مداها ، وقطعت الترجمة على علوم اليونان شوطاً كبيراً . وكان الخليفة العباسي المأمون وراء هذه الحركة العقلية الكبرى . وقد اختلفت التفسيرات والتعديلات لهذه الحركة ، وضعت لها الحلول المتناقضة . فالبعض يرى أن المأمون قام بها لأنه كان ملحداً عريقاً ، فنقل علوم اليونان إلى المسلمين . ويذهب الإسماعيلية إلى هذا الرأي . ويقول الداعي إدريس : إن المأمون أراد أن يظهر علم الهيئة ، ويجعل معرفتها الدين ، وأن للهيئة المبدأ والمعاد ، وعلى معرفتها الحساب والثواب والعقاب ، وليرى الحق الذي جاء به محمد ﷺ لا أصل له ، وأن الصحابة لما لم يتيقنوا ذلك ، عملوا بعلية السلام ما عملوا ، وأنهم في ذلك مصيبون ، وأن لا ذنب عليهم ولا عيب ينسب إليهم في قتل ذرية النبوة بما قتل من دماء قريش (١) .

ويذهب البعض الآخر من الباحثين من أمثال بيكر إلى أن السبب في نقل المأمون لعلوم اليونان هو أن يحارب المأمون الغنوص بفلسفة عقلية ، أراد أن يحطم الفلسفة الباطنية التي كان ينشرها الإسماعيليون بفلسفة تستند على العقل ، فطلب علوم اليونان - وبخاصة الفلسفة لتوقف هذا التيار الغنوصي . وبما يرجح هذا الرأي موقف المأمون وخلفائه من المعتزلة ، فقد احتضنوا المذهب العقلي المعتزلي ، وكانوا أمناء له ، بل جعلوه المذهب الرسمي للدولة . وأياماً كان الأمر ، فقد خاض الإمام الإسماعيلي أحمد ابن عبد الله بن محمد بن إسماعيل المعركة العقلية التي قامت في عصره ، وإليه ينسب وضع المذهب الإسماعيلي الباطني ، كما ينسب إليه تأليف رسائل إخوان الصفا المشهورة . ويقول الداعي البيني الإسماعيلي إدريس عماد الدين (توفي عام ٨٧٢ هـ) : « وقام الإمام التقي أحمد بن عبد الله بن محمد ابن إسماعيل بعد أبيه بأمر الإمامة ، وبث دعائه في الآفاق من سلمية ، واتصل به الدعاة ، ودعوا إليه ، وهم مخفون لمقامه كاتمون لاسمه . وكان المأمون حين احتال على علي بن موسى الرضا بن جعفر ظن أن أمر الله قد انقطع ، وحجته على الأرض قد ارتفعت ، فحين ظن المأمون العباسي ذلك الظن ، ووهم ذلك الوهم سعى في تبديل شريعة محمد ﷺ وتغيرها ، وأن يرد الناس إلى الفلسفة وعلم

(١) الداعي إدريس : زهر المعاني ٦٠-٦١ .

اليونانيين ، وخشى الإمام عليه السلام أن يميل الناس إلى ما زخرف المأمون عن شريعة جده ، فألف رسائل إخوان الصفا .

ويذكر في موضع آخر أن الإمام أحمد ألف تلك الرسائل لتقوم الحجة على المأمون وأتباعه حين انصرفوا عن علم النبوة ، ثم إن الإمام أمر أن تبث تلك الرسائل في المساجد ، فحين وقع عليها الناس ، رفعت إلى المأمون فعلم أنه لم يصنع شيئاً ، وأن إمارته من قطع حبل الإمامة لا يكون (١) . والدلائل كلها تشير إلى أن وضع هذه الرسائل كان في عهد الإمام أحمد سواء أكانت من وضعه أم بتوجيهه وأنها اعتبرت قرآناً بعد القرآن ، أو هي قرآن العلم كما أن القرآن هو قرآن الوحي ، أو هي قرآن الإمامة وذلك قرآن النبوة . وتعلق مختلف الدعاة بها ، واعتبروها حياً « قام الإمام أحمد بن عبد الله صلوات الله عليه بأمر الله ووحيه وهو الثاني من الخلفاء وحجته عبد الله بن ميمون وأحمد بن عبد الله ممثول النطقة في دورهم مقابل لنوح ثاني النطفاء ولجده الحسين بن علي ثاني الأئمة ، فنشر العلوم ظاهراً وباطناً ، وصنف الرسائل ، وجعلها على العلوم الأربعة (٢) » .

ويذهب الداعي الإسماعيلي شرف الدين جعفر بن محمد بن حمزة (توفي سنة ٨٣٤) إلى ما يأتي : « حتى هم المتسمى بالمأمون أن يرد الأمة إلى القول بالنجوم وقال : ما جاء محمد ﷺ إلا بناموس ملك به الناس . وحقيقة وأساس حتى أظهر ولي الله وابن رسول الله « رسائل إخوان الصفا » وفيها ما يميز فيه جميع العالم من العلوم في كل فن ، والاستشهاد على شريعة الرسول ﷺ . إن ذلك وهو في كهف التقية مستتر ، ودعائه الباكون مفرقون لتلك الرسائل في كل شهر وقطر . . فرجع اللعين عما هم به » (٣) .

ولاشك أن رسائل إخوان الصفا هي إسماعيلية ، سواء وضعها الإمام أحمد نفسه أم وضعها أتباعه تسودها الاصطلاحات الإسماعيلية وتنتشر فيها الآراء الباطنية ، مما يتسق دائماً مع المذهب الإسماعيلي . وقد جهد الأستاذ عارف تامر الإسماعيلي في محاولة إثبات هذا الاتجاه ، وتوصل خلال نشراته المتعددة المخطوطات الإسماعيلية إلى أن الرسائل قد وضعت في عهد الإمام أحمد . أرادت الإسماعيلية بوضع هذه الرسائل أن تثبت معرفة الأئمة بعلوم باطنية لا يعرفها سواهم ، ويبدو هذا من محاولة هذه الرسائل الإلزام بجميع نواحي الفلسفة الغنوصية من أفلاطونية محدثة وفيثاغورية مختلطة مع العقائد الإسلامية وقد أعلن إخوان الصفا « أن هذه الوصاية المخصوصة لأهل

(١) الداعي إدريس : عيون الأخبار ج ٤ ص ٢٩٩ .

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) ابن حمزة : الرسالة الموقظة ، وانظر أيضاً عارف تامر . حقيقة إخوان الصفا وخلان الوفاء ص ١٨ .

بيت الرسالة عليهم السلام ، لا يحتاجون فيها إلى مديري غيرهم وإلى علماء سواهم ولا يطلع الناس على أسرارهم ولهم علوم يتميزون بها وينفصلون عن العالم بمعرفتها وأعمال يعملونها لا يشركون فيها غيرهم » ، ثم دعوة الناس أن يأتوا باب العلم - وهو الإمام - قيل : يارسول الله من قال لا إله إلا الله دخل الجنة ؟ فقال نعم ، من قالها مخلصاً دخل الجنة ، قيل له : وما إخلاصها ؟ قال : معرفة حدودها وأداء حقوقها . فقيل يارسول الله : ما معرفة حدودها وأداء حقوقها ؟ فقال : أنا مدينة العلم ، وعلى بابها . فن أرادها في المدينة فليات الباب » .

ثم توضح إخوان الصفا المذهب السبعي ، ودورة السبعة في الناطقين من الأئمة : أعيادنا أيها الأخ هي أشخاص ناطقة وأنفس فعالة ، تفعل بإذن ربها ما يوحى إليها ويلهمها من الأفعال والأعمال » ثم يحدد إخوان الصفا هذه الأعياد أو هذه الأشخاص الناطقة كما يلي :

اليوم الأول : من هذه الأعياد بل أفضل الأعياد هو يوم خروج أول القائمين . ويكون اليوم الموافق لتزول الشمس برج الحمل وهو مجيء الربيع والخصب والنعمة ونزول الرحمة والظهور والانتشار وهو يوم فرح وسرور .

واليوم الثاني : هو يوم قيام القائم الثاني الموافق يوم قيامه يوم نزول الشمس أول السرطان في تناهي طول الليل وقصر النهار . وكان تصرم دولة أهل الجور وانقضائها ، وهو أيضاً يوم فرح وسرور وانتشار .

واليوم الثالث : هو يوم قيام القائم الثالث الموافق لتزول الشمس أو الميزان واستواء الليل والنهار ودخول الخريف وهي مقاومة الباطل الحق ، وكون الأمر على خلاف ما كان عليه .

واليوم الرابع : يوم الحزن والكآبة ، يوم الرجوع إلى الكهف ، كهف التقية والاستتار ، « فيكون الأمر على مثل ما نحن عليه في وقتنا إلى وقت البروز والخروج بعد الذهاب ، كرجوع الشمس بعد ذهاب الشتاء إلى برج الحمل (١) » .

ونحن سنرى أن النطقاء سبعة عند الإسماعيلية ، ستة وأساس ، وقد انتهت الدورة الأولى بمحمد بن إسماعيل ، وقد جمع قوى الأئمة الستة التي قبله ، فهو الأساس ونهاية الدور ، ثم أتى الإمام الثامن ، وهو قائم لأنه الأول في الدور الجديد ، وانتهى الدور الثاني بالإمام الفاطمي « المعز لدين الله » وهو أيضاً أساس وتمام للدور . ثم أتت الأعياد - العيد الأول بعد الدور الثاني - هو العزيز والعيد الثاني الحاكم بأمر الله ، وأما العيد الرابع فهو يوم الحزن والكآبة - يوم ذهاب الدولة الفاطمية حين توفي الإمام المستنصر ، ووقعت الفتنة ، وذهب الفرح والسرور ، وعاد الأئمة إلى كهف التقية والاستتار (٢) .

(١) رسائل إخوان الصفاء ج ٤ ص ٢٤٤ .

(٢) عارف تامر : ص ٢٢ .

أود أن أنتهى من هذا إلى أن الدلائل قاطعة بأن رسائل إخوان الصفا عمل إسماعيل بحت ، وكان يتخذ أداة لنشر الدعوة الإسماعيلية . ولن نعرض هنا لمحتويات رسائل إخوان الصفا الفلسفى . بل سنعمل هذا فى الجزء الرابع من كتابنا هذا الذى سيفحص نشأة الفلسفة بالمعنى اليونانى أو الغنوصى عند المسلمين ، ولكن ما أود أن أقوله الآن هو أن فلسفة هذه الرسائل ليست فلسفة إسلامية أصيلة ، إنما هى محاولة لمزج العقائد الإسلامية بغنوص أفلوطين ثم بغنوص الفينثاغورية الحديثة ، مع عملية توفيق . ليست فى هذه الوسائل أصالة فكرية تعبر عن فلسفة المجتمع الإسلامى ، كما تعبر عنها فلسفة أهل السنة والجماعة والمعتزلة والشيعة الإمامية والاثنى عشرية . إنها بلا شك محاولة فلسفية منسقة ولكنها بعيدة عن الروح الإسلامى وليست فيها أصالة ولا جدة .

ولكن السؤال الهام هو من الذى كتب الرسائل ، الإمام أم جماعة من حججه ؟ يذهب الداعى السورى الإسماعيلى نور الدين أحمد إلى أن الإمام أحمد هو الذى شرع فى كتابة هذه الرسائل ، ثم طلب من حرمه - ومعنى الحرم فى التعريف الإسماعيلى الدعاة الأربعة الذين يرافقون الإمام ، ويسمون الأبدال - وأمرهم بأن يكتبوا - كل من ناحيته ما عنده من علوم باطنية ، وأن يرسلها إليه . يقول زهر الدين : « ولما علم - أى الإمام - بما آلت إليه الشريعة فى العباسيين من الانحطاط والضعف ، شرع بتأليف كتاب « رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا » وهو كتاب وضعه لتأييد الشريعة والحقيقة معاً ، وقد أمر حدوده الأربعة الحرم (ويسمى هؤلاء كما قلنا الأبدال ، وأفضلهم يسمى الباب) وكان مقرهم فى سلمية وهم أقرب الحدود إليه - أن يكتبوا ما ينصه عليهم ، ويصل منه إليهم ، فأخذ كل واحد بكتابة ما يشير به عليه من العلوم ، أو يرسله إليه إذا كان غائباً فى مكان بعيد ، حتى جاء عدد رسائل الكتاب مطابقاً لعدد ركعات الصلوات الفريضة والسنة والنوافل » .

واضح إذن من هذا المصدر الإسماعيلى أن الإمام كلف أبدال الأربعة بكتابة هذه الرسائل ، وكانت ترسل إليه ، فيراجعها . ولكن من هم هؤلاء الأبدال الأربعة ؟ يقول الداعى ابن زهرة : « فلما انتقل محمد بن إسماعيل إلى دار البقاء تسلمها ولده المستور . وهو أول من ستر نفسه عن الأضداد من أهل عصره المخالفين ، لأن زمانه كان زمان فترة ومحنة ، وكان المتغلبون من ولد بنى العباس يطلبون من يشار إليهم حسداً وبغضاً لأولياء الله تعالى ، فأوجب ذلك الاستتار المعروف للأئمة ، وكنيت الدعاة بأسمائهم تقية عليهم مما هم فيه ويليق بهم ، وتاهت فيهم أولو الضلال ، حتى قالوا إن الإمام من ولد محمد بن إسماعيل هو عبد الله بن ميمون المعروف بقداح الحكمة وزيد الهداية . وزعم البعض أنه عبد الله بن المبارك أو عبد الله بن سعيد بن الحسن أو عبد الله بن حمدان ، وأن هؤلاء الأربعة قد

اجتمعوا مع غيرهم ، وصنفوا رسائل طويلة في شتى العلوم والفنون وعددها اثنان وخمسون رسالة^(١) هؤلاء هم الدعاة الذين صنفوا رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا لتكون سلاحاً بين يدي الإسماعيلية يحاربون به العباسية .

عبد الله بن ميمون القداح :

ونحن نلاحظ أن اسم عبد الله بن ميمون القداح يظهر هنا ، واحداً من الحرم ، وهو أفضلهم فهو الباب ، باب مدينة العلم ، علم الإمام ، كعلی للرسول . وعبد الله بن القداح الأول - ميمون - شخصية من أغمض شخصيات التاريخ الإسلامي كوالده . اختلط أيضاً اسمه وزمانه باسم والده وزمانه ، فهو خادم أيضاً للباقر وللصادق ورواية الحديث لهذا الأخير . واختلط اسمه بمحمد بن إسماعيل ، فهو هو محمد بن إسماعيل عند البعض ، وهو متحل لشخصيته . واختلط اسمه بالإمام عبد الله الرضى ، فهو هو عبد الله الرضى أو هو متحل لشخصيته .

أما أهل السنة والجماعة ، وروايتهم ينبغي أن تؤخذ بحذر فأول رواية لهم عنه ، يقدمها لنا ابن التديم في الفهرست عن أبي عبد الله بن رزام أقدم مؤلف سنى كتب كتاباً في الرد على الإسماعيلية وكشف مذهبهم ويورد نصوص ابن رزام وبرا من العهدة في الصدق عنه والكذب فيه وأما هذه النصوص فهي : « إن عبد الله بن ميمون ويعرف بميمون القداح ، وكان من أهل قوزج العباس بقرب مدينة الأهواز - وأبوه ميمون الذى ينسب إليه الفرقة الميمونية التى أظهرت أتباع أبى الخطاب محمد بن زينب الأسدى الذى دعا إلى إلهية على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وكان ميمون وابنه ديصانين وادعى عبد الله أنه نبي مدة طويلة ، وكان يظهر الشعابيد ، ويذكر أن الأرض تطوى له ، فيمضى إلى أين أحب في أقرب مدة وكان يخبر بالأحداث الكائنة في البلدان الشاسعة وكان له مرتبون في مواضع يرغبهم ويحسن إليهم ويعاونون على نواميسه ، ومعهم طيور يطلقونها من المواضع المنفرقة إلى الموضع الذى فيه بيت عبد الله ، فيخبر من حضره بما يكون ، فيتموه ذلك عليهم »^(٢) .

هذه هي أقدم رواية من كاتب سنى عن عبد الله بن ميمون القداح . ثم أخذها البغدادي صاحب الفرق بين الفرق ، وذكرها - ولكنه يخلط بين عبد الله وأبيه ميمون . يقول : « إن الذين أسسوا دعوة الباطنية جماعة منهم : ميمون بن ديصان المعروف بالقداح . وكان مولى لجعفر بن محمد الصادق . وكان من الأهواز ومنهم محمد بن الحسين الملقب بدندان . اجتمعوا كلهم مع ميمون بن ديصان في

(١) الداعي ابن زهرة : رسالة الأصول والأحكام في خمس رسائل إسماعيلية ص ١٢١ .

(٢) ابن التديم : الفهرست ص ٢٧٨ .

سجن وإلى العراق ، فأسسوا في ذلك السجن مذاهب الباطنية ، ثم ظهرت دعوتهم بعد خلاصهم من السجن من جهة المعروف بدندان ، وابتدأ بالدعوة في ناحية تور ، فدخل في دينه جماعة من أكراد الجبل مع أهل الجبل المعروف بالبدين ، ثم رحل ميمون بن ديسان إلى ناحية المغرب ، وانتسب في تلك الناحية إلى عقيل بن أبي طالب وزعم أنه من نسله ، فلما دخل في دعوته قوم من غلاة الرفض والحلولية منهم ، ادعى أنه من ولد محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، فقبل الأغبياء ذلك منه على جهل منهم بأن محمد بن إسماعيل بن جعفر مات ولم يعقب عند علماء الأنساب (١) .

انتشرت رواية ابن رزام ، ثم البغدادي ، كما ردد الكثير من هذا الغزالي . نحن أمام رواية تمثل لنا الرجل على أنه ديصاني ثنوي ، شعوي خطير ، مزور مغتصب ، مؤسس للمذهب باطني يحاول به هدم الإسلام مع مجموعة من موالى العجم . وأنه - كما فعل أبوه من قبل - اتخذ التشيع ، في صورة شاذة لا صورة معتدلة ستاراً يخفي به عداوته الضارية للإسلام .

وقد أورد التويري في نهاية الأرب أن الرجل كان ضاغناً حتى على العلويين أنفسهم بحيث كان يقول لدعاته « ولا ترحم علويًا ، فلو تمكن علوي كتمكين غيره من الأنبياء للقينا منه جهداً ، وغيره بما يدعيه من حقوق جده على هؤلاء الحمير بما هو أكثر مما غيره جده وإياك والإغضاء عمن تجده من ولد على : يعني اقتله إذا تمكنت من قتله » .

بل يذكر مؤرخو السنة أن عبد الله بن ميمون انقلب على المذهب الإسماعيلي نفسه والشاهد على هذا ما يذكره أبو العلاء المعري من أن عبد الله كان يقول :

هات اسقني الحمرة يا قنبر فليس عندي أننى أنشر
أما ترى الشيعة في فتنة يفرها من دينها جعفر
قد كنت مغروراً به برهة ثم بدا لي خبر يستر
وأنه كان يقول :

مشيت إلى جعفر برهة فألفيته خادعاً يخلب
يجر العلاء إلى نفسه وكل إلى حبله يجذب
فلو كان أمركم صادقاً لما ظل مقتولكم يسحب
ولا عض منكم عتيق ولا سما عمر فوقكم يخطب (١)

ومن العجب أن يأتي الذهبي في ميزان الاعتدال - وهو من كتب نقد الرجال فيذكر عبد الله بن ميمون القداح المكي ، وأنه كان مولى لجعفر الصادق - وأنه كان محدثاً موثقاً به في كثير من روايات

(٢) المعري : رسالة الغفران ص ١٥٦ .

(١) البغدادي : الفرق ص ١٩٦ .

الحديث . ويذكر الذهبي أسماء بعض من رووا عنه الحديث (١) فهل حدث هذا في حياة جعفر وقبل أن يتحول الرجل من عقيدته الإمامية إلى الإسماعيلية ؟ وأبو العلاء نفسه يذكر أنه كان محدثاً إمامياً في أول حياته ثم انقلب غالياً .

ويقابل هذا روايات الشيعة : اثني عشرية وإسماعيلية .

أما الروايات الإمامية فتجمع على أنه كان من موالى جعفر الصادق ومن محدثيه . كما ذكروا أنه صنف كتابين هما مبعث النبوة ، وصفات الجنة والنار وأنه كان محدثاً اثني عشرياً ، ومات على ولاء لموسى الكاظم وهذه الأخبار كما قلت - تنطبق على ميمون أيضاً ، بل إن القول بأنه - أى ميمون وابنه عبد الله - كانا على ولاء ووفاء لموسى الكاظم لا يقدح إطلاقاً في ولايتهما للإمام محمد بن إسماعيل فلا شك أن ميموناً كان من خواص جعفر الصادق ، وقد أحبه وأحب أبناءه جميعاً . ولكنه اختص بإسماعيل وأولاده . ونستخلص من هذا أن الروايات الإمامية الاثني عشرية لا يمدنا بشيء واضح عن عبد الله بن ميمون ، اللهم إلا مصدراً واحداً - هو تبصرة العوام الذى يذكر أن عبد الله بن ميمون غصب الإمامة من أبناء محمد بن إسماعيل ثم دعا لابنه لا لنفسه « وهذا هو النص الذى أورده الدكتور حسن إبراهيم ولم يتنبه إلى أهميته . إنه الدليل القاطع على أنه كان لمحمد بن إسماعيل عقب وذرية . أما اغتصاب عبد الله بن ميمون للإمامة منهم ، فإنه موضع نظر . إنه - كحجة الإمام - تسمى باسم الإمام ، حتى يحافظ على سلامته ويجعله في مأمن كامل في كهف الاستتار .

إن هذه النصوص والروايات تقربنا إلى حد ما من الحقيقة . إنه ابن ميمون القداح ، أو هو القداح الثانى ، ورث القداحة عن أبيه ، وكان راوية لجعفر الصادق ولم يكن حجة لمحمد بن إسماعيل ، ولم يتخذه أبوه ميمون بديلاً لابن محمد بن إسماعيل حين مات هذا الأخير ، بل سلمه أبوه أمانة الدعوة بعد أن بقى الأب حجة مدة قصيرة لعبد الله الرضى . فلما مات الأب ، ورث الابن رتبة حجة الإمام ، وكان أحد الدعاة الحرم الأربع ، وكان باب الإمام . وسار بالدعوة سيراً حثيثاً ، مستخدماً كل أداة يراها ، وكل مجموعة يقابلها .

لا شك أن الشعبية والمجوسية كانت تطل برأسها . يقول ابن رزام « قد كان قبل بئى القداح قريب ممن يتعصب للمجوس ودولتها ، ويجتهد لردّها في أوقات ، منها بالمجاهرة ومنها بالحيلة سرّاً . فأحدثوا ذلك في الإسلام حوادث منكّرة » ويرى ابن رزام أن أبا مسلم الخراسانى رام ذلك وعمل عليه ، فاخترم ذلك ، وأظهر وكاشف بابك الحرمى .

وفي خلال دعوة عبد الله بن ميمون ، ومحاولاته المستميتة في جذب أية مجموعة من الناس للبيعة

(١) الذهبي : ميزان الاعتدال ج ٢ ص ٨١ .

لإمامه قابل الشعوى الخطير الثرى محمد بن الحسين كاتب أبى دلف والمشهور بدندان . وكان هذا الرجل فيما يذكر ابن رزام - متفلسفاً حاذقاً بعلم النجوم شعوبياً شديداً الغيظ من دولة الإسلام» ويذكر ابن رزام مذهبه وهو إثبات النفس والعقل والزمان والمكان والهيولى - أى مذهب القدماء الخمسة - وقد نسب هذا المذهب إلى الصابئة الحرنانية ، وهو فى الحقيقة مذهب أفلاطونى ، كان يدين به أيضاً محمد بن زكريا الرازى . وكان دندان يرى أن للكواكب تدابير روحانية ، وأنه وجد فى الحكم النجومى انتقال دولة الإسلام إلى دولة الفرس ودينهم المجوسية وكان يرجو أن يكون رجل الفرس ^(١) ، فلما قابل عبد الله بن ميمون أراد كلا الرجلين استخدام الآخر ، هذا للمجوس ، وذلك للإسماعيلية ، فأعطى عبد الله بن ميمون مليونى دينار . ولكنه ما لبث أن مات ، وسار عبد الله بن ميمون بدعوته . ولكن ماسينيون وبرنارد لويس أثبتا تهافت هذه القصة . فإن محمد بن الحسين الملقب بدندان قد توفى حوالى عام ٢٥٠ هـ ، فلا يمكن إطلاقاً أن يتصور معاصرته أو مقابلته لعبد الله بن ميمون . ويرى ماسينيون أن دندان هذا كان من المواليين للحركة الإسماعيلية ولكنه لم يكن أبداً من أصحاب عبد الله ^(٢) . ورأى عبد الله بن ميمون العباسيين يتبعونه ، وبعد رحلات متعددة عاد إلى سلميه يعيش فى حمى الإمام المستور أحمد بن عبد الله حتى مات فى عهد هذا الإمام .

كان العمل الأكبر الذى قام به عبد الله بن ميمون هو الدعوة للإمام الإسماعيلى وكان أجل دعائه ولذلك حظى - كما قلنا - برتبة الباب . ولكن هل وضع عبد الله بن ميمون أصول المذهب . لقد رأينا من قبل أنه شارك فى وضع رسائل إخوان الصفا ، ولكنه لم يكن منفرداً ، بل شاركه ثلاثة آخرون . وتم العمل تحت إشراف الإمام أحمد ، بحيث نسب إليه عند الكثيرين من المؤرخين . وكذلك يدولى أن أساليب الدعوة نفسها كانت عملاً مشتركاً أيضاً ، وكذلك تكوين العقائد الإسماعيلية نفسها التى يدعى إليها . وإذا كان للقداح الجانب الأكبر فلم يكن الأئمة سلبين إطلاقاً ، بل كان الإمام أحمد خاصة هو اليد المحركة للدعوة ولوضع الأفكار الإسماعيلية . أما القول بأن عبد الله بن ميمون القداح قد وضع أساليب الدعوة فى يده ، ثم رسم العقيدة الإسماعيلية بنفسه ، وأنه فعل كل هذا لكى يضع الدعوة فى يده ثم يتولى الإمامة هو وأولاده فلا ظل له من الحقيقة . إن الرجل وأباه من قبل وأولاده من بعده كانوا مخلصين للبيت الإسماعيلى أعظم إخلاص ، تفانوا فى حب إسماعيل وأولاده ونرى «أخو محسن» - وهو عدو للإسماعيلية والبيت القداحى - وقد اتهم عبد الله بن ميمون بأشد التهم ، واعتبره خارجاً مارقاً على الإسلام ، إلا أنه كان يؤكد دائماً ، أنه كان مخلصاً لأئمة الإسماعيليين .

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٢٨١ .

(٢) لويس : أصول الإسماعيلية ص ١٥٨-١٥٩ .

انتشر عبد الله بن ميمون ورجاله - يدعون إلى الإمام الإسماعيلي ، والإمام في «كهف السر» لا يعلم اسمه إلا الأقربون الدعاة الحرم الأربعة والإمام «حى» «موجود» في انتظار التفاف المسلمين حوله لكي يظهر من دور الاختفاء ليملا الأرض عدلاً ، بعد أن ملأها الظلمة من آل أمية وآل عباس جوراً وفجراً . والإمام المستورد من «آل محمد» أنوار البرية ونجومها ، نجوم السموات ، وأمان أهل الأرض .

وجد عبد الله بن ميمون الحقل المريع الغالى . من أنصار أبي الخطاب الأسدى ثم المنصورية : أتباع الحسين بن أبى منصور العجلي ، ثم الكيسانية وفروعها . ثم الأبي مسلمية ، وبقايا الثورة المقلية ، كانت الفلول الضاغطة الحاكمة تتلمس قيادة جديدة ونقطة ارتكاز جديدة ، تنقض بها على عدوها الحاكم ، ثم قام بابك الخرمى بأعنف الثورات في تاريخ الإسلام ، وقضى بعد عناء على ثورته . وقد عاصر عبد الله بن ميمون كل هذه الحركات وقد تخلف عنها اتجاه جديد هو الاتجاه الشعبي وفي سهولة نادرة وبعين حذرة وضع عبد الله بن ميمون يده في أيدي هؤلاء الشعبيين المتلمسين الفرص ، أى فرصة كانت للقضاء على العرب والإسلام جميعاً . واتخذ المذهب الإسماعيلي «التصوف» ستاراً له فكان الدعاة يستترون بالزهد وبالتقشف ويظهرون في صورة الصوفى الغارق في تأملاته . ومن الصعوبة بمكان تحديد الأثر والمؤثر هنا . هل أثر التصوف في الإسماعيلية ، فاستمد الدعاة منه بعض أساليبه . أم أثرت الإسماعيلية في التصوف فحاكاها وأخذ منها مصطلحاتها ؟ وما زال الباحثون حتى الآن وراء الآثار الإسماعيلية في فلسفة ذى النون المصرى . أو الحسين بن منصور الحلاج . إنه من الثابت أن دعاة الإسماعيلية - وعلى رأسهم عبد الله بن ميمون - قد استخدموا التصوف الفلسفى كأداة في دعوتهم . وكان السحر والشعوذة والنيرنجات منتشرة في أوساط الغلاة ، فكان على الدعاة أيضاً إتقانها واستخدامها ، حتى يموهوا على عوام الناس كما استخدموا أيضاً الحيل الهندسية . وما لا يسر غوره الجماهير الغافلة . استخدم الدعاة كل شيء كان في متناولهم حتى الفلسفة اليونانية ، وبخاصة الجزء الخاص منها بالأسرار فلسفة أفلاطون وفلسفة الفيثاغورية الحديثة . بل استخدم الدعاة الإسماعيليون المذهب المعتزلى ، فدخل أيضاً في أعماق المذهب الإسماعيلي مزيج غريب من الآراء والمعتقدات أراد به الدعاة أن يشبعوا رغبات ومعتقدات المزيج الغريب من البشر الذى حاولوا جذبه إلى موالاة الإمام الإسماعيلي . وقد حدث هذا كله في سرية لم يعرف لها التاريخ مثيلاً . وقد دعا هذا إلى تعدد أسماء المذهب الإسماعيلي ، فهو المذهب الباطنى ، وهو الحرمية وهو السبعية ، وهو الفارسية القديمة ، وهو الغلو الشيعى ، وهو الخطابية والمباركية . وهو فعلاً مزيج من هذا أو بمعنى أدق كان هو كذلك في دور الاستتار فلما ظهر الإمام ، في مغرب الأرض باسم عبيد الله المهدي . قدم للناس مذهباً إسماعيلياً فقط ، أى موالاة الإمام الإسماعيلي باسم الإسلام .

ولقد استند المذهب في دور الستر - كما استند في دور الظهور - على التأويل الباطني للقرآن . أعلنت الإسماعيلية أن للقرآن ظاهراً وباطناً ، وأن الأخذ بالظاهر فقط دون الباطن ، خروج على روح الإسلام . وبهذا المنهج استطاعوا تفسير القرآن وتأويله طبقاً لما يريدون . فالسماوات السبع والأرضون السبع إشارة إلى الأئمة السبعة ، والمدبرات أمراً - ليست هي الكوكب والنجوم ، وإنما هي إشارة إلى الأئمة . وقول الله « إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين . ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم » هي « جعل صفوة الصفوة من العالمين الجسماني النطقاء السبعة آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد والقائم صلوات الله عليه وجعلهم أصحاب شرائع وأحكام وحلال وحرام ، ثم جعل بين هؤلاء النطقاء الستة آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ثلاثين نبياً مرسلين ومبشرين ومنذرين ، ما شرعوا شريعة ولا حولوا قبلة ولا بدلوا أحكاماً ، غير أنهم متبعون لما جاء به النطقاء صلوات الله عليهم ، وعلى الأئمة من ذريتهم » ثم جعل الإسماعيليون بين الناطق السادس وبين القائم السابع - أي محمد بن إسماعيل - أئمة ظاهرين - هم على والحسن والحسين وعلى ومحمد وجعفر ، وإسماعيل . وهؤلاء لم يغيروا ولم يبدلوا شريعة وهم يشبهون النطقاء الخمسة قبل محمد ﷺ . وقد قال القرآن : « ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم » ، فقال النبي ﷺ : « لم يؤتني أحد قبلي ، ثم جعل منها الأنبياء والأئمة في كل عصر وزمان أربعاً وعشرين حجة ظاهرة ومثلها اثنتا عشرة حجة باطنة ، ثم مراتب الإيمان وهي المؤمن والمؤمن والمأذون والمباح والحجة ، فذلك تسعة وتسعون حجة - عدة تفسير أسماء الله الحسنى (١) » هكذا فسر الإسماعيلية أسماء الله الحسنى ومن عرف هذه الأسماء الحسنى أي من عرف الأنبياء الناطقين والأئمة الناطقين رفع عنه التكليف - وهذا ما لم يناد به الإسماعيلية ، ولكنهم غضوا البصر عنه وهم في دور الستر ، جذباً للأتباع ، وقد أدى إلى أفظع النتائج.

العقيدة الإسماعيلية في دورها الباطني :

لم تسنح الإسماعيلية الألوهية أبداً على الأئمة لقد حارب الإسماعيليون الغلاة الذين ألخوا أو اعتبروا الإمام إلهاً وأعلنوا أن الأئمة عباد مخلوقين . وكائنات مربية ، خلقوا من الطين ولكنهم من طينة أسمى من البشر . واختارهم الله اختياراً أزلياً ، حجة على الخلائق . ثم استخدموا في الدور السري فكرة العقول الأفلوطينية المحدث في براعة نادرة حتى يحققوا فكرة السبعة . فأروا أنه يتحكم في الكون دائماً سبع أي سبعة من الناطقين : آدم ونوح وموسى وعيسى ومحمد وعلى وينتهي الدور بالقائم محمد بن إسماعيل . هؤلاء السبعة هم السبعة الناطقون الذين تجلى

(١) القاضي النعمان : (في خمس رسائل إسماعيلية) ص ٣٧ .

فيهم العقل الكلي الموجود ولم يخل العالم في فتراته المختلفة بين كل ناطق وناطق من موجودات أو كائنات ، تقوم مقام الناطقين ، وتملأ تلك الفترات ، وفيهم أيضاً أعظم مظاهر تجلي العقل الكلي في نظام بديع وتسلسل فذ . وكل قائم من هؤلاء القائمين يفيض عليه ما فاض على من سبقه ، فهو المظهر الأكمل لكل رسالة سبقته أو نبوة أو علم . وكل ناطق يحمل ما حمله من قبله من ناطقين وقائمين حتى يصل إلى أكمل الصور الكونية . وانتهت دائرة الناطقين الأولين بمحمد بن إسماعيل ، انتهى دور هؤلاء السبعة ، ليبدأ دور السبعة المستورين ، وهكذا دواليك .

لم يعلن الإسماعيليون أبداً أن محمد بن إسماعيل نبي أو أنه أتى بدين جديد ينسخ به الشريعة المحمدية . ولكنهم أعلنوا أنه الولي القائم الذي أتى ليفسر القرآن باطنياً ، أتى بالتأويل . أما دوائر أهل السنة والجماعة فترى أن الإسماعيلية تصل إلى أفقع النتائج التي يمكن أن ترتبها على فكرة الفيض . الفيض دائم وباق ومستمر ، ودائرته لم تغلق على الإطلاق ، وفي لغة دينية بسيطة لم يكن محمد ﷺ في المذهب الإسماعيلي خاتم النبيين ولا آخر من يمثل اكتمال الوحي الإلهي - كما يعلن أهل السنة والجماعة . وبهذا رأوا أن الإسماعيلية في صورتها الفلسفية قد ابتعدت عن الإسلام ابتعاداً كلياً وانتهت إلى مذهب في المعرفة يتصل بالخصوصيات المتعددة المنتشرة في العالم الإسلامي وبخاصة غنوص الأفلاطونية المحدثة . ولذلك نرى أهل السنة والجماعة يعتبرون الإسماعيلية من المذاهب الخارجة عن الإسلام ، ويعرضونها تحت اسم الباطنية - فيرى الشهرستاني^(١) أنهم في الحقيقة قرامطة ومزدكية في العراق ، وبخراسان التعليمية والملحدة وهم يقولون نحن إسماعيلية لأننا تميزنا عن فرق الشيعة بهذا الاسم وبهذا الشخص .

وقد قلت من قبل إن الإسماعيلية ليست مزدكية على الإطلاق وليست ثانوية وإنما هي مذهب فلسفي أخذ يتضخم شيئاً فشيئاً ، مبتعداً عن روح الإسلام السني وعن روح الإسلام الاثني عشرى ، وقد عرضنا صوراً منه وسنعرض الآن لتطوره في صورة أكثر فلسفة ، ويعتبر الشهرستاني هذه الصورة هي صورة الباطنية القديمة : وهي هي الإسماعيلية في صورة أكثر عمقاً . لقد تنبه الشهرستاني إلى تطور المذهب الإسماعيلي وأخذ بصور متعددة فقال « وكانت لهم دعوة في كل زمان ومكان جديدة بكل لسان »^(٢) .

ذهبت الباطنية القديمة ، إلى أنه لا يمكن أن تخلو الأرض من إمام حي قاهر ، وهذا الإمام إما أن يكون ظاهراً مكشوفاً ، وإما باطناً مستوراً ، وإذا كان الإمام مستوراً ، فلا بد أن يكون حجته ودعائه ظاهرين .

(١) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٣٣٥ ، ٣٣٦ . (٢) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٣٣٢ ، ٣٣٣ .

وتدور أحكام الأئمة عند الباطنة على سبعة : أى أن أدوار الإمامة سبع ، وأن السابع هو آخر الدور ، والدور الأول انقضى بإسماعيل بن جعفر وابتدأ الدور الثانى بمحمد بن إسماعيل . والدور يَم بسبعة بعد الناطق - وهو الرسول محمد ﷺ . ويبتدئ بالأساس وأساس الناطق هو الوصى على بن أبى طالب ، ثم من القائمى بعد الأساس ، فتنقضى هذا الدور تلاه دور آخر فيه ناطق ناسخ لشريعة من قبله وأساس ، يتلوهم أئمة ، ثم كذلك إلى ما لا انقضاء له ولا نهاية .

أما عدد النقباء فاثنا عشر . وقد أخطأت الإمامية القطعية - أى الاثنا عشرية - حيث قرروا عدد النقباء للأئمة . وهنا خلاف بين مع الإمامية الاثنى عشرية . ثم يقررون « إن من مات ولم يعرف إمام زمانه ، مات ميتة جاهلية ، وكذلك من مات ولم يكن فى عنقه بيعة إمام مات ميتة جاهلية . أما نظريتهم فى الألوهية فهى نظرية كلامية تثبت تمام الإثبات أن الإسماعيلية تؤمن بوجود إله واحد على طريقة إسلامية ، وقد نقل إلينا تقي الدين بن تيمية طريقتهم فى التدليل على وجود الله وموقفهم من الصفات عن كتاب مفقود اسمه الأقاليد الملكوتية لأبى سليمان السجستانى المعروف بالمنطقى ، وقد اعتبره إسماعيلياً وقرمطياً . ثم ظهرت المخطوطات الإسماعيلية التى نشرت حديثاً . وفيها أيضاً نفس الفكرة فى نظرية الصفات التى عرضها ابن تيمية عن السجستانى . وقد حاولت الإسماعيلية أن تنزه الله عن النقي والإثبات . وقد كان منهج الباقر ، ثم منهج الصادق بعده . وهاكم ملخص فكرة الإسماعيلية فى هذا الدور الناضج من أدوار حياتها .

الله واحد قدير عالم . . . إلى آخر تلك الصفات . هو لا موجود ولا لا موجود لا عالم ولا جاهل ، لا قادر ولا عاجز ، وفكرتهم فى ذلك أن الإثبات الحقيقى يقضى شركة بينه وبين سائر الموجودات فى الجهة التى أطلقت الصفة فيها عليه ، وهذا تشبيه عند الباطنية ، أنهم نزهاوا الذات الإلهية عن الحكم بالإثبات المطلق ، كما أن النقي إنما هو سلب صفات عن الله ، ولا يجوز أن يوصف الله بالسلب ، أى لا يجوز أن يحكم عليه بالنقي المطلق ، فهو إله المتقابلين وخالق الخصمين والحاكم بين المتضادين ، أو بمعنى أدق تعلق الذات الإلهية عن كل صفة وعن سلب هذه الصفة ، أو تعلق عنها سلباً وإيجاباً ، أى نفيًا وإثباتاً^(١) .

حاول ابن تيمية أن يحلل المسألة تعليلاً منطقياً طريفاً ، وهو ينقل إلينا نصوصاً على جانب كبير من الأهمية من هذا الكتاب : الله لا يوصف بالنقي ولا بالإثبات ، فهو لا ! ولا لا ! ، فإذا رجعنا إلى القانون المنطقى البديهي ، قانون عدم التناقض نجد أن أباً سليمان السجستانى الباطنى قد تنكب هذا الطريق ، وبمحادثة البديهيات أمر لا يستسيغه عقل إنسانى .

(١) ابن تيمية : العقيدة الاصفهانية ص ٧ و ٢١ .

وكان أبا سليمان السجستاني لديه الرد الكامل على ابن تيمية إذ ذكر «إننا لم نجتمع بين متناقضين بل رفعناهما (١)». وثمة فرق بين الجمع المتناقضين وبين رفعها ، إن كان الأول غير ممكن عقلاً وفعلاً ، ويبدو أن أبا سليمان السجستاني ، وقد فهم ابن تيمية هذا أيضاً ، غلط ، أو لم يفهم الأمر ، فقد كان من قوانين اليونان التي عرفها المسلمون أن النقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان فقانون الثالث المرفوع قانون منطقي ، لا شك في ذلك ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى إن قانون الثالث المرفوع هو الصيغة الشرطية لقانون عدم التناقض ، وعلى أي حال نجد الباطنية في فكرتهم عن الصفات الإلهية قد خرجوا خروجاً واضحاً على قانون من بديهيات المنطق الأرسططاليسي ، وبدل هذا على عبقرية عقلية ناضجة وقد شعروا بهذا الخروج ، وهذا دليل واضح على أن الخروج على تلك القوانين في العالم الإسلامي كان أمراً مستساغاً ، ونحن نرى هذا الخروج عند المعتزلة ، وعند مفكرى أهل السنة والجماعة كإمام الحرمين وأبي بكر الباقلاني في مبحث الحال المشهور - صفات الله هي صفات وراء الذات لا موجودة ولا معدومة .

المهم أننا نرى مفكراً كابن تيمية ، وهو يتلمس جميع الحجج لمهاجمة الباطنية ، يلجأ إلى المنطق اليوناني وهو عدوه الأكبر فيعرض عليه منهاجاً باطنياً في الاستدلال ويبين تهافته تهافتاً تاماً ، وإذا ما هاجم طائفة أخرى من طوائف المسلمين في خروجها على هذا المبدأ ، أعلن أنهم يشبهون بالباطنية في هجائهم على بديهيات المنطق الأرسططاليسي .

أما كيفية نسبة صفة من الصفات إلى الله فيتخلص منها الباطنية بتحليل لطيف نسبوه إلى الإمام محمد بن علي الباقر : لما وهب الله العلم للعالمين قيل هو عالم ، ولما وهب القدرة للقادرين قيل هو قادر ، فهو عالم وقادر بمعنى أنه وهب العلم والقدرة ، لا بمعنى أنه قام به العلم والقدرة . ولذلك هاجمهم أهل السنة والجماعة بأنهم نفاة للصفة الحقيقية ، وبأنهم معطلة لذاته عن جميع صفاته . وقد تناول نفهم صفة القدم ، فقالوا : إنه ليس بتقديم ولا محدث بل القديم أمره وكلمته ، والمحدث خلقه وفطرته (٢) .

كيف أبدع الخلق ؟ هنا نجد الباطنية يتجهون إلى الأفلاطونية المحدثة يلتمسون منها أساساً لفكرتهم ، أبدع الله أول الأمر العقل الأول ، والعقل الأول تام بالفعل ، ثم بتوسط هذا العقل أبدع النفس ، والنفس غير تامة ، ونسبة العقل إلى النفس نسبة النطقة إلى تمام الحلقة . ولما اشتاقت النفس إلى كمال العقل احتاجت إلى حركة من النقص إلى الكمال ، والحركة تحتاج إلى وسيلة ، فوجدت وسيلة ، أوجدت ، وهي الأفلاك السماوية ، وتحركت حركة دورية بتدبير النفس .

(١) ابن تيمية : المقيدة الاصفهانية ص ٧-٢١ . (٢) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٣٣٦ .

ننزل درجة في سلم الموجودات ، فحدثت الطبائع البسيطة بعد حدوث الأفلاك ، وتحركت هذه الطبائع بفعل النفس فتركبت عن تلك الحركة المركبات من المعادن ، والنبات والحيوان والإنسان ، والحركة فيما نعلم كثرة وتعدد ، وفاضت من النفس نفوس جزئية سرعان ما اتصلت بالأبدان ، وهنا كان نوع الإنسان وحده متميزاً بالاستعداد لفيض الأنوار العليا عليه ، لأن مادته من مادة النفس العاشقة التي تتجه نحو المعشوق بحركات مختلفة تتفاوت كمالاً ونقصاً ، ولا بد أن يكون في هذا العالم الأرضي ما يقابل نظام العالم الكلي الكوني .

ينبغي أن يكون ثمة عقل ونفس ، أما العقل فهو عقل شخص هوكل ، أما حكم هذا الشخص إذا ما حاولنا أن نضعه في لغة أرضية نفهمها فهو حكم الشخص الكامل البالغ ، هو الناطق ، وأسماه أهل الشريعة النبي ، أما النفس فهي نفس مشخصة ، هي كل أيضاً ، حكمها هو حكم الطفل الناقص الذي يصبو إلى الكمال ، أو حكم النطفة التي تتجه إلى النضج والتمام ، وأسماه الباطنية الأساس ، وهو ما يقابل عند جمهور الشيعة الوصي ، فالناطق إذن ، والأساس في العالم الأرضي ، يقابلان العقل والنفس في العالم العلوي ، وإذا كانت الأفلاك والطبائع تحركت بحركة من النفس ، وبالتالي من العقل كذلك تحركت النفوس الجزئية وأشخاصها الجسمية بفعل الناطق والوصي بواسطة الشرائع في آتات معينة دائرة على سبعة سبعة حتى تنتهي إلى الدور الأخير ، وفيه ، أي في الدور السابع من الأدوار . ترتفع التكاليف ، لا سنة ولا شريعة ولا قانون ، إنما يطل زمان القيامة بأشراطه ، وفي هذا الدور الأخير تعود النفس الجزئية بواسطة الشرائع التي أظهرتها ، ثم انحلت عنها ، حالما قاربت الكمال ، تعود مرة أخرى إلى النفس الكلية ، كذلك هذه الحركات الفلكية الطبيعية تعود كثرتها بعد إلى الوحدة ، كانت غايتها بلوغ النفس إلى حال كمالها بحركة شوق إلى الاتصال بالعقل واتحادها به ووصولها إلى أعلى مرتبة كونية إلى العقل بالفعل ، فإذا ما أتمت الحركات الفلكية دوراتها السبعة الأخيرة وقام آخر ناطق ، وآخر وصي ، بتحريك النفوس حركتها الأخيرة ، عادت النفس عقلاً بالفعل « وذلك هو القيامة الكبرى فتتحل تراكيب الأفلاك والعناصر والمركبات ، وتتناثر الكواكب وتبدل الأرض غير الأرض وتطوى السماء كطي السجل للكتاب المرقوم فيه » . هنا يبدأ الحساب ، ويتميز الخير من الشر وتتصل جزئيات الحق بالفعل الكلي ، وجزئيات الباطل بالشیطان المبطل ^(١) .

وتعود الحركة سكوناً ، وتعود الكثرة وحدة ، ولم يعد إلا العقل الفعال يتأمل ذاته في نعم أبدي سرمدي ، وهنا الكمال « من وقت الحركة إلى السكون هو المبدأ ، ومن وقت السكون إلى ما لا نهاية له هو الكمال » ^(٢) .

(٢) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٣٨ .

(١) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٢٣٧ .

تلك هي الصورة التي قدمها لنا مفكر أشعري عن النظرية الإسماعيلية في النظام الكوني . وسنقدم الآن للمقارئ صورة من التراث الإسماعيلي نفسه - وهي صورة يرسمها لنا الداعي الإسماعيلي حاتم بن عمران بن زهرة المتوفى عام ٤٩٧ هـ في رسالة الأصول والأحكام وأبو يعقوب السجزي في رسالته تحفة المستجيبين .

« كان الله ولا شيء » وهذا الأصل مأخوذ من الحديث كان الله ولا شيء معه - ثم أوجد الموجود الأول وقد سمي أولاً ، لأنه الأولية التي ظهرت منها الموجودات ، لأن كل أيس أى كل جوهر فهو مطبوع عليه وهو عند الحكماء العقل . يقول السجزي « العقل هو أول خلق ظهر من أمر الله . . . » ولم يوجد الله في أول الحلقة غير العقل وحصر في جوهره صور المبدعات كلها ، كي لا يذهب شيء منها (١) .

وتستند الإسماعيلية هنا على الحديث الفلسفي « أول ما خلق الله العقل ، فقال له أقبل ، فأقبل ، وقال له أدبر فأدبر . . . إلخ » وهذا الموجود الأول ويسمى العقل أحياناً بالقلم ، لأن بالقلم تظهر نقوش الحلقة من الابتداء إلى الانتهاء - من العقل ينفطر التأييد في النفوس الزكية ، ومن القلم تنفطر الحروف الجامعة للكلام . ويسمى العقل أيضاً بالعرش ، ومعناه « أن إقرار معرفة التوحيد ، هو ما يتقرر في العقل من الإثبات والنفي . وبالعقل تعرف جلالة الله وعظمته عن سمات بريته ، كذلك العرش ، هو مقر لمن جلس عليه ، ويحلوسه عليه تعرف جلالته عن من هو منقطع عنه ، ويقال للعقل السابق . ومعناه أن العقل أسبق لقبول آثار الكلمة قبل سائر الحدود لقربه منها ، واتحادها به . وهي ، والعلم والأمر - اللذان هما بمعنى واحد قد يجوز أن العقل فعله سبق قوته . ولم توجد هذه الفضيلة في أنسى سواه لأن جميع الحدود من دونه تسبق قواتهم أفعالهم ، أما العقل وحده ، هو الذي يسبق فعله - كما قلنا قوته . وهذه خاصية للعقل وحده ليكون بها تاماً كاملاً . ويستند الإسماعيلية هنا على مبدأ أرسططاليس : وهو أن من تسبق قوته فعله لا يكمل إلا بخروجه من القوة إلى الفعل .

ويسمى العقل أيضاً عند الإسماعيلية بالقضاء . وذلك النفس - وهي الخلق الثاني بعد العقل - تقتضى - بالعقل - إدراك المعلومات ، وأن تظفر بما هو مطلوب أو سميت بالقضاء ، لأنه قضاء الله بين خلقه ويسمى العقل أيضاً بالهيولى ، لأن « بالعقل قوام ما ينبجس من الصور المستفادة ، كما أن الهيولى هي قوام الصور المستفادة من الطبيعة .

ويسمى العقل بالشمس ، لأن بالعقل نبصر الحقائق ، كما أن بالشمس نبصر المحسوسات من الصور والألوان (٢) هو المبادئ العقلية أو القوة القابلة للطائف المبروزة المنبهة دفعة واحدة فيضا « تم

(١) السجزي : تحفة المستجيبين ص ١٤٦-١٥٥ . (٢) السجزي : تحفة المستجيبين ص ١٤٦-١٥٥ .

أوجد الموجود الأول من العقل أثراً منفعلاً هي النفس الكلية أو نفس العالم . والنفس - وهي الخلق الثاني المنبجس من الخلق الأول ، وإنما سميت نفساً « لأنها تنففس دائماً للاستعادة ليكون بتواتر تنفسها قوام الخلقة » وتسمى أيضاً باللوح ، لأن الذى انفطر من العقل من أنوار الكلمة بتسطر فى النفس ، ومن النفس يتصل بجرياتها المنبعثة منها على مقدار صفاتها ولطافتها ، وتسمى النفس « بالملك » ومعنى ذلك أن النفس هي ملك العقل وعبدته ، لأن بالنفس ظهرت فضيلة العقل ، كما أن بالملك تظهر فضيلة الملك . وتسمى النفس لأنها الحال الثانى لجميع المخلوقين . ويقال لها التالى ، أى أنها تتلو العقل فى قبول آثار الحكمة ويقال للنفس القدر ومعنى هذه التسمية أن الذى يتحد بالنفس من فوائد العقل ، فإن التقدير والتحديد محاطان به . وتسمى النفس الصورة ومعنى هذا أنها تصورت من جوهر العقل الذى به تقف على فوائده . وهي العمر ، فتستفيد من أنوار العقل وضيائه ، وأنها متى همت أن تلحق به ، لتتزل منزلة ، محق نورها ، كما أن القمر يستفيد نوره من نور الشمس ، وإذا اجتمع مع الشمس فى المتزلة محقت نوره . والعقل والنفس هما الأصلان ، إليهما مرجع الأشياء جميعاً روحانياً أو جسمانياً، وهما الهيول والصورة (١) .

وتؤثر النفس أى الصورة فى المادة الأرضية بقواها الإبداعية وجواهرها العقلية إنها صور الأشياء الطبيعية والجسمانية ، فظهرت الأفلاك والعناصر والأرض والسماء فى أربع وعشرين ساعة بحركة كلية ، وتناهت - أى انتهت - بعد ظهورها . أو بمعنى أدق لم يعد خلق جديد . ثم إن لكل جنس من الحيوان صورة روحانية تظهر وجودها فى الأجسام الهيولانية . ودارت الأفلاك واقرنت المدبرات ، فنزلت الأمطار وتضاعدت البخارات ، فأثار السحاب باختلاط الاستقصات (العناصر الأربعة) وامتزاج الأمهات (الأصول) فأمرت الأرض ماء ، ثم أخرجت جنث الحيوان والبشر جميعاً وكل ما ظهر فى العالم من الكثيف واللطيف والمركب - ويستند الإسماعيلية فى هذا إلى قول الله « والله أنبتكم من الأرض نباتاً » أى بظهور الأجساد التى هي من غير نطفة ، والأرواح بالقوة الإلهية المتكونة بالعالم الإلهي المعتدل الشريف .

أما أول بدء الكون فهو عرش الرحمن على الماء ، وقد تصاعد البخار وظهر الدخان ، فخلق من طبعه السموات والكواكب ، ومن أفعال هذه الكواكب خلق الأرض والمركبات . ويستند الإسماعيلية إلى قول الله « ثم استوى إلى السماء وهي دخان ، فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين » .

وأوجد الله الخلق دفعة واحدة وأظهر ما فى القوة إلى الفعل ، فعادت النفس الناطقة إلى أسبابها

(١) نفس المصدر ص ١٤٦-١٥٥ .

التي لا تفسد ولا تموت ، أما النفس البهيمية ، فقد جذبتها وغلبت عليها اللذة الأرضية . فإذا تخلصت من هذه اللذة ارتقت إلى العالم الشريف - عالم العقل ، واستقرت به ولحقت بعنصرها الأعظم الذي منه بدت . وفارقت الكدورات والظلمات ، وصارت صورة لطيفة دراجة ذات أنوار مضيئة .

أما بدء الأوائل في العالم فسنة (١) العقل مع الدهر (٢) النفس مع الزمان (٣) الهوى مع الأركان (٤) الطبيعة مع الأجسام . ويقابل هذه الأوائل الأصولان العليان المنبعثان وهما (٥) الكلمة (٦) والأمر . فهناك إذن ستة أوائل من عالم الربوبية ويقابلهم من البشر خلق ظاهرون أى يتملكون القوة الإلهية في كل عصر وزمان ، يخرجون من البهيمية ويحرقون الندم . ويسمى الإسماعيلية الملائكة - وهم على الترتيب . أناس عالمون وأمناء مقربون ورسول مصطفون وخيرة روحانيون وأملاك مرسلون وعباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » وقد أخبر الله عنهم « وما منا إلا له مقام معلوم » أوكما قال تعالى « ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض » ثم خلق الله الأرض في ستة أيام ، وخلق السابيع يوم القام « ودل عليه بخمس حدود علوية ، وأصلين بهما تم الوجود ، ثم خلق الله لهذه الأرضين والسموات أنبياء لهم مقامات وظهور في الأزمنة والأدوار إلى تمام الميقات . ثم جعل الشمس والقمر دليلين على هذه الأرضين ، فهما أبوا هذه العوالم . وهما رمزان لمحمد ﷺ ، وعلى وقد قال الرسول لعل « أنا وأنت يا على أبوا هذه الأمة وعلى عائقنا لعنة الله (١) » .

فالشمس - أى محمد - هو الدليل على النور ، يخرج منه التأثير لعل ، فيقبل القمر النور من الشمس . أى يقبل على النور من محمد . وهنا نجد أيضا عليا العرجون القديم في دوراته وحركاته . ولما ابتدأ الأمر ، فاض على عالم العقل بأمر الله ، وفاض العقل على عالم النفس بأنواره ، وفاضت النفس على من دونها فامتلاً عالمها من فيض العقل الممتلئ من فيض الله ، فاضت أقطار السموات بالسموات ، وبدأت الحركات من الحركات والمدبرات من الأوامر ، فقبلت فيض الأمر بما دونه من عالم الكون والفساد حتى ظهر الإنسان :

ظهر الإنسان ، مزيجاً من روح وجسد ، فخص الله بذكر الأنوار العقلية أصحاب الأنوار السنية الذين عندهم علم الكتاب : الأنبياء والأوصياء والأئمة ، فأشرق نور الرسالة بنفوسهم المقدسة وعقولهم المنورة ، ونزل الوحي بالفيض الأمري على قلوبهم المنبهة . وتجمعت هذه الأنوار في الناطق ، توالت عليه الأنوار الفلكية بمواد النفس الكلية لكي يشرف على النفوس الجزئية ويظهر فيها السعادة العظمى المنبثة من العلة الأولى وليطهرها من دنس الخطيئة . فقام بالشرعة ونشر قواعدها « وهذه سنة النبيين وبداية الأمر ونزول الروحانيين إلى الجسمانيين » .

(١) ابن زهرة : الأصول والأحكام ص ١٠٣ .

وكان آدم صاحب الدور الأول أول « جسماني » تعبد الله وأظهر أمره وهو صاحب الخلافة « وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة » وكانت حجته زوجته حواء ونقباؤه اثنا عشر ملاكاً ، وهم الذين سجدوا له .

وكان نوح صاحب الدور الثاني ثم على التوالي إبراهيم وموسى وعيسى . وأخيراً أنى محمد ﷺ - وهو صاحب الدور السادس ، فنسخ شريعة من قبله من النطقاء ، وقام بباطن شرائع من تقدم قبله ، « والأئمة من بعده متممون لشريعته ومحبون لسنته » - قوله تعالى « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس » فليس بعد شريعته شريعة تنسخها . ثم نصب أساسه على بن أبى طالب ، وبأنى بعده القائم السابع متمم « دور القرآن العظيم » وهو خاتم الواترات العظمى ومنتهى السدود (١) . وهذه هي أيضا أفلاطونية محدثة واضحة نجد فيها نظرية الفيض المشهورة ، وإن كان يعبر عنها بالانجاس . ونلاحظ أنه لا يوجد ثمة اختلاف بين هذا العرض الإسماعيلي لنظريتهم الميتافيزيقية إنه لا يختلف كثيراً عن تصور الشهرستاني له .

ثم نرى إسماعيلياً متأخراً وهو الكرمانى - الداعى المشهور فى عهد الحاكم والذى ينسب إليه كتابة رسائل إخوان الصفا يستخدم نفس النظرية - ويعبر عن الفيض بالإبداع والانبثاق . وترى الأفلاطونية المحدثة واضحة فى كتابه « راحة العقل » .

وقد تنبه الشهرستاني بمنهجه المقارن إلى أن الباطنية القديمة قد خلطوا كلامهم ببعض كلام الفلاسفة . وصنفوا كتبهم على هذا المنهج (٢) . ومن الواضح تماماً أن أحد مصادرهم الرئيسية الأفلاطونية المحدثة والفيثاغورية المحدثة .

أما البغدادي فيحاول أن يرد كتاباتهم إلى مصدر واحد هو المصدر الثنوى فيقرر أن الباطنية تذهب إلى أن الإله خلق النفس . فالإله هو الأول ، والنفس هي الثانى والاثنان يدبران هذا العالم بتدبير الكواكب السبع والطوائع الأربعة ويرى البغدادي أن هذا هو قول الثانوية إن النور والظلمة يدبران أمر العالم وقولهم إن الأول والثانى يدبران أمر العالم وهو عين قول المجوس الذين يضيفون الحوادث إلى صانعين (٣) .

وهذا تفسير بعيد كل البعد عن المذهب الإسماعيلي . إنه مذهب غير ثنوى قطعاً . حقاً إنه تأثر بالمجوسية أو بالثنوية فى بعض جزئياته ولكن جوهر المذهب ليس مجوسياً . ويبدو أن من الخطأ الشديد أن نرد العقائد الإسماعيلية إلى مصدر واحد . لقد أخذت مادتها من الفلسفة اليونانية - كما صورها

(١) البغدادي : الفرق بين الفرق ص ١٧١-١٧٢ .

(٢) ابن زهرة : الأصول والأحكام ص ١٠٧ .

(٣) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٣٣٦ .

المسلمون ، مزيجاً من فلسفات أفلوطين وأرسطو والفيثاغورية الجديدة وعقائد مسيحية ويهودية . ولا شك أن بعض العناصر المجوسية دخلت في خلال هذا . ولكن القول بأن نظرية العقل الكلي والنفس الكلية هي نظرية ثانوية فليس بمحقق . إنها نظرية أفلاطونية محدثة . استخدمها دعاة الإسماعيلية ، كما استخدموا نظرية الفيض الأفلاطونية . أما أهم المصادر للإسماعيلية ، في مختلف صورها ، فهو الفيثاغورية المحدثة مختلطة بأفلوطينية .

ويتضح هذا من تفسيرهم الهام للشرائع نفسها في صور أعداد ترمز إلى أئمة وحجج وأسس ، وتولية هؤلاء « قالوا ما من فريضة أو سنة أو حكم من أحكام الشرع - من بيع وإجارة وهبة ونكاح وطلاق ، إلا وله وزن من العالم عدداً في مقابلة عدد ، وحكماً في مطابقة حكم ، فإن الشرائع عوالم روحانية أمرية ، والعوالم شرائع جسمانية خلقية ، وكذلك التركيبات في الحروف والكلمات على وزن تركيبات الصور والأجسام والحروف المفردة نسبتها إلى المركبات من الكلمات كالبساطت المجردة إلى المركبات من الأجسام ، ولكل حرف وزن في العالم وطبيعة يخصصها ، وتأثير من حيث تلك الخاصية في النفوس » وترى الإسماعيلية الباطنية أن معرفة أسرار الأعداد ، وما ترمز إليه من شريعة أصبحت « علماً تعليمياً » أى يؤخذ من الإمام ، وهذا العلم المستفاد من الإمام هو غذاء النفوس ، كما أن الأغذية المستفادة من الطبايع الخلقية غذاء للأبدان ، وقد قدر الله تعالى أن يكون غذاء كل موجود مما خلقه منه . وقد أدى هذا العلم التعليمى إلى قيام الأئمة الباطنية الإسماعيلية وحججهم « بذكر أعداد الكلمات والآيات ، وأن التسمية مركبة من سبعة واثني عشر » أى الأئمة السبعة والنقباء الاثنا عشر . « وكذلك في كل آية أمكنهم استخراج ذلك » . وهذا هو تأثير القبالة اليهودية في المذهب الإسماعيلي وقد كانت القبالة منتشرة في العالم الإسلامى .

كان هذا المنهج الباطنى في تفسير الآيات ديدن الأئمة الإسماعيلية ، وقد أرجعوه إلى علم إمام الزمان الذى يعرف وحده « موازنات هذه العلوم ، ويهتدى إلى مدارج هذه الأوضاع والرسوم » (١) . كان هذا المنهج الباطنى سلاحاً ذا حدين ، هو إما أن يتجه إلى تثبيت الإسلام الشيعى الإسماعيلي أو الاثنى عشرية وإما إلى محاولة القضاء على الإسلام كله ، وبخاصة في الأماكن البعيدة عن مركز الدعوة في سلمية كاليمن مثلاً أو الجهات البعيدة في فارس . بل سنراه أيضاً قريباً من سلمية في جنوب العراق وشمالها يتخذ تلك الصورة الفريدة في نوعها وهى صورة حركة هزت العالم الإسلامى - وهى صورة القرامطة ، كما سنرى في أبهى الدعاة كأحد الكيال حركة فلسفية خطيرة . وستابع في الفصول المقبلة الصور المختلفة للفلسفة الإسماعيلية أو للفلسفات الإسماعيلية .

الفصل الثالث

الإسماعيلية في اليمن

تولى الإمامة الإسماعيلية بعد الإمام أحمد ابنه الحسين ، وقد تلقب بالمقتدى وبالزكى . وقد اختلفت آراء الباحثين في حجته - كما نرى بعد . ذكر بعض المؤرخين أن عبد الله بن ميمون كان حجته في أخريات حياته - ويقال إن ابنه حسين بن عبد الله بن ميمون كان هو حجته ، ولكن المؤرخين يذكرون أن حسيناً مات في حياة أبيه عبد الله بن ميمون - والبعض يرى أن حجته كان أحمد بن عبد الله بن ميمون والآخر يرون أن حجته هو محمد بن أبي الشلعل - من أبناء عبد الله أيضاً ، وإن فحص هذه الأسماء إنما يهم البحث التاريخي - أما نحن هنا ونحن وراء الأفكار الفلسفية ، فيمكننا أن نقول إن الإمام الحسين تولى زعامة الإسماعيلية ، وكان أحمد بن عبد الله القداح حجته ، سواء أكان أحمد هذا الابن الأكبر لعبد الله بن ميمون أم لا ، أم كان هو أبا الشلعل وإن هذا الإمام كان على جانب كبير من العلم والثقافة ، وأنه كتب « الجامعة » شرحاً لرسائل إخوان الصفا . وقد تمكن هذا الإمام بواسطة دعاته وحججه أن ينشر دعوته في أرض سبخة للمذهب الإسماعيلي على الخصوص - وهي اليمن . وقد اختار عبد الله بن ميمون القداح للدعوة رجلين كان لهما شأن كبير في تاريخ اليمن . أما أولهما : فهو القاسم ، رستم بن الحسين حبيب بن زاذان ^(١) النجار الكوفي المشهور بابن حوشب . كان أبوه من الشيعة الإمامية ، وكان يدعى الانتساب أيضاً إلى ولد مسلم بن عقيل كما فعل عبد الله بن ميمون من قبل من الانتساب إلى بني عقيل ^(٢) . تمكن عبد الله بن ميمون ، ثم ابنه حسين من بعده من جذب الرجل إلى المذهب الإسماعيلي ، وقد لقناه علم النجوم وعلوم الفلسفة حتى برع الرجل في كل تلك العلوم . وكان أبناء القداح يعدونه للدعوة في اليمن . وكانت الدعوة في اليمن تسير بحذر وببطء ، ولكن كان لها بعض المراكز ، وبعض العيون ، وما لبث عبد الله بن ميمون أن علم بزيارة أحد كبار رجال الشيعة الإمامية اليمنيين للمشاهد المقدسة في كربلاء وهو علي بن فضل الجدني - وهو ينتسب إلى قبيلة يمنية كبيرة . وخرج الإمام حسين الإسماعيلي لمقابلته . وأمام قبر الحسين كان علي بن فضل يبكي الحسين ابن فاطمة وينوح ويقول : بأبي أنت يا ابن الزهراء المخرج بالدماء ، الممنوع من شرب الماء :

(١) يرى بعض المؤرخين أنه ابن دندان وأنه ابن حفيد لدندان الشمرى الخطير .

(٢) الحمادى الجمانى : كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٢٢ .

وما لبث عبد الله بن ميمون وابنه الحسين أن قابلاه - وقابل على بن فضل - فيما بعد - الإمام حسين . واعتنق ابن فضل الدعوة الإسماعيلية وجمع ابن ميمون الاثنين ابن حوشب وابن فضل وأخذ يلقيها دروس الدعوة .

يذكر اليماني أن ابن ميمون قال لابن حوشب : يا أبا القاسم إن الدين يمانى والحكمة يمانية ، وكل أمر يكون مبدؤه من اليمن ، فإن يكون ثابتاً كثبوت نجم النجم ، وذلك أن إقليم اليمن أعلى أقاليم الدنيا ، ولا بد من خروجك إلى هناك أنت وأخوك على بن فضل اليماني ^(١) ، فسيكون لكما شأن وملك وسلطان في اليمن فكونا على أهبة ، وخرج الاثنين إلى اليمن عام ٢٦٧هـ - وهو عام افتتاح الدعوة الإسماعيلية الرسمي ، وأخذ كل منهما يدعو في ناحية منها وما لبث ابن حوشب أن اتخذ « دار هجرة » كما يفعل الدعاة الإسماعيليون عادة ثم نجح نجاحاً باهراً ، وتسمى بمنصور اليمن ، وملك معظم أراضيا بحيث يقول الداعي الخطاب بن الحسين « كان بمثابة الفجر المتنفس ، وبه كشف الله عز وجل عن الأولياء الغمة ، وأثار حنادس الظلمة ^(٢) » .

وقد أصبحت إمارة بن حوشب بعد ذلك مدرسة للدعاة ، ومنها أرسل ابن حوشب الداعين المشهورين الحلواني وأبا سفيان إلى المغرب وقد تعلموا في مدرسة الدعوة في اليمن أصولها : كما تعلموا التفسير الباطني للقرآن . ثم ودعها ابن حوشب بقوله « قولاً لكل شيء باطن . واذها فالغرب أرض بور ، فاحرثاها وأكرياها ، حتى يأتي صاحب البذر » وصاحب البذر هو الداعي الأكبر أبو عبيد الله الشيعي . وقد استجاب لها أهل كتامة . فلما توفي الداعيان ، أرسل ابن حوشب أبا عبد الله الشيعي المشهور . وقد مهدت له الأرض ، فكان ثمرة مجهوداته إنشاء الدولة الفاطمية . وقد بقي ابن حوشب مخلصاً للدعوة الإسماعيلية ، ثم لعبيد الله المهدي حتى وفاته .

وينبغي أن نلاحظ أن ابن حوشب اتخذ في أول الأمر ستاراً سنياً ، ثم بدأ يث دعوة التأويل ، وحين جذب الأتباع ، وأقام دار الهجرة أعلن عقيدته الإسماعيلية كاملة ، وهي موالاة الإمام الإسماعيلي ، طبقاً لفكرة الدور السبعي ، ثم بقية المذهب في صورة معتدلة ، ولكنها لم تمنع اليماني من أن يدعو بالقرمطي . وكان اليماني من أشد الناس على الإسماعيلية . إنه يرى أن ظهور الميمونية القداحية كان في الكوفة على يد عبد الله بن ميمون القداح عام ٢٧٦هـ « وما كان له من الأخبار المعروفة والمنكرات المشهورة الموصوفة ودخوله في طرق الفلسفة ، واستعماله الكتب المزخرفة ، وتمشيته إياها على الطغام ومكيدته لأهل الإسلام » .

(١) اليماني : كشف .. ص ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) الخطاب بن الحسين : غاية المواليد ص ٣٩ .

ويرى أنه جعل لكل آية من كتاب الله تفسيراً ، ولكل حديث عن رسول الله ﷺ تأويلاً ، وزخرف الأقوال ، وضرب الأمثال ، وجعل لآي القرآن شكلاً يوازيه ، ومثلاً يضاهيه ، وأنه كان على علم بعلم التنجيم والفلك .
أما أساس دعوته فهي الدعاء إلى الله وإلى رسوله في ظاهر الأمر ، ويحتج بالقرآن ومعرفة مثله ومثوله ، كما كان يقرر موالاته على بن أبي طالب بالتقديم والإمامة ، والطمع على جميع الصحابة بالسب والأذى .

تلك هي الدعوة التي حملها ابن حوشب إلى اليمن عن أستاذه عبد الله بن ميمون أو ابنه الحسين بن عبد الله أو ابنه عبيد الله - أو الإمام الحسين نفسه الإسماعيلي . ولكن هل كان ابن حوشب - فيما سوى ذلك يبيع الفروج . إن اليماني يذكر أنه كان يقول بعد انتصاراته الكثيرة « والله ما أخذت هذا الأمر بمالي ولا بكثرة رجالي وإنما أنا داعي المهدي الذي بشر به النبي ﷺ » ولكنه يذكر أنه حين استولى على جبل مسور بنى حصناً وبني فيه داراً أسماها دار التحية « فعند ذلك أحل ما حرم الله ، وكان يجمع أصحابه في ذلك القصر ونساءهم يرتكبون الفواحش (١) .

هل من السهولة بمكان أن نصدق هذا . وهل يعقل أن يفعل هذا في وسط بطون عربية يمانية ؟ . وهل كان ابن حوشب داعياً للقدح أو داعياً للإمام الحسين نفسه ؟ ولماذا بقي على ولائه للفاطميين وكانوا بعيدين عنه ، وكان هو صاحب السلطان في اليمن ؟ هل كان يعلم أنه يعمل لرجل يقول عنه اليماني : كان القدح يعتقد اليهودية ويظهر الإسلام ، وهو من اليهود ومن ولد الشلعلع من مدينة بالشام يقال لها سلمية وكان من أبحار اليهود وأهل الفلسفة الذين عرفوا جميع المذاهب وكان صانعاً يخدم شيعة إسماعيل بن جعفر وكان حريصاً على هدم الشريعة المحمدية لما ركب الله في اليهود من عداوة الإسلام وأهله والبغضاء لرسول الله (٢) .

هل كان ابن حوشب من الجهالة والحماقة بحيث يتبع رجلاً يهودياً لمجرد أنه عارف بالفلسفة وأحكام النجوم ، فيخرج إلى بلد بعيد ، يحارب ويقاوم وينشئ دولة لأجله ولأجل أولاده . إن الحل الصحيح أن ابن حوشب أرسل من لدن الإمام الحسين نفسه بعقيدة إسماعيلية خاصة ، ولو لم يكن معتقداً أنه على الحق لاحتذى حذو علي بن فضل حين خرج على المهدي عبيد الله وادعى الأمر لنفسه وأعلن نبوته . إنه لم يفعل هذا ، بل حارب غلو علي بن فضل . وهذا يدل على أن الرجل لم يكن غالياً إسماعيلياً ، وإنما كان من رجال الإسماعيلية المعتدلة .

* * *

(٢) الحمادي اليماني : كشف أسرار . ص ١٧ ، ١٨ .

(١) الحمادي اليماني : كشف . ص ٢٦-٢٧ .

أما الشخصية الثانية : وهى شخصية على بن فضل الجندى ، وبينما كان ابن حوشب عراقياً ، كان ابن فضل يمينياً . وقد قال هو نفسه للقداح حين دعاه فى الكوفية « والله إن الفرصة ممكنة باليمن ، وإن الذى تدعو إليه جائر هنالك ، وناموسنا يمشى عليهم ، وذلك لما أعرف فيهم من ضعف الأحلام وتشتيت الرأى وقلة المعرفة بأحكام الشريعة المحمدية ^(١) . وحين عاد على بن فضل إلى اليمن ، ذهب إلى سرو يافع وبنى مسجداً على رأس جبل فيها ، « وأخذ بالنسك والعبادة فكان نهاره صائماً وليله قائماً . فأنسوا إليه وأحبوه وافتتنوا به ، ثم إنهم قلده أمرهم وجعلوا حكمهم إليه ، فسألوه أن ينزل من ذلك الجبل ، ويسكن بينهم . فقال : لا أفعل هذا ، ولست أسكن بين قوم جهال ضلال ، إلا أن يعطونى العهود والمواثيق أن لا يشربوا الخمر - ففعلوا ذلك وأنهم ينكرون المنكر وينكرون على أهل المعاصى بأجمعهم ، فلم يزل يخدعهم بعبارته حتى بلغ إلى إرادته » ^(٢) .

ونحن نعلم أن غلاة الشيعة دائماً يدعون التقشف والترهد ، ولذلك أطاعه اليمنيون ، فانخذل دار هجرة فى سريافع وبدءوا يتخطفون بلاد اليمن « جهاداً لأهل المعاصى حتى يدخلوا فى دين الله طوعاً وكرهاً » وأخذ أيضاً « القرمطى » يتحكم فى الجانب الآخر من اليمن .

وكان ابن فضل يعمل باسم الإمام المستور الحسين ، فلما مات الإمام الحسين - كما سنرى بعد - واستخلف حجتة عبيد الله المعروف بالمهدى - وهو ابن الحسين بن عبد الله بن ميمون القداح ، وجعله إماماً مستودعاً لابنه القائم - لم يرض ابن فضل ، كما لم يرض حمدان بن الأشعث المشهور بحمدان قرمط ، ولذلك حين أتى فيروز - باب أبواب الدعوة - منتقلاً على عبيد الله المهدى ، وهاربا من ابن حوشب وجد لدى على بن فضل أمنا وحماية . ولسنا نتكلم هنا عن الدوافع التى أدت إلى هرب فيروز - باب الأبواب وكبير الدعوة وأستاذ ابن حوشب داعى اليمن وأستاذ أبى عبد الله داعى مصر وصهره - ولسنا نهتم هنا بمحاولة فيروز إغراء ابن حوشب . إنما ما يهمنا هنا أن على بن فضل الجندى أعلن ثورته عام ٢٩٩ هـ - منفصلاً عن الخلافة الفاطمية الجديدة - وحاربه ابن حوشب ، ولكن ابن فضل تغلب عليه . وحين أعلن ابن فضل دعوته تبرأ منه أيضاً فيروز .

ولكن ما هى هذه الدعوة التى أعلنها على بن فضل ؟ إن مصدرنا الهام فى هذه الفترة وهو محمد بن أبى الفضائل الحمادى البمانى - وهو أحد فقهاء السنة فى أواسط المائة للهجرة ، عاصر الصليحيين ، وهم بقايا إسماعيلية ابن حوشب وابن فضل - يقدم لنا أخباراً على جانب كبير من الأهمية عن انسلاخ على بن فضل عن الدعوة الإسماعيلية ، ثم عن الإسلام نفسه .

(١) البمانى : كشف... ص ٣٢ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٨ .

إن الرجل الذى بدأ إمامياً ثم انقلب إسماعيلياً ، ما لبث أن خلع كل عقيدة وأعلن نبوته ، فكتب إليه ابن حوشب يعاتبه ، فأرسل إليه على بن فضل « إنما هذه الدنيا شاة ، ومن ظفر بها افترسها ولى بأبى سعيد الجنابى أسوة ، لأنه خلع ميموناً وابنه ودعا إلى نفسه ، وأنا أدعو إلى نفسى . فأما نزلت على حكى ودخلت فى طاعتى وإلا خرجت إليك » (١) .

أعلن على بن فضل - فيما تقول المصادر السنية والشيعية التى بين أيدينا - نبوته ثم ألوهيته وتسمى باسم « رب العزة كما تسمى ابنه باسم « ابن رب العزة » .

بل يذكر اليمنى الحمادى - أنه أنشأ مجتمعاً إباحياً أحل فيه البنات والأخوات . ووقف شاعره على

منبر الجامع يقول للجند :

خذى الدف يا هذه والعبي	وغنى هزاريك ثم اطررى
تولى نبي بنى هاشم	وهذا نبي بنى يعرب
لكل نبي مضى شرعة	وهذى شرائع هذا النبي
فقد حط عنا فروض الصلاة	وحط الصيام ولم يتعب
إذا الناس صلوا فلا تنهضى	وإن صاموا فكلى واشربى
ولا تطللى السعى عند الصفا	ولا زورة القبر فى يثرب
ولا تمنعى نفسك المعرسين	من أقربى ومن أجنبي
فكيف تحلى لهذا الغريب	وصرت محرمة للأب
أليس الغراس لمن ربه	وسقاه فى الزمن المجذب
وما الخمر إلا كماء السماء	حلالا فقدست من مذهب (٢)

أعلن على بن فضل نبوته . كما أعلن انتهاء الشريعة الإسلامية وأحكامها ، إن صح هذا الشعر المنسوب إلى شاعره . فهو إذن صورة من غلاة الكوفة ، الذين أقاموا فى عهود سابقة مجتمعات إباحية . ولكن نلاحظ أن على بن فضل كان يعيش فى بيئة عربية خالصة ، بيئة تحافظ على العرض وتقده . فهل من البساطة أن نقبل أنه « كان لهم المشهد الأعظم ، لا يشهده إلا من دفع للداعى قربانه ، فإذا جن الليل ، ودارت الكؤوس ، وطابت النفوس . وقد أحضر جميع أهل الدعوة نساءهم وحريمهم فيدخلن عليهم وقد أطفأوا السرج ، فيأخذ كل واحد من تقع فى يده - ويقع عليها ، فتنتلق بشكر الداعى على من أفاء من فضل ، : ليس إلا من فضل أمير المؤمنين ، فاشكروه ولا تكفروه على

(١) الجمانى : كشف ص ٣٣ .

(٢) الجمانى : كشف ... ص ٣١ .

ما أطلق من وثاقكم ، ووضع عنكم أوزاركم ، وأحل لكم بعض الذى حرم عليكم جهالكم . وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ، نستطيع أن نفهم حدوث هذا فى مجتمع مختلط كالكوكة وسوادها لدى القرامطة - وإن لم يصح هذا فعلاً عنهم ، أو فى البحرين ، ولم يصح أيضاً هذا عنهم - وفى بقايا الثنوية الغنوصية فى فارس . وقد صح هذا عنهم - ولكن لا نستطيع إطلاقاً أن نصدق أن يعلن على بن فضل مذهب الإباحة فى المجتمع العربى اليمنى ، إن من الثابت ادعائه للنوبة - فهو صورة أخرى من المتننى القديم «مسيلم الكذاب» ولكن لا نستطيع أن نصم الرجل بالإباحة . وقد أدى عداؤه للفاطميين وللحواشب إلى قتله بالسهم عام ٣٠٣ هـ بعد وفاة زميله القديم وعدوه الجديد ابن حوشب عام ٣٠٢ هـ .

مات القرمطيان إذن بعد أن اختلفا . وتولى الفأفأ بن على بن فضل والمدعو «بابن رب العزة» الإمارة بعد أبيه ولكن هجمات السنة والزيدية عليه قد اشتدت وقد انتهت بمقتله وسى بنات على بن فضل .

أما إمارة منصور اليمن ابن حوشب فقد ولى عبيد الله المهدي تابع ابن حوشب عبد الله بن عباس الشاورى الإمارة ، فقتله أبو الحسن بن حوشب وعاد إلى مذهب أهل السنة والجماعة ، وتبع القرامطة من أتباع أبيه فقتلهم «ثم قتل أولاد ابن حوشب وأسرته فى تاريخ لا يعنينا كثيراً . ولكن هل ماتت الدعوة الإسماعيلية فى اليمن ، لقد عادت مرة ثانية إلى كهف الاستتار . «وانكم أمرهم عن الحكام» وأول من نعرف من الدعاة الجدد هو ابن رحيمة فى عهد المعز «وكان لا يستقر فى موضع واحد . . . وهوى كاتب بنى عبيد وذلك بعد خروج المعز من القيروان إلى بلاد مصر . . فلم يزل ابن رحيمة يكتب أهل مصر والمعز ومن بعده وينهى أخبار أهل اليمن حتى مات واستخلف على من بقى من القرامطة يوسف بن الأمشع - وكان يدعو للحاكم ويباع له سرّاً ، حتى مات يوسف . واستخلف على مذهبه سليمان بن عبد الله الرواحى من حمير - وكان يدعو إلى الحاكم وإلى المستنصر ، وكان سليمان من أغنياء أهل اليمن ، فتمكن بغناه وثروته من أن يجذب إليه كثيرين من الأتباع ويقم مجتمعاً إسماعيلياً للمرة الثانية فى اليمن .

وقد استطاع سليمان أن يجذب إليه أبا الحسن على بن محمد الصليحي ، وكان على بن محمد ابناً لقاضى سنى مشهور باليمن وهو محمد بن على الصليحي ، وقد استطاع الرواحى التأثير فى الابن - وهو دون البلوغ . وكان يدرسه الدخائر القديمة ويخبره أن أمره بهذه الكتب ، وأنه سيملك اليمن (١) . ثم مات الرواحى ، وأوصى بالدعوة للصليحي ثم اجتمع الإسماعيلية حوله ، وأرسل يستأذن المستنصر

(١) ابن خلكان : ج ٢ ص ٨٣ .

بالخروج ، فأذن له ، فلك اليمن وأنشأ الدولة الصليحية .
وهنا نرى الدعوة الإسماعيلية تعود مرة أخرى وتحكم اليمن عام ٤٣٩ . وقد بقيت الدولة الصليحية حتى قضى عليها صلاح الدين الأيوبي ولم يبق من آثارها إلا قبيلة يام وهي إلى اليوم باطنية تنتمي إلى بهرة الهند .

ما هي الدعوة الإسماعيلية الصليحية ؟ يبدو أنها هي الدعوة الإسماعيلية الفاطمية ، ويقول الإمامي عن الصليحي وقد عاصره « إن له نواباً يسميهم الدعاة المأذونين وآخرين يلقبون بالملكين » تشبيهاً لهم بكلاب الصيد لأنهم ينصبون للناس الحبال . . « وأنه رفع الشرائع الإسلامية من الصلاة والزكاة والصيام . وهذا بعيد التصديق . ثم يندعون الناس بروايات عن النبي ﷺ محرفة وأقوال مزخرفة ، ويتلون عليهم القرآن على غير وجهة ، ويحرفون الكلم عن مواضعه » أى أنهم لجأوا إلى منهج التأويل الباطني للقرآن « فيبينون للناس رموز القرآن ومثله ومثوله ومعاني الصلاة والطهارة . ثم يخبرون من يدعونه « إن جميع ما عليه الناس أمثال مضروبة لمثولات محجوبة ، فاعرف الصلاة وما فيها ، وقف على باطنها ، ومعانيها فإن العمل بغير علم ، لا ينتفع به صاحبه فالزكاة مفروضة في كل عام ، وكذلك الصلاة ، من صلاها مرة في السنة ، فقد أقام الصلاة بغير تكرار » وللصلاة وللزكاة باطن ، لأن الصلاة صلاتان والحج حجان . واحد باطن وواحد ظاهر ، وما من ظاهر إلا وله باطن . إن الله يقول « وذروا ظاهر الإثم وباطنه » ويقول « إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن » فلكل شيء ظاهر وباطن . والظاهر ما تساوى به الناس وعرفه الجميع خاصهم وعامهم ، أما الباطن فلا يعرفه إلا الخاصة المختارون « وما آمن معه إلا قليل » « وقليل ما هم » « وقليل من عباد الشكور » فالأقل من الأكثر الذين لا عقول لهم . وهذا يذكرنا بقول عبد الله بن ميمون عن الجمهور إنهم الحمير .

والصلاة والزكاة سبعة أحرف دليل على محمد صلى الله عليه وعلى . فالمعنى بالصلاة ، الزكاة ولاية الرسول وابن عمه . فمن تولاهما فقد أقام الصلاة وآتى الزكاة . ويقول الإمامي - إنهم بهذا يؤثرون في خلق كبير من الناس « لأنه مذهب الراحة والإباحة يريحهم مما تلزمهم الشرائع من طاعة الله وبيع لهم ما خطر عليهم من محارم الله » .

فإذا قبل المدعو هذه العقائد ، يطلب الداعي منه قرباناً « يكون لك سلماً ونجوى ونسأل لك مولانا يحط عنك الصلاة ويضع عنك هذا الإصر » فإذا دفع رفعت عنه الصلاة . ويقرأ الداعي له « ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم » ثم يقبل أهل الدعوة الآخرون فيهنثونه ويقولون : الحمد لله الذي وضع عنك وزرك الذي أنقض ظهرك .

ثم يرفع عنه تحريم الخمر والميسر ، ويخبره الداعي أنها رمزان لأبي بكر وعمر لمخالفتهما لعل وظلمهما

له وأخذهما الخلافة منه . أما الخمر المعصورة فهي حلال ، ويتلو « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » ويتلو « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا » فأحل لهم الميتة ولحم الخنزير .

أما الصوم فيفسره الداعي بأنه « الكتمان » وتفسيره الآية : « فن شهد منكم الشهر فليصمه » أى كتمان الأئمة فى وقت الاستتار خوفاً من الظلمة . ويجدون مصداقاً لقولهم قول مريم « إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً » ، فلو كان الله عني بالصيام ، ترك الطعام ، لقال : فلن أطمم اليوم شيئاً ، فالصيام إذن هو الصموت عن الكلام .

أما الطهارة ، فهي طهارة القلب فى التأويل الصليحي « إن المؤمن طاهر بذاته ، والكافر نجس لا يطهره الماء ولا غيره » أما الجنابة فهي موالاة أضداد الأنبياء والأئمة وعدم معرفة العلم الباطن . ويفسر الداعي معنى « وإن كنتم جنبا فاطهروا » معناه « فإن كنتم جهلة بالعلم الباطن فتعلموا والعلم الباطن هو حياة الأرواح - وهو كالماء الذى هو حياة الأبدان . قال الله تعالى « وجعلنا من الماء كل شئ حى » وقول الله « فليتنظروا الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق » فلما سماه الله بهذا ، دل على طهارته . ثم تأتى المرحلة الأخيرة - منتهى الأمر وغاية السعادة - فيتلو الداعي « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين » فيقول المخدوع « ألهمنى إياها ودلنى عليها » فيتلو عليه « قد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » ثم يقول له « أتعجب أن تدخل الجنة فى الحياة الدنيا ؟ فيقول : وكيف لى ذلك ؟ فيتلو عليه « وإن لنا للآخرة والأولى » ، ويتلو عليه « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق . قل هي للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » والزينة هنا ما خفى على الناس من أسرار النساء التي لا يطلع عليها إلا المخصوصون بذلك . وذلك قوله « ولا يبدن زينتهن إلا لبعولتهن » والزينة مستورة . غير مشهورة . ثم يتلو قول الله « وحوور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون » . فن لم ينل الجنة فى الدنيا - فى نظر الباطنية الصليحية - لم ينلها فى الآخرة ، لأن الجنة مخصوص بها ذوو الألباب وأهل العقول ، لأن المستحسن من الأشياء ما خفى . ولذلك سميت الجنة جنة ، لأنها مستجنة ، وسميت الجن جنناً لاختفائهم عن الناس ، والجنة المقبرة لأنها تستر من فيها ، والترس المجن لأنه يستتر به . فالجنة هاهنا ما استتر عن هذا الخلق المنكوس الذين لا علم لهم ولا عقل . ثم يدعى هو وزوجته وبناته إلى المشهد الأعظم ^(١) - وقد سبق أن وصفناه فى عقائد بن فضل - حيث يفترس الرجل أى امرأة يقع عليها .

هذا ما نقله إلينا الإمامي عن الصليحيين ، كما نقله عن ابن حوشب وابن فضل . والمشكلة : هل

(١) الحمادى اليمنى : كشف ص ١١-١٥ .

نستطيع ببساطة أن نصدق قيام المذهب الإباحي في اليمن ؟ وهل يمكن للصليحي أن ينشئ دولة هو وأولاده في بقعة عربية صميمة على هذا الأساس ؟ وهل من المعقول أن يقاتل أتباعه في هذه القرون السحيقة دفاعاً عن عقيدة إباحية ؟ وهل كان المستنصر في مصر يقر هذا ، وفقهاء السنة ومشايخهم وفقهاء الشيعة الإمامية والزيدية له بالمرصاد ؟

ومن العجب أن ابن خلكان وهو ينقل لنا حياة علي بن محمد الصليحي ، يقول عنه « كان فقيهاً في مذهب الإمامية مستبصراً في علم التأويل ، ثم إنه صار يحج بالناس دليلاً على طريق السراة » ثم حين استولى على اليمن - ذهب إلى الحج . فقتله سعيد بن نجاح صاحب تهامة في الطريق ^(١) .

(١) ابن خلكان : وفيات ج ٢ ص ٧٣-٧٥ .

الفصل الرابع

القرامطة

أو تطور الكيسانية

اختلف الباحثون في تفسير كلمة « القرامطة » والتفسير الشائع لها أنها نسبة إلى حمدان بن الأشعث الكوفي الملقب بقرمط ، وأنه سمي بقرمط لقرمطة في مشيته . أو أنه كان يتقارب في خطاه . وقيل إنه أحمر البشرة فلقب بقرمط ، وكرمت هي الآجر في لغة الروم والعرب فقبل قرمد من قرمط ، ويذكر أيضاً أنه كان أجاراً أى صانع الآجر .

وقد ذكر ابن الجوزي الروايات المتعددة التي ذكرت في سبب التسمية بالقرمطة ^(١) . ولكن ظهور بعض الرسائل الدرزية الأخيرة ، وسعود إلى هاتين الرسالتين فيما بعد - سيلقي الضوء الحاسم على ظهور اسم القرامطة في أواخر القرن الرابع الهجري وفي أوائل القرن الخامس . وعلى أية حال فالقرمطة إن لم تكن باسمها ، بل بمعناها إنما نشأت على يد حمدان بن الأشعث الملقب بقرمط في سواد الكوفة في العقود الأخيرة من القرن الثالث الهجري وأصبحت في كتب أهل السنة والجماعة تمثل الهرطقة والإلحاد والتحلل والفوضى ، وتشير إلى المذهب الإسماعيلي ، بالرغم من اختلافاتها الجوهرية مع الإسماعيلية في كثير من الفترات . أما القرامطة أنفسهم فقد اعتبروا القرمطة الحركة العظيمة التي تظهر بين الحين والحين ، تلقى في العالم الإسلامي بذور الإصلاح . وقد اختلفت آراء الباحثين قديماً وحديثاً في حقيقة هذه الحركة ، والباعث عليها ، هل هي حركة عقائدية فارسية آرية تجاه الدين السامي - الإسلام - وقد نهافت هذه الفكرة أمام الحقيقة الواضحة وهي أن العدد العديد من العرب في العراق والشام واليمن قد أبدوها تأييداً كاملاً . أم هي حركة شيعية إسماعيلية آمنت بأحقية الفرع الإسماعيلي وقامت للدفاع عنه . ولكن يبدو أنها اعتنقت في فترات المذهب الإسماعيلي ، ثم اختلفت معه . أشد الاختلاف حين استطاع الأئمة في سلمية إقامة الدولة الفاطمية في المغرب ، ومهما قبل في أصل الأئمة ، ومهما قبل إنهم أظهروا في أثناء خلافتهم المذهب الظاهر وأخفوا المذهب الباطن ، فإن الدولة الفاطمية كانت دولة إسلامية شيعية ، لم تخرج أبداً عن نطاق الإسلام ، اللهم إلا في عهد الحاكم - وقد قتله الفاطميون أنفسهم .

(١) ابن الجوزي : تليس إبليس ص ١٠٤-١٠٥ .

وأخيراً - يحاول سيد المؤرخين المعاصرين العرب الباحث العراقي الممتاز الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري أن يبين أهمية العامل الاقتصادي في قيام الحركات الشيعية المتطرفة في أواخر الدولة العباسية . وهو يتفق مع الأستاذ برنارد لويس في « أن التمايز بين العرب والموالي حل محله تمايز على أساس اقتصادي وصار الحزب الشيعي الثوري يضم تحت لوائه كل الطبقات المظلومة ، فالنبلاء الفرس اعتنقوا مذهب السنة ، بينما العرب الفقراء في العراق والشام والبحرين اتبعوا الغلاة من الشيعة ، ثم يرى الدكتور الدوري أن لويس يتطرق في كتابه أصول الإسماعيلية إلى التدابير الاشتراكية التي اتخذها القرامطة في العراق والبحرين ولكنه لم يبحث الأسس الاقتصادية ، ولم يتعد تلخيص ما ذكره ابن رزام عن تدابير حمدان في العراق وما ذكره ناصر خسرو عن تدابير قرامطة البحرين ، إذ أن الأستاذ لويس لم يعن بالناحية الاقتصادية - على خطورتها - العناية اللازمة فالدكتور الدوري يوجه الأنظار إلى أهمية العامل الاقتصادي الهام في ظهور حركة القرامطة في كتابيه « الحياة الاقتصادية في العراق في القرن الرابع الهجري » و « دراسات في العصور العباسية المتأخرة »^(١) وإني أوجه أنظار الباحثين في مصر بالذات إلى أبحاث الدوري التاريخية المتعددة .

وإذا انتقلنا إلى الكوفة وسوادها - مسرح القرامطة الأول - لوصح أن حمدان بن الأشعث هو أول من لقب بقرمط - وكانت الكوفة إمامية في مجموعها لاشك . ولكن الغلاة كانوا هناك دائماً ، غير أن هناك فرقة من الغلاة كانت لا تقل أهمية في العدد عن المجموعة الإمامية الكبرى - وهي الكيسانية حنفية كانت أو أبا هاشمية - وقد شاركت الكيسانية في كل الحركات الغالية ، ورأينا كيف وقعت في يد الراوندية أو الأبي مسلمية . وفي كل مرة يعود الثائرون المهزومون إلى ديارهم في سواد الكوفة يعملون في الحرف والصناعات . وتكونت منهم النقابات ، ونحن نعلم أن النقابات كانت شيعية أو أقرب إلى الشيعة ، وقد اتخذت شفعاً لها سلمان - الركن الشيعي القديم .

وكان حمدان بن الأشعث على رأس هذه النقابات وقد اشتهر - ككثير من رؤساء النقابات ومن يحملون على عاتقهم مسئولية الطبقات الفقيرة العاملة - بزهد ، كما اشتهر أيضاً بقصر قامته وقصر رجليه وتقارب خطوه ، فدعى بقرمط في بعض الروايات كما قلنا . كما اشتهر باسم صاحب الخال والمدثر والمطوق وكان المبارك المشهور قد أتى وبث دعوته في الكوفة ، لإسماعيل ولمحمد بن إسماعيل ولذريته ، ولا شك أنه رنا بعينه إلى السواد وإلى الكيسانية أو الحنفية المنتشرة فيها . ولكن لا يبدو أنه اتصل بهم اتصالاً مباشراً أو أن مؤسس الإسماعيلية ميمون القداح قد اتصل بهم ، وإنما تم على يد الحسين الأهوازي - مبعوثاً من قبل أبيه عبد الله بن ميمون .

(١) مقدمة الدكتور عبد العزيز الدوري لأصول الإسماعيلية لبرنارد لويس (الترجمة العربية) ص ٣٠ ، ٣٥ ، ٣٦ .

ولقد بقيت لنا عقائد الحنفية أو الكيسانية في هذه وهي العقائد التي بدأت على يد هند الناعطية وليلى بنت قامة المزنية وغيرها من الغاليات والغلاة في محمد بن الحنفية وأولاده . فلم يكن مقتل المختار إذن نهاية لعصر محمد بن الحنفية وأولاده ، ولم يكن تسليم أبي هاشم بن محمد الحنفية الوصية للعباسيين كما ادعى العباسيون - نهاية الكيسانية .

وينقل إلينا الطبري شذوفاً من هذه العقائد عن كتاب للحنفية جاء فيه « بسم الله الرحمن الرحيم : يقول الفرّج بن عثمان - وهو من قرية يقال لها نصراته داعية إلى المسيح : وهو عيسى وهو الكلمة ، وهو المهدي أحمد بن محمد بن الحنفية وهو جبريل . وذكر (أى فى الكتاب) أن المسيح تصور فى جسم إنسان . وقال له : إنك الداعية وإنك الحاجة . ولك الناقة ، وإنك الدابة ، وإنك روح القدس ، وإنك يحيى بن زكريا » .

ثم يقدم لنا الكتاب فرائض جديدة « عرفه أن الصلاة أربع ركعات - ركعتان قبل طلوع الشمس ، وركعتان قبل غروبها . وأن الآذان فى كل صلاة أن يقول : الله أكبر - الله أكبر - أشهد أن لا إله إلا الله مرتين ، أشهد أن آدم رسول الله . وأشهد أن نوحا رسول الله . وأشهد أن إبراهيم رسول الله . وأشهد أن موسى رسول الله ، وأشهد أن عيسى رسول الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، وأشهد أن أحمد بن محمد بن الحنفية رسول الله ، وهى أن يقرأ فى كل ركعة الاستفتاح . ويذكر أنها من المنزل على أحمد بن محمد بن الحنفية . ومعنى هذا أنه وجد أيضاً كتاب منزل على أحمد بن محمد بن الحنفية .

ثم يذكر الكتاب أن القبلة هى إلى بيت المقدس والحج إليه والسورة أى الاستفتاح من هذا الكتاب المنزل « الحمد لله بكلمته ، وتعالى باسمه المتخذ لأوليائه بأوليائه . قل إن الأهلّة مواقيت للناس ، ظاهرها ليعلم عدد السنين والشهور والأيام ، وباطنها أوليائى الذين عرفوا عبادى سبيلى اتقوا يا أولى الألباب ، وأنا الذى لا أسأل عما أفعل وأنا العليم الحكيم . وأنا الذى أحمد عبادى وأمتحن خلقى ، فن صبر على بلائى ومحنى واختبارى ألقته فى جنتى ، وأخلدته فى نعمتى ، ومن زال عن أمرى وكذب رسلى أخلدته مهانا فى عذابى - وأتممت أجلى وأظهرت أمرى على السنة رسلى وأنا الذى لم يعل على جبار إلا وضعته ولا عزيز إلا أذلته ، وليس الذى أصر على أمره وداوم على جهالته وقالوا لن نبرح عليه عاكفين ، وبه مؤمنين ، أولئك هم الكافرون . ثم يركع ويقول فى ركوعه : سبحان ربى رب العزة وتعالى عما يصف الظالمون . يقولها مرتين . فإذا سجد قال الله أعلى الله أعلى - الله أعظم . ومن شرائعه أن الصوم يومان فى السنة وهما المهرجان والنوروز وأن النبذ حرام والخمر حلال ولا غسل من جنابة إلا الوضوء

كوضوء الصلاة، وأن من حاربه وجب قتله ومن يحاربه ممن يخالفه ، أخذت منه الجزية ولا يؤكل كل ذى ناب ، ولاكل ذى مخلب (١) .

هذه هي صورة من هذا الكتاب الحنفى ، انتشر في جنوب العراق ، كما انتشر في البحرين - فيما بعد - وهذه هي العقائد التي كانت تدين بها الكيسانية أو الحنفية في سواد الكوفة حين أتى حسين الأهوازي عام ٢٦٣ هـ يدعو حمدان الأشعث إلى المذهب الإسماعيلي .

ومن الخطأ الكبير أن يقال إن المبارك هو حمدان قرمط على ما ورد في سياسة نامه لنظام الملك . وقد تنبه لويس إلى هذا فقال : كان المبارك على ما ورد في سياسة نامه حجازيا وكان خادما لمحمد بن إسماعيل ، وكان يجيد نوعا من الخط يسمى «مقرمط» ولذلك عرف باسم قرمطويه . وقد أغراء عبد الله بن ميمون القداح فأنشأ فرقة ونشراها وهي الفرقة التي عرفت بالمباركية أو القرمطية نسبة إلى اسمه . وإني لأعتقد بوجوب رفض هذا الزعم الذي يرى المبارك وقرمطويه شخصا واحداً للبيانات والدلائل القديمة الموثوق بها التي تنافيه كالأشعري والبغدادى والمقريزي (٢) .

ومن الواضح أن لويس - تنبه وإن لم يذكر هذا - إلى أن ابتداء أمر حمدان قرمط كان في عام ٢٦٤ . وكان المبارك من موالى جعفر الصادق ، فهناك إذن استحالة تاريخية أن يكونا شخصا واحداً . وقد كان القمي أكثر دقة من صاحب سياسة نامه فقد اعتبر المباركة فرقة شيعية غير غالية ، ولكن افرق عنها فرقة غالية تسمى القرامطة ، وإنما سميت بهذا برئيس لهم من أهل السواد من الأتباط كان يلقب قرمطويه (٣) .

والجلسي في بحار الأنوار يؤيد أيضاً القمي . . فيرى أن فرقة قالت بوفاة إسماعيل في حياة أبيه ، وهؤلاء القرامطة وهم المباركية وسمى القرامطة برئيس لهم من أهل السواد يسمى قرمطويه ، أما المباركية فبرجل يدعى المبارك مولى إسماعيل والقرامطة أخلاف المباركية والمباركية سلفهم (٤) .

قلنا إن الحسين الأهوازي أو الحسين بن عبد الله بن ميمون قد ذهب إلى مقابلة حمدان . وتذكر لنا قصة مقابلة الحسين الأهوازي لحمدان وكأنها مصادفة بحتة « وكان حمدان من أهل الكوفة ، وكان يميل إلى الزهد . فصادفه أحد دعاة الباطنية في فريق ، وهو متوجه إلى قرية وبين يديه بقر يسوقها . فقال حمدان لذلك الداعي وهو لا يعرفه : أين مقصدك ؟ فذكر قرية حمدان فقال له : اركب بكرة

(١) الطبري : ٢١٢٢-٢١٣٢ .

(٢) برنارد لويس : أصول الإسماعيل ص ١١٤ ، ١١٥ .

(٣) القمي : كتاب المقالات ص ٨٣ ، والتونجني : فرق الشيعة ص ٧٢ .

(٤) المجلسي : بحار الأنوار ١٧/٩ وانظر لويس : أصول ص ١١٢ .

من هذه لثلاث تتعب . فقال ؛ إني لم أؤمر بذلك . فقال ؛ وكأنك لا تعمل إلا بأمر . قال : نعم . قال . وبأمر من تعمل ؟ قال . بأمر مالكي ومالكك ومالك الدنيا والآخرة . فقال : ذلك إذن هو رب العالمين . قال : صدقت . قال . فما غرضك في هذه القرية التي تقصدها ؟ فقال : أمرت أن أدعو أهلها من الجاهل إلى العلم ومن الضلالة إلى الهدى ومن الشقاء إلى السعادة . وأن أستنقذهم من وورطات الذل والفقر وأملكهم ما يستغنون به عن الكد . فقال حمدان : أنقذني أنقذك الله وأفض على من العلم ما تحبيني به ، فما أشد احتياجي إلى مثل هذا . فقال : ما أمرت أن أخرج السر المحزون إلى كل أحد إلا بعد الثقة به والعهد إليه فقال : اذكر عهدك ، فإني ملتزم به . فقال له : أن تجعل لي والإمام على نفسك عهد الله وميثاقه ، ألا تخرج سر الإمام الذي ألقيه إليك ولا تفش سرى أيضاً ، فالتزم حمدان عهده ، واندفع الداعي في تعليمه فنون جهله ، حتى استغواه ، فاستجاب له ، ثم انتدب للدعاء ، وصار أصلاً من أصول هذه البدعة ، فسمى أتباعه القرامطة والقرمطية^(١) .

وهكذا صور المؤرخون مقابلة الحسين الأهوازي لحمدان قرمط وتحوله إلى الإسماعيلية . ولكن من الثابت أن دعوة حمدان قرمط إلى المذهب الإسماعيلي كانت أخطر من هذا بكثير ، إذ أن عبد الله بن ميمون وضع ابنه علي بن عبد الله في الطالقان ليكون نقطة الاتصال بينه وبين حمدان وعينا في الوقت نفسه عليه . يقول ابن رزام : « بعث عبد الله بن ميمون الدعاة إلى سواد الكوفة ، فأجابه من هذا الموضع رجل يعرف بحمدان بن الأشعث ، ويلقب بقرمط ، لقصر كان في منته وساقه ، وكان قرمط هذا أكاراً بكاراً في القرية المعروفة بقس بهرام ورأى قرمط ، وكان داهياً . ونصب لدعوته عبدان صاحب الكتب المصنفة ، وأكثرها منحول ، وفرق عبدان الدعاة في سواد الكوفة . وأقام قرمط بكلوذاي ونصب له عبد الله بن ميمون رجلاً من ولده يكاثبه من الطالقان^(٢) . أما السبب في هذا ، فهو أن حمدان قرمط لم يأخذ بالدعوة الإسماعيلية كاملة . وإنما أخذها في صورة كيسانية .

كانت الكيسانية في عهد حمدان قرمط تؤمن بمهدية أحمد بن محمد بن الحنفية وتوقفت فيه ، وآمنت أنه المسيح المنتظر . فلما اتصل حمدان قرمط بالإسماعيلية قدم نفس المذهب ، غير أنه استبدل أحمد بن محمد بن الحنفية بمحمد بن إسماعيل والقى وهو من أدق من يحدثنا عن عقائد الشيعة يقول إن القرامطة خالفوا المباركية الإسماعيلية في أنهم قالوا « لا يكون بعد محمد النبي ﷺ إلا سبعة أئمة : علي بن أبي طالب وهو إمام رسول والحسن والحسين وعلي بن الحسين . ومحمد بن علي وجعفر بن محمد

(١) ابن الجوزي : تليس ص ١٠٤-١٠٥ .

(٢) ابن النديم : الفهرست ص ٢٧٩ .

ومحمد بن إسماعيل بن جعفر «وهو الإمام القائم المهدي وهو رسول» وزعموا أن النبي ﷺ انقطعت عنه الرسالة في حياته في اليوم الذي أمر فيه بنصب علي بن أبي طالب عليه السلام للناس بغدير خم ، فصارت الرسالة في ذلك اليوم في علي بن أبي طالب واعتلوا في ذلك بقول رسول الله ﷺ وآله «من كنت مولاه فعلي مولاه» وأن هذا القول منه خروج من الرسالة والنبوة وتسليم منه في ذلك لعلي بن أبي طالب بأمر الله عز وجل ، وأن النبي ﷺ بعد ذلك كان مأموماً لعلي محجوجاً له ، ولا مضى عليه السلام انتقلت الإمامة إلى الحسن ثم إلى الحسين ، ثم إلى علي بن الحسين ، ثم في محمد الباقر ، ثم كانت في جعفر الصادق . وانقطعت الرسالة عن جعفر في حياته ، كما انقطعت عن النبي ﷺ ، في حياته ، ثم إن الله بدا له في إمامة جعفر وإسماعيل «فصيرها في محمد بن إسماعيل» وزعموا أن محمد بن إسماعيل حتى لم يمت وأنه في بلاد الروم . وأنه القائم المهدي ، وأنه يبعث برسالة وشريعة جديدة ينسخ بها شريعة محمد ﷺ ، وأن محمد بن إسماعيل من أولى العزم وأولو العزم عندهم سبعة ، (وهذا ما أخذوه من الإسماعيلية) نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وعلي ومحمد بن إسماعيل ، على معنى أن السموات سبع وأن الأرضين سبع . . . إلخ . ويذكر النويحي أنهم آمنوا بالقائم إيماناً تاماً وأنهم أوردوا الأخبار عن الصادق في هذا «لوقام قائمنا علمتم القرآن جديداً» (١) .

هنا تبين لنا صورة العقائد القرمطية الأولى ، وهي توازي تماماً عقائد الكيسانية أو الخنفية التي أوردناها من كتابهم في أول هذا الفصل ، فلما ظهر عبيد الله المهدي حجة الإمام ، مدعياً أنه المهدي المنتظر ، ثار حمدان قرمط وداعيته عبدان . ولم يتنبه معظم الباحثين - إن لم يكن كلهم - إلى أن إسماعيلية القرامطة كانت مختلفة عن إسماعيلية المركز الرئيسية في سلمية ، كان المركز يعلم أن هناك إماماً حياً ، وأن هناك حجة له فلما تنازل الإمام الحسين عن الإمامة لسعيد بن الحسين بن عبيد الله القداح ليكون سترًا أو مستودعاً لابنه القائم ، كما سنفسر هذا فيما بعد ، انتقض قرامطة السواد وعلي رأسهم حمدان قرمط ، أول زعيم للقرامطة وصهره عبدان المؤلف والداعية القرمطية المشهور ، وسافر عبداً لمقابلة سعيد المعروف بعد ذلك بعبد الله المهدي . وسأله عن الحجة وعن الإمام من بعده فقال سعيد أي المهدي لعبدان : ومن الإمام ؟ فرد عبدان بمقيدة القرامطة «محمد بن إسماعيل بن جعفر صاحب الزمان الذي كان أبوك يدعو إليه وكان حجته . فأنكر ذلك عليه وقال : محمد بن إسماعيل لا أصل له ولم يكن الإمام غير أبي وهو من ولد ميمون بن ديصان وأنا أقوم مقامه» (٢) .

وهذا يدل دلالة واضحة على أن قرامطة السواد كانوا لا يؤمنون سوى بمحمد بن إسماعيل مهدي

(١) القمي : كتاب المقالات ص ٨٣ ، النويحي : فرق الشيعة ص ٧٣-٧٤ .

(٢) نقل هذه النصوص إلينا الدكتوران حسن إبراهيم ، وطه شرف عن النويري : نهاية الأرب المخطوط : ص ٧٨٥

الامة . وستبقى هذه العقيدة مدة طويلة بعد عند بعض طوائف قرامطة البحرين ، كما ستبقى الحنفية أى موالاة محمد بن الحنفية وأولاده لديهم منتشرة بعنف .

وقد حاول الدكتوران حسن إبراهيم وطه شرف أن يستنتجا من انتقاض حمدان وعبدان على سعيد القداح نتيجة هامة وهى أن الإمام المستور لم يكن معروفاً للقرامطة ، على حين أن الذى كان يتراسل معهم هو الحجة الذى كان يقر فى مكاتباته معهم بأنه نائب عن الإمام لا الإمام . وهذه النتيجة غير صحيحة بإطلاق ، بل تحتاج إلى تعديل كبير وهى : أن قرامطة السواد لم يعرفوا أبداً إماماً مستوراً ، بل كانوا يعرفون إماماً واحداً غائباً ، إماماً مهدياً ، هو محمد بن إسماعيل .

أما القسم الثانى من دعوة حمدان بن الأشعث ، فكان التنظيم النقابى أو التنظيم الاجتماعى لحياة أتباعه ، ففرض عليهم عدة ضرائب وجبايات تصاعدية أو متدرجة . ثم فرض عليهم الألفة وهو أن يجمعوا أموالهم فى موضع واحد ، وأن يكونوا أسرة واحدة ، لا يفضل واحد منهم صاحبه وأخاه فى ملك يملكه وتلا قوله تعالى « واذكروا نعمة الله عليكم ، إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم ، فأصبحتم بنعمته إخواناً » وتلا عليهم قوله تعالى « لو أنفق ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ، إنه عزيز حكيم » وعرفهم أنه لا حاجة بهم إلى أموال تكون معهم ، لأن الأرض بأسرها ستكون لهم دون غيرهم وقال لهم : هذه محتكم التى امتحنتم بها ، لنعلم كيف تعلمون . وطالبهم بشراء السلاح وإعداده وذلك فى سنة ست وسبعين ومائتين . وأقام الدعاة ، فى كل قرية ، رجلاً مختاراً من ثقاتها ، يجمع عنده أموال قريته من بقر وغنم وحلى ومتاع وغيره . فكان يكسوعاريهم ، وينفق عليهم ما يكفيهم . وأخذ كل رجل منهم بالانكفاء على صناعته والتكسب بجدده ، كيلا يكون له الفضل فى رتبته . وكانت المرأة تجمع إليها كسبها من مغزها والصبي أجر نظارته الطير . فلم يملك أحد منهم إلا سيفه وسلاحه . فلما استقام له ذلك كله ، صبوا إليه ، وعملوا به . أمر الدعاة أن يجمعوا النساء ليلة معروفة ، ويختلطن بالرجال . وقال : إن ذلك من صحة الود والألفة منهم (١) .

وقد عدد المقرئى هذه الضرائب ، ضريبة الفطرة ، وضريبة الهجرة وضريبة البغلة ثم ضريبة الخمس (٢) .

وقد أراد حمدان بهذه الاشتراكية المالية نشر السلام بين أتباعه ، وأن يكون « دولة الله » أما الاشتراكية الاجتماعية فقد نسبها أهل السنة إلى القرامطة والإسماعيلية ، فقد ربطوا بين المزدكية وبين القرامطة والإسماعيلية . وقد ذهب نظام الملك - مؤلف سياسة نامه - إلى أن الإسماعيلية هى استمرار

(١) النويرى : نهاية الأرب - مقتطفات عن لويس فى أصول لإسماعيلية ص ٢٠١ .

(٢) المقرئى : اتعاظ الحنفا ص ١٤ .

للمزدكية في العصر الساساني . ويرى أن خرمه امرأة مزدك هي التي أنشأت الفرقة الخرميدينية في أواخر الدولة الأموية ، وأن عمار بن بدليل المعروف بخدّاش - وهو داعية العباسي في فارس - كان من أتباعها ، وأن آراءه الإباحية لم تنته بقتله ، بل ظهرت لدى الفاطمية أتباع فاطمة بنت أبي مسلم الخراساني وابنها فيروز ، ثم لدى فرق الأبي مسلمية أتباع مسلم نفسه . بل إن أبا مسلم في رأي كثيرين من أهل السنة كان خرميا ، مزدكيا ، ثم سنباذ المجوسي ، وقد قام بثورته المشهورة ، كان خرميا وكذلك يستفاد أو المقنع الخراساني . ثم ظهر بابك الخرمي مؤسس الخرمية أو الخرميدينية الأواخر ، محدداً لآراء الخرمية الأوائل أتباع خرما .

وقد بقيت آراء مزدك الاشتراكية في العصر الأموي كامنة ، ثم ظهرت في العصر العباسي الأول ، لدى فرق الأبي مسلمية ، وفي العصر العباسي الثاني نفذت إلى أعماق المذهب الإسماعيلي عامة والقرمطي خاصة . ومن المؤكد أن مزدكا نادى باشتراكية المال ، ولكن من المشكوك فيه أنه نادى باشتراكية النساء . ولا يوجد نصوص واضحة تؤكد هذا . ومن المشكوك فيه أيضاً أن ينادى حمدان ابن الأشعث بهذه الاشتراكية الاجتماعية ، أي اشتراكية النساء . إنه ينبغي أن نعترف أن النظام المالي الاشتراكي الذي أقامه حمدان قرمط نجح أكبر نجاح في سواد الكوفة ، كما نجح في البحرين فيما بعد . وأقام مجتمعاً قوياً أقلق الدولة العباسية التي كانت غارقة في الملذات ، وفي الفوضى ، وكاد أن يقضى عليها .

ومن الخطأ البالغ أن يقال إن هذا النظام الاشتراكي كان من صنع الأئمة في سلمية - إنه لم يكن إسماعيلياً على الإطلاق . لقد كان قرمطياً فقط ، وضعه حمدان قرمط ، ثم انتشر في البحرين ومن المحتمل أيضاً أن يكون قد انتشر في اليمن ، بعد أن شق على بن فضل عصا الطاعة على عبيد الله المهدي - وأنشأ مجتمعاً قرمطياً بحتاً .

أخذ حمدان بن الأشعث يرسل الدعاة إلى البلاد القريبة منه - فأرسل أبا سعيد الجنابي « وكان من مستجيبة حمدان كما يذكر البغدادي - إلى البحرين ^(١) وتغلب عليها كما أرسل زكرويه بن مهرويه الدنداني إلى شمال العراق « وكان من تلامذة حمدان » وظهر مأمون أخو حمدان بأرض فارس - وقرامطة فارس يقال لهم المأمونية لأجل ذلك ^(٢) .

أما أهم دعائه ، فقد كان صديقه وصهره الداعي عبدان . وقد أنشأ سوبا « دار الهجرة » حين تحولا إلى المذهب الإسماعيلي القطعي - أي القطع بإمامة محمد بن إسماعيل . وكانت دار الهجرة أو « مدينة الله » مثلاً من أكبر الأمثلة في إدارتها واشتراكيها . وكان أمر الدعوة إلى عبدان ، صاحب الكتب

(٢) نفس المصدر : ص ١٧٠ .

(١) البغدادي : الفرق ١٦٩ .

المصنفة كما يسميه ابن رزام . ويذهب ابن رزام أيضاً إلى أن الدعاة إلى اليمن وفارس والأحساء صاروا من جهة عبدان خليفة قرمط وصهره . وقد كتب عبدان كتباً كثيرة . ويذكر ابن النديم أن لعبدان فهرساً يحتوي على ما صنّفه من كتب علاوة على أن « كل من عمل كتباً نخله إياها » وهذا يدل على أن الرجل كان داعية القرامطة الأول .

ويذكر له ابن النديم من الكتب - كتاب الرحا والدولاب ، كتاب الحدود والإستاد ، كتاب الزاهر ، كتاب الميدان ، ومن كتبه الكبار - كتاب النيران وكتاب الملاحم ، وكتاب المقصد . ويقول ابن النديم إن هذه الكتب هي الموجودة والمتداولة - أما باقي ما في الفهرست ، فقل ما رآه أو عرفه إنسان أنه رآه . ثم يذكر كتاب البلاغات السبعة . ويذكر أنه قرأه ، ورأى فيه أمراً عظيماً من إباحة المحظورات والوضع من الشرائع وأصحابها ^(١) . ولكن ابن النديم لا ينسبه إلى عبدان ، بل ذكره بين قائمة كتب عبدان منسوباً للإسماعيلية .

وحين انتفض حمدان على عبيد الله المهدي صديقه عبدان كما قلنا لسلمية ، ثم يسرع على ابن عبد الله بن ميمون إلى سواد الكوفة ، ليلقي عبدان ، ويدور الحديث بينهم في شدة واحتداد - ويخبره عبدان أنهم قطعوا الدعوة الإسماعيلية وأنهم لا يعودون فيها ، وأن أباه كان قد غرهم ، وادعى نسبه إلى عقيل بن أبي طالب كذبا ، ودعا إلى المهدي ، فكنا نعمل لذلك ، فلما تبينا أنه لا أصل له ، وعرفنا أن أباه من ولد ميمون بن ديصان ، وأنه صاحب الأمر ، تبنا إلى الله مما تحمّلنا ، وحسبنا ما كفرنا أبوك ، فتريد أن تردنا كفاراً ، انصرف عنا إلى موضعك ^(٢) .

ولكن هل عاد القرامطة في سواد الكوفة إلى عقيدة أهل السنة والجماعة ، كما تساءل الدكتور حسن إبراهيم إنه يقول : لو أنه فعل ذلك لما سكت المؤرخون السنيون . والرأي الصحيح عندي أن أتباع حمدان وعبدان عادوا إلى الكيسانية المسالمة إلى عقيدة مهديّة أحمد بن محمد بن الحنفية . ولكن على ابن عبد الله بن ميمون قداح الطالقان أسرع إلى الميدان ، وأتى بذكرويه بن مهرويه داعية حمدان قرمط وعبدان حوالي سنة ٢٨٦ هـ وقتل حمدان أو اختفى ، ولعله أراد أن يتغيب ، كما تغيب إمامه القديم مهدي الزمان محمد بن الحنفية وأبناؤه ثم قتل عبدان بيد أبناء زكرويه . وبالرغم من تخلي حمدان وعبدان وأتباعها عن الإسماعيلية ، وعودتها إلى الكيسانية ، فقد بقيت مجموعة من القرامطة تدين بالولاء لحمدان ولعبدان ولكنها تؤمن بمحمد بن إسماعيل فزرى الداعي بن مليح يبقّى موالياً للإسماعيلية وقد قام هذا الفريق الموالي بثورة على العباسيين بسواد الكوفة في سنة ٢٨٧ ، ٢٨٩

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٢٨١-٢٨٢ .

(٢) النويري : نهاية الأرب ج ٢٣ ، ورقة ٧٠ ، وانظر الدكتور حسن إبراهيم : عبيد الله المهدي ص ٩٥ .

تحت قيادة أبي الفوارس وكان من أخلص دعاة حمدان وصهره عبدان ، كما قام أبو حاتم البوراني - زعيم البورانية الإسماعيلية وخليفة أبي الفوارس بثورة عامة في سواد الكوفة على العباسيين . قرامطة الشمال : دفع قداح الطالقان زكرويه بن مهرويه إلى قتل سيده عبدان ، وقد كان زكرويه من دعاة عبدان المباشرين ، ثم عينه على بن عبد الله رئيساً لقرامطة السواد ، ولكنه اضطر إلى الفرار واختفى في قرية من قرى السواد . وقد رأى أن أعداءه يحيطون به من كل جانب فالعباسيون في أثره ، وأنصار حمدان وعبدان وراءه يتبعونه ، والمهدى في سلمية لا يريده ، فقد عين بغير أمره . علاوة على أن استناره كان يخفى وراءه غاية أخرى - وهو إعلان إمامته هو . وانتسابه إلى محمد بن إسماعيل ، كما انتسب أولاده ، وأن يحاول إنشاء دولة فاطمية في سوريا .

اختفى أبو محمد زكرويه داعي الكوفة عام ٢٨٦ هـ . وتقدم أولاده الثلاثة للعمل وهم أبو القاسم يحيى : صاحب الناقة ، وأبو مهزول الحسين صاحب الشامة وأبو العباس . ولما عزهم أبو الحسين بن الأسود داعي المهدي سعيد القداح من دعوة الكوفة اجتمع الإخوة الثلاثة وتعاهدوا على الذهاب إلى سلمية لقتل ابن البصري - أي المهدي « هذا الذي كلف أبا الحسين أن يفعل بنا هذا الفعل ولا نتركه . وقالوا : حتى ينقطع ذكر علي بن أبي طالب من هذه الدنيا . ونقتل بعده أبا الحسين » . أما عقائد زكرويه وأولاده ، فيبدو أنها قريبة جداً من آراء قرامطة السواد . ولا غرابة في هذا فقد كان زكرويه من دعاة عبدان : وهذه الآراء هي إمامة محمد بن إسماعيل ونبوته أي أنهم توقفوا فيما بعده من الأئمة ، ويبدو أنهم كانوا يعتقدون أن سعيداً الخير هو حجة الإمام الغائب ، فلما أعلن سعيد إمامته هو ، انضم إليه زكرويه وأولاده طمعا في المناصب وأملوا في أن يخلفوا هم حمدان وعبدان ، وقتلواهم فلما عزهم سعيد الخير بواسطة أبي الحسين بن الأسود داعيه ، عادوا إلى مذهبهم القرمطي ، وانتسبوا هم أنفسهم إلى محمد بن إسماعيل . وأعلن يحيى بن زكرويه أو القاسم بن محمد عام ٢٨٩ أنه صاحب الزمان وأنه محمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل ، وأنه مهدي آخر الزمان ، وأن ناقته مأمورة ، فإن تبعوها ظفروا - فسمى بصاحب الناقة ، وأن أباه المعروف بأبي محمود داعية له . ودعاه أتباعه « بالشيخ »^(١) . وألاحظ هنا أنه يستخدم مصطلحاً كيسانياً حنفياً وهو مصطلح صاحب الناقة . وقد رد هذا المصطلح في كتاب الحنفية الذي أوردنا بعض عبارته من قبل .

وهكذا نرى أن مهدي الزمان قد ظهر في الكوفة . ثم انتقل إلى بادية الشام ، وكانت إسماعيلية ، محاولاً إنشاء الدولة الفاطمية في سوريا . ظهرت أسرة أخرى منافسة لعبيد الله المهدي سعيد القداح وأسرة القداح في ادعائها حجية الأئمة المستورين . فهم إذن كيسانية إسماعيلية ، أي آمنوا بمحمد بن

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ٢٢١٨ .

إسماعيل على طريقة الكيسانية ، أى أنه القائم الذى سيعود ، ثم حين ادعى سعيد الخير القداحى الإمامة وانتسابه إلى محمد بن إسماعيل ادعوها هم أيضاً وقبل وصول إناء زكرويه إلى سورية ، غادر المهدي سلمية عام ٢٨٦ مع الإمام المستقر أبى القاسم ، الذى تولى الخلافة الفاطمية بعد سعيد الخير فيما بعد .

أعلن أبناء زكرويه آراءهم فى شمال سوريا ، وأباحوا أيضاً الأموال لأتباعهم « وحملوا بنى العليص على صريحهم ؛ فقتلوا جماعة منهم واستذلوهم . وضرب يحيى بن زكرويه نقوداً نقش على وجه منها « قل جاء الحق وزهق الباطل ، وعلى الوجه الآخر « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى » ويقول المسعودى إن دعوته نالت كثيراً من النجاح حتى تفرمط أكثر من كان حول دمشق من الغوطة وغيرها وعاضدوها » (١) .

وقد أورد برنارد لويس عن ثابت بن سفيان الصائى الخطبة التى ألقيت فى حمص بعد أن احتلها يحيى الشيخ سنة ٢٩٠ هـ . وهى نصها « اللهم اهدنا بالخليفة الوارث المنتظر المهدي صاحب الوقت أمير المؤمنين المهدي . اللهم املأ الأرض به عدلاً وقسطاً ودمر أعداءه - اللهم دمر أعداءه » (٢) . وظن لويس أن هذه الخطبة إسماعيلية خالصة وبخاصة أن أبناء زكرويه أعلنوا فى سوريا أنهم فواطم كما يذكر الطبرى (٣) . وهذا خطأ . فأبناء زكرويه أتوا إلى سوريا لقتل عبيد الله سعيد القداح الذى ادعى المهدي ، فالخطبة قطعاً ليست له . علاوة على أن التأمل الذاتى أو النقد الباطنى للخطبة ، إنما يدل على روح كيسانية أو حنفية وهى التى تؤمن بانتظار المهدي الغائب ، وهو محمد بن الحنفية أو أبناؤه من بعده ، ثم صبغت بصبغة إسماعيلية . أما الإسماعيلية الخالصة فهى لا تنادى بغائب على مر الأجيال ، وإنما بمستتر حتى ، لم يأن أوان ظهوره بعده . فالخطبة ذات أساس كيسانى حنفى فى الباطن ، مع مسحة إسماعيلية ظاهرة .

أما انتساب أبناء زكرويه إلى الفاطميين وتسمية الحسين بن زكرويه باسم محمد أو أحمد بن عبد الله ابن محمد بن إسماعيل وابن عمه باسم عبد الله بن عيسى بن محمد بن إسماعيل ، فقد فعلوا هذا فقط كسباً للأنصار فى منطقة سلمية وبقية المدن السورية ، وكانت الدعوة الإسماعيلية منتشرة فيها ، وبخاصة أحياء كلب فى بادية الشام ومحاربة المهدي عبيد الله الذى فر منهم هارباً إلى الرملة وادعى أيضاً نسباً لمحمد بن إسماعيل وقد أخطأ لويس مرة أخرى حين قال « أما زكرويه وأبناؤه - فإما أن يكونوا قداحيين أو

(١) المسعودى : التنبيه ص ٣٢٢ .

(٢) لويس : أصول الإسماعيلية ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

(٣) الطبرى : تاريخ .. ص ٢٢١٩ ، ٢٢٥٧ .

أن الأئمة - وهى الأرجح - قد خولوا لهم التسمية بالإمامة ليجسوا النبض ويميطوا العقبات الأولية» ومن الثابت أن زكرويه كان من دعاة عبدان وعلى صلة مباشرة به ، ثم انقلب عليه بإيحاء قداح الطالقان ثم انقلب على القداحية كلها حين عزل هو وأبناؤه من دعوة الكوفة وأرسل أولاده لقتل عبيد الله المهدي أو سعيد القداح فى سلمية . وتجمع المراجع الإسماعيلية على لعن زكرويه وأبنائه ، واعتبارهم خونة . ونرى النيسابورى الإسماعيلى يقول فى كتابه «استتارة الإمام» إنه لما اتصل خبر عزم انتقال أبناء زكرويه إلى بادية الشام بدعاة سعيد القداح - عبيد الله المهدي - فى بغداد «كتبوا إلى المهدي عليه السلام أن بنى أبى محمد (أى أبناء زكرويه) قد عزموا على قتلك وقتل أهلِكَ . فإن كنت قاعداً فإنهم زحفوا إليك ، وهم عازمون على قتلك . فإن لم يجدوا إلى ذلك سبيلاً ، وشوا بك إلى هارون بن أحمد بن طولون وهم يقولون إنك مخالف للمذهب ويشهرون أمرك ، فاعمل على خلاص نفسك ولا تقم ساعة واحدة» (١) . وإذن أعلن زكرويه وأبناؤه أن المهدي مخالف للمذهب ، أى أنه خرج على ما عرفوه من المذهب الإسماعيلى ، وهو أن محمد بن إسماعيل هو الإمام الأخير المهدي ، فلا يحق لإنسان أن يدعى نفسه إماماً ، وأعلن أبناء زكرويه أنهم عازمون على أن يشهروا أمر «سعيد الخير» أى أنه ليس هو المهدي ، بل هو من ولد القداح .

وقتل يحيى الشيخ على أبواب دمشق ، وتولى زعامة القرامطة أخوه حسين أبو مهزول . وقد اتخذ الحسين حمص عاصمة له . وأنشأ الدولة الفاطمية الأولى قبل إنشاء الدولة الأخرى فى المغرب . وولى أقاربه ، فجعل ابن عمه قائد الجيوش وولى عهده : وسماه المذكر . وخطب الحسين على منابر دمشق باسم أمير المؤمنين وهذا دليل آخر على أن أبناء زكرويه لم يكونوا إسماعيلية خالصة . ثم قتل الحسين بن زكرويه داعى الدعاة أبا الحسين ، ثم قتل أهل عبيد الله المهدي جميعاً .

ولا يهمننا حروبه بعد ذلك فى الشام ولا حروب أخيه بعده . ولا قتله على أيدي العباسيين عام ٢٩٤ . وإنما يهمننا أن نبين أن قرامطة الشمال لم يكونوا على الإطلاق إسماعيلية خالصة ، بل كانوا أولاً وبالذات حنفية كيسانية ، آمنت فى فترة بالمذهب الإسماعيلى على طريقة كيسانية أيضاً ، ثم انتهى بهم الأمر إلى الارتداد عن المذهب ، وحاولوا بكل الوسائل القضاء على الإمام الإسماعيلى المستودع - كما سئرى بعد - عبيد الله المهدي . وأنهم لم يكونوا من أحفاد ميمون بن ديصان كما ذكر البغدادي (٢)

أما نهاية زكرويه بن مهرويه نفسه ، فإن المقدسى فى البدء والتاريخ يذكر أن زكرويه خرج فى أيام المعتضد بالله فى قبيلة كلب على الحاج «فقتلهم وسباهم وقصد الكوفة ، فأنهض إليه السلطان جيشاً

(١) الدكتور حسن إبراهيم والدكتور طه شرف : عبيد الله المهدي ص ١٠٦

(٢) البغدادي : الفرق ١٧٤

فأرسلهم خمسة أشهر ، ثم ظفروا به فحملوه إلى بغداد على طريق الشهرة والنكال ، فأتى في الحبس ، ثم أخرج فصلب ، فسرقه القرامطة عن خشيته (١) وهذا يدل على أن زكرويه نفسه لم يتوقف عن الحركة وهو مستتر ، بل حاول أن يشغل جيوش الخليفة في الجنوب في الوقت الذي كان يحارب فيه أولاده في الشمال ، وتدل سرقة جثته على أيدي قرامطة بغداد أن للقرامطة كانوا أيضاً منتشرين في عاصمة العباسيين ، وأنهم كانوا على إيمان مطلق بعقائدهم ، وعلى استعداد للتضحية في سبيلها .

قرامطة البحرين :

ويبدو أن حمدان بن الأشعث أو حمدان قرمط كان أكبر شخصية باطنية في أواخر القرن الثالث ، وأن القول بأنه كان جاهلاً أكاراً أو بقاراً ليس من الصحة في شيء ، كان الرجل منظماً من الدرجة الأولى ، وقد قام - كما رأينا بتنظيم ما يقال له حركة القرمطة في سواد الكوفة على أساس عقائدي أولاً ثم على أساس نقابي أو اقتصادي ، وأنه هو وعبدان قد أرسلوا الدعاء لشمال العراق ، كما أرسلوا الدعاء لجنوبي فارس والبحرين . ومن العجب أن يذكر بعض المؤرخين أنه كان صابئاً يقول البغدادي « ومنهم من نسب الباطنية إلى الصابئين الذين هم بحران ، واستدل على ذلك بأن حمدان قرمط داعية الباطنية بعد ميمون بن ديصان كان من الصابئة الحرائية . واستدل أيضاً أن صابئة حران يكتمون أديانهم ولا يظهرونها إلا لمن كان منهم . والباطنية أيضاً لا يظهرون دينهم إلا لمن كان منهم بعد إحلافهم إياهم على أن لا يذكر أسرارهم لغيرهم » (٢) ومع شكى في أن يكون حمدان قرمط صابئاً حرائياً ، إلا أن هذا دليل على أن الرجل كان على علم بمذاهب الصابئة الحرائية ونحن نعلم أن هذا المذهب مذهب أفلاطوني فلسفي مع عناصر غنوصية . ثم إن نص البغدادي يذكر أن حمدان قرمط كان صاحب الدعوة بعد ميمون بن ديصان ، وبهذا جعله البغدادي موازياً لعبد الله بن ميمون ومن أصحابه . وقد تصرف الرجل تماماً كمن سبقه حتى بعد تحوله من الكيسانية الخالصة إلى نوع من الإسماعيلية . يهنا بوجه خاص هنا أن نشير إلى مجهوداته في الأحساء والقطيف والبحرين .

كان أول داعية باطني للبحرين هو يحيى بن المهدي ، ويبدو أن يحيى هذا كان هو على بن عبد الله ابن ميمون - قدامح الطالقان ، وقد تسمى - على عادة الباطنية - بأسماء مختلفة منها أبو زكريا الطمامي ، ويحيى الطمامي ويحيى بن علي . وأرسيل حمدان قرمط في الوقت عينه داعياً آخر هو أبو سعيد الجنابي ،

(١) المقدسي : البدء والتاريخ ج ٦ ص ١٢٦

(٢) البغدادي : الفرق ص ١٧٧ .

ومن مدينة جَنَابَة على الخليج الفارسي شرقاً ، وظهر بعده (بعد حمدان قرمط) في الدعوة إلى البدعة أبو سعيد الجنابي وكان من مستجبيه حمدان وتغلب على ناحية البحرين ودخل في دعوته بنوسنبر^(١) .
 وحين انتقض حمدان على عبيد المهدي ، تابعه أبو سعيد الجنابي وقتل يحيى بن المهدي - قداح الطالقان ، واستولى على الإمارة - وبخاصة بعد اختفاء حمدان وقتل عبدان - « وأعلن أنه يمثل الإمام المهدي الذي وعد بظهوره عام ٣١٠ هـ وهو الإمام محمد بن عبد الله بن الحنفية »^(٢) .
 وبهذا عاد أبو سعيد الجنابي إلى عقيدة الكيسانية أو عقيدة الحنفية ، كما فعل أستاذه وزعيمه حمدان قرمط حين عرف هذا الأخير بمذبة عبيد الله المهدي - ابن القداح - وكما فعل أيضاً زكرويه بن مهرويه حين رأى أن عبيد الله المهدي قد خدعهم ، ولم ييقهم حتى في مركز الدعوة بالكوفة - فالمستشرق - كازانوفا كان على حق ، حين ذكر الإمام الذي قاتل لأجله القرامطة الأولون كان إماماً حنفياً من سلالة محمد بن الحنفية ، ولكنه لم ينتبه إلى أنهم صلبوا إلى إسماعيلية خاصة مقيدة ، ثم ما لبثوا أن رجعوا عنها جميعاً ، حمدان بن الأشعث وأبوسعد (الحسن بن بهرام) لأسباب عقائدية ، وزكرويه (الفرج بن عثمان القاشاني) وأولاده لأسباب مادية . وأياً ما كان الأمر ، فقد أعلن أبو سعيد الجنابي استقلاله عن الدعوة الفاطمية . وقد رأينا من قبل أن علي بن فضل الجدي قد ذكر في خطابه لابن حوشب أنه ينهج نهج أبي سعيد الجنابي في خلعه طاعة ميمون وابنه من بني القداح ويؤيد ذلك قول ابن حوقل « وكان حمدان قرمط وأبوسعيد إذ ذاك في دعوة السلطان حذاء أمير المؤمنين المهدي بالله ، فرجعا عما كانا يعتقدانه وخالفاً ذلك . وجرت خيوط وتحاليل كثيرة في بعض الروايات »^(٣)

أما المسعودي فيسمى قرامطة الكوفة بالبقلية ويقول إنه اسم ديانى عندهم^(٤) .
 فالحركة القرمطية إذن عادت إلى الحنفية في سواد الكوفة وفي شمال العراق وكذلك في البحرين . وفي نص ابن حوقل نفسه ، وهو إسماعيلي ، ما يثبت أن أبا سعيد الجنابي قد رجع عن معتقداته الإسماعيلية . وأقام مجتمعاً قرمطياً خالصاً ، سواء في معتقداته أو في نظامه المالي فطبق اشتراكية كاملة لا في المال وحده ؛ بل في نظام العمل والمجتمع كذلك . وقتل أبو سعيد الجنابي عام ٣١٠ هـ . وتولى إمارة القرامطة ابنه سعيد ، وسرعان ما أعلن عودته إلى حظيرة أهل السنة والجماعة في خطابه

(١) البغدادي : الفرق ص ١٧٩ .

(٢) لويس : أصول الإسماعيلية ص ١٧٠ عن نص للقاضي عبد الجبار ولم يستفد لويس بهذا النص استفادة خاصة ؛

(٣) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٢١٠-٢١١ .

(٤) المسعودي : التنبيه ص ٣٩٨ .

إلى على بن عيسى وزير المقتدر «إنا نحمد الله الذي لا إله إلا هو ونسأله أن يصلى على سيدنا محمد . فأما ما ذكره عنا من انفرادنا عن الجماعة فحن - أيدك الله - لم ننفرد عن الطاعة والجماعة بل أفردنا عنها وأخرجنا من ديارنا ، واستحل دماءنا . . . كان قديم أمرنا أنا كنا مستورين مقبلين على تجارتنا ومعاشنا . ننزه أنفسنا عن المعاصي ، ونحافظ على الفرائض . فنقم علينا سفهاء الناس وفجارهم ممن لا يعرف بدين ، وأكثروا التشنيع علينا بيننا بالسوية وأنا لا نحرّم حراماً ولا نحل حلالاً ، فخرجنا هارين ، ومن بقى منا جعلوا في رقابهم الحبال والسلاسل ، فألجأونا إلى جزيرة ، فأرسلنا في طلب أموالنا وحرينا ، فنعونا ، وعزموا على حربنا ، فحاكمناهم إلى السيف . قال تعالى «ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله» فنصرنا الله عليهم . وأما ما ادعى علينا من الكفر وترك الصلاة . فنحن تائبون مؤمنون بالله» هذا ما أرسله سعيد بن أبي سعيد إلى وزير الخليفة يعلن ترو القرامطة من أى مذهب إباحي أو اشتراكي اجتماعي .

ولكن حكم سعيد السني لم يطل أكثر من أربع سنوات ، ويذهب النويري في نهاية الأرب ^(١) إلى أن سعيداً سلم الأمر إلى أخيه الأصغر أبي طاهر بناء على وصية والده «أوصى إليهم : أى أبو سعيد- إن حدث ، أن يكون القيم بأمرهم ابنه سعيد إلى أن يكبر أبو طاهر ، وكان سعيد أكبر سنّاً من أبي طاهر فإذا كبر أبو طاهر كان المدبر لهم ، ولما قتل - أى أبو سعيد - جرى الأمر على ما وصاهم به وكان أبو طاهر سبّ سعيد ، وكان أبو سعيد قد أخبرهم أن الفتوح تكون لأبي طاهر . فجلس سعيد يدبر الأمر بعد مقتل أبيه إلى سنة خمس وثلاثمائة ، ثم سلم الأمر لأخيه أبي طاهر - فعمل أشياء موه بها على أصحابه - فقبلوه وعظموا أمره» .

أما ابن خلدون فيذكر «ثاربه - أى سعيد - أخوه الأصغر أبو طاهر ، فقام بأمرهم - وبايعه العقدانية - وجاءه كتاب عبيد الله المهدي بالولاية» ^(٢) والروايتان متعارضتان إلى حد ما . فبينما تذكر الرواية الأولى أن سعيداً سلم بنفسه الأمر إلى أخيه ، وكان هو بلغة الباطنية إماماً مستودعاً لأبي طاهر وكان أبوه أبو سعيد قد تنبأ له بالسلطان - وسرى صورة من الأساطير والتنبؤات التي أحيطت بقيام أبي طاهر - تذكر الرواية الثانية أن ثمة ثورة حدثت وأن «العقدانية» أى كبار مشيخة المذهب قد بايعوا أبا طاهر ، ثم التأييد من عبيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين بالقيروان .

ويستنتج الدكتوران حسن إبراهيم وطه شرف أنه كان هناك فريق من القرامطة ما زال يؤمن بالمذهب الإسماعيلي . وأن هذا الفريق قام بالثورة على سعيد ووضع أبا طاهر أميراً على القرامطة عام

(١) النويري : نهاية الأرب ، وحسن إبراهيم وطه شرف : عبيد الله المهدي ص ٢١٦ ، ٢١٧ .

(٢) ابن خلدون : المعبر ح ٥ ص ٨٨-٨٩ .

٢٠٥ هـ . ولكن الدكتور حسن إبراهيم وزميله ، أخطأ (كما أخطأ دوزي معها) حين يقولان «ومن ثم استمرت علاقة الفاطميين بالقرامطة منذ سنة ٣٠٥ حتى نهاية حكم أبي طاهر سنة ٣٣٢ هـ على خير ما تكون . ونعتقد أن أبا طاهر كان على صلوات طيبة مع عبيد الله ، كما كان موضع احترامه وتبجيله ، أضف إلى ذلك أنه كان - كما يقول دوزي - على اتصال سرى بعبيد الله ، يقر له بالزعامة المطلقة ، ويفرد له من دخل جماعة القرامطة - خمس الإمام ويطيعه ولا يعصى له أمراً» (١) .

. وهذا خطأ كبير وتغال في وصف طبيعة العلاقات بين أبي طاهر وبين عبيد الله . ولا شك أن أبا طاهر حاول في الظاهر فقط أن يقيم علاقات ود بينه وبين عبيد الله ، ولعله فعل هذا إرضاء لمجموعة من أتباعه بقوا على ولائهم للإسماعيلية . ولكنه نهج في الحقيقة منهج والده أبي سعيد . وسيتبين لنا هذا من سياق الحوادث ، كما سيتبين لنا أن أبا طاهر الجنابي - سليمان بن الحسن - بقى ، بالرغم من ادعائه الظاهر أنه يؤمن بالمهدى عبيد الله - مخلصاً لآراء الكيسانية أو الحنفية ومخلصاً للمذهب أبيه أبي سعيد . الحسن بن بهرام وأستاذه حمدان قرمط وعبدان . ولم يبحث مؤرخو هذه الفترة من دولة القرامطة حقيقتهم في ضوء عقائدهم ، بل أهملوا هذه الناحية ، مع أنها هي التي تحدد لنا حركتهم : جوهر مبادئها وأغراضها .

أما عن اتصالات عبيد الله بن الحسين (أى عبيد الله المهدي) بأبي طاهر . فيقدم لنا البغدادي صورة منه ، وهي صورة رسائل أرسلها عبيد الله إلى سليمان بن الحسن بن سعيد الجنابي ، ويقول إنه قرأها في كتابهم المترجم «بالسياسة والبلاغ الأكيد» .

يقول عبيد الله - فيما يذكر البغدادي : ادع الناس ، بأن نتقرب إليهم بما يميلون إليه . وأوهم كل واحد منهم . فمن آتست منه رشداً ، فاكشف له الغطاء ، وإذا ظفرت بالفلسفى فاحتفظ به . فعلى الفلاسفة معولنا . وإنا وإياهم مجمعون على رد نواميس الأنبياء ، وعلى القول بقدم العالم ، لولا ما يخالفنا فيه بعضهم من أن للعالم مدبراً لا نعرفه .

ثم يذكر البغدادي أن هذا الكتاب يبطل بعد ذلك القول بالميعاد والعقاب . ويعلن أن الجنة هي نعم الدنيا . وأن العذاب هو اشتغال أصحاب الشرائع بالصلاة والصيام والحج والجهاد ثم يورد الفقرات الآتية من الرسالة أو من كتاب عبيد الله «إن أهل الشرائع يعبدون إلهاً لا يعرفونه ولا يحصلون منه إلا على اسم بلا جسم . وأكرم الدهرية فإنهم منا ونحن منهم» .

ويشير البغدادي أن هذا تحقيق لنسبة الباطنية إلى الدهرية ثم يقارن بين الاثنين من خلال هذا الخطاب الذى يدعو فيه عبيد الله إلى محاولة جذب أصحاب المذاهب الفلسفية من الناس كما يحاول

(١) الدكتوران حسن إبراهيم وطه شرف : عبيد الله المهدي ص ٢١٨ .

أيضاً جذب الدهرية . فيقول « إن المجوس يدعون نبوة زرادشت ونزول الوحي عليه من الله تعالى . وإن الصابئين يدعون نبوة هرمس وواليس (طاليس) وذريثوس وأفلاطون وجاعة من الفلاسفة . وسائر أصحاب الشرائع كل صنف منهم مقرون بنزول الوحي من السماء على الذين أقروا بنبوتهم . ويقولون إن ذلك الوحي شامل للأمر والنهي والخبر عن عاقبة بعث الموت ، وعن ثواب وعقاب وجنة ونار يكون فيها الجزاء عن الأعمال السالفة .

ثم يرى البغدادى أن الباطنية يرفضون المعجزات ، ونزول الملائكة من السماء بالوحي والأمر والنهي ، بل ينكرون أن يكون في السماء ، وإنما يتأولون الملائكة على دعائهم ، ويتأولون الشياطين والأبالسة على مخالفتهم ، ويزعمون أن الأنبياء قوم أحبوا الزعامة ، فساسوا العالم بالنواميس والحيل بدعوى النبوة والإمامة ، وأن كل نبي فيهم صاحب دور مسبق ، إذا انقضى دور سبعة ، تبعهم سبعة في دور آخر .

ويفسرون النبي والوحي : بأن النبي هو الناطق ، والوحي أساسه الفائق . وإلى الفائق تأويل نطق الناطق ، على ما تراه يميل إليه هواه فن صار إلى تأويله الباطن فهو من الملائكة الأبرار ، ومن عمل بالظاهر ، فهو من الشياطين الكفرة وأنهم تأولوا لكل ركن من أركان الشريعة تأويلاً ، يخرجونه عن حقيقته ، فزعموا أن معنى الصلاة موالاة الإمام ، والحج زيارة وإدمان خدمته والمراد بالصوم الإمساك عن إفشاء سر الإمام دون الإمساك عن الطعام والزنا عندهم إفشاء سرهم بغير عهد وميثاق ، وزعموا أن من عرف معنى العبادة ، سقط عنه فرضها وتأولوا في ذلك قوله « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » ، وحملوا اليقين على معرفة التأويل .

ثم يقدم لنا البغدادى - بعد هذا الشرح للفقرة التي ذكرها من رسالة عبيد الله المهدي لأبي طاهر ، فقرة أخرى من هذه الرسالة يقول فيها عبيد الله المهدي : إني أوصيك بتشكيك الناس في القرآن والتوراة والزبور والإنجيل وبدعوتهم إلى إبطال الشرائع وإلى إبطال الميعاد والنشور من القبور وإبطال الملائكة في السماء وإبطال الجن في الأرض . وأوصيك بأن تدعوهم إلى القول بأنه قد كان قبل آدم بشر كثير ، فإن ذلك عون لك على القول بقدم العالم .

ويعلق البغدادى بأن في هذا إثبات لفكرته هو أن في الباطنية دهرية يؤمنون بقدم العالم وينكرون الصانع ويبطلون الشرائع .

ثم يقدم إلينا البغدادى فقرة أخرى من الرسالة عن متناقضات الأنبياء وينبغي أن تحيط علماً بمخاريق الأنبياء ومناقضاتهم في أقوالهم كعيسى بن مريم قال لليهود : لا أرفع شريعة موسى ، ثم رفعها بتحريم الأحد بدلا من السبت ، وأباح العمل في السبت ، وأبدل قبة موسى بخلاف جهتها ، ولهذا

قتلته اليهود لما اختلفت كلمته . ثم قال : ولا تكن كصاحب الأمة المنكوسة ، حين سأله عن الروح . فقال : الروح من أمر ربي ، لما لم يعلم ولم يحضره جواب المسألة . ولا تكن كموسى في دعواه التي لم يكن له عليها برهان سوى المخرفة بحسن الخيلة والشعبذة ولما لم يجد الحق في زمانه عنده برهاناً . قال : لئن اتخذت إلهاً غيري . وقال لقومه . أنا ربكم الأعلى ، لأنه كان صاحب الزمان في وقته . « وقال في آخر رسالته : وما العجب من شيء كالعجب من رجل يدعى العقل ، ثم يكون له أخت أو بنت حسناء ، وليس له زوجة في حسنها ، فيحرمها على نفسه ، وينكحها من أجنبي ، ولو عقل العاقل ليعلم أنه أحق بأخته وبنته من الأجنبي . ما وجه ذلك إلا أن أصحابهم (أي محمدًا عليه الصلاة والسلام) حرم عليهم الطيبات ، وخوفهم بغائب لا يعقل ، وهو الإله الذي يزعمونه ، وأخبرهم بكون مالا يروونه أبداً من البعث في القبور والحساب والجنة والنار ، حتى استعبدتهم بذلك عاجلاً ، وجعلهم له في حياته ولذريته بعد وفاته خولا ، واستباح بذلك أموالهم بقوله « لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى » فكان أمره معهم نقداً وأمرهم معه نسيئة . وقد استعجل منهم بذل أرواحهم وأموالهم على انتظار موعود لا يكون . وهل الجنة إلا هذه الدنيا ونعيمها ؟ وهل النار وعذابها إلا ما فيه أصحاب الشرائع من التعب والنصب في الصلاة والصيام والجهاد والحج . « وأنت وإخوانك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس . وفي هذه الدنيا ورثتم نعيمها ولذاتها المحرمة على الجاهلين المتمسكين بشرائع أصحاب النواميس ، فهنئاً لكم ما نلتُم من الراحة في أمرهم » . وينتهي البغدادي إلى القول « وفي هذا الذي ذكرناه دلالة على أن غرض الباطنية القول بمذهب الدهرية واستباحة المحرمات وترك العبادات (١) » .

هذا هو نص الخطاب الذي أورده البغدادي منسوباً إلى عبيد الله المهدي القيرواني ، ويؤكد البغدادي أن عبيد الله أرسله إلى أبي طاهر الجنابي . ومن الواضح أن الرسالة باطنية وأنها مأخوذة من هذا الكتاب الذي عرفه ابن النديم وهو كتاب « البلاغات السبعة » . وقد قال ابن النديم كما ذكرنا من قبل « قد قرأته ، فرأيت فيه أمراً عظيماً من إباحة المحظورات والوضع من الشرائع وأصحابها » (٢) ويبدو أنه كتاب باطنى يتحدث عن عقيدة الباطنية الفارسية وهي منفصلة تماماً عن الباطنية الإسماعيلية ، وإن كانت هناك عناصر مشتركة ، غير أن الإسماعيلية لا تقدر في النبوات ، ولا تهجم الرسول محمدًا ﷺ وذريته ، وكذلك القرامطة ، وإنما هذا الكتاب - وهو ينسب إلى عبدان - إنما هو تعبير عن آراء الفرس الشعوبيين الذين تمثلوا في فرق الخرمية والخرمدينية وبقايا المانوية والمزدكية والماندائية والكثير من الفرق الغنوصية الخالصة التي لا تتصل بالإسلام أى اتصال .

(١) البغدادي : الفرق ص ١٧٧ - ١٧٩ . (٢) ابن النديم : الفهرست ص ٢٨٢ .

ولم يكن عبيد الله المهدي من السداجة بمكان أن يرسل لأبي طاهر خطاباً يربطه بالمجوسية الفارسية عامة ، ويانكار للحق الإلهي الذي أضفاه هو على نفسه وأضفاه أتباعه عليه ، بانتمائه للبيت الإسماعيلي العلوي ، وهذا البيت ينتهي آخر الأمر إلى محمد ﷺ . والرسالة تهاجمه أشد هجوم ، كما تهاجم الأنبياء من قبله . فالرسالة رسالة مجوسية واضحة ، تشترك بعض عناصرها الجزئية مع جزئيات للمذهب الإسماعيلي ، ولكنها ليست إسماعيلية قطعاً ، ولم تصدر من إمام القيرون إلى أمير القرامطة . ومن الخطأ البالغ أن يقال : إن أبا طاهر الجنابي خالف سياسة أبيه أبي سعيد ، فعمل للفاطميين ، إنه ادعى في الظاهر فقط موالاتهم ، أما في حقيقة الأمر ، فقد كان يعمل لنفسه ، وكما جاءت حملة الفاطميين الأولى على مصر (عام ٣٠٠ - ٣٠١ هـ) بالفشل - لأن أبا سعيد الجنابي لم يفعل من ناحيته على نجاحها ، فأرسل حملة شكلية إلى الكوفة ، فلم يشغل جيوش الخليفة العباسي ، وبهذا خلا للعباسيين الأمر وفتكوا بجيش المهدي الزاحف على مصر ، فعل أبو طاهر نفس الشيء عام ٣٠٧ فقد وصل القائم (ابن المهدي - وأول الخلفاء الفاطميين على الحقيقة) إلى مصر «واستدعى أبا طاهر القرمطي وانتظره» على حد ما يقول ابن خلدون في العبر^(١) . ولكن أبا طاهر لم يحضر ، وإنما قام بحملة شكلية فاشلة على جنوب العراق كحملة والده تماماً وهزم مؤنس الخادم قائد الخليفة القائم وأعادته إلى المغرب .

وفي عام ٣١٢ هـ يتبين لنا تماماً أن أبا طاهر الجنابي كان يعمل لنفسه في الحقيقة لا لمهدي القيرون ، فقد بدأ حملات مريعة على قوافل الحجاج ، يقتل ويسبي ويهدم المساجد السنية^(٢) ، وقد ارتاع الخليفة المقتدر من هذا العمل الجريء ، وأقلقته أن يحدث لأول مرة في تاريخ الإسلام فكتب إلى أبي طاهر الجنابي عام ٣١٣ هـ «بتوعده على ما استحل فأجابه أبو طاهر بالخطاب الآتي» وسيتين منه إلى أي حد تتضح عقائد الرجل .

«بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين - من أبي طاهر سليمان بن الحسن الجنابي الداعي إلى تقوى الله ، القائم بأمر الله ، الآخذ بآثار رسول الله ﷺ إلى قائد الأرجاس المسمى بولد العباس .

أما بعد : عرفك الله مرشد الأمور ، وجنبك التمسك بجبل الغرور . فإنه وصل كتابك بوعيدك وتهديدك ، وذكرك ما وضعته من نظم كلامك ، وتمت به من فخامة إعظامك من التعلق بالأباطيل - والإصغاء إلى فحش الأقاويل ، من الذين يصدون عن السبيل . فبشرهم بعذاب أليم ، على حين

(١) المسعودي : التنبيه ص ٣٣٠ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٨٩ .

زوال دولتك ، ونفاذ منتهى طلباتك ، وتمكن أولياء الله من رقبتك ، وهجومهم على معاقل أوطانك صغرا ، وسيهم حرمك قسراً ، وقتل جموعك صبراً . أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون ، وجند الله هم الغالبون .

« هذا وقد خرج عليك الإمام المنتظر ، كالأسد الغضنفر ، في سرايل الظفر ، متقلداً سيف الغضب ، مستغنياً عن نصر العرب ، لا يأخذه في الله لومة لأثم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم . قد اكتفه العز من حواليه ، وسارت الهيبة بين يديه ، وضربت الدولة عليه سرادقها ، وألقت عليه قناع بوائقها ، وانقشعت طغا الظلمة ودجنة الضلالة ، وغاضت بحار الجهالة ، ليحق الحق ويبطل الباطل ، ولو كره المجرمون .

« تالله ، غرتك نفسك وأطمعتك فيما لست ناثله ، وسولت لك ما لست واصله . فكثبت لي بما أجمعت عليه أذهان كتابك ، ذكرتنى بالعيوب الشنيعة وقذفتنى بالمثالب السمجة . تالله لتسألن عما كنتم تعملون .

« فأما ما ذكرت من قتل الحجيج وإخرا ب الأمصار وإحراق المساجد ، فوالله ما فعلت ذلك إلا بعد وضوح الحجة كإيضاح الشمس . وادعى طوائف منهم أبرار ، ومعاينتى منهم أخلاق الفجار ، فحكمت عليهم بحكم الله ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون .

« خبرنى أيها المحتج لهم ، والمناظر عنهم ، فى أى آية من كتاب الله أو أى خبر عن رسول الله ﷺ إباحة شرب الخمر ، وضرب الطنبور ، وعزف القيان ، ومعانقة الغلمان ، وقد جمعوا الأموال من ظهور الأيتام ، واحتوتوها من وجوه الحرام .

« وأما ما ذكرت من إحراق مساجد الأبرار ، فأى مساجد أحق بالحراب من مساجد إذا توسطتها ، سمعت الكذب على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ بأسانيد عن مشايخ فجرة بما أجمعوا عليه من الضلالة وابتدعوا من الجهالة .

وأما تخويفك لى بالله وأمرك بمراقبته ، فالعجب من بهتك وصلابة حدقتك أترى أنى أجهل بالله منك ، وصرفك أموال المسلمين للصفاعنة والضراطين ومنعها عن مستحقها . يدعى على المنابر للصبيان ، ويخطب للخصيان . آله أذن لكم أم على الله تفترون ؟

« وأما ما ذكرت أنى تسميت بسمة عدوان ، فليس أعظم من تسميك بالمغيث لله ، أمير المؤمنين ، أى جيش صدمك فاقترنت عليه ، أم أى عدو ساقك فابتدرت إليه . لأنت أمير الفاسقين أولى بك من أمير المؤمنين ، وإنك لتقلد بعض خدامك شيئاً من أمرك ، فيكاتبه الشريف والرئيس بالسيد

والمولى ، فأى الأمرين أقرب للتقوى ، أو ما علمت أنه من انقاد له نفر من عشيرته وعصابة من بنى عمه وأسرته ، فقد سادهم وعلا فيهم .

«وبعد - فالك وللوعيد ، وللإبراق والتهديد . اعزم على ما أنت عليه عازم ، وأقدم على ما أنت عليه قادم ، والله من ورائى ظهير ، وهو نعم المولى ونعم النصير ، والحمد لله وصلى الله على خير بريته وآله وعترته » (١) .

وقد أوردت النص الكامل لخطاب أبى طاهر لى أنى أنه لا يحتوى على عقيدة غير إسلامية ، بل إنه يهاجم الخليفة لفساده وفساد حاشيته ، ثم يبرر ما يفعله هو ، بأنه يهاجم مساجد لا يذكر فيها اسم الله . أو بمعنى أدق إنه يتكلم - كشيعة خارجى ينكر أسانيد الشيوخ - ونحن نعلم أنها أسانيد السنة ويرى أنهم يخفون الحق بفعلهم هذا . ثم ينكر فجور الناس وتهتكهم وخمرهم وزناهم ولواطهم . وعجباً أن يفعل هذا وأن ينقله إلينا الحمادى الجافى ، وهو الذى اتهمهم بالتحلل والتهتك والزنا واللواط . ولقد كان المسعودى - شاهد عيان لحركتهم ، بل كان فى هيث ، حين حاصرها أبو طاهر . ويذكر المسعودى أنه «كلم غير واحد من دعاةهم ، وذوى المعرفة منهم . فلم أر مثله دراية وتحصيلاً وتدنياً بما هو عليه» وحسن إتقان للسياسة التى تكون مع الدعاة (٢) .

ولم يذكر أبو طاهر فى خطابه شيئاً من عبيد الله ، ومن الخطأ الكبير أن يتصور باحث ممتاز كالدكتور حسن إبراهيم حسن أن أبا طاهر إنما يشير بفقرته «وقد خرج عليك الإمام المنتظر كالأسد الغضنفر» إلى عبيد الله المهدي . ولم يتنبه الدكتور حسن إبراهيم وزميله الدكتور طه شرف إلى أن أبا طاهر ، إنما يقصد نفسه هو : وأنه هو هذا الإمام ، أو حجة الإمام وسيتبين هذا بوضوح أكثر - بعد قليل .

كانت الأساطير تتناقل فى هذا الوقت بظهور المنتظر ، ويذكر المقدسى أنه سمع الجوس يذكرون واحداً منهم يخرج ، فيرد الملك إليهم (٣) ويذكر البغدادى أنه لم يجد على ظهر الأرض مجوسياً إلا هو موال للباطنية منتظر لظهورهم وظفرهم على البلاد الإسلامية «يظنون أن الملك يعود إليهم بذلك . وبما استدلل أغمهم على ذلك بما يرويه الجوس عن زرادشت أنه قال - لكشئاسف : إن الملك يزول عن الفرس إلى الروم واليونانية ، ثم يعود إلى الفرس ، ثم يزول عن الفرس إلى العرب . ثم يعود إلى

(١) الجافى : كشف أسرار الباطنية ص ٤٣ ، ٢٥ .

(٢) المسعودى : التنبيه ص ٣٣٣ .

(٣) المقدسى : البدء والتاريخ ج ٢ ص ١٩٤ .

الفرس : وساعده جاماسب المنجم على ذلك . وزعم أن الملك يعود إلى العجم لتقام ألف وخمسمائة سنة من وقت ظهور زرادشت ^(١) .

وقد أورد البيروني هذه الأسطورة أيضا . فقال « ولئن كان هذا الوقت هو الذي عناه جاماسب وزرادشت فقد أصابا في الوقت ، فقد كان ذلك في آخر سنة ألف ومائتين وأربعين للإسكندر ، وقد تم لزرادشت ألف وخمسمائة سنة ، ولئن أخطأ في عودة الدولة للمجوس ^(٢) » ويذكر البغدادى أنه كان في الباطنية رجل يعرف بأبي عبد الله العردى - ويسميه البيروني العدى - يدعى علم النجوم ويتعصب للمجوس ، وقد ألف كتابا ذكر فيه أن القرن الثامن عشر من مولد محمد ﷺ يوافق الألف العاشر وهو نوبة المشتري والقوس وأنه عند ذلك يخرج إنسان يعيد الدولة المجوسية ويستولى على الأرض كلها . وادعى أنه يملك مدة سبع قرانات ويستند في هذا على نبوءة لزرادشت وجاماسب في زوال ملك العجم إلى الروم واليونانية في أيام الإسكندر ، وقد تحقق هذا ثم عاد إلى العجم بعد ثلاثمائة سنة ، ثم زال بعد ذلك ملك العجم إلى العرب ، وسيعود إلى العجم لتقام المدة التي ذكرها جاماسب وقد وافق الذي ذكره أيام المكنى والمقتدر ولكن أخلف مواعدهم ، وما رجع الملك فيه إلى المجوس ثم كانت القرامطة قبل هذا الميقات يتواعدون فيما بينهم ظهور المنتظر في القرن السابع في المثلثة النارية ، وخرج منهم سليمان بن الحسن من الإحساء على هذه الدعوى ^(٣) .

وهذا يثبت تمام الإثبات أن أبا طاهر خرج داعياً لنفسه لا لعبيد الله ، وأن القرامطة كانوا ينتظرون خروج الإمام ، وأن أبا سعيد نفسه قد قرأ بعض هذه الأساطير واعتبرها منطبقة على ابنه أبي طاهر « فأخبرهم أنه سيملك الأرض . وقد ذكر الحمادى أن أبا سعيد كان فيلسوفاً ملعوناً ملك البحرين والإمامة والإحساء ، وادعى فيها أنه المهدي القائم بدين الله ^(٤) .

أما البيروني ، فقد ذكر أيضاً رواية عبد الله العدى فقال « أخطأ أبو عبد الله العدى المتعصب للمجوسية جهلاً ، والراجح لخروج القائم دهرأ . وذلك أنه صنف كتاباً في الأدوار والقرانات ، ذكر فيه أن القرن الثامن عشر من مولد محمد عليه الصلاة والسلام يوافق الألف العاشر وهو للمشتري والقوس ، فحكم على أنه يخرج إنسان يعيد دولة المجوسية . ويستولى على الأرض كلها ويزيل ملك

(١) البغدادى : الفرق ص ١٧٢ .

(٢) البيروني : الآثار الباقية ص ٢١٣ .

(٣) البغدادى : الفرق ص ١٧٣ .

(٤) الجبائي : كشف أسرار . . . ص ٢٠ .

العرب وغيرهم ، ويجمع الخلق على دين واحد وأمر واحد ، ويزيل الشر ويملك مدة سبع قرانات ونصف ، ونص على أنه لا يملك من العرب ملك بعد الذي يجلس في القرن السابع عشر ، وليس يقتضي الوقت الذي أشار إليه إلا المكتنى والمقتدر ، ولم يف بالموعود بعدهما (١) .

ويرد البيروني أن عقيدة القرامطة كانت مزيجاً من بعض مذاهب أهل الباطن والتشيع لآل البيت عليهم السلام ، ويتواعدون ظهور المنتظر في القرن السابع في المثلثة النارية ، ثم يذكر أن أبا طاهر اعتقد أنه هو هذا المنتظر وهذا دليل على أنه لم يؤمن أبداً هو ومجموعة القرامطة الكبرى بعباد الله إماماً منتظراً . ولقد أخطأ برنارد لويس ، كما أخطأ حسن إبراهيم خطأ كبيراً في اعتبارهما للقرامطة إسماعيلية أو أتباعاً لهم . وكذلك ماسينيون الذي اعتبر الحركتين واحدة .

وفي عام ٣١٧ هـ هجم أبو طاهر على مكة ، وقتل وسبي ، واقتلع الحجر الأسود وحمله من مكة إلى الإحساء وقال :

ولو كان هذا البيت لله ربنا لصب علينا النار من فوقنا صبا
لأننا حججنا حجة جاهلية مجللة لم نبق شرقاً ولا غرباً
وإننا تركنا بين زمرم والصفاء جنائز لا تبغى سوى ربهاربا
ولكن رب العرش جل جلاله لم يتخذ بيتاً ولم يتخذ حجبا (٢)

وضرب أحد كبار رجال أبي طاهر الحجر الأسود وقال «كم تعبد في الأرض وآل محمد لا يظهرون» وهنا يتبين لنا بوضوح وجلاء أن القرامطة هاجموا الكعبة وحملوا الحجر الأسود لاعتقادهم أن الحج باطل بدون ظهور الإمام من آل محمد ، ومعنى هذا أنهم لم يعتبروا عبيد الله المهدي الزمان بل كانوا في الانتظار بعد .

ومن المهم أن نلاحظ أن عبيد الله المهدي أعلن هو نفسه تبرؤه من أبي طاهر ومن أخذه للحجر الأسود وقتل الحجاج . فبعث إليه منكرراً لاعتقائلا : «قد حققت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر والإلحاد بما فعلت . وإن لم ترد على أهل مكة وعلى الحجاج وغيرهم ما أخذت منهم ، وترد الحجر الأسود إلى مكانه ، وترد كسوة الكعبة . فأنا برىء منك في الدنيا والآخرة» (٣) .

ولم يستجب أبو طاهر لهذا الأمر ، بل بقي الحجر الأسود في حجر عاصمة أبي طاهر اثنتين وعشرين سنة ، أى بقي بعد موت أبي طاهر بسبع سنوات وبعد موت عبيد الله المهدي نفسه بسبع عشرة سنة .

(١) البيروني : تحقيق . . ص ٢١٤ .

(٢) البهائي : كشف أسرار . . ص ٢٠ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٧١ .

ثم نقل إلى الكوفة حيث رده عام ٣٣٩ أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن يحيى المزكى^(١)

وقد حاول بعض المؤرخين القدامى والمحدثين أن يثبتوا أن اقتلاع أبي طاهر للحجر الأسود إنما كان بأمر عبيد الله وإيجائه . وأنه إنما أرسل رسالتين لأبي طاهر - إحداها ظاهرية ينكر عليه فعله والثانية سرية يأمره فيها بعدم إعادة الحجر الأسود إلى مكانه^(٢) . ولكنى أشك كل الشك في هذا . فلم يكن اقتلاع الحجر الأسود مما يفيد في شيء ، بل على العكس كان يثير عليهم نائرة العالم الإسلامي كله وبخاصة مصر ، وكان الفاطميون على وشك معاودة الكرة على العباسيين فيها ؛ بل إن اقتلاع الحجر الأسود سبب فعلاً إثارة نوع من الجهاد المقدس ضد عبيد الله نفسه ، وتسبب أيضاً في فشل حملته الثالثة . هذا من الناحية السياسية ، أما من الناحية العقائدية ، فليس في عقائد الإسماعيلية هدم الكعبة . ولو أرادوا الاعتداء على الكعبة لأمروا على بن فضل أو ابن حوشب أن يقوموا بهذا العمل . حقاً إن الدروز يؤمنون بأن الحاكم بأمر الله سيعود وسيهدم الكعبة ، وينقل القبلة إلى بيت المقدس ، ولكن العقائد الدرزية ليست عقائد إسماعيلية معتلة وهي متأخرة عن هذا العصر الذي نعيش فيه . وهنا نتساءل : ماذا كانت غاية أبي طاهر الجنابي من اقتلاع الحجر الأسود ؟ يذهب مؤرخو السنة إلى أنه فعل هذا تديعماً للفكرة الباطنية المحسوسة من إبطال الحج ، وهدم الكعبة ، وإظهار عبادة النار ، وأنهم لما لم يتمكنوا من إظهار هذه العبادة ، احتالوا وقالوا للمسلمين « ينبغي أن تجمر المساجد كلها . وأن تكون في كل مسجد بحجرة يوضع عليها الند والعود في كل حال .

وكانت البرامكة قد زينوا للرشد أن يتخذ في جوف الكعبة بحجرة يتبخر عليها العود أبداً . فعلم الرشيد أنهم أرادوا من ذلك عبادة النار في الكعبة ، وأن تصير الكعبة بيت نار^(٣) » وبما يؤيد هذا الرأي ظهور زكريا المجوسى عام ٣١٧ وتوليته أمر القرامطة . غير أنه من البعيد أن تكون هذه غاية أبي طاهر . فلم نسمع أنه أقام في الكعبة شعائر أو طقوساً مجوسية ، كما أنه لم يفكر في هدم البيت الحرام . بل إننا نرى أنه بعد أن حمل الحجر إلى هجر ، نقله إلى مسجد الكوفة الجامع وعلقه به . فكان غاية أبي طاهر إذن أن يوقف فريضة الحج ، وأن يعرقلها ، ذلك لأن الحج إنما كان يؤدي على طريقة أهل السنة . وباسم الخليفة العباسي عدو آل البيت . وكان أبو طاهر وأتباعه على يقين من أن دور الإمام المنتظر ، سواء أكان هو أو أحد أفراد البيت العلوي ، قد أطل زمانه .

(١) البغدادي : الفرق ص ١٧٥ .

(٢) الدكتوران حسن إبراهيم وطه شرف : عبيد الله المهدي ص ٢٢٤ .

(٣) البغدادي : الفرق ص ١٧٢ .

والحج عند الشيعة - وكل اجتماع خطبة وصلاة جمعة - إنما باسم الإمام ، ولما كان الإمام لم يظهر بعد . فلا حج ولا جماعة .

هذا هو السبب الحقيقي لنقل الحجر الأسود إلى هجر ثم إلى الكوفة . وإن كان هذا السبب لا يمنع من أن عدداً لا يستهان به من أتباع أبي طاهر كانوا مجوساً وكانوا يرون في نقل الحجر الأسود انتقاماً من الإسلام ونبيه ، ومحاولة للقضاء عليه وعلى طقوسه ، ولكن لم تكن هذه أبداً غاية أبي طاهر . ولقد أفرغ اقتلاع الحجر الأسود من مكانه في الكعبة العالم الإسلامي كما قلنا شيعة اثنا عشرية وسنة بل فاطمية إسماعيلية . واستنكره عبيد الله في خطاب شديد اللهجة إلى أبي طاهر .

وفي عامي ٣١٥ - ٣١٦ بدأ أبوطاهر الجنابي مهاجمته للعراق . وسار حتى شهاها . ولكنه ارتد منهزماً حتى عاصمة ملكه هجر . فكتب لأهل العراق قصيدة يقول فيها :

أغرکم منی رجوعی إلى هجر	وعما قليل سوف يأتيكم الخبر
إذا طلع المریخ فی أرض بابل	وقارنه النجبان فالخذر الخذر
فمن مبلغ أهل العراق رسالة	بأنی أنا الموهوب فی البدو والحضر
فيا ويلهم من وقعة بعد وقعة	يساقون سوق الشاة للذبح والبقر
ألست أنا المذكور فی الكتب كلها	ألست أنا المتنوع فی سورة الزمر
سأملك أهل الأرض شرقاً ومغرباً	إلى قیروان الروم والترك والخزر
أکیل لهم بالسيف حتى أيدهم	فلا أبقي من نسل أنثى ولا ذكر
أنا الداعی للمهدی لاشك أننى	أنا الضیغم الضرغام والفارس الذكر
ولكنه حتم علينا مقدر	فننى ويبقى خالق الخلق والبشر
وأعمر حتى يأتي عيسى بن مريم	فيحمد آثارى ويرضى بما أمر
ففى جنة الفردوس لاشك مربعى	وغيرى يصلى فى الجحيم وفى سقر ^(١)

وببدو أن كثيرين من المؤرخين المحدثين لم يتبينوا حقيقة هذه الأبيات وظنوا أنها إشارة إلى عبيد الله المهدى . وهذا خطأ فاحش .

فالقصيدة كيسانية أو حنفية بحتة . وقد تنبه البغدادي إلى هذه الحقيقة وإن كان لم يوضحها - فقال « أراد بالنجمين زحل والمشتري . وقد وجد هذا القرآن فى سنى ظهوره . ولم يملك سبع قرانات ،

(١) البيروني : الآثار الباقية ص ٢١٤ ؛ والبغدادي : الفرق ١٧٣ .

وما ملك سبع سنين . بل قتل بهيت رمته امرأة من سطحها بلبنة على رأسه فدمغته ، وقتل النساء أخس قتيل وأهون فقيد (١) .

ومن الواضح أن البغدادي يشير إلى أن أبا طاهر إنما يرمز إلى نفسه ويعلن أنه الداعي إلى المنتظر أو المنتظر ذاته . وكذلك البيروني يذهب إلى نفس الأمر فيقول إن القرامطة كانوا يتواعدون ظهور المنتظر في القرن السابع ، وأنهم اعتقدوا أنه أبو طاهر . وقد قلت إن أباه أبا سعيد كان يشير إليه أيضاً على أنه المنتظر . بل إن أبا طاهر نفسه فيما يرى الحمادي الجاني « كان فليسوفا ملعونا ملك البحرين والأحساء وادعى فيها أنه المهدي القائم بدين الله ، واستفتح ودخل مكة وقتل الناس في المسجد من الحج واقتلع الركن ، وراح به إلى الأحساء (٢) » .

وإذا تأملنا شعره - من ناحية النقد الداخلي للنص - لتبين لنا أنه يعلن نفسه المبعوث المنتظر مستنداً على ظواهر فلكية ، ثم على تفسيرات باطنية للكتب المقدسة عن المهدي ، ثم يذكر أنه المنعوت أو المبعوث في سورة الزمر . والآية الثامنة من السورة تتكلم عن القائم وقد أولها أبو طاهر - فيما يبدو - بأنه هو هذا السجاد القائم « أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة به . قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون . إنما يتذكر أولو الالباب » ثم الآية « قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين ، وأمرت لأن أكون أول المسلمين » وقد حول كل هذه الآيات التي خص الله بها الرسول إليه هو .

أما أنه سيملك الأرض فهو يستمدّها أيضاً من تفسيره الباطني للآية « وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوا من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين » أما أن مربعة جنة الفردوس وغيره في سقر فتأويل للآية « وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم ، وينذرونكم لقاء يومكم هذا - قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين . قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين . وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها ، وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين » .

يبدو أن أبا طاهر مزج كل هذه التأويلات بأقوال المنجمين والمجوس وآمن بها عن يقين ، ولكن هناك شاهداً واضحاً حاسماً في قصيدته يثبت أنه حنفي . إنه يذكر أنه داعية للمسيح ، وأنه سيعمر حتى يأتي ويشهد له . ونحن قد ذكرنا من قبل هذا الكتاب الحنفي الوارد عن أحمد بن محمد بن الحنفية ،

(١) البغدادي : الفرق ص ١٧٣ .

(٢) الجاني : كشف . . ج ١ ص ٢٠ .

والذى انتشر بين قرامطة السواد ثم حملة بدون شك معه أبو سعيد الجنابى والد أبى طاهر ويبدأ الكتاب بأنه «داعية للمسيح عيسى بن مريم». فهو إذن الفارقليط الآتى من روح القدس والذى بشر به الإنجيل وهذا ما يحسم الأمر فى أن عقائد القرامطة الرسمية كانت كيسانية حنفية.

ونلاحظ أيضا أن أبا طاهر حارب يوسف بن أبى الساج - القائد العباسى الكبير - وكان هذا القائد على عقيدة فاطمية مستترة وقد أسره أبو طاهر - وقتله - مع علمه الكامل بأنه فاطمى ، يدين بالولاء لحاكم القيروان . فأبو طاهر لم يكن يأبه بعبيد الله ولا بأوامره - اللهم إلا إذا حققت له وللقرامطة مأرباً خاصاً .

وما لبث أن قام أبو طاهر بحركة من أعجب الحركات فى تاريخ القرامطة بل فى تاريخ الإسلام «فقد ظهر فى البحرين فى ظروف غريبة مريبة فى أول شهر رمضان عام ٣١٩ هـ . ابن أبى زكريا الطامى - كما يدعوه البيرونى^(١) . أو زكريا الأصفهاني المجوسى أو الدجال الفارسى كما يقول ابن الأثير^(٢) أو «الغلام المعروف بالذكرى من أبناء ملوك الأعاجم من بلاد أصبهان كما يقول المسعودى^(٣) وقد دعا إلى ألوهيته . يقول البيرونى «وكان غلاماً فاجراً ، فدعا إلى ربوبيته وسن لهم هذا الغلام أن تشق بطون الموتى وتغسل وتحشى خمرًا . وقطع يد من أطفأ ناراً بيده ، وقطع لسان من أطفأها بنفخة ، ثم أمرهم بالفجور بالعلمان . . . وأمرهم بعبادة النيران وتعظيمها ولعن من مضى من الأنبياء وأصحابهم » ويذكر القاضى عبد الجبار «أن أبا طاهر رجب بالدجال زكريا الأصفهاني وثار معه على الفاطميين وفضح أسرارهم المذهبية ، وأن الدعاة أمثال أبى القاسم عيسى بن موسى وأبى مسلم بن محمد الموصلى وأبى بكر وأخيه حاتم بن حمدان الرازى الكلاعى وآخرين قد ماتوا أسفاً وحزنًا على فضح أبى طاهر للدعوة» بل يذهب عبد الجبار إلى أن «القرامطة أعلنوا أثناء حكم زكريا بأن جميع تعاليمهم السابقة عن المهدي والنسب النبوى ما هى إلا لغو وكشفوا عن أسرار فرقهم كلها ، ونشروا لأول مرة قصة عبد الله بن ميمون ودنان وغيرهما ، وخططهم فى خداع المسلمين ، وطعنوا فى جميع الأديان . وأحرقوا الكتب الدينية كلها ، ونادوا بآبى زكريا إلهاً . واستحلوا المحرمات^(٤) . وقد أثار هذا الدعاة كما قلت وقتل زكريا داعية القرامطة الكبير . أبا حفص بن زرقان ، وكان زوج أخت أبى طاهر ، وكان يدعى الشريك وكان أكملهم عقلاً وأحسنهم علماً .

(١) البيرونى : الآثار الباقية ص ٢١٣ .

(٢) ابن الأثير : تاريخ ج ٨ ص ٢٦٣ .

(٣) المسعودى : التنبيه ص ٣٣٩ .

(٤) لويس : أصول . . . ص ١٨٦ .

وهذا دليل آخر أكثر حسماً على أن أبا طاهر لم يهتم بالإسماعيلية اهتماماً حقيقياً . وأن كل ما اهتم به هو تدعيم سلطانه هو وسلطان القرامطة ، فلما هزم في العراق ورجع إلى هجر ، أصابه بعض اليأس ، فضعف أمام المجوس الفرس من شيعته ، ورحب بأبي زكريا المجوسى ، وأطلق له الأمر ، ومكث زكريا هذا ثمانين يوماً يحكم القرامطة « إلى أن سلط عليه من كان تولى إظهاره فذبحه »^(١) أى قام أبو طاهر نفسه بقتله ، ورجع القرامطة إلى عقيدتهم القديمة . ويذكر المسعودى « أن رأى زكريا أظهر في العسكر من المذاهب الشنيعة والسير القبيحة التى لم تعهد ، ولا عرفت في عسكر هؤلاء القوم منذ استولى أبو سعيد على هذه البلاد وولده » وبعد قتله زالت ورجعوا عنها ، واعتذروا أشد الاعتذار^(٢) . وفى عام ٣٢١ هـ . قام أبو طاهر بحملته الأخيرة ، على جنوبى غرب فارس وقد فشلت حملته أيضاً . ومات أبو طاهر الجناى عام ٣٣٣ هـ . أى بعد عشرة أعوام من وفاة عبيد الله المهدي (المتوفى عام ٣٢٢) وعاصر حكم القائم (المتوفى عام ٣٣٤ هـ) ، ولم تكن بين الاثنين علاقات . ولم يستطع القائم أن يجعل أبا طاهر يعيد الحجر الأسود إلى مكانه .

تولى زعامة القرامطة بعد أبى طاهر أخوه أحمد ، على أن يكون ولى عهده سابور بن طاهر . وقد سار أحمد بن أبى سعيد على سياسة أبيه وأخيه . العمل لخير القرامطة وحدهم ، فما غزا الشام عام ٣٥٨ ، وعرض عليه الحسين بن عبيد الله بن طغج الأخشيذ والى الشام الصلح ، قبل فورا بدون مراعاة لصالح الفاطميين ، وهم على وشك الانقضاض على مصر . ويبدو أن سابور بن أبى طاهر كان على ولاء للفاطميين ، فلما توفى عمه عام ٣٥٨ ، وحاول سابور تولى رئاسة القرامطة ، لم يقبل معظمهم . وقاموا بثورة عليه ، وقتلوه ونفوا أنصاره إلى جزيرة أوال . وكان يقود الثورة الحسن بن أحمد الأعظم .

وسرعان ما انقض الحسن الأعظم على دمشق وقتل جعفر بن فلاح القائد الفاطمى الكتامى (٣٦٠ هـ) وقام الحسن الأعظم على منبر جامع دمشق ولعن الخليفة الفاطمى وأعلن أن « هؤلاء من ولد القداح ، كذابون ممخرقون ، أعداء الإسلام ، ونحن أعلم بهم . ومن عندنا خرج جدهم القداح »^(٣) . وهكذا نرى الحسن الأعظم يسير على سياسة أبيه وعمه وجده لا يؤمن بالفاطميين ، بل يحاربهم أشد حرب ويعلم أنهم كذابون ممخرقون ، وأن عبد الله بن ميمون إنما خرج من عندهم ، أى أنه لم يكن منتسباً للبيت العلوى . بل إن الحسن الأعظم يحاول بكل الوسائل التقرب من الخليفة العباسى

(١) البيرونى : الآثار الباقية ٢١٤ .

(٢) المسعودى : التنبيه ص ٣٣٩ .

(٣) أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٧٤ .

المطيع ، ويحاول العودة كما فعل عمه سعيد إلى حظيرة السنة . وحارب الحسن الأعصم الفاطميين . وكاد أن يفتح مصر ، لولا أن قام العزيز ، الخليفة الفاطمي على رأس الجيش لمحاربتة وانتصر على الحسن الأعصم في عام ٣٦٦ هـ . وقد حالت وفاة الحسن الأعصم عام ٣٦٧ هـ من معاودة القرامطة الكرة على مصر .

أما أن المعز قد أرسل إلى الحسن الأعصم خطاباً طويلاً ملاًه بالاصطلاحات الإسماعيلية ، والتعبيرات الغنوصية ، وذكره فيه بسنة آبائه وأسلافه ، وأنهم كانوا عبيداً للفاطميين وخولا لهم ، فإنه من نوع المراء الذي جبل عليه المعز وأصحاب الدعوات السرية جميعاً ، علاوة على أن أبا سعيد على الأقل لم يكن أبداً فاطمياً أو مخلصاً للفاطمية ، وكذلك أبو طاهر . إنما استخدم المعز هذا الأسلوب للتأثير في بعض أتباع الرجل من الإسماعيلية . وقد رد الحسن الأعصم على خطاب المعز حيث أنه « من الحسن بن أحمد الأعصم - بسم الله الرحمن الرحيم . وصل إلينا كتابك الذي كثر تفصيله ، وقل تحصيله . ونحن سائرون على أثره والسلام . وحسبنا الله ونعم الوكيل (١) » .

فالقرامطة ، في مجموعهم لم يكونوا إسماعيلية ، وإن كان البعض منهم قد بقى مؤمناً بها بعد اعتناق حمدان قرمط لمبادئها مدة من الزمن - بل إننا نجد داعياً من أقرب الناس إلى عبدان - وهو عيسى بن موسى ابن أخته ، وحريث بن مسعود تلميذه يبقيان على عقيدتهما الإسماعيلية المقيدة ، وهي الإيمان بمحمد بن إسماعيل فقط ويذهب عيسى بن موسى إلى بغداد ، ويعيش فيها . ويذكر النويري أن عيسى ابن موسى نظم الدعوة في بغداد ، وأخذ يؤلف الكتب وينسبها إلى عبدان ، وقد جمع في هذه الكتب ولفق المذاهب حتى توهم الناس أن عبدان أعلم أهل الأرض .

وقد حاول برنارد لويس جاهداً أن يثبت التشابه بين القرامطة والإسماعيلية مستنداً على أخبار متأخرة في رسالتين درزيتين نقلها دى ساسي : أولاهما : السيرة المستقيمة بشأن القرامطة لحمزة الأصفهاني .

ويبدو أن هذه الرسالة قد كتبت سنة ٤٠٩ هـ . ويتكلم حمزة في هذه الرسالة عن تأسيس الدعوة في هجر على يد رجل اسمه شاتنيل بن دانيال « ويذهب أهل الإحساء عادة إلى صرنا - هجر - ليسيحوا ويشترؤا . فجاء إلى صرنا رجل من علماء الإحساء اسمه صرصر ، فأدخله أحد الدعاة مذهبه ، وأخذ عليه اليهود والمواثيق ، وجاء به إلى آدم الذي هو شاتنيل ، فعينه آدم داعية للإحساء وما جاورها ، فانطلق صرصر إلى الأحساء وما يتبعها ، وأخذ اليمين من قوم كثيرين ، وأوصاهم أن يخلصوا لعقيدة وحدانية مولانا وعبادته ، ويعترفوا بشاتنيل وإمامته ، ويكفروا بإبليس وأتباعه ، وقال لهم : إذا دخلتم

هجر ، فقرمطوا أنوفكم على أهلها ، لأن فيها رجلا اسمه الحارث بن طرماح الأصفهاني له أتباع كثيرون ثائرون جميعهم على مولانا العليم ، ولا يعتقدون بأفضلية الإمام ولا تحدثوا أحداً من أهلها عن الدعوة إلا الذين معكم في حضرة الحكيم شانتيل . فاستجابوا بصرصر وأطاعوا ما أمرهم به ، وتظاهروا كما قال لهم بالقرامطة ، فسموا بالقرامطة واتسموا بها إلى الآن .

وهذه رواية جديدة عن ظهور اسم القرامطة ، وتعني أنه ظهر في أوائل القرن الخامس ثم انتشر هذا الاسم في أهالي خراسان وفارس ، وصاروا إذا وصفوا رجلا بالتوحيد . قالوا : هذا قرمطي . وقد كان أبوطاهر وسعيد وآخرون كثيرون دعاة مخلصين لمولانا ، خدموه وعرفوا وحدانيته وإجلاله وعظموه ، واعتقدوا أنه ليس له روابط مشتركة مع خلقه . وقد انضم إليهم المولى بلقب سيد ، وعملوا ما لم يعمله غيرهم من الدعاة في نشر عقيدة التوحيد ، وقتلوا من المشركين أكثر مما فعل غيرهم . ولكن مولانا لم ير إظهار نفسه بينهم ، لعلمه أن ذلك يوقع الخلاف بينهم حتماً ، وتضيق عقيدة التوحيد ، فينتشر الضلال ، ويتبع أطفال بني عباس أهواءهم ، فيسقطون في الخطيئة والغواية .

«ولكن يوم الظهور قريب ، وساعة إشارة السيف والثورة وتقتيل الكافرين وإبادة قواتهم آتية تكاد تظهر . ولا شك في أن أهل الإحساء وهجر وفارس سيعودون إلى معرفة مولانا وعبادته - كما كانوا من قبل - سيخرون سجداً لمولانا وعظمته ، وسيؤمنون بأنه ليس له روابط مشتركة مع خلقه وسيصحبون حماة عقيدة التوحيد ، كما كان آباؤهم من قبل وسأبعث فيهم دعاة التوحيد ، وأجمع بقايا الأصدقاء والعبيد ، وسوف أنتصر بسيف مولانا على كل ثائر» .

أما الرسالة الثانية التي استند عليها لويس برنارد فهي رسالة للمقتني أبي الحسن علي بن أحمد السموقى المكنى بالمقتني بهاء الدين . أحد أصحاب حمزة وقد دعاه حمزة نفسه جناحه الأيسر . واسم الرسالة رسالة السفر إلى السادة في الدعوة لطاعة ولي الحق الإمام القائم المنتظر ، وفيها يخاطب الداعي المقتني شيوخ البحرين - وهم ما يسميهم السادة ، ويطلب منهم العودة إلى حظيرة التوحيد - أي إلى عبادة الحاكم بأمر الله الإسماعيلي ، ويلومهم على ردتهم .

وينتهي لويس إلى القول بأن «شهادة هاتين الرسالتين الدرزيتين تعززهما بيئة المصادر السنية ، لا تترك شكاً في امتزاج القرامطة والفاطميين برهة من الزمن على الأقل ، وليس من الصعب أن نعرف بما جاء في رسالة حمزة بصدد نشوء القرامطة من البحرين ، وإن كان بأسلوب خرافي» (١) . ومن العجب أن يستند برنارد لويس على كتب الدروز في توضيح العلاقات التاريخية الصحيحة بين القرامطة والإسماعيلية . إن الكتب الدرزية لا يمكن أبداً أن تكون أساساً علمياً للحقائق التاريخية ،

(١) لويس : أصول الإسماعيلية ص ١٧٦ - ١٨٠ .

فقد كتبت - وقد لاحظ هو نفسه ذلك - بأسلوب أسطوري . ثم ينبغي أن نلاحظ أن حمزة هو داعي الحاكم بأمر الله ، ومتكلم عصره . ونرى بوضوح من مضمون رسالته أن يدعو عبادة مولانا فهو إذن يتكلم عن محاولة جديدة لإدخال الحاكمية أو ما عرف فيما بعد باسم مذهب الدرّوز إلى البحرين . لم تكن الإسماعيلية تؤمن بعبادة مولانا ووحدايته ، ولم تعرف هذه المصطلحات إلا في عهد الحاكم وعلى يد داعية حمزة ثم الدرّوز فيما بعد .

ونحن نعلم أن القرامطة في البحرين عادوا إلى التشيع العلوي على طريقة كيسانية بعد وفاة الحسن الأعصم - فيما يقول ابن خلدون في العبر ^(١) . فحاول الحاكم أن ينشر بينهم الدعوة إلى الوهية ، واستخدم داعي دعائه حمزة ، وأرسل المقتنى أحد الأركان ، ويبدو أنه بدأ دعوته هناك ، ولم ينجح ، فكتبها حمزة في صورة رمزية .

ومن الدلائل القاطعة على أن شيوخ البحرين لم يتابعوا المذهب الفاطمي رسالة تحتفظ بها المكتبة الأهلية بالقاهرة في مجموعة مخطوطات حمزة ، هذه الرسالة - هي صورة كتاب أرسله زعيم القرامطة إلى الحاكم بأمر الله يتهده ويتوعده ويطلب إليه الخضوع للقرامطة . فالعلاقة إذن بين القرامطة والفاطمية لم تكن أبداً علاقة مودة في جوهرها ، واستمر النزاع العقائدي بين الاثنين أمداً طويلاً . وقد أحس لويس بأن القول بالتشابه بين الاثنين لا يمكن قبوله على إطلاقه ولكنه - وهو يحاول تدعيم فكرة التشابه رأى أن القرامطة - كانوا حنفية ، ثم صباؤوا جميعاً إلى الإسماعيلية وهذا وضع خاطئ للمسألة : إن القرامطة بقوا دائماً حنفية كيسانية إلا في آثات تحولوا فيها ظاهرياً للمذهب الإسماعيلي ، أو استخدموه ثم عادوا إلى الحنفية أو الكيسانية .

ولقد وصف ناصر خسرو في كتاب سفرنامه مجتمعهم ، لا صيام ولا صلاة ولكن مع إيمان بنبوة محمد ﷺ . وتحريم للخمر معها كان نوعها . وحياة نقابية كاملة ، ثم افترقوا دويلات حتى قضى عليهم المذهب السني عام ٤٧٠ وانهو من الأرض انتهاء كاملاً .

(١) ابن خلدون : المروج ٤ ص ٩١ .

الفصل الثالث

أحمد الكيال

فيلسوف الإسماعيلية الكبير

تكلمنا في الفصل السابق عن مجهودات الدعاة الإسماعيليين - وبخاصة الحسين الأهوازي - بين القرامطة . ورأينا أنه انبثق عن هذه الدعوة التحام القرامطة حيناً بالإسماعيلية ، ثم افتراقها عنها في أغلب الأحيان . وليس بين أيدينا من النصوص ما نستطيع به أن نعرض لآراء مفكرى القرامطة بالتفصيل وبخاصة عبدان ، على كثرة ما ذكر اسمه في الأحداث السياسية بين القرامطة وبين الإسماعيلية ونحن الآن هنا في هذا الفصل نعرض لفيلسوف من فلاسفة الإسماعيلية ، لم يترك عنه إلا شذور غامضة ، وأخبار قليلة نادرة : وهو أحمد الكيال .

لم يذكر مؤرخو الفرق شيئاً على الإطلاق عن تاريخ مولده أو وفاته . غير أنه من الممكن أن نصل على وجه التقريب إلى عصره خلال النقد الخارجى والداخل لبعض النصوص التى بين أيدينا . فنصل خلال النقد الخارجى إلى أنه كان معاصراً للفيلسوف الملحد المشهور محمد بن أبى بكر الرازى (المتوفى فى عام ٣١٣ هـ) . إن ابن النديم يذكر فى قائمة كتب الرازى «كتاب النقض على الكيال فى الإمامة» (١) ويذكر هذا النص نفسه ابن أبى أصيبعة (٢) . فالرجل إذن شغل المجال الفكرية الإسلامية فى عصره . ومن المرجح كثيراً أن يكون قد عاصر الرازى ، بحيث عنى هذا الفيلسوف الكبير الملحد بكتاب الكيال ، فكتب فى نقضه وفى الرد عليه . وأما النقد الباطنى - لفقرات الكيال التى حفظها لنا الشهرستانى من كتاب هذا الأول - فيرجح أن صاحبها عاصر إخوان الصفا . ذلك أنه يتضح فى هذه الفقرات مشابهة كبرى بينها وبين رسائل إخوان الصفا .

أما الشهرستانى (٣) - وهو أكثر المفكرين كتابة عنه - فقد أدرج فرقة الكيالية ضمن فرق الغلاة ، وأوردها بعد الخطابية أتباع أبى الخطاب الأسدى . وذكره تحت اسم أحمد بن الكيال أحياناً . وأحمد الكيال أحياناً أخرى . ويقول عنه «وكان من دعاة واحد من أهل البيت بعد جعفر

(١) ابن النديم : المهرست ص ٤٣٣ .

(٢) ابن أبى أصيبعة : عيون . ج ١ ص ٢١٩ .

(٣) الشهرستانى : الملل والحل ج ١ ص ٢٠٤ .

الصادق - وأظنه من الأئمة المستورين» ويبدو أن عبارة «من الأئمة المستورين» إنما تتعلق بواحد من أهل البيت لا بالكيال - فالعبارة في ظاهرها إذن تعني أن أحمد الكيال كان من دعاة واحد من أهل البيت من الأئمة المستورين بعد الإمام الصادق . ولكن من الممكن تخريج العبارة بأن أحمد الكيال نفسه كان من المستورين . وقد يقوى هذا التخريج إلى حد ما ما ادعاه الكيال بعد ذلك أنه الإمام ثم أنه القائم . والنص يحدثننا أنه عاش بعد جعفر الصادق وفي نطاق الأئمة المستورين ، أى ينبغي أن يوضع في فلك الأئمة الإسماعيلية - في دور الستر - منذ أن أعلن الإمام محمد بن إسماعيل استتاره . وهذا ينقلنا إلى احتمال آخر : هل أحمد الكيال هو الإمام الإسماعيلي المستور أحمد بن عبد الله بن محمد إسماعيل ، وقد عرف هذا الإمام بتضلعه في الفلسفة اليونانية ، حتى إن بعض المؤرخين ينسبون إليه رسائل إخوان الصفا . وحينئذ يقرأ نص الشهرستاني السالف الذكر على الوجه الثاني الذي ذكرته : وهو أن أحمد الكيال كان هو نفسه من الأئمة المستورين . ولكن ينقض هذا الرأي ما يذكره الشهرستاني نفسه «ولعله سمع كلمات علمية ، فخالطها برأية القائل ، وفكره العاطل ، وأبدع مقالة في كل باب علمي على قاعدة غير مسموعة ولا معقولة . وربما عاند الحس في بعض المواضع ، ولما وقفوا على بدعته ، تبرأوا منه ولعنوه ، وأمرؤا شيعتهم بمنازحته وترك مخالطته ، ولما عرف الكيال ذلك ، صرف الدعوة إلى نفسه ، وادعى الإمامية أولاً ، ثم ادعى أنه القائم ثانياً»^(١) فإذا كان المستورون قد تبرأوا منه فهو ليس إذن الإمام أحمد .

وهنا يقابلنا نص قد يكشف القناع عن حقيقة أحمد الكيال «يقول الداعي إدريس : كان حجة ثالث الخلفاء - أى الحسين بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل - أحمد الملقب بالحكيم - من ولد مولانا الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام ، تسلم مرتبته من عبد الله بن الميمون - قدس الله روحه - وهو أحمد الحكيم ، الحجة الجليل قدرها ، العظيم خطرها ، وأرفع الحجج وأسماها ، وأبطنها وأعلاها»^(٢) ولم يتنبه الباحثون في تاريخ الإسماعيلية إلى حقيقة هذا الحجة «أحمد الحكيم» وظنوا أنه أحمد بن عبد الله بن ميمون . ولو كان هذا صحيحاً ، لذكر الداعي إدريس أن عبد الله بن ميمون سلم مرتبة الحجة قبل وفاته إلى ابنه أحمد . ولكن النص لا يذكر هذا علاوة على أنه يقرر أن أحمد الحكيم هذا هو من نسل الحسين بن علي . ونحن نتساءل : من هو أحمد الحكيم هذا ؟ إن الاحتمال الأكثر صواباً أنه أحمد الكيال ، وأنه كان حجة للإمام الحسين لمدة من الزمن ، ثم اختلف معه ، وانفصل عنه ، وكون فرقة هو ، وبخاصة أنه كان يدعى الانتساب للعلوين أو أنه كان واحداً منهم . ولما انفصل عن الإمام الحسين ، عاد هذا الأخير إلى التماس حجب من أولاد القداح ، فعين كحجة له - محمداً أبا

(٢) الداعي إدريس : زهر المعاني .. ٦٤ .

(١) الشهرستاني : الملل : ج ١ ص ٣٠٤ .

الشلع ويلاحظ أن كتب الإسماعيلية قد أهملت ذكر أحمد الحكيم إماماً تاماً . والسرفى هذا اختلافه مع الإمام وإعلان نفسه إماماً وقائماً . وبهذا تكون وجهه النظر الثانية وجهة أقرب إلى الصحة . وهنا نقابلنا مشكلة أخرى : وهى اسم الكيال نفسه ، وقد أطلق على أتباع هذا الرجل أيضاً فقيلاً لهم الكيالية ، ماذا يعنى هذا الاسم ؟ هل هو اسم صنعة كالقدهاح والعلاف والإسكافى . . إلخ . أم أنه كيال الحكمة أى الذى يكيل الحكمة للناس ؟ وقد رأينا تفسيراً مثل هذا لاسم القدهاح نفسه ، فقيلاً إنه سمي بهذا ، لأن الحكمة تنقذ فيه ومنه .

غير أننى أقترح قراءة أخرى للاسم : وهى الكبال بدلا من الكيال ، وتكون الفرقة اسمها الكبالية لا الكيالية . والكبالية أو القبالية - هى فرقة يهودية صوفية نسبة إلى الكبالا .

والكبالا : فرقة غنوصية يهودية ، وقد انتشرت فى العالم الإسلامى ، ويعرفها فيدا بأنها تشوق إلى معرفة العالم ، معرفة أصله ، معرفة الحكومة الكونية التى تحكمه ، ثم غاية هذا العالم . ولكن هذه المعرفة لا تكون عن طريق البحث المنهجى للواقع المحسوس ، ولا يستند على جدل تصورى . إنها تتحقق متجاوزة المعقول ، متخذة طريق التأمل والإشراق . وقد اتخذت الكبالا طرقاً متعددة لتدشين المريدين .

وفى أساس الكبالا ، وإذا نظرنا إليها من داخل ، نجد الغرابة العجيبة فى تجاوز فكرة الذوق وفكرة السنة . إنها تنعكس إذا حللنا اسم الكبالا لغوياً . إن معنى الكبالا : السنة (١) .

وقد أصبحت الكبالا تحتوى - بجانب مذهبها الصوفى - الطلاسم والسحر والنيروجات . والاعتقاد فى قيمة الحروف والأرقام ، واستخدام القيم العددية للحروف الأبجدية . وقد انتشر القباليون فى العالم الإسلامى ، وعرفت الكبالا معرفة تامة . ويبدو أن ميمونا القدهاح نفسه كان على معرفة تامة بها . وقد أوردنا من قبل أن الحمادى اليمانى يتهمه بأنه كان يهودياً صائفاً يخدم أولاد إسماعيل ابن جعفر ، وأنه كان يعيش فى سلمية . ويوجد لا شك عنصر يهودى فى هذه التأويلات الكثيرة التى وضعها الإسماعيليون للقرآن ، وهناك اتجاه كبالى واضح إلى أقصى حد فى اعتقادهم فى الحروف والأرقام فى استخدام القيم العددية للحروف الأبجدية . وأكبر مثال لكل هذا أو أول مثال : هو أحمد الكيال ، ثم إخوان الصفا ، ثم كتب الدعاة الإسماعيليين جميعاً . ولكن إن صحت هذه القراءة ، هل يمكن أن نفترض أن أحمد الكيال أو الكبال كان يهودياً ، ادعى الانتساب إلى البيت الحسينى ؟ من المحتمل هذا ، ومن المحتمل أنه لم يكن وأنه كان يدعى فقط فى درجات الدعوة العليا بالكبال ، لبراعته فى علم الطلسمات ومعرفته لحفايا ولزايا القيم العددية للحروف ، كما سنراه واضحاً فى مقاله .

وأنا أميل إلى القول بأنه لم يكن يهودياً ، وإنما لقب بالكبال لمعرفته بعلم الكبالا . ولم يذكر الشهرستاني عنه أنه كان يهودياً . وكذلك فخر الدين الرازي بل كان ما ذكره هذا الأخير هو « أحمد الكيال الملحد ، وكان ضالاً مضلاً . وقد صنف كتاباً في الضلالة والترهات (١) » .

أما ابن طاهر اللقدي فقد ذكر في كتابه الهام « البدء والتاريخ » فرقة الكيالية ضمن فرق الغلاة (٢) وسكت عنها بعد ذلك فلم يذكر شيئاً إطلاقاً لا عن الكيال ولا عن عقائد الكيالية . وهنا ننتقل إلى كتاباته . كتب أحمد الكيال كتاباً في « الإمامة » وهو الكتاب الذي نقضه عليه محمد بن أبي بكر الرازي . كما ذكر فخر الدين الرازي هذا الكتاب أيضاً . أما الشهرستاني فيذكر أنه « أبدع مقالة في كل باب علمي » ثم يذكر أيضاً « وبقيت من مقالته في العالم تصانيف عربية وعجمية » ويبدو من هذا أنه كتب بالعربية والفارسية ويبدو أن الكثيرين قد آمنوا بدعوته بحيث يذكر الشهرستاني « وإنما قبله من انتفى إليه أولاً على بدعته ذلك ، أنه الإمام ثم القائم (٣) » .

فلسفة أحمد الكيال :

يبدأ أحمد الكيال فلسفته بفكرة العلم الغنوصي الذي يحققه القائم في نفسه . وقد سبق أن قلنا إن هذه الفكرة ظهرت أول الأمر منسوبة إلى محمد بن الحنفية ، أو أن الهاشمية نسبوها إلى محمد بن الحنفية . وقد قرروا أن محمداً أفضى بأسرار العلوم إلى ابنه هاشم ، وأطلعه على « تطبيق الآفاق على الأنفس » ، وتقدير التزبل على التأويل وتصوير الظاهر على الباطن . وأن لكل ظاهراً باطناً ولكل تزبل تأويلاً ، ولكل مثال في هذا العالم حقيقة في ذلك العالم ، وأن كل ما ينشر في الآفاق من الحكم والأسرار مجتمع في الشخص الإنساني . وترى الهاشمية - كما قلنا قبلاً - إن هذا العلم كان لعلي بن أبي طالب ، وأنه خص به ابنه محمداً ، ثم أفضى محمد به إلى ابنه أبي هاشم وكل من اجتمع فيه هذا العلم فهو الإمام . أخذ أحمد الكيال فكرة الهاشمية أو الحنفية القديمة أو بمعنى أدق الفكرة الغنوصية المنتشرة في أوساط الكوفة عن الإمام ورددها بقوله « إن كل من قدر الآفاق على الأنفس وأمكنه أن يبين مناهج العالمين أعنى - عالم الآفاق - وعالم الأنفس وهو العالم السفلي ، كان هو الإمام وهذه أول مرحلة من مراحل العلم الغنوصي السري - يعقبها مرحلة أكبر وأدق وهي مرحلة القائم « إن من قرر الكل في ذاته وأمكنه أن يبين كل كلي في شخصه المعين الجزئي ، كان هو القائم » فالإمام إذن أدنى من القائم ، الأول

(١) الرازي : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ٦١ .

(٢) اللقدي : البدء والتاريخ ج ٥ ص ١٢٤ .

(٣) الشهرستاني : الملل ج ١ ص ٣٠٤ .

يبين مناهج العالمين ، أما الثاني فهو يحقق في ذاته الجزئية كمالات العالم العلوى . وسيعلم أحمد الكيال - كما سنرى فيما بعد - أنه أعظم مثال لهذا التقرير أو هذا التحقق ، وأنه استطاع أن يحقق في نفسه تحقّقاً كاملاً كل ما في هذا العالم العلوى من كمالات ، بل إنه حقق في هذا المضمار ما لم يحققه أحد قبله من القائمين^(١) .

ويقسم الكيال الكون إلى عوالم ثلاثة : العالم الأعلى والعالم الأدنى والعالم الإنسانى .

١ - العالم الأعلى :

وفى العالم الأعلى عنده خمسة أماكن . الأول : مكان الأماكن : فارغ لا يسكنه موجود ولا يدبره روحانى ، وهو محيط بالكل ، أى أنه خلاء ممتد يحيط بالكون فى عوالمه المختلفة ، وكنهه غير معروف لنا ، وهو ما يسميه أهل الشرع بالعرش . والثانى : مكان النفس الإنسانية الأعلى وهو يلى مكان الأماكن ، ثم بالترتيب ، والثالث : مكان النفس الحيوانية . ومن الواضح أن هنا أفلاطونية محدثة مختلطة بعقائد إسلامية . ولكنه ما يلبث أن يطويه غنوص الأفلاطونية المحدثة طياً كاملاً . فيقدم لنا معراجاً للنفس ، أفلاطونياً محدثاً بحتاً .

تشوقت النفس الإنسانية إلى الصعود إلى عالم النفس الأعلى ، فصعدت ونخرقت المكنانين : مكان الحيوانية ومكان الناطقية ، وحين قاربت الوصول إلى عالم النفس الأعلى ، كان الكلال والتعب والملل قد حل بها ، ذلك أنها لم تكن قد اكتملت بالعلم وتحققت بالمعرفة ، فتحفنت واستحالت أجزاؤها ، فهبطت إلى العالم الأسفل ومضت عليها أكوار وأدوار ، وهى فى حالتها تلك من عفونة واستحالة - وأخيراً ساحت عليها النفس الأعلى وأفاضت عليها النفس نوراً من أنوارها ، جزءاً من هذا النور . وحدثت التراكيب فى هذا العالم ، حدثت السموات والأرض والمركبات من المعادن والنبات والحيوان والإنسان ، ووقعت النفس الإنسانية فى بلایا هذا التركيب تارة سروراً وتارة غمماً ، وتارة فرحاً ، وتارة ترحاً ، وطوراً سلامة وعافية ، وطوراً بلية ، ومحنة « أى مرت عليها أدوار وأكوار مرة أخرى ، وهى لم تتمكن من التوصل إلى جزء هذا النور بأكمله ، ووصلت إليها تلك التراكيب التى فيها الخير والشر ، وهى فى كل مرة تحاول التخلص من عالم الشرور والباطل إلى عالم السعادة والحق ، ولكن دون جدوى .

ثم ظهر القائم وكان عليه أن يردها إلى حال الكمال ويحل التراكيب الباطلة من غير الباطلة ، وأن يظهر طبيعة المضادات ، ويبين أن الضد لا ينبغى أن يلحق بالضد وكان وجود القائم لإظهار الروحانى

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٣٤ .

على الجسماني ، وتغلب أحدهما على الآخر (١) .
 القائم إذن هو الغنوص بأجلى مظاهره وأوضح معانيه ، وقد ظهر هذا الغنوص في قائمين من قبل حتى انتهى إلى أحمد الكيال . أما العلة في أنه انتهى إليه فهو سبب حروف كيبالي .
 لجأ الكيال إلى الفكرة الحرفية الكيبالية لكي يدلل دلالة قاطعة على أنه ذلك الغنوص أو ذلك القائم الذي ظهر ليهدى الإنسان إلى الحقيقة . أو بمعنى فلسفي لكي يعيد النفس الإنسانية إلى عالم النفس الأعلى . وتفصيل ذلك أن أحمد عنده يطابق العوالم الأربعة : الألف من اسمه يقابل النفس الأعلى . والحاء تقابل النفس الناطقة ، والميم تقابل النفس الحيوانية . والدال تقابل النفس الإنسانية . والعوالم الأربعة هي المبادئ والبسائط ، ويتوافق أحمد الكيال مع مذهبه حين يقول إن مكان الأماكن لا وجود فيه ألبة . إذ أنه خلاء مطلق ثم أثبت في مقابلة العوالم العلوية العالم الأدنى (٢) .

٢ - العالم الأدنى :

يضع أحمد الكيال نظاماً يتقابل فيه هذا العالم بالعالم الآخر . ولكل قسم من أقسام هذا النظام صفات تشابه تمام المشابهة صفات ما يقابلها من العالم الأعلى تشابهها مشابهة عرضية . ولكنها في الجواهر تختلف عنها ، وأول هذه الأقسام السماء ، والسماء خالية تقابل مكان الأماكن ثم تليها النار . فالهواء فالأرض ، فالماء وهذه الأربعة أجزاء في مقابلة العوالم الأربعة ، الإنسان في مقابلة النار ، والطائر في مقابلة الهواء ، والحيوان في مقابلة الأرض ، والحوت في مقابلة الماء ، ويستخلص من هذا أن مركز الماء أسفل المراكز ، والحوت أخس المركبات .

العالم الإنساني :

ثم قابل الكيال العالم الإنساني مع الآفاق التي ذكرها من العالمين الروحاني والجسماني . فحواس الإنسان خمس ، كل واحدة منها في مقابل أفق من آفاق العوالم السابقة ، فالسمع في مقابلة مكان الأماكن من العالم الروحاني والسماء في العالم الجسماني ، وذلك لأن السمع خلاء فارغ كمكان الأماكن والسماء والبصر ، في مقابلة النفس الأعلى من العالم الروحاني وفي مقابلة النار من العالم الجسماني وفي البصر إنسان العين ، وهذا الإنسان مختص بالنار . والشم في مقابلة الناطق من الروحاني والهواء من الجسماني « لأن الشم من الهواء يتراوح ويتنسم ، والذوق في مقابلة الحيوان من الروحاني ، والأرض من

(١) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٣٠٦ .

(٢) الشهرستاني : الملل والنحل نفس الجزء والصحيفة .

الجسماني ، « والحيوان مختص بالأرض . والطعم بالحيوان » واللمس في مقابلة الإنسان من الروحاني والماء من الجسماني . والحوث مختص بالماء واللمس بالحوث . وربما عبر عن اللمس الكناية » .
ثم حاول مطابقة اسمه على هذه العوالم فاعتبر اسمه : أحمد : ألف وحاء وميم دالا في مقابلة العوالم الثلاثة السابقة متخذاً كما قلت الكبالا منهاجاً له .

أما عن الروحاني ، فقد تكلمنا عن مقابلات حروف اسمه أحمد لآفاق هذا العالم .
أما في مقابلة العالم السفلي الجسماني . فالألف يدل على الإنسان . والحاء على الحيوان ، والميم على الطائر والدال على الحوث . فالألف يشبه الإنسان من حيث استقامة القامة في كل منهما ، والحاء كالحيوان لأنه معوج محدودب منكوس ، واسم الحيوان يبدأ بالحاء ، والميم يشبه رأس الطائر « والدال يشبه ذنب الحوث .

ويرى الكيال أن الله خلق الإنسان على شكل اسم أحمد ، فالقامة مثل الألف ، واليدان مثل الحاء والبطن مثل الميم ، والرجلان مثل الدال . وهي فكرة كبالية واضحة .
ويرى البيروني أن الكبالا اليهودية وشعبذاتها انتشرت بين المسيحيين والمسلمين أيضاً . فحاول المسيحيون الغنوصيون أن يحققوا فكرة الصليب من أشكال النجوم وأوضاعها ، فذكروا أن كواكب الدلفين اجتمعت على شكل صليب إبان صلب المسيح .

ويعجب البيروني من هذا . ويقول « والعجب منهم حيث لا يتدبرون ، حتى يعرفوا أن في العالم أمماً من شأنهم رصد الكواكب وامتحان أسبابها منذ أحقاب ودهور ، يتوارثون فيما بينهم خلفاً عن سلف : أن كواكب الدلفين من الثوابت التي وجدها أسلافهم المعتنون بأمرهم على هذه الهيئة » ويرى البيروني أن الكبالا أيضاً انتشرت عند المسيحيين وكثيراً ما تستعمل هذه الفرق الكبالية من النصراني لصنوف التوبيعات والهوس في تعظيم الصليب كاستدلالهم بما أمر الله به بنى إسرائيل من عمل حية من نحاس ، وتعليقها من خشبة منصوبة لدفع أذى الحيات لما كثرت عندهم في التيه ، فيقولون إنه بشارة على الصليب وذكر له . كما ادعوا أن آية موسى كانت عصاه - والعصا خط مستطيل ، فلما جاء المسيح طرح عصاه عليها فحدث منها صليب . وقد كملت شريعة موسى بمجيء المسيح ، والدليل على ذلك ، أنه لو ألقى عصاً ثالثة على الصليب من أى جهة كان ، صار منه حرف لا - أى لا زيادة ولا نقصان .
ثم يرى البيروني - ولعله يشير إلى أحمد الكيال - أن هذا التهوس من النصراني - مثل ما يتهوس به الفرقة من المسلمين المشتغلة بالتأويلات من تشبيه اسم محمد (وأحمد بالتالي) بصورة الإنسان وقولهم : إن الميم نظير رأسه والحاء نظير بدنه والميم الثاني نظير بطنه ، والدال نظير رجليه . ويعلق البيروني على هذا بقوله : وأظن هؤلاء جاهلين بالتصاوير في تسويتهم بين مقدار الرأس والبطن وكمية الأعضاء الناتئة

من حملة البدن ، ونسيانهم ما به قوام النسل ، ولعلمهم قصدوا الإثبات دون الذكران ثم يعلق على هذه التفسيرات كلها بأنها أشبه بالمزاج والسخرية (١) .

ثم يضع الكيال بعد ذلك الفكرة المشهورة التي ترددت في كتب الإسماعيلية وهي أن القائم خير من النبي ، وأن الأنبياء قادة أهل التقليد ، وأهل التقليد عميان ، والقائم قائد أهل البصيرة ، وأهل البصيرة أولو الأبواب والعقول وإنما يحصلون البصائر بمقابلة الآفاق والأنفس . ثم يدخل في الفروع فيقابل بين الفرائض الشرعية والأحكام الدينية وبين موجودات عالمي الآفاق والأنفس . ويقول الشهرستاني « إنه ادعى أنه متفرد بها ، وكيف يصح له ذلك وقد سبقه كثير من أهل العلم بتقرير ذلك لا على الوجه المزيف الذي قرره الكيال » ويذكر الشهرستاني أنه أول الميزان بالعالمين ، والصراط بنفسه واللجنة بالوصول إلى علم القائم ، والنار بما يضاد هذا الوصول (٢) .

وبعد : فهذه صورة من فلسفة أحمد الكيال مزيج من الأفلاطونية المحدثة والقبالة اليهودية . وتفسير حروفي لاسمه . ومن العجب أن يعتنق عقائده مجموعة من الناس ، ولولا هذا ما عنى مؤرخ العقائد الكبير الشهرستاني من إيرادها وهو يخاطب القارئ ، فيقول « والمقالة - كما سمعنا - من أحسن المقالات وأوهى المقابلات ، بحيث لا يستجيز عاقل أن يسمعها . فكيف يرضى أن يعتقدها » ولكن اعتنقها مجموعة من البشر . وعاشت زمناً طويلاً ، ومازال الإسماعيلية يؤمنون بنفس العقائد ، أو بما يشبهها .

(١) البيروني : الآثار الباقية ص ٢٩٧ .

(٢) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ٣٠٥-٣٠٧ .

الفصل السادس

النظريات الإسماعيلية في الإمامة

(١) نظرية التبنّي الروحي :

كان من أهم نظريات الإسماعيلية «نظرية التبنّي الروحي ونظرية الإمامة المستقرة والإمامة المستودعة» وقد وجه أنظارنا إلى أهميتها في تاريخ الإسماعيلية الفلسفي والسياسي الأستاذان ماسينيون وبرناردلويس ، وسنرى كيف استغلا هاتين النظريتين في إلقاء حل جديد لمشكلة الفاطميين الكبرى وهي نسبهم ، وقد تغالى لويس وماسينيون على الأقل في توضيح هاتين النظريتين وتأكيد أهميتهما في التراث الإسماعيلي .

أما نظرية التبنّي الروحي أو الأبوة الروحانية أو النكاح الروحي . فيعبر عنها لويس بما يأتي : إن الحركة الباطنية ، بما لها من ميول غنوصية قوية وبتمويلها الشديد على النواحي الباطنية للأشياء دون المادية للتظاهرية منها بلغت بسهولة وبشكل طبيعي جدا اعتبرت فيه العلاقة المادية بين الأب وابنه . . . وهي التي تتصل بالبدن التافه الزائل وحده - أقل أهمية وحقيقة من العلاقة الروحانية بين المعلم والتلميذ ، المنبعثة من النفس الخالدة . وينتج عن هذه العقيدة أن التلميذ أخرى بأن يكون الابن والوارث الحقيقي من النسل الطبيعي للإنسان . حتى لقد ارتأى بعضهم أن كلمتي أب وابن في الأعلام الإسماعيلية إنما استعملتا بهذا المعنى أحيانا ^(١) .

وقد كتب ماسينيون مقاله الهام عن «سلمان» - وقد سبق أن أشرنا إلى هذا المقال من قبل - يحاول فيه تدعيم فكرة التبنّي الروحي ممثلا في سلمان عن طريق الحديث المشهور «سلمان منا أهل البيت» . ومن ثم أصبح سلمان بن محمد عليه السلام أو ابن الإسلام جميعا . والنظرية غنوصية واضحة ، إن من ينتقل إليه الغنوص ، سواء أكان ابنا جسديا أو غير ابن لسالفه صاحب الغنوص ، يكون هو الابن الحقيقي ، حامل الغنوص الجديد ، وخليفة السالف . ولكن إذا كان سلمان الابن الحقيقي لمحمد عليه السلام عن طريق الغنوص - فلم لم يدع الأمر بعده ؟ ثم إني أتساءل : ألا تهدم نظرية التبنّي الروحي آراء الشيعة جميعا في الإمامة ، حتى الفاطميين منهم ؟

من يكون إذن أحق بالخلافة بعد علي - إذا كانت التلمذة الروحية على أساس العلم الغنوصي

(١) لويس : أصول الإسماعيلية ص ١٧٧ .

المنتقل أساساً للإمامة - هل يكون الحسن إذن أم الحسين ، أم هذا العدد الكبير من تلاميذ الإمام على الذين نبغوا في العلم الباطن والظاهر وفاقوا الحسن والحسين ؟ بل إن المصادر تجمع على أن محمد بن الحنفية كان أعلم من أخويه ، وأن أباه أطلعه على العلم اللدني الباطني ، وأنه سلمه إلى ابنه أبي هاشم وأن أبا هاشم نقله إلى محمد بن علي بن عبد الله بن العباس . إن نظرية التبني الروحي تقضى على حق أولاد فاطمة في الإمامة وهم لم يستحقوها في نظر الشيعة القديمة والحديثة إلا لخروجهم من صلب فاطمة ، وأن أمر ولايتهم مقررة أزلاً « وجعلها كلمة باقية في عقبه » .

وهنا تنتقل إلى الغلاة ، ونحن نعلم أن من بين الغلاة من ادعى أنه صاحب الأمر - فعل بيان هذا وأبو منصور العجلي ثم أبو الخطاب الأسدي ، ثم إن أبا الخطاب ادعى بعد أنه هو «أبوإسماعيل» ثم إن عبد الله بن ميمون هو الابن الروحي لمحمد بن إسماعيل ، فنشأه . وعملية التنشئة عملية خطيرة في المذهب الإسماعيلي . ثم دعا إلى نفسه ولم تعترض الشيعة . وليس معنى هذا أن عبد الله بن ميمون هو الابن الوحيد لمحمد بن إسماعيل ، هو الابن الروحي فقط ، بينما كان هناك ابن روحى وجسماني هو عبد الله الرضا ، كما أن هناك أبناء جسديين لاروحيين ، ونقل إلينا إيفانوف عبارة عن نصير الدين الطوسي ويذكر أنها موجودة في كتب إسماعيلية أخرى : أن ذرية الإمام على أربعة أنواع : روحانية أو دار معنى مثل سلمان الفارسي - وجسمانية أو بالشكل مثل المستعلي أو روحانية وجسمانية معا مثل الحسن إمام الشيعة الثاني - وجسمانية وروحانية ودار حقيقة مثل الإمام الحسين (١)

ويرى الإسماعيليون أن المسيح كان ابن يوسف النجار فعلاً جسدياً ، وأن قول القرآن « ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون ، ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه » أى إنكار أن يكون ولداً جسدياً لله ، بل هو ولد على سبيل التعليم (٢) .

ولكن ليس معنى هذا أن المذهب الإسماعيلي الشيعي قد احتضن فكرة التبني الروحاني أو عرفها في هذا العصر الأول ، إن من المؤكد أنها تكونت في أوائل العصر الفاطمي لتبرير حالة معينة أو حالات معينة . أما أن النصيرية والدروز قد نادوا بها ، فذلك أيضاً لتبرير تولي أحد أولاد القداح عرش الفاطميين الأول كان نادوا أيضاً - وبخاصة الدروز - لادعاء حمزة والدرزي بعده أنهما ابنا روحانيان للحاكم المختفي . إن حمزة بن علي داعي دعاة الحاكم بأمر الله يعلن في مواطن متعددة في رسالته السيرة المستقيمة بشأن القرامطة أن الحاكم استخلفه حجة له ، وأنه أخذ تعاليمه من الحاكم ، فهو الابن الروحي له ، فلما قتل الحاكم أعلن حمزة أنه استرو ولم يقتل ، وأنه هو نائب عنه . وقلنا أداه هذا

(١) ماسينيون : سلمان شخصيات قلقة في الإسلام - ص ١٦ .

(٢) لويس : أصول ص ١٢٠ .

إلى بحث غريب وهو أن لآدم الأول . آدم صف - أول الأرواح في عالم البشر أباً وأماً . ولكن نحن لا نبحث في هذا الكتاب في عقائد الدروز فهي عقائد ونظريات متأخرة عن العصر الذي حددناه لهذا الكتاب .

إن نظرية التنبى الروحى - فى إيجاز تعلن أن الإمام يستطيع بواسطة عملية رفع روحى - أن يسمو بتلميذه أو تابعه أو مريده إلى درجة أو مقام قريب من درجته أو مقامه ، بحيث يستطيع أن يترك له وديعته - وديعة علمه الخاص وأن يدعو هذا المستخلف لنفسه .

والنظرية - هكذا كما عرضها ماسينيون - خاطئة تماماً . إن ماسينيون ومن أخذوا بفكرته خلطوا النظرية الصوفية ، نظرية الشيخ والمريد ، بالآراء الإسماعيلية . إن النظرية الصوفية « الشيخ والمريد » تقوم فعلاً على فكرته التنبى الروحى فالمريد يعتقد تماماً أنه ابن للشيخ . يلزمه ويخدمه ويأخذ عنه معالم الطريق . ويؤمن المريد بأن من « لا شيخ له ، فلا دين له » حتى إذا تمكن المريد من مقامه ، وانتقل الشيخ ، حل المريد مكانه فى رئاسة القوم . ولم نسمع إلا فى القليل النادر أن ابنًا لصوفى من صوفية الإسلام العظماء أخذ مكانة أبيه الصوفية أو اشتهر شهرة أبيه فى هذا العلم اللدنى . فنظرية التنبى الروحى صحيحة من هذه الناحية ، ثم ما لبثت أن انهدمت حين أخذ أبناء شيوخ الصوفية الجسديون يتوارثون إمامة طريق آبائهم ، وتكونت شياخات الطرق الصوفية على أساس التنبى الجسدى . أما النظرية الشيعية عامة فتقوم على التنبى الجسدى أولاً وبالذات ، وأن أولاد على أو فاطمة بالذات هم أصحاب الحق الشرعى فى الإمامة يتوارثونها باصطفائهم أزلاً على العالمين لهذه المهمة السامية والنظرية الإسماعيلية واضحة تماماً فى هذه الناحية ، بل إنها جعلتها فى عقب إسماعيل فقط . ففرق كبير بين « من لا شيخ له لا دين له » وبين « من مات وليس فى عنقه بيعة إمام مات كافراً » إن بيعة الإمام هنا - فى منطق المذهب الإسماعيلى - هو إمام من نسل فاطمة ، وإسماعيل بالذات ، إمام جسدى لا شك فى ذلك . أما أن الأئمة قد تبناوا بعض أتباعهم ، فلا ينكره أحد أما أنهم تركوا لهم وديعة العلم ، فكان هذا استخلاقاً لهم بالإمامة . فهذا خطأ ، إنما تركوا لهم - وهذا ما لم يتبينه ماسينيون « وديعة الولد أى وديعة الولد الجسدى - للمحافظة عليه والدود عنه ، حتى يبلغ الكتاب أجله ، إما أن يكبر الولد ويعقب أولاد الآخرين ، وإما أن يصل إلى الإمامة . فالإمامة حق جسدى ، لمن فيه دم فاطمة الزهراء ، هذا الدم الغالى المقدس . وفى الحقيقة إن أبناء القداح فعلوا هذا بكل وسيلة ، منذ أن ترك جعفر الصادق ميموناً القداح ، وهو أحد مريديه وتلامذته حجة لابنه أو حجاباً أو ولياً أو خادماً . وحافظ ميمون على الوديعة ، هو وأولاده من بعده ، بل ارتكبوا فى سبيل المحافظة عليها أشنع الجرائم وأكبر الآثام ، وفى سبيل هذه المحافظة ، تخلوا عن كل معانى الصدق والحق والخير ، فخدعوا

مجموعات هائلة من البشر ، وشوهوا عقائد الملايين ، وأثاروا النزاع والشر في أرجاء العالم الإسلامي ، بإخلاص حاسم فد لأبناء فاطمة من إسماعيل . حتى وضع آخر أبناء القداح عبيد الله المهدي القائم بأمر الله خليفة على القيروان . ثم انتقل إلى جوار ربه - مختتماً عمل أسرة القداح من الوجود ، بل مختتماً ذكراهم إلى الأبد .

أودأن أنتهى من هذا إلى أن نظرية التنبى الروحي قد اخترعها متأخرو الإسماعيلية لتبرير عمل عبيدالله في توليه العرش الفاطمي في القيروان - وهو من أولاد القداح ، بينما القائم الفاطمي في كنفه «فهي» نظرية متأخرة من نظريات الإسماعيلية ، لم تعرفها الإسماعيلية الأولى ولم تحتضنها ، ولم يترك إمام علوى وديعة بمعنى علمه وبالتالي أحقية الإمامة لابن غير علوى . بل تركوا أحيانا الوديعة - الابن الجسدى - لتابع مخلص من أتباعهم ، سواء أكان هذا التابع علويا أو غير علوى وللمحافظة على الوديعة الجسدية . وهذه هى نظرية الإمام المستقر والإمام المستودع . وليس معنى هذا أن فكرة الإمام المستقر وفكرة الإمام المستودع قد ظهرت في وقت مبكر كنظرية ، ولكن لا شك أنها تحققت في صور ساذجة « أو بمعنى أدق في صورة المحافظة على الابن اليتيم الذى فقد أباه في صورة مؤلة حزينة . فقد بدأت الفكرة إذن بنوع من الوصاية الإسلامية المعروفة من عم على ابن أخيه كوصاية محمد بن الحنفية على ابن أخيه على زين العابدين ، أو كتابع أمين كميمون القداح حين أمره سيده جعفر الصادق بالمحافظة على حفيده محمد بن إسماعيل وسنعرض الآن لتطور الفكرة أو نشأتها عند الشيعة .

(ب) نظرية الاستيداع والاستقرار :

قدم لنا الأستاذ لويس نصا هاما إسماعيليا عن التفريق بين الإمام المستودع والإمام المستقر «الإمام المستودع هو ابن الإمام وأكبر أبنائه ، إن كان له كثيرون والعارف بأسرار الإمام كلها ، وأعظم أهل زمانه مادام قائما بالأمر إلا أنه لاحق له في تفويض الإمامة إلى ذريته الذين يكونون سادة ولا يكونون أئمة أبدا . أما الإمام المستقر فهو الذى يتمتع بامتيازات الإمامة كلها . وله الحق في أن يفوضها لأخلافه» (١) .

والنص هنا واضح في أن الإمام المستودع لابد وأن يكون من صلب الإمام أى لابد وأن يكون ابنا جسانيا له .

وفي هذا النص هدم لنظريات ماسينيون وللويس نفسه : الأول فيما يخص نظريته عن سلمان والثاني فيما يخص نظريته عن عبيد الله المهدي . إذن علينا أن نعدل تعريف الإمام المستقر والإمام المستودع .

(١) لويس : أصول ... ص ١٢٥ ، ١٢٦ .

إن الإمام المستودع : هو الإمام الذي يتلقى الإمامة ويزاولها - وله كل حقوقها ، ولكنه لا يستطيع أن ينقلها إلى أبنائه ، والإمام المستقر فهو الإمام الذي يتلقى الإمامة ويزاولها ، ثم ينقلها إلى أبنائه من بعده ولكن نلاحظ أن الأئمة المستودعين في قائمة الشيعة الإسماعيلية كانوا جميعا علويين - اللهم إلا إذا وافقنا من يذهب من المؤرخين إلى أن عبيد الله المهدي كان قداحيا ولم يكن علويا . ولنعرض الآن في إيجاز لقوائم الأئمة المستودعين .

يرى الإسماعيلية أن مرتبة الاستيداع هي مرتبة النبوة والرسالة ، أما مرتبة الاستقرار فهي مرتبة الإمامة والوصاية والولاية وأن أول مستودع هو النبي إبراهيم ، وقد أوتى على مرتبة الاستقرار . وقد أورث إبراهيم ابنه إسحق مرتبة الاستيداع وإسماعيل مرتبة الاستقرار وتوالت المرتبتان في أولاد كل منهما حتى انتهت مرتبة الاستقرار إلى عبد المطلب واستودع أيضا مرتبة الاستيداع فهو إذن إبراهيم الثاني . ويورد الإسماعيلية حديثا عن الرسول ﷺ « لم أزل أنا وأنت يا علي من نور واحد تنتقل من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام الزكية كلما ضمنا صلب ورحم ، ظهر لنا قدرة وعلم ، حتى انتهينا إلى الجد الأفضل والأب الأكمل عبد المطلب ، فانقسم ذلك النور نصفين في عبد الله وأبي طالب ، فقال الله تعالى - كن يا هذا محمداً ، وكن يا هذا عليا » .

وقد مات عبد الله ، فاستودع عبد المطلب مرتبة النبوة والرسالة لمحمد ، واستودع أبا طالب مرتبة الوصاية والإمامة ، فلما مات أبو طالب ، اجتمعت كل هذه المراتب لمحمد ﷺ ، فكان إليه جمل الرتب جميعها : النبوة والرسالة والإمامة والولاية والوصاية ، فهو أكمل البشر جميعا ، وأسمى الموجودات كلها ، فهو محمد الأعلى ، وهو محمد الأسمى ، وهو أول البشر ، وهو آدم الأول ، وفي يوم غدیر خم سلم الرسول محمد مرتبة الاستقرار إلى علي بن أبي طالب ولأولاده الأئمة من بعده ، ولإمام الاستقرار كل صفات صاحب الاستيداع إلا في الرسالة والنبوة . وستجتمع المرحلتان نهائيا ، وفي قائم القيامة ، فيكون محمدا الثاني .

ولكن ماذا كانت حقيقة علي قبل غدیر خم . كان محمد الإمام الناطق وعلى الإمام الصامت . وحين أعلن محمد ﷺ استقرار الإمامة في علي أصبح علي الإمام الناطق . وانتقل الرسول الأعظم إلى الرفيق الأعلى . وترك إمامين إماما صامتا هو القرآن وإماما ناطقا هو علي واستندوا في هذا إلى أن عليا كان يتلو في المصحف حتى قرأ « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق » فوضع المصحف على رأسه وصاح ثلاث مرات « يا كتاب الله انطق ^(١) » معلنا أنه الكتاب الناطق وأن القرآن الكتاب الصامت ، أو بمعنى أدق أن عليا هو التأويل ، والقرآن هو التنزيل والتنزيل كلام الله ، والتنزيل روح الله ، أليس

(١) ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة (مقدمة الدكتور محمد كامل حسين) ص ٧٥ ، ٨١ .

التزليل هو روح التأويل والناطق والمستقر نور الله «أنا ومحمد من نور الله ، ومحمد هو «القلم» هو السابق وعلى هو اللوح وهو التالى . وهو المسيح . وهو وجه الله . ويد الله . وفى إيجاز لقد انتهت إلى الإمام المستقر ، كل فضائل وصفات السابقين . ولكن الإسماعيليين أعلنوا فى حسم وإصرار أن مقام الوصى : مقام على ، مقام الإمام المستقر أدنى من مقام الرسول ﷺ .

وانتقل على إلى الآخرة ، واستودع الإمامة ابنه الحسن ، على أن يودعها فى الإمام المستقر وهو الحسين . وبهذا حرم الإسماعيليون الحسين من الإمامة .

واستشهد الحسين فى سهل كربلاء ، واستودع الإمامة أخاه محمد بن الحنفية لينقلها إلى على بن الحسين وبهذا حرم الإسماعيليون أيضا الحنفيين من الإمامة . وانتقلت الإمامة المستقرة إلى محمد الباقر . ولا نجد هنا ذكراً لإمام مستودع . وانتقلت الإمامة إلى جعفر الصادق .

ويرى الإسماعيليون أن نظرية الاستيداع والاستقرار وتطبيقها ظهر على أقوى صورة لدى الإمام جعفر الصادق .

فقد مات إسماعيل ومحمد ابنه فى حال الطفولة « ولم تكن الإمامة ترجع القهقرى منه كما لم ترجع من غيره ، فأودع حجته المنصوبة بين يديه ميمونا القداح مقامه لولده ، وأقامه ستراً عليه ، وقدمه بين يديه واستكفله إياه إلى بلوغه أشده ، ولما بلغ أشده ، تسلم وديعته ثم جرى الأمر فى عقبه خلفاً عن سلف (١) .

ولكن يبدو أن عددا لا يستهان به من الإسماعيليين يرون أن الامام المستودع لم يكن ميمونا ، وإنما كان موسى الكاظم ؛ لأنه لا بد أن يكون المستودع من الدوحة العلوية . وبهذا يكون ميمون حجة فقط لمحمد بن إسماعيل لا إماما مستودعا .

وأيا ما كان الأمر ، فقد دخل محمد بن إسماعيل فى دور الستر ، دور الخطر وحين أظهر الغيبة ، أى توفى ، تولى إمامة الإسماعيلية كما قلنا ابنه عبد الله ، وخلف أحمد عبد الله حتى انتهت الإمامة إلى الحسين بن أحمد .

وكان عهد الإمام الحسين بن أحمد الإسماعيلي فترة حاسمة فى تاريخ الإسماعيلية لقد قام هذا الإمام وحجته عبد الله بن ميمون القداح أولا ثم أبناؤه الحسين ومحمد أبو الشلعلع وأحمد وعلى ثانيا بنشر الدعوة فى أرجاء العالم الإسلامى . وكان الحسين روح الدعوة العلمية والسياسية - كما قلنا . فكتب الجامعة - كما قلنا - ليشرح بها رسائل إخوان الصفا . وأخذ يث العلوم الشيعية ، ويعلم كبار الدعاة

منهج التأويل . ثم قام بحركة سياسية خطيرة - وهى إرسال الداعيين ابن حوشب وابن فضل إلى اليمن كما اتصل بالكيسانية في الكوفة بواسطة الحسين الأهوازي ، وأرسل الدعاة إلى فارس . ومات الإمام الحسين بن أحمد . وتولى الإمامة ابنه على بن الحسين .

وهنا ندخل في أعماق أدوار الستر غموضا . لقد عمر الحسين بن أحمد الإمام الإسماعيلي كثيرا ، بحيث مات وابنه على في سن متقدمة ، وفي عهد الإمام على حدثت الأحداث الكبرى السريعة ، وأصبح النصر النهائي للإسماعيليين وشيك الوقوع ، ويبدو أن الإمام عليا أراد السفر إلى اليمن أو إلى المغرب فمات في الطريق وقبل موته استخلف حجتة سعيدا إماما مستودعا لابنه محمد .

يقول صاحب كتاب غاية المواليد « إنه لما ظهر النور باسقا باليمن وبلاد المغرب ، سارولى الله في أرضه على بن الحسين صلوات الله عليه يريد بلاد المغرب حتى كان في بعض الطريق ، فأظهر الغيبة ، واستخلف حجتة سعيداً الملقب بالمهدى سلام الله عليه ، فثبت قواعد الدعوة ، وجرى عليهما من ضدهما بسجلماسة من العمال بالمغرب ما جرى . ووقى الله وليه سلام الله عليه كيد . لما كان من زحف أبى عبد الله عليه وظفروه . واستخراج ولى الله سلام الله عليه من سجنه فلما حضرت المهدي النقلة ، سلم الوديعة إلى مستقرها . وتسلمها محمد بن على القائم بأمر الله تعالى ، وجرت الإمامة في عقبه ، حتى انتهت الإمامة إلى مستقرها ومعدنها ، وطمانت بموضعها وبموطنها (١) . وهنا يظهر تطبيق آخر لنظرية الإمام المستقر والإمام المستودع . ويؤيد هذا النص السابق الخطير نص للداعى إدريس عماد الدين اليمنى « إن الإمام صاحب الزمان تقدم للهجرة إلى المغرب ، والمهدي في كنفه فأظهر النقلة في سفره ، وأوصى إلى أخيه سعيد الخير ، واستكفله واستودعه لولده ، وكفله سعيد الخير . وتسمى بالإمامة بأمر من نص عليه ، سترأ على ولى الله وإخفاء لمقامه على أهل دعوته ، حتى يكون أوان ظهوره ، وطلوع نوره ، وأمر الحدود بذلك ، وأن يكونه بالشمس الطالعة ، سترأ على ولى الله ولده القائم من بعده . ولما توطدت قوانين الدعوة الهادية - سلام الله على وليها - بالمهدية وظهر أهل الكهف من كهف الثقبه وأن الأجل ، وانقضى المهل وسلم الإمام المهدي إلى ولده القائم رتبته وأدى إليه وديعته وأمانته وأظهر الغيبة ، وانتقل إلى جوار ربه والقدوم عليه (٢) .

لقد كان نشر هذه النصوص من مكانها في الهند ولدى طائفة البهرة حافزا للباحثين على حل المشكلة العتيقة - نسب الفاطميين في ضوء النظرية الفلسفية الإسماعيلية - الإمامة المستقرة والإمامة المستودعة .

(١) غاية المواليد : ص ٣٧ .

(٢) النيسابورى : استتار الإمام ص ٦٦ - ٧١ .

وقد اختلف الباحثون في هذا . فبينما يذهب كثيرون من المؤرخين الإسماعيليين القدامى وإيفانوف من المحدثين إلى أن سعيد الخير هذا هو بن الإمام الحسين الإسماعيلي يذهب لويس وقلة من الإسماعيلية والدروز إلى أنه سعيد بن الحسين بن عبد الله بن ميمون القداح كما يذهب بعض الإسماعيلية إلى أن عبيد الله هو الإمام الثاني عشر محمد المهدي المنتظر عند الشيعة الاثني عشرية أو أخوه : أو بمعنى أدق أنه ابن الإمام الحسن العسكري .

يؤمن معظم المؤرخين الإسماعيليين بأن سعيد الخير أو عبيد الله المهدي هو الإمام المستودع الأخير من الأئمة الإسماعيليين وأنه ابن الإمام الحسين ، وأن الإمام علي بن الحسين قد أقامه سترًا على ابنه أبي القاسم القائم ، وليس في نص غاية المواليد ما يثبت أن سعيد الخير هو سعيد بن الحسن بن عبيد الله بن ميمون ، بل إنه يذكر فقط استخلاف علي بن الحسن لحجته . أما النص الثاني - نص الداعي إدريس - فهو يثبت أن سعيد الخير هو ابن الإمام الحسين . وقد ذهب النيسابوري في كتابه استتار الإمام (١) ، كما ذهب الداعي إدريس في زهر المعاني إلى أن سعيد الخير هو ابن الإمام الحسين المستور . بل يصرح النيسابوري . ولد لأحمد بن عبد الله ، الإمام الحسين ، وهو ولد المهدي وسعيد الخير ، وأقام الحسين إلى أن ولد له المهدي عليه السلام . فلما أتمته نقلته استودع له أخاه سعيد الخير . إذ كان ولده يومئذ في حال الطفولة . ويذهب إيفانوف موافقا للجمهور الكبير من الإسماعيليين إلى أن سعيد الخير هو ابن الحسين الإسماعيلي وشقيق علي بن الحسين وعم القائم . ويؤكد إيفانوف أنه لم يحدث قط أن الإمامة انتقلت إلى شخص ليس من سلالة علي ، علاوة على أن نظرية الإمام المستودع والإمام المستقر لم تظهر إلا في القرن الخامس أو السادس أي أنها نظرية حديثة .

وفي الحق إن بعضاً من حجج إيفانوف باطلة وبعضاً منها صحيحة . أما الصحيحة منها فهو أن نظرية الاستتار لم تعرف في التراث الإسماعيلي إلا متأخراً . ولكن لم يتنبه إيفانوف إلى أن ما يشبه هذه النظرية كان موجوداً ، وأن المتأخرين من الإسماعيلية عبروا عن أحوال المتقدمين في صيغ حديثة ، وكبر المتأخرون المسائل وضخموها ، وصبغوها بالغنوصية وغير الغنوصية . إن من المؤكد أن علي بن أبي طالب قد ورث عن رسول الله ﷺ علماً فقهياً وتراثاً دينياً . فاعتبر الشيعة عامة أن رسول الله ﷺ أطلعهم على أسرار الكون ومغيبات الأمور ، وأنه أباح له هذا السر وحده ، فكان العلم السري خاصية من خصائصه . وكبرت الصورة وكبرت ، فانطلقوا علماً بحكمة العرب والفرس والهند وفلسفة اليونان . وكان علي بن أبي طالب ربانياً كبيراً وتلميذاً كبيراً لمحمد ﷺ ، ولكن في نطاق الإسلام فقط ، فأقي الغنوصيون من الغلاة ، والإسماعيليون المتقدمون والمتأخرون ، فصبغوه بصورة المسيح وأفلوطين

(١) النيسابوري : استتار الإمام ص ٩٥-٩٦ .

وزرادشت وبوذا وديسان . كل تبعاً لدرجة قربه أو بعده من الغلو ، .
واختلف المسلمون فيمن يكون الإمام ، علياً أو أبا بكر ووردت عن الرسول أحاديث وسنن فسرها الشيعة والسنة - كل على طريقته . . لا بدع بعد ذلك أن يأتي الإسماعيليون المتأخرون وأن يقولوا إن الإمامة نقلها رسول الله إلى إمام تستقر فيه الإمامة ، وأن يورثها من يشاء من أولاده .
وقام محمد بن الحنفية بحركة من أخطر الحركات في تاريخ الشيعة ، وهي الانتقام من قتلة الحسين على يد تابعه المختار بن أبي عبيد ، واختفى اسم علي زين العابدين أو عمل محمد بن الحنفية على إخفائه ، محافظة على نسل أخيه الحسين من الانقراض ، فكان إماماً حافظاً وعبر الإسماعيلية المتأخرون عن محاولته المحافظة على ابن أخيه ، وحفيد فاطمة الزهراء بأنه استودع الإمامة حتى نقلها إلى مستقرها .
ومات إسماعيل ، أحب أبناء جعفر الصادق إليه ، فوكل جعفر الصادق بحفيده أحب أتباعه إليه - ميموناً القداح ، رجل على محبه ، وتشيع لآل البيت وعلى علم وحكمة ، وكان محمد طفلاً صغيراً . وأتى الإسماعيليون المتأخرون - وقالوا إن ميموناً كان الإمام المستودع ومحمداً الإمام المستقر .
وتنتهى الصفحة الأخيرة من الاستيداع والاستقرار بسعيد الخير والقائم ، عم وابن أخ عند غالبية الإسماعيلية . فالنظرية إذن إسماعيلية حديثة ، ولكن وجد ما يشابه عناصرها إلى حد ما في تاريخ الأئمة من قبل . بل إن جميع من قاموا بالمطالبة بالحق العلوي ، لم يذكروا اسم إمام معين . بل كانوا يعلنون أنهم يدعون إلى «الرضا من آل محمد» سترأ على سلالة الرسول وحماية لهم . إن الدعاة العباسيين أنفسهم بدأوا الدعوة إلى الرضا من آل محمد . كان إيفانوف على حق في أن النظرية حديثة ، ولكنه لم يتنبه إلى تحققها في عصور مختلفة من تاريخ الأئمة . وإيفانوف على حق في أن كلمة الإمام لم تطلق في تاريخ الشيعة إلا على أفراد من البيت العلوي ، فكيف إذن يطلق لفظ الإمام والمهدي على عبيد الله إذا لم يكن فعلاً من نسل العلويين .^(١)
وأخيراً - نرى الإسماعيليين المتأخرين يؤمنون بنظرية الإمام المستقر والإمام المستودع ، بل يحاولون استخراجها من الآيات القرآنية في محاولة تأويلية متعسفة وأهم الآيات التي تؤيد نظرياتهم هما : «وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها ، كل في كتاب مبين» فهنا المستقر والمستودع وهما يتحققان في كتاب مبين ، أي إمام واضح كفلق الشمس . والآية «وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون» وهنا أيضاً في نظر الإسماعيلية إشارة إلى الإمام المستقر والمستودع ، وأنه لا يدرك ما يفصل بينهما إلا من فتح الله بصيرته ، وما أعجب هذا التأويل ، وما أبعده عن حقيقة الآيتين .

أما القائلون بنظرية التبيين الروحي ونظرية الإمامة المستودعة والمستقرة ، ومنهم لويس ، فيرون من نص الداعي الخطاب صاحب غاية المواليد أن عبيد الله المهدي هو آخر القداحين ، وأنه كان الابن الروحي للإمام علي بن الحسين ، والأب الروحي لابن علي - محمد بن علي القائم بأمر الله . فعبيد الله المهدي ، كان قداحا - أي الحفيد الأخير لميمون القداح - حمل إمامة الاستيداع من إمامه وأبيه الروحي علي بن الحسين - ثم نقلها إلى الإمام المستقر أبي القاسم محمد بن علي ابنه الروحي .

كان للويس فضل التوصل إلى هذه النظرية الخطيرة وقد حاول إثباتها بكل ما لديه من حجج ، فأورد لنا نص غاية المواليد ، ثم يثبت نظرية بنصوص درزية منها : أن حمزة رئيس فرقة الدورز يذكر أنه كان لدى المهدي عبيد الله ، شيء مستودع ، وأن الحاكم (أي القائم) استرجعه ، ثم ينقل لنا لويس النص الآتي من رسالة تقسيم العلوم لحمزة بن علي - وهو يتكلم عن سعيد المهدي : « وهو الذي استودعه المولى المعل جل اسمه الوديعه وأمره بخدمة مولانا القائم جل اسمه ، وكان أول ظهور المولى للعالم بصورة أسماها القائم ، وأول ما ظهر بمملكة الدنيا في ذلك الوقت » كما أن رسالة تقسيم العلوم والدوائر ، وهي رسالة درزية تقول « لما طهر الناطق سعيد المهدي ، وأعطاه المعل الوديعه الذي هو القائم يريبه وهو في ظاهر الأمر طفل ، حاشاه من الأبوة والنبوة ، فلما ظهر القائم وأخذ الإمامة الظاهرة ، وهي السلطة ، والخلافة ، وهي دين التأويل ، والإمامة المجازية التي تظاهر الرب بها وهي بالحقيقة لقائم الحق - ﷺ . قيل إن المهدي مات » .

ويستنتج دى ساسي ويوافقه لويس أن المهدي لم يظفر بقداصة إلهية في كتب الدورز ، بينما أضفى الدورز الإلهية على « المولى المعل جل اسمه » وهو علي بن الحسين ، ثم علي ابنه القائم جل اسمه ، وهو محمد بن علي القائم بأمر الله وثاني الخلفاء الفاطميين . بينما احتل سعيد المهدي ، أي عبيد الله المهدي ، مرتبة أدنى من المعل والقائم وينتهي لويس إلى القول « وهكذا يتضح لنا أن هناك فرعين لنسب الأئمة : أحدهما العلويون المستقرون وثانيهما القداحون المستدعون - وذلك خلال عهد الغيبة المبتدئ بمحمد بن إسماعيل وعبد الله بن ميمون القداح والمنتهى بسعيد الخير والقائم الخليفة الفاطمي الشرعي الأول »^(١) وينبغي أن نقرر أنه خلال التحليل البارع الذكي الذي قدمه لنا لويس ، تكاد تكون مشكلة النسب الفاطمي قد حلت إلى حد ما ومن المحتمل أن عبيد الله المهدي كان قداحياً ، وأنه تولى حجابة الإمام وحجته ، ثم أعلن مهديته أيضاً ، وأنه احتمل المخاطر في سبيل إقامة الدولة الفاطمية ، سواء فعل هذا لنفسه هو أو لابن الإمام علي الصغير الذي أخذه معه - دون أهله - حين فر من سلمية ،

(١) لويس : أصول ... ص ١٢٢ .

ولكنه لم يفعل هذا تطبيقاً لنظرية الإمام المستودع والإمام المستقر فلم تكن النظرية قد عرفت ، ولم تترك عناصرها قد توضحت .

إن الحل الصحيح للمسألة ، أن عبيد الله المهدي أعلن مهاديته ، لكي يحمي الإمام الصغير الذي كان يعيش في كنفه ، وقد اشتد الخطر به . ثم خرج به من سلمية ومضى به منتقلاً من مكان إلى مكان ، محافظاً على وديعة جده الأكبر ميمون ، الوديعة التي تسلمها من إمام الشيعة «والد الأئمة جميعاً جعفر الصادق ، أعلن إمامته سترأ له ، وتولى الخلافة لكي يمهّد الأمر للقائم ، ووضعه على رأس الجيوش ، لكي يخلق منه زعيماً من الطراز الأول . ولم يعرف في هذا الوقت نظرية استقرار أو استيداع . كان عبيد الله أول من ادعى الإمامة من غير العلويين ، فعلها مرة واحدة في تاريخ الشيعة ، حين كان المذهب الإسماعيلي في دور الخطر . ولم يضع القائم على عرش القيروان حتى يمهّد له الدولة وتسكن الفتنة .

كان أولاد القداح وآخرهم عبيد الله المهدي فرساً ، ولكنهم لم يقيموا دولة للفرس ، واهتموا بأنهم يدينون بالمجوسية أحياناً وبالديبانية أحياناً ، ولكنهم لم يقيموا دولة للمجوس أو لديبانية «وإنما أقاموا دولة لبني الفواطم من نسل إسماعيل ، واستخدموا لتنفيذ غايتهم كل وسيلة ممكنة - كما قلت . وأخيراً - نسب بعض الإسماعيليين المتأخرين عبيد الله المهدي إلى موسى الكاظم ، واعتبروه الإمام الثاني عشر - مهدي الزمان عند الشيعة الإمامية الاثني عشرية ، بل أنطقوا موسى الكاظم بالحديث الآتي «سئل موسى الكاظم بن جعفر الصادق عن ظهور القائم متى يكون ؟ فقال ؛ إن ظهور القائم مثله كمثل عمود من نور ، سقط من السماء إلى الأرض ، رأسه بالمغرب وأسفله بالمشرق» وقد وضعت هذه الأحاديث لإثبات نسبة عبيد الله للعلويين عن طريق النسب الموسوي . فذكر أنه ابن الحسن العسكري الإمام الحادي عشر ، وقيل إنه محمد المنتظر ، الإمام الثاني عشر .

وهذه النظرية أيضاً متأخرة . ولعلها محاولة من محاولات الإسماعيليين المتأخرين للتوفيق بين المذهب الإسماعيلي والمذهب الاثني عشري وإدماج الفرقتين سوياً .

وأخيراً - دخل عبيد الله المهدي أرض المغرب ، حيث كان المذهب الإسماعيلي يسود ظاهراً في كثير من أرجائها على يد الداعي أبي عبد الله الشيعي - وسنرى في الفصل التالي - كيف نشر أبو عبيد الله الفلسفة الشيعية ، وأنشأ دار هجرة إسماعيلية ، وبنى لبني فاطمة ملكاً شامخاً خلال دعوته إلى آل رسول الله .

الفصل السابع

دور الظهور

كانت الدعوة الإسماعيلية في دور الستر ، دور الخضر ، ثم مالبت أن انتقلت إلى دور الظهور ، دور الأمان ، في بلاد المغرب البعيدة . فكيف حدث هذا ، وهل سادت الفلسفة الإسماعيلية حقاً هذه البلاد ؟

إن قيام دولة شيعية يحكمها أحد أبناء فاطمة كان الحلم الذهبي لأجيال متعاقبة من المسلمين ، ولذلك نرى كثيرين من مؤرخي الفكر الإسماعيلي يحاولون حين تحقق الحلم الذهبي في بلاد المغرب أن ينسبوا إلى رجل الشيعة الأكبر جعفر الصادق أنه أول من أرسل الدعاة إلى المغرب ، واختار لهذا داعيين عرفا في تاريخ الدعوة الإسماعيلية باسم الحلواني وأبي سفيان . وتذكر المصادر أن جعفر الصادق علمهما وسائل الدعوة السرية ، ثم ودعها إلى المغرب قائلا : « قولاً لكل شيء باطن . واذها ، فالمغرب أرض بور . فاحرثاها واكرباها ، حتى يأتي صاحب البذر » (١) على أنه من الواضح أن جعفر الصادق (المتوفى عام ١٤٨ هـ) لم يناد بفكر الظاهر والباطن ، وأنها لم تعرف في عهده ، ثم إن فكرة صاحب البذر فكرة متأخرة .

وقد ثبت تاريخياً أن الإمام الحسين بن أحمد - وهو ابن حفيد جعفر الصادق ، والمتوفى بعد أكثر من قرن من وفاة جده الأكبر ، هو الذي أمر بإرسال الداعيين - الحلواني وأبي سفيان إلى المغرب ليغرسا فيها غرساً ، وقد فعلا . ويبدو أن اتصالها المباشر كان بابن حوشب منصور اليمن . بل يبدو أنهما تعلمتا الدعوة في مدرسته ، وأتقنا فيها فكرة التأويل ، والتفسير الباطني والظاهري . وسارا إلى أرض كتامة بتونس ، وهي قبيلة بربرية ذات سطوة ونفوذ ، وهناك بشرا بظهور المهدي وقيام دولته . وكان كل منهما - تبعاً لتعاليم ابن حوشب يعمل منفرداً . فلما ماتا اختار ابن حوشب - بموافقة إمامه الحسين وحجته محمد أبي الشلعلع - أبا عبد الله الشيعي لهذه المهمة الكبرى ، ليكون صاحب البذر . وقد كان ، كما سنرى بعد قليل .

نشأ الحسن بن أحمد بن محمد بن زكريا الملقب بأبي عبد الله الشيعي ، بصنعاء باليمن ، وقد عرف باسم الصنعاني ، وكانت أسرته شيعية اثني عشرية ، وقد رحل أبو عبد الله الشيعي وأسرته إلى العراق

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١١ ، المقرئ : اتعاظ الخفا ص ٢١ .

إحدى مراكز الشيعة الاثني عشرية حينئذ ، وعاش في البصرة أو أحد أعمال بغداد ، وكان الرجل على تدين كبير ويسير في زى الصوفية ، يرتدى الصوف الحشن ، والأردية الغلاظ ، بل ينسب عنه أنه كان يلبس المرقعة وهى وسم الصوفية كما نعلم ، ولذلك لقب بالصوفى ، وكان ينشر الدعوة الاثني عشرية ، ويعلمها فللقب أيضاً بالمعلم . هذه هى نشأة الرجل الأولى حتى قابله أحد دعاة الإسماعيلية وهو أبو على - داعى مصر بعدئذ ، فحوّله إلى الإسماعيلية . والإسماعيلية - كما قلنا - قريبة من الاثني عشرية ، فكلاهما شيعة تؤمن الأولى بإمام مستور ، وتؤمن الثانية بإمام غائب . والأمل في إمام مستور أعظم من الأمل في إمام غائب . فكانت الإسماعيلية إذن « منحنى » ينحرف إليه الاثنا عشرى الطامع أو العجل الذى يتشوف إلى ظهور الإمام .

وكانت الإسماعيلية تعلن اقتراب الفجر ، ظهور المهدي كالشمس الواضحة ، أما أن أبا عبد الله كان صوفياً ، وأنه كان يلبس المرقعة . فنلاحظ ما يأتي : أن كثيرين من غلاة الشيعة : الجعفرية والبيانية والمغيرية والمنصورية كانوا يدعون التقشف والزهد ، فلا جرم أن يفعل هذا إمامى اثنا عشرى سواء أكان غالباً أم لم يكن ، علاوة على أننا قلنا من قبل إن عبد الله بن ميمون ، وقد تابعه أولاده على هذا ، استخدموا التصوف ، كما استخدموا الشعوذة ، والكيمياء والحيل الهندسية للدعوة للإمام الإسماعيلي .

ويذكر النويرى هذا حين ينقل إلينا الحديث المشهور بين عبد الله بن ميمون القداح ومحمد بن الحسن بن جهار نجان المعروف بدندان وهو الشعوى المشهور فيقول : « كان من كبار الشعوية رجل يسمى محمد بن جهار نجان الملقب بدندان ، وهو بنواحي الكرج وأصبهان - له حال واسعة وضباع عظيمة وهو المتولى على تلك المواضع ، وكان يبغيض العرب ويذمهم ويجمع معايبهم . وكان كل من طمع في نواله تقدم إليه يذم العرب . فسمع به عبد الله بن ميمون القداح وما ينتحل من بغض العرب وصنعه النجوم ، فسار إليه . وكان عبد الله يتعاطى الطب وعلاج العيون ويقده الماء النازل فيها ، ويظهر أنه إنما يفعل ذلك حسبة وتقرباً إلى الله عز وجل بنواحي أصفهان الجبل . فأحضره دندان وفاتحه الحديث فوجده كما يجب ويهوى . وأظهر له عبد الله من مساوئ العرب والطنع عليهم أكثر مما عنده ، فاشتد إعجابه به وقال : مثلك لا ينبغي أن يطب ، وإن قدرك يرتفع ويجل عن ذلك . فقال : إنما جعلت ذلك ذريعة لما وراءه ألقيه إلى الناس وإلى من أسكن إليه على مهل ورفق من الطعن على الإسلام . وأنا أشير عليك ألا تظهر ما في نفسك إلى العرب ومن تعصب لهذا الدين . فإن هذا الدين قد غلب على الأديان كلها ، فما يطيقه الروم ولا الترك ولا الفرس ولا الهند مع بأسهم ونجدتهم .

وقد علمت شدة بابك صاحب الحرمية وكثرة عساكره ، وأنه تنسك والترم التشيع والبكاء على أهل البيت ، فإنك تجد من يساعدك من المسلمين ،

ويقول : هذا هو الإسلام . وسب أبا بكر وعمر ، وانع عليهما عداوة الرسول وتغيير القرآن وتبديل الأحكام . فإنك إذا سببتها ، سببت صاحبها ، فإذا استوى لك الطعن عليهما ، فقد اشتفيت من محمد ، ثم تعمل بعد ذلك في استئصال دينه . ومن خرج على ذلك فقد خرج من الإسلام من حيث لا يشعر ، ويتم لك الأمر كما تريد . فقال دندان : هذا هو الرأي . ثم قال عبد الله : إن لي أصحابا وأتباعا أبشهم في البلاد ، فيظهرون التقشف والتصوف والتشيع . ويدعون إلى ما نريده من إحكام الأمر . فاستصوب دندان ذلك ^(١) ومع شكى في كثير مما جاء في هذا الحديث ، فإنه من المؤكد أنه كان في منهج الدعوة الإسماعيلية إظهار التقشف والتصوف . وقد قلنا من قبل إن الداعية الحسين الأهوازي - أو بمعنى أدق الحسين بن عبد الله بن ميمون قد قابل حمدان قرمط في لباس متصوف زاهد قانت . وكذلك الأمر مع أبي عبد الله الشيعي ، فقد لقب بالصفوي سواء أكان صوفياً حقيقة أم أنه اتخذ التصوف ادعاء . غير أننا نرى في حياة الرجل في ظروف قاسية في صحراء المغرب ، ما يدل على روح صوفية متمكنة ، وسراه أيضاً ينكر على كثيرين من الإسماعيليين في المغرب خروجهم على قواعد الشريعة الإسلامية ، مما دعا بعض المؤرخين إلى القول بأن سبب مقتله الحقيقي هو عدم رضائه عن خرق بعض التكاليف الإسلامية من رجال عبيد الله .

والصلة بين التصوف الفلسفي والإسماعيلية مجال لبحث ، لا نريد أن نقول فيه كلمتنا الآن ، ولكن من المؤكد أن هناك صلات بين الاثنين .

صحب أبو عبد الله الداعي - أبا عبد الله الشيعي إلى سلمية . وقد ذهب بعض المصادر التاريخية إلى أن أبا عبد الله الشيعي اتصل بمحمد الحبيب أبي الإمام الحسين الإسماعيلي وأنه هو الذي أوقده إلى اليمن - إلى ابن حوشب - ليعده للدعوة في المغرب ، وذهبت بعض المصادر إلى أن محمد الشلعلع أو أحمد بن عبد الله بن ميمون هو الذي أرسله إلى هناك . وسواء أكان هذا أو ذاك فقد سافر أبو عبد الله الشيعي إلى بلده الأصلي اليمن عام ٢٧٨ هـ . وهناك صحب ابن حوشب لمدة عشرة أعوام وأصبح موضع ثقته . ونمى إلى ابن حوشب موت الداعي الثاني أبي سفيان ، ويبدو أن الحلواني الداعي الآخر كان قد مات قبلاً . ورأى ابن حوشب أن يعهد إلى أبي عبد الله الشيعي بالدعوة في المغرب . ويبدو أن هذا قد تم بموافقة الإمام الحسين وحجته محمد أبي الشلعلع أو أحمد بن عبد الله بن ميمون ، وقد

(١) التويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ج ٥ ص ٣٥-٣٦ .

حفظ المؤرخون لنا كلمات ابن حوشب له «إن أرض كتامة من بلاد المغرب قد حرثها الحلواني وأبو سفيان . وقد ماتا ، وليس لها غيرك ، فبادر ، فإنها موطأة ممهدة لك » .

وانتظر أبو عبد الله موسم الحج ، ثم غادر اليمن متجها نحو مكة . وسأل عن حجاج كتامة واجتمع بهم . وكان الحلواني وأبو سفيان قد ملأ أرض كتامة بالأحاديث عن قرب ظهور المهدي ، وأن دولة العلويين ستقوم من بلاد المغرب . أى أنها حرثا الأرض لصاحب البذر . فلما قابل أبو عبد الله الشيعي الكتامين في مكة رآهم يتحدثون عن مآثر أهل البيت ، ويذكرون قيام المهدي في بلاد المغرب أفاض هو أيضا بعبارة الخلافة وحديثه الممتع في فضائل أهل البيت ، وقرب ظهور المهدي منهم ، وكان الرجل ذا شخصية ساحرة نفاذة . فدعوه إلى زيارة بلدهم وصحبهم أبو عبد الله الشيعي - في قصة طويلة لا تعيننا - إلى كتامة . وحين وصل أبو عبد الله أرض كتامة في شهر ربيع الأول سنة ٢٨٨ هـ . مع حجاج كتامة أقبل الكتاميون عليه ، وتنافسوا في إكرامه . لكن الرجل - في حركة مسرحية ، رفض ، وسألهم أين فج الأخيار ؟ فدلوه عليه . فقصدته وسار إلى جبل إيكجان ، فنزل بفج الأخيار . وهناك قال لهم « هذا فج الأخيار ، وما سمي إلا بكم . ولقد جاء في الآثار : للمهدي هجرة ينبو بها عن الأوطان ، ينصره فيها الأخيار من أهل ذلك الزمان ، قوم اسمهم مشتق من الكتان ، ولخروجكم من هذا الفج ، سمي فج الأخيار » . (١)

وتسامعت البربر به ، فأنته من كل مكان ، وهنا أعلن « أنا صاحب البذر الذي أخبر به أبو سفيان والحلواني » ولم يكن البربر يدركون مدى تنظيم الدعوة الإسماعيلية في بلادهم . ولا تنسيقها على هاتين الدرجتين ، درجة الحرث والكراية ثم درجة صاحب البذر ، وإنما اعتبروا حضور أبي عبيد الله ، من المغيبات التي تعلق عن الأفهام ، وكانوا قوما على جانب كبير من السذاجة . فاعتبروا حضور أبي عبد الله ، وكما أعلن هو لهم - بشارات غيبية بظهور المهدي ، فتهافتوا على أبي عبد الله مبايعين منتظرين « المخلص » الذي سيخلصهم من قسوة حكام البلاد العرب ، وقسوة الضرائب والمكوس ، وطالما شكوا إلى الخليفة العباسي في بغداد ، فلم يأبه لهم ، فكان الأمل الوردى : أن يخلصهم منقذ مستور من آل البيت .

اتخذ أبو عبد الله الشيعي « دار هجرته » في فج الأخيار ، وقد ذكرنا من قبل أن تلك كانت عادة الإسماعيلية مستنيتين سنة الرسول في اتخاذ المدينة « دار هجرة » بعد أن ضاق به الأمر في مكة . ثم استنها للإسماعيلية محمد بن إسماعيل ، حين فر من المدينة متخذاً دار هجرة في فارس ، ثم الدعاة جميعاً في

(١) ابن الأثير : تاريخ ج ٨ ص ١٢ والمقرئى : انماظ الحنفا ص ٢٧-٣٢ .

مختلف عهود الأئمة المستورين .

تهافت البربر على أبي عبد الله ، فما هي المبادئ التي كان يدعو إليها ، هذا الصوفي ، والمعلم ، والاثنا عشرى القديم ؟ والداعية الذي لم يعرف التاريخ له مثيلاً ، بطون كتامة ، والرجل الذي قيل إنه لم يتجاوز في الدعوة - الدرجة السادسة فقط من درجاتها أى أنه لم يطلع على الدرجات السابعة والثامنة والتاسعة - الدرجات الأخيرة من الدعوة الإسماعيلية السرية .

أعلن أبو عبد الله الشيعي : أن الأمام - صاحب الزمان - من آل بيت رسول الله ﷺ ومن أبناء فاطمة حتى مستتر ؛ وأنه المهدي المنتظر ، وقد أطل زمانه . وهنا نتساءل ، أى الأئمة كان يدعو إليهم ؟ والإجابة عن هذا السؤال أنه كان أولاً للإمام الحسين ثم لابنه الإمام علي . ثم نقل الدعوة للإمام القداحي ، أو الحجة والإمام : عبيد الله المهدي . ولكن كتامة لم تعرف أبداً أن عبيد الله لم يكن فاطمياً . ولم يكن أبو عبد الله الشيعي في حاجة إلى تفسير تولى حجة الإمام ، للإمامة ، سراً على صاحب الحق : القائم . كان أبو عبد الله - كان حوشب - مخلصاً تمام الإخلاص للأئمة الإسماعيليين . وكان يعلم أن تولى عبيد الله للإمامة إنما كان حفظاً وسراً على ولي الأمر القائم بأمر الله . وأنه لا يمكن أن يوضع القائم على كرسي الخلافة حتى تستقر الأمور تماماً في المغرب . فكانت الدعوة إذن تلخص في إمام مستتر ، على وشك الظهور ، لإقامة « دولة الله » الدولة التي طالما حلم بها المسلمون في بقاع الأرض ، حين افتقدوا على ابن أبي طالب في يوم نحس قائم . ومات أبناؤه من فاطمة واحداً بعد واحد تحت ظلال السيوف وبكأس السم . لإقامة دولة الله . كان الناس - والدولة العباسية تلفظ أنفاسها ببطء في انتظار المنقذ . وأعلن أبو عبد الله الشيعي للبربر من كتامة أن المنقذ على وشك الظهور .

ولكن ما هي حقيقة المنقذ عندهم ؟ لقد حاول كثيرون من الباحثين أن يثبتوا أن أبا عبد الله الشيعي لم يذكر حقيقة الفكرة الإسماعيلية في الإمام . وهذا خطأ . لقد أضنى عليه الرجل كل هالات القدسية بل وضح للكتاميين أنه مظهر محمد ، وجمع الأنبياء ، وظهور العقل الكلي ، ومجلى الله أو بمعنى أدق أعلن نظرية حلول العقل الكلي ، أو بصيغة أخف ، حلول صفات الله في الإمام .

ولما غادر عبد الله المهدي سلمية في طريقه إلى المغرب أذاع أبو عبد الله الشيعي بين الناس « المهدي يخرج في هذه الأيام ، ويملك الأرض ، فيأطوي لمن هاجر إلى وأطاعني » ويذكر حديث الإمام الحسين للمهدي : أنك ستهاجر بعدى هجرة بعيدة ، تنوبها عن الأوطان ، وتلاقى محناً شديدة » وفسرها أبو عبد الله الشيعي بأنها رحلة إلى المغرب . ولما وصل عبيد الله إلى سلجاسة ، وقبض عليه أميرها وسجنه ، كان أبو عبد الله الشيعي مؤمناً تمام الإيمان بأن « الله سيحفظ المهدي وبقية ، ويدفع

عنه حتى يظهره ويعز نصره» ولم يعلن أبو عبد الله اسمه - خوفاً عليه من أمير سلجاسة بل أمر فقط «بالصلاة على رسول الله ﷺ وعلى الحسين وفاطمة» وأخيراً - دخل أبو عبد الله الشيعي ظافراً إلى سلجاسة وأخرج المهدي وأبا القاسم - القائم بأمر الله .

وظهر الإمام المنتظر «والمؤمنون في فرح عارم ، يصيحون» يا خيل الله اركبي . وأبو عبد الله يمشي بين يدي المهدي يقول للمؤمنين «هذا مولاي ومولاكم أيها المؤمنون» .

ظهر العقل الكلي إذن في الإمام ووقف محمد البديل كاتب قضاة - يقول للإمام وقد دخل مدينة

رقادة :

حل برقادة المسيح حل بها آدم ونوح
حل بها أحمد المصطفى حل بها الكبش الديح
حل بها الله ذو المعالي وكل شيء سواء ربح

وهذا يثبت تماماً أن البربر عرفوا المبادئ الإسماعيلية الفلسفية ، وأن أبا عبد الله الشيعي نشرها بينهم ، بل إن يمينهم كانت «وحق عالم الغيب والشهادة مولانا المهدي الذي برقادة (١) .

ويقول ابن عذارى المراكشي إن الفاطميين أعلنوا منذ اليوم الأول مبادئ التشيع وعناصره ، والتبرؤ من الصحابة وأزواج الرسول ، ثم طبقوا الفقه الشيعي كاملاً (٢) . ويسرف مؤرخو أهل السنة في تصوير الفاطميين لإمامهم . فيذكر القاضي عبد الجبار أن البعض منهم كانوا يدعونه : المهدي بن رسول الله وحجة الله على الخلق ، وكان البعض الآخر يدعونه : رسول الله ، والبعض الثالث يذكرون «هو الله الخالق الرازق» (٣) .

ويذهب الإسماعيلية إلى العكس من ذلك ويقررون أن أبا عبد الله الشيعي لم يعلن قداسة الأئمة وتألبيهم وحلول روح الله فيهم ، وأنه إنما أراد فقط إقامة نظام ديني على رأسه إمام من أولاد فاطمة . وأن عبيد الله بعد ذلك أنكر الغلو وأعلن أنه لن يحكم بخلاف ما أنزل الله .

ظهر الإمام : فهل قبل عقائد التألبي ، ونظرية الحلول ؟ ولم يقبل عبيد الله المهدي ، وقد أصبح مسئولاً عن الدولة باسم آل البيت هذه العقائد أبداً : إنه لم يقبل «التشريق» أي الغلو في الأئمة ، وقد سجن كل من نادى به ، حتى ماتوا في سجنه مقيدين . وقد ذهب ابن عذارى إلى أن كثيرين من أتباع

(١) ابن حماد : أخبار بني عبيد وسيرهم ص ١٦ .

(٢) ابن عذارى المراكشي : البيان المغرب ج ١ ص ١٥٨-١٥٩ .

(٣) القاضي عبد الجبار : تثبيت دلائل النبوة (كتاب مخطوط سينشر قريباً- وقد نقل أبو شامة صاحب كتاب الروضتين بعض

فقراته ج ١ ص ٢٠١) .

عبيد الله ، كانوا يعبدونه عن يقين وأن واحداً منهم كان يصلى إلى رقادة أيام كون عبيد الله بها ، وهى منه فى المغرب ، فلما انتقل عبيد الله إلى المهديّة ، وهى فى الشرق ، صلى إليها وكان يقول : لست ممن يعبد من لا يرى . وكان يتصدى لعبيد الله ويقول : ارق إلى السماء . كم تقيم فى الأرض وتمشى فى الأسواق . وكان يقول القيروانى فى عبيد الله : إنه يعلم سرّكم ونجواكم» (١) .

ولكن الفاطميين أعلنوا منذ اليوم الأول تخليهم عن كل أفكار التّأليه ، ولاشك أن هذه الأفكار لحقت بهم - وهم فى دور الاستتار ، وكانوا يتطلبون تأييد كل الطوائف ، ويجمعون إلى صفوف المذهب الإسماعيلي كل ما يمكن جمعه وجذبه من الفرق . فاحتضنوا كل الأفكار معتدلة وغالية ، حتى يتمكنوا من إقامة الدولة والانتقام من أعداء أهل البيت ، فاستخدموا التشيع البحث لآل البيت ، كما استخدموا الفلسفة والغنوص . فلما بدأت الدولة ، وانتصر حق آل البيت ، رأينا دولة إسلامية متشعبة معتدلة فى عقائدها إلى حد كبير .

أما القول بأن أبا عبد الله الشيعى ثار على المهدي حين أعلن هذا الأخير تأليه نفسه ، وأباح الخمر والغناء ، وأنه حينئذ قال : ما على هذا خرجنا . فقول مردود . إن أبا عبد الله الشيعى هو نفسه فى دور السر ، أضنى على الإمام كل صفات القداسة ، بل إنه اتهم بالقول بالحلول ، ومن المحتمل كثيراً أنه نادى به وكانت فكرة الحلول توافق عقيدته الصوفية .

لقد ثار أبو عبد الله الشيعى وأخوه أبو العباس حين سلب المهدي السلطة من أيديهما ووضعها فى يديه هو . وقد استغل المهدي فكرة القداسة التى أضفها أبو عبد الله الشيعى عليه . فأمر عروبة بن يوسف - أحد تلامذة أبي عبد الله - ومن آمنوا بقداسة الإمام بقتل أبي عبد الله الشيعى نفسه ، وحين هم بقتله صاح به أبو عبد الله « لا تفعل . فأجابه : إن الذى أمرتنا بطاعته أمرنا بقتلك (٢) . وقتله فى منتصف جمادى الآخر سنة ٢٩٨ هـ . كما قتل أخاه أبا العباس وهو الذى أثار أخاه أبا عبد الله على المهدي . وأعلن عبيد الله أنه «المطهر» أنه يطهر بالسيف أخطاء الناس . إنه يعلن للإسماعيلية فى المشرق والمغرب أنه قتل أبا عبد الله ليطهره من الرجس الذى تردى فيه لاتباعه أخاه أبا العباس . وأن قتل أبي العباس كان لتخليص الدعوة من المستكبر المصر على الإبلاس (٣) ، فطهر المهدي منه دعوته ، وتبرأ منه . وترحم المهدي على أبي عبد الله وقال : رحمتك الله يا أبا عبد الله ، وجازاك فى الآخرة بتقديم

(١) ابن عذارى : البيان ج ١ ص ١٩٠ .

(٢) ابن خلدون : العبر ج ٤ ص ٣٧ .

(٣) الداعي إدريس : زهر المعاني ص ٦٩ .

سعيك ، ولا رحمك الله أبا العباس ، فإنك صددته عن السبيل وأوردته موارد الهلاك : « ثم قرأ المهدي الآية : « ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين . وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون » .

وكتب إلى شيعته بالمشارق يقول « قد علمتم محل أبي عبد الله وأبي العباس من الإسلام . فاسترهما الشيطان ، وطهرتهما بالسيف والسلام » (١) .

إننا نعلم أن الأمويين من قبل قتلوا الحسين بن فاطمة وزيد بن علي وابنه يحيى لخروجهم على حكم بني أمية الجائر ، وحقق الأمويون بذلك قانوناً قبيحاً جاهلياً ، ثم أتى العباسيون ، وقتلوا في عهود مختلفة العرة الطيبة من آل رسول الله ، تنفيذاً أيضاً لهذا القانون القبيح ، الخروج على فخذ من قبيلة بني هاشم . ثم أتى عبيد الله ، فاتخذ في ضوء تعاليم أبي عبد الله نفسه - مبدأ غنوصياً ، تطهير الإنسان من الآثام بقتل الجسد - فقتل الخارج على سلطة الإمام المعصوم ، قتل جسده لتحيا روحه مطهرة من الآثام في عالم الروح الباقي . فعلى عبيد الله هذا ، واتخذ دور المطهر ، وهو الدور الذي آمن به المقتول نفسه ، أبو عبيد الله الشيعي .

وهذا الدور - دور المطهر ، يستلزم صفة أخرى من صفات الإمام - وهي العصمة . وقد آمنت الشيعة جميعاً اثنا عشرية وإسماعيلية وغلاة بعصمة الأئمة ، مثلهم في ذلك مثل الأنبياء ، فلا يصدر عنهم خطأ ، ولا يرتكب واحد منهم معصية . بل ذهبت مجموعة من الإسماعيلية . إلى أنهم لا يخضعون للتكاليف الشرعية فإذا ارتكب واحد منهم معصية ، فلا ضرر ولا جناح عليهم فيها فعلوا . ويدعون أن هذا بسبب الرواية الزائفة عن شرب إسماعيل للخمر ، ولكن الإسماعيلية في مجموعها - تنكر هذه الرواية ولا تقبلها ، كذلك معظم مؤرخي الإمامية ينكرون شرب إسماعيل للخمر ، ويعتبرونه من جلة أصحاب أبيه الإمام جعفر الصادق . وآمنت الإسماعيلية أيضاً بضرورة وجود إمام في كل عصر . يرجع إليه في أمور الدين والدنيا ، ويدين للناس ما استبهم من معضلات الدين .

وقد نشأ عن هذه القاعدة نظرية التعليم . أي أن الدين يؤخذ من الإمام لا من قياس ولا من رأى ويتشارك الإسماعيلية والاثنا عشرية في هذا الأصل فالإمام عنصر إستيمولوجي منه وحده المعرفة والعلم وقد نشأ عنه في القرن الخامس والسادس نظرية التعليم وقد أفاض في نقدها حجة الإسلام الغزالي وبن تهايت ، ونظرية التعليم - نظرية متأخرة - وإن كانت بذورها قد نشأت في عصر متقدم . والإمام يعين بالنص . فالإمامة مستمرة مدى الحياة عند الإسماعيلية لا تتوقف عند إمام معين ، كما

(١) ابن عداري : البيان ج ١ ص ١٦٤ .

يذهب الاثنا عشرية ، بل لابد من إمام معصوم مستتر أو ظاهر ، ولولا وجود الإمام ، لساحت الأرض بمن فيها ، فالإمام إذن عنصر وجودي كوزمولوجي ، خلق الكون لأجله ، ولا يوجد الكون بدونه ، ولو لم يوجد ، لما وجد الكون ، فهو مركز الكون ونقطة الوجود .

والإمام - كما قلنا - إما مستتر وإما ظاهر . سن الاستتار الإمام محمد بن إسماعيل ، وقد استتر كالليلة الظلماء ، وعبثاً حاول العباسيون الوصول إليه . وانتشر حجه وحججه يدعون إليه ، وبلغ التخفي مداه خوفاً من «الأضداد» الذين يناهضون إقامة دولة الله ، ويحاربون ظهور القائم المنقذ من بني فاطمة . فاتخذ الحجب والدعاة كل الوسائل الممكنة لإخفاء الإمام : «كان لشدة استتار الإمام عليه السلام ، إذا أخذ أحد من حدود دينه العهد ، مستجيبين إلى دعوته ، يقول له : وإنك سمعاً وطاعة لولي العصر . ولا يفوه باسمه ، وإذا ترشح في العلم وعلت فيه درجته وارتفعت منزلته ، كتب له اسم الحجب ولا يكشف اسم إمامه . ولا يدينه بإشارة ولا عبارة في كلامه إلا بحمد قد بلغ الإطلاق ، واستحق كشف معرفة إمامه باستيجاب واستحقاق . وجرى ذلك مدة الأئمة المستورين ، حتى طلعت شمس الحق من مغربها ، وأنارت آفاق الدين لكل مستمسك بالعروة الوثقى» (١) .

وصيغة القسم الإسماعيلي نفسه غامضة «إن كان ما أقوله كذباً ولم أقل بانتقال الإمامة إلى السيد الحسين . ثم إلى بنيه بالنص الجلي موصلة إلى جعفر الصادق ثم إلى إسماعيل صاحب الدعوة الهادية والأثر الباقية وإلا قدحت القдах وأتمت الداعي الأول» (٢) . وكان الحجج يتسمون بأسماء الأئمة ، وكذلك كان يفعل كثير من الحدود ، فاختلف الناس في أسمائهم في دور السر - إمعاناً في المحافظة عليهم ، وعدم كشفهم للظلمة من ولد العباس . وكان هذا السر كما قلت - ذريعة ومدخلا للأسطورة ، التي حاكت حول الإمام المستور ميزات غيبية وصفات من قداسة ورموز كبالية . ثم استخدم الإسماعيليون لدور السر الاصطلاح الأرسططاليسي «القوة» فهو إمام بالقوة .

وأقبل دور الظهور - وبلغه أرسطو دور الفعل ، فكان للإمام في هذا الدور ما كان له في دور السر - دور القوة من ميزات وصفات وقداسة ، وكان المعز فيها بعد إعلان أن الأئمة عباد مربون وخلائق قانون ، ولكن الدعاة البعيدين يعلنون تأليه أو مشاركته للألوهية بنوع . ثم استتر الحاكم بأمر الله عند الدورز ، ولكن هذا استتار غلاة لا يسير في النسق الإسماعيلي لدور السر . إنما السر عندهم هو اختفاء إمام حي ، أو هو نوع من التقية التي عرفت عن الشيعة عامة ، فلكى يتقأ أعداءه ويحافظ على حياته ، يختفي الإمام ويستتر حياً . وكان ابن حوشب يدعو إلى الإمام المنتظر من نسل محمد بن إسماعيل

(١) الداعي إدريس : زهر المعالي ص ٩ .

(٢) شهاب الدين بن العمري : التعريف ص ١٥٧-١٥٨ .

ابن جعفر الصادق « أو إلى المهدي المنتظر فقط .

الإمامة مستقرة أبد الآبدين في الستر أو في الظهور . ويختلف أدوار الستر والظهورين مختلف الفرق الإسماعيلية . على أن أهم أدوارها يعرف بالدعوة القديمة . بدأت الدورة الأولى فيها باستتار محمد بن إسماعيل وانتهت بنشأة دورة ثانية بتولى عبيد الله المهدي عرش الفاطميين عام ٢٩٦ هـ . ثم تبدأ الدورة الثالثة دور الستر الجديد حين اختفى الإمام الطيب بن الأمر سنة ٥٢٦ هـ . وأتباع هذه الدعوة هم طائفة البهرة في الهند . أما كيف نشأوا - فقد تولى إمامة الإسماعيلية بعد المستنصر ابنه المستعلي ، وقتل خاله ووزيره الوزير الأفضل بن بدر الجمالي الوريث الشرعي للإمامة نزاراً وابنه ، وسرعان ما تكونت الإسماعيلية الزارية على يد الحسن بن الصباح في قلعة ألموت ، وتكونت المستعلية في مصر ، ثم مات المستعلي وتولى الإمامة ابنه الأمر ، ولكن ما لبث الزاريون أن قتلوه ، فتولى الحافظ عبد المجيد بن المستنصر ليكون إماماً مستودعاً للطيب بن الأمر ، ولكنه ما لبث أن استبد بالأمر ، فأرسل أحد الدعاة الإمام الطيب إلى الملكة الحرة أروى الصليحية باليمن ، فأخفته هذه الملكة ، وأعلنت نفسها كفيّلتة وحجته ، واتخذت لنفسها لقب « كفيّلة الإمام المستور الطيب ابن الأمر » ودخل الطيب بن الأمر دور الستر ، فيما يدعى الطيبيون . ثم انتقلت الدعوة إلى الهند بعد انتهاء الدولة الصليحية ، وداعياها الأكبر سلطان البوهرا ، ولكن ما زال يمثلها داعي يمّني .

أما الدعوة الجديدة ، وهي دعوة الزارية - وهي التي انتهت اليوم إلى كريم خان . وبحث طائفة البهرة وطائفة الخوجات الإسماعيلية الأغاخانية ليس في نطاق هذا الكتاب ، ونحن نبحت فقط نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام لا أواسطه ولا نهاياته ، ونؤجل الكلام فيه لبحث آخر .

وأخيراً - أختتم هذا الفصل بأن الدعوة الإسماعيلية انتشرت في كتامة ، ثم في بقية بلاد المغرب ، بل إنها انتشرت أيضاً في الأندلس ، واعتنق الفلسفة الباطنية الفيلسوف الصوفي ابن مسرة ومدرسته ، وانتقل إلى الفصل الأخير من هذا الباب ، وهو البحث في إيجاز في الدعوة في بلاد فارس .

الفصل الثامن

الفلسفة الإسماعيلية في فارس

كانت فارس أول بلاد فكّر محمد بن إسماعيل في الاستتار بها . وأرسل إليها دعائه السريين . ونحن قد رأينا من قبل أن حجته وحافظه ميمون القداح كان فارسياً . ويدعى الانتفاء لسلطان الفارسي . ولا عجب إذن أن اتخذ محمد بن إسماعيل فارس دار هجرة له . ولا عجب إذن أن « دعائه السيارة » كانت قد غرست غرساً في هذه الجزيرة - أي في هذا الإقليم من أقاليم الدعوة . فأقيمت الدعوة أول الأمر باسم محمد بن إسماعيل في فارس فغمرت الأرض ، وانتشر الأمر ، وأقبل كثير من أتباعه على السياحة إليها لنصب دار هجرة لهم فيها .

وكان لمحمد بن إسماعيل - وبثأثير أستاذه الفارسي ميمون - مزاج فارسي ، يتضح في منهجه التأويل وفي إحاطته بالفلسفة . وكانت فارس مرتعاً خصباً لآراء الغلاة من الكوفة ، علاوة على تمكن الغنوص في مختلف صوره منها ، كما تخلفت فيها ركائز الفلسفة اليونانية منذ عهد بعيد . وفي فارس كانت الإمامية تنتشر انتشار المهشم . وفي فارس أيضاً ومن فرس صنيغ الإسلام صيغة المعتزلية . وكان أعظم فلاسفة المعتزلة فرساً . وفي فارس أيضاً وعلى أيدي علماء فرس أخذ المذهب الأشعري - مذهب أهل السنة والجماعة صورته النهائية . فرنا ميمون القداح بعينه إليها . وحمل ابن سيده محمد بن إسماعيل مستتراً فيها ، وهو يعلم أن عشيرته وأهله سيتقبلون المذهب الإسماعيلي أكثر مما يتقبله أهل المغرب ، سيفهمون فكرة النطقاء أكثر من غيرهم ، وسيقبلون على عقيدة تجمع بين فلسفة الإسلام وفلسفة اليونان وكثير من غنوصيات الفرس . والفرس يؤمنون بالحق الإلهي المقدس للملوك ، وقد طال انتظارهم للمنقذ والمخلص من سلطان الأمويين والعباسيين الجائر . وهذا هو المخلص من آل فاطمة ، ومن أبناء ابنة كسرى ، الناطق السابع وخاتم الأسبوع ، القائم الناسخ لشريعة صاحب الدور السادس ، ببيان معانيها وإظهار باطنها المبطن فيها . « ولي الأولياء » ، ابن محمد ﷺ ، لم يأت بإبطال قرآنه ، بل بتفسيره وتأويله ، وإضفاء روح جديدة عليه . تعطل به ظاهر شريعة محمد ﷺ ، فبين معانيها ويكشف أسرارها ويجليها ، ويزيل ظواهر التشبيه والتعطيل .

وكان محمد بن إسماعيل وتابعه الفارسي - وهو يمشي معه في صورة سلمان ومعلناً أنه من نسله ، أول

دعاة المذهب الإسماعيلي في فارس . واستتر محمد بن إسماعيل . ثم مات ومات ميمون - وتابع أئمة دور الستر وحججهم دعوتهم في أعماق فارس وفي عمق أكثر من أي بلد آخر من بلاد المسلمين . وكانت نيسابور حيث استقر محمد بن إسماعيل وميمون القداح من أهم مراكز الدعوة الإسماعيلية ، وفيها ولد الإمام عبد الله الرضا ونشأ وترعرع ، ثم انتقل عبد الله الرضا بعد وفاة أبيه إلى مازندران ثم الأهواز . وهو يغرس الدعوة حيثما ذهب . بل كانت دار هجرته الأولى في خوزستان - والأهواز بالذات . وتفرق إخوته وأولاده في نهاوند والري ونيسابور وخوارزم . ونحن نعلم أن العباسيين تتبعوا أفراد الأسرة الإسماعيلية بالقتل وانتقل الإمام عبد الله هو وحجته عبد الله بن ميمون إلى سلمية حيث توفيا هناك .

ولم تترك فارس أبداً بدون دعوة - بعد محنة آل إسماعيل فيها وقتل معظم أفراد الأسرة ، بل سرعان ما وجه عبد الله بن ميمون داعية من أهم دعائمه هو الداعي خلف . ويبدو أن « أول من قدم من بني القداح إلى الري وأذربيجان وطبرستان رجل - يسمى حلاج القطن » وأن حلاج القطن هذا هو الداعي خلف ، وأنه كان يقوم بحياكة الملابس وحلج القطن ، وتمكن الرجل من إنشاء فرقة الخليفة الإسماعيلية في بلاد الري وقم وفانسان (١) . ومات خلف فتولى رئاسة الخليفة ابنه أحمد بن خلف . ولما مات أحمد بن خلف تولى الدعوة الداعي غياث .

ثم أرسل عبيد الله المهدي الداعي أبا سعيد الشعراني (عام ٢٩٧) ويبدو أنه كان على قدر كبير من العلم ، فاستطاع أن يجذب إليه عدداً كبيراً من القواد وذوي الجاه في خراسان . يقول ابن رزام « كان عبيد الله قد أنقذ في سنة سبع وثلاثين أبا سعيد الشعراني إلى خراسان فوه على القواد بذكر التشيع واستغوى خلقاً كثيراً ثم قتل في ولاية أبي بكر بن الحجاج ، فخلفه الحسين بن علي المروزي » وكان الحسين بن علي المروزي أميراً وكان ذا نفوذ وسطوة في خراسان . فأقبل الناس على اعتناق المذهب الإسماعيلي (٢)

ولكن نصر بن محمد الساماني - أمير خراسان وما وراء النهر - تنبه إلى خطر الأمير حسين المروزي فقبض عليه ومات في سجنه ، وكان أكبر تلامذة المروزي هو أبو عبد الله بن أحمد النسفي البرذعي (قتل عام ٣٣٠) بل كان النسفي أكبر دعاة المذهب الإسماعيلي في فارس ، ويكونان هو وأبو حاتم الرازي أساس الفلسفة الإسماعيلية ، ويضعانها في صورتها النهائية في عهد عبيد الله . ونلاحظ أن الإسماعيلية في فارس لم تنجح كحركة حربية . وإنما سادت فقط كنوع من الفلسفة في بعض أوساط المسلمين

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٢٨٠ .

(٢) البغدادي : الفرق ص ١٧٠ .

ولدى كثيرين من الأمراء وذوى السلطان ولكنها لم تؤثر في مجموعة البلاد ، التي بقيت سنة وإمامية حتى انتصر فيها المذهب الاثنا عشرى الانتصار الحاسم حتى أيامنا هذه .

أما النسفى ، فقد تابع أستاذه حسين بن على المروزى في نشر الدعوة بين كبار قواد وأمرأ خراسان ، حتى إنه جذب نصر بن أحمد السامانى ، ولكن نوحاً بن نصر قتله في غضون عام ٣٣١ هـ . وهو المسمى بعام المحنة . ويذكر البغدادى أن له كتاب المحصول (١) . ونقل منه نصاً واحداً - هو : أن المبدع الأول أبدع النفس . ثم إن الأول والثانى مدبران للعالم بتدبير الكواكب السبعة والطبائع الأربع (٢) . وقد سبق أن أوردنا هذا النص من قبل ومحاولة البغدادى رده إلى أصل مجوسى . وقلت إنه متأثر بأصل أفلاطونى محدث . كما يذكر ابن التديم أن له من الكتب - كتاب عنوان الدين ، وكتاب أصول الشرع ، وكتاب الدعوة المنجية (٣) . ويذكر إيفانوف في كتابه A Guide to Ismailite Literature أن له كتاباً آخر هو «كون العالم» وهو في رأى إيفانوف محاولة لمزج العقائد الإسلامية بفكرة الأكوان والعوالم . ويبدو أنه محاولة لتفسير الآثار الفلكية في ضوء الأفلاطونية المحدثة والفيثاغورية المحدثة .

وقد رأينا طرازاً من هذا لدى أحمد الكيال من قبل . وقد عثر إيفانوف على هذا الكتاب . وقد اختفت كتب النسفى الأخرى ولا نجد لها ذكراً لدى الإسماعيلية ، اللهم إلا ما استفاد به الكرمانى من كتاب المحصول في كتابه «الرياض» .

كان مقتل الفيلسوفى - كما قلت - إيذاناً ببدء المحنة الكبرى التى تعرض لها الإسماعيليون في فارس . وقد كادت الحركة الإسماعيلية أن تتوقف تماماً في بلاد ما وراء منذ ذلك الحين ، حتى أحيائها بعد قرن ونصف من الزمان الداعى الإسماعيلى المشهور ، والمؤلف الفيلسوف ناصر خسرو (المتوفى عام ٤٥٢ هـ أو ٤٥٣ هـ) وهو يمثل الدعوة القديمة ، وقد عينه المستنصر نائباً له وحجة ، وقام بنشر المذهب الإسماعيلى في إيران وكون فرقة الناصرية المشهورة . وقد مهد السبيل للحسن الصباح (٥١٨ هـ) مؤسس التزاوية في العراق والشام وإيران أما فيلسوف الإسماعيلية الهام في هذه المرحلة ، فهو أبو حاتم الرازى (المتوفى في عام ٣٢٢ هـ) وأما اسمه الكامل فهو أبو حاتم عبد الرحمن الرازى الوردسانى ، وكان الداعى الإسماعيلى لعبيد الله في الرى .

(١) البغدادى : الفرق ص ١٧٠ .

(٢) نفس المصدر ص ١٧٦ .

(٣) ابن التديم : الفهرست ص ٢٨٠ .

وقد احتل أبو حاتم الرازي مكانة كبرى في تاريخ الإسماعيلية . ويذكره المؤرخون والكتاب الإسماعيليون تحت اسم «سيدنا» . وقد عمل على نشر الدعوة أيضاً في شكلها الفلسفي لدى كبراء الرى وأمرائهم . ونجح نجاحاً باهراً . ويبدو أن أبو حاتم الرازي كان من أشد الناس على أهل السنة . ولذلك هاجموه هجوماً عنيفاً واعتبروه باطنياً خبيثاً .

يقول ابن رزام إن أبو حاتم الورستاني كان ثوباً ثم صار دهرياً، ثم تزندق وحصل على الشك^(١) وهذا يخالف الواقع . فإن أبو حاتم الرازي كان فيلسوفاً إسماعيلياً اشتهر بأنه من رجال التأويل ، وله كتاب الإصلاح ، وقد استفاد به حميد الدين الكرمانى - داعى الحاكم بأمر الله - وذكر بعضاً من تأويلاته القرآنية ، كما أن ابن النديم يذكر أيضاً أن له كتاب الجامع . وقد فقد هذا الكتاب أما أهم كتب أبى حاتم الرازي ، فهو كتاب «أعلام النبوة» . وقد بقى هذا الكتاب حتى الآن . وتبدو أهميته الكبرى في أنه يرد فيه على الفيلسوف الملحد محمد بن أبى بكر الرازي . بل كانت هذه هى غاية الكتاب الكبرى . وهذا ما يدحض قول البغدادى بأن أبو حاتم الرازي كان زنديقاً ووثنياً ودهرياً . إن النظرية الإسماعيلية التى تتضح فى كتابات أبى حاتم الرازي ثم فى كتابات ناصر خسرو - فيما بعد - هى أن الطريق إلى العلم الحق ليس هو الفلسفة بل الدين وأن قائد الناس إلى السعادة ليس الفلاسفة ، بل الأئمة المعصومون من نسل فاطمة . وقد اتضحت محاربة الفلسفة أو على اعتبارها غير موصلة إلى الحقيقة لدى أبى حاتم الرازي ثم ناصر خسرو فيما بعد . وكان ناصر خسرو بالذات يرى أن ما يعارض فلسفة الفلاسفة هو حكماء الدين وأهل التأيد . وقد اختلفت الفلسفة مع علم الكلام كما نعلم . وسرعان ما أخذ دعاة الإسماعيلية جانب الكلام . وقام النقاش العنيف وقامت الحملات القاسية المستمرة بين الفلاسفة وعلماء الكلام ، وأخذت الإسماعيلية مكانها الكبير فى النقاش ، فانهى أبو حاتم الرازي فى أعلام النبوة لمحمد بن زكريا الرازي ، كما انهى لآرائه فيما بعد ناصر خسرو فى زاد المسافرين . وإن كان الاختلاف عنيفاً بين آراء الفلاسفة وآراء الإسماعيلية فى مسائل هامة وبالأخص مسألة «حدوث العالم» «والخلق» حيث وقف الإسماعيليون - كفرقة دينية إسلامية مع فلسفة الكلام ، فإن الإسماعيلية - خلال تبادل الأسلحة - أخذت من الفلسفة اليونانية بعض عناصرها ، بل إن أبو حاتم الرازي وناصر خسرو يعارضان أحياناً مذهب محمد بن أبى بكر الرازي الأفلاطونى بأرسطو . كما يأخذ الكثيرون من الإسماعيلية بالأفلاطونية المحدثة .

ويرى بينيس أن الإسماعيلية موقف وسط بين الفلسفة والكلام . فبينما أخذوا من الفلسفة بعض

(١) ابن النديم : الفهرست .

الأسلحة فإنهم أخذوا من الكلام جوهره - كحدوث العالم مثلاً - بل أخذوا أيضاً مصطلحه . فالدعاة الإسماعيليون - وناصر خسرو بالذات - ينكرون أن يوصف الله بأنه علة « ويرون أنه لا يجوز أن يسمى بالعلة الأولى إلا العقل وحده ، أما الله فهو يسمى عالاً أو مخصصاً ويرى بينيس أن اللفظ الأول قد انتشر عند الدروز ، أما اللفظ الثاني - وهو المخصص فهو مصطلح كلامي بحث - استخدمه المتكلمون الأوائل ثم ظهر لدى إمام الحرمين والغزالي . فهؤلاء جميعاً يصفون الله بأنه مخصص في مقابلة وصف الله بأنه علة . وقد ظهر هذا المصطلح مطلقاً على الله - حين ثارت مشكلة خلق الزمان : هل خصص الله زماناً معيناً دون سائر الأزمنة لخلق العالم ؟ أما الأشاعرة فلم يكن ثمة ما يدعوهم إلى الإجابة على هذا السؤال . فله الحرية المطلقة والإرادة الكاملة والاختيار التام بينما يذهب أبو القاسم البلخي إلى رأى متأثر بالفلسفة اليونانية إلى أن الله خصص ذلك الوقت على سبيل الوجوب ، وأن حدوث العالم غير ذلك الوقت كان يصلح لذلك (١) .

ولسنا هنا نحاول شرح نظريات ناصر خسرو فهي في جملتها إسماعيلية مع أخذ بنظريات أرسطو في المسائل الطبيعية وإنما نعود إلى فيلسوف الفترة التي تؤرخ لها وهو أبو حاتم الرازي وموقفه من فيلسوف الإلحاد الكبير محمد بن أبي بكر الرازي .

كان محمد بن أبي بكر الرازي يدين بمذهب أصحاب الهيولى القديمة ، ويذهب إلى القول بأن القدماء أو الجواهر خمسة : الباري والنفس والهيولى والزمان والمكان وقد انتهى الباحثون إلى القول بأن آراء محمد بن أبي بكر الرازي أفلاطونية في جوهرها أو أنها على الأقل تعود إلى الأقوال المأثورة عن أفلاطون في العالم الإسلامي . ووقف أبو حاتم الرازي لمحمد بن أبي بكر الرازي مدافعاً عن وحدانية الله ، وتفرد وحده بالقدمية وقد أورد أبو حاتم الرازي في أعلام النبوة مناقشته لمحمد بن أبي بكر الرازي في قدم الخمسة وقدم الزمان بالذات . يقول أبو حاتم : « وطالبته أى الرازي في مجلس من مجالسنا - وقلت له : أخبرنى . أأنت تزعم أن الخمسة قديمة ، لا قديم غيرها ؟ قال . نعم . قلت : فإننا نعرف الزمان بحركات الأفلاك وبمر الأيام والليالي وعدد السنين والأشهر وانقضاء الأوقات ، فهذه قديمة مع الزمان أم محدثة ؟ قال : لا يجوز أن تكون هذه قديمة ، لأن هذه كلها مقدرة على حركات الأفلاك ومعدودة بطلوع الشمس وغروبها . والفلك وما فيه محدث وهذا قول أرسططاليس في الزمان ، وقد يخالعه غيره . وقالوا فيه أقاويل مختلفة وأنا أقول : إن الزمان زمان مطلق وزمان محصور . فالمطلق هو المدة والدهر وهو القديم ، وهو متحرك غير ثابت ، والمحصور وهو الذى يعرف بحركات الأفلاك ويجرى

(١) بينيس : مذهب الذرة .. ص ٢٩ ، ٤٠ .

الشمس والكواكب. وإذا ميزت هذا وتوهمت حركة الدهر فقد توهمت الزمان المطلق ، وهذا هو الأبد والسرمد . وإن توهمت حركة الفلك . فقد توهمت الزمان المحصور ، هذا هو رأى محمد بن زكريا الرازى فى الزمان المطلق ، الزمان القديم ولكن أبا حاتم - وهو يؤمن بحدوث الزمان ، وأن الله لا فى زمان - يتساءل « أوجدنى للزمان حقيقة نتوهمها ، فإننا إذا رفعنا حركات الفلك ومر الأيام والليالى وانقضاء الساعات عن الوهم ، ارتفع الزمان عن الوهم فلا يعرف له حقيقة ، فأوجدنى حركة الدهر الذى ذكرت أنه الزمان المطلق - قال : ألا ترى كيف ينقضى أمر هذا العالم بمر الزمان . طف طف هو شيء لا ينقضى ولا يفنى . وهكذا حركة الدهر إذا توهمت الزمان المطلق » .

ولكن إذا كان الزمان - المطلق من حيث هو مبدأ أزلى ينطبق على الله ، وأن الله فى زمان ، وقد مضى هذا الزمان الذى كان فيه الله ولا عالم معه وانتهى ، فالله إذن أول ، إذا سلمنا بحدوث العالم ، وسيكون له آخر ، فالله متناه (١) .

ويتبين من المناقشة موقف أبى حاتم الرازى من الرازى الآخر الملحد . الأول يدافع عن تنزيه الله ويثبت حدوث العالم ، والآخر يثبت أن القدماء خمسة ، وأن الزمان المطلق قديم .

إن من الواضح أنه يمكننا أن نقول الآن : إن المذهب الإسماعيلى فى فارس كان ذا صورة فلسفية ، تحاول أن تدعم المذهب الإسماعيلى أولاً أمام أهل السنة وأمام الشيعة الإمامية ، ثم أن تناقش الملاحدة من فلاسفة ومجوس مناقشة عقلية ، ولذلك لم يتميز المذهب بجاس حربى فى هذه الفترة ، ولكنه أنتج فى تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام تراثاً ضخماً . وأشعل حركة فكرية ممتازة كان من نتائجها أبو يعقوب السجستانى المشهور ببندانه أو دندان والذى ذكر إيفانوف والدكتور حسن إبراهيم خطأ أنه توفى عام (٣٣١ هـ) بينما من الثابت أنه وضع كتابه الأفكار سنة (٣٦٠ هـ) وأن الكرمانى تتلمذ عليه . وقد توفى الكرمانى بعد عام ٤١١ هـ فالسجستانى إذن لم يكن من رجال النشأة - أو رجال عصر عبید الله المهدي ، بل من المؤكد أنه كان من دعاة الإسماعيلية فى عهد المعز لدين الله الفاطمى - هذا العصر الذى أخرج أيضاً علماء كباراً كجعفر بن منصور اليمنى والقاضى النعمان (المتوفى عام ٣٦٣ هـ) .

وتتابع دعاة المذهب وفلاسفته - كالكرماني داعى الحاكم بأمر الله فى فارس والمؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى داعى المستنصر المتوفى عام (٤٧٠) ثم المتأخرون كناصر خسرو ، والحسن الصباح

(١) بينيس : مذهب الدرّة .. ص ٥٥-٥٦ .

(٥١٨ هـ) ثم أبو الحسين سنان بن سلمان بن محمد . راشد الدين سنان المعروف بشيخ الجبل (٥٩٠ هـ) .

تلك هي الدعوة الإسماعيلية في فارس منذ نشأتها حتى عهد عبيد الله : مذهب شيعي استخدم الكلام من ناحية ونظرية الإمامة من ناحية وبشكل خاص ، ثم مزج هذا بالفلسفة الأفلاطونية الحديثة أحياناً وبالفيثاغورية أحياناً أخرى على قدر تطرف الدائرة الإسماعيلية أو عدم تطرفها . ولجأت الإسماعيلية إلى التأويل الباطني للقرآن مع المحافظة على الظاهر ، وهذا ما يجعل الإسماعيلية - على خلاف ما ذهب الكثيرون من الباحثين - مختلفة تمام الاختلاف عن الباطنية الخالصة . تؤمن الباطنية بالباطن فقط ، بينما تؤمن الإسماعيلية بالظاهر والباطن وقد أدى هذا الخلط إلى قيام مؤرخي الإسماعيلية من أهل السنة بالمزج بين الاثنين فنسب إلى الإسماعيلية كل طوائف الباطنية والمجوسية التي انتشرت في فارس وكثيراً ما اعتبر أهل السنة والجماعة الخرمية إسماعيلية كما نسبوا إلى الإسماعيلية التناسخ والحلول .

أما التناسخ - فلم تقل به الإسماعيلية قطعاً . بل حاربه حرباً عنيفة . حقا : لقد ذكر عن أبي يعقوب السجزي نوع من التناسخ . فذكر البيروني أن أبا يعقوب يقول « إن الأنواع محفوظة وأن التناسخ في كل واحد منها غير متعد إلى نوع آخر » (١) . أي أن أبا يعقوب يرى أنه من الممكن أن تتناسخ روح إنساني في جسد إنساني آخر ، وأنه من المستحيل أن تتناسخ روح إنساني في جسد حيواني أو نباتي ولكن لم تكن هذه أبداً عقيدة الإسماعيلية . ومن المحتمل كثيراً أن تكون بعض عقائد التناسخ دخلت بشكل ما في عقائد المتأخرين من كتاب الإسماعيلية - كالسجزي وغيره .

أما الحلول - أي حلول الله في الأئمة - فلم يذهب إليه الإسماعيلية . بل أنكر الأئمة المظاهرون فكرة تألههم تمام الإنكار . كما أننا لا نجد في كتابات فلاسفة المذهب ، التي بين أيدينا اعتقاد ألوهية الأئمة : ولكن لاشك أنه كان هناك غلاة في الأماكن البعيدة في فارس نادوا بألوهية الأئمة أو بحلول روح مقدس فيهم . لقد حدث هذا من قبل لدى غلاة الإمامية ، ثم حدث من بعد لدى الدروز - حين ألهوا الحاكم بأمر الله . ولكن الإسماعيلية ذهبوا إلى تجلي العقل الكلي تجلياً كاملاً في الأئمة ، فكان الإمام مصدر معرفة ، والمقصود بالمعرفة هنا ما يفيض من علوم على أتباعه وقد كان مركز الدائرة في هذه العلوم « التأويل القرآني » ولكن لم تنسب المعرفة الغيبية ولا الاطلاع على عوالم الغيب للأئمة . بل أنكرها هؤلاء . وقد حاول بعض الباحثين في حياة المعز وفي عصره ، أن يثبتوا أن عقيدة تأليه سادات

(١) البيروني : تحقيق .. ص ٤٩ .

فارس . وهذا عصر متأخر - كما قلت عن العصر الذى تؤرخ له . ولكن من الثابت أنه لا المعز نفسه ولا دعائه أعلنوا ألوهيته . وفى عصر متأخر عن عصر المعز أى فى عصر الحاكم - سيعلم حميد الدين الكرمانى فيلسوف الإسماعيلية الكبير أن الحاكم نفسه بشر ولا حظ له من الألوهية . وقد حارب الكرمانى جميع دعاة ألوهية الحاكم حرباً فكرية عنيفة . كان هناك إذن غلاة ومعتدلون . وكان المذهب المعتدل ينتصر دائماً .

كما أن ثمة دعوة خطيرة تنسب إلى الإسماعيلية - وهى دعوة - وحدة الأديان وهذه الدعوة تنسب أيضاً للصوفية فيما بعد ، وقد قيل إن هذه كانت الغاية الأولى من دعوة محمد بن إسماعيل نفسه ، إنه الناطق السابع الذى أتى بدين جديد - هو الدين السابع - ناسخاً لدين محمد ﷺ . وأنه لذلك أعلن أو أعلن الإسماعيليون : للزرادشتيين أن علياً هو زرادشت وللمانويين أنه ماني وللزردكيين أنه مزدك وللإسماعيلية تحوى مذاهبهم جميعاً وقد سمي لويس هذه العقيدة باسم مذهب الشمول

• Interconfessionalism

ويرى لويس أن « الدعوة الإسماعيلية صادفت هوى فى نفوس جماعات مختلفة فى العنصر الدينى : مزدكيين ومانويين وصابثيين وشيعة وسنة ومسيحيين ويهود من كل نوع . فأنشأت بحكم الضرورة نطاقاً قويا من مذهب الشمول فى العقيدة تقرب أحياناً من مذهب عقل خالص . وقد سبقتهم إلى هذا ، وربما تأثروا بها عيسوية أصفهان ، وهى فرقة يهودية أدعت فى أثناء خلافة عبد الملك الأموى بأن محمداً وعيسى كانا نبيين صادقين بالنسبة إلى وطنيهما وشعبيهما اللذين ظهرا منها . فطور الإسماعيليون هذه الفكرة وصاغوها نظاماً محكماً ، أصبحت بموجبه الصحة النسبية لجميع الأديان معترفاً بها (١) » فلويس إذن يقرر أن الإسماعيلية نادى بصحة الأديان جميعاً ، وأنها تأثرت فى هذا خطى فرقة يهودية هرطوقية تنسب إلى أبى عيسى ، وكان يحترف الخياطة فى أصفهان . وادعى أنه المسيح فى أيام الملك بن مروان (٥ - ٨٦) وكان يحرم الخمر ويعتقد فى تطور الإنسان وأوصى أتباعه بقراءة الإنجيل والقرآن . ولما قضى عليه قال أتباعه : إنه فى الغيبة (٢) .

ويرى لويس أنه وضع منذ ذلك التاريخ القديم - عقيدة الإسماعيلية المتأخرة فى نسبة الأديان والنبوة .

(١) لويس : أصول... ص ١٩٤ .

(٢) نفس المصدر : ص ٩٦ .

ويذكر لويس أن العيسوية أثرت في الإسماعيلية وأنها أخذت بعقيدتها الشاملة لجميع العقائد ولكن لويس كعادته يتكلم عن المرحلة المتأخرة للإسماعيلية ويستند على كتب الدروز. فيقول « ونجد في كتب الدروز إشارات للتوراة والإنجيل ، بل هناك ترجمة فارسية لموعظة الجبل بتفسير إسماعيل . وقد ذكر بنيامين التطيلي أن الدروز في سورية كانوا أصدقاء مخلصين لليهود ، وكان في فارس مجتمع يهودي يعيش تحت حكم الإسماعيليين ويصحبهم كلما ذهبوا للحرب »^(١) ثم يذكر أن حمزة بن علي يقول في رسالة السفر إلى السادة بأن عقيدة الوحدانية - أى عقيدة تأليه الحاكم نسخت جميع العقائد الأخرى كالمسيحية واليهودية والزرادشتية والإسلام ، وما اتصل بهذه الأديان من نحل ورفق .

وليس بين شمولها هذه الأديان وبين قيامها مقامها إلا خطوة واحدة . بل إن الإسماعيلية نفسها وضعت أحاديث عن الباقر أنه قال « إذا قام قائمتنا أهل البيت ، قسم بالسوية ، وعدل في خلق الرحمن ، البر منهم والفاجر منهم ، من أطاعه أطاع الله ، ومن عصاه عصى الله ، ويستخرج التوراة والإنجيل وسائر كتب الله بأنطاكية ، فيحكم بين أهل التوراة بتوراتهم وبين أهل الإنجيل بإنجيلهم وبين أهل القرآن بقرآنهم » .

ونلاحظ أن المزاج اليهودي للويس غلب عليه ، فراح ينسب الإسماعيلية إلى العيسوية اليهودية ، ثم يثبت فكرته من شواهد متأخرة درزية ، والدرزية من غلاة الإسماعيلية ، وليست إسماعيلية خالصة . ويحاول لويس أن يثبت أثر اليهودية والمسيحية في حميد الدين الكرمانى لمجرد إمامه باللغتين العبرية والسورانية واستفادته من أقوال من العهدين القديم والجديد .

إن الإسماعيلية مذهب شيعي اعتنق العقيدة المعتزلية . ولكنه وهو في خلال السرد دعا الجميع إلى عقيدته - عقيدة شيعة لفرع من فروع البيت العلوي الفاطمي ولا شك أن طوائف متعددة قد استجابت للدعوة ، وحاولت أن تضعها في صورة عقائدها السابقة . كما أن الدعاة وصلوا إلى الجزر البعيدة أى الأقاليم البعيدة وفي هذه الأقاليم البعيدة صوروا الدعوة صوراً تخالف الدعوة الرئيسية . وطالما تبرا الأئمة من هذا الغلو كما تبرا من قبل الباقر والصادق وغيرهما من الأئمة الأوائل . ثم إن الكثير من الفرق الباطنية الإلحادية قد تسرت باسم الإسماعيلية ولم يجد بعض الدعاة ضيراً في محاولة ضم هذه الفرق إلى المذهب الإسماعيلي الخالص ، ويبدو أن الدعوة الإسماعيلية الخالصة لم تتجح نجاحاً كاملاً لدى البعض من هذه الفرق . وبقيت هذه الفرق - كما هي - في باطنها مزدكية أو مانوية أو زرادشتية أو ديسانية مع مسحة إسماعيلية ظاهرية .

(١) لويس : أصول .. ص ١٦ .

أما موقف الإسماعيلية من المسيحية واليهودية . فهو تماما يشبه موقف الإمامية وأهل السنة . أنكروا ألوهية المسيح وحلول الله فيه كما أنكروا صلبه أما الغلاة من الإسماعيلية ، ثم الدروز والنصيرية ، فلهم عقائدهم الخاصة التي تتميز وتختلف تمام الاختلاف عن عقائد وفلسفة الإسماعيلية .

ولا شك أن فكرة نسبية الأديان ، وصحتها جميعها ، وتعبير كل واحدة منها عن وجهة نظر ، قد عرفت لدى بعض فلاسفة الصوفية ، وبخاصة لدى الحلاج والشلمغاني . وهؤلاء من ضحايا النصوص الباطني الخالص مع مسحة شيعة ظاهرة ثم ظهرت الفكرة لدى محيي الدين بن عربي . وقد كان محيي الدين بن عربي يعتبر «دين الحب» - وهو الإسلام عنده - يشمل الأديان جميعا ، وقد قرر الإسلام فعلا أن الدين واحد ، ولكن على أساس أن الأديان السابقة قد حرفت وغيّرت وبدلت ، وأن عقيدة التوحيد هي أساس النبوة والرسالة في كل دورة من دورات الرسالة والنبوة . ولكن الباطنية استغلوا هذا المبدأ - وقالوا : إن كل عقيدة - مهما كانت صورتها الحالية - صحيحة . وبينما الفكرة القرآنية فكرة دينية بحتة ، نرى فكرة وحدة الأديان عند الباطنية وعند فلاسفة الصوفية غنوصية مجمعة ملفقة . وقد استندت «البهائية» المتأخرة في الظهور إلى محيي الدين بن عربي . وقررت في نصوص تكاد تكون هي نص عباراته صحة الأديان جميعا - الزرادشتية واليهودية والمسيحية . . إلخ . لقد ظهرت الفكرة إذن في أجزاء من فارس - موطن الأديان القديمة - وترعرعت ونمت ، إما باسم الباطنية المجوسية الفارسية القديمة ، وإما باسم التشيع إماميا كان أو إسماعيليا . ولكنها لم تكن عقائد الإسماعيلية الحقيقية : لا في نشأة الإسماعيلية ولا في تطورها . أما الإسماعيلية في عهد الظهور فقد تناولها الغلو من ناحية والاعتدال من ناحية . الغلو حيث ابتعد الدعاة عن الإمام . والاقتصاد حيث عاش الإمام . وقد رأينا كيف أعلن الدعاة في فارس تأليه المعز الفاطمي ، والمعز الفاطمي على منابر القاهرة يعلن أنه عبد مربوب وبشر مخلوق . فلم تناد الإسماعيلية إذن بشمول العقيدة ولا بنسبية الأديان .

ومن المضحك أن يذكر بعض ثقافة المؤرخين من أمثال لويس والدكتور حسن إبراهيم أن من الدلائل على إيمان الفاطميين بشمول العقيدة وصحة كل العقائد استخدام الفاطميين في عهد ظهورهم لليهود وللنصارى . ونسوا أن خلفاء بني العباس بل والأمويين من قبل استخدموا اليهود والنصارى والصابئة . وكان لهم النفوذ الأكبر في قصور بني أمية وبني العباس . ومن العجب أيضا أن يقال : إن فارس كانت موطن الغلو في الأئمة الفاطميين . ثم يأتي حميد الدين الكرمانى فيلسوف الإسماعيلية الكبير إلى مصر ليحارب تأليه الحاكم وغلو أتباعه كحمزة والأخرم والدرزي ، ويكتب الكتب الكبيرة في هذا . ولم تنجح الدعوة الإسماعيلية في فارس ، بل نجحت في الشام ومصر والمغرب واليمن - وكلها

بلاد عربية ، وفشلت في فارس التي بقيت سنية إلى عصر متأخر ، ثم ساد فيها المذهب الاثنا عشرى حتى الآن .

وكما نسبت نظرية الدين الكلى للإسماعيلية مأخوذة عن اليهودية العيسوية ، نسبت الشيوعية الدينية إلى الإسماعيلية مأخوذة عن المزدكية . ونسب الكتاب السنيون هذه الشيوعية إلى مزدك . وقد ذهب نظام الملك في سياسة نامة كما قلنا من قبل إلى أن حلقة الوصل بين المزدكية والإسماعيلية كانت « خرمة » امرأة مزدك التي أسست الفرقة الخرمدينية . وأن هذه الحركة الخرمدينية تحولت إسماعيلية أو متسرة بالإسماعيلية لأسباب انتهازية . وظهرت العبارة « وقد أصبح مزدك شيعياً » ولكن لويس نفسه يشك في اتصالات الخرمدينية بالإسماعيلية ، ولم تكن الإسماعيلية - وهي حركة تتجه نحو جذب العالم الإسلامى كله إليها - من الحماقة بحيث تربط عجلتها بحركة مجوسية ذات عداوة ضارية للإسلام وللمسلمين . لاشك أن القرامطة أقاموا مجتمعاً تعاونياً نقايا . وقد وصفه لنا ابن حوقل وناصر خسرو . ولكن الإسماعيلية الخالصة لم تعرف هذا النوع من الجمهورية الأوجرجية ولم تعرف الشيوعية . ونسبت إلى الإسماعيلية مراتب الدعوة السبعة أو التسعة ، وهي باطنية بحتة ، حاول المؤرخون السنيون صبغها بصبغة إسماعيلية وهي أبعد ما تكون عن الإسماعيلية .

ولقد صدق البغدادى حين قال « الذى يصح عندى من دين الباطنية أنهم دهرية زنادقة يقولون بقدوم العالم وينكرون الرسل والشرائع كلها لميلها إلى استباحة كل ما يميل إليه الطبع ، كما صدق حين قال « إن الباطنية لهم في اصطلياد الأغنام ودعوتهم إلى بدعتهم حيل على مراتب سموها ، التفريس والتأنيس والتشكيك والتعليق والربط والتدليس والتأسيس والمواثيق بالإيمان والعهود ، وآخرها الخلع والسلخ » كل هذا حق . ولكن من الخطأ الشنيع أن يقال إن هذه الباطنية هي الإسماعيلية ، هي أبعد ما تكون عن الإسماعيلية ، وإن كانت قد شابها مسحة إسماعيلية .

ونهاية الأمر : إن الإسماعيلية مذهب شيعى ، انحرف بلا شك عن الإسلام السنى والإسلام الاثنى عشرى . وفيه الغلو وفيه الاعتدال . وقد كان في دور الستر من أخطر المذاهب على وحدة الإسلام الدينية والسياسية فلما دخل في دور الظهور كون دولة من أعظم دول الإسلام - وهي الدولة الفاطمية ، ولما عاد إلى دور الستر ، حيث يعيش الآن ، أصبح مذهباً سرىا يمزق في عصورنا الحاضرة وحادثة المسلمين ، ويلحق أفدح الأضرار بمستقبل الإسلام وكيانه .

تم بحمد الله

تعليقات نقدية

على مصادر الكتاب

شغلت الشيعة قديماً وحديثاً العدد العديد من الكتاب والمؤرخين والباحثين ، وكتبت عنها كتب مختلفة ذات مشارب متباينة . ولما كانت أغلب فرق الشيعة - اللهم إلا الإمامية - ثم خليفاتها الاثنى عشرية - فرقاً سرية ، فقد تناول الغموض كثيراً من عقائدها وأسرارها وطقوسها . كما أن كتب بعض مفكرى الشيعة أنفسهم قد باد أو اختفى ، فلم نعد نعرف الكثير عن كتابات هؤلاء المفكرين . ومن الغريب أن الشيعة الاثنى عشرية لا تحتفظ فيما لدى من معلومات بكتاب من كتب « هشام بن الحكم » فيلسوف الشيعة الكبير والممثل الأعظم للفكر الكلامي الإسلامي في عصره وفيما تلاه من عصور ، ولدة طويلة من الزمن . فلا نعرف من آراء هذا الفيلسوف الكبير إلا ما نقل إلينا خلال إلزامات أعدائه من المعتزلة وأهل السنة ولعل السبب إغفال الشيعة الاثنى عشرية له ، وعدم اهتمامهم به نزعة التجسيم التي تخالف اتجاههم العقلي المعتزلي فلم يظفر هشام بن الحكم بالكثير من اهتمامهم ، ولم يحتفظوا بكتبه . وهذا بالرغم من أنهم أرخوا له .

بل إن كتب الشيعة - وهم رواد الكتاب العربي الأوائل في العالم الإسلامي - لا تمدنا أيضاً بمعلومات مؤكدة عن كثير من عناصر المذهب في أول نشأته ، إن الحساس الديني جعل كتاب الشيعة يتخبطون في تحديد نشأة المذهب .

ثم نرى أيضاً أن روح التمهيص والبحث ينقص هذه الكتب إن قصة عبد الله بن سبأ ، وهي قصة - ابتدعها فيما يرجح الأمويون في الشام ، لا تناقش في كتب الشيعة الأقدمين . إنما اكتفوا فقط بالقول بأن عبد الله بن سبأ كان من الغلاة ، وأن الإمام علياً قد تبرأ منه . كما أنني لا أجد أيضاً موقفاً معيناً واضحاً للشيعة تجاه المختار بن أبي عبيد . اللهم إلا ما ورد في كتب بعض الطبقات من أن الأئمة كالباقر والصادق وغيرهما - قد ذكره بخير وترحم عليه وقد حمل الآن أفضح الآراء ، وكتبت قصة حياته وجهاده واستشهاده على أسوأ ما يكون . والرجل من كل هذا براء ، كما بينت في بحثي ولقد كان المختار رجلاً من محبي آل البيت ، وضحي بحياته في سبيلهم ، ولكنه في الوقت نفسه كان يتولى الشيخين .

وتأني المشكلة الكبرى - وهي مشكلة الرواية . فقد اختلفت رواية الحديث عند كل من الشيعة والسنة . فلكل طائفة رواياتها وأسانيدها . وتختلف الأسانيد اختلافاً بينا . وتناولت الطائفتان - بالجرح - أسانيد الرواة ، بحيث يقف الإنسان في حيرة أمام التعارض العنيف بين أحاديث الطائفتين . غير أن النظرة الفاحصة سرعان ما تتصل إلى عناصر مشابهة في قواعد الجرح والتعديل لدى الطائفتين ، بحيث تبقى فقط مشكلة التأويل : تأويل الحديث أو الأثر . هذا يؤول بطريقة ، وذلك يؤول بطريقة . أما كتب العقائد - وما أوفرها في التراث العربي - فقد أمدتنا بمعلومات كثيرة ، ولكنها في غالب الأمر في صورة « إلزامات » فاخترى المذهب الحقيقي . أو في صورة جدل ، والمنهج الجدلي لا يوصل إلى حقيقة .

فإذا انتقلنا إلى كتب التاريخ ، فزى كل مؤرخ قديم يكتب على طريقته . وأعني بطريقته هنا - مذهبه العقائدي فكتابات يعقوب والمسعودي الشيعة تختلف عن كتابات الطبري وابن كثير السني . وكتابات ابن حوقل ناصر خسرو الإسماعيليين تختلف عن كتابات ابن خلدون السني المعتدل والمقرزي ذي النزعة الشيعية المعتدلة .

ومن الأفضل أن نقسم مصادر هذا الكتاب القديمة إلى القسمين الآتين : مصادر سنية ، مصادر شيعية ، وقد امتلأت هوامش الكتاب بهذه المصادر ولن نكرر أسماءها هنا ، ولكننا سنقدم تعليقات موجزة على بعض منها .

المصادر السنية

١ - أول كتاب من كتب أهل السنة يحدثننا عن العقائد الشيعية هو كتاب أبي الحسين محمد ابن أحمد بن عبد الرحمن الملطي المتوفى سنة ٣٧٧هـ ، وهو كتاب التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع (نشر عام ١٣٩٩ هـ = ١٩٤٩ م) .

ويعتبر هذا الكتاب من أقدم كتب العقائد الإسلامية . كاتبه « حشوي » ولكنه قدم لنا معلومات طريقة عن عقائد الشيعة الأوائل . وبخاصة فرق السبئية كما أنه كتب فصلاً عن عقائد القرامطة والديلم ، وهذا الفصل يمثل العقائد الباطنية المنتشرة في فارس والتي لصقت بالإسماعيلية - وهذه صورة منه « القرامطة والديلم - وهم يقولون : إن الله نور علوي لا تشبه الأنوار ، ولا يتأزجه الظلام ، وأنه تولد من النور العلوي النور الشعشعاني ، فكان منه الأنبياء والأئمة ، فهم بخلاف طبائع الناس وهم

يعلمون الغيب ، ويقدرّون على كل شيء ولا يعجزهم شيء ، ويقهرون ولا يقهرون ، ويعلمون ولا يعلمون ولهم علامات معجزات . وأمارات ومقدمات . قبل بحسبهم وظهورهم . وبعد ظهورهم يعرفون بها . وهم مبينون لسائر الناس في صورهم وطباعهم وأخلاقهم وأعمالهم .

« وزعموا أنه تولد من النور الشعشعاني نور ظلامي . وهو النور الذي تراه في الشمس والقمر والكواكب والنار والجواهر . الذي يخالطه الظلام وتجاوز عليه الآفات والنقصان وتحل عليه الآلام والأوصاب ، ويجوز عليه السهو والغفلات والنسيان والسيئات والشهوات والمنكرات .

« غير أن الخلق كله تولد من القديم الباري ، وهو النور العلوي الذي لم يزل ولا يزول ، سبق الحوادث ، وأبدع الخلق من غير شيء كان قبله . قدره نافذ ، وعلمه سابق . وأنه حي لا يجية ، وقادر لا بقدره ، وسميع بصير لا يسمع ولا يبصر ، ومدبر لا يجوارح ولا آلة فيصفون الإله جل وعز - كما يصفه الموحدون مع قولهم إنه نور لا يشبه الأنوار .

« ثم يزعمون أن الصلاة والزكاة والصيام والحج وسائر الفرائض نافلة لا فرض وإنما هو شكر للمنعم ، وأن الرب لا يحتاج إلى عبادة خلقه ، وإنما ذلك شكرهم ، فمن شاء فعل ومن شاء لم يفعل ، والاختيار في ذلك إليهم . وزعموا أنه لاجنة ولا نار ، ولا بعث ولا نشور ، وأن من مات بلى جسده ، ولحق روحه بالنور الذي تولد منه ، حتى يرجع كما كان . . . إلخ .

هذا فصل من أهم الفصول - وهو يحدثنا عن عقائد الباطنية التي تسربت باسم الإسماعيلية في فارس . ويعطى الملطى مقارنات دقيقة بين عقائد هذه الفرقة وبين النصارى في بعض أجزاء المذهب . ثم ينتهى إلى القول بأن « سبيلهم سبيل المانية سواء . والرد عليهم في النور كالرد على المانية » ٢٦ - ٢٩ فالرجل ذو منهج مقارن وله نظرات نقدية رائعة . ولكن يؤخذ عليه في كثير من المواضع خلط الفرق بعضها ببعض وكثرة الإلزامات .

٢ - أبو الحسن الأشعري . مقالات الإسلاميين ، واختلافات المصلين ، وهذا كتاب أيضا من أقدم كتب العقائد . كتبه شيخ المذهب الأشعري . ولم يكتبه في صورة جدلية . كبقية كتبه الأخرى . وهذا ما دعاني إلى الشك في أنه الصورة الحقيقية للكتاب . وأيا كان الأمر - فالكتاب يمدنا بمعلومات ممتازة عن فرق الشيعة ونشأتها . بل تنقل إلينا هذه المعلومات بأمانة .

٣ - البغدادي - أبو منصور عبد القاهر (المتوفى - ٤٢٩ هـ = ١٠٣٧ م) وهو من أهم الكتب في معرفة عقائد الشيعة . ولكن البغدادي كثيراً ما يخرج عن جادة التاريخ ، وينقل إلينا الإلزامات

فقط غير أن النقد الداخلى للنصوص يبين حقيقتها . وقد استند الإسفرايينى فى التبصير على كتاب البغدادى .

٤- ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ = ١٠٦٤ م الفصل فى الملل والأهواء والنحل . نقل إلينا ابن حزم - وهو فيلسوف المظهر الظاهرى - كثيراً من عقائد الشيعة ، وقدم لنا نظرات نقدية هامة . ولكن يقلل من أهمية كتابه كمصدر تاريخى - مزاجه الحاد وهجومه الدائم على المخالفين .

٥ - الشهرستانى (المتوفى سنة ٥٤٨ هـ - ١١٥٣ م) الملل والنحل . يكاد يكون أهم كتاب للفرق الإسلامية ، ولا يقلل من قيمة كتابه - كما ذكر فخر الدين الرازى - أنه نقل عن البغدادى - والبغدادى فى نظر الرازى لا ينقل بأمانة . إن الشهرستانى ناقد وفيلسوف بالإضافة إلى شهرته كمؤرخ للفلسفة الإسلامية . ولا شك أنه استند على البغدادى ولكن هناك فصولا كامنة تدل على أصالته . ولا يزال كتاب الشهرستانى . « الملل والنحل » فى حاجة إلى نشرة علمية ضخمة تحدد المصادر والمآخذ التى أخذ عنها . ومن الفصول الرائعة فى كتابه - ما كتبه عن الشيعة عامة والباطنية خاصة . وقد ترك لنا نصوصا - نقلها عن الفارسية من كتب الحسن الصباح . كما أنه من القلائل الذين كتبوا بإفاضة عن أحمد الكيال .

٦ - الرازى ، فخر الدين : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين وهو كتاب صغير ولكنه قيم . يكاد يكون ثباتا دقيقا بأسماء الفرق وأصحابه ثم يقدم لنا أحيانا نظرات فاحصة . هذه صورة من كتب العقائد الإسلامية . وقد ذكرت غيرها فى هوامش الكتاب ، ولا حاجة لتكرارها هنا . غير أن هناك كتابا هاما يكاد يكون فى التاريخ . ولكن يحتوى جزء كامل منه على تاريخ العقائد والفلسفة . وهو كتاب البدء والتاريخ للمطهر بن المطهر المقدسى (عاش حوالى منتصف القرن الرابع) ، وقد وصل الكتاب مطبوعا إلى أيدينا حديثا . والكتاب ممتع فى جميع أجزائه . ويحتاج الجزء الخاص بالعقائد إلى دراسة مقارنة مع غيره من كتب العقائد وتاريخها . وقد استفدت منه استفادات قيمة فى هذا الكتاب .

وهناك كتب تاريخية كثيرة بعضها كتب من وجهة نظر السنة - ومن أهمها تاريخ الأمم والملوك للطبرى - (والمتوفى سنة ٣١٠ = ٩٢٢ م) وبعضها كتب من وجهة نظر الشيعة مثل تاريخ اليعقوبى - لليعقوبى المتوفى سنة ٢٨٢ هـ = ٨٩٥ م) والمسعودى المتوفى سنة ٣٤٦ هـ = ٩٥٧ م صاحب مروج الذهب والتنبيه والإشراف ثم الأخبار الطوال لأبى حنيفة الدينورى (المتوفى سنة ٣٤٦ هـ = ٩٥٧ م) كل هذه الكتب - كانت ذات أهمية كبرى فى تقديم معلومات قيمة عن الشيعة ، وبخاصة الشيعة الاثنى

عشرية . ويتميز يعقوبى بالاختصار والتمكن - كما يتميز المسعودى بالإطالة وعييه الاستطراد .
 كما أن كتب البيرونى وهو عالم ناقد فاحص سنى المذهب (المتوفى سنة ٤٤٠ هـ = ١٠٤٨ م) مصدر ممتاز لكثير من الأخبار عن الشيعة . فأما كتابه « تحقيق ما للهند من مقولة » ففيه نظرات نقدية ممتازة عن الشيعة الباطنية ، ومقارنة بعض كلام أبى يعقوب السجزي بالتناسخ عند الهنود . أما الآثار الباقية « فيحوى معلومات ممتازة عن القرامطة ، وعن الغنوصيات التى دخلت العالم الإسلامى ، كما أنه أمدنى أيضاً بالصينج الكيالة التى استخدمها أحمد الكيال .
 وغالم آخر سلقى - وهو ابن تيمية ، يعتبر مصدراً عارماً لعقائد الشيعة . وكتابه « منهاج السنة » وثيقة فريدة تنقل إلينا صوراً متعددة من عقائدهم . وميزة ابن تيمية أنه ينقل لنا نقلاً صادقاً يناقشه بعد ذلك فى حدة وقسوة . وما يفسد كتابات ابن تيمية هو حقه المتهب على المخالفين لعقيدته السلفية .
 وكمجسم نراه هينا لينا تجاه هشام بن الحكم .

الكتب الشيعية

- ١ - أبو محمد الحسن بن موسى النوبختى (المتوفى سنة ٣١٠ هـ = ٩٢٢ م) فرق الشيعة . وهو من أهم كتب العقائد الشيعية . وبه أدق المعلومات عن نشأة التشيع وتطوره وفرقه ، تكلم عن أنواع التشيع . اثني عشرى أو عباسى أو حنفى أو أبى هاشمى . ثم قدم لنا معلومات وثيقة عن الغلاة ، ثم تحدث عن أوائل الحركة الإسماعيلية .
- ٢ - أبو خلف الأشعرى القمى : كتاب المقالات والفرق . (توفى القمى عام ٣٠٠ أى قبل وفاة النوبختى) ولكن أثبت الدكتور محمد جواد مشكور فى نشرته الرائعة لكتاب الأشعرى القمى أن الكتاب الأخير يستند على كتاب النوبختى . ولكن به زيادات وإضافات عن الكتاب الأخير وقد استند عليه كثيراً .
- ٣ - ابن المطهر الحلى (المتوفى سنة ٧٢٦ هـ) . كتاب منهاج الكرامة فى معرفة الإمامة . كتبه علامة الشيعة الكبير . وفيه أخبار هامة عن المذهب ومهاجمة لأعداء الشيعة الأثنى عشرية . وقد رد عليه عالم السلف الكبير تقي الدين بن تيمية بكتابه المشهور « منهاج السنة النبوية فى نقض كلام الشيعة والقدرية » . وابن تيمية بجانب مذهبه الكلامى ونظراته الفلسفية ، يبحث يعتبر فيلسوف المذهب السلفى

التأخر ، هو أكثر مؤرخي الفلسفة الإسلامية دقة ، يورد النقول كما هي -والآراء كما وردت ثم يناقشها مناقشة من وجهة نظره . وفي الحق أن كتاب منهاج الكرامة وكتاب منهاج السنة مصدران من أهم المصادر لدراسة المذهب الشيعي وآراء الإمامية وأهل السنة في كثير من عقائدهم .

٣ - رجال الكشي : أو طبقات الكشي - من رجال القرن الرابع الهجري (طبعة كربلاء - نشرة السيد أحمد الحسيني) من أقدم كتاب طبقات الرجال عند الشيعة . وبه فصول قيمة وبخاصة عن المختار بن أبي عبيد وهشام بن الحكم وأبي الخطاب الأسدي ويحتاج هذا الكتاب إلى دراسة خاصة .
٤ - الشيخ المفيد محمد بن النعمان المتوفى عام (٤١٣ هـ) : أوائل المقالات في المذاهب والمختارات وهو من أهم كتاب الأئمة المجتهدين في معرفة عقائد الاثنى عشرية . . وله أيضا شرح عقائد الصدوق (في مجلد واحد) .

كتب الإسماعيلية

كان استناد الباحثين في معرفة كتب الإسماعيلية إلى ما كتبه أعداء الإسماعيلية فقط ، ومن أهم الأمثلة الواضحة على مقدار الفهم الخاطئ للإسماعيلية أن عدداً من الباحثين - استندوا لمدة طويلة على آراء ابن رزام في معرفة حقيقة الإسماعيلية كما فعل ابن النديم صاحب الفهرست ، كما عرفت آراء الإسماعيلية عن نقل عدو لهم هو « أخو محسن » ونقل أيضا بعض آرائهم النويري في نهاية الأرب ولكن مالبث أن نشر عدد من كتب الإسماعيلية ، أنارت لنا الطريق إلى أكبر حد في معرفة آرائهم وأذكر على سبيل المثال .

١ - نشرات الأستاذ عارف تامر : وأهمها : خمس رسائل إسماعيلية لمفكرين إسماعيليين . ثلاث رسائل إسماعيلية . والأستاذ عارف تامر إسماعيلي متعصب للإسماعيلية . ولا يميز بين الإسماعيلية الأولى والإسماعيلية المتأخرة بينما هناك فروق جوهرية بين الفرقتين .
٢ - نشرة شتروتمان لأربعة كتب إسماعيلية - وهي من أهم الكتب في معرفة نظرية الإمامة المستقرة والمستودعة .

٣ - نشرات الأستاذ إيفانوف الكثيرة - وكتبه المتعددة عن المذهب الإسماعيلي . وقد قدم إيفانوف خدمات جليلة في توضيح هذا المذهب وتطوره مع حماس ظاهر له أضاع كثيراً من قيمة هذه الأبحاث العلمية .

٤ - نشرات المرحوم الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين . وقد قدم لنا عدداً كبيراً من مخطوطات الإسماعيلية في نشرات علمية . وقد أجهد الدكتور محمد كامل حسين نفسه في سبيل توضيح عناصر هذا المذهب . غير أنني ألاحظ أنه - فيما خلا كتب الكرمانى التى نشرها الدكتور محمد كامل حسين فإن الكتب التى قدمها لنا ليست من الكتب السرية .

٥ - الأبحاث المختلفة الفلسفية والتاريخية عن الإسماعيلية وأكبر من تصدى لهذا الموضوع الأستاذ ماسينيون . ومقالته عن القرامطة فى دائرة المعارف الإسلامية مثال واضح عن تضلع ماسينيون فى هذا النطاق . كما أن مقالته عن سلمان الفاريسى لدليل واضح على أصالة الرجل فى البحث . وكذلك مقالته عن النصيرية وعن المبالغة .

غير أن أبحاث ماسينيون أبحاث كتبت من وجهة نظر خاصة . لقد سيطرت على الرجل عقيدته الكاثوليكية - فحاول أن يصور الشخصيات التى كتب عنها فى صورة هذه العقيدة . فالحلاج مسيح آخر ، وسلمان صورة غنوصية مسيحية فى العالم الإسلامى ، وغاية الإسماعيلية هى إعادة مجد بيت المقدس . والدروز مسيحيون . وهكذا يسير ماسينيون وراء تدعيم هذه الفكرة .

وكما سبق أن قلت فى صلب الكتاب - إنه لكى نتفهم عقائد الشيعة ينبغى دراسة تاريخ العراق السياسى والاقتصادى وأهم مصدر فى هذا الموضوع كتابات سيد مؤرخى العرب المعاصرين الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدورى - وبخاصة فى كتابه دراسات فى العصور العباسية المتأخرة والحياة الاقتصادية فى العراق فى القرن الرابع الهجرى .

ثم نجد عالماً آخر يكتب كتاباً هاماً عن « أصول الإسماعيلية » وهو الأستاذ برنارد لويس أستاذ تاريخ الشرق الأدنى والأوسط فى جامعة لندن . والكتاب قطعة ذكية من البحث العلمى أو محاولة لبقة لإلقاء الضوء على نسب الفاطميين . ولكن فكرته ليست حلاً نهائياً لمشكلة الفاطميين . وقد استند عليه استناداً كاملاً الدكتوران حسن إبراهيم وطه شرف فى كتابهما « عبيد الله المهدى » غير أن أبحاث لويس يسودها اتجاهه المذهبى . فىرى أن الإسماعيلية تأثرت خطى العيسوية الأصفهانية اليهودية فى مشكلة التأويل . ولكن كان للويس فضل الكشف عن عدد من المخطوطات الهامة التى استند عليها فى بحثه مثل قسم من تاريخ مفقود لثابت بن سنان الصابى المتوفى سنة ٣٦٥ هـ = ٩٧٤ م . وقد أمدّه بمعلومات محايدة عن الإسماعيلية . كما استفاد أيضاً من كتاب « تثبيت دلائل النبوة » للقاضى عبد الجبار (المتوفى سنة ٤١٥ هـ أو ٤١٦ هـ = ١٠٢٤ أو ١٠٢٥ م) ، وهذا المخطوط يعد للنشر الآن فى القاهرة .

غير أن خطأ لويس أنه استند على مخطوطات درزية - كرسالة حمزة « الرسالة المستقيمة » وغيرها من رسائل بشأن القرامطة والفاطمية » وحاول أن يحل مشكلة اسم القرامطة بناء على معلومات في هذه المخطوطات . كما وجه أنظار الباحثين إلى مجموعة من المخطوطات الدرزية في مكتبة دار الكتب المصرية بالقاهرة . ولكنه نسي أن كتب الدرور كتب أسطورية لا تقدم لنا أبداً تاريخاً وإنما أساطير وعقائد غنوصية وأسراراً خفية .

٦ - نشرات الدكتور الهمداني . وقد قدم هذا العالم خدمات جليلة لفهم المذهب الإسماعيلي بنشراته لعدد من المخطوطات الإسماعيلية . وكذلك بما كتبه من مقالات هامة عن الإسماعيلية .

٧ - الدكتور كامل مصطفى الشبيبي الأستاذ بكلية الآداب بجامعة بغداد : فهو كتاب « الصلة بين التصوف والتشيع » وقد نشر الجزء الأول والثاني من هذا الكتاب .

وقد حاول الدكتور الشبيبي أن يكشف عن الصلات بين التصوف والتشيع بعمق نادر المثال وأن يقيم مقارنات بين أقوال الصوفية ، ثم أن يصل بين النظريات الشيعية والنظريات الصوفية . وعاون على دراسته ثقافته الشيعية الواسعة ثم دراساته الفلسفية في مصر وفي كمبرج .

٨ - ثم هناك كتابان آخران : أولهما « جعفر الصادق رائد الشيعة والسنة » للدكتور عبد القادر محمود - وهو أستاذ الفلسفة بكلية الآداب بجامعة القاهرة - فرع الخرطوم . وقد طبع الكتاب . والكتاب كان رسالة جامعية تحت إشرافي في كلية الآداب بجامعة الإسكندرية . والبحث يتناول الإمام جعفر الصادق من مختلف نواحيه . وثانيهما « نظرية الإمامة عند الشيعة الاثني عشرية - للدكتور أحمد صبحي - وهو بحث كبير ممتاز يتناول نظرية الإمامة الاثني عشرية من جميع نواحيها بتزاهة وإخلاص . وقد نشرته دار المعارف بطبعه .

٩ - الأستاذ هنري كوربان : تاريخ الفلسفة الإسلامية (الترجمة العربية عام ١٩٦٦) . ولقد خلف الأستاذ كوربان ماسينيون ، في السوربون وتشبه محاولته لتأريخ الشيعة ، محاولة ماسينيون لتأريخ الحلاج . وهو متأثر باتجاهه بلا شك . مع تطبيق مذهب الظواهر . للفيلسوف هسرل في مختلف مباحث الكتاب ، وبخاصة الجزء الخاص بالتشيع . وهو جوهر الكتاب . وفي الكتاب لمحات جميلة ، ولكن هل هي تعبر فعلاً عن تاريخ التشيع ، أم هي آراء المتأخرين من كتاب الشيعة من أمثال حيدر أملي - وغيره ، حاول بنظرة ظواهرية أن يفسر لها نشأة الفكر الفلسفي لدى الشيعة . إن الملاحظات القيمة التي

أوردها الإمام موسى الصدر في مقدمته ، ثم الكثير من ملاحظات الأستاذين المترجمين ، تثبت تملهاً أن كوربان كان شيعياً أكثر من الشيعة . كان يعانى نجر هو الذاتية خلال ماكتبه الشيعة المتأخرون عن الأئمة ، أو ما حملوه الأئمة من أقوال وآثار لم تصدر عنهم أبداً . وما أبعد هذا عن تاريخ الفلسفة تاريخاً صحيحاً .

تم الجزء الثاني من الكتاب

فهرس الأعلام

(أ)

- آدم (أول الخليفة) : ٢٤ ، ٣٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٧٢ ، ١٠٦ ، ٢٩٨ ، ٣٠٦
أبان بن ميمون القداح : ٢٨١
إبراهيم (عليه السلام) : ٢٣ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٦٥ ، ١٤٢ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٩٨ ،
٣٠٦ ، ٣٢٢ ، ٣٦٠
إبراهيم بن يحيى : ١٣٢
إبراهيم بن عبد الله : ١٥٠
إبراهيم بن سيار النظام (المعتزى) : ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٤
إبراهيم بن ميمون القداح : ٢٨١
إبراهيم بن مالك الحارث بن الأشتر : ٤٨ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٦١ .
إبراهيم بن عبد الله بن الحسين : ١٢٨
إبراهيم (الإمام - والد الخلفاء العباسين) : ٩٦ ، ٢٥٨ ، ٢٦٥
ابن الحسن : ٢٤ ، ١١٢
ابن سينا : ٢٩
ابن النديم : ٣٣ ، ١٥٤ ، ١٦٩ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٦٩ ، ٢٩٣ ، ٣٢٥ ، ٣٣٤ ، ٣٤٨ ،
٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٩٣
ابن عباس : ٣٤ ، ١٠٩ ، ١١٦ ، ١١٨ ، ١٢٣
ابن كثير : ٣٦
ابن خلف : ٣٨
ابن ياسر : ٣٨
ابن تيمية : ١٠٩ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٢٠ ، ١٦٢ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٨٢ ، ١٩٦ ، ٢٢٧ ،
٣٠٠ ، ٣٩٢
ابن الزبير : ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ١٠٥
ابن أبي عبيد الثقفى : ٤٧

٣٩٨

ابن مرجانه : ٤٨

ابن طباطبا : ٤٨

ابن هند : ٤٩

ابن سعد : ٥٦ ، ١١٧ ، ٢٤٧

ابن أبي الحديد : ٦٥

ابن خلدون : ٧٥ ، ٧٧ ، ١٦٣ ، ٢٠٩ ، ٣٣١ ، ٣٣٥ ، ٣٤٧

ابن خولة : ٧٧

ابن حجر العسقلاني : ٧٨ ، ٨٣ ، ١٢٠ ، ٢٢٧ ، ٢٨١

ابن سمان : ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١

ابن قتيبة : ٨٣

ابن ماجه : ٨٦

ابن جريج : ١١٦

ابن سمان التميمي : ١٣٤

ابن هرمز (الفقيه المشهور) : ١٤٠

ابن الراوندي : ١٧٥ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣

ابن ديصان الرهاوي : ١٨٨

ابن المطهر الحلي (عالم الشيعة المتأخر) : ١١٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١

ابن الأثير : ١٨٢ ، ٢٧٩ ، ٣٤٣

ابن الجوزي : ٣١٧

ابن حوقل : ٣٣٠ ، ٣٨٧

ابن أبي أصيبعة : ٣٤٨

ابن طاهر المقدسي : ٣٥١

ابن عذارى المراكشي : ٣٧٢ ، ٣٧٣

ابن معين : ٢٤٧

ابن جمهور الغرابي : ٢٤٧

ابن زهرة (الداعي) : ٢٩٣

ابن رحيم : ٣١٣

ابن فضل : ٣١٥

ابن خلكان : ٣١٦

ابن بدر الجبالى : ٣٧٦

ابن حزم : ٩٢ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٩٠ ، ١٩٢ ،

١٩٣ ، ٢٠٥ ، ٣٩١

أبو بكر الصديق (أبو بكر بن أبى قحافة) : ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ،

٣٨ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٥٢ ، ٨٥ ، ٩٢ ، ٩٨ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٣٠ ،

١٤٨ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٥ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ٢٠٥ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ،

٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٣١٤ ، ٣٦٤ ، ٣٦٩

أبو عبد الله الحسين : ٢٤

أبو هريرة : ٢٦ ، ١١٦

أبو طالب : ٢٦ ، ٢٧ ، ٤٤ ، ٢٤٢ ، ٣٦٠

أبو ذر الغفارى : ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٧ ، ٢٥١

أبو عبيدة الجراح : ٣١

أبو سفیان بن حرب : ٣١ ، ٣٢ ، ٦٦ ، ٣٠٩ ، ٣٦٧ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠

أبو خلف القمى : ٣٥ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٥١ ، ٧٢ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ،

٢٨٧ ، ٢٥١

أبو عمرة السائب بن مالك : ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣

أبو خلف النوبختى : ٥٢ ، ٨٤ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٥٥

أبو الحسن الأشعري : ٥٧ ، ١٧٤ ، ٣٩٠

أبو موسى الأشعري : ١٨٧ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٥٥ ، ٣٢٠

أبو حنيفة (الإمام) : ٦٨ ، ٩٩ ، ١١٠ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤٢ ،

١٦١ ، ٢٠٤ ، ٢١٨

أبو عبد الله الجليلى : ٦٩ ، ٢٥٦

أبو الأحراس المرادى : ٦٩

أبو الحارث الكندى : ٦٩

أبو منصور العجلي : ٧٠ ، ٧١ ، ٧٩ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ،

٢٣١ ، ٢٦١ ، ٢٥٧

أبو عمرة : ٧٢

أبو كرب الضرير: ٧٣

أبو عبد الله جعفر بن محمد (الإمام الصادق): ٨٤ ، ٨٦ ، ١١٠ ، ١٢٦ ، ١٤٤ ، ٢٣١

أبو داود (المحدث): ٨٦

أبو بكر الأعور الهجري القتات: ٨٦

أبو الحسين بن أبي منصور: ٨٩

أبو معدان الأعمى الشميطي: ٩١

أبو مسلم الخراساني: ٩٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٩ ، ٢٩٥

أبو رباح: ٩٩ ، ٢٥٨

أبو رافع (مولى رسول الله): ١٠٩

أبو الأسود الدؤلي: ١١١

أبو إسحاق الهمداني: ١١٦

أبو الفرج الأصفهاني: ١٢٥ ، ١٢٨ ، ١٤٢ ، ١٤٦

أبو خالد عمرو بن خالد الواسطي: ١٢٩ ، ١٣٧

أبو جعفر المنصور: ١٢٨ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٦٢ ، ٢١٤ ، ٢٣٦ ، ٢٦٠ ، ٢٧٤ ،

٢٨٥ ، ٢٨٢ ، ٢٧٥

أبو سفيان الثوري: ١٤٠

أبو بكر بن أبي سيرة: ١٤٠

أبو مالك الحضرمي: ٢٠١

أبو الجارود: ١٤٨

أبو الهذيل العلاف: ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٨١ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ،

٢٢١

أبو الفوارس: ٣٢٦

أبو حاتم البوراني: ٣٢٦

أبو القاسم يحيى (صاحب الناقة): ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٨١

أبو مهزول الحسين (صاحب الشامة): ٣٢٦

أبو الحسين بن الأسود (داعي المهدي): ٣٢٦

أبو طاهر الجتائي: ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ،

٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦

- أبو القاسم بن حوشب : ٣٠٩ ، ٣٦٣ ، ٣٦٧ ، ٣٦٩ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٥
 أبو القاسم عيسى بن موسى : ٣٤٣
 أبو مسلم بن محمد الموصلي : ٣٤٣
 أبو بكر بن حمدان الرازي : ٣٤٣
 أبو الحسن العسكري : ٣٦٦
 أبو عبيد الله الشيعي (الحسن بن أحمد بن محمد بن زكريا صاحب البذر والداعى الأكبر) : ٣٠٩ ،
 ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٦ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤
 أبو العباس السفاح (عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب) : ٢٦٤ ،
 ٢٧٣
 أبو حاتم الرازي : ٢٤٨ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢
 أبو عكرمة السراج : ٢٥٨
 أبو عبد الله بن رزام (أكبر مؤلف سني كتب في الرد على الإسماعيلية) : ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ،
 ٢٩٦ ، ٣١٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٥ ، ٣٧٨ ، ٣٨٠ ، ٣٨٦
 أبو سليمان السجستاني : ٣٠٠ ، ٣٠١
 أبو بكر الباقلاني : ٣٠١
 أبو يعقوب السجزي السجستاني (المشهور ببندانة أودندان) : ٣٠٣ ، ٣٨٢
 أبو الحسن بن حوشب : ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٣٣٠
 أبو سعيد الجنائى : ٣١٢ ، ٣٢٤ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢ ، ٣٣٥ ، ٣٣٨ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣
 أبو الحسن علي بن الصليحي : ٣١٣
 أبو الجارود (أبو النجم زياد بن المنذر الحمداني الخراساني) : ١٤٧ ، ١٤٨
 أبو قطنه الخناق ، ٩٠
 أبو إسماعيل كثير بن إسماعيل بن نافع النواء (كثير النواء) : ١٥١
 أبو عبد الله بن أحمد النسفي البرذعي : ٣٧٨
 أبو سعيد الشعرائي : ٣٧٨
 أبو ريده (دكتور) : ١٨٨
 أحمد بن محمد بن الحنفية : ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٥
 أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر (الإمام أحمد المستور) : ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ،
 ٢٩٦ ، ٣٢٧ ، ٣٤٩ ، ٣٦٣

أحمد بن حنبل : ١١٠ ، ١١٦
 أحمد بن أبي سعيد : ٣٤٤
 أحمد بن عبد الله بن ميمون : ٣٠٨ ، ٣٤٩ ، ٣٦٩
 أحمد صبحي (دكتور) : ٦٥ ، ١٠٧ ، ١١٤ ، ٢١٣ ، ٣٩٤
 أحمد الكيال : ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ٣٧٩ ، ٣٩١ ، ٣٩٢

إدريس (عليه السلام) : ٤٣
 إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن أبي طالب : ١٤٥
 إدريس عماد الدين : ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣
 أسماء بنت نعان بن بشير الصحافي : ٤٩
 أسماء بنت عميس : ٢٥
 أسامة بن زيد : ٣١ ، ١٠٧
 إسماعيل (عليه السلام) : ٣٢ ، ٣٦٠
 إسحاق بن سويد العدوي : ٤٠
 الإسفرائيني : ٤١ ، ١٨٩
 الأسعدى : ٥١

إسماعيل بن الإمام جعفر (إسماعيل الأعرج) : ٢٨ ، ٢٣٨ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٣٠٠ ، ٣١٠ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٥٠ ، ٣٥٨ ، ٣٦٤ ، ٣٦٦ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥

أسد بن عبد الله : ٢٥٩
 إسحاق بن يعقوب : ٢٨٤ ، ٢٨٧
 إسحاق بن زيد بن الحرث (صاحب فرقة الإسحاقية) : ٢٥٣
 أم حبيبة بنت أبي سفيان : ٣٦
 أنس بن مالك : ١١٦
 الأوزاعي : ١١٦
 أوس بن خولى : ٣١
 إيليا منصور (مهدي القوقاز) : ٢٢٧ ، ٢٢٨

(ب)

- بابك الحرمى : ٩٩ ، ٢٨٨ ، ٢٩٢ ، ٣٢٢
 البخارى : ١٥٠ ، ١٦٢
 برنارد لويس : ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٧ ، ٣٣٠ ، ٣٤٣ ، ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ٣٥٦ ،
 ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٥ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥
 برتزل : ١٨٨ ، ١٩٦
 بريد العجلى : ١١٣
 بزيع بن موسى : ٢٤٣ ، ٢٥١
 البزيعية : ٢٤٣
 بسر بن أبى أرطأ : ٣٣
 بشار بن برد : ٧٠
 بشر بن المعتمر المعتزلى : ١٧٥
 بشر بن خالد : ٢٠٥
 بشر الحافى : ١١٩
 بشار الشعيرى (المتوفى سنة ١٨٠ هـ) : ٢٤٨
 البطين اللبى : ٦٩
 البغدادى (أبو منصور عبد القاهر) : ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ١٥٠ ، ١٨٩ ،
 ٢٣٤ ، ٢٦٤ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٧٧ ، ٢٩٤ ، ٣٠٦ ، ٣٢٠ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ،
 ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٨ ، ٣٤٢ ، ٣٧٩ ، ٣٨٧ ، ٣٩٠ ، ٣٩١
 البقل : ٩٤
 بكير بن أعين : ١٧٤
 بكير بن ماهان : ٢٥٨
 البيرونى (أبو الریحان) : ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤١
 بينيس : ٣٨٠ ، ٣٨١
 بيان بن سمعان التميمى (بيان بن زريق) : ٧٨ ، ٧٩ ، ٢٥١
 بيع السابرى : ٢١٢

(ت)

الترمذى : ٨٦ ، ٢٢٧

تقى الدين بن تيمية : ٣٠٠ ، ٣٠١

(ث)

ثابت بن سفيان الصائغ : ٣٢٧ ، ٣٢٩

الثعالبي : ٢٤

(ج)

جابر عبد العال (دكتور) : ٨١

جابر بن يزيد الجعفي : ٨٦ ، ٩٧ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١١٨

جابر بن عبد الله الأنصاري : ٩٧ ، ١١٣

جابر بن حيان : ١٦٦

جيريل عليه (السلام) : ٤٤ ، ٥٢ ، ٢٣٩ ، ٢٤٣ ، ٢٥٣ ، ٣١٩

جعفر الصادق (أبو عبد الله جعفر محمد بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب) : ٢١ ، ٢٨ ،

٣٥ ، ٥٠ ، ٨٣ ، ٨٨ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢١ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ،

١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥٣ ، ١٦١ ،

١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٩٥ ، ١٩٨ ،

١٩٩ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ،

٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤١ ،

٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٥٢ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ،

٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٤ ، ٢٨٦ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٣٢١ ،

٣٢٢ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٨ ، ٣٦٤ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٧٦ ، ٣٩٥

جعفر بن أبي طالب : ٦٧ ، ٩٤ ، ٩٦

جعفر بن مبشر الثقفي : ١٥٥

جعفر بن حرب الهمداني : ١٥٥

جعفر بن حرب المعتزلي : ١٨١ ، ١٩٣

الجعفي (أبو محمد أو أبو الحكم - مولى بشر بن مردان) : ١٩٩

جعفر بن فلاح (القائد الفاطمي) : ٣٤٤

جعفر بن منصور البني : ٣٨٢

جعفر بن عمر : ٥٢

جهم بن صفوان : ١٧٠ ، ١٩٤ ، ١٩٨

جولد تسيهر : ٢٦٨

(ح)

الحارث بن طرماع الأصفهاني : ٣٤٨

الحافظ عبد المجيد بن المستنصر : ٣٧٦

حاتم بن حمدان الزازي الكلاعي : ٣٤٣

حاتم بن عمران بن زهرة (الداعي الإسماعيلي المتوفى سنة ٤٩٧ هـ) : ٣٠٣

حجر بن عدي : ٢١ ، ٣٤ ، ٤٦

حجر بن عمرو الكندي : ٦٦

حذيفة بن ايمان : ٣٠ ، ٣٢

حريث بن مسعود : ٣٤٥

الحسن بن علي بن أبي طالب (الحسن الزكي) : ٢٤ ، ٢٥ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٨ ،

٥٢ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ٨٢ ، ٨٨ ، ٩٤ ، ١٠٣ ، ١٣٠ ، ١٤٤ ،

١٤٨ ، ١٥٢ ، ٢٢٠ ، ٢٣٩ ، ٢٤٣ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥٣ ، ٢٨٧ ، ٣٢١ ،

٣٦١ ، ٣٥٧ ، ٣٧٢

الحسين بن علي بن أبي طالب (الحسين الشهيد) : ٢٤ ، ٢٥ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ،

٤٩ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦٩ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٨٢ ، ٨٨ ،

٩٤ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٨ ، ١٣٠ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٥٢ ، ٢١٦ ، ٢٢٠ ،

٢٣٩ ، ٢٤٣ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥٣ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ ، ٢٦٥ ، ٢٨٧ ، ٢٩٠ ،

٣٠٨ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٤٩ ، ٣٥٧ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ،

٣٧١ ، ٣٧٢

الحسين بن علي المروزي (من أمراء خراسان) : ٣٧٨ ، ٣٧٩

الحسين بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل (الملقب بالحكيم) : ٣٤٩

- الحسن بن مصباح : ٣٧٦
- الحسن بن علي (الإمام الناصر والمعروف بالأطروش) : ١٤٦
- الحسن بن أحمد بن محمد بن زكريا (الملقب بأبي عبد الله الشيعي) : ٣٦٩
- الحسن بن علي العسكري : ٢٨ ، ٢١٧ ، ٢٢٠ ، ٣٦٣
- الحسن البصري (إمام التابعين) : ٢٨ ، ٤٣ ، ٥٥
- الحسن بن محمد بن الحنفية : ٦٠ ، ١٠٦
- الحسين بن منصور : ٢٨٥
- الحسن الصباح : ٣٧٩ ، ٣٨٢ ، ٣٩١
- الحسين بن عبيد الله بن طغج الأخشيد (والي الشام) : ٣٤٤
- الحسن بن أحمد الأعصم : ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٤٧ ، ٣٦٢
- الحسين بن أبي منصور العجلي : ٨٩ ، ٩٢ ، ٢٤٥ ، ٢٦٠ ، ٢٩٧
- الحسن بن الحسن : ١٣٩
- الحسن بن علي بن الحسن (صاحب الفخ) : ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦
- الحسن بن صالح بن حي بن الهمزاني الكوفي : ١٤٣ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢
- الحسن بن سهل : ٢٤٤
- حسين بن عبد الله بن ميمون (الحسين الأهوازي) : ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢١
- الحسين بن زكرويه بن مهرويه : ٣٢٧
- حسين أبو مهزول (زعيم القرامطة) : ٣٢٨
- الحسن بن بهرام : ٣٣٠ ، ٣٣٢
- حسن إبراهيم (دكتور) : ٢٧٤ ، ٢٧٩ ، ٢٨٨ ، ٢٩٥ ، ٣٢٢ ، ٣٢٥ ، ٣٢٨ ، ٣٣١
- ٣٤٠ ، ٣٨٢ ، ٣٨٦ ، ٣٩٤
- الخلواني : ٣٠٩ ، ٣٦٧ ، ٣٦٩ ، ٣٧٠
- حلاج القطن (الداعي خلف - وكان يقوم بجياكة الملابس وحلج القطن) : ٣٧٨
- حمدان قرمط (حمدان بن الأشعث) : ٣١١ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣
- ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٩
- حمادي بن زيد : ١٠٩

الحمادى اليماني : ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٤٢ ، ٣٥٠
 حمزة بن عمار البربري : ٧٧ ، ٩٥ ، ١١٣ ، ٢٥١ ، ٣٥٧
 حمزة الأصفهاني : ٣٤٥
 حمزة بن علي : ٣٨٥ ، ٣٨٦
 حمد الدين الكرمانى (داعى الحاكم بأمر الله) : ٣٨٠ ، ٣٨٢ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦

(خ)

خالد بن عبد الله القسرى : ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٧ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٣٤ ،
 ١٤٢ ، ٢٥٨
 خالد بن عبد الملك بن الحارث : ١٢٢
 خديجة (زوج الرسول عليه السلام) : ٢٧٦
 خرمه (امرأة مزدك) : ٣٢٤
 الخصبى النصيرى : ٢٣١
 الخضر (عليه السلام) : ٧٥
 الخطاب بن الحسين : ٣٠ ، ٣٠٩
 خولة بنت جعفر (الحنفية) : ٥٤
 الخوارزمي : ٣٥٢
 الخياط (الممتزلى) : ١٨١

(د)

داود (عليه السلام) : ١٦٣
 داود الجوارى : ٢٠٠
 داود بن علي (عم السفاح) : ١٢٣ ، ٢٦٠
 الدرزي : ٣٥٧ ، ٣٨٦
 دعبل بن علي الخزاعى : ١٣٩
 الدينورى (أبو حنيفة) : ٥١ ، ٥٣ ، ٣٩١

(ذ)

الذهبي : ٨٦ ، ١٦٢

(ر)

رادويه : ٩١

ربيعة بن عبيد أبي عبد الرحمن : ١١٦

الرشيد : ٢١٢

رفاعة بن قامة الناعطي : ٦٩ ، ٧٠

(ز)

الزبير بن العوام : ٣١ ، ٣٣ ، ٥٠ ، ٩٨

زرارة بن أعين (ويكنى أبو علي) : ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢١٣

زفر بن الهليل : ١٤٢

زكريا الأصفهاني الجوسي : ٣٤٠ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤

زكرويه مهرويه الدنداني : ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠

الزهرى (الإمام) : ١١٦

زهر الدين : ٢٩٢

زين العابدين . ٢٨ ، ٦٤ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ،

١١٢ ، ١١٤ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ٢٠٤

زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب : ٢٩ ، ٦٨ ، ١١٢ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ،

١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ،

١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٦١ ،

٢٠٩ ، ٢٣٠ ، ٢٦٦ ، ٣٧٣

زياد بن أبيه : ٣٩

زينب بنت علي : ١٠٣

زينب بنت فاطمة الزهراء : ١٠٣

زيد بن أسلم (مولى عمر بن الخطاب) : ١٠٩
 زياد الهندي : ١٢٨
 زينب الكذابة (التي ادعت أنها ابنة الحسين عليه السلام) : ٢١٥

(س)

سالم بن أبي حفص : ١٥٢
 سالم بن مكرم (أبو سلمة) : ٢٣٧
 سابور بن طاهر : ٤٧٩
 سدير الصيرفي : ١١٣
 سرجيوس : ١٨٨
 السري بن منصور : ٢٥١
 سعد بن عبد الله أبو خلف الأشعري القمي : ٣٨
 سعد بن عباد (سيد الخزرج) : ٣١
 سعد بن أبي وقاص : ٦٥
 سعد بن خيثم : ١٢٨
 سعيد بن عمرو الجرشي : ٢٦٨
 سعيد بن سلم : ١٤٢
 سعيد بن نجاح : ٣١٦
 سعيد بن عبد العزيز : ٢٥٨
 سعيد بن الحسين بن عبيد الله القداح (سعيد الخير) : ٣٢٢ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٦٢ ،
 ٣٦٣
 سعيد بن أبي سعيد (سعيد السني) : ٣٣١ ، ٣٣٢
 سعيد بن المسيب : ١٠٩ ، ١١٣ ، ١١٦
 سعيد بن جبير : ١٠٩ ، ١١٣
 سفيان بن عون : ٣٣
 سفيان بن سعيد الثوري : ١١٩ ، ١٢٩ ، ١٤٠ ، ١٥٠ ، ١٥١
 سفيان بن عينة : ٩٠

٤١٠

سقراط : ١٨٧

السكاك (تلميذ هشام بن عبد الحكم) : ١٨١ ، ٢٦٢

سليمان الداراني : ١٥٠

سليمان بن جرير الرقي (مؤسس السلمانية) : ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٥٧

سليمان بن صرد الخزاعي : ٢١ ، ٣٤ ، ٤٨

سلطان بوهر : ٢٨

سلمان الفارسي : ٣٠ ، ٣٥ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٧٨ ، ٢٨٠ ،

٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٦٠ ، ٣٧٧

سليمان بن قبة : ٤٧

سليمان بن عبد الملك (الخليفة الأموي) : ٦١ ، ٦٢ ، ١١٠ ، ٢٥٧

سلمة بن ثابت : ١٢٨

سليمان بن مهران الأعمش (الفقيه المشهور) : ١٢٩

سليمان بن جرير الجزري : ١٤٥

سليط بن عبد الله بن العباس : ٢٦٢

سلمة بن كهيل : ١٥٢

سليمان بن الحسن بن سعيد الجنابي : ٣٣٢ ، ٣٣٨

سليمان بن عبد الله الرواحي : ٣١٣

سليمان بن كثير الخزاعي : ٢٥٨ ، ٢٥٩

سماك بن حرب : ١٥٠

سنباذ الجوسي : ٢٦٢ ، ٣٢٤

السنوسي (مهدي برقه) : ٢٣٠

السيد الحميري : ٧٦ ، ٧٧

(ش)

شاتنيل بن دانيال : ٣٤٥

شبيب بن داح : ٢٦٨

شرف الدين بن جعفر بن محمد بن حمزة : ٢٩٠

شريف بن عبد الله : ١٥١

شريك بن عبد الله : ١٦٢

الشعبي : ٥١ .

شمعون : ٢٨٧

الشهرستاني : ٤٠ ، ٤١ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٧ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٢ ،

٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١١٧ ، ١٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٦٥ ، ٣٥٥

شهربانويه (بنت يزدجر كسرى ، آخر الأكاسرة) : ١١١

(ص)

صائد النهدي : ٧٨ ، ٢٥١

صباح الزعفراني : ١٥١

صبرصر (داعية الإحساء) : ٣٤٥

صمصمة بن صرحان : ٢٣٩ ، ٢٤٠

صفوان الأنصاري : ٧٠

صفية (أم المؤمنين) : ١٠٩

صالح بن علي : ٣٣٣

صالح بن مدرك : ٩٥ -

(ض)

الضبي (الفضل بن محمد) : ١٤٢

(ط)

طاش كبرى زاده : ٦٠

الطبي : ٣٦ ، ٣٧ ، ٥١ ، ٦٩

طلحة : ٣٣ ، ٩٨ ، ١٥٣ ، ٢٠٥

طه شرف (دكتور) : ٣٩٤

الطبيب بن الأمر (الإمام المستور) : ٣٧٦

(ظ)

الظاهري (الإمام) : ١٩٠

(ع)

عائشة : ٩٨ ، ١٠٩ ، ١٥٣ ، ٢٤٢

عامر بن شراحيل الشعبي : ٣٧

عامر بن وائله الكنانى : ٥٦

عبد المطلب : ٤٤ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٣٦٠

عبد الله : ٤٤ ، ٢٤٣ ، ٣٦٠

العباس بن عبد المطلب : ٣١ ، ٦٧ ، ٢٥٥ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٤ ، ٢٧٣ ، ٣٣٥

عبد الله بن مسعود : ٣٢ ، ٦٦

عبد الله بن سبأ (عبد الله بن السوداء) : ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٧٥ ، ٢٤٦ ،

٢٨٢

عبد الله بن وهب الراسي الهمداني : ٣٨

عبد الله بن حرس : ٣٨

عبد الله بن عمر بن حرب الكندي : ٤٠ ، ٦٤ ، ٧٣ ، ٩٥ ، ٢٦١

عبيد الله بن زياد : ٤٦ ، ٤٨ ، ٦١ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٢٢

عبد الله بن الزبير : ٤٨ ، ٤٩ ، ٦٩

عبد الملك بن مروان : ٤٨ ، ٥٦ ، ٧٢ ، ١١٠ ، ٣٨٤

عبد الله بن عمر بن الخطاب : ٤٨ ، ٩٥

عبد الله بن عباس : ٤٨ ، ٤٩ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨

عبد الله بن محمد بن الحنفية (الإمام أبو هاشم) : ٥٣ ، ٥٤ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٨ ،

٧٢ ، ٧٥ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٩٦ ، ٩٩ ، ١٠٨ ، ١٢٢ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ، ٢٤٦ ، ٢٥٧ ،

٢٥٨ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٥ ، ٣١٩ ، ٣٥١ ، ٣٥٧

عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب : ٦٤ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ،

٩٩ ، ١١٢ ، ٢٣١ ، ٢٥٢ ، ٢٦٥

عبادة بن الحارث (ابن التواحه) : ٦٦

عبد الله بن نوف : ٦٩ ، ٧١

عبد الله بن شريك النهدي : ٦٩

- عبد بن جعفر : ٩٤ ، ٩٥ ، ١٤٠ ، ٢٠٣
عبد الله بن الحارث : ٩٦ ، ٩٨
عبد الله بن الأحمر : ١٠٧
عبد الله بن أبي رافع (كاتب علي) : ١١٦
عبد الله بن المبارك الصوفي : ١٢٠
عبد الله بن الحسن بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب : ٨٣ ، ١٢٦ ، ١٢٩ ، ١٣٢ ،
١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٥ ، ١٦٢ ، ٢٥٥
عبد الله بن مسلم بن بابل : ١٢٧
عبد الله المبارك (الزاهد المشهور) : ١٢٨
عبد الرحمن بن أبي ليلى : ١٢٩ ، ٢٨٨
عبد الله بن عطاء : ١٤٠
عبد الرحمن بن أبي الموالي : ١٤٠
عبد الله بن محمد سفيان الثوري : ١٤٣
عبد الله بن زرارة : ٢٠٣ ، ٣٦٢
عبد الله الأفطح : ٢١١ ، ٢٧٧
عبد الله بن الحارثية : ٢٥٧ ، ٢٥٩
عبدان (الداعي) : ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣٤
عبيد الله سعيد القداح : ٣٢٧
عبد الله بن سعيد بن الحسن : ٢٦٨ ، ٢٩٢
عبد الله بن ميمون القداح : ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩٢ ،
٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣٢١ ، ٣٤٩ ، ٣٥٧ ، ٣٦١ ،
٣٦٨ ، ٣٧٨
عبد الله الرضي : ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٣٥٧ ، ٣٧٨
عبد الله بن المبارك : ٢٩٢
عبيد الله المهدي بن القداح : ٢٩٧ ، ٣٠٩ ، ٣١٣ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ،
٣٣٠ ، ٣٣٣ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٦ ، ٣٧١ ، ٣٧٤ ، ٣٨٢
عبيد الله الشيعي : ٣٠٩

عبد الله بن حمدان : ٢٩٢

عبد الله بن عيسى بن محمد بن إسماعيل بن جعفر : ٣٢٧

عبد الجبار (القاضي) : ٣٤٣ ، ٣٧٢ ، ٣٩٤

عبد العزيز الدودي (دكتور) : ٣٩٤

عبد الرحمن بن ملجم : ٤٤

عبد الله بن الحر : ٥٠

عتبة بن أبي لهب : ٣١

عثمان بن عفان : ٢٣ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٩ ، ٥١ ، ١٣٣ ، ٢٣٩

عثمان الطويل : ١٢٨ ، ١٤٢

عثمان بن سعيد : ٢١٧

عجلان بن ناووس : ٢١١

عدى بن كعب : ٣٢

عقيل بن أبي طالب : ٢٨٠ ، ٢٩٤ ، ٣٢٥

علي بن أبي طالب : ٢١ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤١ ،

٤٣ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٧ ، ٦٥ ، ٧٥ ، ٧٩ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ١٠٣ ، ١١١ ،

١١٢ ، ١٢٢ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٤٧ ، ١٦١ ، ٢١٤ ، ٢٢١ ، ٢٣٠ ، ٢٤١ ،

٢٤٦ ، ٢٥٥ ، ٢٦٠ ، ٣٢٢ ، ٣٥٢ ، ٣٦٠ ، ٣٦٣

علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (زين العابدين) : ٢٨ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٨٨ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ،

١٠٥ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٦ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٣٤ ، ١٦١ ،

٢١٢ ، ٢١٨ ، ٢٢١ ، ٢٢٥ ، ٢٥٨ ، ٢٦٥ ، ٣٢١ ، ٣٥٩ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤

علي بن موسى بن جعفر (علي الرضا) : ٢٨ ، ٩٥ ، ٢٠٦ ، ٢١٣ ، ٢٨٩

علي بن محمد الهادي (علي الهادي) : ٢٨ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٢٠

علي الوردى (دكتور) : ٣٩

علي بن محمد العباسي : ٦٣

علي بن أيوب بن الأوبر (داعية واصل بن عطاء) : ١٤٠

علي بن إسماعيل بن شعيب بن ميثم الثمار : ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢

علي بن منصور : ١٧٣ ، ١٩٤

- على بن هيثم : ١٩٤ ، ٢٠١
 على عبد الواحد وافي (دكتور) : ٧٥
 على محمد بن علي الباقر : ٢٢٠
 العلياء بن ذراع الدوسي أو الأسدي : ٢٤٧
 على بن فضل : ٣٠٨ ، ٣١١ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣٢٤
 على بن عبد الله بن ميمون : ٣٢٥
 على بن عبد الله بن العباس : ٢٦٢ ، ٣٢١
 على بن أحمد السموقى (المكفى بالمقتنى بهاء الدين) : ٣٤٦ ، ٣٤٧
 عمر بن الخطاب : ٢٣ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٤١ ، ٤٧ ، ٦٦ ، ٨٥ ، ٩٨ ، ٢٥٤
 عمار بن ياسر : ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٢٣٩ ، ٢٨١ ، ٢٨٢
 عمر بن سعد : ٥٢
 عمر بن بيان العجلي : ٨٠ ، ٢٤٣
 عمير بن بيان : ٨٠
 عمار بن حمزة : ٩٤
 عمرو بن عثمان بن عفان : ١٠٧ ، ١٠٩
 عمر بن عبد العزيز : ١١٠ ، ١١٢ ، ٢٥٨
 عمرو بن دينار : ١١٦
 عمر بن قيس الماصر : ١٣٦
 عمرو بن عبيد : ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٧١ ، ٢١٨
 عمرو بن العاص : ١٥٥ ، ٢٤٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٥
 عمار بن بديل : ٣٥٠
 عمار الدين إدريس : ٢٨٢
 عنبة النواوس : ٢٣٢ ، ٢٧٥
 عيسى بن مريم : ٢٣ ، ٣٦ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢٥٣ ، ٣٤١ ، ٣٤٢
 عيسى بن زيد : ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٩ ، ١٥٠
 عيسى بن موسى : ١٤٢ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٦١ ، ٣٤٥
 عيسى أبى منصور شلقان : ٢٣٢

(غ)

الغزالي : ٢٩٤

(ف)

الغافق بن علي بن فضل (ابن رب العزة) : ٣١٣

فاطمة الزهراء : ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٤٦ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٩٥ ، ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ،

١٢٥ ، ١٣٠ ، ١٥٠ ، ٢٤٣ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٣ ، ٢٥٨ ، ٢٦٥ ، ٢٧٣ ، ٢٧٦ ،

٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٤ ، ٣٦٧ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٧ ، ٣٨٠

فاطمة بنت أبو مسلم الخراساني : ٣٢٤

فخر الدين الرازي : ٢٥٤ ، ٢٨٧ ، ٣٥١

الفرزدق : ١١٢

فرعون : ١٩٦

فريد الجعوسى : ٢٦٨

الرج بن عثمان القلشاني : ٣١٩ ، ٣٣٠

فيروز بن فاطمة بنت أبي مسلم الخراساني (حفيد أبي مسلم) : ٢٦٨ ، ٣١١ ، ٣٢٤

الفضل بن محمد الضبي : ١٤٢

فضيل بن الزبير الرسان : ١٤٩

فورلاني : ١٨٨

(ق)

القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق : ٣٢٦

القاسم رستم بن الحسن حبيب بن رادان : ٣٠٨

قصاب غالي : ٩١

القعقاع بن زرارة : ٤٤

(ك)

- كامل مصطفى الشبيبي (دكتور) : ٣٩ ، ٨٩ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٠٨ ، ١١٢ ، ١٢٠ ، ٢٤٥
 كثير بن عبد الرحمن (كثير عزة) : ٧٤
 كريم خان (زعيم طائفة الإسماعيلية التزارية) : ٢٩
 الكراجلي (من شيوخ الرافضة المتأخرين) : ١٦٩
 الكرمانى (كاتب رسائل إخوان الصفا) : ٣٠٦
 الكشي : ٢٣٢ ، ٢٤٨
 كعب الأحبار : ٧٥
 الكمبي المعتزلي : ١٧٣
 كميل بن زياد (صاحب الإمام علي) : ٢٤٧
 كيسان : ٥١ ، ٥٢

(ل)

- ليل بنت قامة المزينة الناعطية : ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٩ ، ٨٧ ، ١١١

(م)

- مالك الأشتر : ٣٣
 ماسينيون : ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٤٨ ، ٣٥٨ ،
 مالك بن أنس : ١٤٣ ، ١٥١ ، ٢١٨
 المبارك العكوي (مولى جعفر الصادق) : ٢١١ ، ٢٨٤ ، ٣٢٠
 المتوكل : ٢١٤
 محمد ﷺ : ٣٢ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤١
 محمد بن علي بن أبي طالب (محمد بن الحنفية) : ٢١ ، ٣٥ ، ٤٣ ، ٤٧ ، ٧٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ،
 ٥١ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٢ ،
 ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١٢٩ ،
 ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٧ ، ٢٥٦ ، ٢٦٠ ، ٢٦٥ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٣١٩

٣٢٧ ، ٣٥١ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦١ ، ٣٦٤
 محمد بن علي بن الحسين (محمد الباقر) : ٢٨ ، ٥٠ ، ٧٨ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٧ ، ١٠٨ ، ١١٠ ،
 ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٩ ،
 ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٤٧ ، ١٥٤ ، ١٦٢ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢١ ، ٢٨٧ ، ٣٠١ ، ٣٦١

محمد بن الفضل : ٢٤٤

محمد بن علي الجواد : ٢٨ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٢٠

محمد المنتظر (الإمام) : ٢٨

محمد بن أبي بكر الرازي : ٣٧ ، ١١١ ، ٣٤٨ ، ٣٥١ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٢

محمد بن أبي حذيفة : ٣٧

محمد بن الأشعث الكندي : ٤٩

محمد بن علي بن عبد الله بن عباس : ٦٢ ، ٦٣ ، ٩٩ ، ١٢٩ ، ٢٢٠ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ،

٢٥٩ ، ٢٦٥ ، ٣٥٧ ، ٣٦٢ ، ٣٦٥

محمد بن مقلص أبو زينب الأسدي الكوفي الأجدع الزرادي (ويكنى تارة بأبي الخطاب الأسدي

وتارة بأبي الظبيان وثلاثة بأبي إسماعيل) : ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ،

٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ ،

٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٧ ، ٢٩٧ ، ٣٤٨ ، ٣٥٧ ، ٣٩٣

محمد عبد الهادي أبو ريذة (دكتور) : ١٨٨

محمد بن علي بن النعمان (أبو جعفر الأصولي — مولى بجيلة) : ٢٠٤

محمد بن جعفر الراخي (شيطان الطاق) : ٢٠٥ ، ٢٠٦

محمد نعمان : ٢٠٥ ، ٢٠٧

محمد بن الحسن بن روح : ٢١٧

محمد بن حسن المهدي : ٢٢٠

محمد بن حسن العسكري : ٢٢٧

محمد بن أبي زينب الأسدي الأجدع : ٢٣٨

محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق (الإمام المستقر — صاحب الزمان) : ٢٣٨ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ،

٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ،

٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥ ،

٣٢٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٩ ، ٣٦١ ، ٣٦٥ ، ٣٧٠ ، ٣٧٥ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٣٨٤

محمد بن أبي الفضائل الحمادي البجلي (أحد فقهاء السنة) : ٣١١

محمد بن زكريا الرازي : ٢٩٦ ، ٣٨٠ ، ٣٨٢

محمد بن الشلعل : ٣٠٨ ، ٣٥٠ ، ٣٦١ ، ٣٦٧ ، ٣٦٩

محمد بن علي الصليحي : ٣١٣

محمد بن علي الشلمغاني (المعروف بابن أبي العذافر) : ٢٤١ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩

محمد جابر عبد العال (دكتور) : ٦٦

محمد بن عبد الله بن الحسن (النفس الزكية) : ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ٩٩ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ،

١٤١ ، ١٤٣ ، ١٤٩ ، ١٦٢

محمد بن جعفر بن أبي طالب : ٩٤ ، ١٤٥

محمد بن زاهد الكوثري : ١٠٣

محمد بن إدريس الشافعي : ١١٠ ، ١٥١

محمد أبو زهرة : ١٢٢

محمد بن عجلان : ١٤٠

محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين : ١٤٥

محمد بن القاسم بن عمر بن علي بن الحسين : ١٤٩

محمد بن إيمان الكوفي : ١٥٤

محمد بن عبد الله الإسكافي : ١٥٥

محمد بن عبد الله بن سيرة : ١٨٢

محمد بن عبد الله بن مهران : ٢٤٥

محمد الديباج : ٢٨٤

محمد بن بشير : ٢٥١

محمد بن نصير التميمي : ٢٥٣ ، ٢٥٤ ،

محمد بن خنيس : ٢٥٨

محمد بن عبد الله بن جعفر المنصور : ٢٦٠

محمد بن الحسين (الملقب بدندان) : ٢٩٣ ، ٢٩٦ ، ٣٦٨

محمد المكنى بأبي القاسم : ٥٦ ، ٧٢

عجى الين بن عرى : ٣٨٦

المختار بن أبى عبيد الثقفى : ٣٥ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ،

٥٨ ، ٦١ ، ٦٨ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١١٤ ، ١٢١ ، ٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٥٦ ،

٢٦٥ ، ٣٦٤ ، ٣٨٨ ، ٣٩٣

غمارق بن موسى (مولى بن يشكر) : ٩٦

مروان بن محمد : ٩٦ ، ٢٥٩ ، ٢٦٤

مروان بن الحكم : ١٠٩

المرزى : ٣٢٠

مسلم بن عقبة : ١٠٤

المسور بن مخرمة : ١٠٩

مسلم بن أبى واصل : ١٤١

مسعر بن مكدام : ١٤٢

المسعودى : ٣٢ ، ٣٤ ، ٣٢٧

مسلم بن عقيل : ٣٠٨

مسيلة المتنى الكذاب : ٦٦

مصعب بن الزبير : ٤٩ ، ٦٩

مطيع بن إياس : ٩٤

معاوية بن أبى سفيان : ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٩ ، ٤٢ ، ٤٦ ، ٥٤ ، ٥٧ ، ٢٤٢

معاوية بن إسحاق الأنصارى : ١٢٨

المعز لدين الله : ٢٩١ ، ٣٤٥

معمر بن خيثم : ٢٤٢

المغيرة بن سعيد البجلي أبو عبد الله الكومى : ٨٢ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩١ ، ١٢٦ ، ٢٥١

محمد بن أبى الفضائل الحمادى اليمانى (أحد فقهاء السنة) : ٣١١

المفيد محمد بن النعمان : ٣٩٣

المقداد بن الأسود : ٣٠

المقرزى : ٢٤٢

المقداد بن عمرو (الصحابى المشهور) : ٢٥١

ميكائيل : ٤٤ ، ٥٢

الملطى : ١٥٤

مليكة بنت يشوع بن قيصر ملك الروم : ٢١٦

منصور بن أبى الأسود : ١٤٩

منصور بن المعتز : ١٢٨ ، ١٢٩

المهدى العباسى : ١٤٤ ، ١٥١ ، ٢١٢

مؤمن الطاق : ٢١٣

موسى الهادى : ١٤٤

موسى الكاظم (بن جعفر الصادق) : ٢٨ ، ١٤٤ ، ١٩٥ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٧ ، ٢١٢ ،

٢٢٠ ، ٢٧٥ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٣٦١ ، ٣٦٦

موسى بن عمران (عليه السلام) : ٢٨ ، ٣٥ ، ٣٨ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٧٥ ، ٢٨٦ .

٢٨٧ ، ٢٩٨ ، ٣٠٤ ، ٣١٩ ، ٣٢٢ ، ٣٨٤

ميمون القداح : ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٤ ، ٢٩٣ ، ٣٢٢ ، ٣٢٥ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٥٨ .

٣٥٩ ، ٣٦١ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٧٨

(ن)

..

ناصر خسرو : ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١

نرجس خاتون : ٢١٦

النسائى : ٦٠

نصر بن خزيمه العيسى : ١٢٥ ، ١٢٨

نصر بن سيار (عامل مروان بن محمد) : ٢٦٣

نصر بن محمد السامانى (أمير خراسان) : ٣٧٨ ، ٣٧٩

نعيم بن ايمان : ١٥٤

النعمان (القاضى) : ٢٩٨

نوح (عليه السلام) : ٣٢ ، ٣٥ ، ٧٣ ، ١٠٦ ، ٣٠٦

النويختى (أبو محمد الحسن بن موسى) : ٣٨ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٢٦ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ٢٤٢

نوح بن نصر : ٣٧٩

النويرى : ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥ ، ٣٣١ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩
النيسابورى : ٣٢٨ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣

(هـ)

هارون (عليه السلام) : ٢٨ ، ٤٣ ، ٢٥٤
هارون الرشيد : ١٤٥
هارون بن سعيد العجلي : ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٦٣
هارون بن أحمد بن طولون : ٣٢٨
هاشم بن حكيم المروزى : ٢٦٦ ، ٢٦٧
هبة الله الشيرازى (داعى المستنصر) : ٣٨٢
هرمانيوس بن برديسان : ١٨٨
هشام بن عبد الملك : ٨٩ ، ١١٢ ، ١٢٣ ، ١٢٨ ، ١٣٨ ، ٢٠٤ ، ٢٥٩
هشام بن الحكم : ١٣٢ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ،
١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ،
١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ،
٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢١ ، ٣٨٨ ، ٣٩٢
هشام بن سالم الجواليقي : ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٨٢ ، ١٩٤ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ،
٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢١٢ ، ٢١٨
هشام بن عمرو الفوطى : ١٩٨
الهمداني (دكتور) : ٣٩٥
هند بنت المتكلفة الناعطية : ٦٩ ، ٧٠
هورتن : ١٨٩

(و)

واصل بن عصا : ١١٧ ، ١٢٦ ، ١٤٠
الواقدي : ٢٥٧
وكيع بن الجراح (المحدث المشهور) : ١٨٥

الوليد بن يزيد : ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٣٨

(ى)

ياسين بن حبيب النجار : ٤٣

يحيى بن الحسين بن القاسم (الإمام الهادي) : ١٣٧ ، ١٤٦

يحيى بن زيد بن علي : ١٣٨ ، ١٤٩ ، ٢٣٠

يحيى بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب (المشهور بصاحب الطالقان) : ١٤٤ ، ١٤٥ ،

١٥١

يحيى بن عمر : ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٩

يحيى بن زكريا : ١٤٤

يحيى بن هرثة : ٢١٥

يحيى بن المهدي : ٣٢٩

يحيى الطامي : ٣٢٩

يحيى بن أبي كثير : ١١٦

يحيى بن خالد البرمكي : ١٤٥

يحيى بن سعيد : ١٠٩

يحيى بن علي : ٢٦٩ ، ٣٢٩

يحيى بن زكرويه : ٣٢٦ ، ٣٢٧

يزيد بن عمر بن هبيرة : ٢٤٤

يزيد بن الوليد (يزيد الناقص) : ٢٢١

يزيد بن عبد الملك : ٢٥٨

يزيد بن معاوية : ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ١٠٤ ، ١٢٢

يزيد بن شراحيل : ٦٩

اليعقوبي : ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٦٢ ، ٦٦ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٩

١١٠ ، ١١١ ، ١١٣ ، ١٢٤ ، ١٢٦

يعقوب بن إسحاق : ٢٨٢

يعقوب بن علي الكوفي : ١٥٤

٤٢٤

يعقوب الرهاوى : ١٨٨

يوشع بن نون (وصى موسى) : ٨٩ ، ٤٠

يوسف بن عمر الثقفى : ٨٩ ، ٩٢ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٩ ، ١٩٣

يونس بن عبد الرحمن القمى : ٢٠٤

يوسف بن أبى الساج : ٣٤٣

يوسف بن الأمشح : ٣١٣

تم بحمد الله

١٩٩٦/٢٣٤٨	رقم الإيداع
ISBN 977-02-5229-8	الترقيم الدولى

١/٩٥/٦١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

فى هذا الكتاب يتتبع المؤلف الجليل نشأة الفكر الفلسفى لدى المسلمين ، ويرصد بدقة العالم وحياة المؤمن ، هذا الفيض المائل من الأفكار والنظرات والفلسفات التى نشأت من تمازج أفكار المسلمين فى شتى أقطار الأرض انتصاراً للقرآن والإسلام فى مواجهة فلاسفة اليونان .

والكتاب يقدم صوراً فائقة لفلاسفة المعتزلة : واصل بن عطاء وأبى الهذيل العلاف والنظام ومعمار بن عباد السلمى ، والمشبهة وأنكارها والمجسمة ومصادر فكرة التجسيم ، ويعالج فى الجزء الثانى نشأة التشيع ، ويكشف عن الحركات الشيعية الأولى . الكيسانية والمختارية ويتابع تطور التشيع فى فرق الغلاة ويكشف حقيقة القرامطة .

ولمضى الجزء الثالث يبحث نشأة الزهد ويبين أنه كان ذا طابع اسلامى وينبثق من روح القرآن والسنة ، كما يتناول التصوف والعوامل الإسلامية فى نشأته وتطوره.

كتاب بالغ الأهمية تفخر دار المعارف بتقديمه فى طبعة جديدة لقراء جدد .



دارالمعارف

٠٢٤٠٥١/٠١

